

منصف المرزوقي

الرحلة

مذكرات آدمي

دار منوال للنشر

PARADIGME EDITIONS



صدّر للمؤلف

الكتابات الطبية

- المدخل إلى الطب المندمج: الدار التونسية للنشر ومؤسسة البحث العلمي -1995-للأطباء والطلبة
دليل المرَبّي في التثقيف الصحّي: الدار الجزائرية للنشر 1986
سلسلة كتب التثقيف الصحي -الدار العربية- تونس 1984
تاريخ الطب للأطفال -دار أليف للنشر-تونس 1982

الكتابات السياسية

- لماذا سنطأ الأقدام العربية أرض المرَبّي: دار الرأي -تونس 1982
دع وطني يستيقظ: دار المغرب العربي -تونس سنة 1986
الاستقلال الثاني-دار الكنوز الأدبية. بيروت 1996
هل نحن أهل للديمقراطية؟ - دار الأهالي -دمشق 2001
من الخراب إلى التأسيس -المركز المغاربي -لندن 2003
عن أية ديمقراطية نتحدثون؟ - دار الأهالي -دمشق 2004
حتى يكون للأمة مكان في هذا الزمان - دار الأهالي دمشق -2006
إنها الثورة يا مولاي - الدار المتوسطية - تونس 2011
اختراع الديمقراطية - التجربة التونسية-شركة المطبوعات للنشر-بيروت 2014
ننتصر أو ننتصر -من أجل الربيع العربي-الدار المتوسطية - تونس 2014
المراجعات والبدائل: المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية -الدوحة 2022

الكتابات الفكرية والأدبية

- في سجن العقل -أقواس - تونس 1990
حقوق الإنسان، الرؤية الجديدة -مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان - القاهرة 1996
الإنسان الحرام - قراءة في الإعلان العالمي لتحقيق الإنسان--دمشق 2003
الطبيب والموت-الدار التونسية للنشر. تونس 1983
الرحلة-طبعة دار الأهالي -دمشق 2002-، 2010، طبعة الدار المتوسطية تونس سنة 2015
شعراء بلا حدود: دار منوال، تونس 2018

بالفرنسية

- **L'arrache corps** : Essai sur l'expérimentation humaine en médecine - Edit alternatives. Paris 1979,
Traduction espagnole : El experimentacion en el ombre. Ed jugar Madrid 1982
- **Arabes, si vous parliez** - Ed, lieu commun. Paris 1987
- **La mort apprivoisée** - Ed du méridien. Montréal 1990
- **Le mal arabe** : Ed le Harmattan - Paris 2004
- **Dictateurs en Sursis** : Ed L'atelier - Paris 2009
- **L'invention d'une démocratie** - Ed media plus - Paris 2013
- **Qu'est-ce que le pouvoir ?** Éd paradigmes - Tunis 2019

الموقع على الانترنت

www.Moncefmarzouki.com

إلى حرّة، هناء، هالة، أمانة
وكل الأطفال المشاغبيين

الفهرس

تقديم كتاب الرحلة

الكتاب الأول: الاحرام والوصول

الكتاب الثاني: العالم

الكتاب الثالث: الطريق

الكتاب الرابع: بنو سفر

الكتاب الخامس: الغريب

الكتاب السادس: الملحمة

الكتاب السابع: الرؤيا

تقديم الطبعة الأخيرة لكتاب الرحلة

صيف 1994 خرجت من السجن لأجد نفسي محاصرا في بيتي، محروما من السفر قرابة خمس سنوات، شبه ممنوع من العمل في كلية طب سوسة التي كنت أدرّس فيها من بداية الثمانيات والتي سيتم عزلي منها نهائيا سنة 2000. قلت في نفسي ربّ ضارة نافعة. أخيرا كل الوقت للتفكير والكتابة.

الكتابة نعم، لكن في أي موضوع؟ الديمقراطية، حقوق الإنسان؟ الثورة؟ مواضيع أرهقتني كثيرا وكنت أريد وضعها جانبا ولو لبعض الوقت.

المواضيع الطبية؟ بأي معطيات وقد تمّ -في إطار التنكيل الممنهج من طرف النظام الاستبدادي -حلّ قسم الطب الاجتماعي الذي كنت رأسه وأشرف فيه على أبحاث طلبتي مساعدي؟

لم يبق أمامي.... إلا الكتابة الأدبية !!

هي ليست بحاجة لمعطيات ثم هي ستسني لي لحظة هموم السياسة وتروّح عن النفس كربها.

قلت نفسي لماذا لا أكتب للتسلية رواية...ولماذا لا تكون تحديدا من الخيال العلمي؟

يقال " إذا عُرف السبب بطل "العجب والسبب في قضية الحال نهم قديم لهذا النوع من الأدب أدمنته إبان المراهقة. يُتخذ القرار ببعض الرهبة لتتعرضني أصعب إشكالية: أي عقدة لروايتي؟

قلت لتكن عن نزول بعثة كائنات جدّ متطورة جاءت من مجرة العنقرب واكتشفت الأرض بعد أن دمّرها البشر وانقرضوا.

فكرة مبتدئين استنفذت ألف مرة ومرة من قبل ما لا يحصى ولا يعدّ من صغار وكبار كتاب الميدان.

إذن لأجعل المستكشفين يسقطون على النصّ الذي سأترك ليعطيهم فكرة عن الكائنات التي سكنت هذا الكوكب وخاصة عن ظروف وأسباب انقراضها.

تطوّر إيجابي لكنه غير كافٍ لرواية تمشي بذكرها الركبان.

ماذا لو جعلت من المستكشفين القادمين من وراء أبعد مجرات الفضاء تجار آثار مهنتهم اكتشاف العوالم المندثرة لإحيائها وبيعها لأثرياء مجرّاتهم المولعين بتكديس العوالم المنقرضة كما يفعل بعض أغنياء البشر عندما يشترون الآثار المهربة لتزيين حدائقهم وصالوناتهم الفاخرة؟ لأجعلهم يجدون في نصي كل المطلوب لإعادة إحياء العالم الذي عبّرت، ولما لا لبعثي حيا أرزق من جديد.

هل يمكن لأحد المزايدة عليّ وقد تجاوزت بهذه الفكرة كل الخطوط الحمر للعلم والدين؟

المشكلة من البداية أن هؤلاء التجار-العلماء بأمنّ الحاجة إلى أقصى قدر من المعلومات وأدقّها حتى لا أكون سببا في خلق عالم ممسوخ يشقى فيه البشر أكثر مما تعذبوا في النموذج الأصلي.

من أين لي جمع المعطيات الضرورية عن العالم الذي سيتكلّف رواد الفضاء اللامتاهي بإعادة خلقه وأغلّبها مبعثرة في فوضى رهيبة داخل ذاكرتي. تصوّر مكتبة تكّست فيها على مر السنين والعقود آلاف الكتب والمجلات والأوراق والصور والأقراص المعدنية ولا وقت أبدا لتنظيمها.

أضف لهذا أنه لكي تكون لمعطياتي قيمة في عملية البعث هذه، يجب أن أكون أنا نفسي فاهما طبيعة وقوانين العالم المراد بعثه والحال أنني لا أزداد بها علما إلا وداهمني الدوار وأنا أدرك كم أنا بها جاهل.

شيئا فشيئا تراجعت فكرة كتابة رواية من الخيال العلمي ليتم التحلي عنها نهائيا في هذه الطبعة والطموح ينحصر في تفحص ما تراكم داخل ذاكرتي من أحداث شكّلت قصة حياتي واسترجاع أهمّها لعل شيئا من المعنى ينبثق منها ليفسّر قل ليبرّر سبب وجودي.

النص إذن سيرة ذاتية؟

من أين لي إنكار أن أغلب معطياته مستمدة من تجربتي الشخصية، أن مشاعر وأفكار الراوي هي أغلب الوقت مشاعري وأفكاري؟

إلا أن من تقاليد كتابات السيرة الذاتية تحديد المكان والزمان للأحداث التي يرويها الكاتب، مع احترام تسلسلها الزمني، وكل هذا غائب تماما في النص.

خاصية قارّة أخرى لكتابات السير الذاتية أي ادعائها أنها تروي الأحداث كما حصلت فعلا وهو ما لا ادّعيه مطلقا. أذكر حقّا أنني كنت عاكفا على لوح في الكُتاب وأنا لم أتجاوز الخامسة، أعيت برسم أشكال جديدة للحروف التي بدأت أتعلمها فصرخ في وجهي المؤدّب بشدة لألتزم بكتابة حروفه هو لا حروفي أنا. لكن هل كنت فعلا أبحث عن تجديد أبجدية لغة الضاد أم كنت أهو ككل طفل في ذلك العمر؟

أذكر كذلك أنني كنت ألعب لعبة المدرس مع والدتي القنفا الحروف التي اتعلمها في الكتاب. لكن هل كانت هي التي لم تدخل مدرسة تعول علي فعلا لتتعلم قراءة المصحف الذي كان لا يفارقها؟

أذكر جيداً أنها قالت لي يوماً ضاحكة إنني كدت أصنّف متخلفاً ذهنياً عند دخولي المدرسة الابتدائية، قبل اكتشاف ضعف بصري ووضع نظارات على أنفي وأن والذي غضب غضباً شديداً لما علم بالقصة. لكن هل نصحتها المعلم بأخذي لتعلم رعي الخرفان عند أخوالي أوعى البعير عند أعمامي كما أروي في النص؟

أليس هذا حال كل السير الذاتية التي يكتبها أصحابها والتي يكتبها المؤرخون لعلياء القوم، والكل يتبارى في إنكار ما لا ضرورة لإنكاره، أي أن حياتنا، كما نعيشها وكما نرويها، مصنوعة بنفس القدر من الواقع ومن الخيال؟

نقطة اختلاف إضافية مع السيرة الذاتية.

خاصية النص التركيز على مقاطع محدودة من سيرورتي لإيماني أنها شكلت أهم التجارب التي لعبت دوراً أساسياً في تكوين شخصيتي وتصوراتي للعالم.

ليتحيل القارئ نفسه يتجول في متحف خصص رواقاً لأعمال الرسّام فان جوج Van Gogh وأنه توقّف طويلاً أمام لوحات شهيرة مثل "حقول القمح" و "المزهرية" و "باقة الورد" و "صورة مدام جيتو" و "على باب الأبدية" و "السجناء" و "فلاحون يأكلون البطاطس" و "الأذن المقطوعة" ... الخ.

سينتبه سريعاً أن هذه اللوحات المنفرقة الموضوعية جنباً لجنب والتي تبدو متنافرة المواضيع تروي في الحقيقة قصة حياة الفنان ... ومن خلالها تروي قصة الإنسان.

إنها منهجية كتابة النصّ والخيار رسم "لوحات حياتية" تختزل أهم مراحل الرحلة مع تجاهل أحداث لم يكن لها أهمية أو لم ينتبه الكاتب لأهميتها.

النص إذن ليس سيرة ذاتية بالمعنى المتعارف عليه، لكن هل فيه ما يجعل منه رواية أدبية بعد التخلي عن طموح تصدّرها قائمة روائع أدب الخيال العلمي؟

حقاً توجد فيه جلاّ العناصر المطلوبة في كل رواية أكانت أسطورة مقدسة أو قصة بوليسية.

كما هو الحال في كل رواية، الراوي مزيج من الأنا ومن شخص خيالي ومن ثم التغيير المتواصل لضمير الفاعل. هو رجل مرهق يجلس في خريف حياته لذاكرته يستخرج منها كل ما حفلت به من ملفات حول ما رأى وما جرّب وما فكّر فيه وما تخيل طيلة الحياة.

كما هو الحال في كل رواية يجد القارئ في هذا النص -بعد الوصف المطول لكل ما عانى البطل من آلام وعرف من مصاعب- خاتمة بل وسعيدة أيضاً.

لرسم صور أبطال القصة عرفت من طبائع بعض من عرفتُ وعاشتُ من البشر، لكنني عرفت أيضاً من خيالي ومن شخصيات أبطال كبرى الروايات العربية والعالمية التي طبعتني بطابع لا يمحي.

خاصية أخرى وفضل للرواية أنها تسمح بتوسيع مجال السرد إلى الأقصى إذ لم يعرف للسيرة الذاتية على ما تحفل به عادة من أكاذيب ومغالطات التبخر في وصف خروج الراوي من الرحم فما بالك لحظات دخوله القبر.

يبقى أنه من الصعب رغم كل هذا تصنيف ما ستقرأ رواية.

القاسم المشترك بين هذه الأخيرة والسيرة الذاتية أن الراوي يحكي في الصنف الأول قصة حياته وفي الصنف الثاني قصة شخص ثانٍ، ولو أنه عادة شخصه تحت أقنعة أخرى.

وفي الشكلين من النادر أن يطرح الكاتب مغزى الحياة كقضية أساسية أو أن يكون هاجسه البحث في الأسئلة الكبرى التي يثيرها وجود البطل وبقية بشر القصة.

إنها إشكالياتٌ إما غائبة تماماً أو يقع التعرض لها عرضاً وتلميحاً. كيف لا وهي في التقسيم المصطنع الذي اختلقناه للتفريق بين ميادين الفكر من مشمولات كتب الفلسفة الجادة (الموقوفة كتابة وقراءة على النخب) أو من وظائف الدين (أي الشكل الأدبي والشعبي للفلسفة). لذلك لا مجال في السيرة الذاتية والرواية للتنظير الفلسفي إلا بصفة عرضية وبتقدير شديد.

حتى دستويفسكي المعروف بكثرة استطراداته الفلسفية كان يحترم هذه القاعدة.

العكس تماماً هو ما يفعله أو -بالنسبة للبعض- ما يرتكبه النص. هو من البداية إلى النهاية في مواجهة مع ما سماها الكاتب الكبير الأسئلة اللعينة والتي أخرجها إيليا أبو ماضي أجمل صيغة في طلاسمة الشهيرة، أي طبيعة هذا العالم وسبب وجوده ووجودنا. فالعقدة في النص وخاتمتها السعيدة اكتشاف اللغز الكبير لوجود الراوي، الشيء الذي يمكّنه من مواصلة نفسه الموجودة بأن حياته مثل موته ليست عبثاً.

هل "الرحلة" إذن أطروحة فلسفية؟

بداهة لا يمكن وضع النص في خانة الفلسفة لأنه حافظ كما رأينا على أهم عناصر الرواية في جزء منه وفي جزء آخر على بعض مكونات السيرة الذاتية. لكنه بما لا يدع مجالاً للشك رؤيا تتشكل تدريجياً سعياً للإجابة عن أسئلة من صميم الفكر الفلسفي والديني.

يصبح السؤال أي نصّ هذا الذي يجمع بين ميادين بمثل اختلاف السيرة الذاتية والرواية والاطروحة الفلسفية؟ مرة أخرى الحدود بين ميادين الفكر وداخل كل ميدان مصطنعة ومؤقتة والدليل أن الكاتب، كالمفكر، كالفنان، لا يتوقف عن البحث عن صيغ وأساليب ومضامين جديدة للتعريف برويئته لأمهات القضايا التي تشغل الإنسان من الأزل.

ليكن إذن أن النص، شكلاً ومضموناً، جزء من هذا الحراك الفكري الذي بدونه لا جديد تحت الشمس في أي ميدان. في آخر المطاف، أي أهمية أن يكون سيرة ذاتية أو رواية أو أطروحة فلسفية، وهو كل هذه الأشكال الأدبية في نفس الوقت؟ ليس المهمّ بالنسبة للكاتب المتعة التي يجدها في كتابة نصوصه والأهمّ -دوماً بالنسبة إليه- أن يجد قارئه نفس المتعة في قراءتها؟

هذا بالضبط طموح النصّ. كل الأمل إذن أن يجد القارئ متعة في التجول بين "لوحات" الرحلة المرسومة بالحروف لا بالريشة والألوان.

خاصية أخيرة لهذا النص الصعب التصنيف.

هو متواصل الكتابة منذ أكثر من ربع قرن.

كنتُ أعتنم-حتى وأنا في الحكم، كل الفرص بين اجتماعين، بين سفرتين، بين أزمتين سياسيتين-للاختلاء بالنص ولا مُعين إلا القهوة وموسيقى باخ.

نتيجة الانقلاب الذي حصل في تونس صيف 2021 والحكم عليّ بأربع سنوات سجن غياباً، ها انا من جديد في المنفى ولي كل الوقت لمراجعة الطبعة السابقة التي صدرت ورقياً في دمشق سنة 2002 و2010 ثم في تونس سنة 2014 والتي تغيرت لا يحصى من المرات في الصيغ الالكترونية.

أسباب هذه الكتابة التي لا تتوقف؟

هناك طبع صاحبكم من عدم الرضا عن كل ما يكتب، يلاحق ناشراً متزايد نفاذ الصبر حتى والكتاب في المطبعة.

لا شك ان سهولة الإضافة والحذف والتصنيف التي تسمح بها التكنولوجيا الحديثة عنصر مسهل ومغري لم يكن في متناول طه حسين وهو يملي "الأيام"، وليس للمستكتب إلا الورق والقلم والمحريرة.

وأيضاً أن الحياة بتجاربيها المتلاحقة لا زالت متواصلة ومن ثمّ ضرورة مواكبة النص لموضوعه...مما يعني أن

"الرحلة" لن تكتسب شكلها النهائي إلا عندما أضع على هذا الموقع آخر طبعة عشية الرحيل النهائي.

كل أمني أن يكتشف القارئ أن رحلتي هذه في التفاصيل والمتغيرات رحلة ذات وفي العموميات والثوابت رحلته ورحلة كل ذات.

**

الكتاب الأول

الإحرام والوصول

جِئْتُ لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ وَكَيْفَ أَتَيْتُ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيقاً فَمَشَيْتُ
وَسَأَلْتُ مَا شِئْتُ إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمَّ أَبَيْتُ
كَيْفَ جِئْتُ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي
أَلَسْتُ أَدْرِي
إِيلِيَا أَبُو مَاضِي

مقدمة الكتاب الأول

"اللهم أتمم هذه الرحلة على خير."

همس الرجل بالجملة ساهماً، ثم تنهّد مواصلاً ارتداء أسماله على مهل.
كان عجوزاً قاب قوسين أو أدنى من الموت، ولم يكن لي أو له أدنى أمل في شفاء.
أذكر أنني توقفت عن كتابة الوصفة، أنني نظرت إليه بانتباه، أن كلمات تدافعت من أعماق الذاكرة للمعري وله أكثر من بيت في نفس المعنى، منها قوله:

غدوت مع الأحياء مذحان مولدي إلى اليوم ما نفلت في دأب سفرا
وقوله:

أنا بالليالي والحوادث أخير سفر يجذبنا وجسر يعبر
وقوله

وهوّن ما نلقى من البؤس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر

لم يكن المريض من النوع الذي يقرأ لرهين المحبسين وإنما كانت صلاته صدى لصورة بالغة القدم، كثيرة التكرار، تشارك فيها الأميون مع الفلاسفة وأكثر من شاعر:

"هيا لندع غمّ غد يا صاح (عمر الخيام)
ولنعتم العمر ببشر وهناك

إن نمض غدا فنحن في رحلتنا

والعائش بالألوف في الدرب سواء"

الحياة رحلة!

لم لا؟ ألا أنزل من بين فخذي امرأة كمسافر ينزل من أغرب السفن التي تحفل بها قصص الخيال العلمي؟
ألا نخترق العالم زحفا ومشيا وركضا وركوبا على ظهور دواب من لحم أو من حديد لنغادره يوما محمولين على مركبة اسمها النعش؟

أليس صحيحا أن الحياة استكشاف ما يحتويه العالم من ظواهر وأشياء وكائنات ومنها الذات، وأوفرنا حظا من ينهي حياته مألنا جرابه بأكبر قدر ممكن من المشاعر والأحاسيس، عائدا لصمت العدم بمعنويات السائح الذي اغتتم كل الفرص ولم تغشه وكالة الأسفار؟

كل هذا صحيح، لكن.... ثمة شيء في الصورة لا يستسيغه فكري.

هناك طبيعة عالم الرحلة. فيه حقا ما يُستكشف بالجسد، لكن جلّ استكشافه له كان لقمم الفن والفكر والموسيقى والأداة الذهن، لا غير.

إجمالا رحلة الحياة تجارب حسية شعورية فكرية قوامها الفعل في العالم والتفاعل معه وليس فقط مشيا على طريق يربط بين نقطة وصول اسمها المهد ونقطة نهاية اسمها اللحد.

رحلة الحياة أيضا استكشاف الذات لذاتها، وهذه ليست سفرة في مكان وزمان وإنما غوص بالفكر والخيال والذاكرة في الأعماق المجهولة التي يطفو الأنا الواعي على سطحها.

اعتراض آخر: في رحلة الحياة، أغلب تحركاتنا على الطريق كتشرد ورقة خريف تطوّح بها الريح في كل اتجاه حتى وأن كان من بيننا من يؤمن أن ورقة الخريف هذه هي التي ترسم مسار الريح.

ما المتبقي إذن من شرعية استعمال صورة كهذه؟

لنقل إنها على نواقصها أفضل من منافساتها، خاصة تلك التي تشبه الحياة بمحنة وامتحان أو كما قال المسعدي أنها "شرّ أقطع ما فيها أنها شرّ لا يدرك أنه عبث".

أليس من الأحسن لتوازننا النفسي أن نتصوّر العالم ساحة استكشاف والحياة رحلة فيه ولو في أصعب وأخطر الظروف بدلا من تصوّره منفى ووجودنا فيه محنة وامتحان وحتى عقوبة على جرم ربما لم نقترفه؟

ثم من أين لي مقاومة إغراء الصورة وقد شاءت الأقدار أن أدخل العالم والادميون يتدافعون فوق الأرض وفوق السحب، على سطح البحار وفي أعماقها، يذرعون العالم في كل اتجاه بكيفية لم تُعرف في أيّ من العصور السابقة وكأنهم رفعوا كلهم شعار الشاعر:

سافر تجد عوضا عن تفارقه
واني رأيت وقوف الماء يفسده
واتعب فإن لذيق العيش في التعب (الشافعي)
إن ساح طاب وإن لم يجز لم يطب
لملأها الناس من عرب ومن عجم
والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والعود في أرضه نوع من الحطب
والتبر كالترب ملقى في معادنه

الحقيقة أن الظاهرة وأن تصاعدت وتيرتها قديمة قدم البشرية بل يمكن القول إن تاريخ هذه الأخيرة ليس إلا تاريخ رحلاتها التي لا تحصى عبر أصقاع العالم.

أول حافز لتدافع الأدميين نحو الأفق خوفهم أن يؤكلوا أو الطمع في أكل لم توقره لهم عين المكان. هكذا تدافع الأوائل آلاف السنين أفرادا وشعوبا في الأرض ذات العرض والطول جريا وراء طريدة أو هربا من صياد. إنه واقع لم يتغير كثيرا، وكل ما تغير أشكال الصيادين والطراند. ثمة أيضا الفضول وليس فقط الخوف والجوع.

تنتشر الإشاعة كالنار في الهشيم في مخيمات الرّواد المبعثرة على سطح الأرض: يقال إن هناك وراء هذا البحر جبال تلامس قممها السحاب! يقال إن هناك وراء هذه الجبال بحر لا يعرف له ضفاف! يقال إن هناك في قارة أخرى غابات لا تدخلها أشعة الشمس! يقال إن هناك داخل هذه الغابات الخائفة كانتات أغرب من كل ما ينسج الخيال! يقال إن هناك على ضفاف نهر أبلاه الزمان جبال من حجر صنعها بشر لا أحد يعرف أيّ آلهة علمتهم صنع الجبال! يقال إن هناك على حدود العالم المعروف جدار يمتد آلاف الكيلومترات بناه قوم لا يضاھيهم بشر في التوحّش والتحصّر! يقال إن هناك وراء هذا السور أو تلك الجبال الشامخة بشر يشبهوننا ولا يشبهوننا وهم أغرب ما في هذا العالم الغريب.

هؤلاء البشر الذين يشبهوننا ولا يشبهوننا هم أيضا من يملكون ما لا نملك ومن ثم ضرورة البحث عنهم وراء كل بحر، كل صحراء وكل جبل لتبادل الأشياء والأفكار والجينات بوسائل السلم أن أمكن وبكل أساليب العنف إن تطلب الأمر.

للرحيل وازع آخر هو الحجّ لأماكن اصطفاها الأدميون للقاء من ضرب لنا فيها موعدا لا يُخلف... أيضا لالتقاط الأنفاس لحظة وهي الأماكن الوحيدة المنزوعة السلاح على الأقل طيلة الحجّ.

لا غرابة أن اقضى العمر في الحلّ والترحال ولنفس الأسباب القاهرة.

هكذا تدافعت مع المتدافعين، مستكشفا، طالب علم، سائحا، حاجّا، لاجئا، أشدّ الرحال لكلّ فج عميق اسمع عنه أو تدفعني إليه

الظروف القاهرة وكل همّي أن أملأ عيني من العالم كما يملأ الجائع بطنه من الطعام أو التاجر الجشع جيبه من المال.

عاجلا أو أجلا ترتطم بالتحدي الأول: اتساع الفضاء وبالتحدي الثاني: ضيق الزمان الذي خُصص لنا لاستكشافه.

عالم لا تستنفذه رحلة بطول الأبدية ولا يمنحك إلا قبسا من الزمان!

كيف لا ينتابك الإحساس بالظلم... لكن من قبل من؟

تتقدّم القراءة كنوع من الحلّ، كسفر بالوكالة والآخر من يحقق لك ما لم يمكّنك الظالم المستتر من تحقيقه.

تنطلق هذه القراءة باكرا يوم ننتبه إلى أن العالم لا يتوقف عند حدود بيتنا أو قريتنا أو بلادنا، أن مركزه ليس ذاتنا. تأتينا آنذاك رغبة عارمة في الخروج لرحابه الواسعة، عادة عبر قصص الرحلات، أسهل وأقصر الطرق إليه ونحن في كل مراحل العمر.

أليست بديلا عن السفارة التي لم تسعفنا الظروف للقيام بها؟ اليس الراوي لرحلته هو من تكلف كل مشاقها، موقرا علينا مصاعب والجليد وكل ما عانى من أخطار الطريق، لا ندري هل يجب أن نشكره لأنه هو الذي تكلف مشاق وأخطار الطريق أو أن نحسده لأنه هو الذي... تكلف مشاق الطريق وأخطاره؟

داخل ملفاتي المترامية كم من رحلة عشتها وأنا أكبر مغامر امتطى مطهم النصوص.

هكذا ارتحلت مع بحارة حتشبسوت نستكشف بلاد كوش وبونت... مع حنون نستكشف الشواطئ الغربية إفريقيا... مع ابن بطوطة لما خرج من طنجة ميّما وجهه نحو الشرق... مع ابن جبير إلى ذلك المرفأ النتن على ساحل البحر الأحمر أنتظر مركبا قاصدا البيت الحرام... مع الشيخ الأكبر والشريف الإدريسي والكناني البلنسي وابن سعيد الأندلسي وابن جزي وابن الخطيب وهم يتلمسون عبر أهوال البحر والصحراء طريقهم نحو الديار المقدسة، ومعهم اكتشفت معالم الطريق العظيم الذي حمل على مَرّ القرون أفواج الحجّاج والتجار والطلبة من المغرب إلى المشرق، وجحافل الغزاة والرعاة والدعاة من المشرق إلى المغرب.

هكذا ارتحلت مع المجريطي إلى بغداد والبصرة أنقّب عن رسائل اخوان الصفا أعود بها أثنى غنيمة... مع ابن فضلان أتأمل معه مشدوها أراضٍ بردها لا يحتمل شتاء ولا تعرف ما الليل عند مجيء الصيف... مع ابن سليم الأسواني وهو يستكشف بلاد النوبة... مع ابن البيطار من مالقة إلى دمشق عبر القيروان منقبا في أسرار النباتات... مع البيروني ابحث معه عبر ربوع الهند في معتقدات آدميها المقبولة منها والمردولة... مع التجاني أقارن بين ما رآه من قابس وتوزر ونفزاوة وبين ما أعرف عن ربوع ذرعتها منذ باكر الطفولة.

هكذا ارتحلت مع ماركو بولو نضرب في عرض وطول إمبراطورية كوبيلاي خان... مع ياو بحثنا عن جزر هو-تشيوي الخمس... مع هوان-شن-تاي ركضا وراء جزيرة الحقيقة... مع شنع-هي في سفراته السبع نحو شواطئ الجنوب والغرب... مع كولومب شعاري شعاره: أروغ السفرات تلك لا نعرف إلى أين سنقودنا... مع فزبوشي وماجلان وإلكانو وبارتوليميو دياز والقرصان فرانسيس درأك وجون سميث وكوك وبانكس وبوقنفيل ولابروس وكل من حركهم الجشع للذهب والتوابل أو لدرة صفراء اسمها العنبر سّماها الأوائل دمعة الآلهة.

هكذا ارتحلت مع بحارة نانتيكوت في أخطر وأبعد وأصعب بعثات الصيد، نجري وراء الحوت المسكين، نخرجه داميا من الأمواج نقطع أطنانا من لحمه، نغلي شحمه في قدور شيطانية، نعود ببقاياها، نقاسم أقدر الأرباح. هكذا ارتحلت على متن السفينة "البيجل" راقبت ما يخطه بعصبيّة رجل اسمه "داروين" ... مع بيرري وامندوس ونوبلي وشاكلتون أستكشفت القطبين.

هكذا ارتحلت مع ماجريت ميد وجامس فرازر وكلود ليفي شتراوس كان هدف الرحلة استكشاف أنماط غريبة من البشر نحاول الردّ على سؤال وهاجس: هل عادات ومعتقدات "البدائيين" والمتوحشين" هي طبيعة الأوائل، النواة الصلبة للطبيعة البشرية التي لم تفسد بعد، أم هل هي حالة "التطور" الذي توقّف عندهم واكتمل عند المستكشف الهمام وقومه الذين مؤلوا رحلته.

آخر رحلة لي بالوكالة كانت مع أغرب قافلة اخترقت الصحراء... قافلة محرّمة على الرجال ليس فيها إلا النساء ... نساء قبائل التبوّ تتاجرن في الماعز والتمر والرسالة التي لا يغفل عنها لبيب أن حبّ السفر والخطر غريزة عميقة عند البشر ذكورا وإناثا وإنما هي التقاليد البالية والعادات البغيضة التي منعت نساننا من تجهيز القوافل والضرب في الأرض ذات الطول والعرض... يا للخسارة، كم ضيعنا من رحلات مثيرة والعالم لا يتجلّى إلا عبر عيون الرجال. تبقى القراءة رغم كل إمكانياتها حلّا منقوصا.

صحيح أنها توقّر علينا جهد الهرولة لكل مكان قصي، أو طرق باب كل ذات تثير فضولنا، أو الانطلاق من الصفر في إشكاليات تقدّم التفكير فيها بعيدا.

صحيح أنها تفتح لنا الأبواب المغلقة للترحال داخل ذوات من لا نعرف من الأدميين. هكذا نستكشفهم عبر نصوص الشعر والأدب والسير الذاتية، ونحن بأمان لا نثهم باستراق النظر من ثقب المفاتيح والتجسس على أسرار الناس. وإبان هذا التجوال في الذوات الأخرى، يمكننا التأكد أيضا أننا نختلف عنها... ولا نختلف كثيرا، فنطمئن لكوننا لسنا وحدنا العالقين في عالم يبدو بلا منفذ لأحد، وأننا لسنا أحسن، أو أسوأ، أو أكثر ضياعا من بقية البشر.

لكن كم من نواقص لا ينعف الإدمان في تجاوزها بل ويزيد طينها بلة! ثمة في البداية أنها لا تعوّض التجربة، والويل لمن يحاول أن يجعلها بديلا لها... أو مهربا منها. ثمة أنها تجمع بعض أجزاء "بوزل" العالم، لكن قطعها القليلة المتناثرة نادرا ما تأخذ شكلا مرضيا. أضف لهذا أنه لا نهاية لها لأنه لا نهاية للعالم الذي ترصد أو للذات التي تريد سبر أغوارها.

هكذا يواصل العالم، مهما سافرت بالجسد أو بالقراءة، تحديك باتساعه الأخرق وثرأه الهائل. كم من بحيرات نار ونور لم أصلها لأملأ العينين منها وهي تتلاطم في أشداق البراكين! كم من أعاصير وصحارٍ وجبال وغابات وسهول لم يكحلّ جمالها عيني! كم من جزيرة ساحرة تختبئ في أعماق المحيط لم أجبأ إليها ولم أعادها مودّعا ببيكاء السكان ومن يبتلعه الموج يحسب في عداد الأموات!

كم من كائنات مدهشة جانبيتها وجانبتي لا التفت إليها وهي بدورها لا تعيرني أدنى اهتمام! كم من آثار كدسها الأدميون على طول الطريق لا علم لي حتى بوجودها! كم من روائع مرّت أمامي تهبني عطائها ولا أنتبه لها أصلا! كم من رسائل رمانني بها العالم لم أفهم لها معنى أو حتى لم أنتبه لها أصلا! تسلّم يوما أنك لم ترتحل إلا على الزبد والمحيط الذي طفوت فوقه إلى الأبد مجهول.

ومع هذا... يا للحصاد! يا للوليمة...يا للوليمة والعالم رمل الفجر، عشب بلّله قطر الندى ، الدفء بعد الركض في وجه الإعصار والمطر!...يا للوليمة والعالم روائح الحبق والنعناع والياسمين والورد، حدّث ولا تسل عن عطر النساء!...يا للوليمة والعالم طعم التين والتمر والزيتون ، الخبز الساخن للجوع والماء الزلال للعطش!..يا للوليمة والعالم خريبر ماء السواقي، صفير الريح في صارية السفن، الصوت المهيب للرعء، الرقيق للناي ، نداء عشق حسّون اعلى شجر التوت ، ضحك النسوة والأطفال ،غناء هامس لجدة تغزل، أذان الفجر بصوت رخيم يأتي مناديا للاحتفاء بيوم جديد!
كل يوم جديد والذات تصرخ صرخة الشيخ الجليل“لم يزدني الورد إلا عطشا”.

كل يوم جديد والرحلة وليمة الفكر والذهن منبهر أمام طفرة اللامتناهي صغرا، اللامتناهي كبرا، اللامتناهي تعقيدا.

عجبي ممن يتدافعون إلى المتاحف منبهرين بلوحات جامدة أو يفاخرون بما يمتلكون منها، وأعمال الفنان الأعظم على ذمتهم، مجانا، في كل لحظة. إنها النماذج التي يقلدها منذ غابر الزمان أنبع الرسامين... قرص ذهبي يخرج من وراء التلال، من خلف السحاب، من لجة الظلام، يختفي في خضم البحر، يخرج منه غير مبلى... هضاب متموجة من الصحاري الصفر والبييض... أمواج متلاطمة توجت هامتها بالزبد... نهر جبار يشق طريقه بحذر بين الأدغال والرمل... بحيرة صافية تكتشف الكائنات في جمالها الوديع أجمل الصور...ورقة خريف ركبت ظهر الريح جاءت شهوة السفر... سهول شاسعة ملتحفة بالأبيض أيام وصالها مع الثلج أو بالخضرة المرصعة بكل ألوان الزهور أيام موعدها مع الربيع وبصفرة الذهب حين تأتيتها حرارة الصيف بالشبق... جبال متكبرة توجت قممها بالسحاب وبالثلج... أدغال كثيفة تتصبب عرقا تحت سماء بلون الرماد... بدر يرسم على صفحة البحر نهرا براقا موجه من ساطع النور... سماء تتلألأ بجواهرها ليلا.

أيضا كم من كائنات تتبارى في الغرابة تزحف على البطن، تطير في السماء، تغوص في أعماق الماء، تمشي على طرفين وعلى أربعة، وكلها تتنافس في الطرافة والإعجاز.

أه لو تسعفني الأقدار بما يكفي من الزمن لأتفحص أجنحة كل أنواع الفراش.

كأن الخطوط والبقع والنقط والأشكال والألوان مادة خام تم مزجها بكيفية مدروسة تلقائية لتجود بما لا يحصى من روائع الفن. اعجاز الصنع وعجز الكلام عن وصف المصنوع. جناح الفراش دون شك أروع أقسام متحف الله.

كل يوم جديد والرحلة وليمة الفكر والذهن منبهر أمام طفرة اللامتناهي صغرا واللامتناهي كبرا واللامتناهي تعقيدا.

أنت دوما أمام عالم يفيض بما لا يحصى من أسرار تفتح على ما لا يعدّ من الألغاز وكأن صاحبها يلاعنا ولسان الحال منه يقول: معي لا خوف عليك من الملل.

كل هذه الأحاسيس والمشاعر التي جرّبت! كل هذه الأفكار التي تلاطمت داخل ذهني أمام حركة لا تتوقف أبدا تغير، تضيف، تحسن، تعيد باستمرار خلق ما خلقت...كل هذا التعجب والاعجاب والذات تنتقل من مفاجأة لمفاجأة، تتقلب بين الرهبة والخشوع، بين الحيرة واليقين...من المهد إلى اللحد، من يدي ربما حتى قبل وبعد.

نعم، يا للحصاد الذي تعجز عن وصفه أكمل لغة طوعها أفصح لسان لأنبع شاعر.

تأتيني يوما رغبة التدوين. لأي رحلة؟ بمفهوم التجاني أي سفرة الألف يوم بين حاضرتين أم الرحلة بمفهوم المعري أي سفرة كل الأيام من المهد إلى اللحد؟

ألم أجعل شعاري في الحياة: “على قدر أهل العزم تأتي العزائم” فليكن التدوين إذن بالمفهوم الأوسع والأعمق؟ أهز الكتفين استهزئ من نفسي وأشفق عليها وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرد تخيل ما يتطلب مشروع كهذا. من أين للسرد أن يجدد في رواية رحلة الانسان في هذا العالم وقد رويت قبلي بكم من لغة وأسلوب؟ من أين للوصف أن يصف عالما لا يستنفذه وصف؟

من أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاما ذا قيمة في عالم سقه كل ما قيل فيه من أقوال؟

أسارع لرمي الفكرة في سلّة مهملات ذاكرة فاضت بالملفات المتروكة، منها مشاريع الطفل بالمشي فوق سطح الشمس، ومشاريع المراهق بتخليص الإنسانية من كل النواقص والآثام، ومشاريع الكهل بالوصول إلى الحكمة المطلقة وكم من مشروع آخر تكفّلت ظروف الحياة بوأده باكرا بعد اتضاح استعصاء تحقيقه للمعروف وغير المعروف من الأسباب.

تفتعل الفكرة الامتثال لأمر التلاشي. تلتجئ إلى أعماق اللاوعي سنينا ثم تعود إلى السطح مدججة بحجج تفتعل مطلق الثقة في مقولاتها، تبحث عن حجج ترسي عليها حججها، وعن حجج ترسي الحجج التي أرسيت عليها الحجج.

أليس أول هدف لكل رحلة أن تعاش والهدف الثاني أن تمشي بذكرها الركبان وتتناقلها الأجيال؟

أليست أفضل رحلة هي رحلة البحار الذي غرق لا فقط لأنه فشل في الحفاظ على وجوده وإنما لأنه لم يعد ليروي كيف هو عرض البحر؟

ثم لم لا المحافظة لأحفادي على قصة سيذهب بها النسيان وقد يجد فيها ولو واحد منهم ما يسهل عليه اختراق الأوقات الصعبة؟ ألم أجد فيما خطّه لي كيار رحالة الماضي ما أبعد عني أخطارا كثيرة ووقّر عليّ كم من مشقات؟ نعم لماذا لا تساهم خلاصة تجربتي، على تواضعها، في تحسين "خرائط" العالم علّ الأمر يفيد ولو قليلا رحالة الأجيال القادمة؟

وأیضا لماذا أخفي طموح المساهمة في كشف الأسرار التي تؤرّق المفكرين منذ القدم حتى ولو أدّى الأمر لمزيد من خلط الأوراق؟

يتواصل الشدّ والجذب بين الرغبة والرغبة.

يصمت النقاش سنوات، ويوم لا أتوقع يعود السجال بذرائع أخرى.

لماذا لا تكون الكتابة فرصة للخروج، ولو مؤقتا، من صراع استنزف طاقاتي طوال كل هذه السنين، للقطع مع خصومات نافهة لا تنتهي، للخروج من حلبة لا منتصر فيها، للتمعّن فيما أبصرته دوما ولم أنظر إليه إلا نادرا، لزيارة الوداع قبل آخر منمرجات الطريق، لتصالح ذاتي مع ذاتها؟

هل هذه الحجج هي التي رجّحت الكفة والفكرة ترفض يوما العودة للأعماق، فانقلب ميزان القوى لصالحها؟ ربّما حصل الأمر للذة رفع تحدّ أحرق ألقينته على نفسي، ربما لتزايد حدة الشعور باقتراب الأجال المحتومة وضرورة استجماع شتات ذات مهدّدة بالتفكّك، أو لسبب تحرّكه قوة مجهولة تحقيقا لهدف لا تعرفه إلا هي.

وفي كل الحالات متى كنا بحاجة لأسباب والفعل هو الذي يوجد لنفسه ألف تبرير!

يؤخذ القرار يوما وينطلق التدوين يستعرض ويتفحص ملفات تراكمت في الذاكرة علّ صورة متماسكة عن رحلة الحياة تنبثق من الفوضى التي بداخلي والتي تحفّ بي من كل حدب وصوب... وكل محاولة تنظيم لا تنجح إلا في إعطاء هذه الفوضى شكلا جديدا.

اليوم 14 600 من الرحلة

**

أترحل في عالم، في عالمين أم في عوالم؟

التدوين نعم، لكن مرة أخرى لأي رحلة؟ التي نعيشها ابان اليقظة... أو التي نعيشها ونحن نغط في النوم؟
الا نقضي جزءا هاما من رحلتنا في هذا العالم ونحن نيام؟
كم غريب أن من سبقوني في أدب الرحلات لم يدونوا للرحلة العجيبة التي نساورها كل ليلة كلنا دون استثناء.
ربما أحبطوا وسقط في أيديهم وهم مطالبون بالتدوين لسفر بلا حراك، بلا طريق، بلا دليل، بلا ذكريات ملموسة نعود بها
نثبت أننا لا نكذب ونحن نروي ما شاهدناها فيه من غرائب وعجائب؟!
نعم أين نرحل كل ليلة؟ من أين نرجع أو نطرد؟! لماذا نبقى إلى النهاية في ذهاب وإياب بين... بين ماذا وماذا؟!
وفي أقدم الملفات، يتابع الطفل بصمت قلق التنفس البطيء لشقيق راقد جنبه يرفض الرد على كل استفزاز معرضا عن
مواصلة اللعب. كم مرة وضع يده على الجسد المسترخي جانبه والسؤال بل قل الهاجس حتى في ذلك العمر، إلى أين يذهب
هو وشقيقه عندما يغلبهما النوم؟
تتملص حتى "ما" من الرد عليه. لما تفضل يوما "با" بالرد، تفاقمت حيرة الطفل بل اندلعت فيه أولى المخاوف وأعماها. ماذا
لو تاهت هذا النفس التي يتحدث عنها والده في الأماكن المجهولة؟ ماذا لو ضللت الطريق وهي تتحسس في الظلام طريقها
للرجوع إلى الجسد الساكن؟ ألا يمكن أن يستيقظ في فراش غير فراشه، في بيت غير بيته، بين ذراعي أم غير التي رضي بها
ورضيت به؟
يداوي الطفل قلقه من الاحتمال الرهيب بتصوّر حبل شفاف متين تربط "ما" طرفه كل ليلة في وتد من العالم المؤلف وطرفه
الأخر حول رسغه. لكن ماذا لو تقطع الحبل وبقيت النفس سحينة العالم العجيب؟
لا غرابة أن ترعبه هذه الإمكانية وأن يتشبث أطول وقت ممكن بالعالم الذي ألفه رغم ما ينضح به حتى هو من غرابة ومن
مبهم الأخطار.
وفي أقدم الملفات أيضا يندرنى شيء في داخلي بضرورة إغلاق العينين.
أفتعل تجاهل نفاذ صبر الأمر المجهول فتحافظ اليدان على الكتاب المفتوح تتصفحانه بتؤدة مقصودة.
يتصاعد منه الإلحاح ومني المشاكسة. أشعر به. هو؟ - قد غير اللهجة والأسلوب ليمرّ إلى منطلق الإلزام. يسقط الرأس-
المرّة تلو الأخرى- على الصدر فأعيد رفعه إلى الأعلى كلّ مرة كأنني أرفع صخرة إلى عنان السماء.
إنها بداية نزعة التمرد على كل سلطة تأمر وتنهاي لا تكلف نفسها شرح الأسباب.
يتواصل الصراع غير المتكافئ بين طفل عنيد نشأ على كبرياء غريزي، وعالم له القدرة على كسر شوكة كل متكبر عنيد.
تأتي لحظة الهزيمة والرأس أخيرا على الصدر لا يجد رافعا إلى الأعلى إلا يدا عطوفا تضعه على الوسادة، تزيح الكتاب،
تطفئ النور وتغلق الباب بكثير من الحذر وعلى محيا الأم ابتساما مشفقة أمام طفل مغلق راحته على حجرة هيهات أن تنفع
في صدّ الكوابيس.
توقّف عند بعض الخصائص المميزة لرحلة الليل هذه.
بداية لها استعداداتها الخاصة ولها طقوسها كما هو الحال مع رحلة النهار.
أنت لا تمتثل لأمر الرحيل في أي مكان. عليه أن يكون مخبا آمنا تستودعه بكل ثقة جسدا فقد تأهبه للكرب والفرّ دفاعا عن
وجود على الدوام مهذّب.
من هذه الطقوس أيضا التخفّف من جلّ لباس رحلة النهار إذ لم يعرف عن "الفضاء" الغريب أنه يتطلب شمسية أو معطف
فرو ثقيل أو ملابس سهرة أو حتى درعا وسيفا.
حقا، هناك من يرقدون وسلاحهم تحت الوسادة، لكن من فرط الخوف أن يفاجئهم الصيادون في "الواقع" لا تحسبا لما سيلقونه
من أعداء على الضفة الأخرى.
ثمة ضرورة التخفّف من صدى هموم هذا "الواقع" والأمر ليس دوما بالسهولة التي نودّ.
يتصاعد من الشارع المظلم عويل امرأة تخرج منذ شهور في آخر هزيع من الليل، تذرّع الشارع، تصرخ بأعلى صوت، تشتم
نائمين ومستيقظين تحصنوا داخل عمارات منغلقة على خوف صامت. أضع المخدّة فوق أذني مبتهلا لكل آلهة الأدميين
وشياطينهم أن تكفّ المرأة عن تعذيب نفسها وتعذيبي.
ها قد تعطلّ المصعد الذي يرفعنا عادة دون جهد إلى الأعال المجهولة. مصعد؟ تغزوني -صورة أكثر حداثة.

تنشطر الذات إلى مراقب بصدد تنظيم عملية الرحيل نحو المجهول رغم رداءة الأحوال النفسية وراكب نافذ الصبر يريد الإفلات بأي ثمن من صراخ لم يتطوع أحد من سكان العمارة لإسكاته بطلقة رصاص رحمة بالمرأة، بالجيران وبـي. يتوجّه المراقب المشرف على عملية إطلاق "الصاروخ":

- هنا برج القيادة. الوضع داخل هذا البليد؟

- كلّ المؤشرات في الأحمر.

- استحضار الصور البلسمية.

ذراعان رقيقان يلتفان حولي... شعر كالحرير يداعب خدي... تنفّس بطيء يبعث فيّ هدوءه... كلمات خافتة لا أدرك ولا أبحث لها عن معنى.

- تقرير فرق الإطفاء؟

- بؤرة أخيرة من التوتّر صعبة الإخماد.

- استحضروا صور الطفلة.

تتسلّل تفاحة أو تفيحة من فراشها نصف نائمة، إصبعها في فمها ودميتها مضمومة إلى الصدر. تتسلّق الفراش، تحشر جسمها الصغير بين الجسمين المتعانقين. تبدأ توسيع مجالها الحيوي بدفع رقيق. ترتسم ابتسامة على وجه الرجل المنتسج. تتحرّك شفتاه بحثاً عن الراحة المفتوحة لقلبة أخيرة. تتساقط قطرات المطر رقيقة على النافذة فتطفئ باقي الجمر الملتهب داخل الروح. تأتي الرجل المتزايد الارتخاء قشعريرة برد لذيذة فيحكم حوله الغطاء.

- التقرير.

- انطفاء أغلب المؤشرات الحمراء... لكن ما زالت هناك بعض بؤر توتّر.

- استحضار آخر وسائلنا.

يرفع الأب يده، يبحث في الظلام عن شعر ابنته، فيلمس شعر دموية دائمة الصمت.

تستسلم الذوات الأربع أخيراً للطمأنينة، والرجل بين ذراعي المرأة، والمرأة بين ذراعي الرجل، والطفلة محشورة بينهما، والدمية "إيتي" تتوسّط الأجساد الحية، تبعث فيها وتمتصّ منها ببالغ الحذر شيئاً ليس للغة مصطلح عنه ولا للقصة حالياً فكرة عن طبيعته.

يدير الرجل أخيراً ظهره لعالم لم يعد يعنيه من أمره شيء.

يتواصل همس غير معروف المصدر والهوية:

- الآن كل شيء على ما يرام.

- إقلاع...

الذات الآن وسط بعض المتاجر الضخمة وسط حشود من... الدمى. تحدّق فيّ دموية تلبس حلّة العرس ثم تغمزني وهي تبسّم. تصرخ فيّ دموية أخرى مخضبة الشفتين بالأحمر القاني أن أغتم موسم التخفيضات. أي تخفيضات؟ هل أنا أيضاً دموية كهذه الدمى؟ تتدافع من كل الاتجاهات بالونات صغيرة شبيهة بقطرات الضباب أو بفقاع الصابون. داخل كل فقاعة آدمي بحجم ذبابة متسلقا جدارها اللزج يضرب بقبضتيه كأنه يبحث عن منفذ وصراخه الصامت يدوي في أرجاء العدم... الديكور الآن نزل نثن في قرية نائية. أصرخ في صاحب الفندق فيعتذر عن فيضان المراض وأنه سيصلحه حالاً. ما يهمني-أيها الغبي- ليس هذا وإنما أن أعرف أين أنا. لا تقلق-يا سيدي-ستأتي سيارة لتأخذك. إلى أين؟ لا تقلق، السائق يعرف، وفي كل الأحوال يكفي أن تضغط على زرّ مكتب المحامي في الطابق الثالث؟ المحامي؟ نعم إنه الذي تعرف وتثق فيه... جريدة اليوم جريدة البارحة وقبل البارحة ومتصفحها راكب قطار يتوقّف دوماً عند نفس المحطة ليحيّيه نفس المجهول على نفس الرصيف بنفس التحية تحت صورة ضخمة لنفس الإشهار... وجه معوّج لأدمي مسك بصدغيه يصدر صرخة محملة بكل ما في العالم من رعب ثم يغرق في بحر من الدم. دمي... النرويج! أين يوجد هذا البلد؟ تتعالى من اللأمحدّد همهمة أصوات... يرتفع من فوق سطح الماء رأس آدمي... تنطفئ النجوم لأنّ يدا ضغطت على زرّ كهرباء ثبتت في أشداق الحوت... يصرخ فيّ البحر أن أهرب غضبا غير محدّد السبب... ترعيني قهقهة تتصاعد من حنجرة كلب أعرج... أنحني لألتقط شمسا وقعت على سطح الأرض كما لو كانت عصفورا جريحا سقط لتوّه من العش... أنفخ عليها لتلتهب من جديد، ثم أرميها في الفضاء فتنفجر بالضحك... تحضر الذات مجدداً أنّها أخفقت وأنّ عليها إعادة الفرض... تتمرّد على عبث ممتحن لا يرحم وامتحان لا نجاح فيه أبداً... تصرخ ذات كائن ما أرفض، أرفض، أرفض... كم مرّة يجب أن أعيد هذا الفرض اللعين؟ يأتي الردّ صمّتا ساخرا ومهدّداً من مصدر قريب بعيد، معروف مجهول: ما تتطلّبه المهمة من مرّات. المهمة! أي مهمة؟ لتذهب المهمة إلى ألف جحيم... يحرك الرجل الماشي

رجلين من حجر تبتًا بالإسمنت على الطريق. يبرز من الضباب وجه أب يجلّ وجهه الجميل شعر بلون الكفن... يرتسم على وجه امرأة مجهولة ربع ابتسامة شاحبة... يبقى الوجهان مُعلقين في الفراغ. يتّجه الطريق نحو قم ثعبان مرعب... أوصل الطواف حول البركة... يعوي كلب مشرف على حافة البئر. يشعر الطفل أن لا مهرب له من برائته... يركض هربا والكلب وراءه وكذلك البئر... يتصاعد من المسجى على الفراش أنين من يرفع أثقالا لا قبل لإنسان بحملها... تنتصب العمارة البيضاء التي تتأطح النجوم، أمشي على سقفا متّجها للهاوية... فجأة تبرز شجرة سنط شاهرة شوكتها في وجه غزال بحجم حصان، فيركض فزعا طالب النجدة. تصرخ جحافل النمل وهي على ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج اللعبة وإلا فإنه هو القتل... يتّسع ربع ابتسامة الشبح. يهمس في الأذن: يا إلهي، كم أنت مروجع يا طفلي الصغير... يقطب الشبح الأشيب جبينه مستنكرا ضعفا مشينا. ينزاح الثقل من الرجلين. يشعر الطفل أن القيد انكسر، أنه يمشي طليقا، أنه يركض خبيا، أنه يقفز قفزات جبارة في الهواء... كم يبدو الطريق سهلا والهدف قريبا... يتراجع الوالدان بعد أن أعادا ولادة من ولدا... تتعطل محركات الطائرة ويبدأ السقوط نحو البحر... أي ملاذ وقد حضرت الساعة؟ كم من آدمي دخل فراشه ونهض منه وهو كالمستجير من النار بالرمضاء ومن الرمضاء بالنار.

اللجنة! أين كنت؟ على الضفة الأخرى لهذا العالم أم في عالم مختلف؟ في هذه الحالة، أين يوجد؟ خارج ذهني أم داخله؟ وفي هذه الحالة، ما معنى أن أسافر داخل ذهني ليلا ولا أسافر داخله نهارا؟ ربما لا أسافر حتى إبان اليقظة إلا في ذهني. ربما لا وجود للعالم إلا كمعطى من معطيات أذهاننا؟

كل ما نؤوب به من رحلة الليل أشلاء مناظر، أشلاء مشاعر، أشلاء قصص مختلفة من زيارة لأخرى، من زائر لزائر؛ والعهد على ما يرويه كل من ناموا وحلموا واستيقظوا. نفهم عزوف كتاب الرحلات عن وصف عالم يمشي فيه كل واحد منا على طريق لا يشبه طريق أحد آخر... عالم خاص بكل مسافر... عالم يتلاشى بالسرعة التي ظهر بها. رواية رحلة كهذه لن تكون إذا اصررت عليها إلا أشلاء جمل في نص مبعثر عن شبح ليس له شكل قارّ أو طبيعة ثابتة يعيش أشلاء أحداث لا يربط بينها رابط ولا تعني شيئا.

ومع هذا لنحاول رصد الملامح الكبرى لهذا الذي "نحطّ" عليه ونعيش فيه من أغرب القصص.

أغرب ما فيه أنه ليس له علامات قارة والديكور يتغيّر من سفرة لأخرى.

تصوّر أنك تقيق كل صباح لتجد الفضاء الحسي مرة بلا شمس ومرة ثانية بأربعة شمس وأحيانا بنصف شمس خضراء تسبح في سماء بلون الورد. كأنّ هذا الذي ترخّل إليه ليلا مصنوع من ضباب الفجر، من سحب خفيف، من دخان السجائر. داخله لا مكان للألوان الفاقعة، للخطوط المستقيمة، للأضلع الحادة. كل شكل فيه يبدو من رسم بيكاسو وشاجال وماكريت. هل الفن صدى لما تكتشفه الذات وهي في رحلتها هذه، في تجربتها العجيبة هذه؟ لم لا؟ ألم نهزّب من فضاء الحلم أيضا فكرة الآخرة والأشباح وكم من أفكار أخرى تتحكم في حياتنا "العادية" ونحن لا نعي.

ثمّة أيضا غرابة المسافر الذي يضع رحله في مثل هذا الفضاء. قال واحد من أئمه الرحالة: "حلمت ذات مرة أنني فراشة. فمن أنا؟ لاوتسو يحلم أنه فراشة أم فراشة تحلم أنها لاوتسو؟"

السؤال داخل السؤال ماذا لو كان الحالم -أكان لاوتسو أو الفراشة- هو نفسه حلم يحلمه حالم قد يكون هذا الذي تسميه بعض الرؤى الله... حالم يحلمنا نحن جميعا مما يجعل منا مخلوقات حلم تحلم بدورها مخلوقاتنا.

المهم أنّ الذات، أصبحت "الآن" و "هنا" شكلا لا شكل له... شكلا تخفّف من خصائص الشكل... فكرة مبهمّة لا تتذكّر أنّها عرفت شكلا غير الذي هي عليه الآن... شكلا ضاعت ملامحه الأصلية.

يبقى أنه للفضاء الغريب رغم كل هذا الإبهام بعض الثوابت، منها أنك أنت لا تستضيف أحدا فيه ولا تدخل حلم حالم.

اللهم إلا!

ربما دخلت "ح" حلمي تلك الليلة صدفة، أو أنني الذي فتحت خطأ الباب الحرام لأدخل حلمها. هل توعدنا على اللقاء في عالم أوضح معالم؟ كيف أفسّر خروجها من بين جحافل الأعراب لحظة الموعد وفي المكان الذي لم يكن يوما من الأماكن التي أرتاد؟ هل من باب الصدفة أنني عرفتها من أول وهلة والحال أنني لم أقابلها من قبل؟! لماذا نظرت إليّ باستغراب وأنا أتوجه إليها ممدود اليدين لأتابع طريقي مكسوبا ومعتذرا وهي لا ترتمي بين ذراعيّ؟ لماذا استدارت لما تجاوزتها ترمقني بحيرة كأنها تعترض من ذاكرتها السبب القاهر الذي دفعها للمجيء إلى مكان لم يكن يوما من الأماكن التي ترتاد؟

*

هل ثمة نظرية طريفة بخصوص طبيعة هذا الفضاء الذي نتيه فيه كل ليلة؟
لننسى فرضيات سحرية قديمة عن رسائل مشفرة تبعث بها الآلهة وفرضيات أخرى تدعي العلم بمجاهل النفس عن مخاوف وشهوات مكبوتة تفوح الأحلام بنتنها. ما الذي يبقى؟
ما نحن متأكدون منه أنه محكوم علينا أن نغادر كل ليلة ديارا معروفة ولو نسبنا إلى ديار أخرى مجهولة تماما... أنه محكوم علينا أن نعود منها لنعود إليها مجددا والمرء كمن يتقاذفه الموج من عمق المحيط إلى الشاطئ، من الشاطئ إلى عمق المحيط، ثم من عمق المحيط إلى الشاطئ... ذلك إلى آخر منعطفات الطريق.
وأیضا أنه لا شيء قادر على منع الذات من العودة الدورية إلى "الفضاء" الغريب، وإن منعتها أصابها من الأمر عطب خطير قد يؤدي أحيانا-إن طال المنع-إلى نهاية الحياة نفسها.
ماذا لو جعلنا منه إذن "مكان" صيانة ذات ينهكها صراع الوجود ولا بدّ من العودة إليه كل ليلة للراحة وأشغال الصيانة الضرورية. تصوّر أیاد خفية تستلم الذات حال دخولنا الغيبوبة لتفرك هنا أو ساخ الذهن وتنظف هناك أوجاع الروح. بعد نهاية الحمام يأتي أمر الرحيل والعودة للصراع.
فكرة أكثر راديكالية. لماذا لا نجعل من هذا "الفضاء" ورشة إصلاح العالم نفسه يتمّ فيها-كل ليلة-صقل الشمس والقمر وتلميع النجوم ونفض الغبار عن الجبال وفرض الراحة على الكائنات لنجد كل صباح عالما جديدا معافى جاهزا لأحسن استعمال؟
تقول ولماذا يحرمّ علينا التمتع بمنظر المنظر لتشجيعه وربما لبعض الاقتراحات؟ يا عبيط لأن المنظف الكوني لا يريد مزعجين يتدخلون كل لحظة في العملية ويضيعون وقته بشهواتهم الغبية. حجة لن تقبلها إلا النساء وهن أحسن من يعرفن ازعاج الرجال عند دخول المطبخ للتدخل فيما لا يعنيههم.
ثمة فكرة أغرب تقلب الأمور رأسا على عقب وهي تجعل من اليقظة قاعة الانتظار والمنام العالم الذي نعيش فيه الرحلة الحقيقية أي هي التي نحقق فيها مهمتنا السرية التي جئنا من أجلها العالم... مما يعني أننا قد نرتحل في عالمين موازيين وليس في عالم واحد !!
إغلاقا لملف شانك سأعتبر -دون أدنى حجة مقنعة أو برهان متين-أن ما نسميه "العالم" هو عالم اليقظة لا غير، تحديدا الجزء الذي تيسر لي إدراكه خلال ما عشتُ من الزمن. هكذا يمكنني أن أتخلص من عبءٍ ثقيل حيث تتوقف مسؤوليتي عند رواية رحلتي فيه هو لا غير.
أما رحلة المنام كما تعيشها دوريا ذاتي الأخرى أو ذاتي في حالة أخرى، سواء كان في عالم آخر أو على الضفة الأخرى من هذا العالم، فهي مسؤولية ظلّ لي أتصوره -بشيء من الشماتة-منهمكا في كتابة رحلته لقراء من الأشباح، شاكيا مثلي من صعوبة مهمّة عبثية لم يكلفه بها أحد.

**

البداية الغامضة

بما أنه لا بد لكل قصة من بداية، متى انطلقت الرحلة؟ تبدو الإجابة بديهية: الولادة طبعاً. المشكلة أنه لا أحد منا يتذكر هذه البداية. لا خيار غير اعتصار أقدم ما رسخ من معطيات حولها في الذاكرة الطفل، وأيضا فيما حفظته هذه الذاكرة منها وهو جدّ وأب.

ثمة الآن داخل فكري شبح كالفأر في مكتبة يحدث ما يكفي من الضجيج تاركا وراءه ما يستطيع من الآثار، لكن لا مجال لوضع اليد عليه أو إجباره على الرحيل.

أقرّر اعتماد سياسة التجاهل علّها تؤدي إلى اختفائه أو حثّه على البحث عن قنطرة أخرى يعبر عليها.

هل أقول له ألا يجرب معي من الآن حيله، وأني غير مهتم بما يعرضه من صور رضيع جميل مضحك تقدّمه للعالم أم جميلة فخورة.

هل تدخل لديها لتقنعني؟ هل تدخل لديّ لأقنعها؟ أم هل قلبنا الحقائق وكذبنا عليه وعلى أنفسنا لأنّ الطفل كان شغلنا الشاغل منذ البداية، نترجّاه نحن القدوم، وليس هو الذي يترجّانا؟

نتنهار يوما كل مقاومة وقد كانت من البداية تكلفا ومحض عناد.

وفي أوج شهوة الكائن لنصفه الآخر، وبعد خضمّ نشوة امتزاج الذات بالذات، تسترخي الذاتان، يلفهما هدوء ما قبل وما بعد العاصفة.

تتسارع دقات قلبي النائمين. تبحث اليد عن يد الآخر، ترسم على الوجهين ابتسامة عابرة. تأتي المتأهب للرحلة المقدسة من المبهم الغامض إشارات رقيقة وأوامر مهموسة ليلبس الشكل لأنه الشرط حتى تصبح الفكرة فعلا... الضرورة التي لا مناص منها للتسلل من راحة العدم إلى مغامرة الوجود.

تبتسم الممرضة وهي تمدّني بنتيجة الفحص.

تبتسم المرأة التي ستصبح من الآن "ما" وهي تقرأ الورقة.

ترتسم الابتسامة على محيا المارة وعيونهم على بطن امرأة تمشي متناقلة الخطى ترصد نظرات الإعجاب ترصد نظرات الغيرة.

إنه عالم متجدّد على الدوام، تنتفخ بطون الإناث فيه ثم تعود إلى تسطحها لتنتفخ من جديد في نسق منتظم كلهث الراكض... عالم لا همّ له إلاّ الحمل والولادة، ولا شيء في التكرار مكرّر.

منذ لحظة الإشعار بوجودك والتفكير فيك والحوار معك أنت الذي لم يكتسب بعد أي شكل لا يتوقف.

كم هائل من الأسئلة أمطرك بها علما وأني لن أتلقي منك أي جواب.

أصحيح أنك يقظ تتابع كل ما يجري؟ أن أول إشارة تتعرف عليها هي الصوت، صوت من تحملك في أحشائها... أن انتباهك له يتزايد يوما بعد يوم. أنه هو الذي يقودك من تواصل الحلم إلى انتباه بداية اليقظة... أنك لا تخطيء فهم ما يأمر به وما ينهى عنه... أنك تمسك بلجام من تركب بقفاز من حرير، توجهها إلى حيث يجب أن تذهب وهي متبرّمة سعيدة؟

مثلي لا يكتفي بالقليل والقال.

تقسم "ما" أنها لا تعلم أكثر مني.

ربما تستقرد بك. ربما تفتح لك ذاكرتها. المرأة المتهورّة! قد تنكص على الأعقاب. سأوصيها بشديد الحذر. في كل الحالات لن أتركك تبني علاقة أعمق معك. لي أنا أيضا عليك حقوق ولك تجاهي أكثر من واجب. تعال، كن مولودا طيبا. لا تتركني بهذه الحيرة. كلي أذان صاغية. تكلم لأسجل لقرائي كيف انطلق الطريق.

أمام صمتك ثمة كئيبية... والخيال.

أهذا أنت! هذه السوائل اللزجة! ماذا! أنت الآن كرة ككرة التنّس! ثم سمكة! بل وضفدعة أيضا! آه الآن بدأت تأخذ شكلا مقبولا.

المهمّ ألا تخطئ الأيدي الماهرة في نحت ما يتطلب الأمر من اشكال، في عزف نوطه بتيمة، في رسم حرف واحد، فما بالك إن نسيت أو أخطأت قراءة جزء كامل من وصفة الصنع.

تبثّ في فكري المشوّش أنه لا خوف فالصانع مجرّب أخذ كل الزمان لتعلّم المهنة وما عليّ إلا أن أتركه وشأنه لأهتم بشؤوني.

فعلا كأنك أمام مهندس عبقري صامت ومخفي ألقى على نفسه كل الأسئلة واكتشف كل الأجوبة. كأنه طوال هذه الشهور التسعة يعطي ما يلزم من أوامر لمأمورين لا يقلون عنه مهنية عالية: اصنعوا، قيسوا، شذبوا، لا تغفلوا، قفوا، وصلوا، هنا جددوا، آخر اللمسات هناك.

الحمد والشكر لكل هذا الاتقان، لكل هذه العبقرية.

لا يتوقف الأخذ والرد بين الذات وصدائها.

والآن هلاً أرضيت فضولي. كيف هي أحاسيس ما قبل الأحاسيس، مشاعر ما قبل المشاعر، أفكار ما قبل الأفكار؟ هذا كل ما لديك من تصريحات؟ خيبت آمالي، انتظر، سترى عاقبة عقوق الوالد. على فكرة كم مرة سأقول لك: لا تضع إصبعك في فمك. ماذا؟ يكفي من نصائحي البائرة وما عليّ لمداداة عصبيتي إلا الاهتمام بنصيبي من متطلبات اعداد وضوئك. وهل تركت لي أمك شيئاً أعده وهي تفلسني بكل ما تشتري. ثم ماذا أستطيع تقديمه والعالم نفسه من يجهز لك الديكور الذي سيستقبل سيادتك: صقل الشمس لتبدو كأنها لم ترم أحداً بأشعتها قبلك... تلميع القمر. . . نفص الغبار عن الأشجار... طلي قبة السماء وتلوين البراري بأحلى الألوان... غسل البحر من كل الأدران... إعداد مكان خاص بك وقد غصت الساحة بالمسافرين. داخل الكهف السحري، تواصلت جميع شتاتك وقواك قبل الوثوب على عالم ينتظر بك فارغ الصبر ليثب عليك هو الآخر، ولا أحد يدري من الفريسة من الصياد.

يكتمل التمثال أخيراً. تستقيم السمفونية والقصيدة. يضع الفنان الأعظم توقعه على اللوحة.

تدخل القصة فصلاً جديداً.

في محطة الوصول يطلب مني بكل أدب أن أنزح إلى الخلف حتى انتهاء مراسم استقبال الوافد الجديد. تأخذ الأيدي البارزة على عاتقها مواصلة مهمة الأيدي الخفية. تسترق آلة وضعت على البطن المكور دقات قلبك. أراها تتابع على ورق التسجيل تخطط خطب عشواء. تتعثر ضربات قلبي هي الأخرى. يتصيب العرق من جبهة المرأة الراقدة على فراش الألام ومن جبهتي ومن كل الجباه. تعضُّ الوالدة الأزلية بنواجذها على الخرق الأبيض وأعضّ على نواجذني لأمنع الصراخ الذي في داخلي، فتهتّر لصداه الصامت كل أصقاع الروح. كأنك غير واع بما في هذا الانتظار من لعب غير مسئول بأعصاب من حولك من مساكين. تبقى مصرّاً على أخذ كل وقتك. هل لتكون جاهزاً... أم لأنّ فيك خشية مبهمة تتعاطم كلما اقتربت الساعة؟

يتصاعد صراخ الوالدة الأزلية.

تزداد حركات المشرفين على المراسم ارتباكاً.

هل تتلأأ في الخروج لعدم رضاك عن زمان الوصول ومكانه وشكل التجسد؟ هل هالك ما في أعماق ذاكرة "ما" وأنت تتجول في قصتها والقصص التي انغلقت عليها قصتها هذه؟ هل انفجر في وعيك العويل المتعالي من كل مسافر وقد أطبقت عليه أشداق الحياة؟ هل اقتنعت أنك لن تأتي بجديد، أنك ستتراكم فوق من تراكموا، أنك ستضيف للفشل فشلاً؟ هل قررت أن الصفقة لا تستأهل تضحيات بهذا الحجم؟ ربما معك حق لأن أخطر من عدم الوصول... الوصول. أليس من واجبي أنا الدليل أن أقول: قف، لا تخط خطوة أخرى، اذهب، لا تأتي، لا شيء هنا يستأهل الضريبة التي سُدِّع.

أه، صدقتني وقررت أن تعود من حيث أتيت... يا مجنون، الضريبة مهما غلث لا شيء بالمقارنة مع ما ستجني... ألم تفهم أن هدية الميلاد عالم بأسره لا أكثر من هذا ولا أقل؟

تصل خشيتي أن تنكص على الأعقاب ذروتها وكنت لا أربح لحدّ الآن سوى أن تكون الأيدي الخفية قد أساءت الطرز فتأتي مسخاً مشوّهاً.

تتعالى من حولي أصوات نافذة الصبر.

- ادفعي... ادفعي!

تتصيب "ما" عرقاً. تصرخ والألم يعنصر أحشاءها: إنني لميئة.

لوجه الله، افعلوا شيئاً. أطفئوا هذه الأضواء، إنها تؤذي عيني حتى وهو وراء الباب المهيب. اصمتوا أو اهمسوا فأصواتكم كدوي ألف مدفع.

اللجنة، ألم يكن بوسعك أن تتفح كوردة الربيع، أن تأتينا دون كلّ هذا الهول. لكّنك ثمين والتمين دوماً باهظ التكاليف. أه، التكاليف! ماذا سنفعل لو ركبت رأسك أو تغلب عليك الجبن بالملابس التي اختارتها لك "ما" وكأنها تعدك لمعرض أزياء؟ تريد أن يضحكوا مني وقد كدست في خزانتك ما استطعت من مصاصات خوفاً من ليالي شتاء سأرمي فيها خارج الفراش للبحث عنها في صيدليات الحراسة. ثم ماذا عن تشوّق اللعب إليك وهي تنتظر بفارغ الصبر يديك البضتين وأصابعك المرتبكة ولا أحد يدري من يلعب بمن؟

يا أحمق هذا عالم خُلق للجميع وخلق لك وحدك...عالم سحري فيه كل الممكن ، كل الامكانيات وما لا تجرؤ على تخيله...عالم باهر الجمال يريدك أن تُبهر بالجمال لتضيف لجماله جمالا... عالم هائل التعقيد والاتساع ليترك لك كل المجال للاستكشاف... عالم ملتحف بالأسرار ليستفز فيك الشوق لهتك الأسرار... عالم حقًا مشبع بالصعوبات لينمي فيك الصمود وحب رفع التحدي... عالم حقًا معلم صارم لكن كم صبور مع كل مبتدئ... عالم وان بدا بالغ القسوة ، أيضا بالغ الحنان والرفق...عالم وان بدا بالغ البخل لا اكرم منه حين يفيض عطاء... عالم مترع باللذات يكافئك اين تستحق وأحيانا اين لا تستحق... عالم يترك لك الحرية لتعيد تشكيله على هواك...عالم قديم أنت جديده... إنها الهدية التي تنتظر...إنها الهدية التي تنتظر أن تكون بها جديرا .

هل يمثل هذه الحجج أفنعتك بالموافقة؟ أهكذا زال آخر تردّدك؟ يبدو كذلك ودقات القلوب تنتظم والأيدي المحمومة تتباطأ والابتسامة تعود لشفتي القابلة.

ها أنت تتحرك أخيرا نحو باب الكهف السحري مدفوعا بقوة لا تقاوم ومجذوبا بأخرى لا يرفض لها أمر. يبدأ خروجك الصعب من النفق الرابط بين العوالم. أستحكك مبتهلا مشجعا ناسيا قراري بأن أتشمّت فيك في أول مناسبة. تطلق الأم الأزلية آخر صرخة المخاض ويفتح أمامك في نفس اللحظة باب الزمان على مصراعيه.

"أماه أنت التي تحمليني في أحشائك (مانويل دونوفاس)

امنحيني حق أن أولد

وأنت يا أبتاه، يوم أولد

امنحني حق أن أحييا

أعيناني على أن أعيش أحلامي

وأهوائي لأكون لكما

زهرة الشوق، ثمرة الفرح"

تتفصل كالثمرة الطازجة، كنفحة لذيذة، قطفت من غصن أقدس شجرة.

في نفس اللحظة، في العراء، بين الأعشاب، على أغصان الشجر، في أعماق المحيط، داخل ألف مغارة، على الأرض تحت ألف خيمة، على ألف فراش داخل أفخم القصور.... وبينما مشيحو الجنازات في ذهاب، تواصل القابلة الأزلية استقبال أفواج القادمين. انظر لتفتح الوردية وستراه...انظر للفرخ يكسر بيضته وستراه... انظر للحمل حال خروجه من الرحم وستراه. انظر للمولود الجديد وستراه...كم غريب ألا أحد يركع ويسجد و" الشيء" الذي أمامنا يتجلى.

الاكتشاف الهائل الذي يفخر النص بكشفه لأول مرة هو أننا لا نخرج كهولا مكتملي الأوصاف بالشارب والحداء وربطة العنق إن كنا ذكورا، وبفستان و"ماكياج" وحقية يد إن كنا إناثا. كلا ثم كلا، اعلم يا آدمي أنك تصل عاريا، ضعيفا مثيرا للضحك بل وللشفقة. يجب أن أقول لك-وهذا مع كامل احترامي-أنك تصل أيضا في مظهر أقل ما يقال عنه أنه مخيب للآمال. آه، يا تفاحة. كان وجهك وجه عجوز دار بها البساط السيّار دورة كاملة في حياة ماضية ولم يسعفها الوقت لإحكام قناع الطفولة على الوجه القديم. كان جلدك متجعّدا وكأنه ورق قديم فرخته يد عصيية قبل أن ترمي به في سلّة المهملات. للأسف لم يكن هناك أيّ هالة من نور حول رأسك الأضلع. في الواقع لم ينقصك إلا ذيل طويل أسود لأجول بك أسواق المدينة، والدفّ بيمينني، أجرك لترقصي في الحلقات فأربح شيئا قليلا من النفقات المرتقبة لتربيتك. هنا علي الاعتراف بأنني تسرّعت وفي استعراض إمكانية رفض تسلّم الطرد وإرجاعه إلى الباعث. لم أكن أعلم آنذاك أنني سأراك، بعد ليلة تسكع في الشوارع المقفرة، تضعين على وجه القردة العجوز قناع الملاك المنتظر. فرد، إله أم ملاك. المهمّ ألا تكون شيطانا، يكفي ما في هذا العالم من شياطين. كن الرهان الراجح لهذا الذي يرمي-منذ بداية الملحمة العظمى-بكل رضيع، كالمقامر اليانس، يرمي آخر فلس له على طاولة القمار. اللعينة! لا أحد يعرف كيف تشتغل ولا من ورائها...كل ما نحن متأكدون منه أنها هي التي تحدّد لك مكان الوصول وزمانه...هي التي تقرر ميزانيتك منه وهل ستموت طفلا أم في أزدل العمر... هي التي تختار ما القمص التي ستتابع... هي التي ستمنحك الصحة أو أحببت الأمراض... هي التي ستضع على ذمّتك أحسن الأدلة أو أسوأهم. هي التي ستأخذك على أضمن مقاطع الطريق أو تدفع بك من هاوية لأخرى.

الصرخة الأولى.

مسألة ميكانيكية تتعلق بصعوبة فتح القصبات الهوائية؟

ليدعوا ما يشاءون، ما يهمني رأيك أنت صاحب الصرخة. ألم القطف من فرط حسرتك على قرار طائش لم يعد ينفع فيه ندم؟ أم لفهمك أن باب الكهف الدافئ أوصد وراء ظهرك إلى الأبد؟ هل أربك أنك ملقى بلا سلاح وسط ساحة معركة تعي كم ستكون رهيبية؟ أدامك الوعي أنك لن تكون نذيرا وإنما أغلب الظن قربانا؟ ربما رفعت عقيرتك لتتذمر وترهب. كم مضحك أن تتوجه بالتهديد لعالم مدجج بالسلاح، وأنت الأعزل من كل سلاح!
هل هي صرخة الذهول وأنت تبصر الوليمة أيها النهم الذي لا يشبع أبدا؟
ربما الأمر مجرد لفت انتباه تقول للعالم بكل بساطة وإيجاز: ها أنا.
أيا كان معنى لصرختك الأولى المؤكدة أنها ضاعت في زخم ضوضاء جهنمية لعالم ثرثار نزق عصبي المزاج، يتمازج فيها صراخ كائنات لا تحصي بدوي الرعد، بانفجار البراكين، بزئير البحر، بضجيج الشلالات، بصفير الريح... والكل يسجل حضوره ويهدد، أو يحتج صارخا بالمتعة وبالآلم.
على كل حال لم يبق لي سوى أن أصرخ أنا أيضا عليك تسمعي وسط كل هذا الصخب المقدس: مرحبا بك في عالم الانبهار والرعب... وكن على أشد الحذر.

القادم الجديد لأول مرة بين يدي من سيكون الدليل الذي سيسمي "با".
يسترعي انتباهي صغر رأسه. تعبر فكري صورة خاطفة لمكتبة ما زالت رفوفها فارغة، لكنها ستمتلئ-لسوء الحظ-بملفات كان على أغلبها أن تذهب مباشرة لسلة المهملات. هل الرفوف فارغة حقا أم تفيض بملفات تجربة الحياة على مر ملايين السنين؟

في لمح البرق، متطلّبات الوضعية الجديدة. حياتي من هذه اللحظة ملك لأخر سبوحه دقة رحلتي في اتجاه كنت صاحب الرأي الوحيد فيه. شعور كالبرق الخاطف بالندم وبفوات أوان الندم. ثم جدل غريب. أصبحت اليوم ضروريا لأحد. لكن، كل هذه المسؤولية! أليست هناك بعض المبالغة من السيد العالم؟ أه لا مبالغة ولا شطط ولا حتى ثقة في قدراتي المتواضعة. الضرورة لتواصل قافلة الحياة. ثمة من يقصر هذا الشعور على أضيق دائرة وحتى على التي لا تتخطى حدود جلده. ثمة من يوسعه ليشمل به كل الأحياء. اللهم اجعلني دوما من هذا الصنف.

أعود لمناجاة كائن لا أعرف عنه ولا يعرف عني شيئا.
نسيت أن أقبلك من فرط انشغالي بتفحصك بعيني المهني المتخوف من قائمة المصائب التي بيتلي بها البعض لأن الأيدي الخفية أخطأت في شيء ما. برفوف، هي لم تبد قصورا في شيء، لم تنس في قاع الكهف لا عينا ولا قدما، فلها كل الشكر والامتنان. الباقي علي؟ أنا! كل الباقي! طيب لكن ماذا لو بدنا بالسلام!
لا أحظى بردًا وأكاد أغضب لقلة الأدب.
- قلت: مرحبا.

كأنني بصمته تكثف بل مع شيء خفيف من النقرع ونكهة من التهكم.
كل الأجوبة مضمنة في هذا الصامت كما الأسنان في الفك تنتظر زمن البروز الموجه... ومع هذا لن يتكلم مثل كل الآخرين... لم أعرف منهم من أتى مسلما معانقا ومصافحا... لم أعرف منهم من حدث عمّا شاهده في الرحلات الأخرى وما جرّب فيها من أشكال وأحلام... لم أعرف منهم من أتى ببضائع مهزّبة من عوالم ما قبل العالم يقايبض بها شيئا ثمينا... وهذا الأدمي الذي ساقوده في مجاهل العالم لا يشد عن القاعدة.
مواصلة العبث مع شبح من صنع أحشائي.

عفوا، أعد ما قلت، سهوت لحظة. كيف؟ لا فائدة من الالاحاح السمج؟ أنا ألح! أدرش معك فقط دون نية تنبيهك لضرورة البحث عن دليل آخر في حالة ما. أه، لا تقبل تهديدا. مرحي، من شابه أباه فما ظلم. على الأقل طمئنني. هل هذا حقا أول أيام رحلتك؟ هل هذا أول لقاء لنا أم هل تعرفني منذ الأزل؟ هل كنت طفلك وكنت لي أبا في حلم آخر؟ هل تهنا عن بعضنا البعض في اتساع عوالم لا حصر لها؟ هل تواعدنا على تجديد اللقاء الآن وهنا؟ باختصار هل أنت حقا مولود جديد أم أنك والد كل قديم وكل جديد؟

يحدّق في الكائن الغريب مواصلا تجاهله الاستفزازي فأصرخ فيه ضاحكا: واصل تحديك السافر لأبيك، سأنطقك في نصي بما أريد وما أنا بأمرّ الحاجة لسماعه.

كانه يراني ولا يراني، كأنه ينظر إليّ وينظر من خلالي. كم هو قريب مغال في بعده، حاضر مغال في غيابه، ملتصق بي وبيننا هوة دون جسر فوقها.

إنه في مرحلة التشبّع البطيء بالوضع الجديد. لا ضرورة للعجلة ولا فائدة للتدخل في نسق الأمور.

ربما لا معنى لسؤاله، خاصة في هذا الظرف وهو منغمس في السرّ، ملتحم به وملتصق. مؤكّد أن هناك أوامر بالفصل التام بين العوالم وبين قصصها وأن الجمارك الكونية لا تسمح بتهريب بصيص من فكرة أو قبس من شعور قد يكون جُزّب في عالم آخر. محكوم عليك أن تدخل هذا العالم غير محمّل بالأم قديمة وعادات لا فائدة منها ... أن تأتي الوجود مفسوخ الذاكرة... أن تصله وأنت مثل أرض بكر لم تمسّها قدم، مثل شريط لم تسجل عليه نغمة، مثل كتاب لم يخطّ فيه حرف، لكي تكون البداية حقا بداية والتجديد تجديدا وكل عناصر التشويق حاضرة لتواصل قصة القصص في فصلها الجديد.

نعم لكن آه لو كان هذا الكائن الغريب بالحدّ الدنى من حسن النية لأخذته دون تضييع الوقت وانتظار مرور السنوات مباشرة إلى السيرك، ثم إلى السينما فحديقة الحيوانات، وكل مكان مثير أجزّه إليه مشيا وركضا. بل حتى وهو في هذه الحالة المضحة من افتعال العجز والتمسكن سادعوه لمطعم، نتبادل الأخبار؛ هو يحدثني عمّا ترك، وأنا عن العالم الذي أفتح له الطريق فيه. لا بدّ أنه ما زال يتذكّر كيف وأين ومتى بدأت القصة... كيف كانت الأحرف والجمل والنصوص الأولى... كلّ ما أحتاج للنصّ. ترفع القابلة صوتها ضاحكة تأمر أن أفيق من ذهولي وأن أعطي القادم الجديد إلى من تنتظر إليّ باسمه نافذة الصبر تنتشوق لاحتضان أول وليد لها. أمذكّ لأمك ولسان الحال يقول بعد أن ذهب الخوف وعادت السخرية التي أداويه بها منذ زمن طويل: أعذر من أنذر، والدليل لا يقبل الشكاوى، البقشيش فقط.

**

الإفاقة

من ذا الذي يذكر أول لقاء له مع النور، مع الظلام، مع الريح، مع الأفق!
لتمثل هذه اللحظة الفارقة التي تمثل أهم منعرج في مسار القصة تأتيني كثير من الصور ولا واحدة مرضية...مثلا تبلورك كمسافر بلا ذاكرة ولا أوراق في مطار مجهول لرحلة مجهولة وحولك جحافل من الأعراب ليسوا أقلّ ضياعا.
تباعتك الألوان والأصوات والحركة وكثافة الخلق. تسمع دون أن تفهم همسا ناعما من مكبر للصوت: "نعلم المنتظرين لوصول طائرة الحجيج أن الاستقبال في البهو رقم 1". يتعالى من مصدح يبدو بعيدا إعلام بلهجة فيها نفاذ صبر: "الرجاء من الراحلين التوجه حالا لقاعة الرحيل رقم 5". لا أحد يعبا بذهولك أو يبدو مستعدا للردّ على أولى الأسئلة. فجأة تسلّم عليك امرأة بحرارة مهنئة بحسن القدوم. يدفعك غريب من الخلف للتقدم نحو باب الخروج. تُقحم في صفوف متراصة تدفع بعضها البعض قدما إلى الأمام. تشعر أنه لا خيار لك غير الانخراط في السيل العرمرم ولا فعل أهمّ من البقاء طافيا على سطحه.
ثمة أيضا صورة الإفاقة.

تستيقظ أنت البّخار شيئا فشيئا على صرير الشراع، على دويّ الموج، على صفع الريح. لكنك لا زلت ملتحما بالعالم لا حدود واضحة بينك وبين الزورق والسماء والبحر.

ثم تنفصل شيئا فشيئا عن كل هذا لتجد نفسك واحدا ووحيدا وسط العاصفة في عرض المحيط.
أفضل الصور جماليا لكنها صعبة القبول لأكثر من سبب.

بالمعنى المتداول، الإفاقة هي الخروج تدريجيا من عالم النوم والدخول شيئا فشيئا عالم اليقظة.
لكنك لا تفيق من النوم لتواجه بظواهر لا تعرف لها اسما أو وظيفة. لا تفيق لذاتك تتساءل ما هذا الشيء الذي أتخطب داخله أو يتخطب داخلي، فيقظة ما بعد النوم تتمّ وسط عالم ثابت الخصائص، مألوف للمستيقظ، مألوف لنفسه. أضف لهذا أننا نفيق من " فضاء " دخلناه أكثر من مرة ونخرج منه سالمين كل صباح. ممّا نفيق عندما نفيق للحياة؟ ألا تفرض الصورة أنه كان لنا وجود قبل الوجود، رحلة قبل الرحلة؟

كل الصور عاجزة عن تمثّل هذه اللحظة المفصلية لكنني سأواصل استعمال التي أفضل ليس لي أحسن منها.
مما بقي منقوشا في أقدم الملفات أن ما يتبع الإفاقة، أو التبلور، أو الوصول، أو سمّ المنعرج ما شئت، أحاسيس بلل ومشاعر انزعاج وتبرّم بحدود غير مفهومة. لا أكره عندي إلى اليوم من النوم في فراش مغلق الطرف ولو في أبرد غرفة. لا بدّ أن تجد أصابع الرجلين المنفذ الذي افتقدته يوم كان الجسم الصغير ملفوفا في قماط مشدود محكم الغلق على عادة الذين نزلت بينهم. وأنتي كنت لا أكفّ عن الصراخ في أوج تجدد المغص. آه، أيها المسكين؛ محكوم عليك أن تأتي الوجود جائعا، أن تجرّب منه كل أصناف المسغبة وأن تغادره وأنت على أشدّ الجوع...على جوعك الأوّل.

يدرك العالم المنكبّ فوقك أنك ما زلت هشّا غضا قابلا لكل أصناف العطب، فيأتيك من المبهم سائل حار لذيذ الطعم، يتدفّق داخلك، يأمر برحيل المغص وتوقف الصراخ. يعود الصمت إلى داخلك لفترة لا تدوم طويلا. يتجدّد مغص الفراغ وكان لهذه الأحاسيس المزعجة مواعيد ثابتة ثبات لذة الرواء والشبع. تشعر أنه لم يعد لك من طاقة على تحمّل ما يعتمل داخلك. لا حلّ غير التراجع إلى القواعد التي وثبتت منها على الدنيا كما يرتمي الفأر بين مخالب الأسد. تهرب، إذن، إلى مغارة النوم لتبرأ من هول الوصول. أنظر لبني سفر وقد وصلوا لتوهم العالم، يدخلونه على أطراف الأصابع ويسارعون إلى المخبأ الذي فارقه كأثمهم يتمنون على عالم لا يواجه دفعة واحدة. المشكلة أنه لا نكوص من الآن على الأعقاب. أنت في هذا المنعرج من الطريق كالحويان الوجل الذي يعذبه الفضول. ما إن يجذبه النور خارج المغارة إلا وثب داخلها وقد فاجأه البرق والرعد. عادة لن تغادرك إذ لا تأتي مكانا جديدا إلا وشدك الحنين إلى ما غادرت، لا تطمئن إلى ما أتيتّه إلا إذا كنت واثقا أنّ ما غادرت تحت الطلب تؤوب إليه متى تشاء.

أنت دوما داخل العالم، كما النواة في الثمرة، وهو داخلك يتمطى بمنتهى البطء والحنز. ما أغرب أن تكونا داخل بعضكما البعض، هو خارج داخلك، وأنت داخل خارجه!

تننظم التجارب وتتضح بعض العلاقات المتواترة ومع هذا تفاجأ كل مرة بالروائح، بالأذواق، بالأصوات، بالأحاسيس الحادة اللاذعة الغريبة، بكل الزخم الذي يأتيك من عالم أهوج مرح، يداهمك بكلّ حيويته، من كلّ المسام، كأنه النهر وأنت الإسفنج. ثم تدرك يوما أنك شيء مختلف عما يثير فيك هذه الحالات، أنك مصدر بعض الحالات والأحداث. شيئا فشيئا تتضح الحدود وتتفصل الأشكال عن بعضها البعض.

أولها شكل الكائن الأوّل...الذي كان المغارة السحرية...والقنطرة...وهو الآن مدير التشريفات، الحارس والخدام الأمين...
قريبا المرأة التي تعكس لك أول صورك.

يرتبط ظهوره المفاجئ في أقدم طبقات ذاكرتي بأصوات سيقع التعرف عليها لاحقا بأنها لخلخال وأساور. هو أول من تسمع منه صوت الأدميين تفهم تلقائيا منه كل رسالة أنت الذي لم يدخل بعد أي لغة.

تشغ الملامح بالنور وهو منكب عليك، تبعث فيك ابتسامته طمأنينة عابرة. تختفي الابتسامه، وتفهم تلقائيا معنى الخطأ وضرورة التدارك. كيف؟ ترتبك، ثم تعود للصراخ فتصدر منه كم من إشارات أن ترتب بالحكم ولا تخف. ثم تنتظم هذه الملامح وهي دوما على نفس الشكل لتناقش أولى صور كائن عجيب، يتحرك ببطء بالغ، له وجه هادئ ويحرك يدين نحيفتين لا تمسكان بالأشياء إلا برفق فيه خشية الإيذاء... وكل الوجود مرتبط بوجوده.

تتعلم باكرا الربط بين حضوره وانحسار كل أحاسيس الضيق والبلل، أنه هو الذي يستجيب لنداء الاستغاثة عندما تطلقه، أنه مصدر السائل الدافئ الذي يطفئ دوما لهيب المغص المتجدد. ثمة إذن شيء حولك يستجيب لك إن أنت أطلقت عقيرتك بالأمر والاحتجاج، لا تدري بماذا تأمر وضد من تحتج. إنها فكرة مغرية لن تتخلص منها بسهولة. لا تلبث أن تدخل الاكتشاف الهائل الآخر بأنك تستطيع أن تصرخ كل الأبدية، والشيء المنفذ من الورطة التي تتخبط فيها مُصر على غيابه المرعب.

قد يكون أهم انطباع للقدام الجديد وأرسخ في الذاكرة أنه محاط، بل وحتى في قبضة كائنات جبارة، هي التي تمنحه بكل كرم- ما هو بأمس الحاجة إليه، أو تمنع هذا المطلوب الضروري لمواصله الوجود إن لم يرضها أو أثار فيها استياء غير مفهوم، وأنداك لا بد من التملق تارة والابتزاز تارة أخرى. هكذا تتشكل باكرا في أعماق الذات، في أحاسيسها وصورها الأولى، دعامة الأساطير والأديان وما تفرع منها وضدها من فلسفات.

ما أغرب أن ندين بأقدم وأصلب تصور اتنا للعالم لرضع يتخبطون في مشاكل المغص والبلل!

*

يجب الآن إخراج هذا الرضيع من وضع متلقي المعلومات السلبي إلى وضع الجائع الباحث عنها بكل السبل وفي كل المستويات. ويجب أن نفعل ذلك سريعا لكثرة ما يحتاج ولأن كل لحظة من الزمن هدية ملكية لا تضيع عبثا.

يتطلب الأمر أن يكتسب الأدمي خاصية جديدة ولا حرج أن تكون بالغة الإزعاج للآخرين: الفضول.

ثمة معلومات ناقصة في ذاكرة الطفل عن هذه المرحلة من الرحلة، لكنها متوفرة بكل التفاصيل في ذاكرته وقد أصبح الجد.

تفلت مني الصرخة:

- حذار، البنت، البنت!

تضحك تفاحة:

- تظنني كنت سأدوس على يدها.

- لو فعلت لخفتك.

لا تنتبه حرّة للخناقة الضاحكة، مواصلة زحفها على أطرافها الأربعة وهي في قمة الجذل، تنعم بحريتها الجديدة بعد أن أخرجناها من الفضاء المطوق باللوح المسموح لها بالهرج داخله، والذي كنا نسميه "قوانناتمو"

- "با"، ستجيني هذه الطفلة.

- اتركي الأمر لي، سأراقبها بمنتهى الحذر وكأنها الحليب على النار.

- تقصد بمنتهى التهريج وكأنها اللعبة التي جادت بها الأقدار.

- كفى وقاحة لا تقلقي سأجد ما ألهي به الطفلة، والأن، رحماك، أغلقي هذا الباب واختفي.

تنسحب تفاحة مسلطة علي نظرة فيها إشفاق وشك في قدراتي على ترويض من تعارفنا على تسميته "البيع".

يحقق في الكائن الغريب باحتراز لا يخفيه من غريب جديد. لا بد من رسائل طمأننة لأحظى بالثقة الغالية.

- ها قد أخرجتك من "قوانناتمو". أنت الآن حرّة يا حرّة. أرني كيف تكون بداية استكشاف العالم.

تجلس رضية التسعة أشهر على مؤخرتها المكتنزة بالورق الصحي. تعود للتحديق في مطولا. يلمع في عينيها المتسعيتين على أقصاهما كل الممكن من الاستغراب. ترمي بيديها البضتين على الأرض لتنتقل كالسهم على أطرافها الأربعة باتجاه المكتبة. تنتصب على ساقين مرتجفتين. تدفع بأصابعها المرتبكة نحو الرفوف لتحسس الكتب. تسقط أربعة منها دفعة واحدة. تفاجأ بالدوي فتسقط بدورها على مؤخرتها من علو قامتها غير الشاهقة. تدير وجهها باحثة عن ردود فعل. الآن وقد جاء أمر صامت بمواصلة البحث، تبدأ عملية مطولة تستولي على انتباهها وانتباهي.

ترفع قامتها، أو قل تتسلفها من جديد، إلى حيث يمكن مواجهة بريق شيء يلمع. يتبين أن الشيء يستعصي على المسك والجذب. تدير الرضية ووجهها بحثا عن مصدر صوت محرّض ومشجّع على التعمق في استكشاف الأربعة أمتار مربعة من عالم سيرهبا يوما اتساعه.

يفترّ ثغرها عن ابتسامه أول صبح لأول عالم. أنفجر ضاحكا ومعلقا على فم ليس فيه إلا ناب واحدة.

تعود أدرجها لتمسك بالشيء الذي لا تقدر كم هو ثمين لأمرها وأبيها. تقلبه ببالغ التركيز. تكتشف أن الأصابع قادرة على تمزيق أوراقه، فلا تتورع إلى أن يأتيها الصراخ الضاحك بالتوقف. تغير الرضيفة اتجاهها وتقصدي مسرعة على أطرافها الأربعة وأنا جالس على الأريكة أتأملها. تتوقف في نصف الطريق لتعاود الجلوس وقد أمسكت بين أناملها بشيء لا أتعرف عليه. تطيل التحديق فيه ثم تضعه في فمها. ماذا وضعت فيه هذه المرة؟ لأراقب ملامحها. لا شيء خطير أو مزعج. إذن لتواصل تذوق العالم؛ فاللسان-بعد العينين-أهم أدوات الاستكشاف.

إبان الإفاقة يتشكل الموجود كمعطى مباشر تتعامل معه الذات من فوق وخارج اللغة واكراهاتها... كجملة من المظاهر الموضوعية حولنا وأمامنا، تكشفها الحواس وتتفاعل معها، ولا شيء غير أحاسيس مشاعر بالغة العمق والقوة. ربما هكذا تتفاعل مع العالم الكائنات التي تسميها اللغة الحيوانات والنباتات.

تنتبه حرة لا ينتباهي فتبتسم. أصرخ فيها أن تأتيني مسرعة لأقبلها وأدغدغها وأعضها وأمازحها وأحكي لها أولى الأفكار بخصوص قصة القصص.

ترمي الرضيفة براحتها على الأرض وتعود إلى زحفها الراكض إلى أن تصطدم بالطاولة الواطئة. تنتصب من جديد على قدميها مترنحة لتبدأ العبت بفنجان القهوة.

- ممنوع، ممنوع يا بنت. قلنا ممنوع. القهوة لي فقط ومن المستحسن ألا تراق على بنطلوني. سنتعلمين سريعا أن الاستكشاف أيضا اكتشاف الموانع داخل فضاء محمل بكل الأخطار.

تلاحظ البنت تغير النبرة فتتوقف لحظة. تترك الفنجان لتستولي بصعوبة على الملعقة وتبدأ في الخبط بها على الطاولة. تتوقف وقد فوجئت بالضجيج. ثم تنتبه للمعزة الجديدة. هي قادرة على إحداث نفس الصوت بنفس العملية، وإلى ما لا نهاية. تسلط علي نظرتها الثاقبة. كأنها لم تر فيها هذه المرة منعا وتقريرا فيشتد الخبط. أه، يا رأسي. يكفي من هذه الملعقة اللعينة. رحماك يا بنت. اتركي هذه الستائر وإلا سقطت على رأسك. الهاتف ممنوع وهو لم يفعل لك شيئا، فلم العدوان الظالم عليه؟ لا، لا، كل شيء إلا أزرار الكهراء. يا إلهي، أين اختفيت! هذا شيء اسمه التلاجة. يستحيل عليك فتحه وأنت في هذا العمر ولا بد من الانتباه حتى لا نجدك يوما مجمدة داخلها. الحل إرجاعك ل " جوانتانامو" لأخلص من ضجيج الملعقة ومن إرهاب الجري ورائك لمنعك مرة من تمزيق الكتب ومرة أخرى من جر نباتات أمك على الأرض. ستحتج لحظة متشبثة بالقصبان الخشبية تمارسين علي الضغط والابتزاز ببيكاء فيه كثير من التكلف. سريعا ستجلسين لمواصلة أبحاثك المعقدة في أرنب الصوف والمكعبات الصفراء والدمية الصامتة. لا، لن أحبسك وقد جئت لأبصرك في أولى مراحل الرحلة وأهمها. كوني بنتا طيبة، اجلسي بهدوء على ركبتي بانتظار أن أدون بعض الملاحظات والخواطر على حاسوبي النقال.

ماذا؟ تريدين النقر. لكنك لا تعرفين الكلام فما بالك بالكتابة. أه، من قال لي هذا؟ كل شيء في هذا العالم ممكن. على كل حال، هل لك في هذا العمر ما يستحق التدوين؟ ماذا؟ هل لي أنا شيء يستحقه؟ يا بنت، "بلاش قلة أدب"! طيب، اکتني تقريرا ضافيا عن تفاصيل الإفاقة، وكيف كانت بداية تجربة الأدمي في العالم، كيف يرى الأشياء والكائنات، ما رأيته في الغرائب والعجائب التي تحاصرهم، كيف تنتظم كل هذه المظاهر في ذهنه، وما معناها بالنسبة إليك. تعرفين ما أريد. خذي راحتك، أمامنا متسع من الوقت قبل رجوع أمك. أرجو تعاوننا أكثر مما أظهرت هي يوم طلبت منها نفس الخدمة.

تنقر الرضيفة بحماس: تاء للسلغاء غعل نائشلتغشبتغشفت تلالغشبتغشفت...

ما هذا؟ طيب، وأصلي.

يا بنت، لا أفهم هذه اللغة، ولا أظن أحدا من قراء "الرحلة" قادر على فهمها حتى ولو تكلموا كلهم بها يوما.

بيصشبيسيبضسبض. نتلغبفبفتبنا غلغانتلاتخالسبفبفبنا لا فتتغف 7 فقققق

يا بنت، النقر على مفاتيح الحاسوب يكون عادة بالأنامل لا بالقبضتين.

ویشوشوشسشءووشوشوشببضضنتها عاعاللغللغللغبققف6ف8ع9حه.

فهمت. سبق فلسفي سأحسد عليه طويلا. حقا إنها معلومات مهمة. سأستعملها لاحقا. وفي الانتظار، الرجاء إيقاف الاعتداء على هذا الحاسوب المسكين. أه، تريدين طبع اكتشافاتك المذهلة لتبقى للأجيال الصاعدة. لم لا؟ اللعنة على هذه الطابعة الغيبية. لا تتعطل إلا عندما احتاجها. قد تكون غير مرتبطة بالحاسوب. يجب أن أبحث عن السلك في هذا التشابك الفوضوي المخيف حول قدمي. انتظري، سنعود للاستجاب لاحقا. أه، يا ظهري!

تصرخ تفاعلة ضاحكة: ماذا تفعلان تحت الطاولة؟

تفعلان! ألتفت خلفي لأكتشف حرة ورائي، وهي على أطرافها الأربعة تحدد في شخص مجهول يفعل أشياء مجهولة في مكان مجهول أفقت فيه لا تعلم لأي سبب.

- "با"، البنت تكبر بسرعة رهيبية. هل فكّرت بالقصص التي ستطلبها منك قريباً. تذكر أن تفيحة حدّرتك في آخر عشاء لنا من إعادة استعمال القصص التي كنت ترويها لنا. هي خاصة بنا ولا نرضى بها حتى لأطفالنا.
- تفاحة، انتبهي لهذه البنت فهي فضولية أكثر حتى منك أنت لما كنت في عمرها.
- أعتقد أنها ستمشي قبل بلوغ سنتها الأولى وأنداك: يا ويلى من هذه الفأرة!
الفأر!

تضحك "ما" إلى أن يملكها السعال. تستعيد بسرعة وقارها.
- أنت طفل مبكر في كل شيء، لكن ليس إلى درجة أن تولد متأهبا للمشي والركض. طبعا كنت تحبو ككل رضيع.
- هل كنت أطوف في كل الأرجاء؟ هل كنت تجدينني بسهولة؟
- بسهولة، لا. لكنني كنت أجدك دوما في مكان أقل توقُّعا من الآخر. كل من عرفوك آنذاك أطلقوا عليك نفس الاسم: الفأر.
تتنهد "ما" والبصر شاخص نحو الأفق:

- يوم وقفت على رجليك وأنت لم تبلغ سنتك الأولى زغرذت ثم قلت: يا ويلى من هذا الفأر.
إنه يوم أغرّ حقا، فلماذا لا يورخ له كل مسافر، ولا تضرب له الدفوف وتنطلق الزغاريد وتنصب الموائد وقد رأيت احتفالات لأحداث أقل أهمية بكثير؟ كأني بالعالم يهمس في أذن كل رضيع مشجعا ومطمئنا: والآن تقدّم، لا تخف أن تخسف بك أرضي؛ إنَّها تحمل الجبال الرواسي منذ الأزل، ولا خشية أن تكون أنت بالذات القشّة التي تقصم ظهر بعير كهذا. ها أنت تحرك رجلا ترفعها بصعوبة وترميها على طبق تظنّه صلبا لا تعلم أنه يطفو منذ القدم على أنهار من النّار. تواصل تحسّس سطح البسيطة بحذر في محلّه، والعثرة تلو العثرة تنبؤك أن الطريق مسلسل عثرات. ثم ينزاح عنك الخوف تدريجيا فهمت أن المشي فقدان توازن ثم تداركه. يوم تتأكد من فهمك لقواعد المشي، يرفع الحاجز في وجهك كما يرفع في وجه نهر حبيس انهار أمام دفعه السدّ.

**

عن تقاطعات الطريق التي سبقت البداية الغامضة

استحضارنا لتاريخنا الشخصي عملية تشبه تلك التي يقوم بها عالم آثار لا يتوقّر إلا على القليل من المعطيات ومع ذلك يدعي اكتشاف تصميم البناية المجهولة... مما يضطره لتجنيّد الخيال وحتى لتصور قطع لم توجد يوماً لكنها تملأ الثغرات المزعجة. عودة لإشكالية بداية الرحلة.

كيف يسعنا القول إنها تبدأ عند الولادة والحال اننا نعلم أنه لا بدّ لكل بداية من أحداث سبقتها ومهدّت لها... وأن لهذه الأحداث نفسها أحداث سبقتها... وأن للأحداث التي سبقت الأحداث التي سبقت هذه الأحداث أحداث سبقتها.... وهكذا إلى أن تضيق سلسلة الأحداث الممهدة لبدايتنا المفترضة في ضباب غابر الزمان! !

إنها إشكالية ضخمة ستتابع الطفل إلى آخر مراحل الرحلة، لكن مهلاً لا زلنا في بداية تشكل تصوره للبداية " الحقيقية"، ها هو قد امتلك وقد أصبح في سنته الرابعة اللغّة وكل ما تسمح به من أسئلة لا تتوقف ابداً:

- "ما"، أين كنت قبل ولادتي؟

- في بطني يا حبيبي. انتظرتك بفارغ الصبر تسعة أشهر مرّت كلمح البرق.

- "ما"، لماذا تسعة أشهر وليس تسعة أيام؟

سؤال ليس بغريب من طفل تميز يوماً بالسرعة في كل ما يقول ويفعل، وستقول عنه "ح" يوماً: لو طلب منك أن تفعل لا شيء لفعلته بأقصى ما تقدر عليه من سرعة.

- "ما"، ماذا فعلت داخل بطنك طول هذا الوقت وكيف دخلته؟

من أين لفاقد الشيء أن يعطيه، ولفاقد ذاكرته أن يسعف ذاكرة الآخر ثمّ هناك أشياء لا تقولها أم لابنها

- "ما"، هل ندمت على ولادتي بعد أن اكتشفت كم أنا طفل مزعج؟

تهمس الأم في أذن طفل تحضنه بقوة الغريق المتشبث بما يطفو من القش:

- لا أحبّ شيئاً فيك قدر أنك مزعج كما تقول.

- "ما"، "با" "دوماً غائب، لماذا؟ أين هو الآن؟ حدثيني عنه، متى عرفته، كيف أصبحت له ابناً؟

تمرّ الأم يدها ببالغ البطء على الشعر المنفوش:

- ذهب شيخ قريبنا إلى الجامع الأعظم مفتشاً عن مؤدّب لأطفال قريبنا ثمّ... لكنني حكيت لك القصة أكثر من مرّة.

يصرخ الطفل محتجاً: أعيدي. وبعد أن خرج عمي إبراهيم بحثاً عن "با"...؟

العهد على الراوية: تحرّك الشيخ ذلك الصباح بحثاً عن مؤدّب لأطفال قرية لم يسمع بها أحد غير سگانها. وصل إلى الجامع الأعظم يسأل الكثيرين فلا يعجبه هذا أو ذلك لعلمه بمواصفات حاجته. العجب العجيب أن تكون كلها موجودة في "با". الأعب من ذلك أنه هو نفسه كان موجوداً ذلك اليوم، بل في تلك الساعة وفي ذلك المكان. كأنّ الأقدار ضربت له موعداً لم يكن له الحقّ في نسيانه على شدة استخفافه بالمواعيد. هو لم يكن بالصدفة في مظاهرة أو قابعا في زنزانة رطبة ولا حتّى مصابا يزكام خفيف ألزمه الفراش ذلك اليوم تحديداً. هو لم يكن يتمرّن على السلاح أو بصدد نقله من مغارة إلى أخرى، ولم يكن على الطريق هاربا من الجيش والشرطة.

نعم، كان الرّجل الذي أرادته لي القصة دليلي الثاني موجوداً ذلك اليوم بكامل أعضائه وكامل ذاته وكامل صفاته... حاضرا بين يدي القدر. ومع ذلك ترى هل تردّد الشيخ؟ ربما انتبه للوقاحة التي تنضح بها كل قسّمات الشاب الغريب. هل أربته جرأة كانت تطبع حركات الطّالب الطموح وسكناته؟ هل شدّه ذلك الذكاء الوقاد الذي كان يستهوي حتى الدّ أعدائه؟ أم هل اختاره- رغم حدّة طبع واضحة- لأنّه كان وسيماً؟

يأخذ العم إبراهيم قراره باختياره هو لا غير وحسنا فعل.

ماذا؟ كأنّ الرّجل الذي سأسميه "با" يتردّد أم أتوهم وأنا الآن كالطفل الذي يلعب بإخافة نفسه وهو واثق أنّه لا خشية عليه من لعب كهذا!

يحتدم أول نقاش بيننا من وراء أستار زمن تداخلت مستوياته واتجاهاته.

- سنذهب مع الشيخ، وإلا كيف أكون؟

- أنا أعيش مع الفلاحين! أنا أذهب إلى قرية غارقة في الوحل شتاء وفي الغبار صيفا؟ أنا الذي أشرف الاسم الذي أحمله، أنا الذي...

- قلنا: كفى.

- يا ولد، لا تطلب مني شيئا كهذا. أنا مؤدب أطفال في تجمع أكواخ طين وقش!

- حتى الآن لم يقرأ لك أعمى أدبا، ولم تسهر حول قوافيك القبائل وتختصم.

- ماذا تقول يا قليل الحياء؟ ألا تعرف من هذا الذي ستشرف بانتسابك له؟ الكرامة قبل الخبز، يا فتى.

اللغة، هل يمكن أن يركب الرجل رأسه؟ من يعرف أكثر مني عناده؟ هو يغالب تلك العنقية البدوية الغريزية وذلك الاحتقار التاريخي لأهله، ركاب الخيل والإبل، تجاه الماشيين وراء أنتاب البقر.

- يا رجل، خذ بيد الشيخ واتبعه لتأكل واطرک الشعارات الجميلة لخطبك الجوفاء.

من حسن حظي أن الجوع حافز أقوى من الكبرياء حتى بالنسبة لأدمي مثل "يا".

ها هو الرجل الذي سيشغل حيزا كبيرا من قصتي، أخيرا مؤدبا لأطفال الفقراء، يقرئهم بعض ما تعلم في الجامع الأعظم وكله سخط على الأقدار الظالمة التي ما انفكت تضحك منه، جاهلا أنه لم يخص وحده بالاستخفاف من قبل عالم يسخر باستمرار منا جميعا.

هو الآن وجهها لوجه مع امرأة قررت القرية تزويجها لرجل لا يجوز أن يعيش بينهم أعزب. لا ترقص طربا أيها الشبح فما زال الممكن غير ممكن وما زال اللاممكن ممكنا. أيرضى الشاب المتعجرف بفلأحة أمية لا تقول الشعر ولا تحفظه، هو الذي عاب على زنوبيا أنها أنت الوجود قبله، هو الذي رثى لشجرة الدر لأنها لم تعرفه بعلا، هو الذي سخط على الخنساء لأنها لو عرفته لقاتل فيه وحده الشعر ولو كان شعر العزاء، هو الذي كان يقول لأصحابه: البارحة كانت سهرة لم يعرف لها الليل مثيلا: المغنية كوكب الشرق، وكلمات الأغنية لأمير الشعراء، والمستمع عبدكم المتواضع. ادخلوا جوركم يا عتاة النرجسية، أين نرجسيتكم من نرجسية رجل حطني باكرا قصيدة تفوح بكبرياء سخي:

قومي استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب (مهيار الديلمين)
وأبي كسرى علا إيوانه أين في الناس أب مثل أبي

هكذا لم أذكر، "با" في حديث إلا وقلت: السيد "أين في الناس"، فيضحك الإخوة وتقطب الأم جبينها بين ضحك مكتوم واستنكار مصطنع.

هل ترددت وهم يواجهونها بضرورة التحوّل لكوخ الغريب برخصة من سلطات السماء والأرض لتكون له خادمة بلا أجره وتوفّر له مع بقية الخدمات متعة عابرة؟

يعاودني قلق فيه هزل وجدّ لما أعرفه فيها من حس فطري بالكرامة. لكن من أين لها مثل هذا الترف أمام شاب كهذا رتمه الأقدار تحت قدميها؟ هل أذاب أخيرا ربّع ابتسامتها، بما تعكس من رقة وحياء، غلظة البدو فيه؟ أم هل اكتشف وراء عيني المها ذكاء حادًا بهره ولو أنّه كان من قوم لا يبحثون عن الذكاء عند النساء؟

ماذا لو لعب الشيطان ورقته الأخيرة وهو يسرّ في أذنها بما يخبئه لها من عظيم المصائب هذا الرجل الجميل الأنيق المتعلم؟ ربما فعلت تصديقه. الأرجح أنها صدقت، وقررت مع ذلك أن على القصة أن تأخذ مجراها لأنه لا مجال لغير ذلك.

كانت "ما" تتحرك داخل رؤيا لا يحصل فيها إلا ما أراد كائن لا مردّ لإرادته أملى نصي ونصك وكل النصوص، بل كل سطر وحرف وكل فاصلة، وعهد لممثل اسمه "القدر" بقراءتها على الدمى لتتحرك وفق المخطط المرسوم من الأزل. من أين لها أن ترفض أمرا ضمنيا سطره لها الله ممثلا في هذا الغريب الذي حكم عليه هو الآخر من أين يدري ولا يدري أبا لأطفالها. في رؤياها هناك قوّة قاهرة فرضت على قطرة الماء التّازلة من أعلى شلال الزّمان اتجاها أوصلها إلى شفتيها بالرغم من تقاطع ألف طريق، والأمر سيتواصل على نفس المنوال إلى النهاية. كيف لا تؤمن بأمر كهذا وكل ما نشأت عليه بل وكل ما ستعرف من أحداث يؤكد صحة قراءتها الأحداث. أتصوّر ما منكبّة على الطفل الملتهب بالحمى تتاجي نفسها للتغلب على قلق مبهم: كان بوسع طفلي هذا ألا يصل بتاتا، لكن ذلك لم يحصل... كان بوسعه أن يولد مشوّها، لكن ذلك لم يحصل... كان بوسع الموت أن يختطفه بتلك الحصباء اللعينة ذلك الصيف المشنوم، لكن ذلك لم يحصل... كان بوسع الموج الهائج أن يبتلعه في ذلك الصّيف الآخر المشنوم، لكن ذلك لم يحصل... إذن لم يحمه الله من كل هذا إلا لأنه يريد له البقاء لذلك سيشفى وسيثب على رجليه مجددا كالغريت الذي أحبّ.

كانت "ما" تؤمن بأن كل شيء في هذه الدنيا "مكتوب" أو مسطر منذ الأزل في دفتر الأقدار. أما في رؤياي فالأمر العكس تماما. أنظر إلى نفس القطرة، أتابع تدرجها المضطرب من أعلى شلال الزمان، راسخ الاعتقاد أن بوسعها التوجه أي لحظة يمينًا بدل الشمال، أن تنطير بخارا، أن تدخل أعماق الشلال لتختفي فيه، أن يدفعها الريح خارج السيل. معنى هذا أنه لم يكن هناك أي حتمية لتكون قصتي كما أعرّفها أو حتى أن أكون وأن أوجد يوما لأننا كلنا نتاج صدف لا تحصي ولا تعدّ.

توقّف عند واحد من تقاطعات طريق يعرف له لا بداية ولا نهاية ولا كم من مرّة كان بوسع الأحداث أن تأخذ لها عكس الوجهة التي اتخذت.

ألم يكن بوسع الحدث الجلل الذي أولد الفتح أن يتخذ له مسارا آخر؟ أليس المصطفى هو سبب نهوض أمة ووراء تحركها ملايين القصص اتخذت الاتجاه الذي حدّه بوعي وبدون وعي؟

سل عصابة الشرك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختار لم تسم (أحمد شوقي)
هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التسابيح والقرآن من أمم
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم كالغاب والحائمت الزغب كالرخم

ثمة إذن، تقاطع طريق أساسي لسيل القصص التي كانت قصتي واحدة منها هو ذلك الغار، تلك اللحظة الفاصلة في سيل الزمان.

ها أكبر المجرمين يقتربون من بابه، يحومون حوله، والفناء يتهدّد ألف ذات وذات، فتمسك كم قصةً على وشك الولادة النفس ترقّباً وهلعاً. ينصرف القتلة وقد خدعهم أروع عنكبوت ولدته أروع قصة. لكن أي دليل لي على أنّ الخيانة لم تحدث؟ أن العنكبوت لم تتحرّك تلك اللحظة سهواً أو عمداً؟ وأنّ القتلة فهموا أنّ الغار ليس مهجوراً؟

ترى أي مجرى كانت قصة الأمة تأخذ، ومن ثم قصتي وقصة الملايين... أو لو أنجب المصطفى بدل البنات ولدا عاش... أو ولدين... أو ثلاثة؟ أي مسار كانت تتخذه لو خسر غزاة الصحاري معركة واحدة ضدّ أجدادي الآخرين سادة الجبال المتكبرة؟ كان بوسع الخليفة الفاطمي أن يُطمع أجدادي بذهب الجنوب لا بمراعي المغرب... كان بوسع فرسان سليم التوجه للحرب والدعوة نحو فارس لا نحو إفريقيا... كان بوسع تلك الجدة، أو ذلك الجدّ، الذي اخترق به، أو بها، النخاسون الصحراء في قوافل الشفاء والشرّ، أن تموت أو أن يموت في الطريق إرهاقا وكربا...ماذا لو رحلت المجاعة ذلك العام الذي سمّي "عام القنطرة" بذلك الجدّ أو تلك الجدة؟...أهناك قصة موازية لـ "ما" تنتقل فيها من رجل إلى رجل بعد أن هجرت "با" الرجل الطيب الذي قصر حياته على تربية خمسة أطفال رمتهم في عنقه وهربت لتدير ماخورا كما وقع الأمر في قصة من أشهر قصص الأدب الأمريكي؟ ترى كيف أنا "الآن" في مثل هذه القصة؟ وما الذي فعلته بعد اكتشاف الحقيقة الرهيبة؟ ربما قتلت "ما" بيدي العاريتين؟...ماذا لو كان لي - دوماً في إطار الرؤيا التي تتبلور بصعوبة في ذهني - ألف أنا وكل واحد يعيش هذه اللحظة قصته؟

أغمض العينين، أتابع ببصيرة الخيال أي مسار كانت تتخذه قصتي وقد انتصر آدمي اسمه هتلر في الحرب التي شارفت على الانتهاء عند ولادتي.

تختار السائحة الجميلة مكانها حيث نور الشمس. تضع حقيبة اليد على الطاولة، تسحب منها علبة دخانها الزرقاء التي لا تفارقها، ثم تستدير باحثة عن النادل لطلب "الجيلاتي" وعلى ملامحها ابتسامة واسعة ستقلب ضحكة مرحة لبداية دردشة تستهلها مع كل غريب ببساطة وتلقائية من لا يعرفون الخبث والعدوانية.

تفتح عينيها على الأقصى، تحدّق باندھاش في النادل الأسمر المقرب منها بكل حذر. يلحظ الرجل نظرتها المسلّطة عليه فيزداد تشنّجاً. ألم يسرع لها بكل المسكنة المطلوبة من الخدم الموردين من أقاليم العبيد؟ هل ستطلق عقيرتها بالصراخ والسبّ فينال مجدداً نصيباً وافراً من السوط وهو لسبب جهله-مّتهم دوماً، دون بقية العبيد الآخرين، بإضمار التمرد وحتى بالإعداد له. يعود لها بما طلبت، والمرأة لا تكفّ عن التمعن فيه بدهشة لا تخفيها. الغريب أنه ليس في نظرتها ما تعود عليه من الازدراء، وإنما يريق لا يفهمه. تتحرّك أنامله تلقائياً نحو شعرها كأنّ فيها حنيناً غريزياً لهذه الجدائل الشقر. يتوقف في نصف الطريق وقد داهمه الهلع من نتائج ما كان على وشك ارتكابه. ينتبه صاحب المقهى لارتباك عبده واضطراب الزبونة. يتوجّه إليها بأدب المهنيين:

- عفوا يا دكتورة، هل ضايقتك هذا العبد السامي في شيء؟
- لا أبداً، أبداً.

- أحببت "الجيلاتي"؟ مرطباتنا أحسن ما في فينيسيا... لكنك لم تأكلي منها شيئاً!
تقطّب المرأة جبينها وقد ماتت الضحكة على شفيتها. تجمع حوائجها لائذة بالفرار وفي عينيها غلالة الدمع، والنص وحده العليم بأنّها نسيت ولم تنس أنها كانت في قصة موازية تبحث مع حبيبها هذا في أزقة المدينة وفي كل كنائسها عن صدى أنغام رجل اسمه "فيفالدي".

يتابعها العبد السامي المتزايد حيرة وحرّجا وهي تخترق ساحة سان ماركو راكضة نحو القتال الكبير إلى أن يحجبها عن الأنظار تمثال هتلر الأكبر باني إمبراطورية أورو-أفريقيا العظمى عليه صلوات الربّ ووطن وبركات الربّة فريكا. يفيق

على صراخ سيده وهو يركله: "أطعمك لتتفرّج على السياح يطوفون بتمثال سيدنا. هل تريد إجازة في محتشد خمسة أسلاك؟ حرّك طيزك يا untermensch، يا ما تحت الإنسان".

ثمة ضرورة قصة مناقضة تماما، مثلا تلك التي يكتشف فيها باني امبراطورية أورو-أفريقياسيا أنه لم يبين شيئا والقصة كلها جزء من حلم جميل... أو التي يفيق فيها مذعورا من كابوس يرى فيه شعبه يتواصل ويتجدّد على أنقاض خرائب هائلة ودمار واسع وإجرام منقطع النظير كان هو سببه. الكابوس داخل الكابوس وقوف الشباب في عاصمته الأبدية مهلّلين لزعيم أسود يدعو لوقف الحرب بين الشعوب والحضارات. ربما جاءت أزمّة قلبية وهو يكتشف أنه كان هو الـ "ما تحت الإنسان"، طبقا للقانون الأزلي القاضي أنك لا تكره أكثر من الكائن الذي بداخلك، تعكسه وترميه على الآخرين.

لا، لا، غبي خطير كهذا المجرم ليس بحاجة للتواصل حيّا وقد أظهر كم هو عدوّ للحياة. لننصب له كمينًا قاتلا في قصة قد توفّر على ملايين القصص نهاية محزنة.

يتعالى الصراخ من ممرضة عنبر الرضّع:

- النجدة، النجدة!

تندافع زميلاتها لتتسرّرن مذهولات أمام المشهد البشع.

- يا إلهي! حتّى الرضّع لم يعودوا في مأمن! كل هذا الدم!

- أي وحش ذبح مثل هذا الملاك!

- انظروا، إنه المجرم يتسوّر الحائط لائذا بالفرار!

يدوّي عويل بصمّ الأذان من الممرضة المكلفة بالملاك المذبوح.

يصرخ فيها المفتش:

- كفى هستيريا، أيتها المرأة الغبيّة. ما اسم الرضيع؟

- سميناه للمداعبة على اسم قط القسم... هتلر، أه يا صغيري!

تتقيّم الممرضة راشيل كوهين كل ما في أحشائها، قبل أن يغمى عليها. كان الرضيع الضحوك المفضل لديها في كلّ المحضنة، بل وكانت تنوي تبني اللقيط.

بالمناسبة، كم رضيعا لم يمت كان من الأحسن له وللجميع أن تجهض به أمه، وكل محاولات ذبحه فشلت في كل القصص! في المقابل، كم مات لنا من مهدي ومن مسيح ونحن نجعل أننا مررنا قريبا جدًا من ضفّة النجاة!

يمكن الآن للنسخة الجديدة من نفس القصة أن تتقدم.

يتوجّه العجوز الأصلع البدين بأدب المهنيين للشباب الأسمر المتعجرف:

- أرجو يا دكتور أن "الجيلاتي" أعجبك، لكنك لم تأكل منها شيئا! إنها أشهى المرطبات المثلجة في كل فينيسيا.

- أشهى ما في فينيسيا هذه الشقراء الجالسة هناك. مشغول بها لا أدري لماذا... كأنني أعرفها.

يضحك صاحب المقهى:

- لا يفوقنا عشقا للنساء إلا أنتم أسيادنا القرطاجيين. آسف، هذه المرة ستعود خالي الوفاض. إنها حريفة تأتي دوما مع زوجها وطفلتها. حذار.

طفلتان! تفاحة وفتيحة؟ هل يمكن للقصص أن تكون صدى لبعضها البعض؟

ينهض الشاب من مقعده، وبالقلب ثقل لا يعرف له سببا، قاصدا النافورة الشهيرة التي تتوسّط الساحة الأشهر، ثم يدير الوجه لإلقاء آخر نظرة على امرأة مجهولة. يفاجأ ولا يفاجأ أن يراها تحتقّ فيه فاعرة فاها.

هراء كل هذا... طبعا في عالم صنعته رؤى غير متقنة... إن لم نقبل بمثل هذه التصورات معتبرين أن مكانها روايات الخيال العلمي لا أكثر، هل نخطئ إن قلنا إنه ما كان لقصتي وقصتك أن تبدأ أي أن توجد أصلا في لحظاتها الأولى لولا كم هائل من القصص التي سبقتها وفتحت لها الطريق علما وأن هذه القصص ما كانت تبدأ هي نفسها لولا... الخ، الخ،

بديهي أن رحلتي لم تبدأ بولادتي وإنما بقصص لا عدّ لها ولا حصر منها -حتى لا نذهب بعيدا- ارتطام جرم سماوي تائه بالأرض قبل خمسة وستين مليون سنة وفجوة زمنية بين عصر جليدي وكارثة مناخية أخرى وتردّد حنبعل في غزو روما، وإفراز الصحراء لنبي نجا من محاولة اغتيال في غار جبيل أسود، وحبّ البدو للغزو وقرار البعض منهم بالتوجه غربا بدل التوجه شرقا، ونجاح الاستعمار بفرض سلطانه على شواطئ شمال شرق قارة اسمها "أفريقيا"، وجنون عظمة رجل ارتكب خطأ فتح جبهتين في وقت واحد، وجملة من الأحداث الأخرى- أغلبها لا علم لي به-ربما كانت قد تثير في موجة عارمة من الضحك.

كلنا ننبثق من تسلسل أحداث لم تكن يوما لا مبرمجة ولا حتمية وقابلة للتوقّع.

القاعدة التي لا تقبل استثناء أن كل القصص، حتى قصة العالم، ارتطام الصدف بالضروريات والصدف بالصدف والضروريات بالضروريات والنتيجة أنه لا شيء مقدر إلا اللامقدر ولا شيء مكتوب إلا اللامكتوب.
كم مثير أن تكون الأمور من الأزل وإلى الأزل على هذا النمط، أي قيمة للعيش في عالم ليست المفاجأة أروع هداياه؟!
**

اكتساب العالم ملامحه الأولى

هذا عالم له ما لا يحصى ولا يعدّ من المداخل، لكن قدر كل مرتحل أن يدخله في زمن محدد ومكان معين لم يختر أي منهما والقرار في هذا الأمر وكان وسيبقى لطاولة القمار.

لحسن طالعي أفقت فيه وأفطع حروب الأدميين تضع أوزارها...ولسوء الحظّ في مكان- وإن كان من أروع الأماكن- لا أصعب منه لانطلاق الاستكشاف.

تصرخ الأم في طفلي في الرابعة أو الخامسة بشدة غير معهودة فيها:

- ألم أقل لك مرارا: لا تخرج أبدا وحدك عند هبوب الريح! ألا ترى أن هذا رمل خبيث، يريد بنا الشرّ؟ أدخل الغرفة بسرعة. لا تخرج إلى أن أسمح لك.

يفلت الطفل من بين ذراعيها هاربا لوسط الحوش، يروّض خوفا لا ولن يقبل بوجوده داخله أبدا.

ثم كيف يضيّع فرصة تأمل شيء جديد مثير كهذه العاصفة؟

هو الآن مختبئ وراء نخلة يجيل البصر مبهورا في اكفهرار وجه السماء والموجات الخاطفة من الضياء تتتالي بعصبية متزايدة كأن إليها يقدر ولأعة تعاكسه، أو كأن عفرينا أشعل في كبد السماء مصباحا من "النيون" يرفض العمل.

تنزاد سرعة ومضات المصباح الخفي وراء جبال قاتمة مبالغة في البعد، مغالية في التعالي، تنذر بما لا يحمد عقباه.

يتسبب الطفل عرقا ثم يبدأ في مراجعة حساباته بخصوص قرار الخروج للغوط جريا وراء جده يساعده في سقي النخل. تعبته لحظة فكرة أنّ الصحراء غاضبة على ما ارتكبه الأطفال- خاصة هو- من حماقات.

لو تابعنا الطفل وقد عرف كيف يستعمل رجليه لأرهقنا وهو لا يكف عن الركض والرقص والنط والتسلق والهرولة كأنه يبحث دون كلل عن شيء أو عن أحد. لو دخلنا وعيه وسجلنا ما يمرّ به من مشاعر، لأرهقنا وصف ما يمرّ به من حالات.

إنها المرحلة التي يضع فيها القادم الجديد الحجر في الفم ليختبر صلابته، يرفعه إلى الأنف ليتأكد أن ليس له رائحة، يرميه إلى فوق ليشعر بمقاومته للرمي... التي يتحسّس فيها الأواني والأدوات ليعرف ما تنثيره من أحاسيس لا يخشى لمسها حتى وهي تلتهب ناراً... التي يجرب فيها الكتابة بالفرشاة والأكل بالقلم ليقبل أن للأشياء استعمالا واحدا لا غير... المرحلة التي

يخطط فيها لصبغ صخرة بباب الدار بالأحمر فتنهاه الأم برفق، لكنه لا يتراجع عن مشروعه إلا لعدم توفره على الأصباغ الكافية لتلوين كل أحجار الطريق... المرحلة التي يدخل فيها الأدمي اللغة أو قل المرحلة التي تدخله اللغة في البداية كلاما

منطوقا بانتظار مرحلته مكتوبا ومشقرا.

إجمالا الأدمي في حالة دائمة من الفضول الجارف لكل ما يحفّ به من مظاهر وكنائز وأشياء وأماكن... من المستحين الأكثر إثارة أي الأكثر خطرا.

تركض الأم وراء طفلها وقد اكتشفته مختبئا عنها وراء أطول نخلة الحوش يمسح الرمل عن وجهه.

تدفعه بقوة للغرفة، تحميه من جنون الريح.

- هل تشعر بحرقة في عينيك؟

- اتركيني، أريد أن أذهب للغوط. جدّي هناك ينتظرنني.

- ألم تسمع كم طفلا تاه في الرمل، خطفته العاصفة من أمّه وأبيه؟

- جدّي سيجدني. هو أحسن من يفتني الآثار.

تصرخ الأم لتسمع صوتها وسط صفير الريح: ممنوع، ممنوع، كفى الآن.

تختبئ وطفلها من غضب الريح في الغرفة الصغيرة، والرمل يصفع الباب الخشبي كأنه يريد الإجهاز على صيد طال ترصده.

- يا بني، فرّج الله كربتنا وأخرجنا من هذه الأرض الموحشة، إنها بوابة جهنم، الله يسامح والدك الذي رمانا فيها ونسينا.

بوابة جهنم! ... أروع لوحات الله خاصة والليل يرخي عليها سدوله بلقها بالمهابة والجلال... نقطة الخلاف الوحيدة مع

"ما" إلى يوم مماتها.

لمغالبة عصبيتها لا تجد من خيار أسوأ من رواية آخر ما في جعبتها من قصص عواصف الربيع وعدد من فقدوا فيها الطريق والحياة أحيانا.

- خرجت المسكينة من الخيمة في لحظة مثل هذه لقضاء بعض حوائجها. وجدت بعد أيام ميّنة على بعد بضعة أمتار من الخيمة

وقد حجب عنها الرمل معالم الطريق. وهل حدثتكَ عن "با" لما كاد يهلك وقد ضاع بين كتبان الرمل!

وفي ملفّ آخر يؤكد "با" ما روته الأم عن ضرورة الانتباه للصحراء يوم تكثّر عن الأناب: لمّا هبّت الريح، فقدت كل أثر

لرفاق خرجت وإياهم نصطاد الغزال الشارد. ركضت وراءهم يوما كاملا والريح تمحو الآثار. ولما بدأت الشمس ترميني

بأشعتها كالصياد يرمي صيده بالنبال المطلية بالنار، ولا طريق يدلني عليه إنس أو جنّ، أيقنت أنني هالك. ثم تذكرت كيف

يكون المشي عندما يضيع الطريق. حفرت لي في الرمل حفرة دخلتها أنتظر غروب الوحش. وعند مجيء الليل خرجت منها لأمشي والنجوم وحدها الدليل. هكذا بقيت تائها أياما بطول أشهر أحفر الحفر أختبئ فيها نهارا وأمشي ليلا إلى أن وصلت واحة تواصلت بوصولها الحياة. لا يغرثك يا بني-من الصحراء جمالها. ويل لمن لا يحمل على محمل الجدّ تجهّمها لحظة تقطبّ الجبين... ويل أيضا لمن لا يرفع تحديها.

نعم لا أقطع ولا أخطر من الصحراء عندما تقطب الجبين ولا أجمل منها حتى في عزّ الظهيرة أيام الربيع عندما تتحول الأراضي القاحلة بين عشية وضحاها إلى مروج خضراء مرصعة بأروع أنواع الزهور. إنها إحدى معجزات الخلق والبراعم المخفية صابرة، عنيدة، قوية تنتظر تحت الرمل والصخر أشهرا وأحيانا سنين وصول الغيث.

تواصل الأم حديثها الهامس مشبعا بالرجاء والقلق:

- احلف برأس أبيك أنك لن تخرج أبدا لعاصفة الرمل، أنك لن تبعدي عني. من ذا الذي سيضحكني ويخفف من أحزاني؟

كيف يمكن للطفل استكشاف العالم إن لم يقبل بخطر الضياع فيه؟ بل هل جئنا أصلا لغير متعة الضياع!

زارت العاصفة أم لم تزار يجب أن يخرج لأحبّ أماكن الواحة.

- أريد أن أذهب للعين حالا... حالا... الآن... الآن أريد السباحة.

- نعم ستذهب للعين بعد سكورن الريح شريطة أن تعدني أنك لن تغسل المعزاة مرة أخرى بماء القلّة. إنه شرابنا لكامل اليوم.

- وهل يجب أن أقبّل الماء كما تفعلين عندما تلتمين الخبز قبل أكله؟

يتعمق ربع الابتسامة. تنفجر "ما" ضاحكة إلى أن تسعل:

- حقا أنت "حلو" كبير، لا يفوتك شيء. ليس عليك أن تقبّل الماء، أكرمه فقط بعدم تذييره. انظر ما يتكلفه جدك حمد وعتنر من عنت ليكون هناك دوما في القرية والجرة ما تشرب.

الطفل الآن حبيس عاصفة الرمل. ممنوع عليه العودة للعين وللهضبة التي تسميها لغة أهله "العرق". لن يجلس على رملها الناعم يتأمل تموج التلال الشقر إلى ارتطامها بالأفق. لكنه سيغافل أمه أول فرصة استتباب السلام الحذر ليعود إلى موقع مشاهدة يجذبه كما يجذب المغناطيس ذرات الحديد. أليس له موعد مع أبيه هناك وأمّه تعدّه أنه سيخرج يوما من الطريق الذي وراء الكئبان؟

يغمض الطفل عينيه ليرى بخيال في بداية تجريب قدراته أجداده يتقدّمون بخطى بطيئة ثابتة في فضاء بلا حدود. إنهم الأوائل، الغزاة الذين دخلوا هذه الفيافي أول مرة، الفاتحون للطريق فيه بكل صبر على ما لا يطاق من الأوجاع. تأتي الكهل وهو يتفحص مشاعره أنها إعجاب وغيره ونكهة من حفيظة. الملاعين... هم لم يتركوا للأحفاد غير طرق معبدة لا متعة فيها ولا خطر.

كأنني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة، تبتّ عبر الزمان بدورها مشاعر فيها التعجب ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشنا ونحن تائهون في هذه الصحراء، لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

تعود الأم لدورها الأزلي تدلّ وتحذّر.

- يا بني، لا تعنتم فرصة القيلولة للعب، يجب أن تقدّر خطورة الحرّ الشديد عليك في عزّ الظهيرة. ثمة من مات بضربة شمس، لا تخرج حاسر الرأس أبدا، أبدا.

لكن من سمع يوما نصائح دليل إن لم يوافق هواه؟

- يا بني، لا تنظر هكذا إلى الشمس فإنها ستؤذي بصرك.

هو لا يريد أن يسترق إليها النظر فقط، وإنما مواجهتها مرفوع الرأس، شاخص العينين، لا تختلج له عضلة.

يشيح الطفل برأسه حتى لا ينگسه، مقتنعا أنه لا يترك التحديق في الشمس لعجزه عن المواجهة، وإنما لأنه لا يريد أن يغضب أمه.

- "ما"، هل يمكن للشمس أن تسقط فوق رؤوسنا؟

لا ينتظر جوابا، وقد اختار رده وبدأ يتفاعل معه. ها هو مشغول بالجري وراء برتقالة ضخمة سقطت لتوها من سقف الفضاء، صوّب نحوها سهمها استقرّ في كبدها فهوت من عليائها كالطير الجريح. يمدّ يده بحذر نحو صبيده ثم يسحبها بسرعة السهم وقد لسعته حرارة جمر "الكانون". الحلّ أن يريق على الجمر الملتهبة بعض الماء ليلعب بها بعيدا عن الأنظار. ينتبه إلى خطورة فعلته والظلام يزحف من كل الأفاق.

- اسم الله على ابني. كلمني. ما بك؟

- لا شيء، لا شيء، قلت لك: لا شيء.

يفلت الطفل من ذراعي أمه. يهرول راكضاً، يرمي بحصاته الشمس، لا عنا ما سيبت له من رعب وقد سكن لحظة عالماً طلي بالقطران.

الصحراء جهنم في عزّ الظهيرة الجئة عندما تكف الشمس عن اضطهادها. الظلام أخيراً بعد طول الترجي ونفاذ آخر مخزون من الصبر:

- "ما"، لماذا لا نرى الشمس إبان الليل؟

عقود ستمرّ على الطفل وهو من دهشة لأخرى، من حيرة لحيرة أعمق، من إجابات خاطئة عن أسئلة سيئة الطرح إلى معطيات قليلة متفرقة لا تكفي أبداً لرسم الصورة الجامعة التي سيسميها كهلاً الرؤيا-أو لنسج روايته، هو، لملمحة الأدمي في العالم وملحمة العالم في الأدمي.

تجاهد الأم للحفاظ على وقارها.

- يا بني، ألا يكفيننا ما نفاسي منها طوال اليوم، وتريدها فوقنا حتى بالليل.

- أنا أعرف أنك لا تحبين الشمس.

- لا أحبها فقط! أنا أبغضها... أقصد شمس هذه الربوع.

يستبطن الطفل الشدّ والجذب في المعلومات المبهمة التي يتلقاها باستمرار... بغض أمه للصحراء وهيام أبيه بها. يختار باكراً صفه لجانب أبيه ضدّ أمه... للمرة الأولى والأخيرة.

تستدرك "ما" وقد فهمت أن طفلها لا يحبّ قدها في شمس الأب والجد:

- لا أجمل من غروبها وشروقها حتى هنا... آه، وهي على وشك البروز! لكن... لماذا تتقلب فيما بعد إلى...

تصمت "ما" لحظة، تصيح السمع للضوضاء المتصاعدة من الركن الغربي للحوش حيث يرقد الماعز خلف ستار من سعف النخل. تبتسم وهي تسمع نغاء الجدي المولود الجديد. ثم تشخص ببصرها نحو الأفق، تحلم مفتوحة العينين.

- آه، الشمس هناك في الشمال حيث قرية جدتك... كم هي أطف وأرحم!

- هل لكل قرية شمسها، وشمسنا أحرّ شمس؟

- لا يا حبيبي، إنها نفس الشمس، تشرق وتغرب على كل الناس أينما وجدوا.

يستوعب الطفل معلومة هائلة ستطبع إلى النهاية تصوره للعالم: إن له ثوابت يعرفها الناس جميعاً ويتشاركون فيها.

كأنّ الجوّ السحري رفع عن روح "ما" تحفظاً بقيت إلى آخر نفس تخفي وراءه حساسية مرهفة وخجلاً دفيناً. بصوت يكاد لا يسمع، تأخذ في الترجم بأغنية لمغنية لا يحبها إلا الفلاحون والفقراء.

- "ما"، من بنت المحاميد هذه؟ ولماذا اسمها "عيشة"؟ هل تعرفينها؟ لماذا لم يكملوا نقش "بخوقها"؟ هل كان سحراً تختفي داخله فلا يراها أحد؟

تضع الأم إصبعها على فم طفلها لعله يصمت لحظة.

- "ما" أريد أن تروي لي أطططططط طول قصّة في الدنيا، أنا أحبّ القصص لكنك...

- نعم، نعم، لكنني لا أروي لك الكثير منها، لست مثل جدتك التي...

- لا، لا، تعرفين لكنك لا تريدين...

تضحك "ما" بحرج.

- صحيح أنني لا أحبّ القصص... قد يكون لأنّ جئها للتخويف أو لتزيين الواقع.

هل نطقت "ما" حقاً هذه بهذه الجملة أم أنّ النصّ يقولها ما لم تقل في إطار إعادة صياغته للأحداث وتزيينه هو للواقع؟ ربما قالت شيئاً من هذا القبيل علق بذهن الطفل وأعدت ذاكرة الخيال صياغته بعد عقود. ربما هذه هي القناعة التي ترسبت في ذهنه بعد طول الاستماع لقصص الأدميين فوضعها على لسان أحكم من عرف منهم.

هذا طفل قرّر ككل الأطفال أنه لن يقبل الاستسلام للنوم حتى لا يفوته شيء أو لحظة من العالم السحري ولنقل "ما" ما تشاء.

- أنا و"با" وجدّي نحبّ القمر. أعرف أنك أيضاً تحبينه كثيراً. سأنتظر طلوعه معك.

- قد يأتي متأخراً هذه الليلة.

- لا يهمّ، سأسهر معك إلى أن يأتي.

- أمر سيدي ومولاي، لكن لا تنهني إذا حلا لك النوم.

قد يكون سبب حبّ الطفل للقمر ما يشيعه ظهوره من ارتخاء محبّب، ففي الليالي التي يستدير فيها وجهه تكتسب ملامح العالم كل ما يزخر به من هدوء وجمال. تنتفي عنه الوحشة والسحنة المكثرة التي يتخذها عندما يتسرّب بحالك الظلام. ما إن يرتفع في كبد السماء حتى تتراجع الكواكب والأشباح. كيف لا يكون صديق الأطفال، لا فقط حليف اللصوص والعشاق.

هذا طفل ما زال بعيدا كل البعد عن معرفة الفضل الحقيقي للقمر على الأطفال واللصوص والعشاق وبقية الكائنات، وأنه لولاه لدارت الأرض على نفسها بثلاثة أضعاف سرعتها فإذا بسطحها مسرح أبدي للريح الصرصر والعاصفة الهوجاء، ولا قدرة لكائن حيّ على البقاء.

أه على فكرة. أكنّا نخترع مفهوم البعث لو لم يكن لنا هذا المعلم؟ من علم الأدمي النسق والإيقاع حتى وإن وجب أن نعترف مكرهين ببعض الفضل للشمس؟ من غيره أوحى لنا أنه لا بدّ بعد كلّ غياب من رجوع، وبعد كل رجوع من رحيل؟ أهم من كل هذا في تساؤلات الطفل الصلة التي تبدو وثيقة بين هذا القمر وبين الهلال.

- "ما"، حتى يبقى دوما الحوش مضاء، يأتي القمر ولما يتعب من العمل يتبعه الهلال.
تحاول الأم التصحيح:

- هما شيء واحد يا بني. ينمو الهلال، وعند كامل استدارته نسميه "القمر".

- لا يمكن أن يكون الهلال هو القمر. إنه جرم آخر. لو كان كلامك صحيحا لوجد هلال للشمس.

تبتسم "ما"، تداري حرجا. أليكون للشمس هلال لم يتفطن له إلا طفلها؟

- "ما"، لماذا يوجد قمر واحد بينما هناك كثير من النجوم؟

- لنفس السبب الذي لا يوجد إلا طفل واحد مثلك، كل ثمين يا حبيبي فريد.

"كم عمر القمر؟ (اييسا)

ثلاث عشرة سنة.

تقريبا"

موضوع آخر سيأتي وقت نقاشه. المهم الآن كل الاحتمالات التي يمكن عرضها على "ما" دون إثارة ضحكها، وغدا على "با" لإثارة إعجابه.

أولى النظريات أن القمر كوة كبيرة قد تمكّن جسمه النحيل يوما من التسلّل عبرها إلى ما وراء ستار الظلام. ثمة أيضا إمكانية أن يكون بالون عيد الكائنات الجبارة التي تسكن النجوم. وفي نوبة من الإبداع الفني، يجعله الطفل فانوسا يمسه به الكائن العطوف الذي تصلي له أمّه، يهش به على العفاريات التي تملأ أحلامه، وبغيابه تعود الأشباح المخيفة التي تملأ ساحة الحوش، تترصد به وراء أشجار النخيل.

هو سيحافظ يوم يكبر على صورة الفانوس ليحوّر-بكيفية جذرية-وظيفته في اللوحة الجديدة بعد أن أصبح العالم في ذهن الكهل اليانس المرهق محتشدا كونيا رميت على سطحه الكائنات الأثمة لقضاء عقوبة اسمها "الحياة". يصبح مصباح الليل عين حارس المحتشد الأعور، ذلك المدعوّ في قصص قومه "إبليس".

رغبة معرفة طبيعة القمر الحقيقية لم تكن هاجس هذا الطفل وحده، وإنما هاجس الأطفال على مرّ العصور. لذلك رصدوا حركاته، تجسّسوا على كلّ طريق يتبعه، واكبوا تغيّر ألوانه وأشكاله، ثم رسموا بين النجوم طريقا واتبعوه إلى أن حطّوا الركاب على سطحه ليتنفسوا الصعداء وهم يشاهدون بأتم أعينهم واحدا منهم يقذف القدم وراء القدم فلا يترنح البدر ولا ينفجر كالبالون الذي رشق فيه مسمار.

يعود الطفل للكلام يغالب تناؤب المشرف على الرحيل للضفة الأخرى من العالم. تضع الأم اصبعها على فمه هامسة في أذنه: أنصت.

-أنصت لأي شيء؟

-للصمت.... لكل هذا الصمت.

الصمت الذي سيحلم به الكهل وهو على طول الطريق محاصر، مهذّب، معتدى عليه بكل مما يصدره الأدميون من صراخ وتأوه ونواح وتضرع وشخير وتسباب وهتاف... أنت بين أحضانها بمأمن أيضا من أشيائهم ويا لبشاعة ما تصدر هي الأخرى من أصوات... كأنّ بقية الكائنات التي تسكنها لا تتجاسر على رفع عقيرتها و وقارها الفطري، وقد التحفت ببرقع الظلام والنجوم، يثني عن كل صراخ بذئ وعن كل جدل عقيم... حتى أرقّ الموسيقى خطأ ذوق غير سليم وقد أصبح في حضرتها كل نغم مهما سما نشازا... في ذلك الصمت الذي لا يشبهه صمت، في ذلك الليل الذي لا يشبهه ليل، يتضوّع الجوّ إيحاء ووحيا لمن يعرف النقاط الإشارات... ليتصل ما انقطع لا مكان إلا هي فلا الغابة الخائفة للأنفاس، لا السهل، لا الجبل ولا البحر بقادرين على اعتصار ما تعترضه من مشاعر بالغة القدم بالغة العمق... هكذا وقف كم من آدمي في حضرة أبيه صور الجمال والجلال هامسا لنفسه وللنجوم: تذكّرت من أنا، تذكّرت من نحن، أعرف ماذا نفعل كلنا هنا!... محكوم على الصحراء وعلى الصحراء وحدها إنجاب الأنبياء.

يتقدم الليل والطفل يغفو ويستيقظ بين ذراعي أم جالسة بين النخيل تتأمل سماء هي الأخرى كالصحراء مغرقة في الصمت... أو هكذا يبدو. لا الطفل ولا أمه يعرفان أن هذه السماء الساكنة تخفي وراءها الخادع دوي انفجار شمس أين منه دوي ألف رعد ورعد، وهدير مجرات تتناطح أين منه هدير ألف محيط ومحيط، وعويل رياح من نار ومن نور أين منه عويل ألف عاصفة وعاصفة، وصفير ثقب سود تلتهم الكواكب كالكواسر وتلفظها كالبراكين. أمن حسن الحظ أو من سؤئه أن بعدا لا يتصوره عقل يمنع عتًا ضجيجا أين منه ما نعرف من ضجيج.

ليلتي هذه عروس من الزنج عليها قلاند من جمان (المعري)

ينتبه الطفل وهو يغالب موجات النعاس لبريق ما يتلألأ في حالك السواد الصامت. يرفع رأسه يجيل بصره من اليسار إلى اليمين ببطء شديد. يباغته سؤال يعيد النشاط لذهن على وشك الاستسلام النهائي لسلطان النوم: كم في السماء من نجم؟ يجلس فجأة ليبدأ العدّ. لكنه لا يحسب أبعد من عشرة ويخلط في تتابع الأرقام. ثم تأتيه شهوة الإمساك بواحد منها ليضعه في فمه وعلى الأذن علّه يسمع له صوتا، وقريبا من أنفه ليعلم أي عطر تفوح به النجوم. بعد ذلك تأتيه فكرة السطو على أكثرها بريقا ليكون هديته ل "ما". يتردد خوفا من ردة فعل صاحب الكنز المنثور.

سؤال آخر يرهق به ذهننا مشغولا في أن واحد بمشاكل الفلك وبمشكلة البقاء مستيقظا: ماذا لو كانت النجوم أضواء مشاعل قبائل غازية آتية من أعماق الفضاء تبحث لها في ظلمة الليل-عن طريق إلى حيث النهب والسلب؟ إنها فكرة ستخيف "ما" لذلك لا مجال لمصارحتها بها. لا، لا هي رسالة مكتوبة له على سبورة السماء تمحوها الشمس كل صباح. قد تكون ثقبها في ستار داكن أسدل بين عالمين: العالم الذي يعيش فيه هو وأمّه والدجاج والماعز والعمات والأعمام والجد، والعالم الذي يعيش فيه الكائن الغريب الذي تسميه "ما" الله. ألا تردّ دوما أنه نور يوجد في السماء؟ كان واثقا أنه لو وضع عينه على أي من هذه الثقوب لرآه جالسا على عرشه. أه، لو استطاع التسلل عبرها ليلاقي هذا المختفي الذي لا يزيح اللثام أبدا!

كم استقرّ فيه هذا الكائن البالغ الحضور البالغ الغياب، الذي تتاجيه أمه في الجهر وفي السرّ، فضولا جارفا! كم صورا مشوشة عن هذا الذي يثير فيها رهبة خاشعة تنضح بها حركاتها وهي تقطع أعمالها لتتوجه له لا تلتفت لشيء أو أحد، ولا حتى إليه. ومن صورته في فكر الطفل أنه آدمي بالغ الطول، بالغ العرض، بالغ القوة، بالغ الطيبة، بالغ الاهتمام بمشاكل "ما"، فهي لا تبتهل بطلب إلا له، مرددة أنه لا سند غيره يرجى في هذه الدنيا. لا مجال للتأكد من الأمر إلا بالسفر إلى حيث يوجد. ما الحلّ وثقوب النور متناهية البعد ولا يمكن أن يصلها بقامته الصغيرة؟ بسيط: يجب الاستعانة بسلم، يوضع على سلم، يوضع بدوره على سلم آخر، وهكذا إلى أن يصل. قد لا تتسع الثقوب الصغيرة لمروور جسمه. ربما يجب المرور من ثقب أوسع. الحلّ بالطبع: فانوس الليل عند اكتماله.

حانت لحظة "الإسراء" وقد أثقل النوم منه الجفون وانتهت المقاومة العنيفة. يبدأ الطفل التسلّق وكل درجة يعتليها تزيد خفة وجدلا إلى أن يصل الكوة المفتوحة. يثب من خلالها كالقط المرح ليجد نفسه أخيرا وراء نقاب الليل في عالم لا مكان فيه لوحشة الظلام. تنتصب أمامه مصطبة شاهقة مفروشة بالسجاد الفاخر، وفوقها شيخ مهيب تبدأ لحيته عند النجوم ونهايتها السحاب. يمدد الطفل قامته الصغيرة إلى أعلى محاولا التمعّن في ملامح وجه مشرق بالنور. يبتسم له الله برفق، ثم يأخذه بين ذراعيه، فيشعر-وهو جالس على ركبتيه-بأنفاسه الهادئة على عنقه.

- ماذا تريد مني، يا صغيري؟

كم في هذا الصوت من رفق ومن حبّ! تتزاحم المطالب عن أب يريده عاد من الغربية ولا يجب أن يعود إليها أبدا، وعن أمّ يجب أن تكون أقل حزنا، وعن قصص علي بابا تروى له في كل وقت، وعن أجنحة على الظهر للطيران مثل العصافير، وعن عقد من النجوم لجيد "ما"، وعن مسحة جديدة للجدّ، وعن جحشة جميلة يزوجها عنتر لتخفف عنه وحدته، وعن ضرورة حضور الأجوبة عن كلالل أسئلته ليفهم كلالل شيء. تتسع ابتسامته الكائن المهيب. يفهم الطفل أنه أخذ وعدا قاطعا. تتشبع روحه بالطمأنينة وتغمره سعادة فائقة.

يشعر على وجهه بيد تمسح شعره، ويسمع همسا رقيقا يأمر بالاستيقاظ.

- "ما"، لقد كلمت الله وقلت له ...

ترتسم على وجه الأمّ علامات انزعاج شديد لا يفهم له الطفل سببا.

- إياك، ثم إياك أن تعود لمثل هذا الكلام، إياك!

تضع "ما" يدها على فم ابن كم تخشى عليه أحيانا... من ماذا بالضبط؟

يدرك الطفل من الاستياء في نظرة أمه أن هذه التي تفهمه دوما ترفض، لسبب مجهول، ولأول مرّة، أن تفهمه وحتى أن تصغي لما أوصاه الله أن يبلّغها.

- "ما"، لكنه قال لي...

- يا بني قلت لك كفى.

ينتبه الطفل أنه لا فائدة من مواصلة طرق باب سيبقى مغلقا مهما حاول فتحه.
تنحني الأم على طفل نصف نائم، تقبله وتهمس في أذنه:

- انهض أنه الفجر وسترى كم هو جميل

ما من شك في فضل بناء معابد ماشوبيبيشام على البشرية جمعاء. ألم يأخذوا ما يلزم من الاحتياط لكيلا تنسى الشمس العودة دوريا للعالم تعطيه النور والدفء ولو ببعض المبالغة والاسراف أحيانا. لا أحد يعرف كانت تربط الشمس إلى الصخرة المقدسة التي وضعوها وسط المعبد، ولا ما الحبل الذي كانت توثق به كما توثق الفرس إلى الودد عند الغروب. يبقى-أيا كانت التقنية المجهولة، وأيا كان الحبل العجيب-أننا ربما ندين لهم بثبات الشمس على الشروق بعد كل غروب، وبدعم ليادها بالفرار رغم كثرة ما اطلعت عليه من أسرار وما شاهدت من بشاعات. حقا ما أحكم بناء أعظم مدن القمم وفيها الطريقة المثلى لحل أكبر مشاكل الرحلة. تصوّر كل ما كنا نجنيه لو استطعنا أن نوثق إلى صخرة مقدسة إبليس وعزرائيل، ناهيك عن العبيثة، التي سيأتي الحديث عنها لاحقا.

تهزّ الأم طفلها برقة:

- اتركني.

- انظر، سترى ما يعجبك كثيرا.

يفرك الطفل عينيه. يأخذ كل وقته للتناوب. يتسمّر أمام حالة يتخذها العالم الطاوس عندما يقرّر أن يفتن أنظار من دعاهم إلى مآدبة الحياة. بداهة لم يدّخر الداعي المجهول أي جهد ولم يتراجع أمام حجم النفقات لتزيين دار الضيافة. أليبهنا بغناه وحسه الفني المرهف؟ أم ليعوّضنا عما سنلقى في دار ضيافته هذه؟ أم لسبب آخر لا ترقى له أفكارنا وصورنا الصيانية؟
يجلس الطفل حدو أمه شاخصا مثلها نحو المشهد، ألم خشوع اللحظة لسانه ولسانها. شيئا فشيئا يتلّون ثوب الليل بحمرة شاحبة، تصبح شعلة نور، تتحوّل إلى بحر قان. هل ثمة حيوان كاسر فتح له للخروج من جنب الليل جرحا ينزف؟ كلا؛ إنها الشمس. تخرج من السواد بجلال متخذة لها لون ذهب مصفى لم يتجمّد بعد في سباته. تستغرق "ما" في صلاتها الصامتة جاثية على ركبتيها وابنها فاغر فمه من الدهشة يتابع وجه الله بيتسم. تفرغ الأم من صلاتها. تتوجه مبتسمة لابنها:

- لم تنظر في الاتجاه المعاكس.

يتسمّر الطفل أمام معجزة جديدة، والقمر في طرف من السماء، والشمس تواجهه في الطرف الآخر. كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث وهو الذي استبطن باكرا أن لفانوس النهار نصف الزمان، ولفانوس الليل نصفه الآخر، أنهما لا يلتقيان أبدا في نفس السماء. يجيل البصر بين الشيبين، لا يكاد يصدّق عينيه. ثم ينفجر صارخا راقصا، داهمته فرحة صاحبة لن يفهم سببها إلا وهو كهل يسترجع وينظم ذكرياته، دمع العينين منقبض الحلق. ورغم أن اللغة تؤنّث الشمس وتذكّر القمر، فإن الطفل كان على أتمّ الثقة أن فانوس النهار لا يكون إلا ذكرا والأنثى هي القمر، وإلا كيف يفسّر ما في بدر الدجى من رقة وما في الشمس من حدة وعنف.

على كل حال، ألا تؤنّث لهجة القرية فانوس الليل فتسميه "القمر" (القاف منطوقة على طريقة البدو). هو نسج لنفسه قصة، البدر فيها الزوجة الهادئة والشمس بعلها الصاخب، وتجافيهما الدائم فصل من سرّ لا بدّ أن يسبر يوما أغواره. يجنح به خياله لتصوّر أسباب الجفاء. أي كارثة دعت سيّدة الليل لكي تصبح بمثل هذه الدعة الشاحبة والهدوء الحزين؟ هل نور الضحى عرق الشمس ونور الظلمات دموع "القمر"؟ هل أعرض عنها بعلها السماوي مفضلا زوجة أخرى لأنها أغضبت يومها لسبب تافه؟ قد تكون أنت من الأثام ما دعاه لهجرها؟ لا، لا. إنه هو المخطئ بالضرورة. ها قد عذّبته الندم على فعلته الشنيعة فأثامها هذا الصباح يطلب الصلح والعفو.

نعم كنت طفل آدميين افترقا على الأرض، وكان لي في السماء أب وأم على نفس الجفاء لا يتلاقيان-هما أيضا-إلا نادرا.

آخر سؤال غريب سيسكن الطفل ولن يفارقه عن طبيعة العالم الذي أفاق فيه.

- "ما"، من ماذا صنع الله الشمس والقمر؟ لا، لا تقولي، أنا أعرف، أنا أعرف. الشمس مصنوعة من ذهب قرطيك أما القمر فمصنوع من الفضة كالتالي حول معصمك. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

- فكرة مثيرة، لكن صدّقني، يا بني، لا أدري.

- سأقول ل "با" عندما يرجع أنني اكتشفت مما صنع الشمس والقمر. سيكون متفقا معي في كل ما أقول.

- أحشى يا بني أنه سيكون عليك أنت أن تتفق مع كل ما يقوله هو.

**

بداية الانتباه لمعلم الزمان

شيئا فشيئا تتضح وتثبت في ذهن الطفل المعالم الكبرى للعالم الذي أفاق فيه. فوق رأسه السماء زرقاء اللون نهارا حالكة السواد ليلا مقام الشمس والقمر والنجوم والله. تحت قدميه الأرض وما تحمل من بشر وبعير وحمير. وراء غابات النخل كثبان الرمل وورائها امتداد مجهول سيأتي زمن اكتشافه لما يخرج بحثا عن "با". ثم تأتي مرحلة الانتباه لكون كل ما حوله لا يثبت على حال. فالشمس تشرق وتغرب والقمر يظهر ويختفي وعاصفة الريح تزار وتصمت ومغص الجوع يرحل ويعود.

أول وعي بالزمان أنه سيل تدفق الأحداث... تصور أنك تصل عالما لا زمان فيه... أنت في هذا السيناريو المرعب كائن لا تتحرك له عضلة يشاهد فيلما توقف إلى الأزل عند مشهد واحد... تصور الآن أنك وفدت على عالم أصيب الزمان فيه بلوثة من الجنون وسيل الأحداث يذهب في كل اتجاه لا نسق له ولا إيقاع ولا عودة أبدا لحالة سابقة... لحسن الحظ نحن ننزل عالما ابن حلال لا يكتفي فقط بتوفير أروع ديكور وإنما يضمن لنا زمنا مؤدبا يمكن التنبؤ بالخطوط العريضة لمساره وإلا كيف كنا نقدر على شيء من التخطيط لرحلتنا؟

ثم يكتشف الطفل باكرا أن للأيام وإن تشابهت نكهة مختلفة، أن هناك أحداث تأتي بمواعيد ثابتة يعرفها الكل بل حتى هو. أي دهشة كانت تصيبه لو أقيم السوق الأسبوعي عند غروب الشمس أو غير يوم الخميس. ثمة يوم أدرك باكرا أهميته وأمه تفيق فيه وفي عينيها بريق غريب تسارع لإعداد عصيدة السكر والسمن. إنه يوم ميلاد الإنسان الذي لا تنفك عن ذكر اسمه تتبرك به تترجى حمايته من أخطار مبهمة. ثمة أيضا الليلة المشهودة التي يخرج فيها الكبار إلى كثبان الرمل يتبعهم هو وبقية الصبية ينتظرون علامة من السماء، وبمجيئها تحل أسعد ليالي الأطفال وأشق أيام الكبار، والكل فرح راض بما أمر به الهلال.

- "ما"، لماذا يذهب رمضان؟ أريده أن يبقى طول الوقت.

- لا تقلق يا بني، إنه عائد السنة المقبلة.

- أنت متأكدة؟

- رمضان لا يخلف وعده أبدا.

- أنت متأكدة، متأكدة، متأكدة!

- كل التأكد. على كل حال هو سينتهي بالعيد، كم ستحب هذا اليوم.

العيد وما أدراك ما العيد! حتى الهواء مشبع ذلك اليوم بروائح الحبور والحب والأمل. المشكلة أنه يرحل هو الآخر تتبعه أيام لا لون لها ولا طعم.

ينتبه هذا الطفل أن العالم لا يثبت على حالة وأن عليه مواجهة مشاكل القر بعد أن عانى من مشاكل الحر.

لا مكان يلفحك فيه الهواء كوهج النار قدر الصحراء، لكن أين برد بلدان الجليد من بردها ليلة شتاء متجهّم. ها هو في فراشه يرتعش تحت أثقل البطاطين.

- "ما"، لماذا هناك شتاء وصيف؟

- إنها فصول السنة، يا بني.

- ما معنى فصول؟

- إنها... كبرى التغيرات التي يعرفها الطقس... أي الجو... أي...

إنها الحالات التي سيقضي الشعراء والرسامون والموسيقيون والباحثون في العلوم الطبيعية جزءا هاما من رحلتهم في استكشافها... إنها الحالات التي سنعدّل طوال الرحلة مزاجنا على مزاجها وأرواحنا تجرب هي الأخرى التغيير المتواصل لما يعتمل داخلها من مشاعر وأحاسيس... إنها نبض عالم هو الآخر كائن حي ونحن لسنا إلا خلاياه.

يواصل الطفل بحثه عن المعطيات الضرورية لكي يتشكل العالم في ذهنه بأكثر ما يمكن من الوضوح.

- لكن، لماذا على الطقس أن يتغير؟

- هكذا هي الأمور كما أرادها الله.

- "ما"، هل هناك فصول أخرى غير الشتاء والصيف؟

تقول "ما" للطفل، تعريه بالطريق:

- نسيت أنك ولدت هناك حتى وإن كبرت هنا؟ نعم هناك بعيدا نحو الشمال توجد أرض مباركة كم ستحبّ الاختفاء داخل أعشابها العالية، يمشي المرء فيها أياما بين حقول البرتقال والزيتون والعنب إلى أن ينتهي به المطاف إلى البحر. آه البحر ! يا إلهي، كم ينقصني هو الآخر! كم كنت أحب الذهاب إليه طفلة مع جدّتك وخالاتك لغسل الصوف بداية كل خريف! في ملفّ من ملفّات مستقبله القريب سنرى الطفل منتبها للفرق الهائل بين الصحراء والسهل وكيف أن الله فرش على أرض الأحوال بساطا أخضرا رفضه لأرض الأعمام ووشّحه بما لا يحصى من أعشاب ومن أزهار لا يعرف لها اسما وإنما جمالا مبهرا.

سنراه يركض على البساط الأخضر متقطع الأنفاس يصرخ راقصا لا سبب لسعادة عارمة غير هذا اللقاء مع اللامتوقع واللامتخيّل. ثم سنراه يدفن رأسه عميقا داخل الحشائش والزهور بحثا عن كائن صغير يلعب به غير عابئ بتطفله على كائنات ملّت الطفوليين. ثم سنراه منتبها لمعجزة جديدة: قطرة ندى مكورة شفافة عالقة على العشب تنزلق على سطحه بمنتهى البطء فيخرج لسانه بشديد التأنى يدفعه باتجاهها عله ينجح، على صغر حجمها، في التقاطها بذبابة اللسان. لن ينجح إلا في الاصطدام بالحدّ الجارح للعشب. آه، العشب! ها هو يرفع رأسه، ينظر حوله، وعندما يتأكد أنه وحده، يبدأ محاذرا ألا يستعمل يديه برعيه بفمه كما رأى الخرفان والبقر تفعل ليصق بسرعة ما في فمه مقرّرا أن الماشية حقا كائنات غريبة بتفضيلها الحشيش على الخبز والتمر. أخيرا سيأتيه أذّ إرهاب فيستلقي على ظهره ليتأمل المشهد المنسوب فوق رأسه لا ينتبه لمرور الدقائق والساعات. الاكتشاف المذهل الآخر في يوم تتسارع فيه الخوارق والمعجزات: سماء أرض أمه، خلافا لسماء أرض أبيه، مليئة، بل تفيض سحبا تتخذ كل الأشكال، تنساب بجلال وصمت أثارا فيه تعجبا وإعجابا لن يفارقه في كل عمر وفي كل حقن، وهو على ظهره يستعيد طعم أول لقاء له مع القوافل البيض.

كالعادة تدافع أسئلة التي لا يجد لها جوابا: أين يفترّ السحاب، هل من وسيلة ليجلس فوقه بأمره بحمله إلى حيث يريد، هل ثمة جنّ و عفاريت تركض وراءه تريد به شرّا؟

شيئا فشيئا سنرى الهدوء يتسلّل إليه فتثقل جفونه بالنوم غير واع بعصية امرأتين تتحركان بقلق متزايد بين الحشائش العالية تبحتان عن طفل في الخامسة خرج ولم يعد، ولا أثر له غير الذي رسمته خطى صغيرة بين الأعشاب. سيكون ذلك اليوم معلما في الذاكرة شبيها بأيام اللقاء الأول مع النهر والبحر والجبل وكل مرة تنطلق صرخة الانبهار من المحب المفتون بجمال حبيب لا يفنى له جمال.

تواصل الأم حديثا لا أحبّ منه وهي تتغنى بأرض طفولتها وحرّبتها: نعم يا حبيبي هناك في أرض جدّتك منى وجدّك محمّد يوجد فصلان لا تعرفهما هذه الأرض القاحلة. ما أحلى الخريف فيها واللهب يشتعل في دوالي العنب. ما أحلى الربيع وأشجار اللوز تعتمر تاج أزهارها البيضاء.

يشرد بصرها، تحلم بالأرض التي نفيت منها، والزوج مصرّ على ألا تنتظر رجوعه إلا تحت مراقبة الأهل ولو سكنوا على مشارف الجحيم.

- "ما"، إذا كان هناك فصلان آخران فلماذا لا يأتيان لزيارتنا؟

- هذه أرض سخط الله عليها فحرمها الربيع والخريف، مبتليا إياها بلهب جهنّم أغلب الوقت ولبليالي الصقيع ما بقي من الزمان. تطأطأ الأم رأسها، تخفي ما بها من كآبة عابرة. يبادرها الطفل بأول سؤال يخطر بباله لا يطيق صمتها.

- "ما" هل هناك أماكن فيها خمسة فصول... أو ستة أو سبعة... ما اسمها؟

تكفّف الأم دمعها ثم تبتسم.

- ممكن، لكنني لا أعرف إلا أربعة أرض جدّتك منى.

- "ما" لكن لماذا أربعة، لماذا أربعة فقط؟

نعم سؤال وجيه كأغلب أسئلة الأطفال. لماذا أربعة فصول فقط حتى في الأراضي الأكثر حظا من أرض الآباء والأجداد؟ ربما لأنها تعكس رحلة العالم نفسه... الربيع ولادته والصيف شبابه والخريف كهولته والشتاء شيخوخته... سحر الأرقام وسطوتها.

يغيّر الطفل وجهة الحديث.

- "ما"، أيهم الأول؟ أيهم المفضّل عند الله؟ أنا متأكد أنه الفصل الذي خلق فيه كلاللّ شىء.

تنخرط الأم في سمر سيدوم طويلا تعابث به طفلها وينسيها همومها.

- الأجمّل طبعاً... الربيع.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الخلق مرحّبا ومهنّئا بحسن الوصول.

يزيح الفنان الأعظم النقباب عن وجه السماء. يهشّ نافذ الصبر-بعصاه وبيعض الريح على بقايا سحب عابسة بلون الرماد فتتصرف متأقفة متوعدة برجوع قريب. ثم يمرّ خرقة لامع البياض على الشمس فتستعيد الألوان بريقها. على ذكر الألوان، ليس لي بالتعبير مجدداً عن عميق الاحترام لهذا الفنان القدير والاحتجاج على قلة انتباه جَلّ المسافرين إلى مدى المهنية العالية التي تحلّى بها وما يزال. هل عرفتم نهارة طلع علينا والعالم مثل أفلام بداية القرن، ليس له من الألوان سوى الأبيض والأسود لنقص في التموين أو لإضراب في مصنع الألوان؟ كل المطلوب منها متوقّف على الدوام. صحيح أنه كان بوسع الفنّان الأعظم أن يظهر مزيداً من الكرم أي مزيداً من الألوان للسماء وللأشياء والكائنات يغيرها طول الوقت، حتّى تتسارع كلّ صباح للنافذة لنصرخ مرّة: ما أروع هذه السماء الوردية، وتارة أخرى: أفّ، ما هذه الصفرة الغيبيّة التي اتخذتها الأشجار، الظاهر أنّه سيكون يوماً بطعم القرع.

تقول وأنت على ألف حق كفى دلالة يا هذا، انظر كيف يواصل الربيع رسم أروع اللوحات. ها هو يأمر أشجار اللوز والخوخ بارتداء أجمل الحليّ والحلل. ها هو يضرب على خشبة المسرح بعصاه لتندافع الكائنات من مخابئها، تنفض عنها الخمول والحذر. تخرج أوّل فراشة تستعرض جناحيها الجديدين بغنج. تتبعها أوّل نحلة يدلّ اضطرابها أنها ما زالت لا تحسن ركوب ظهر النسيم. تغادر بعدهما أوّل نملة غارها، تفرك عينيها وقد أبهرها ساطع النور. يتسارع إلى أعالي الأشجار وقد أكمل زينته، أوّل عصفور مرتبك، والأمر بالخروج فاجأه في آخر مشهد من حلم جميل. تتتابع بقية الكائنات على الركح إلى أن يمتلئ بها ويفيض.

إيسا "

هذا الربيع

حتى ظليّ

مفعم حيوية

أن أوان إطلاق الروائح من مخابئها. تسكرني ما تبتّه الحشائش والأزهار من رسائل الحبّ. يرفرف حول أنفي جناحان عصبيان. إنّها نحلة تريد دسّ رأسها في أزهار البرتقال. مؤكّد أنّها تعتبر نفسها صاحبة الأولوية والحق في مثل هذا القرب. أفتعلّ عدم الانتباه مواصلاً الاستنشاق النهم. تأتيني علامات مبهمة عن نفاذ صبر الزهرة، وأنها ضاقت ذرعاً بأنف ليس من ورائه نفع. أسارع لاقتراح يضمن مصالح الطرفين. أبعث لها-عبر مختلف الفضاءات-بصورة أنف عباً فوق الجلد وفي الخياشيم ما تريد إرساله ليتمرّع في أحضان زهرة أخرى وأنفي هذه المرّة همزة وصل بين الذكر والأنثى. تسارع بالرفض وتتسارع النحلة لما يلعب عندها دور السيف، تخرجه من الغمد. لا حيلة لي غير تركهما يتّمان صفقة لا تريداني-ظلاماً-طرفاً فيها.

أه، كاد "السيد ربيع" أن ينسى من فرط عجلته الأهمّ. يرفع عصاه في وجه جوقة ما تزال خرساء. تتعالى من كلّ ما يمشي وينطّ ويطيّر ثرثرة لا هدف لها إلا متعة الهذر. تتقلب هنا وهناك همس غزل، ثم صراخ لذة الجماع. نعم، ما من شكّ أن الربيع أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب. يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام: - لا، لا، أول يوم للعالم كان بداية الصيف.

يتقدّم مرحباً بالصيف ومهنناً بحسن الوصول. لا خيار للربيع غير جمع أغراضه والخروج المتناقل تعصره المرارة، هو الذي اعتقد أنه وضع للعالم أجمل وآخر ديكور. مهلاً؛ إنه راجع، فلا أحد يطبق له فراقاً. يطرد القادم الجديد بفضاظة ما بقي متردداً من قطعان السحب، يريد السماء فارغة إلا من شمس كأنها قدّمت من سبائك الذهب. تتراجع خضرة المروج مفسحة المكان لحمرة مصفّرة، وقد أصبحت الأرض مرآة لحمم الشمس. يفتح البحر أخيراً ذراعيه فيدخله الطفل سعيداً بقاء موج عاد مضيافاً بعد طول التمتع. تتخذ حركة الكائنات حدة غير معهودة وكأّنه لا وجود لمكان قادر على احتواء ما بالأدميين من شبق. يعرّي الصيف الأجساد أو يفتعل تغطيتها لأنه هو-لا الربيع-موسم الإغراء والحبّ. ترتخي الأعصاب بحلول ليل يصل كالمنقذ من السيف والنطع. ترتمي في أحضانه الكائنات ترخّب وتتمنّى له طول المقام. تتصاعد روائح الريحان والفّل والياسمين من حدائق البيوت ومن الحقول والبراري، ومن غابات الزيتون تتصاعد أغاني الشوق والإغراء لكائنات صغيرة سوداء يستحيل رصد مكانها.

نعم، ما من شكّ أن الصيف أول الفصول وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "ما"، أنا متأكّد أن الخريف أول فصل لأنه فصل بداية الدروس، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

ترفع الأم الأزلية إصبعها في وجه الطفل وهي تمسح ما بقي عالقا بالجلد الأسمر من الرمل، تأمره بلهجة الحزم:

- انتهت العطلة. إلى المحفظة نملأها بالكراريس والكتب. حان وقت الجدّ والكّد.

يجمع الصيف حوائجه متأففاً من كل هذا الجحود. إنها قسوة الزمان حتى على الفصول.

يتقدم الطفل لأوّل أيام الخريف مرحّباً ومهنئاً بحسن الوصول.

يأتي الأمر للريح بتعريّة الأشجار لأوّل غسيل سنوي فتمتثل للأمر على بالغ الاستحياء، وخسارتها ربح للأرض التي تدرّت بالأوراق الميتة سماداً لتجدّد الحياة. وحده الزيتون يرفض عراء لا يليق بأشجار محافظة. كذلك الأمر بالنسبة لنخل لا يحني هامته لأحد ولا يترك ريحا تتجاسر على ما يحمل من جريد. وهذا فصل قادر على نوبات من الغضب العاتي تنهيهها دوماً حلاوة الصلح. تتحرك الحشائش على إيقاع الصفير. تأخذ الأشياء في التطاير كفراخ الحجل أطلق نحوها الصياد رصاصة الموت. تمتلئ السماء بأشلاء وبقاياها ويبقايا أشلائها. تتحرّك نباتات بأغصانها المحمّلة ووردا حمراء كأنّها أذرع إخطبوط تضرب في الهواء لتدفع عنها عدوان الريح. تتمكّن الرعشة حتى من أضخم الأشجار. يتزايد التمايل والتنتني. يشتدّ لغط الأوراق؛ تشتكي لبعضها البعض من ظلم العواصف. تصبح أنفاس العالم صفيراً مسترسلاً ما بين طبقة صراخ المولود الجديد وغرغرة المحتضر. يتردّد دويّ الطبول السماوية وقد طليت قبة السماء بلون الحداد. ما أغرب أن يتكلّم الأبيكم، أن يطير من لا جناح له!

كم من أسئلة تخامر ذهن الطفل المشدوه. من أولع البرق وأين الطبول التي يصمّ قرعها الأذان؟ من يحرك هذه الجبال السوداء التي تملأ رحاب الفضاء؟ من ينفخ بكل هذه القوة على الريح؟ لماذا تصمت الأرض لا تردّ على تهديد السماء؟ نعم ما من شكّ أن الخريف أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "ما"، لم تشاركيني اللعبة، أنا وحدي اخترت.

- هل تركت لي غير الشتاء؟ لست ضدّ أن يبدأ تشغيل الدنيا في هذا الفصل.

يتقدم الطفل لأوّل أيام الشتاء مرحّباً ومهنئاً بحسن الوصول.

يضرب جسده النحيل بذراعيه. ينفخ بصوت عال في أصابعه المتجمّدة من شدّة البرد. تتلأأ حبات الثلج في الوقوع. تتطاير هنا وهناك لتحطّ فوق الأعشاب برشاقة الفراش. تهجم الأم الأزلية على طاقيته تشدها بقوة إلى أسفل الأذنين محكمة وشاح الصوف حول عنقه متفقد بصرامة أزرار المعطف الثقيل. فصل قاسي كما يقولون؟ بل قل فصل يقتصد في الأصوات والألوان والروائح كأنه يريد لك فترة نقاهة بعد فصول أصابتك بالتحمة أسرفت في العطاء. أمن باب الرحمة أنه يمنحك أيضاً يوماً قصيراً مما يقلل بالضرورة من زمن أغلب ما فيه المشاكل؟ تلتهب النار في المدفئة تأتي بالاسترخاء والدفع. ينقر المطر على سطح البيوت وزجاج النوافذ بضربات خفيفة تأتي بنوم تتخلّله أحلام هادئة.

نعم، ما من شكّ أن الشتاء أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

حتى لا يتعطل الكلام، يبادر الطفل أمه بأول سؤال يتدافع على لسانه:

- "ما"، طبعا الفصول الأربعة إخوة، من أحبّهم عند أبيهم؟

غريب أن إشكالية ضخمة كهذه لم تستقرّ يوماً فضول مؤرخ أو عالم أو فيلسوف أو شاعر. حتى فيفالدي وبوسان تقادا اتخاذ أي موقف، الأول مكثف بتعبّد الموسيقى والثاني بتعبّد الرسم.

لنحاول نحن الردّ على السؤال، متحمّلين كامل مسؤوليتنا في إنارة الأجيال الصاعدة.

إذا انطلقنا مما نعرفه عن طبيعة الأشياء والكائنات، وأنها لا تقبل الأولوية والريادة إلا لنفسها، وإذا اعتبرنا أن العالم كان أعجز من أن يختار بين مخلوقاته وكلها عزيزة عليه، فلا بدّ أنه حسم المشكلة مسرّاً في أذن الربيع: أنت الأول وثلاثتهم ورائك، وفي أذن الصيف: اصطفيتك من بين كلّ الفصول وثلاثتهم ورائك، وفي أذن الخريف: أنت سيّد الفصول وثلاثتهم ورائك، وفي أذن الشتاء: أفضلهم أنت وثلاثتهم ورائك.

إنها دائرة الزمان التي حكم علينا أن نرتحل داخلها. قد ندور فيها كمن يدور في حلقة مفرغة تكرر نفسها بثبات عبثي مملّ، وقد تكون الشكل الأصلح الذي يسمح لكل نقطة نهاية أن تكون بداية لمشروع عنيد بالغ القدم على الدوام جديد.

**

الأحاسيس والمشاعر البكر

القاعدة أننا ندخل العالم وسيل الأحداث التي صنعته قبل وصولنا بملايين السنين خارج مدار المعرفة والوعي. كل ما سنتعلمه يوماً ما أنه كان للشمس أن قبل تتلقي أجسادنا أولى أشعتها قصة طويلة وكذلك الأمر مع القمر والبحر والصحراء وأغلب ما يتحرك على سطح الأرض من كائنات.

هكذا ترانا ننخرط عند الوصول في نسيج من القصص وفي طبقة من طبقاتها المتركمة المتتابعة عبر العصور وكأننا سطر يبحث له عن مكان في موسوعة ليكتسب منها المكانة والمعنى.

محكوم عليك إذن أن تبدأ الرحلة ليس فقط من مكان معين ومن زمن محدد وإنما أيضاً من قصة لم تستشر فيها أكثر مما استشرت في مكان وزمن الوصول.

من أقدم ذكريات القصة التي تشكل مادة هذه الرحلة شيخ جليل ينكبّ على الطفل وأخيه الصغير، والدموع على خديه ليهمس في أذن "ما"، والدموع على خديها هي الأخرى تسيل:

- صيف الصحراء والحصباء يا بنتي أكثر مما يستطيع الولدان تحمله. سأرجعكم إلى أهلك في الشمال على مسئوليتي، وسأبلغ ابني بقراري وسيقبله وإن غضب كثيراً. كل صلواتي أن يلتحق بكم حالما تتحسن ظروف البلاد.

أقدم الصور الصفراء عنه لرجل طويل، نحيف، حفر الزمان في وجهه من تجاعيد الألم أعمقها وأعقدتها شكلاً، يمشي دوماً مرفوع الرأس، واثق الخطى، يحفّ به وقار هادئ، حاملاً مسحاته القصيرة المحدودة وكأته يحمل سيفاً، عائداً من "الغوط" حيث أمضى يومه في تعهد نخلات عجاف.

يا ما سمعت "ما" تردّد قصة وصوله بيتنا ليلاً قادمًا من صحرائه البعيدة، سنوات بعد أن غادرناها إلى الأبد، وكيف نام تحت حائط المنزل والبرد على أشده، وكيف عاتبته على فعلته لما اكتشفته عند بروز الشمس مقروراً يرتعش، وكيف اعتذر بخجل لأنه خاف إرعا بنا بالدقّ على الباب في مثل تلك الساعة وربّة البيت في رعب دائم من زوّار الفجر. هذا الرجل كان أباً لشخص يصل البيت في آخر هزيع من الليل، يطرق الباب بمنتهى القوّة، يوقظ الجيران، يأمر أطفاله الخمسة أن يمثلوا بين يديه وهم يفركون عيونهم ليقبلوا كتفه الأيمن ويحمدوا الله على عودته سالماً. ثم يأمر "ما" بنزع حذائه وغسل رجليه بالماء الساخن، يرغي ويزيد لتلكوها.

كان يواجه دوماً كل ما تتفقّ عنه مخيلة الطفل من أنواع الشقاوة بابتسامة تقول واصل ولا تهّمك أوامر الزجر. لكن الأمر بالصمت كان صارماً لا يقبل جدلاً وهو يجلس لترتيل جمل من كتاب أصفر رثّ من النوع الذي تخفيه "ما". هكذا تعلّمت. وأنا لم أتجاوز الرابعة-أن عليّ أن أصمت حين تحضر القراءة. أذكر أنني كنت أعافله وهو يبدأ حركاته الغريبة وقوفاً وركوعاً وسجوداً وجلساً لأفتح كتابه هذا أورّق الصفحات ببطء، ثم أبدأ الترتيل بلغة لم يسمعها من قبل جن أو إنس، ولن يفكّ يوماً رموزها عالم لسانيات، وكلّي أمل أن تتواصل حركات الشيخ إلى ما لا نهاية حتى أوصل لعبتي. كم كنت أحبّ مرافقته في أوّل هزيع من الليل، خاصة في تلك الفترة الرّائعة من السنة المسماة رمضان، إلى حيث يلتقي الشيوخ لمواصلة الترتيل والأطفال لمواصلة اللعب. وفي ساحة ضريح جدّ الأجداد الذي كان أول من حطّ الرحال في واحتنا، كنّا نمرح بانتظار فراغ الكبار من صلاتهم، وكان الرهان الاستيلاء على قطع النقود التي ترميها العجايز فوق قبر الولي. كان الشيخ يخرج عند انتهاء التراويح من حلقة الشيوخ، يأخذ يدي برفقه المحبّب ميمّما الحوش نقطع كئيبان الرمل، والنجوم هي التي تضيء لنا الطريق، تكفّف الصمت داخله وداخلي. لم أعرف للوقار وللجلال رمزا إلا هو على كثرة من رأيتهم يفتعلون أمراً كان عنده فطرة وغريزة.

تنتسارح النسوة لمعاينة بنت القرية التي تزوجت مغامراً وعادت مكسوفة من الصحراء بطفلين مريضين. - آه، هذا هو الكبير. "الله يخليه لك". نعم، طفل جميل رغم سمرته. ربما توحّمت على عبد. "الله معافينا". يا لعينيه! كأنه يقرأ في الأذهان، ما اسمه؟ لكنه ليس اسماً من أسمائنا... آه، والده هو الذي سمّاه تيمّنا بملكنا الطيب!

الاسم! ليسمح لي بالتركيز على هذا المعطى البالغ الخطورة عند الأدميين. تخيل أنهم رفضوه لك عند الوصول، ولا أحد كلف نفسه عناء تسميتك، لأن حظك العاثر شاء أن تكون ضحية تجربة علمية قرّرت دراسة علاقة الاسم بتكوّن الذات. ها أنت في وضع من مميزاته أن لا أحد يناديك، لا أحد يطلب منك أو ينتظر منك شيئاً ولا حتى دفع الضرائب بما أنك غير مضمّن في أي دفتر.

من حسن حظك أن العرف والقانون يحرّمان جريمة أقطع من جريمة القتل. فالاسم حق مطلق ومعطى يسلمونك إياه عند الوصول تقبله طوعاً أو كرها ليضع الحدود بينك وبين بقية الأدميين، ليجعل منك فرداً متفرداً وفريداً، معرّفاً ومعروفاً لنفسك وللآخرين.

ها أنت موثق إليه من المهد إلى اللحد كما أنت موثق للجلد والعظم والرابط بين التغيرات التي تمرّ بها الذات هذا الصوت الذي لا يتغيّر من بلل الرضيع إلى بلل الشيخ. كم من أجزاء من شكلك سيأتيها الوهن والعطب واسمك كأول مرة سمعته من "ما" لا يصاب بمرض ولا يشيخ أبدا!

للإسم أيضا وظيفة أخرى هي إدماجك في مشروع غامض، في أمل مبهم، في مهمة عليك الانتباه لها. أي مسار كانت تتخذه الرحلة لو كانت "ما" هي التي أطلقت عليّ اسما محملا بتعليمات وأمان صامتة غير التي حملها الاسم الذي فرضه "با" لمتابعة ملحمة بطل اختاره هو ليكون النموذج لابنه دون تفكير في تكلفة الخيار. لكن من أين لكل منصف أن يغدو منصفًا، لكل منصور أن تنتصر... من أين لكل مريم أن تلد مخلصًا وإلها! عودة لسياق القصة.

ثمة دوما في هذا العالم مرفأ تجرب فيه لذة الأمان حتى وإن كانت مثل هذه التجارب نادرة عابرة كسحب الصيف. تتصاعد من جمرات الكانون رائحة احتراق قطع خشب يقال إنها جاءت من أرض النبوة ولا أنجع منها لإبعاد الأشباح والجن. هنا تفتح الذاكرة الآن ملفت جدّة عوّضت بحنانها حنان الجدّ المفقود.

كانت أم "ما" فارعة الطول، ثرثارة، مرحة تبرز من قريتها لتفقد أحوال تعلم صعوبتها. كان مجيئها كظهور شعاع الشمس بعد طول احتجاب. كانت تملأ البيت بصوتها الجهوري، بضخامة جرمها، بألوان ثيابها الصارخة، بالخيرات التي كانت تحملها، بجوّ الفرح والحنان الذي كانت تخلقه بمجرد ظهورها.

تجلس العجوز المرحلة على الدوام على الحصير البالي تعدّ الشاي وهي في قمة السعادة بعودة ابنتها وبرؤية بعض من أحفاد أرهقت كثرتهم ذاكرتها فبقيت تخط بين الأسماء إلى نهاية العمر.

تخرج علبة معدنية صغيرة تفتحها بمنتهى الوقار، تتناول منها مسحوقا أخضرًا دافكا تمسكه بين إصبعين ماهرين، ترفعه بتمهّل إلى أنفها تستنشق رائحته بلذّة واضحة. يغافلها الطفل ليسرق بعضا منه يدسه في أنف فيباغته الالتهاب والعطس.

تضحك الأمّ وأمّ الأمّ إلى أن تستلقيا على الظهر ثم تتسابقان لتقبيل الطفل الغاضب. إلا أن ما كان ينتظره بفارغ الصبر هو أن تنزع الجدّة المحبوبة عن رأسها وشاحا بالغ القدم تعتمره وتتدلّى ذوائبه على كتفيها تخفي في طياته كنوز الأرض قاطبة. كانت تفتح عقدة في هذا الوشاح، تخرج منه قطعة نقد هي ضريبة تتخلص بها من طفل مشاكس تحبه وتضيق ذرعا بكثرة شغبه. كان الطفل يلتقط القطعة أو قل يخطفها مطلقا ساقيه للريح وكلّه مشاريع حول ما سيشتري بها من ملذات الدكان القريب، تاركا نصيبه من الحلوى تحت حماية المرأتين، عالما أنه يستطيع النقة بهما... في مثل هذه القضايا على الأقل. ثم كان يركض مجددا للجلوس بالقرب منهما على الحصير الخشن يصيح السمع لحديث هامس عن فرج أت لا ريب في الأمر. تصرخ الجدّة في الطفل الهائج وقد نفذ صبرها من ضجيجه ومن إلحاحه بخصوص موعد حضور الرجل، ولماذا سموه "فرجا"، وماذا سيفعل في بيتنا عندما يصل.

- إن لم تكف هرجك فإنّ العبيثة ستأتيك هذه الليلة وسترى ما ستري.

العبيثة! اسم الغولة في هذه الربوع. يا ما هدّدته عمات وخالات بهذا الكائن المرعب الذي يخرج من غابة الزيتون ليفعل أفعالا رهيبه بالأطفال الشرسين سليطي اللسان. العبيثة! الكائن الذي تتجمّع فيه كل شرور البشر وكل تهديدات الأدمي للأدمي الآخر. يتوسع عالم الطفل لكائنات موجودة لكنها أصعب اكتشافا على البصر حتى من أفاعي الصحراء. لم يبق عليه إلا تخيلها ورسمها ليخفّف من خوف مداهم.



العبيثة

- "ما" من أخطر؟ العبيثة أم الأفعى؟

- أولاد الحرام.

- أولاد الحرام؟!

تصرخ الجدة ضاحكة تريد تدارك زلة لسان ابنتها:

- اسمع بقية قصة البارحة، لكن كفت عن القفز على هذا السرير. إذن: وقف علي بابا على باب الغار.
ذهن الطفل الآن مشغول بأولاد الحرام أكثر مما هو مشغول ببقية قصة عنتره ابن شداد.

أولاد الحرام! من هم بالضبط؟ كيف يكونوا أخطر من العبيثة؟

يغمض الطفل عينيه، يترصد قلقا أن يبرز من الظلام شكل مبهم مرعب. يتعمق صمت الصمت ويغوص العالم في ظلمة لا قرار لها. يغرق الطفل في أمواج مضطربة من خوف ممزوج بأشدّ الفضول. هل يريد حقا الفرار من الكائن أم لقاءه؟ يصدر الباب صريرا ويتحرك شيء في الظلام. يثب الطفل على قدميه مرتعشا والحجارة التي هزّ بها معه للفراش ملء راحته والذراع على أهبة الرمي. هل سمع من قومه باكرا إحدى مقولاتهم؟ أم هل وجد وحده القانون: سورة ياسين نعم لمواجهة الكلب، لكن مع حجاتك دوما في الجيب.

تبادره أم جاحظة العينين من الدهشة:

- ماذا تفعل واقفا في الظلام؟ أي عبيثة؟ أه، العبيثة، إنها لا توجد إلا في الخرافات. نم مطمئنا. أمك ساهرة على الباب، سأترك لك النور.

يتنفس الطفل الصعداء. يعود إلى فراشه متمنا أنه لم يكن خائفا، أنه لا يخاف مثل "با" جئا أو إنسا وأنه سيشرح رأس العبيثة بحجراته لو تجاسرت عليه. ثم يثب من فراشه ملتجئا لفراش أم تقرّر الليلة إعطاه حق اللجوء.

فرصة ثمينة لمواصلة الاستجواب والأم لا ترفض شيئا لطفل مختبئ بين ذراعيها يرتجف من الخوف.

- "ما"، إذا كان لك أم فلا بد أن يكون لك أب مثل "با". أليس كذلك؟

- طبعيا يا حبيبي. أنا أيضا لي أب، إنه جدك وهو زوج جدتك مني.

- لماذا لم يأت لاستقبالنا. هو أيضا في السجن؟ هل سيأتينا بعد إطلاق سراحه؟

- لا يا حبيبي. سافر جدك إلى جنة الخلد قبل سنتك الثانية.

يداهم الطفل شعور مزعج أنه يكلف هذه المرأة ما لا تحب. أليس من حقه أن يعرف كل التفاصيل عن هذا الغائب الآخر؟ ما سبب ذهابه إلى "الأخرة" وكيف كان شكله وطوله ولباسه وطبعه لوضع بعض الملامح على الوجه الغائب الحاضر.

- وماذا أيضا؟

- كان يلبس برنسا أبيض ويضع في عبه الحلوى التي يأتي لك بها خصيصا.

- وماذا أيضا؟

- كنت تضع يدك مباشرة داخل العبّ لأنك تعرف أنه زاهر بما تنتظر.

إذن هذا الشبح الذي لم أره قطّ هو الذي علمني ألا أدخل بيتا فيه طفل إلا والحلوى ملء جيوبي. كانت هذه لمستته في تشكيل ذات عركتها من الأيادي ما عرفت وما أجهل.

- وماذا أيضا؟

- يا بني، قلت لك كل ما تريد سماعه عن جدك محمد.

كلّ ما يريد سماعه! لا يبقى على الطفل سوى استدعاء العجوز في المنام ليقول له هو مباشرة ما كان بأمر الحاجة لمعرفة. أواجه الرجل الذي لا شكل له ولا ملامح، فإذا به ملاك ملتجئ في الوداعة والطيبة ملتحف ببرنسه الأبيض. لا أقبله، لا أرتمي في أحضانه، ولا أتركه يلاعيني ويدغدغني. لا أقبل منه أن يناديني بأحلى الأسماء، بل أرفض أن أمدي يدي إلى برنسه لأجد المكان الذي يخبي فيه الحلوى. ها هو ذاهل أمام سيل من التهم يفاجئه بها طفل شيخ تقادفته موجات الزمان وأخرجته من التتابع المألوف للقصاص.

كفى تهريجا وتمثيلا أيها العجوز، لا أريد حلوك وإثما أن تقول لي ما نحن بصدد. هل اتفقنا على أن الغياب أهم

قواعد اللعبة؟ أم هل غافلتني فأضفت هذه المادة السمجة تظن كل قصة بحاجة إلى عقدة؟

يتعمق صمت الشيخ ويهدأ غضب طفل لتعود القصة إلى نسق التتابع المألوف ومواصلة التعرّف على بقية رفاق الطريق.

في البيت المتداع المحاصر بالأشباح والخوف، تنتهّد جارة بصوت عال تهمس في أذن "ما" لا تعرف أنني أفعل النوم:

- يتيم الأب يتوسد الركبة ويتيم الأم يتوسد العتبة.

يثب الطفل من الحزن صارخا:

- لا أريد أن تموتي، أسمعيني؟ إذا متّ لن أكلّمك أبدا!

تجمع الجارة حوائجها تتلعثم ببعض عبارات الاعتذار لائذة بالفرار، تحكم الأم ذراعها، تمسح دمعها يتهاطل من عينيه ومن عينها:

- اطمئن. لن أموت، هذئ من روعك.

- و"با" ... هل... هل مات؟

- يا حبيبي، أبوك حيّ يرزق.

- إذن لماذا لا يأتينا أبداً؟ ألم تقولي لي انه بانتظارنا هنا؟ لماذا تركنا جدي والصحراء؟ لماذا جننا لهذه المدينة البشعة؟ لماذا يتركنا وحدنا دوما هنا أو هناك؟

- يا بني إنه مطارد... وله كثير... ممن يريدون به الشر.

ينمو في الطفل قلق جديد من أخطار لا تفصح عن نواياها وعن أسبابها.

يعلم أن أمه تخفي عنه سرّاً له علاقة بأولاد الحرام الذين تتهاشم بخصوصهم مع الجدة وهم ليسوا جناً أو عفاريت، إنما بشرا كالذي يعرف، لكنهم، لسبب جهله، يريدون الشرّ به وخاصةً ب"با".

يا للطفل المسكين لو علم مواعده معهم تلك الليلة!

يتعالى القرع مرعباً ككلّ قرع فظّ في آخر هزيع من الليل. تنتشج يدا الدليل الذي لا ينام إلا متحفّراً حول ذراع طفل متحفّز هو الآخر لوعيه بأنه فعلاً في خطر عظيم. يصرخ صوت أجشّ من خلف الباب: نحن أصدقاء الأب، بعثنا لنأتيه بالطفل، فأخرجيه لنا. ترتجل المرأة الجواب المنقذ: أخذته الجدة إلى القرية، فاذهبوا إليها وقولوا لها من قبلي أن تسلمكم إياه. يتردّد زوّار الليل. يتقرر من قبل لا ندري من أو ماذا أن المرأة الضعيفة لن تنتشب تلك الليلة الذي تقاطعت فيه أخطر مقاطع الطريق أظافرها في عنق ذابحها، أن جثة الطفل لن ترمى في البئر، أن الأب لن يموت كمداً أو يصبح بدوره قاتلاً يدفع أبرياء ثمن أفعال الأثمين. ينسحب قتلة الليل بخفي حنين وتسارع الأم لإخفاء الطفل أيما عند الجيران.

ذات يوم تدخل علينا امرأة قالوا لها أنها تعلم الغيب وتعرف تعرف يوم رجوع "با".

تجلس المرأة البدينة، الغارقة في ثياب فضفاضة ملوّنة على الأرض بصعوبة. يأتيها الشاي وبقايا حلوى العيد التي لا تخرج إلا في كبرى المناسبات. تأخذها اليد المخضبة بالحنّة بشره، تحشرها في كيس ثم تفتح يدا متشنجة تقرأ فيه تفاصيل بقية الطريق.

- خفّي عنك يا عزيزة. ما ثمّة إلا الخير.

تنطلق "الدقّازة" في خطاب لا يهّم منه الطفل المفتوح العينين والأذنين على أقصاها سوى أنه كلام تنفرج له الأسارير الحزينة. وهذا الطفل؟

- انتبه، إنّي أرى عينا شريرة ترصده وإنّي أرى كارثة قريبة تنهدّه!

تعود الأسارير إلى تجهمها.

تندارك "الدقّازة" ما ليس هفوة وإنما مدخلا.

- لا تجزعي فسيدي الخافي معه، وكذلك سيدي محرز وبقية الصالحين. خذ كلّ يوم جمعة إلى ضريح سيدي بوريقة. لا تنسي هذه الورقة، إن فيها سورة ياسين وأدعية النبيّ. ضعها في كيس صغير واربطه حول عنقه. لا تتركه ينزعه أبداً حتى وهو في الحماّم. إنهم يريدون به وبوالده شرّاً عظيماً، قبح الله سعيهم.

- قلبي لا يقول لي خيراً... خاصة هذه الأيام العصيبة.

- قلت لك: لا تخافي فكلّام الله درع لا تخترقه عين سوء. هذا يا فتى حرزك. إنه درعك الحصين، لا تنزعه عن عنقك أبداً، واسم الله دوما عليك.

يسأل الطفل أمه عن المرأة الغريبة. لا يفهم إلا بعد عقود ردّها الواجم:

- مسكينة تواسي مسكينة، تعطيني بعض ما أتمنى وأعطيتها بعض ما تحتاج.

ذات ليلة تتعمق التجاعيد في وجه "ما". تجاهد لإخراج كلمات كأنها التصقت بحلقها:

- أبوك في مكان لا يمكّنه من أن يبعث لنا مالا... يا بني... ليس... ليس لدينا... عشاء... هذه الليلة فقط... جدتك ستزورنا قريباً... ربما غداً... ستأتينا بالكثير من خبز الطابونة والزيت والزيتون وكلّ ما تحبّ.

تعضّ الأم على شفتها السفلى. تشيح بوجهها... ليس بالسرعة الكافية. تنساب الدمعة على الخد قطرة ندى على ورق الورد. يصرخ الطفل: "ما" لست جائعاً. وأقسم لك برأس "با" أنني لن أجوع أبداً، أبداً، أبداً. تعبر عضلات وجه الأم اختلاجات

عابرة كان بها تردد بين ربع الابتسامة أو تفجر الضحك. تضع ذقتها على رأس ابنها ثم الخد المبتل على الشعر الأشعث. يدفن الطفل رأسه في صدر أمه ليرفعه في اللحظة المولية صارخا وقد جاءت فكرة عبقرية أخرى:

- "ما"، سأشرب كثيرا من الماء حتى يكف الوجع الذي في بطني.

تضع الأم إصبعها على شفثيه. يسود الغرفة صمت متهيب لا يقطعه إلا صوت مصباح الغاز القديم وهو بين حشرجة المصدر وصفير الثعبان يرمي بأخر ما في جعبته من نور باهت مرتعش. يلقي ليل بهيم محمل بتهديدات غامضة بكلكله على امرأة وطفل سيبيتان هذه الليلة (وكم آدميين آخرين) على الطوى.

لا شيء مأساوي في كل هذا، والكائنات مختبئان داخل مغارة دافئة مخفية في أعماق الذات يضيئها نور ساطع ثابت دافق اسمه الحب. النوم أنفع ضد المغص من الماء. تتخلل أحلامه صور لعجوز تضع عجينا داخل فرن الطين تنفخ بقوة على الحطب، تسعل وتمسح عينيها ورجل يخرج من العدم صارخا: يا امرأة عجلي؛ ابني جائع. فجأة يشعر بأمه تهزه وبها شيء كالجدل: هيا. انهض. الجارة-جازاها الله ألف خيرا-أنت لنا بقفة فيها ما يكفينا لأسبوع، وبعدها يفتح الله. آه إذن ثمة جيران...

يجلس الطفل بين امرأتين تتهامسان لفظور من خبز ساخن وزيت لم ولن يضاويه يوما فطور. تلتحق بهما نسوة الحي. جنن هذه المرّة للتهامس في أمور خطيرة تقع وسط مدينة صغيرة أفاقت على حصار الدبابات.

فصل جديد من الصراع الأزلي بين الأدميين وهم دوما في خلاف على مبتدأ الخبر ومنتهاه.

الموضوع في هذا المقطع من النصّ ليس هذا الصراع وإنما طبيعة العالم الذي يعيش فيه بطلنا الصغير. هو مختزل في جدة وأم وخالات وعمات وجارات وكلهن يريدون تقبيله واللعب معه أو قل به. عالم انثوي بامتياز بما فيه من استدارة، من اكتناز، من رخاوة، من رقة ونعومة وليونة وطراوة... عالم سكري المذاق، مشبع بالألوان الصاخبة، بروائح البخور والطيب... عالم يبعث فيك الدفء والاسترخاء واللذة وشعور الأمان... ثم-سريعا-الاختناق. تهاجم الطفل يوما رغبة عارمة غير مفهومة المصدر في فتح النوافذ على مصراعيها ليغلب الصراخ الوشوشة، لتخف كثافة روائح البخور والعطر، ليتحرك البيطى، ليحتد ما هو خافت، ليكتسب المكور المستدير أضلعا حادة. لا تعجل، يا فتى. يوم تعرك الأحداث بكل ما فيها من فظاظة وقسوة، يوم يشتد الإرهاق والوجع من الجزء الذكر من العالم، سيتسلل إليك الحنين للعالم الذي جاهدت للإفلات منه تمنى النفس بفضاء تعيد تشكيله مخيلة كل أطفال العالم ليس فيه إلا إناث اسمهن الملائكة وحوار العين.

مشكلة الطفل الآن، ليست العودة إلى الجنة وإنما الهروب منها. لكن كيف الإفلات من كل الإناث المتربصات به والحال أن الفرار إلى عالم الذكور لا يكون إلا بالدليل الذكر وهو شبح لا يعرف له وجها.

**

الدليلان

ثمة قاسم مشترك بين الرحلة بمفهوم التيجاني ومفهوم المعري: ضرورة الدليل. إلا أن هناك فرق جوهري في طبيعته. ففي رحلة التيجاني-أو أنت تركض وراء دليل في محمية افريقية تزورها لأول مرة - الدليل شخص لا تربطك به أي صلة عدا عقد ظرفي. يجبره هذا العقد على قيادتك على طريق محفوف بالمخاطر إلى أن تحقق هدف السفر. يجبرك نفس العقد على مكافأة هذا الذي خدمك نقدا وشكرا. بعد ذلك يذهب كل واحد في سبيله تنساه بأسرع ما ينسأك. أما بمفهوم المعري فالدليل جزء لا يتجزأ من الرحلة من بدايتها إلى نهايتها. هو لا يقود أولى خطاك في هذا العالم فحسب وإنما هو الذي تنتظر بعينه لهذا العالم ولأمد طويل وقد تبقى تتعامل معه طوال حياتك وفق ما وضع في ذهنك من تعليمات أغلبها لا واعية. مما يزيد في تعقيد الأمور أنك لا تجد عند الوصول دليلا واحدا وإنما دليلين ليسا دوما على اتفاق بخصوص الطريق الذي يجب أن تأخذ.

أضف لهذا أنك تتخبط مجبرا في قصتهما توصلهما شئت هذا أم أبيت. تتمكّن من الطفل عادة جديدة لا يستطيع لها دفعا. ها هو مرابط اليوم بطوله أمام المحطة القريبة من البيت، ينتظر توقّف ثعبان أسود هائل الحجم يطلق من بعيد صغيرا كعواء الريح ويخرج من رأسه دخانا أسود كثيفا. كم كان يحب رائحته الخانقة تعده برائحة عطرة لطربوش أحمر بذوائب سوداء! ألم تقل له "ما" أن "با" سينزل منه فيكون له هو الآخر أب! يتفحص الطفل الأدميين الخارجين من جوف الوحش الأسود باحثا عن رجل لا يعرف له ملامح. يمرّ الرجال أمامه لا يرونه ولا ينقضّ عليه منهم أحد صارخا ضاحكا ومقبلاً. يعود إلى البيت كلّ مساء كسير النفس داعم العينين مصمّما على العودة غدا إلى نفس الرصيف إلى أن يحصل على حقّ حرم منه بغير ذنب. لا ينفذ توسّل "ما" ونهيبها عن عادة تتفاقم يوما بعد يوم، ولا تريد إلا الطين بلة والطفل يتعلم تصرفا جديدا وهو ينقّس عن شعوره برشق الثعبان الأسود بالحجر وقد استقرّ عنده الرأي أن هذا الذي أخذ منه والده هو الذي يرفض إرجاعه إليه. من الطبيعي أن يبقى مسكونا طول الرحلة بهاجس الغياب، وأن يوآد هذا الشعور عنده قلقا دفيناً لن يفارقه يوما. ترى، هل ظاهرة البحث عن الغائب الأزلي مجرد حالة نفسية يعاني منها هو بالذات؟ أم الحالة العامة عند الأدميين، وكل ما في الأمر أنها اتخذت لها في هذه القصة صبغة البحث عن الأب وهو مجرد ممثل لغائب أبعد لا ينزل أبدا من أي قطار؟

تكفكف المرأة وهي منزوية في الظلام دموعا تخفيها عبثا. لا يزيد ذلك الطفل إلا غيظا لا يعرف لمن يوجّهه. كان في عمر لا يفهم فيه، فما بالك أن يقبل بأنّ في هذا العالم جرائم كثيرة بلا مجرم. قم تغلبه حيويته. لا بدّ لكل مشكل من حلّ. يكفي أن يجده أو أن يقرّر أنه وجده. يعود للجحافل المعتادة للرجال وهو-هذه المرة- عنصر فاعل له إرادة وفكرة واضحة عما يريد. ينتقي من بين المتدافعين بالمناكب من سيكون أب اليوم ثم ينصرف شبه راض ونصف مسرور وقد وضع على وجهه من لا صورة له ملامح وعلامات. ألم نصنع أساطيرنا وعلومنا وأدياننا بهذه الطريقة، نضع على الغائب الأزلي اسما وصفة، نتعلم انتقاء الحلول التي تلاؤمنا، نجد فيها بقوة الخيال العزاء والسلوى... وآخر ما يهمننا صحتها؟ ثم يعاوده الغم.

لا أحد من آباءه الكثيرين يلتفت إليه وهو كالكلب الشارد يجري وراء أي عابر سبيل فلا يلتقي منه إلا الصّدّ والزجر. ينتهي الطفل بالإقرار بعيبه طريقتة فيعلن احتجاجه داخلا في أوّل إضراب له... صدّ من؟ يجلس على عتبة باب المنزل المتداع، مصمّما ألا يبرح مكانه لأكل أو شرب أو لعب حتّى يعود إليه دليل دونه يستحيل الرحيل...وما على الله أو أي مسئول آخر إلا البتّ في القضية.

تقترب الأمّ من طفلها بحذر من يقترب من قطّ مستعد للهجوم أو للفرار. يسمع حفيف ثيابها فيفتعل قلة الاهتمام وهو يتابع بكل جوارحه اقتراب هذا الأدمي الذي يتحرك دوما وكأنه مصنوع من الضباب. ترتفع يد الأمّ ببطء شديد. يخيل له لحظة أن اليد بقيت معلقة في الفضاء، أنها تتردّد، أنها قد لا توضع أبدا على شعره الأشعث. تزعجه الفكرة أشدّ إزعاج. يستعجل الحركة

المعلّقة. كان لا يشعر بالأمان إلا واليد الرقيقة موضوعة فوق رأس ناشف كأنه-على صغر سنّه-صنع من خشب جفّ قبل الأوان. تلمس اليد الرقيقة أخيرا الشعر لمس الفراشة لأزهار الربيع. تمرّر "ما" راحتها عليه بمنتهى الحنوّ. يرتفع من خلفه الصوت الرقيق، يرجوه دخول البيت:

- ماذا سيظنّ الجيران بي وبك ونحن في هذا الظلام على عتبة الباب؟

- ليظنوا ما شاءوا، أريد "با" حالا، لا يحبني، لهذا لا يأت أبدا. أليس كذلك!

تضع الأم كامل يدها على فم الطفل:

- لا تقل كلاما كهذا. هل تعلم أنه وضع يده على بطني لما انتفخ بك ليباركك، أنه كاد يطير فرحا عند مجيئك؟

مؤكّد أنه طار فرحا ثم طار مباشرة لأغراضه الأهمّ.

ما من شكّ أنّه وصل في آخر لحظة أول موعد لنا، أنه دخل الفصل من القصة لاهثا، متقطّع الأنفاس، أخذ القادم الجديد بين ذراعيه وكلّه فخر بما أتى من معجزة، ناسيا أنّه لم يتكلّف من العملية إلا أسهلها. كأنني به يتنفّس الصعداء وهو يتأكّد أنّ القادم الجديد ذكر هو الذي كان يتقبل التعازي والحياة ترمي على شاطئه بغريب تعس الحظ ليس من جنسه ولو كان من صلبه. قد أكون أطلقت عقيرتي بالصراخ أول مرة انكبّ فيها على مهدي وقد تملّكني قلق غامض وأنا أقرأ في ذاكرة المستقبل إشارات تنبيه حول هذا الرجل وقلة أهليته لمهمة الدليل. ربما بلغت الصرخة برج القيادة العامّة وأن حديثا بشفرة "المورس" أو بأيّ شفرة أخرى أضحك أكثر من مستمع غير مخوّل باستراق المكالمات السريّة.

- ما هذا الدليل؟ لن أرافقه خطوة واحدة.

يأتيني صوت العالم العجوز، باردا على عادة من شاب على صراخ الاحتجاج المتصاعد من الكائنات:

- نأسف لعدم تمكّنا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

- قلت: لا أريد هذا الدليل. سيتركني. غالب الوقت وحيدا ويوم يرجع سيسوقني إلى المقاهي كما لو كنت قردا عالما يفاخر بي رفاقا يستهزئون بي وبه.

- نأسف لعدم تمكّنا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

- النجدة !

- نأسف لعدم تمكّنا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

- الرحمة !

لا رحمة ولا هم يحزنون. اصطفت طاولة القمار التي لا مردّ لحكمها من سيكون الدليل.

أتخيله، وأنا ما زلت أتفنّن في إطلاق صرختي الأولى، أخذنا بزمام الحديث عجولا، نافذ الصبر، متوتّر الأعصاب، مستنفر الحواس، كأنه داخل أو خارج لتوّه من صراع مع ما حملت الأرض من كواسر.

- انظر هذا هو العالم، كم هو واسع، غريب، زاخر بالأسرار! لا تخف، سأعلمك كلّ ما يجب أن تعرفه عنه؛ فدليلك به أحسن العارفين، انظر كم هو خطير، مرعب غدار لا طريق آمن فيه، لكن لا تخف، سأعلمك كلّ ما يجب أن تتعلّم من فنون الصراع فدليلك بالحرب أحسن خبير. هيا، أسرع لنستكشفه، لنغزوه، لنفتحه الفتح المبين ولا تضيّع وقتك مع هذه الأنثى. لا خير يرجى من أنثى ولو كانت أمّا. كم أنت محظوظ! معك حق أن تفخر بأبيك وأن تتعنى بكلمات الشاعر المجوسي اللعين.

- "با": لو تزحج جنبكم قليلا لأبصر شيئا من هذا العالم، لا أرى إلا أظهركم الموقر.

- وفي هذا العالم اللعين، يجب أن يكون سيفك دوما مشهورا في وجه من يعصّ باليد اليمنى... وباليد اليسرى السوط مرفوعا في وجه من ينبج... وفي هذا العالم اللعين يجب أن تحذر من أمامك ومن خلفك، أن تحمي ظهرك والجنب. لا تخف؛ سأعلمك ما يجب أن تتعلّم عن فنون الحذر والخداع. طوبى لمن أسعفه الحظّ أن أكون له أبا. لا أسمعك تتشد: "أين في الناس أب مثل أبي!"

- اسمعني أنت ولو مرّة.

- وفي هذا العالم اللعين، يجب أن تكون صيادا حتّى لا تكون طريدة. أصعب ما تصطاد ذكور الأدميين وأخطر ما تصطاد إناثهم، لكن لا تخف سأعلمك كلّ ما يجب أن تتعلّم في فنون الصيد؛ فدليلك أحسن من اصطاد ذكورهم والإناث. وفي هذا العالم اللعين، حذار من الأدلة المزيفين، يقودونك إلى صحار بلا واحات وأنهار بلا ماء وبرار بلا عشب، لكن لا تخف قليلا أحسن خبير بالمحتالين وقطاع الطريق. احلف برأس أبيك أنك لن تسمع أبدا هذه الأنثى ولو أنها حملتك في أحشائها. لا أخطر من تصديق أكاذيب النساء. تالله يا بني أي ضربة حظّ أصابتك لتكون ابنا لدليل عليم بمكر النساء خبير بخبث الرجال، والآن تدبّر أمرك وكن جديرا بي. أه، يا طفلي الحبيب حقّا أين في الناس أب مثل أبيك!

للحقيقة هناك شيء لطيف في هذا الرجل رغم إفراطه في أمر نتشارك فيه جميعا ولا نراه عيبا إلا عند الآخرين. يضيّع أغلب الأدميين وقتك وجهدك حتى تكتشف من يختفي وراء القناع وهم يراوغون بافتعال التواضع والزهد والتجرد وباقي فضائلهم التعيسة. كان "با" من النوع الذي يحمل خصاله وعيوبه واضحة لا لبس فيها ولا غش، تماما كما يحمل العسكر على صدورهم المنفوشة نياشينهم. كان مبالغا في عيوبه ومبالغا في خصاله إلى أن تتقارب فتتمحي بينها الحدود. كانت نرجسيته مثيرة للغثيان ... صراحته سلاطة لسان... احتقاره نارا حارقة، وعنفه لا يطاق. كان غروره، كذكائه، كوسامته، كأناقته، كجراته، كفصاحته، كوقاحته، شيئا خارجا عن المؤلف. كان لا يحب شيئا أكثر من تكديس الأصدقاء وزيادة عدد الأعداء والشعار مقولة الشاعر الاندلسي:

"عداتي لهم عليّ فضل ومنة فلا أذهب الله عني الأعدايا

هم بحثوا في زلتي فاجتنبتها

وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا"

لم أعرف له مثيلا على كثرة ما خالطت من الرجال وأشبه الرجال. لكن لتترك المسكين وشأنه، فسنعود له أكثر من مرّة في النص.

المهمّ أنه حكم في ذلك الفصل من القصة على طفل أن ينتظر الساعات الطوال على رصيف محطة راكبا لا ينزل أبدا من أي قطار، وأن يعتصم بالشارع جالسا هو وأمه على عتبة الباب يأمر الله والعيبة والجن والعمالقة وكل من لا يهمهم الأمر بتحمل مسؤولياتهم في تمكينه ككل الأطفال-من حقه في دليل ذكر يفتح له جزءا من الطريق. تواصل الأم مناورة التهذؤة:

- تريد الآن بقية قصة البارحة، تعال... إذن قال الأب لعنترة: أنظر، هاجمنا الأعداء فقم لهم، لكن عنتره قال له أنه لن يحارب لأن...

- لا، لا، لا، عنتره لم يكن أبدا جباناً!

- انتظر البقية...

- لا، لا، لا، عنتره لم يرفض يوما الخروج لمعركة، لا أريد سماع قصتك الرديئة.

يضع رأسه بين ذراعيه وقد بلغ ضيقه بالدنيا ومن فيها أوجه. ثم يعود للصراخ:

- أريده أن يأخذني لحمام الرجال. أنت دوما تمنيني بذلك ولا شيء يحصل.

- سيأتي وستذهب معه لحمام الرجال لأنك كبرت فعلا.

- لن أسمع كلاما سمعته كثيرا. ليأتي الآن.

- تعال، يكفي، أخشى عليك من البرد.

- قلت لك: لن أدخل إلا وهو معي. سأنام هنا إلى أن يحضر. اتركيني.

- إذن سننتظر سويا.

لنعتنم فرصة الصمت الثقيل، المرفرف على الطفل الغاضب وأمه المتزايدة حزنا لإلقاء مزيد من الضوء على الدليل الأنتى لا لشيء إلا لأنه نادر ما يتخلى عن واجباته كالدليل الذكر.

كم من نصوص كتبت فيه! كم من أشعار قيلت فيه! كم من تماثيل، كم من لوحات، كم من أديان رأت النور تعبدا له وتبركا! على مرّ العصور وهو "أوما" أمّ الكون، و"سدنا" أمّ الحيوانات، و"قاييا" أمّ الحياة، و"عشتار" أمّ الحب، و"ارشكيجال" أمّ الموتى، و"إيزيس" أمّ الربيع، والعذراء أمّ المخلص! كيف لا تعترف أنت الأدمي، أكثر الكائنات نكرانا للجميل، ببعض الجميل لكائن هو المغارة السحرية التي اختبأت داخلها تستعد وتتأهب للموعد المثير؟ ... أليس الجسر الذي حملك من ضفة العدم إلى ضفة الوجود؟ ... أليس السفينة وأول مرفأ تنزل به؟ ... أليس مدير التشريفات المكلف بتقديمك للأشياء والكائنات؟ ... أليس متعهد الخدمات اليومية، ناهيك عن كونه أول مرآة تكتشف فيها ذاتك؟

أين لك خادم كهذا الخادم يؤدي كل هذه المهام لا يستقيل ولا يتهرب ولا يطالبك يوما بأتعاب مخلدة بالذمة وبيقشيش الساعات الإضافية التي يحرمها قانون الشغل!

لنا أساطير لا تحصى عن قتل الأب، لكن ولا اسطورة واحدة تجاسرت على تخيل قتل الأم. طبعا الأمر ليس صدفة. عيبه الأكبر هذا الكائن العجيب أنه لا يوجد منه إلا نسخة واحدة. لا أبحث عن أحد أستكين إليه وأضع عند رجليه سلاحه إلا وأسمع صوتا يصرخ: هل تعتقد أنني أمك؟

لا صدر حنون أضع عليه رأسي المثقل بهموم السنين إلا ويقول لي صوت جرسى نافذ الصبر: وهل تعتقد أنني أمك؟

لا أتمنى بعض ما كانت تجود به الأم دون حساب إلا ويعوي نفس الصوت: اذهب؛ ابحث عن أمك عند غيري

آخر ما سخرورا به مَيّ لافنة قاعة الاجتماع: "اغسل فنجان قهوتك يا هذا؛ فأَمْك لم تعد تسكن هنا من زمان".
أعود لصور "ما" في ملفات الذاكرة لأكتشف كم هي جميلة، منمقة ومنخرطة في أكثر الصور النمطية شيوعا وابتذالا. هل
من المعقول أن...؟ كلاً ثم كلاً. تستوقفني سرعة الرفض وعنفه. تفرع داخل ذهني أجراس الخطر. ترى ما المخفي بمهارة في
باطن أقدم الملفات، ما المحرّم، ما "الطابو"؟

ثمة شوائب لا يخلو منها كائن؟ يا ما تعلّمت عن الأدميين وبراعتهم في إخفاء وجههم المظلم؟ كم منهم يتقدّمون كأطهار
وقديسين وهم أقدر المخادعين على تسويق صور يعرفون وحدهم أنها كاذبة؟

تسترجع الذاكرة براعم مشاعر بالغة التعقيد، بالغة الغموض، بالغة الحرج، فيها غيرة باهتة وحرج متوارٍ وإنكار ساذج أن
يكون هذا الأدمي ضالعا في أمور فيها سوائل لزجة ودماء متدفقة وجلد ولحم وأتات لذّة وأتات ألم، وأن تكون الذات نتيجة كلّ
هذا. ماذا أيضا عن بعض أحداث صغيرة أخرى لا تتماشى مع صورة القديسة. لا أكره لديّ من أن أكون متعبدا أو أن يصوغ
ذاتي صنم حتى ولو كان صنم "ما".

تتردد امرأة رقيقة جعلتها الظروف أختا غير شقيقة وأعزّ أفراد عائلتي. كأنها لا تريد أن تجرحني. تنصاع مكرهة للأمر
الجاف.

- كانت... كانت رحمها الله تقسو علي... وأحيانا... تضربني.

ما العيب في أن تفضّل أم أبناءها على أبناء ضرتها؟ ممكن، لكن ما ذنب طفلة بريئة؟ يهتّر إناء الخزف الجميل. يوشك على
السقوط من عليائه والتهشّم إلى ألف قطعة. ليتني ما سألت. لكن أليس من الأفضل أن أحب كائنا آدميا بنواقصه على التعلق
بصنم طلي بريقه بالذهب المزيف؟

ثمة تماثيل تبدي فهما لطبيعة دليلك الأول. تتأملها من جهة فتري وجه "كوماري" ربّة الجمال والحب. إن أدرتها على قاعدتها
أو درت حولها، شاهدت "كالي" تنظر في وجهك عابسة ومهدّدة تتلوى راقصة على جسد طفلها المرمي تحت قدميها وقلادة
الجماجم حول عنقها، ومن أطرافها تتدلى رؤوس تقطر دما.

إنها قاعدة لا يجب تجاهلها إذا أردت فهم الأدمي: إن أدار لك وجهه المضنيء، ابحث عن وجهه المظلم، وإن واجهك بوجهه
المظلم ابحث عن النور المظمور وراء السحنة البشعة. حتى الأم الأزلية لا تخرج عن سطوة القاعدة.

تقول كفى تجنيا ومبالغة! يبدو أنك لم تضع مثلي أنفك في خبايا العائلات وما يفعله بأطفالهم نوع من الأباء ونوع من الأمهات.
لا يقدر الطفل-إلا وقد أصبح كهلا-أن "كالي" بقيت طوال الحياة مخفية في أعماق "ما" لأن "كوماري" كانت أقوى منها.
تصوّر ما كان ينتظره، مثلما حدث لأكثر من مسافر تعس الحظ، لو كان العكس ما شاءته الأقدار!

تمرّ الساعات والطفل وأمه جالسان على عتبة البيت لا حلّ في الأفق للأزمة الخائفة.

تجد المرأة الذكية مخرجا سيحفظ ماء وجه الطفل ويمنعها من النوم ليلة في العراء. تحتضن صغيرها العنيد هامسة في أذنه:

- لا تسألني كيف علمت ذلك. ثق فيّ، إنني متأكدة من الأمر. سيزورك اللّيلة في المنام.

يسترجع الطفل حيويته الصاخبة. يخلد إلى النوم كمن يذهب إلى ميعاد لا يمكن للحبيب أن يخلفه. يدخل عالما تتراقص فيه
أمواج حمراء. تقبض يد خشنة على قميصه تمنعه من الغرق. يتعالى الصراخ من مصدر مجهول. الوجه المرتعب المرعب
الذي رسمه ادفار مونش يغرق في بحر من الدم. ترسم نصف الابتسامة على وجه البحر وبها عتاب رقيق. يصفر وحش
أسود صفير الرحيل. تبصر أم مطّلة بحنوّ فائق اضطرابا غير معهود في ملامح طفلها النائم. تتراءى لها من خلال عينين
دامعتين ابتسامة شاردة تعير وجهه وشفتان تنبسان بكلمة واحدة. هي تعلم أنّ اللّقاء حدث وإنّ الطفل جالس على ركبتَي أبيه
يخاصمه ويصالحه كما سيحدث ذلك مرارا قبل أن يتفرّع الطريق نهائيا ليذهب كلّ في حال سبيله.

**

انقشاع الضباب عن الأفق

حان الأوان للخروج إلى أرض الله الواسعة لاكتشاف ما وراء أول محطة على الطريق. يشعر الطفل النائم بوجه جافت خشن التصق بوجهه. تداهمه أحاسيس صاخبة تأتيه من تداخل الكلمات والضحكات وروائح العطر والتبغ والعرق. يفتح عينيه ليقابل وجهين يحدقان فيه بابتسامة واسعة. حدثت المعجزة. خرج الدليل الثاني أخيرا من جوف الثعبان الأسود. قد يكون العالم فعلا علبة سحرية تنتزع منها ما تريد شريطة أن تقلبها بعنف، أن تصرخ فيها بما يكفي من القوة لتستجيب للشهوة الجامحة.

تهمس الأم:

- ألم أقل إن لك موعدا قريبا مع أبيك؟

يصرخ الأب:

- يا مغفل، هل ظننت حقا أنني تركتك؟ هيا أسرع، البس ثيابك، سنسافر لزيارة جدك.

- ونأخذ "ما" معنا.

- أمك لا تحبّ واحتنا وشبعت من الصحراء.

- أذهب وأترك أمي!؟

- الاختيار لك.

يأتي الكهل وهو يسترجع هذه الذكريات، إنه لعن ذلك اليوم عالما غير مفهوم يأمر بالرحيل ويأمر بالبقاء، بالشعور بالذنب إن ارتحل الفتى وإن لم يرحل ذلك لأنه للمكان الذي نقضي فيه أولى أيامنا مكانة خاصة في قلوبنا مهما تركه الطريق بعيدا ورائنا. نعود إليه دوما بجسدنا وبذاكرة لا تحافظ إلا على أجمل خصائصه، وكيف أنه كان دعة وراحة وطمأنينة وخدمات مضمونة، وخدمة مطيعة تحت الدمة يمكننا إرهاقها بكل أصناف الدلال... وهو في الواقع مجرد امتداد وقتي للرحم. يقبل بك زمنا ثم تتقلص عضلاته لتلفظك خارجه وإلا مالك نفس الذي كان ينتظرك لو تشبثت بجدران الكهف السحري: الموت تعفنا.

تسر "ما" في أذن ابنها أنها لا بد أن تبقى في البيت للاعتناء بشقيقه وهو أصغر من تحمّل السفر، أنها سترافقه المرة المقبلة وعلى كل الحال فالطريق الذي أخذ "با" وأرجعه، هو الذي سيأخذه لجدّه ويردّه لأمه.

كل ما يشغل بال الأم في هذه اللحظة أن تهدئ من روعها ومن روع الطفل وقد حانت بأسرع ممّا كانت تتوقع وتخشى لحظة أول فراق. تعدّ طفلها للسفرة كما لو كانت عدّه لعرس أو لعيد. يفهم من طول اعتنائها بأدق تفاصيل الملابس أنّ للصحراء رهبة خاصة في نفسها، أنها هي أيضا لم تنس وأنه رسول حبّ صامت للشيخ الذي اعتقها من الأسر. يسرّ الدليل الهادئ في أذن الدليل الصاخب بأخر التوصيات وبأحسن السبل للتعامل مع هذا الطفل الذي لا يعرف عنه شيئا. يفتعل "با" الانتباه متأففا من طول المراسيم. ثم ينفجر:

- كفى يا امرأة، اتركيه لوجه الله، هذا ولد وليس بنتا، إلى الأمام يا فتى وإلا فاتنا القطار.

كان دوما في عجلة من أمره كما أنا اليوم في عجلة من أمري، يحدونا نفس الشعور بأنّ وقتنا جدّ محدود، يضيّع علينا من أصابهم الله ببطء الفهم والفعل. كان يقول لكل بليد يعترض طريقه: لنضيق وقتك أنت ننفق منه ونبدّر، أما وقتي أنا فثمين. منه تعلمت أن أبعث لبعض من استهلك وقتي في نقاش فارغ أو وصل الموعد متأخرا بفاتورة في سطر: سلبتني ساعة من حياتي، الرجاء إرجاعها حتى بلا فائدة.

بجدّ ألا يفزعكم كل الوقت الذي يبذره الأغبياء من عمرهم وخاصة من عمرنا؟

تقبض اليد الخشنة على اليد البضة. تنفتح أخيرا قضبان القفص. يطير العصفور الذي طال به الحبس.

وعلى رصيف المحطة، والفجر في أولى وعوده، تبدأ سفرة ظلّت نموذج كل ما تبعها من السفرات.

- "با هل هؤلاء الجنود هم الأعداء الذين تريد قتلهم بالسلاح الذي في بيتنا؟

يجيل "با" البصر حوله بعصبيّة مشيرا للطفل بغلق فمه.

- إنهم أعداؤنا أليس كذلك؟ فلم لا تقتلهم الآن؟

ينفذ وصول القطار "با" من خطر نظرات فاحصة وينقذه أكثر أن ابنه غير موضوعا كان سيغيّره بقلق الرجل أو بدونه.

ينسى الطفل-وهو لأول مرة في جوف الوحش الأسود-ضرورة قتل الأعداء أو يرجئ الأمر إلى ما بعد احتلال مكانه.

يهرع تلقائيا للمقعد الذي حذو النافذة، لا يسافر من يومها على متن أي آلة إلا وأنفه فوق الزجاج. يتحرك القطار على وقع الصفير المثير ورائحة الدخان اللذيذة تتسلّل من النوافذ المفتوحة ليسعل الرجال وتحرك النساء أيديهن أمام أنوفهن ضاحكات

متأففات. تتسع حدقتاه وهو ينتبه للمنظر المذهل. كم بدا له غريبا يوماً ألا يعبأ أحد سواه بهذه الأعجوبة الجديدة والحال أن المنازل والأشجار التي عرفها دوماً ثابتة... بدأت تركض. يرجعه الصراخ المتصاعد داخل العربية المكتظة إلى هوايته القديمة: التفحص. عدد البشر أكبر مما كان يظن، ترى كم هم؟ سيسأل، "با"، لكنه مشغول عنه بالحديث مع ركاب فاغري الفم يتمتعون برواية أسفاره في بلدان لم يسمعوها بها أبداً. يومها شعر بفخر عارم بأبيه... فخر لن يفارقه أبداً. كان، "با" مقتنعا أن الترحال مصيره لأن قدر "النفيس أن يكون غريباً حيثما كان". كان الحلّ والترحال عنده حاجة ضرورية قاهرة حكمت عليه إلى نهاية حياته أن يكون دوماً على سفر. ربما قرأ واستبطن أبياتاً وإن لم يقرأها، فإنه عمل بها وكأنها لم تكتب إلا له:

"تغزّب عن الأوطان في طلب العلا (الشافعي)

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

جلاء لهم واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد

تلنقظ أذن الطفل مقاطع من كلام هامس لوالده حول شيء اسمه "الوطن" ومحنته.

ربما كان على حكيمنا إضافة فائدة سادسة. كيف نعرف وطننا إن لم نقرانه ببقية الأوطان؟ كيف نفهم البشر الذي حولنا إن لم ندرك ما يجمعهم وما يفرّقهم عن البشر الآخرين؟

يعود للتركيز على نافذته متعباً من إعراض الناس عما يعرض على شاشتها، لا يعلم أن اللامبالاة تجاه العجائب تأتي ضرورة يوماً كل المسافرين، أنه سيجلس يوماً مثلهم غير مبالٍ بغروب شمس أو بطول قمر. يستحوذ على لبه التغيّر البطيء، والثعبان الأسود يغادر بلاد التين والزيتون والعنب، ليدخل أراض موحشة غيراء اللون تميل -كلما تقدّم الراكب- إلى حمرة قانية. تغرق المناظر العجيبة شيئاً فشيئاً في غموض الليل، والطفل لا يقبل أمراً بالجلوس أو الأكل. أخيراً يتوقّف الثعبان الأسود عن الصفير والجري اللاهث ويتوقّف معه حراك البيوت والشجر. يشعر الطفل باستياء غير مفهوم. ألم يكن يتوقّب الوصول بفارغ الصبر؟ يغادر القطار متثاقلاً الخطوة، يحرك رجلين من حديد لا يعترف كم هو مرهق وفي نفس الوقت، يقظ متحفّز، متأهب، متشوّق للمزيد من ركض القطار.

- "با"، هذه ليست قرية جدّي.

- إنها واحة على ضفاف البحر، آخر محطة القطار. نبيت الليلة هنا وغدا نواصل السفر. هيا الآن إلى النزول. أنا ميّت من التعب.

يمتطي الأب والطفل عربية يجزّها جواد أسود يلسع بالسوط ظهره رجل يصرخ فيه بالسبّ والشتم. يقفز الطفل فوق كرسيه كلما هوى السوط وكانّ ظهره الذي يلسع. يجاهد لتجاهل السوط النازل الهابط بالعودة للسؤال:

- واحتنا أبعد شيء وهي توجد على حافة الأرض. أليس كذلك؟

- لا يا فتى. هناك أماكن أبعد منها.

يرفض الطفل القبول أنّ بوسع الثعبان الأسود الجري نهراً كاملاً لا يصل الفراغ الذي قرر أنه حدود عالم هو في ذهنه طبق أفقي من الصلب ممتدّ في كل اتجاه، لكن بالضرورة محدود.

يجب التنبّه من الأمر.

- وهل ذهبتي إلى تلك الأماكن البعيدة، البعيدة جداً جداً؟

- ألبعضها نعم، فالعالم واسع، يا بنيّ.

- وهل ستسافر إلى كلالللالل أماكنه؟

يستغرق الدليل في ضحك طويل تنهيه نوبة سعال.

- لا، لكنني أحاول.

- سأحاول أنا أيضاً؟

- وهل أمامك خيار آخر؟

يتهالك الطفل على سرير النزل ليغوص مباشرة في نوم مضطرب يتخلّله سهيل حيوان باهر الرشاقة، والسوط البشع يلسع ظهره هو ليركض ويطيّر.

ينهض صارخاً هارباً من السوط، يهزّ الدليل النائم جنبه:

- استيقظ وإلا فاتنا قطار الصحراء.

- لن نسافر قبل بزوغ الفجر. عد إلى فراشك.
- يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر بعض الدقائق. يقفز صارخا من جديد في أذن الرجل النائم:
- استيقظ، سيفوتنا القطار.
- ألم أقل لك أن الفجر ما زال بعيدا. عد إلى فراشك.
- يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر دقائق معدودات:
- استيقظ، فاتنا قطار الصحراء.
- يثب الرجل رافعا كفه. يفهم الطفل أنه في خطر. يسأل الأب على ابنه نظرة الاستهجان ثم ينفجر ضاحكا. يأخذه بين ذراعيه.
- يفهم الطفل أنّ الخطر تباعد وأنه ربح شيئا غير محدّد.
- اللعنة عليك، أطرت عني النوم. نخرج من الآن؟ هل جننت؟
- يجزّ الطفل دليله المندهبس يبحث بعينه في الظلام الدامس عن اتجاه مبهم.
- هذه هي المحطّة. اجلس الآن ولا تتحرّك حتّى تأتي ساعة الرحيل. ما يزال أمامنا كثير من الوقت.
- لا قطار هنا!
- سنركب آلة أخرى أصغر اسمها "الحافلة" وستعجبك هي الأخرى.
- هل فيها نوافذ؟
- نعم.
- هل تتحرّك البيوت والأشجار عندما تسير؟
- تماما.
- أريد المقعد الموجود قرب النافذة.
- هكذا سأستطيع رميك منها وارتاح من أسئلتك.
- سأقول ل"ما" أنك أردت أن ترميني من النافذة.
- وأنا سأقول لها أنك أخرجتنا من النزل في الثالثة صباحا، والآن اتركني أنم قليلا عليك اللعنة.
- وأنا ماذا أفعل؟
- نم.
- لقد نمت.
- لم تتم بما فيه الكفاية.
- بلى.
- يشعر الطفل بتجدّد الخطر ثم بانحساره السريع والمحطّة الفارغة ترنّ بصدى القهقهة المدوية للدليل.
- ماذا تريدنا أن نفعل إذن؟
- نتجوّل بما أنه ما زال أمامنا وقت.
- في الثالثة صباحا؟ في هذه المدينة الموحشة!
- يشعر الطفل أنّ الدليل يراوغ.
- أريد أن أراها.
- يسقط في يد الرجل.
- تعال، عليك اللعنة.
- تبدأ الزيارة والزبون هو الذي يجزّ الدليل.
- لا أحبّ هذه المدينة.
- ألم أقل لك أننا لن نرى شيئا في هذا الظلام.
- أين البحر؟ أريد أن أرى البحر، أنت وعدتني به أكثر من مرّة.
- إنّه بعيد من هنا.
- البحر أجمل من هذه المدينة الموحشة. لنذهب إلى البحر.
- إذا ذهبنا إلى البحر فاتتنا الحافلة.
- اختيار صعب جديد.
- هل سنرجع من هنا؟

يتنفس الرجل الصعداء.

- أعدك أن آخذك للبحر عند رجوعنا من الصحراء.

- أريد فطيرة.

- كل ما تريد.

- الآن...الآن...الآن!

- نعم الآن. الآن، لكن كفت عن النط والصراخ.

- بالعسل؟

- بالعسل والسمن والبيض المقلي وألف "سخطة" على رأسك من فوق.

أخيرا الرحيل. يتكدس الرجال في الجزء الأمامي للحافلة وبقية الكائنات الثانوية من دجاج وماعز ونساء في النصف الخلفي.

هذا الطفل ابن أبيه لا يجلس إلا مع الرجال خاصة بعد أن أفرد له "با" بشيء من الخشونة أول مقعد فيها حذو النافذة، ذلك الموجود مباشرة وراء السائق. يحار لبه مرة أخرى وهو ينقل بصره من داخل الحافلة إلى خارجها، لا يعرف على ماذا يركّز.

يقرّر أنّ عجائب الطريق وكل ما يتحرك على ضفافه أولى بالاهتمام.

- لست مطالباً بالوقوف طوال السفر.

- لا أحبّ الجلوس.

- افعل ما تشاء.

- لن ترميني من النافذة. أليس كذلك؟

تدوي فهقهة الأب.

- ستتعبني كثيرا على ما يبدو.

نعم، كم أتعبته في تلك السفر، وكم أتعبني هو الآخر في أكثر من محطة جمعتنا وكل مواجهة بيننا اختبار القوة أو اختبار المحبة.

تصل الحافلة قرية تتلخص في شارع مغبرّ تنكس على جانبية بيوت من الطين وخلفها بعض نخلات عجاف. تلتقط أذنيه كلمات "با" عن المكان وحمّاماته الطبيعية العجيبة التي تبرى بمائها الفوار كل الأمراض. ثم تغوص الحافلة مجددا في المبهمة الممتد أمامها إلى ما لا نهاية.

- انتبه يا فتى، لقد دخلنا "البحاير".

- هل هي بحار كثيرة؟ هل سندخل الماء؟

- لا يا بني، إنها بداية الصحراء.

- الصحراء بحار من الرمل بدل الماء واحتنا فيها مثل جزيرة، أليس كذلك؟

- يمكن تقديم الأمور بهذا الشكل.

لا الطفل ولا الأب ولا بقية الركاب يعلمون أن هذه الأرض القاحلة التي يسمونها البحاير تستأهل حقا اسمها... أنها كانت

لأربعين مليون سنة خلت جزءا من بحر بل من محيط تسبح فيه صغار الأسماك وكبار الحيتان... أن هذا المحيط جفّ واندثر

...أن الصحراء التي ورثته لم تكن دوما بحار الرمل التي نعرف...أنه كما للقلب قبض وارتخاء لهذا الأرض نسقها إلى نهاية

الكوكب : كل عشرين ألف سنة غابات ومستنقعات وبحيرات وأنهار وسكانها الفيل والأسد والكركدن والتمساح ، بعد مئات

السنين ولعشرين ألف سنة أخرى أرض القحط والجذب التي لا يعيش فيه إلا الماعز الابل والبشر من نوع قوم "با". قلّ من

ينتبه أننا ندخل الوجود كمن يدخل عرضا سينمائيا وليس على الشاشة إلا صورة للعالم لا تتغيّر إلا بعض حواشيتها، نظنها

صورته من وإلى الأزل، إلى أن ينقش الضباب عن الفكر فنهم أننا نعيش لحظة من زمن بدّل وسيبدّل العالم طوله كل

صوره من النقيض إلى النقيض... أننا لا نرى إلا مقطعا من فيلم أطول وأغرب مما يقدر على تصوّره أوسع خيال.

يجذب الطفل كمّ أبيه وهو في قمة الهيجان.

- لماذا هو هكذا هذا الحصان؟

يصرخ فيه "با": هذا جمل يا جحش وليس حصانا.

يضجّ الجمع بالضحك. يرتفع صوت مجهول:

- هل يعقل ألا يعرف بدوي نصفه الآخر؟

يصمت الطفل بعض الوقت، وهو معرض عن الصخب، فاغر الفم، يتأمل الحصان الغريب. نعم، هو يعرف أن اسمه "الجمل" ولا داعي ليسخر منه هؤلاء الشريرين... وخاصة "با". يلصق وجهه بالنافذة. ممنوع على أحد رؤية الدموع. لكن من أين له التركيز طويلا على جرح بسيط وحوله العالم بكلللالل غرائبه.

- "با" انظر. انظر!

- إلى ماذا؟

- لسائقك تتدليان في الفراغ. أنا أرى الطريق الأسود تحتنا وهو أيضا يتحرك.

يضجّ الجمع مجددا بالضحك.

- إنها حافلة البدو يا صاحبي، وتريد أن يكون لها قاع من حديد نضع فوقه أرجلنا؟ احمد الله أنّها تصل بنا.

يعود الطفل للصراخ:

- انظر، انظر!

- اللعنة على هذا المغفل. ما الذي تريدني أن أنظر إليه؟

- أنظر إلى اختفاء المناظر. لماذا لم يعد هناك أي شيء أنظر إليه؟

يلتفت "با" إلى من يمازحهم منذ بداية السفر.

- الحرّ وضجيج المحرّك وهذا الفرخ سيقضون على ما تبقى لي من عقل.

يدخل الرجال في حديث هامس عن الحافلة، وكيف توقفت أكثر من مرّة عن الركض في قلب هذا الفراغ المرعب، وعمّن

ماتوا من العطش لأنهم رفضوا الانتظار. يفاجئ الطفل خوف مبهم أن تتوقّف بهم في هذه الفيافي القاحلة فيموت عطشا وتموت

“ما” كمدا على الطرف الآخر من الطريق.

- ونحن؟ هل سنموت أيضا من العطش؟

- اسكت، يا مغفل.

يعضّ الأب على شفته السفلى. يعمّ الجمع صمت متجمّم. يأتي الطفل لأول مرّة الوعي بأن الرحيل عرضة لأخطار غير

واضحة المعالم. تخرج الحافلة أخيرا من الفيافي بسلام. تعود الخضرة إلى المناظر والطمأنينة إلى النفوس. يضع مجهول يده

على رأس الطفل وهو ينزل: إنها بركة هذا البريء.

- "با"، أين جدّي؟ قلت أنه سينتظرنا عند باب الحافلة.

- أعدك أن هذه القرية آخر محطة قبل الوصول.

يضع مجهول لم ينتبه له الطفل يده على ذراع أبيه.

- أنت، تعال معي.

يتوجّه الأب لابن خالي الذهن:

- انتظرني هنا حتّى أكمل الإجراءات.

- أي إجراءات؟

- لا بدّ من رخصة. أرضنا منطقة عسكريّة صعبة الدخول بالنسبة لأمثالي.

يذهل الطفل. يفتح فمه للاحتجاج.

- اسكت يا مغفل، وإلا أرجعوننا من حيث أتينا. لا تتحرك حتّى أخرج من مكتب الضابط الأجنبي.

يجلس الطفل وعيناه على الباب الذي دخل منه رجل مشبوه عند حرّاس الطريق. يخرج "با" أخيرا، يده على خدّه، عيناه

جاحظتان بكل ما في البشر من حقد ومن غضب، ووراءه الضابط الأجنبي بوجهه الأحمر وطربوش أبيض يشبه "كسرولة"

وضعت مقلوبة على الرأس وهو يصرخ في وجهه بكلام غير مفهوم. ما الذي حدث يومها؟ ملفّ خطير رفض "با"، حتّى

بعد عقود، فتحه لفضولي. بداهة شيء ما نجم عنه جرح لم يتوقف يوما عن النزيف.

- سيرجعوننا دون أن نرى جدّي؟

- لا، لن يرجعوني هذه المرّة... لأجلك. لكن عليّ أن آتي إلى هنا غدا.

- لماذا؟

- هيّا، قبل أن تفوتنا حافلة القرية.

- هل يأخذ الآخرون رخصة دخول من هذا الأجنبي؟

ينفجر "با" ضاحكا، ويا لبشاعة ضحكة لا تعبّر عن مرح أو فرح.

- هؤلاء! من بلّغ عنيّ واحد منهم، والباقون ولّوا الأدبار عندما علموا من أكون. تذكرّ دو-ما-يا بني-أن البشر من صنفين...

- الرجال والنساء، الرجال والنساء، الرجال والنساء... !!!

- أتحدّث عن الرجال فالنساء لا يحسب لهن حساب.

- الكبار والصغار، الكبار والصغار!

- لا يا فتى، الرجال-الرجال وأشباه الرجال.

يدخل "يا" في خطبة طويلة عن الفوارق.

- إياك وإياك أن تشبه يوما رجالا لا تتعدى الرجولة عندهم التبول وقوفا.

تندافع على لسانه أبيات للشاعر الذي ارتضاه قدوة ونموذجا ضجّ بالشكوى مثله من قوم لا تجد فيهم "كريما تزول به عن القلب هموم" أو "صحبة لا يعوزها الصدق في الأخبار والقسم" ، أو "مكان يسرّ بأهله الجار المقيم"، أو تغرا مبتسما عن محبة لا عن خوف أو طمع.

ها هو يغلي بالتهكّم المرير وبالسخط على قوم "استدججوا" و"استبقروا" و"استنعجوا" وجعلوا من الخروف واستكانته للمقصّ والسكّين نموذجهم الأعلى.

- خاصية أشباه الرجال الجبن. احذر يا فتى منه إنه "خديعة الطبع اللئيم" إنه ما يكرهه ويتفاداه "الحزّ الممتحن بأولاد الزنا". لا تكن يوما جباناً وإلا تبرأت منك وقلت عنك لقيط ألحق ظلماً بنسبي. إياك أن تشبه يوماً هؤلاء القوم. إن بهم دناءة فطرية ونذالة مكتسبة طوّروها على امتداد القرون. يقبلون اليد التي تخفضهم وبعضون التي ترفعهم.

يواصل زمجرته وهو يجذبني يكاد يخلع كنتفي:

- كلهم صغار النفوس، كلهم صغار العقول، كلهم صغار الخصومات والجهد والطموح! أه وآه

كان "يا" شديد الاحتقار لقومه وهو يراهم يخفضون هامة الذلّ أمام مستعمر أو طاغية حقير. كل هذا الصخب كان أيضا حبا معكوسا وهو لا يبغي شيئا قدر التباهي بأهله على عادة البدو، إلا أنه لم يجد فيهم ما يفاخر به وقد أتاهاهم في عصر تخلوا فيه عن مشروع أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس.

يتعالى صراخه والناس تشيح عنه البصر وتفرّ من حوله.

- اللهم لا تقبرني في أرض جبناء! اللهم لا تجعل من موتي مهزلة بعد أن جعلت من حياتي مأساة! هل تتصور-يا فتى-جنازتي، وقطعان الخرفان والماعز تحرسها كلاب الضبع توارى في الرمل جثة الأسد! هذا الرجل هو نفسه الذي كان يرّد لابنه:

- يا بني، تمثّل دوما بقول الشاعر "بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرام". أكرمهم مهما ضنّوا عليك. لا تكن محبّا مخلصا ووفيا إلا لأرض الآباء والأجداد مهما جافتك وظلمتك... والآن تدبّر أمرك يا فتى لتفهم وأي أمر تطيع.

تتواصل نوبة الغضب، وهل الغضب إلا جنونا صغيرا من حسن الحظّ أن الناس تشفى منه دون حاجة لطبيب.

- اللعنة، اللعنة على هؤلاء البشر، اللعنة اللعنة على هذه الأرض وما حملت!

- "يا"، لكن كل الناس يقولون عنك إنك وطني تحب الوطن جدّا جدّا!

- الوطن! الوطن! الوطن! لا أبغض شيئا قدر بغضي له. هو مثلهم: صغير... مدنه... قراه... جباله، صحراؤه نفسها صغيرة وأصغر ما في هذا البلد اللعين البشر. ليس من باب العجب أن يكون زعيمهم قزم. اسمعني جيدا عليك وعليهم اللعنة. إن لم توفّر لك أرض الآباء والأجداد الحرية والكرامة، قل: ليغرقها الطوفان، ليضربها الزلزال، لتغمرها الرمال، أحرقتها إن استطعت، وإلا أهرها، ذلك أضعف الإيمان... ما قيمة الوطن إذا كان الأرض التي نهرب منها لا الأرض التي نهرب إليها؟ قد لا توجد ثنائية تحكمت في قصة الرجل وهيكلت فكره ومشاعره قدر ثنائية الوطن والمنفى. هي ستطبع تفكير ابنه طفلا ومرافقا وكهلا، إلى لحظة اكتشافه كم كان والده غارقا في قصة تافهة لا يعي أنه في أرضه وهو بين أغرب الأمم وأنه غريب عابر في أرض الآباء والأجداد. كم يبدو لي اليوم ضيق الأفق وهو متمسك طيلة حياته بحبّ مرضي لقطعة أرض تطوقها حدود خيالية صنعتها ظروف لا منطق لها ولا هدف. عاش الرجل المسكين ومات لا يفهم أن الوطن هو الأرض التي نعطيها نحن ما تحتاجه هي، لا الأرض التي تعطينا ما نطلبه منها. كيف لم يكتشف-هو الباهر الذكاء-أننا، معشر البشر، أينما وجدنا دوما في وطننا وفي منفانا، لأن من طبيعة العالم أن يكون دوما لنا وطننا ومنفى.

ماذا لو كان صراع "يا" مع ومن أجل الوطن بمفهومه الضيق، الوتر الحساس الذي كان يتعهده وينقر عليه باستمرار ليستل من أعماق ذاته أحد الأحاسيس والمشاعر، تلك التي يبحث عنها الآخرون جريا وراء الجنس أو المال؟ يجزّ الأب الغاضب طفلا مندهشا لا يغفر لأهله ضعفهم وبغضه المفاجئ لوطن لم يرقى لمصاف أحلامه. يتوقف في طريقه إلى مريض حافلات الواحة ليختار لأهله بعض الهدايا ولابنه ثياب البدو الذين عاد واحدا منهم.

- أسرع بلبس هذا السروال الجديد حتى تبدو حسن الهندام أمام جدّك.
- أحسن ما في الأدميين نزعة التمرد إذ لولاها لما وجد تجديداً.
- لا أريده. لا أحب لونه الأسود وشكله الفضفاض.
- وفيهم أيضاً لسوء الحظ إرادة لكسر كل تمرد، ربما حتى لا يصبح العالم فوضى ليس فيه طريق سالك.
- قلت لك: البس. بكم السروال، يا رجل؟
- لا أريده، لا أحب لونه وشكله. لن ألبسه. لن ألبسه!
- يعلن البائع للحضور أنه لم ير أبداً طفلاً وقحا يعصي أوامر والده بهذا الشكل.
- يصرخ فيه "با" بـ"بغلق فمه وإلا فإنه هو الذي سيلبسه السروال بالقوة.
- والآن البس بسرعة، وإلا فانتنا الحافلة.
- لن ألبسه، لن ألبسه، لن ألبسه!
- مشهد لا أكثر منه ابتداءً في علاقة الأدميين ببعضهم البعض، يستأهل بعض التعليق.
- القانون سعي كل ذات الذات للتحكم في الذات الأخرى... لتحريكها في الاتجاه الذي تريد... لتفويضها... لاستعمالها، وكأنها تعتبرها تلقائياً مجرد امتداد لها. إنه تصرّف الأم مع رضيعها، الرضيع مع أمه، المعشوق مع العاشق، العاشق مع المعشوق، الصديق مع الصديق، الأخ مع الأخ، السيد مع العبد، العبد مع السيد، الحاكم مع المحكوم، المحكوم مع الحاكم. نكتشف حتى داخل العلاقة الدينية سطوة القانون والخالق يريد تطويع المخلوق بالوعد والوعيد، والمخلوق يريد تطويع الخالق بالصلاة أو بالتهديد بالكفر والالتجاء لربّ آخر. الفوارق التي تحجب عنا الظاهرة متعلقة فقط باستراتيجيات التطويع وهي تتأرجح بين الترغيب والترهيب، الغلظة والرقّة، الصدّ والوصال.
- هذا الرجل الذي يريد تطويع ابنه يريد تطويعه، جاهل بما فيه على صغر سنه من عزم على أن يكون هو الراح دوماً في هذه اللعبة. أضف لهذا عدم توقّره على مهارات أم الطفل، والمسكين لا يملك، كأغلب الذكور، إلا وسائل بدائية وخطرة، لا فقط على ضحيتها وإنما على مستعملها الساذج.
- يفقد الرجل مجدداً السيطرة على أعصابه المتوترة فينهال على ابنه ضرباً. ثم يتوقّف وهو يفهم أن كسر شوكة هذا الطفل العنيد قد يؤدّي به إلى انزلاقات لا يرغب فيها الآن على الأقل. يرمي بالسروال في وجه البائع ويجرّ الطفل، يكاد يخلع ذراعه. ثم تتباطأ سرعته وقد جاءه التردد. يسترق النظر إلى طفل يشهق صامتاً لأنه أقسم باكراً ألا يبكي أبداً كالنسوة والصغار.
- لا أريد أن تقول لجدّك أنني ضربتك، وإلا فأني سأضربك مرّة ثانية.
- بل سأقول له أنك ضربتني بشدّة، سأقول له ليضربك كما ضربتني. سأقول لـ "ما". نعم سأقول لها، سأقول كل شيء!
- فضحتني أمام الناس وتريد فضحي أمام جدّك.
- وسأقول أيضاً لله.
- لا تقمحه هو الآخر، يكفيني مشاكلتي مع ما ارتكب من إنس وأبالسة. يا إلهي أي طفل ابتليت به؟ والآن كن ولداً طيباً. أتريد قميصاً أم لعبة؟ بعض المرطبات؟
- يتمسك الطفل برفضه المتعالي لكل عروض السلام التي يتقدّم بها رجل متزايد الارتباك. ثم تندفع ببالغ السرعة في ذهنه حسابات معقّدة عن خطر الإفراط في الدلال فيتخذ أحكم قرار.
- بعد المرطبات وزيارة جدي، نساfer معاً إلى المدينة الكبرى والجامع الأعظم والبحر وكلللال الأماكن التي سافرت إليها؟
- موافق.
- كلمة رجال؟
- شريطة ألا تقول لجدّك أنني ضربتك.
- كلمة رجال. قد تفوتنا الحافلة إذا ذهبنا للمرطبات!
- يعرض الأب على ابنه إمكانية قضاء الليلة عند قريب، ليواجه برفض قاطع.
- لا، لا جدّي ينتظر منذ الصباح. هيا. أسرع، أسرع!
- يصرخ "با" وقد تبخّر منه مجدداً كل حسن استعداد:
- لوجه الله اصمت، ولوجه الشيطان توقّف عن الركض. أرهقتني، أصببتني بالدوار. كفت عن الجري، كفت!!
- وهل بوسع الشيء الخروج عن طبيعته وعن سبب وجوده؟

تزحف حافلة البدو في وجه الريح المولولة وهي كسفينة تتقاذفها أنواء تريدها إغراقها في أعماق المحيط الأصفر. تتوقف وعجلاتها تدور عاجزة عن رفع تحديات الطريق أطبق عليها فح الرمل. يصرخ الطفل أملا أن يطغى صوته على صراخ الريح:

- "با"، أين الطريق؟ لا أراه.

تعود للرجل المتجهّم بشأنته:

- إته أمامك، يا مغفل.

- أين؟

- في مملكة الريح والرمل، هو ما نشقّ بأقدامنا ونحفر بأظافرنا.

- "با"، أنا أيضا أدفع معك ومع الرجال.

- تراجع إلى الوراء، سيأتي دورك لتدفع هذا العالم اللعين. ويومها تذكّرني.

تعود الحافلة للتقدم البطيء المترنح. ينتبه الطفل أن "با" لا يتهامس مع جليس وليس مشغولا بجريدة يتصفحها بعصبية، أن أنفه هو أيضا على زجاج النافذة المغبرة... وأنه صامت يتأمل.

كان الرجل الذي خرج من الصحراء، وخرج عليها، ناقما، ساخطا، لا يحلم وهو منفي عن أخطارها-إلا بالعودة إليها للاختباء نهارا في الحفر والمشي ليلا بحثا عن قرية فيها امرأة وماء وتمر. كم سمعته يتحدث عن كثبانها كعاشق أضناه الشوق لوصال حبيب متمنع! كم سمعته يردد وهو على وشك الدخول في آخر منعطفات الطريق: أقصى أماني أن امدد على رملها جسدي المرهق، أن أغرس مرفقي للمرة الأخيرة في "العرق"... أن أجبل بصري في عمق سماء ليلا.

يفيق الأب من ذهوله صارخا: وصلنا لمشارف الواحة. بعد قليل ستري جدك. انتهى عذاب الطريق.

تموت الصرخة في حلق الطفل، لا يدري لمن يتوجّه بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشيب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب. حقًا لا مسافر غير الطفل ولا سفرة إلا إبان الطفولة.

لا أجمل من العالم وهو يستعرض مفاتنه أمام طفل، ولا أجمل من طفل وهو بجمال العالم مأخوذ. وفي مثل هذه اللحظة المباركة تنعكس في مرآة العالم أجمل حالات الأدمي، وتنعكس في الأدمي أجمل حالات العالم. إنها تجربة تحققت فيها مرامي هذا من ذلك وتحققت فيها أهداف ذلك من هذا، وفيها تختزل قدرة الأول على مطلق العطاء وفيها تتجلى قدرة الثاني على عميق العرفان.

ينقل الطفل بصره تباعا من خضرة الشجر الأهيف الأنيق المتكبر إلى حمرة قرص ذهبي على وشك الرحيل ناسيا كل ما من حوله. يدفعه والده برفق فظّ باتجاه الباب، يزاحمان متزاحمين نفذ صبرهم من طول الحشر في علبة الصفيح الساخنة.

يتلقّف الطفل صدر عجوز مبتسم الثغر، داعم العينين. وبين الذراعين المطبقين بقوة يستنطن الطفل في لحظة خاطفة ما تعلم من سفرة ستطبعه إلى الأبد... أن الواحة محطة في عالم بالغ الاتساع، أن الطريق إليها طويل، خطير، تترصد فيه العيون، أن عليه حواجز وحدودا وعسا يمنعون ويمنحون الإذن بالمرور، أنه لا بدّ من فتح الطريق أحيانا بأجسامنا، وأن السفر هو الهام، لا نقطة الوصول ولو انتظرك فيها حبيب يمسح عن عينيه دموع الفرح.

وفي حافلة تتحرك به في الاتجاه المعاكس، يبلع الطفل دموعه وأنفه على النافذة ينظر لجده واقفا يخفي دموعه هو الآخر. تصله بصعوبة الكلمات الأخيرة التي يحاول إيصالها إليه ودويّ المحرك يغطي عليها. نعم، سيعود يوما وسيأخذه كما وعد إلى "طينية" ليذرا معا أرضا معطاء تجود بالقمح إذا جادت السماء بالمطر.

إنها إحدى معجزات الصحراء والبراعم المخفية صابرة، عنيدة، قوية تنتظر تحت الرمل والصخر أشهرها وأحيانا سنينا رحمة الغيث فيمرح الأطفال بين الزهور والعشب، لأن هناك عشبا وزهورا في الصحراء، وليس فقط حجر ورمل. ربما لم تلعب صورة للعالم دورا في تشكيل ذهن الكهل قدر صورة هذه البذور التي كان يزرعها الجدّ وهي تقاوم كل قوى الموت متمسكة بأخر نزر من الحياة إلى لحظة الخلاص. هذا ما جعله يستنطن باكرا قدوة بالجدّ المهيب وأنّ لا دور له في الحياة غير بذر الأفكار والقيم ولو في صحراء قاحلة ليس فيها سوى الأفكار القاتلة وقطاع الطريق والباقي متروك لمشيئة قوى تتجاوز.

تأخذ "ما" طفلا يحبس بصعوبة دموع الأسى والقهر. تضمه بين ذراعيها وهو معرض عنها لا يريد الحديث. ثم ينفجر في وجهها وكأنها هي التي خانته.

- تركني أول يوم واختفى وأرجعني جدّي مع مجهول.

- يا بني إنها ضرورات... عمله.

- أي عمل؟ أنا لا أحبّه، لا أحبّه.

- أما أنا فأحبك كثيرا وأكثرنا حبًا لك "با". يا بني، لو لم تكن معه لأوقفوه عند النزول من الحافلة. طلبوا منه أن يوصلك إلى جدك وأن يعود لتسليم نفسه. كنتمنا طول الوقت تحت المراقبة. أفلت والدك منهم واخترق الحدود تحت جناح الظلام وهم وراءه. من حسن الحظ أنهم يجهلون دروب الصحراء.

كانت "ما" تصدق ما يقوله هذا الرجل عن مهامه الخطرة المتعددة، وكم هو مجبر على تأدية واجبه ولولاه لفضّل الحياة بجانبها وبجانب أطفاله الذين يعلم الله وحده كم يحبهم... إلى آخر أكاذيب الرجال على النساء.

حقًا يومها فرّ "با" من أعدائه وبعد أشهر سيفرّ من رفاق اختلقوا معه فجاءوا لذبحه ليلاً. حقًا كان له أعداء يتربصون به في كل تقاطع طريق. لكن ما أنا مقتنع به أن وجودهم كان بقرار وخيار ولو كان لا واعيا، وهم أحسن عذر للفرار من مسؤوليات مبتذلة أو حتى من أخطر مسئولية: مواجهة الذات لذاتها.

يعود الطفل للصرخ في أمه، يشير إلى البعيد المبهم، لا رغبة له إلا العودة إلى الطريق، وكل هاجسه معرفة إلى أين يؤدّي: - إلى قرية جدتك.

- وبعد قرية جدتي؟

- إلى مدينة الجامع الأعظم حيث ستذهب مثل والدك يوما لتتعلم كلام الله.

- وبعدها؟

- أعتقد أنه يصل البحر.

- وإلى أين يذهب بعد البحر؟

تضحك "ما"، تداري حرجها:

- تكبر، وإن شاء الله تسافر وتقول لي أنت ماذا يوجد وراء البحر.

- سأذهب حتى إلى ما وراء الأفق لأجد "با" وأعود به.

يا للطفل المتهوّر! أقول له كم في الطريق من عقبات، من ألغام ومن وحل... أن أخطر ما ينتظره على تقاطعاته بنو جلدته!

أقول أو لا أقول، ما الفرق؟ رمي النرد.

تبتسم "ما" برفق فيه نكهة من السخرية ولسان الحال يقول: لا تستعجل الأمر، سيأتي الوقت لتضرب في الأرض ذات العرض والطول، هائما على وجهك مثل كل بني آدم، تبحث عما لا يوجد وتجد ما لم تبحث عنه قط.

يركب بطلنا الصغير عصا القصب مستعدًا للإقلاع ليعرف كلللالل ما يوجد وراء الأفق.

قبله ركب الأب سعف نخلة والبصر شاخص إلى البعيد لاستكشاف كلللالل ما يحفل به العالم من خوارق ومعجزات.

تواصل الطفلة المنقطعة الأنفاس القفز بالحبل بين أشجار الزيتون، تضحك من غياب الطفل الذي سيصبح بعلمها والطفل الذي سيصبح طفلها.

لا يبقى لنا إلا رفع العينين لمن تتوجّه إليه كل الصلوات: اللهم اتم هذه الرحلة على خير، إنك السميع المجيب... أحيانا.

**

الكتاب الثاني العالم

ما أن يعود الربيع
إلا وأنا متيم من جديد بعالم السراب هذا
في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار؟

“هايكو” لشاعر مجهول

مقدمة الكتاب الثاني

في 9-9-99، بالتقويم السائد.

يثير فيّ رقم هذا اليوم رهبة خاصة تفرض التوقف عنده. نعم، منذ الصباح وأنا أتوجس خيفة من يوم فيه أربع مرات رقم تسعة. تقول لكنه يوم روتيني وردّي يا ساذج هل ثمة أحسن من الألفة للتغطية على ما ينتظرنا أو ما ربما حدث من أخطر حدث؟

تضيف لتهذئة روعك وروعي: ما الداعي إلى القلق، فنهاية العالم مبرمجة، حسب البعض، لبداية القرن والألفية، أي بعد شهور معدودات؟

المشكلة أن الأدمي أكثر من رمى التواريخ جزافا وأن من شأن تكرار هذه الإنذارات الكاذبة عدم الانتباه لوقوع أقصى ما يخشاه البعض... وأقصى ما يتمناه البعض الآخر. يبقى أنه لا بدّ للعالم من نهاية، فلم لا يكون هذا اليوم هو الذي يلفظ فيه أنفاسه الأخيرة والمسكين مصاب بأكثر من مرض خطير؟ ربما قرّرت السلطات العليا التسرّع على الأمر. تصوّر حالة الفوضى هذا النهار لو أعلمتنا نشرة أخبار المنتصف أننا نعيش آخر أيامنا، وأنه يجب إخلاء المحل حيث لا تمديد في عقد الكراء بأي ذريعة كانت.

ربّما حصل المحذور وقامت القيامة البارحة مثلا، ممّا قد يعني أن النص حلم يحلمه ميّت! في حالة استهزائكم بالفرضية، لماذا يكون عدم انتباهي لنهاية العالم وخروجي منه أغرب من عدم انتباهي لبدايته ودخولي فيه؟ لا قدرة لأحد على التأكيد أن هذا اليوم ليس آخر الأيام. لذلك قرّرت وضعه تحت المراقبة منذ انطلاقه حتى لا أفاجأ أو أخدع... نعم أن أخدع، لا لشيء إلا لأنه لا يختلف عن بقية الأيام التي تدافع فيها القادمون الجدد بنفس التهور، وغادر القادمون القدامى بنفس الصعوبة، وتخبّط المرتحلون في المشاكل المبتذلة التي جرّبوها جيلا بعد جيل. أنظر إلى ساعتني بشكّ حذر بين الفينة والأخرى فيتأكد لدي كل مرة أن عقاربها تتقدّم إلى الأمام لا إلى الخلف، أن السماء في مكانها أي فوق رأسي، أما الأرض فهي-لحدّ الآن-تحت قدمي، ناهيك عن كون اليوم المريب بدأ بصبح مضيء وهو الآن بصدد الانتهاء بنفس الليل الحالك السواد.

على كل حال، ما يزال أمامي بضع ساعات لمحاولة الانتهاء من النص، علما أنني أرفض التفكير في جدوى العملية إذا فرغ العالم من الفراء والنقاد، فلو فكّرت في جدوى أفعالي لما قمت بأي عمل باستثناء سماع الموسيقى. ابشروا جميعا بتواصل العالم. كأنّ الرغبة المطمورة في الأعماق لم تتحقق لسوء الحظ (أو لحسنه)، وكأنّ خشية المطمورة في الأعماق لم تكن في محلها لحسن الحظ (أو لسوئه)، فاليوم-بالتأكيد-ليس النهاية حيث ولّى الأدبار منذ أكثر من دقيقتين حسب ساعتني، والعالم ما زال موجودا.

حتّى لا أتهم بترويج الأوهام والأمال الزائفة كما يفعل صانعو الرؤى غير المتقنة، سأقطع الكتابة لحظة للخروج إلى الحديقة والتثبت من الأمر. يسعني الآن-دون أن يسعدني ذلك كثير-تأكيد ما كتبت سابقا، فقد مشيت على نفس الأرض الصلبة المعنادة ولسعنتني نفس الهوام المجهولة، وتصاعدت من أزهار الياسمين نفس الروائح المسكرة، ووترت أعصابي أعراس الجيران، ولفحتني نفس الريح القادمة من البحر، المشبعة حرارة ورطوبة. كذلك لمست كل الأشجار، فلم تتبخّر، بل ومضغت ورقة من أوراقها فبصقتها. لم ألاحظ أيضا ما يثير الشبهة بخصوص السماء، وجهلي بترتيب النجوم على رداء الليل لا يبدو مختلفا عن جهلي به البارحة. أضف إلى هذا أنني سمعت بمنتهى الوضوح أصوات الأدميين ونباح الكلاب، وأنني تأملت ذاتي فوجدتها على ما أعرف من انتباه قلق.

كلّ هذا يؤكّد انطباعي أنّ العالم ما زال قائما. المؤكّد أيضا أن إصبع الدهر على مسبحة الزمان تسرع في "التسييح" ولسان حال المسبّح المخفي يقول: هو لم ينته أما أنت فستنتهي بأسرع مما ترغب. عجل يا غبي؛ قد لا تتوقّف على وقت كثير لإنهاء المشروع.

المشروع! الذي قرّرت عند انطلاق التدوين: أن أستجمع شتات فكري، أن أتخصّص حصاد الرحلة علني أردّ أخيرا على أسئلة الكهل: ما العالم الذي عبرت وأسئلة الطفل: مما هو مصنوع وهل قدّ القمر حقًا من فضة خلخال "ما" وهل صنعت الشمس من ذهب قرطبيها؟

اليوم 19710 من الرحلة.

أو كيف أن العالم مصنوع أساسا من معطيات البصر والسمع واللمس والشمّ والذوق

- تهمس “ما” في أذن طفل يفرك عينيه نصف مستيقظ.
- أبوك رجع هذه الليلة. انهض قال إنه سيأخذك كما وعدك لزيارة المدينة الكبرى. أسرع وإلا غيّر رأيه. يا إلهي، ثلاث سنوات مرّت دون أن نراه!
- يصرخ “با” في طفل فاغر الفم دهشة انتصب واقفا على السرير.
- يا الله يا فتى، تحرّك ما لك تنظر هكذا، أسرع، ليس لنا وقت نصيحه.
- تتدافع الأسئلة في ذهن الطفل عن المتاهات المبهمة التي خرج منها “با” خروج الجئي من القمم.
- “با” أين ... أين كنت؟
- أفتح لك الطريق. قلت لك يا الله... القطار لا ينتظر.
- يرقص الطفل على سريره فرحا. ثم يعاوده القلق.
- هل ستسافر مجددا؟ هل ستتركني؟ لن تغيب مرّة أخرى، أليس كذلك؟
- كأنك تريد إغصابي! هيا، لا تضيع وقتي، لن يكفينا كامل اليوم لزيارة المدينة الكبرى. لا بد من الحمّام وزيارة الحلاق وصلاة الجمعة في الجامع المعمور. ثم لا بدّ أن أبحث عن كتاب هامّ قبل آخر قطار تعال، حتّى الخطي.
- يتبع الطفل رجلا وُلد على عجل، وعاش على عجل، ومات لا يلوي على شيء، وكأن له مواعيد هامة حتى في الآخرة.
- تتلقّفنا نفس المحطة ونفس القطار، هذه المرة متوجها نحو الشمال.
- وصلنا! بهذه السرعة! لا يمكن أن تكون المدينة أبعد نقطة وأنا أريد...
- لا تؤثر أعصابي من الآن.
- أسرع، أسرع، أريد أن أرى كلالل شيء.
- تمهّل، وإلا فقدتُك، حتى وإن كان الأمر لا يخلو من بعض الفوائد.
- يجد الطفل نفسه وسط جحافل آدميين يتدافعون في الشوارع الضيقة وكأنهم أمواج نهر على وشك الفيضان، إلى أين والحيطان سدود تردّ من يرتطم بها إلى المجرى فتزيد في عنف تلاطم الموج.
- تنتابح المناظر وتتغير بسرعة مذهلة، وهو ينقل بصره بين الوجوه والأزياء، لا يضيّع شاردة ولا واردة من الصخب والروائح والألوان.
- “با”، من هذا، وماذا يفعل؟
- شيخ ينسج الجبب. سأشتري لك جبّة جديدة ليوم العيد، إذا كفتت عن الصراخ.
- انظر “با”، إنّه الشيخ الذي صنع شاشية خالي صالح!
- إنه سوق الشواشين، لكنه ليس هذا الرجل بالذات من صنع شاشية خالك، الصنّاع بالعشرات.
- “با”، أنا أيضا أريد أن أنقش على مثل هذه الصحون الجميلة بمثل هذا المسمار، وأن أجلس في مثل هذا الحانوت مثل ذلك الطفل.
- يا جش. أريد لك مستقبلا أفضل.
- “با”، لماذا كلّ الشواشي حمراء وكلّ النساء ب “سفساري” أبيض؟
- عندما تكبر، افرض على الرجال صبغ الشواشي بالأبيض وعلى النساء ارتداء “سفساري” أحمر اللون.
- “با”، ما هذا الشيء الأبيض؟
- يسمونه “الكنسترو”. يوم نخدغ عائلة بريئة ونخطب لك ابنتها المسكينة، سنشتري مثله لنضع فيه هدايا الخطبة.
- “با” ما هذا الشيء؟ وهذا الشيء؟ وهذا الآخر؟
- يُداهم الطفل قلقٌ مبهم.
- بخصوص الحمّام والحلاق... هل يمكن أن نذهب مرّة أخرى؟
- لا تماطل. هل رأيت هذه الغابة من الشّعر فوق رأسك؟ أخشى -إن أهملنا قصّها- أن تملأها حيوانات صغيرة يبدأ اسمها بحرف القاف.
- يصل أبٌ يجر ابنا، وابنٌ يجر أبا، لحمّام اسمه “القشاشين” يقول عنه “با” إنّه أفضل وأرخص حمّامات المدينة العتيقة.
- “با”، لماذا صبغوا عمودَي المدخل بالأحمر والأخضر؟
- ألا يعجب الأحمر والأخضر سيادتك؟

- كنتُ أفضل الأحمر والأبيض. إنهما لونا العلم المفدى!

- الأمور كما هي، ومن بينها أنك ستدخل هذا الحمام أيا كانت ألوان أعمدته.

تضيق الأشكال والألوان في ضباب تنهادى داخله أجسام مترهّلة تحمل حول الخصر فوطة باهتة اللون من كثرة الاستعمال والغسل. يأتي وقت الجزء المزعج من البرنامج الذي لا نجاة منه. الطفل الآن بين يدي "الطيباب" كالفأر بين مخالب القط. يسلم جسمه مكرها ليدي المهنيّ الخشنة، تدلكانه، تفركانه، تقططان مفاصله، والطفل بين احتجاج وإذعان ساخط، وأبوه بين ضحك وتقريع.

إنها لحصّة تعذيب مستوفاة الشروط، من تسليم الجسم لقوة لا تقاوم، وتمرد الجسم على ما يلحق به من أذى، وصراخ المعذب في أذن المعذب بالطاعة، والفرق الوحيد أن الجأد لا يستحي أن يطالبك بالبقيش وبعبارات الامتنان والشكر. ما أغرب حبّ الكبار لهذه الأماكن التي يبغضها كل الصغار، خاصة عندما يهددهم الحلاق عند مدخلها!

لا يبقى للطفل غير كتم أنينه ومحاولة التركيز على ما حوله لينسى ما يتعرض له من اعتداء سافر على حرمة الجسدية. ألم يطالب أمه بأب يأخذه لحمام الرجال ملّ حمام النساء يذكره دوما أنه ما زال طفلا صغيرا. ومع هذا... ليس في هذا الحمام اللعين ما هو جدير بمزيد من الصبر والتحمل، وقد أعمى البصر الماء والصابون ورغوة "الشامبو".

- عيناى تحرقاننى، أريد الخروج، أريد الخروج، سأخرج الآن.

- شيء من الصبر يا مصيبة والدك، يا غضب الله عليه. دعني على الأقل أنشفك. المرة المقبلة ستذهب إلى الحمام مع أمك ككلّ الصغار.

- أريد الخروج ! أريد الخروج!

- أخرج الله روحك. استلق على هذا الحصر فلا بدّ من الراحة. لا شك أنك ظمآن، هذه برتقالة لك من "ما".

يأخذ الطفل الثمرة، يقربها من عينيه يطيل النظر وكأنه يرى برتقالة لأول مرة في حياته. يبهره لونها هو الذي اكتشف من جديد إلى أي مدى هي رائعة هذه الألوان التي ضاعت أكثر من ساعة طويلة في بخار الحمام.

- ماذا تفعل؟ ألم تعجبك البرتقالة؟

- بلى، إنها جميلة جدًا، خاصّة اللون. ألا ترى كم هو جميل؟ أحب رائحتها أيضا، "با"، هل هناك برتقال أزرق أو أبيض أو أسود؟ هل رأيت برتقالا يمثل هذه الألوان في البلدان التي ذهبت إليها؟ هل لها روائح أخرى؟

- يا لك من طفل غريب. والآن كلّ برتقالك واطركني أغفو لبعض الوقت.

- "با" لا أريدها...إنها شديدة الحموضة.

- كل القشور...ربما سيادتك يتحملها أكثر.

يعرض الأب عن طفل لا يجد ما يلهو به غير الانكفاء على ذاته بانتظار تجدد الصلة.

يغلق عينيه هو الآخر، يفتحهما للظلام متذكرا لعبته المفضلة زما طويلا، وكما كانت أمه تكرها لسبب غير مفهوم.

ومن الملفات المطمورة بعناية في ذاكرة الكهل تعالى أمر غاضب: يا بني، كفت عن هذه اللعبة، ابحث لك عن غيرها، إنك تخيفني.

يخضع الطفل للأمر. لا يريد أن يمرض "ما" معاهدا نفسه على العودة إلى العالم الغريب وهو بعيد عن عينها. أليست اللعبة الغبية -كما تصفها- "ما" ظلما-بداية تجاربه لفهم ما يحيط به من خوارق ومعجزات!؟

هو يتذكر كيف انطلقت اللعبة والاكتشافات الهائلة التي تبعتها.

- "ما"، لماذا ينظر هذا الرجل دوما في الفراغ؟

- إنه من المبصرين يا بني، تلطف معه دوما وخذ بيده لتعينه على شقّ الطريق.

- مبصر؟

- يجب أن تسميه "مبصرا" حتى لا تجرح المسكين وهو لا يرى شيئا.

- هو لا يرى المعزاة والنخل، ولا يرى عنتر حتى عندما يكون مفتوح العينين؟

- نعم، هو لا يرى... إلا الظلام.

يكتشف الطفل، وهو بعيد عن عين كل رقيب، سهولة أن يكون "مبصرا" متى شاء، مكتشفا أن الظلام الذي فرضه على نفسه استنفر فيه طاقات مجهولة. ها هو "يستشق" روائح يفوح بها شجر النخيل، هو الذي لم يعرف للنخيل يوما روائح، بل ها هو "يسمع" ديبب النمل على الأرض كأنه ركض الخيل، بل ويشعر بلمس رقيق لما يزخر به الفضاء من إنس وجان.

السؤال الذي شغل باله تلك الأيام، كيف يفسر للضرب لون الحليب، ولون الفحم، ولون الرمل، ولون السماء، ولون الدم، ولون سعف النخيل؟

يحفظ الكهل بطعم الفشل لينقل حيرته يوما لطلبة يريدون منه وصفات جاهزة وهو لا يريد منهم إلا تجدد الانتباه: الامتحان اليوم، تفسير اللون الأخضر لأعمى من الولادة. لا أكثر من أربعة أسطر. يفتح الطلبة عيونهم على أقصى اتساع، ويمدّ الطفل يديه نحو وجه الشيخ المبتسم يفسّر له بكل ما تسعفه به المصطلحات التي يعرفها كيف أن الألوان جد جميلة، وأنه سيصبح قادرا على رؤيتها جميعا إذا صلى كثيرا لله الذي لا يرفض طلبا لعباده الصالحين، والعهد على "ما" التي لا تكذب أبدا. ثمة مسألة أخرى شغلت باله آنذاك كثيرا.

- "ما" إذن، هذا الأعمى كما يقول جدّي لا يراني!

هاجس الطفل الآن ليس أن يكون الشيخ عاجزا عن الرؤية، وإنما أن يكون عاجزا عن رؤيته هو.

هو سيعاني مثل بقية الأدميين من ألم بقائه خارج مدار أنظار تنزلق عليه ولا تبصره وهي شاخصة إلى الأفق أو منعكسة على ذاتها لا تهتم إلا بها... هو أيضا سيبقى ساعيا بكل قواه لتتوجه إليه كل الأعين كأن كثافة رؤية الآخر تكثّف من الوجود... هو أيضا سيكون بين من أذلهم الجري وراء الأنظار... هو سيجرب مرافقا نصيحة آدمي يدعى "بيكات" بإبعاد أي كائن بوسعه النظر إليه، حتى ولو كان القط، بنزع كل مرآة من الحائط، بغلاق الأبواب والنوافذ، بإطفاء الأنوار، بغلاق العينين على الذات توجد أخيرا خارج سطوة الناظر. ينمو قلق جديد داخل الطفل.

- "ما"، هل سأكون مبصرا يوما ما؟

- "سبعة أطاف وبعد الشرّ على ولدي"، لا تقل مثل هذا الكلام يا نور عيني.

ثمة رعدة خفيفة في نبرة صوت الأم تنبئ بوجود رعب تحاول إخفاءه ولا تفلح.

كيف لا يأتيها التطير وهي تعلم ما لا يعلمه ابنها في هذا العمر، وكما يعيث العمى فسادا في قرية غارقة في الفقر والجهل؟ ألم يسمعها تهمس ذات ليلة في أذن جارة وهي تظنّه نائما.

- هل هو الرمد؟ إنه الرمد... أليس كذلك؟

- يا عزيزة، صلّي على النبي.

- لكنه يقرب كل الأشياء إلى عينيه، أنا متأكدة أنه لا يرى جيّدا.

العمى! ذلك أخشى ما كانت تخشاه "ما" تلك الأيام، والهاجس المرضي الذي سيصاحب الطفل إلى يوم الرحيل.

يفتح الطفل عينيه يكتشف والده يراقبه باستغراب ثم يهز كتفيه: هيا إلى بقية يومنا.

يخرجان من بهو الحمام، والطفل يفتعل النظر إلى الخارج لألا يرى الحلاق ناصبا له الكمين.

- "با"، ما هذه البناية التي أمام الحمام؟

- قلت لك: لا تنهّب من قصّ الشعر.

- أسألك عن المبنى، لا غير.

- لا أعرف، أما ما أعرفه بالتأكيد أنك ستجلس على هذا الكرسي على الحلاق المسكين يستطيع لك شيئا.

حصّة التعذيب الثانية، أهذا هو اليوم الذي كان ينتظر بفارغ الصبر؟

يتفحص وجهه الذي في المرأة. يطيل إليه النظر كأنه يراه لأول مرّة.

ترجع له المرأة وجها مستديرا أسمر، بأنف صغير مدبّب، وجبين مرتفع، وعينين واسعتين يلمع فيهما دوما بريق غريب يفضح العواصف التي تعتمل وبعد الشرّ داخل ذهن لا يهدأ لحظة واحدة.

يثير في الوجه الغريب، عابس الملامح مع مسحة من كآبة، قلقا غامضا.

- "با"، انظر، هل هذا حقا أنا؟

يرفع الرجل عينيه من الجريدة بضيق واضح.

- ماذا تقول؟

- انظر. هذا أنا.

- أتحمّل منظرك طول الوقت وتريدني أن أتأمّلك في المرأة أيضا؟

يفتعل الطفل عدم الانتباه لسخرية أبيه وضحك الحلاق.

يبدأ الرجلان حديثا طويلا بصوت خافت عن آخر أخبار الثورة التي في جبال البلاد المجاورة وقلقل المدن، والوطن الذي هو قاب قوسين أو أدنى من الحرية.

- "با"، هل تدري...؟

- لا أدري. قلت لك: لا أدر-ي. لا أحد يدري شيئا في هذا العالم اللعين والآن أغلق فمك إلى نهاية الحلاقة.

يقرّر الطفل أن يغلق فمه بانتظار مرور عاصفة الغضب، وتفجّر الضحك من أب نقل عن العالم سرعة تقلّب المزاج. يعود إلى تأمل أدوات الحلاق من موسى، ومشط، ومقصّ، وصابون، وقوارير العطر. ثمّ يشدّه ثانياً الوجه العابس في المرأة. تتواصل حصة التعذيب الثانية، والطفل موثق إلى الكرسي، ولا شيء ملفت للنظر غير صورته تتأمله بالحاح. يغمض عينيه ثم يفتحهما أملاً أن يرى اختفاء الخيال فيجده يحدث فيه كل مرّة، يستقرّه بإخراج لسانه له فيخرج له الخيال نفس اللسان، يقرّر تخويفه فيرسم على وجهه ما يستطيع من علامات التهديد والغضب، فيفعل الآخر نفس الشيء.

- “با”، هل الذي في المرأة يشعر بما أشعر به؟

يصرخ الأب:

- هيا يا رجل، أسرع، نفذ صبري منك ومن هذا “الفرخ”.

ينفض الحلاق عن الطفل بقية الشعر العالق بياقة قميصه. تستولي يده الأخرى بعجل على قطع النقود التي دسّها فيها “با”. يتوجه إليه بلطف من فتح الكرم قلبه:

- حقا، إنه طفل ذكي وجميل.

- جميل، آه، نعم، أمه تدعي هذا أيضا. كما يقول المثل: “كل قرد في عين أمه غزال”.

ينطلق السؤال كالرصاصة الطائشة:

- “با”، هل أنت أيضا قرد وفي عيني جدتي غزال؟

تغرق روحه في دهشة لا قرار لها، وهو لا يفهم ما الذي تسبب له في صفة كهذه. يا إلهي لم يجرب مثلها على كثرة ما عرف خذه الغض من الصفع! ترى هل ستترك -كالمرة الفائتة- آثار الأصابع الخمسة؟

يجرّ الرجل المتشجج طفلا قرّر ألا يكلم أباه مدى الحياة، وكالعادة تتباطأ خطوات الرجل، حيث أتاه الهدوء ومعه الندم.

قلّ من يرتكبون أفعالا مشينة ثم يسعون تلقائيا إلى تعويض الضحايا. كان “با” على الأقل، من النوع الذي تأتيه الفكرة، بل تعدّبه أحيانا.

محاولة التكفير.

- أن الأوان لنشرع فيما تحبّ، هل تريد أن أشتري لك ملابس جديدة أو لعبة جميلة؟

...-

- شيء نشتريه لأمك؟ سنذهب لشراء هدايا لها، ثم سأخذك لأحسن خياط لنقيس ملابس العيد ولو أن العيد ما زال بعيدا. لا شك أنك ستحبّ حذاء جديدا، ثم نذهب بعدها إلى المطعم.

.....

- تصمت عندما أريدك أن تتكلم، وتصمّ أذني عندما أريدك أن تصمت!

الصفح بهذه السهولة! يرفض الطفل أن يفتح فمه وهو عازم أن مقاطعة زوج “ما” ستكون هذه المرة جدية ومتواصلة إلى أن يأتيه الموت، وليست كالمرات الأخرى العديدة، مجرد ابتزاز وتهديد. ثم إنه لم يقل له ما البنائية التي تواجه الحمّام.

- المطعم! نبدأ به، إنني أتضور جوعا.

- إذن، إلى المطعم يا فتى.

وهذا معلم أثري من معالم المدينة العتيقة، بقي ثابتا على شكله وطوقسه وألوان الطعام التي يقدم، على امتداد نصف قرن. هكذا تتابعت عليه أجيال من الطلبة الفقراء والكتّاب الفقراء، والمحامين الفقراء، وكل أصناف المعوزين من زوّار المدينة، أجانب كانوا أم أبناء البلد. ثمة من كان يرضى بقاعته الداخلية الوحيدة المكتظة دوما، يدخلها حاشرا جسده بين القصاص الضخمة. لكن الطفل وبعده الكهل، لم يكن يرضى إلا بالطاولات المصطفة على الجانب الأيمن من قارعة الطريق الضيق، تحميها من تساقط المطر ومن نبال الشمس الأسقف المرفوعة فوق شارع حافظ منذ قرون على طابعه الشرقي الجميل. يجلس الطفل بجانب أب شاردي يجيل النظر حوله ببطء شديد، يضع يده على كتف ابنه ثم يمسخ على شعره كما تفعل “ما”.

يرفع إصبعه مشيرا إلى بناية مهيبّة تتوجه إليها الجحافل، لا ينتظر الطفل بقية الخطاب.

- أنا أعرف، هذا هو الجامع الأعظم الذي تعلمت فيه كلللالل كلام الله، وحيث سنصلّي معا.

يهمس الأب كأنه يحدث نفسه:

- الجامع الأعظم، القلعة الشامخة... روح هذا الوطن الذي فقد كل روح! الدليل الشامخ على قدرة أجدادنا على البناء والتشييد.

قد يكون المبني شيئا هاما بالنسبة إلى الرجل، بالنسبة إلى الطفل الأهمّ هو ما حوله.

- "با"، من أين يخرج هؤلاء الناس؟ وإلى أين يذهبون؟ لماذا تنظر هكذا إلى هذه المرأة؟ لماذا هناك نساء لا يلبسن السفساري؟ لماذا يبدو هذا الرجل حزينا؟ لماذا يمدّ هذا الآخر يده للناس؟ لماذا قلت له "زبي ينوب" ولم تعطه شيئا؟ هل رأيت النادل، إنه إنسان ظريف حقاً، يهرول بخفة بين الطاولات، إنه محبوب على ما يبدو فكلّ الناس يمزحون معه.

- اترك الرجل وشأنه، كل، وقت الصلاة قد اقترب.

من أين للطفل أن ينتبه لطبق من الطعام وهو يلتهم الوليمة الفخمة بعينيه؟

- قلت لك: كل، أتريد طبقاً آخر؟ ألم يعجبك المشوي؟

- "با" لم أكل الذمّ منه من قبل، رائحته أيضاً طيبة، سأقول ل"ما" أن تطبخه لي كل يوم.

اكتمل عرس الحواس الخمس.

الحواس؟ دون الدخول في نقاشات أهل العلم لنقل في مقارنة أولية أنها/طاقات-إمكانيات-وظائف-أدوات/يستعملها

الذهن في استكشافه للعالم الذي يعبر... الذهن؟ لنقل دون الدخول في نقاشات أهل العلم أنه الحصلة النهائية للدماغ وهو في أوج عطائه وأنه في نفس الوقت المحرك لكل نشاط فيه أي أنه سبب ونتيجة... الدماغ؟ لنقل دون الدخول في نقاشات العلم أنه غرفة العمليات التي تتحكم في تسيير الذات بما هي جسم-روح لضبط علاقاتها مع العالم الذي بداخلها والعالم الذي بخارجها.

- "با"، أخطأ النادل هذه المرة فجاء بكسكي لرجل طلب ملوخية...

- هل ستأكل هذا الطبق اللعين أم أسكبه على رأسك؟

- أريد الذهاب إلى بيت الراحة.

- ركضا.

يعود الطفل جريا من الحمام، يرفض الاعتراف أنه يفضل الاحتفاظ بما بداخله على البقاء لحظة في مكان زاخر بقذارة تأتيه ذكراها بالتقيؤ. يرتمي على الكرسي جنب أبيه، يواصل التمعن في مناظر أعجب ما فيها تجدها المتواصل، ثم ينتبه إلى أن قدمي والده موضوعتان على الأرض، بينما تتدلى قدماه هو في الفراغ. يشعر بشيء من نفاد الصبر أمام زمان يتلأأ به في طفولة كأنها القفص المطبق على العصفور.

يتوقف مجهول، ينقضّ عليه بالقبلات، وعلى أبيه بالسلام الحار، والسؤال الأزلي ملء الفم: كيف حالك؟

أهمّ سؤال يلقيه الأدميون على بعضهم البعض... ما أصعب الردّ وفي كل إجابة فخ... إن أنت تبخرت في مصائبك ضايقت السائل وهو متعب من كثرة المصائب... إن أنت أسهبت في وصف ما أنعم به الله عليك من الطيبات أثرت غيرته... وفي الحاليتين إن أطلت في هذا الاتجاه أو ذاك ضيعت كل الوقت الذي يريد اغتنامه ليقصّ عليك آخر نجاحاته أو مصائبه هو... أما إن اختصرت الردّ، أو حتى تجاهلت السؤال -كما سيفعل هذا الطفل المتهوّر عندما يكبر- فسيسبب ذلك على تكبر فطري وحتى على تخريب مقصود وأنت تمنع السائل من فرصة الشكوى أو المباهاة... أقلّ الأجوبة خطرا وركاكة أن تتنهد وتقول أحوالي كأحوال العالم "ماشية" و"غير ماشية"، "الماشية" تعوض "الغير ماشية" و"الغير ماشية" تنعص على "الماشية".

ينصرف الصديق فيتنقّس الأب الصعداء وهو لا يريد شيئا غير إكمال طعامه. فجأة يجلس لاهنا إلى نفس الطاولة شيخ بدين بئرس أبيض وعلى رأسه كشطة المشايخ. يتحوّل انتباه الطفل للقادم الجديد.

- "با"، انظر. ليس لك كشطة مثل الشيخ لأنه يعرف أحسن منك كلام الله، أنا أيضا أريد كشطة مثل هذه.

يضحك "با" ضحكة صفراء، يبتسم له الشيخ وهو يواصل مسح عرقه. يسمح على شعر الطفل بيده البضة.

- إن شاء الله تصبح واحدا من مشايخ الجامع المبارك، ويكون لك عمود تسند عليه ظهرك ويتجمع حولك الطلبة من مشارق الأرض ومغاربها، ويومها تلبس أيضا كشطة بدل "الكبوس" وجبة "قمرية" مثل أبناء المدن.

يهبّ الرجل واقفا، يجزّ ابنه بعد دفع الحساب لا يخفي توترا جديدا في أعصاب مشدودة دوما كالسهم إلى الوتر.

- هيا يا ولد، حان وقت الجمعة، كان لا بدّ لك من إثارة الانتباه مرّة أخرى ومع هذا الحقير!

- لماذا تقول عن الشيخ إنه حقير، أنا أحببته.

- يا مغفل، لم تنتبه لهجته. الرجل كان يتهكّم علينا. هل تعلم كيف يسمّوننا أهل هذه المدينة الكلبة: الأفاقيون؟

- "با" ما معنى أفاقيون؟

- القادمون من الأفاق، من الأرياف القذرة، من الصحاري الموحشة، من الجبال المخيفة. جمعونا في نفس الإهانة، لا يفرقون بين جنوبي وشمالي، لا يرون في قدومنا إلا أمواج الهمجية التي تتلاطم على أسوار حضارتهم وتهدها... أفاقيون، أفاقون، لا فرق في أذهانهم.

ينفجر بضحكته المخيفة عندما تتحرك كل أوجاعه دفعة واحدة.

- من الصعب أن نقنع أحدا منهم أنهم هم سكان الأفاق بالنسبة لجذك ومركز العالم وأحثنا.

ثم يستشيط غضبا على عادته عندما تصل ألامه ذروة لا تُحتمل.

- اللعنة! سنحتل هذه المدينة، سنستعبد من فيها من أشباه الرجال، سنسبي نساءها، سننهب أسواقها، سنحرق بيوتها. أحفاد

الرفيق الأبيض يفاخروني أنا بأجدادهم، لا يعلمون أنني الجد الذي سيفاخر به الأحفاد.

لم أكن أعلم يومها أنه سيواصل صراخه فيّ وهو شيخٌ قارب الموت، وأنا كهل قارب اليأس من كل مشروع لتغيير شعب لا

يكره شيئا قدر من يريدون تغييره: أورتنا الخدم لخدمهم واليوم يورثونا لحرّاس الخدم! سارقٌ فاسد يحكم البلاد وأنت تنفّج

ثم تدّعي أنك ابني!

يستعيد الرجل هدوءه وهو ينتبه لصوت المؤذن. يتسمّر الطفل شاخصا ببصره إلى السماء يبحث عن مصدر الصوت. تُرى

هل خطر ببالك يوما أن امتدادات الجوامع والكنائس وكل معابد البشر إلى الأعلى، كأعمدة الاتصالات المكلفة بيئاً وتلقّي

الإشارات المتبادلة بين السماء والأرض؟

ملاحظة داخل الملاحظة ونعود إلى سياق النصّ. هذا الأذان الذي يتعالى من المئذنة جزء من باقة الأصوات التي تعرّف هذه

المدينة وتعطيها موسيقاها الخاصة. ذلك لأنه لا يوجد مكان أيا كان، من صنّع الأدمي أم من صنّع "الطبيعة" إلا وله إمضاء

حسّي يمتاز به، صوتا كان أم رائحة. وهذا الطفل سيتعلّم اكتشاف الفرق بين موسيقى أذان المدينة التي تطلّ على مضيق اسمه

"البوسفور" والمطلة على نهر اسمه "النيل". وكيف يتلّون في هذه وفي تلك، وكيف هي رنة الأجراس، وما الذي يفرّق بينها

وهي تفرع في مدينة تربض على ضفاف نهر اسمه "الراين" أو نهر يُدعى "السين".

في أيّ عالم كنا نرتحل، لو أفقنا فيه دون حاسة السمع التي أعطيت دون منّ وحُرم منها -لعطب غير مقصود- بعض

الذين ظلمتهم أيّما ظلم طاوله القمر؟ ... ثمة إذن عالم آدمي لا يعرفه إلا المبصرون وآخر اختفت فيه الأصوات لا يعرفه إلا

"الطرش"! وآخر لا وجود فيه للروائح إلا ككلمة من اللغة لا يعرفها إلا من فقدوا حاسة الشمّ... في أيّ عالم كنا نرتحل لو

أفقنا فيه بالعمى والصمم وبلا حاسة الشمّ... أي عالم كنا نعبر وكل ما نملك حاسة اللمس؟.. ربما قد نضيف بالتكنولوجيا للذات

حواسا جديدة، لكن ماذا ترانا فاعلين بسبعة أو بسبعين حاسة ونحن بالكاد نجيد -خاصة عند حالات التبدّل- حسن استعمال

الحواس التي خلّقنا بها؟

آخر التوصيات العقيمة.

- أتبهك أننا سندخل الجامع الكبير، لا مجال للصراخ في صحنه أو لطرخ الأسئلة. أغلق فمك من لحظة الدخول إلى لحظة

الخروج. إبان الصلاة لا تفارق جنبي وافعل ما أفعله، وإن لم تُطعني فستكون هذه آخر مرّة أخذك معي.

يصمت الطفل، لا خوفا من التهديد وإثما من فرط دهشته. هذه الدرجات بالغة العلو! هذه الأبواب العملاقة! هذه الساحة المذهلة

الامتساح! هذا الحَمَام الطائر، الراقص، الماشي، القافز الذي يملأ أرجاءها!

لماذا يرى حيطانا من الحجر وليس من الخشب؟ كم سمع من أقرانه أن مسجد المساجد مصنوع من خشب الزيتون لأن الله

أمر ببنائه من الزيتون المباركة التي ورد ذكرها في كتاب "ما" الأصفر الرث. ثم أين الزيتون التي قال له رفاق اللعب إنّها

تنوسط الصحن، إنها تصل بأغصانها عنان السماء ولا يقدر على تسلّقها كبير ولا صغير؟

لم يكن يعلم آنذاك أنه دخل عالما منسوجا في جزء كبير منه -والى الأبد- من الشائعات وأنصاف الحقائق وكبرى الأكاذيب.

يقطب جبينه مختارا تكذيب عينيه بدل تكذيب أصحابه.

- انزع حذاءك وتذكّر أين وضعته، لا تترك يدي وإلا فقدتك في هذه الزحمة.

يتزايد ذهول الطفل وهو يجد نفسه وسط قاعة للصلاة مترامية الأطراف بسجادها الكثيف، والثريا العملاقة تتدلّى من سقفها

الشاهق! ها هو واقف جنب أبيه والصفوف متراسة وراءه وأمامه في صمت مهيب تنتظر إشارات الإمام. الآن يمكن القول

إنه أصبح رجلا، على الأقل هذا ما كان يعتقد، والحال أنه كان لا يريد شيئا قدرّ الجري للوصول إلى الصفّ الأوّل حتى يكون

جنب الإمام، أو أن يتأرجح على الثريا الضخمة ينظر إلى المصلّين تحت قدميه، يرفعون إليه العيون المندهشة. كيف يتحرّك

قيّد أنملة وهو كالفأر بين أرجل الفيلة، لماذا هذا القلق المبالغ والدليل بجانبه يسترق النظر إليه ونظر أنّه تقول: لا تخش شيئا،

أنا معك.

تبدأ الشعائر المهيبة وتأخذ من الوقت ما لا يتحمّله طفل صغير وهو يقاد الخلق ركوعا وسجودا ووقوفا ثم ركوعا وسجودا.

فجأة يتسمّر بصره على قدمي الراكع الساجد أمامه. لا أهم الآن من هذين القدمين، اليمنى بجورب مكتمل واليسرى بجورب

ممرّق يبرز منه كعب القدم كأنّه تفاحة حمراء تطلّ من ثقب كيس أبيض متآكل. تأتيه فكرة شدّ "با" من كفه ليشركه متعة

الاكتشاف. ثم ينتبه لمسؤولياته وكيف أنه لا يمكن أن يقطع على أبيه تكبيره وعلى الناس خشوعهم. لا ينقذ الطفل إلا انتهاء

الصلاة من صفة جديدة بسبب رجل نسيت امرأته أن ترقع جواربه. يصرخ أب غامر بإدخال طفل كهذا في مكان كهذا بالأوامر المتوقعة: هيّا، أسرع، اليس حذاءك، فما زال أمامنا الكثير من المشاغل والقليل من الوقت. تأتي الطفل رغبة رواية كل ما شاهد والتعليق على آخر ما لفت انتباهه. - "با"، هل جواربك مثقوبة أيضا، أما أنا فجواربي جديدة. ينتهّد "با":

- بعد البرتقال الأسود والكشطة والمرأة، الجوارب... ما البقية يا ترى!
ها أنا أتلكأ وأتباطأ، أجرّ القدمين لعلمي أنّ هذا ما سيغيظه أكثر من أيّ سؤال جديد.
كان الأب والطفل لا يمسيان إلا وواحد يجرّ الآخر، أو يجري خلفه أو أمامه؛ أما جنبنا لجنب فذلك ما سيأخذ زمتنا طويلا على فرض أن الأمر حصل يوما.

- تحرّك، يا مصيبةً ابتلاني بها الله دون ذنب مني.
- سأقول ل "ما" "إنني صلّيت في أكبر جامع في العالم."
- الجامع الكبير ليس أكبر جامع موجود.
- (بلهجة الشك والتحدّي) ما أكبر جامع إذن؟

ينتهد "با". ربما فهم أن تسارع الأفكار والأسئلة عند هذا الطفل الغريب إرادة اغتنام فرصة سانحة يعرف أنها لن تدوم طويلا.
- يا بني، هذا أكبر جامع في بلدنا، لكن هناك جوامع أكبر منه في بلدان المشرق، إن شاء الله تكبر وتدخلها. آنذاك ستلبس عن جدارة كشطة أثقل من التي يتعمّم بها الحقير، وسينادونك كلهم "سيدي الشيخ الحاج".
- هيّا نعود إلى المطعم. أنا جائع.

تختفي النبرة الحنون بالسرعة التي ظهرت بها.
- لا تلمس صحنك طوال الغداء، وتريد العودة إلى المطعم الآن! لا مجال لهذا الدلال، تحرّك، لا وقت لمزيد من الفسحة، فما زال أمامنا أهم شيء نفعله اليوم، والقطار لا ينتظر.

- لم أكن جائعا آنذاك، بينما أنا جائع الآن.
- تتصوّر أنني خادم لسيادتك، أن المطعم ينتظر متى تجوع ليفتح أبوابه. ما عليك إلا أن تأكل جواربك.
- لكن، يجب أن نتوقّف وأنت تركض كالمجنون.
يضحك الدليل إلى أن يسعل.
- هيّا، إلى بائع المرطبات.

آخر ما يهّم الطفل المرطبات، وكل ما يريد ألا يتوقّف المشي أبدا في فضاء ساحر كهذا، وأن يتواصل الطريق إلى ما لا نهاية، وقد نسي حتى وجود "ما" وأنها تنتظره بفارغ الصبر ليعيد عليها - ما لا يحصى من المرات-تفاصيل اليوم الأغرّ. لا هاجس له الآن إلا مواصلة الركض لاستكشاف كلللالل أزقة المدينة العتيقة، كلللالل جوامعها وحوانيّتها ومطاعمها ومقاهيها. أنسته ألوانها وروائحها حتى ألوان وروائح الصحراء. هو لا يعلم أنه سيمشي كهلا في نفس الأزقة وقد أصبحت نفس المدينة بالنسبة إليه عجوزا عاهرة تحمل من كل مغتصب، تلد اللقيط وراء اللقيط، تربيهم كالقطة التي تتغذى بفلات أكبادها... وأنه سيواصل حبّها رغم كل شيء.

لن يعرف الرجل الذي سيواصل هذا الطفل مكانا على بُعد أو غرابته استخرج منه أحاسيس ومشاعر كتلك التي اعتصرتها منه أزقة المدينة العتيقة وهو ابن يجرّ أبا يتلكأ أو يركض للتخلص من قبضة أب متوتّر على الدوام.

مدينتنا... (نزار قباني)

تظل أثيرة عندي

برغم جميع ما فيها

أحب نداء باعتها

أزقتها

أغانيها

مأذنها... كنائسها

سكاراها... مُصلّيها

تسامحها، تعصّبها

عبادتها لماضيها

مدینتنا - بحمد الله -

راضیة بما فیها

ومن فیها

بالآف من الأموات

تعلکهم مقاهیها

لقد صاروا مع الأيام

جزءا من کراسیها

صر اصیر محطّة

خیوط الشمس تعمیها

فلا الأحداث تنفضها

ولا التاریخ یعنیها

یوم سیجلس لترتیب ملفّاته عن توغّله فی الفضاء الحسی لاستکشاف ما یزخر به من مناظر عجیبة وکائنات غریبة، سینتبه أنه لم یطلب من الطریق إلا أن یبعده ما استطاع عن تلك المدینة... وأن یرجعه إلیها بأسرع ما یمتطیع. حکم علینا ألا نصل إلی المكان الذی نرید إلا وشدّنا الحنین إلی الذی غادرنا، ألا نعود إلی مسقط الرأس إلا وشدّنا الحنین مجدّدا إلی ما وراء الأفق... والعالم دوما علی ما هو علیه من عطاء ومن تمنّع.

**

أو كيف أن العالم فضاءات متداخلة ليس بينها حدود واضحة

كانت رفيقة المقطع الجديد من الطريق من عشاق المدينة العتيقة، شغوفة بتاريخها، لا تملّ من البحث في أصل المباني المتداخلة، ولم يكن من باب الصدفة أن نلتقي، أن تقودني لإتمام زيارة بقيت منقوصة نصف قرن. تبادرني ونحن نمشي في الشوارع المكتظة للمدينة القديمة:

- أتصوّر بسهولة كم أتعبت الرجل المسكين ذلك اليوم، لم تتغير كثيرا رغم مرور السنين. يرفع الكهل يده إلى خدّ ما زال ملتهبا بعد خمسة عقود كمن ينفخ على الرماد ليلتهب ما بقي تحته من الجمر. تلحظ المرأة الذكية الحركة:

- تعال، لا فائدة في نبش ذكريات موجهة. اتفقنا أنك تريد إكمال الزيارة، لا تكرارها. إذن، بعد المطعم والجامع كان الأب المسكين يحاول إكمال بقية أشغاله وهو لا يعرف كيف يتخلّص من مشاكسات "الفرخ"، مقسما بغلظ الأيمان أنه لن يعيد نفس الغلطة ثانية.

- كنت تسمعي إن! برافو.

- طبعا. قلت إنك تريد معرفة تواريخ بنايات هذه الأزقة التي عرفتها ابان طفولتك... هنا كان سوق العبيد، وهذه مقابر الملوك، وهذه دار لوزير سابق. أمّا هذا فجامع بناه الحسينيون، وهذه حارة اليهود، هنا كان الحجز الصّحي. أتدري أن المكتبة الوطنية كانت ثكنة للجنود الأتراك؟ هذا حيّ البغايا، وهذا الباب الذي كانوا يقطعون الرؤوس تحته ويعلقونها أياما؛ إرهاب دولة ذلك العصر.

- جئت بك لتقولي لي فقط اسم البناية الموجودة أمام الحمام ووظيفتها التي كان "با" لا يعرف شيئا عنها، وبعدها قد يتفتّح مخي لينتبه لبنايات وأحياء لا تربطني بها صلة أو قصّة. تصوري! عاش في هذا الحيّ طيلة شبابه ولم يعرف يوما ما هذه البناية! لم تثر اهتمامه ولم ينتبه لوجودها! هل من المعقول أن يكون من قادوا أولى خطانا بهذا الجهل المشين؟ هذا هو الحمام، لم يتغيّر منذ ذلك العهد، ما يزال الحلاق ناصبا في بابه كميننا للأطفال.

-بنايتك هذه مدرسة من القرن السابع عشر. لا تطلب مني تفاصيل أدق، لست إلا هاوية.

- طيب، غفرت لك جهلك أنت الأخرى. اتبعيني الآن إلى المكان الذي كان "با" في عجلة للوصول إليه، لا أزال أتذكر الطريق إليه، كيف أنسى المنطقة الحدودية التي كانت مدخلي لأرحب فضاءات هذا العالم؟

- فسّر.

- يجب أن أكون نفسي فاهما، هذا هو المكان.

أتسمّر وأنا أرتطم بالواجهة الجديدة لحنوت يبيع أشياء لا يجمع بينها رابط، أصرخ جاحظ العينين.

- انظري ما فعل أبناء الكلب بأول مكتبة أخذني إليها "با" ... جعلوا من البوابة التي تفتح على أتمن ما في العالم هذا ال... هذا المكان الذي يبيع أدوات الطبخ والغسيل والساعات الحائطية البشعة ولوحات عن مكة تدّعي الفن وتوهم بالقداسة... كل هذا الشارع كان مخصصا للمكتبات وها هو مخصص لأشياء يبيعهها محتالون لأغبياء!

تدفعني مرافقتي إلى الأمام.

- تعال وتمالك نفسك. لا أريد لك السجن بتهمة إحراق محلّ تجاري.

تتدافع الصور إلى سطح الذاكرة وكأن الأحداث وقعت البارحة وليس منذ عقود.

كانت هذه المكتبة آخر محطة زيارة للمدينة وأهمّها في ذلك اليوم المشهود، المكان الذي كان يركض له "با" متأففا من طول الحلاقة والأكل وخطبة الجمعة.

أقسم أنني رأيت الرجل يغمض عينيه للحظة يستنشق ببطء ولذة واضحة رائحة المكان وكنه عاشق متيم وضع أنفه بين نهدي الحبيبية يستنشق آخر عطر لها. حقا لا تُعرف للأشجار رائحة ألطف من أزهار البرتقال، ولا للأشياء رائحة ألطف مما تتصوّع به المكتبات.

المكتبات! أليست نقطة التماس بين الفضاء الحسي بما يزرع به من روائح واللوان وأشكال الكتب التي تملأ فراغه وبين ما تحتويه هذه الكتب من كائنات لا رائحة لها، لا لون، لا شكل ولا يدها مكان أو زمان اسمها الفكريات تسكن فضاء مختلفا!

يغفل الأب عن الطفل لحظة ليدخل مع البائع في حوار مطوّل عن آخر ما وصله من كتب ومجلات من مدن الشرق البعيد، كان يومها لأسمائها وقع سحري.

مما رسخ في الذاكرة من كلامنا ذلك اليوم:

- "با"، هل هناك مكتبات مثل هذه في البلدان التي ذهبت إليها؟
- نعم يا بني، هناك الكثير من المكتبات.
- "با" أريد أن أدخل كل المكتبات الموجودة، وأقرأ كل اللللال للكتب.
- ممكن، شرط أن تعيش آلاف السنين. بالمناسبة، ما رأيك في نطق "كل" كبقية الناس، ممنوع من الآن تمديدتها بهذه الكيفية السخيفة.
- ينغمس "با" في تصفح الكتب والمجلات، ينتقي منها ببالغ التأني، ثم ينتبه لوجود الطفل.
- تعال، قل لعمك ما تريده أنت.
- أريد آخر عدد لمجلة سندباد وكل اللللال القصص الهندية لكامل الكيلاني وكتب جورج زيدان و.
- يفتح البائع فمه:
- كم عمره؟! من أين يعرف؟
- يغالب "با" زهوه:
- هات له ما عندك من قصص الأطفال حتى لا يقرأ كتبتي فيفهم منها أكثر مما أفهم.
- يصرخ الرجل وقد امتنع لونه:
- أتريد إفلاسي أو أن نرجع إلى البيت مشيا على الأقدام؟
- يتدخل البائع بلطف:
- لا تحمّل والدك فوق طاقتك، ما أخذته زاد لأشهر من القراءة.
- يأخذ "با" في تقليد لهجة البائع الحضري:
- ولا تحمّل والدك فوق طاقتك...
- يعود إلى الصراخ بلهجته البدوية:
- ما دام والده حيا فسيأخذ ما يريد من الكتب، ولا حق لأحد أن يقول له ماذا عليه أن يفعل... أشهر؟ هذا ابن أبيه سيلتهم كتبك في أقل من أسبوع. اختر ما تشاء يا فتى، فما دام أبوك موجودا... إلخ.
- خارج المكتبة الصغيرة صراخ الباعة ولغظ بداية مشاجرة وصدى كلام نسوة ضاعت معانيه وسط الضجيج العام. داخل المكتبة صمت غاضب للأب ولصاحب المكتبة... والكتب دوما على صمتها والحال أنه لا شيء فيها غير صراخ الألم وصراخ التنبيه يتصاعدان من قلوب وعقول خيرة من عبروا قبلنا عالم الرعب والانبهار هذا.
- هذه الكتب أيضا تشقى كبار المرتحلين في الموت... كيف لا وعبرها يواصل هوميرو والجاحظ دستوفسكي وتولستوي وبلزك رواية قصصهم الشيقة وكانهم احياء يرزقون والأجيال وراء الأجيال في حضرتهم تستمع وتستمتع؟
- يقرّر الطفل تجاهل علامات الامتعاض المتزايدة عند "با" وعدم الانتباه لحبات عرق بدأت تلمع على جبينه، غير مبالٍ بالبائع يخفي سروره وشماتته.
- إنذار صامت أنه من الأحسن أن نتوقف قبل أن ينفجر الرجل الخطير. توقف ثم ركض باتجاه المحطة.
- يصرخ الطفل في أبيه وهما وسط ساحة مغبرة تفتح على أوسع أزقة المدينة العتيقة:
- "با"، ما هذا الشيء؟
- حتّ الخطوة وأغلق فمك.
- لماذا يقف أمامه الجنود؟
- حتى لا ينسفه رجالنا... إنه تمثال لواحد من كهنتهم يسمونه "لافيجيري".
- "با"، هل جثة الرجل موجودة داخل التمثال؟
- لا شيء داخل هذا المسخ سوى استقزاز المحتلّ وكفره.
- يزمجر "با" كعادته عندما يرتفع عنده منسوب الألم.
- أبناء الكلب! وضعوا صنمهم في مدخل المدينة العتيقة للشماتة بنا، لنفس الشماتة سموا هذا الذي ينتهي عند الجامع الكبير "شارع الكنيسة". اللعنة ألف مرة على جبروتهم واللعنة ألف مرّة ومرة على لا-جبروتنا نحن.
- أريد أن ألمس ال...
- الجنود يمنعون اقترابه يحمونه من التفجير وكتابات السبّ، سنقلعه طال الزمان أو قصر. أسرع وإلا فاتنا القطار الأخير.
- طوال الطريق هواجس الطفل أنه للأدميين أشكال غير التي قُدت من اللحم والعظم. ثمة بشر من حجر ومن معادن وسيعرف عنهم يوما الكثير.

في عربة الدرجة الثالثة لآخر قطار الأحواز الفقيرة، هذا النقاش أو ما يشبهه.
 - “با”، هذه المرّة أنا الذي سأختبر معلوماتك. من هو أكبر شاعر في كلالل الدنيا؟
 يرسم “با” على محياه ابتسامة التهكم ثم يصرخ.
 - قطعاً، ليس ذلك الأخرق الذي قال “إذا الشعب يوماً أراد الحياة” لو قال على الأقل “إذا هذا القطيع يوماً أراد الممات”،
 لكان من الصادقين... طبعاً أكبر الشعراء هو...
 - أنا أعرفه، إنه الذي تحمل ديوانه معك في كل سفر.
 - هل ثمة غيره يا معقل؟
 - “با”، أريد أن أكون مثله عندما أكبر.
 ينفجر الرجل ضاحكاً، ثم يستشيط غضباً كعادته، لسبب لا يعرفه إلا هو.
 - إياك، ثم إياك. حذار أن تصبح شاعراً ولو كهذا الشاعر الذي عقرت بعد ولادته النساء. هذه أمة بقدر ما كثر الله فيها من
 شعراء بقدر ما ماتت فيها الفضائل التي يمدحون.
 - ماذا أكون إذن؟
 - مهنتان شريفتان فقط في هذا العالم الوغد: التي تمنح الموت والتي تمنعه. فيك كل مؤهلات العسكري، لكنك بهذه النظارات
 اللعينة لا تصلح مقاتلاً. كن طبيباً والآن اتركني أقرأ جرائدي.
 هكذا قرّر الدليل وجهة طريق الطفل في لحظة خاطفة ثم عاد إلى قراءة جرائده.

*

تهزني مرافقتي من ساعدي.
 - أكمل القصة وأنت تنظر إليّ. إذن من يومها لم تتوقف عن التهام الكتب وعن ارتكاب البعض منها، على فكرة ما ذا تكتب
 حالياً؟ برنامجك لإنقاذ هذا البلد التعيس؟ أنت لا تتفكّ عن الخريشة في هذا الدفتر الذي تخرجه باستمرار من جيبك، كم أودّ أن
 أستعيّره منك بعض الوقت.
 - لست متأكداً أنك ستستخرجين منه شيئاً، هذا على فرض قدرتك على فك رموزه. أنا نفسي لا أستطيع أحياناً قراءة ما كتبتُ.
 - خطّ الأطباء؟
 - ظروف الكتابة، أحياناً وقوفاً وسط حافلة مكتظة وحنّى مشياً.
 - مادّة لنصّ جديد في الأفق؟
 - نعم

تشرّد مرافقتي ببصرها بعيداً، ثم تبدأ في التمتمة بكلمات أغنية لأحبّ مطربة لكلينا:

كتبنا ويا ما كتبنا

ويا خسارة ما كتبنا

كتبنا مية مكتوب

وللهلا ما جاوبنا

- نعم، يا ما كتبنا، يا ما كتبنا ويا ما سيكتبون.

- إذن، لماذا الإمعان ولا أحد يجيب على ما نكتب؟

لأننا لا نكتب إلا لأنفسنا. أجمل ما في الكتابة كل الوقت الذي تأخذه على حساب الأشغال التافهة التي تلتهم حياتنا... هي
 أيضاً أئمن فرصة لاختلاء الذات بذاتها تنظم أفكارها حول ما عاشت وما تعيش من تجربة غريبة اسمها الوجود.
 تعود مرافقتي للحديث ترضي فضولها بين جدّ ومزح:

- عدّ إلى تفاصيل المشروع.

- لنقل إنه نوع من التقرير عن رحلتي في هذا العالم استجمع فيه كل ما تعلمتُ أو توهمتُ تعلمه عن الأدمي، عن الأدمية، عن
 العالم، عن ذاتي وهي تصارع من أجل البقاء أعتصر من داخل الملفات التي تراكمت داخل ذاكرتي كل هذه العقود، أجوبة
 تردّ على الهواجس التي تلاحق كل أدمي.

- كنت أظن رجال العلم لا يتعاملون إلا مع مواضيع بالغة الدقة بأدوات مناسبة تاركين مثل هذه المشاكل للشعراء والأدباء
 والفلاسفة.

- آه صحيح. تعلمنا باكراً وضع العلم في ميدانه وكل جزء من أجزائه في علبته المنفصلة... الموضوعي في واد والذاتي في
 واد آخر... الفلسفة في خانة والشعر في أخرى... الأفكار على اليسار والمشاعر على اليمين... النبيلة في الواجهة والذنيئة

خلف الستار... الجِدِّ حيث لا مجال للهزل والهزل حيث لا مجال للجِدِّ... أي تصوّر ممكن بهذه المنهجية لعالم كل شيء فيه مترابط متداخل!

- نعم لكن أيّ هريسة فكرية لو لم نفرّق بين القضايا والمستويات والمناهج!
- جلّ النصوص تتوجّه إما إلى القلب وإما إلى الدماغ. كأن العقل ليس عاطفياً، كأن العاطفة ليست عقلانية. كأن الذات ليست عاطفة-عقلا أو عقلا-عاطفة. كأنها ليست نظاماً وفوضى... كأنها ليست عقلانية لا عقلانية، لذلك أريد الخروج من وعلى هذه الثنائيات الساذجة. أريد أن يعكس نصي العالم كما هو أي أن يتجاوز فيه الفكرُ والخيال، المعقول واللامعقول تفاصيل قضايا أفراد بالغة الابتذال مع ثوابت القضايا الكبرى الإنسانية جمعاء.

- وكيف ستحقق انجازك العظيم هذا؟
- بالتمعّن في أدقّ تفاصيل القصة الوحيدة التي أعرفها جيداً عليّ أكتشف الثوابت التي بُنيت عليها كل قصص الأدميين.
أليست المعرفة الدقيقة بجسد واحد كافية لمعرفة كيف بُنيت كل الأجساد، وإن تباينت فيما لا يُحصى من التفاصيل؟
- أنت كمن يدّعي أن دراسة قطرة تعلمك ما طبيعة المحيط. لكن، ما علينا. المهمّ أن تجد في عصر الاستهلاك للسريع والجاهز والمعلّب، مَنْ يقرأ، والكتّاب هذه الأيام أكثر من القراء.
- هل تساءلت يوماً لماذا نقرأ؟ أليس لأننا نبحث عن ذواتنا في قصص الآخرين؟ أليس لأننا نبحث في قصص الآخرين عن معنى وجودنا في هذا العالم؟ لا خوف إذن من انقراض جنس القراء والفضول أحبّ عيوب البشر.
- إلى أين انتهى مشروعك العبقري؟

- إلى كمّ هائل من الأوراق لم أعد أتجاسر حتى على تنظيمها، كم بودّي أن أنشرها كما هي، النص على حقيقته دون عمليات التجميل التي نجريها عليه وهاجسنا ذوق الزبون وخوف الرقيب. المشكلة غياب الناشر الانتحاري القادر على نشر مادة خام من آلاف الصفحات، بما فيها من تشطيب ومن فوضى؟ ثم أيّ قارئ قادر على الصبر عليها؟
- نوع من الكتابة جرّبه البعض ولا أعتقد أنه كفّل لهم الشهرة التي أرادوها بمثل هذا الاستفزاز. أرجو أن لا توصي بمثل هذه المنهجية للطلبة المساكين الذين ساقهم حظّهم العائر لتُشرف على أطروحاتهم، تصوّر ما يمكن أن تؤدي إليه مثل هذه المنهجية. جاء دوري لأنفجر بالضحك.

- هم ليسوا بحاجة إلى أي توصية لارتكاب نصوص لا تنتمي لا للعلم ولا للأدب.
- متى سنشرّقني بأن أكون أولى قراء قصتنا جميعاً؟
- لا أعرف، بل لا أعرف أصلاً هل سأغامر يوماً بنشر النصّ.
- الخوف من الرقيب؟

- من تقديم عمل يجب أن تصل فيه إلى أوجها مهاراتٌ عديدة لست متأكداً من امتلاكها.
مهارة حارس الغابات، والنصّ غابة موحشة يجب فتح مسالك المعنى داخلها بقصّ صارم متواصل للزائد المتورم من الكلمات، مهارة الجواهري والنصّ حجارة كريمة يجب العودة إليها طول الوقت بالصلق والنقش، مهارة الطفل والنصّ لعبة "ليجو" يجب تجريب كل الإمكانات لتتداخل القطع في أكثر الأشكال تناسقاً، مهارة الفنّان والنصّ لوحة فنية يجب أن تسطع فيها الألوان أو قطعة موسيقية يجب ألا تعرف نشازاً، مهارة سقراط وهو يستقرّ في السامع طاقاته الذهنية ليولدا المعنى معاً.

- سأفتعل تصديقك، وأنّ الهدف ليس إرضاء رغبة كل الكتّاب: إعادة صياغة العالم الذي يعيرون وحتى خلق عوالم أخرى يرونها أجدد بالوجود. والآن ماذا عن العنوان؟
- رحلة الحياة أو كتاب الرحلة، ربما الرحلة.

-أوف، سيرة ذاتية أخرى! ألا يكفي طوفان النرجسيات الذي نعاني منه؟
- كم سأردّد: النصّ ليس سيرة ذاتية، النصّ ليس فقط سيرة ذاتية، فينهامسون وراء ظهري: بلى، بلى، بلى.
- سيرة ذاتية أو ما تشاء، المهمّ، إذا كانت المادّة بنفس طرافة العنوان... فيا خيبة المسعى!
- هل غلظتي أن البشر لم يتركوا عنواناً لكتاب إلا واستعملوه نكايه فيّ، ولا فكرة إلا وسرقوها مني لمزيد من الحيلة قرونا قبل أن أولدا؟

- هل حسبت وأنت في هذه المرحلة الصعبة حساباً لأعدائك وهم يتربصون بكل ما تقول وتكتب؟
- طول عمري وأنا في مرحلة صعبة، أما بخصوص المتربصين فسيفعلون ما فعلوه دوماً، سيُخرجون جُملاً من سياقها، سيقولونني عكس ما قلت سيتهمونني بالإيمان والكفر، بالشيء وبالنقيض... كل هذا تعسفاً على النصّ وتحاملاً على كاتبه في إطار معارك لا علاقة لها بفكر أو أدب. المساكين! كان الشيطان في عونهم.

- سهوٌ مجدداً، كَلِّي آذان صاغية لك.

- لا أحد يصغي لأحد، ربما الأمهات لأطفالهن. وحتى هنّ! ألم تلاحظي كم من مرة وأنت تبدئين في الشكوى من الدنيا أن المستمع ولو كان أقرب الناس يغالب نفاذ صبره منتظراً أول تردد أو أقصر صمت ليخطف الكلمة بنفس الجملة المعهودة: فما بالك بالذي حصل لي أنا! ثم لا يتوقف إلى أن تخطفني منه الكلمة بدورك. كل كائن مشغول بذاته وبذاته فقط، لكنه مضطّر لافتعال الاهتمام بمشاكل الآخرين حتى يكافئوه بنفس الخديعة.

أيّ تفاعل سليم ممكن بين البشر وكل ذاتٍ شمستٍ تدور حولها كل الأفلاك، وذرّة من غبار تدور في فلك ما لا يحصى من الشمس؟ أيّ علاقة سليمة يمكن بناؤها بيننا وكل واحد يقضي عمره في محاولة فرض مركزيته ورفض هامشيته؟ تبتسم مرافقتي لذكريات تؤكّد ما يعرفه الجميع وما ينكره الكلّ.

- معنى هذا أنك لا تصغي إليّ أبداً.

- أحياناً، أوقات الانتباه وهي جد نادرة. والآن كفى من هذا الموضوع.

- آخر سؤال متى ستنتهي من كتابة هذا النص لأكون أول قارئة؟

- الكتابة ستنتهي عشية الرحيل، للأسف لا أدري كيف سأواصل العمل عليه من الضفة الأخرى لهذا العالم التي تسمونها الآخرة،

- على ذكر الآخرة، أليس وهم كل الكتاب التغلّب على الفناء بالحرف... بخصوصك البقاء في ذاكرة هذا الشعب الذي لا يبادلك حباً بحبّ.

- الخلود! طعم كالذي تلوح به الحياة للعشاق: المتعة لكم والبنون والبنات لي المهم تواصل النسل... كذلك طعم الكتابة. كأن هناك قوة قاهرة تقول تمتعوا بالكتابة وإن كانت متعة مصحوبة بالوجع، المهم تواصل الفكر.

أن يكون كل نص بمثابة رسالة توضع في قارورة الماء الشهيرة التي ترمى للبحر ولا أحد يعرف أين ستنتهي وهل ستجد من يقرأ ومن يفهم... ذلك ما أنا واع به أشد الوعي.

بصراحة أخاف أن يغرق نصّي مع كل النصوص التي غرقت وأخاف أكثر أن تطفو بعض مقاطعه لتسميم عيش تلامذة وطلاب أبرياء وقد أصبحت - يا للحسرة- جزءاً من الثقافة الرسمية. كل أمني أن يكتشف النصّ ثعباناً فضي جاء من أعماق الفضاء في بعثة حفريات آلاف السنين بعد نهاية كل هذا السيرك، فيترجمه وينال درجة الدكتوراه بامتياز في آداب الأجناس المنقرضة. والآن كفى من هذا الموضوع.

- هل تريد أن تعرف رأيي فيك؟

- لا.

- طيب، أما فأريد أن أعرف رأيك فيّ؟

- رأيي في الأدبيين عموماً والإناث خصوصاً: كائنات يستحيل العيش بدونهم ويستحيل العيش معهم.

تهمس مرافقتي لنفسها بلهجة وأشلاء اللغات التي يتكلم بها أهل هذا البلد التعيس: ça va، كنت أنتظر ما أقطع.

ثم تعود للكلام المسموع: طيب إذن اكتملت الزيارة، كيف انتهى ذلك اليوم المشهود؟

تلك الليلة وصل البيت أبّ مرهق وطفلاً متزايد الرغبة في مواصلة يوم كم بدا له قصيراً.

تفتعل "ما" السرور بما جلبا لها من الحلوى. يسارع "با" إلى كتبه ويرحل. يسارع الطفل إلى كتبه ويرحل.

تعود المرأة الوقور لغسل الصحون ثم تجلس على الحصير البائس تتصفح ببطء وبتركيز كتاباً أصفر رثاً، تطيل فيه النظر، ثم تغلقه واجمة.

تشيخ المرأة التي عرفت جوع الجسد والروح برأسها، لا تتبس ببنت شفة، ولا أحد منتبه أنها مثل سجين في أضيق زنزانة والمفتاح شيء غير مادّي لا تملكه، أن الأوان لرواية ظروف سطوي عليه.

**

عن المفاتيح السحرية لدخول فضاء ما وراء الحواس الخمس

تهمس أم في أذن طفل متمسك بحقه في مزيد من النوم وفي صوتها عصبية غير معهودة:

- انهض، اغتسل، البس، تناول فطورك بسرعة. يا إلهي، سنصل متأخرين!

- إلى أين سنذهب؟

- إلى الكتاب. هيا، لا تتناقل!

- الكتاب! لكنني ذهبت إليه البارحة.

تغالب، ما؟ نفسها حتى لا تنفجر ضحكا.

- سنذهب إليه اليوم وغدا وكلّ الأيام ما عدا الجمعة والأعياد.

إنها نبرتها عندما تتحدث عن الذهاب إلى الحمام، أي أنّ الموضوع غير قابل للنقاش والمساومة. ومع هذا لا بأس بالمحاولة.

- لماذا؟ ألا تكفي مرة واحدة؟

- لا تجادل كعادتك. هيا، لا تتلغأ.

تجرّ الطفل امرأة بها حماس مبالغ فيه غير مبالية بحماس طفل أقلّ ما يوصف به أنّه كان فاترا. كلّ هذه العجلة للعودة إلى مكان ليس هو مركزه!

- تذكّر ما قلته لك البارحة: لا تتشاجر مع الأطفال، لا تنشيطن كعادتك، انتبه لما يقوله المؤدّب وعندما تتوجّه إليه بالكلام ناده بـ "سيدي"، كُن شديد الاحترام له ولا تعص له أمرا، استوعب ما يقوله لك، قبل يده عندما يدعوك لتمثّل أمامه، لا تكن وقحا ولا تتكلم صارخا أمامه، أطعه في كلّ شيء ولا تعرّض نفسك لما أكره ولا ترضى، ولا تنس أنّه سيخرجك من الظلمات إلى النور فهو من سيعلمك كلام الله.

إنها عادة الأم الأزليّة المتمادية في إغراق الطفل الأزليّ بنصائح لو كان لها أدنى تأثير لتحسّن الجنس البشري منذ زمن بعيد... الدليل على تواضع دورها في الأمر أنّ ذلك لم يحصل.

بقية الحوار كما تعيد صياغته ذاكرة الخيال وخيال الذاكرة.

- لا أريد أن أتعلّم كلام الله. أريد أن أذهب إلى غابة الزيتون عند جدّتي لاصطياد الحجل بمقلاعي الجديد.

تجذب، ما؟ يد الطفل بشدة وهي تنظر إلى ما حولها بانزعاج:

- لا تكرّر أبداً مثل هذا الكلام، خاصّة على مسمع الناس.

يصل الطفل مجرورا من يده إلى الكتاب، وهو ركن من جامع المدينة الصغيرة التي قذفتها على ضفافها أمواج النزوح. تدفع الأم طفلها لتخطي الباب وتمسك يده بقوة، شيء ما بداخلها يحثّ على الفراق وآخر يرفضه.

توصية عقيمة إضافية بضرورة الجلوس قريبا من الشيخ، وحتى بين يديه للتبرك والنهل المباشر من نافورة العلم هذه.

تسترجع الذاكرة صورة شيخ يلتحف ببرنس من الصوف البني وعلى رأسه شاشية حمراء يلقها بقطعة من قماش أبيض، له وجه لم يتعرّض كثيرا لوهج شمس الفلاحين، ويدان لرجل لم يمك في حياته إلا القلم والورق.

كان يفترش سجادا مهترنا بالكاد أحسن من الحصير البائس الذي كان يتقاسمه الطفل مع الرفاق الصغار، وكلهم جالسون أمامه صفوفًا مترابطة في أعجب فوضى. يوم غامر بالجلوس قريبا من الشيخ ليبصره عن كئيب فوجئ بنظرته الجانبية مصوّبة نحوه، وكلاهما يقدر حظوظه -خطأ كما هو الأمر في أغلب حسابات الأدميين- في استعمال الآخر لمأربه. ألم يسمع من "ما" أنّه يحفظ كلالللكلام الله، وأنه يعرف ما لا يعرفه حتى "با"؟ يداهم الطفل شعور بالتهيب.

قد يكون الخوف ثاني أقوى المشاعر إذ كانت للرجل عصا طويلة يلوّح بها طوال الوقت، ومن ثم قرر الطفل البحث عن مكان آمن في الصفوف الخلفية ليكون أبعد ما يكون عنها وعن شيء رهيب آخر تسميه اللّغة "الفلقة" كان الشيخ يضعه قرب ركبته اليمنى، واضحا لكلّ العيون، جاهزا لكلّ الاحتمالات.

الفلقة! أداة بدائية بالغة البساطة لكنها روّضت أمة برمتها كما لم تروّضها جيوش الغزاة على مرّ التاريخ. هي التي ربّتها منذ نعومة الأظافر على الخوف والطاعة، وكان الدور ذلك اليوم على الطفل لتسييره في قوافل المرؤضين.

على ذكر وسائنا البيداغوجية القديمة عن الجاحظ: "كان معلّم يعلم الصبيان ومعه عصا طويلة وأخرى قصيرة، وصولجانا، وكرة، وطبلا وبوقا، فسألته ما هذه؟ أجاب: عندي صغار أوباش، أقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصغر لي فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخّر فأضربه بالطويلة، فيفرّ فأضع الكرة في الصولجان فأضربه فيتقدّم إليّ الصغار كلهم بالألواح فأضع الطبل في عنقي والبوق في فمي فأنفخ وأضرب فيسمع المارة ذلك فيسارعون إليّ ويخلصوني منهم".

نعم يجب إسناد الميدالية الذهبية لكتاتيب العرب والمسلمين على مرّ العصور وبصفة رجعية لهذا الكتاب ولهذا الشيخ، طيّب الله ثراه وأسكنه في أفخم "سويت" في الجنة.

في بعض ملفّاتي الساخنة، يعود الطّفّل إلى البيت بقدمين منتفختين كأنه يمشي على الجمر لا على الأرض وكلّ همّه دخول البيت محافظاً على مشية لا تُلفت الانتباه. لكن، كيف يتفادى حصّة الغسل قبل الذهاب إلى الفراش؟ وفي حالة إصرار "ما" على هذه العادة البغيضة، كيف يفسّر لها حمرة منتفخة شديدة الألم، ليس من السهل إخفاؤها، ومن الأصعب تبريرها؟ كيف يعترف لـ"ما" أنه تشاجر مع بعض الأطفال، وربما حتى مع الجميع، أنه قام ليجلس بعيداً عن الفلقة والعصا ولم يستأذن إلا من نفسه، أنه لم يقل للعجوز: "سيدي الشيخ" وهو يخاطبه، أنه لم يظهر له من الاحترام إلا أقله، ولم يُقبل يده بعد حصّة العقاب بل عضّها، أن الضرب زاد إلى أن كاد يغمى عليه وسط الصخب والضحك. ثم ماذا لو سألتها عمّا حفظ من أقوال ربّها العزيز عليها؟

تتظاهر "ما" بأنّها لا ترى مشيته. لا تلقي أيّ سؤال. تتعافل -على غير عادتها- عن حصّة غسل القدمين الإجمالية مظهرة مزيداً من الحنان. يؤوب الطفل إلى فراشه لأوّل مرّة دون تسويق، ليغرق في كوابيس تتحرك فيها عصاً طويلة وقدمان داميتان فوق سحاب كثيف، وشيخ بدين يركض وراءه يصرخ بالفاتحة وهو يسابقه للوصول إلى غابة زيتون يحتمي بأشجارها ليصبح فيها عصفوراً.

للمدافعين عن حقوق هذا الطّفّل والمستنكرين لكلّ عنف ضدّ فلذات الأكباد، أقول نعم، نعم، كلّ خجكم هذه أعرفاً جيداً ورددتها في أكثر من محفل. لكن، بيني وبينكم وبعيداً عن الأذان المتطفلة، وعلماً أنني ذقتُ الفلقة أكثر منكم بكثير، أيّ وسيلة هذه للتعامل مع هذه الوحوش الصغيرة التي تسمونها الأطفال وهم بهذا الكمّ الهائل من النزق والطيش والغباء والعنف؟ تهز اليدُ الرقيقة الطّفّل بحزم:

- انهض، حان الوقت.

- اذهبي أنت إلى هذا الكتاب العزيز عليك. تعلّمي عنده كلام الله وكلام كل من يعجبك. نادي العجوز الكريه بـ"سيدي"، قبلي يده، أطيّعيه في كلّ شيء، لا تتشيطني، لا تتشاجري إذا سمحوا لك بذلك، أما أنا فذهب هذا الصباح لأصطاد الحجل بمقلّاعي الجديد. لن أعود إلى الكتاب مهما قلت وفعلت.

- يا بني لا بدّ أن تذهب كلّ يوم إلى الكتاب، أن تسمع المؤدب. هل نسيت أن والدك كان مؤدّباً؟! كم سيكون رائعاً أن تشبهه، وكم سيكون فخوراً بك يوم تُعلّم صبيّة قرينتنا كلام الله.

- لا أريد أن أكون مؤدّباً. أنا أكره كل المؤدبين، خاصة هذا الرّجل، ولن أعود لذلك المكان أبداً، أبداً!!

تأخذ "ما" طفلها بين ذراعيها واللّهب في عينيها. ثمة تغيير جذري في لهجتها. هي لم تعد تخاطب طفلاً موجوعاً وإنما الرّجل النائم داخله.

- رأيتك في المنام بارعاً باللسانين! نعم، جاءني في المنام -وأنا حُبلى بك-ملاك بشرني بهذا. هل تكذب ملاك الله وتخزني؟ هل تتراجع أمام أوّل عقبة؟ ترضى بالهزيمة وأنت تحبّ الصراع؟ كم هو طويلُ الطريقُ أمامك لتصل إلى المراتب التي يريدّها لك "با"!

نعم، كم هو طويلُ طريق الأدمي، وكم عليه من مسامير وأشواك تُنبئُه منذ البداية أنه لم يأتِ إلى العالم لقضاء عطلة اسمها الحياة، وإنما لمهمة مجهولة ربما له فيها بعض المكاسب لكن ثمنها يُدفع مُسبقاً.

هل أتانا الملاك يومها منتفخ القدمين يمشي على الزجاج والجمر؟ المهمّة أنّه أتانا واتفق معها على شروط العقد الذي سيجعل الطّفّل عالماً بارعاً باللّغتين. لم يعد مطلوبٌ منه سوى التطبيق، إذ لا حقّ له في إفسال مخطّطات سرّية تتوارى داخلها أحلامٌ ورديةٌ للألم ورغبةٌ عارمة عند الأب في الثأر. إنها القاعدة في هذا العالم. محكوم عليك أن تتخرط بإرادتك، أو يتوهمها، في القصة التي حدّتها لك طاوله القمار وأنّ تلعب -سنت أم أبيت- الدور الذي قرّره لك "البخت" أو سوء الطالع.

يستمرّ الطفل في عناده رافضاً مواجهة تجدد كابوس البارحة. هل من الممكن أن ينهار حلم "ما" وهو في البداية؟ تستخرج الأم من خوفها المفاجئ الحجة التي لا تُقاوم.

- تعلّمت بعض الحروف من أخوي، لكنها لا تكفي لأفكّ رموز المصحف الشريف. أنت الوحيد الذي يستطيع أن يأتيني بالبقية. آنذاك سأقرأ كلام الله. هل ستخذلني؟

يحدق الطفل في وجه أمه وقد انتبه فجأة لما تقوله:

- أنت لا تعرفين القراءة؟

- في زمني، كانوا لا يبعثون بالبنات إلى الكتاب.

تضع الأم يدها على رأس الطفل، تداعب وتتلطف وتبارك:

- لكنني سأعرف القراءة عندما تعود إليّ محمّلاً بالحروف التي تنقصني.

يقفز الطفل من فراشه وقد تبدّلت كل المعطيات لديه:

- سأذهب لأتيك بها. وسأؤتقّك حال حصولك على الناقص منها، وفي المقابل...

- كلّ ما تريد، والآن البس ثيابك بسرعة، وكلّ قطعة الخبز هذه في الطريق.

في ذلك الصباح لم يركض صبيّ في الخامسة من عمره وراء العصافير، وإنما قصد -بمحض إرادته- مكانا كان يعرف أنه سيلقى فيه من الأذى أشدّه، وقد ألقت الأقدار الظالمة على كاهله الغضّ بمهمّة لم تخطر له ببال.

وهذا عالم نادرًا ما تحصل فيه على ما تريد، كأنّ به نزعة سادية يمارسها عليك قبل أن يرمي بالعظم الذي تسعى إليه بكل قواك. هكذا كان على الطفل أن يجلس على الأرض الباردة ساعات طويلة، يتأرجح من الخلف إلى الأمام ومن الأمام إلى الخلف كما يفعل المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية، مردّدًا خلف المؤدّب كلاما لا يفهم منه شيئًا، ولا أظنّ أن أحدا كان يفهمه، بمن في ذلك الشيخ نفسه. تُداهم الطفل -وهو يردد كالبيغاء- أسئلةٌ بها الكثير من الثورة والاستياء: ما الحمد، ما الربّ، ما العالمين، ما الخنّاس، ما معنى كل هذا الكلام الغريب ولماذا يجب عليه حفظه دون فهمه؟
يغلبه التهور من جديد:

- سيدي، ما معنى خنّاس؟ ولماذا يؤسوس الشيطان في صدور الناس؟ وكيف يفعل ذلك؟

من أين سيعرف بأنّه دخل عالم الفكر -وهو في هذا العمر- من باب المطالبة بالخبّة أي من باب البدعة في نظر كلّ الشيوخ. كأنّ هذا الشيخ تفتّن إلى أن الطّفّل من النوع الذي سيزعج أمثاله دوما بأفبح ما يكرهون، فأراد أن يقوم الخطأ في تركيبته الذهنية بأشدّ العقاب، علّه يكتسب أجرًا في الدنيا وثوابا في الآخرة.

يصرّ الطفل مع هذا على حقّه في الفهم. يعاود الكرّة والشيخ أحسن مزاجا:

- سيدي، هل أبو لهب هو الشيطان الخنّاس؟ ولماذا تبتّ يدها؟ وما معنى تبتّ؟

أخيرا يستبطن أهمّ ما يعلمه الكتّاب والحياة بصفة عامة، أنّ تفادي العصا أهمّ من إشباع الفضول.

يتعمق كرّه للمؤدّب، وهو لا يعلم أنه يظلم الشيخ أكثر مما كان الشيخ يظلمه. ما معنى إلقاء أسئلة في مكان جُعل لمنع ظهور السؤال؟

كان الشيخ ينهض من فراشه الخشن لقضاء حوائج كثيرة، يختفي ساعات، يسلم إبانها العصا والفلقة لعميل سلطة لا تكون - ككلّ سلطة - إلا بالفلقة والعملاء. كان همّ العميل هذا، وهو أطول الأطفال قامّة وأكبرهم سنًا، أن يصفّي حساباته مع من لا يرضى عنهم، وعلى رأسهم الطفل الغريب الذي أصبح صيده المفضّل.

لا العصا ولا الفلقة، ولا كلّ أنواع ظلم الشيخ وتعسف العريف، عقوبات كافية لتثني الطفل عن قراره بالظفر بكلّ الحروف لتختار منها "ما" ما ينقصها.

تواصل الحروف اللعينة رفض الحضور بين يديّ من هو بأمرّ الحاجة إليها.

يعود الطفل إلى حبيسة الدار كلّ مساءٍ مثقلا بالألم غير مفهومة السبب، يردّد عليها ما علق في ذهنه من جمل غريبة لا طعم لها ولا معنى، ومع ذلك كانت تطرب لسماعها.

- "ما"، لا حروف في هذا الكتّاب، لماذا لا نبحث عنها في كتّاب آخر؟

- صبرا أيها الطفل العجول.

يتجدّد الموعد كلّ صباح مع العصا والصّخب والحصير، وكلّ مساءٍ مع حرقة الإحساس بالذنب والقهر. ها قد بدأت "ما" تتخوّف بجديّ من صدق وعد الملاك. تتشجّج أصابعها وهي تمسك بكتفيّ ابنها:

- لا أحبّ أن أراك تذهب وتأتي على هذه الحالة. انظر إليّ مليًا. أتريد مصير أقرانك في الصحراء، أم مصير أبناء خالتك هنا؟ رعي الجمال والماعز عند الأعمام، أم رعي الأبقار والغنم عند الأخوال؟ لا أريد لك هذا أبدًا، هل تسمع؟

- ...، ...، ...، ...، ...،

- يجب ألا يحصل هذا أبدًا. أبدًا!!!

...

- كم سأكون فخورة بك وقد حفظت السّتين جزبا! كم سيكون "با" فخورا بك هو الآخر وأنت تتلو عليه ما تبيسر منها!

...

- أرجوك، كفى بكاءً، إنّ دموعك تمرّق قلبي. غدا ستفّرح بإذن الله. سأحمل للشيخ عصيدة بالسكّر والسّمّن. وأنت أيضا لا تكن سليط اللسان كمادتك. لا تكابر، فلست دوماً على حق. سأصلي الليلة كثيرًا ليهديك الله.

ولأننا في قصة نتصرّف فيها كما نشاء فإننا سنجعل صلاة المرأة تصل السلطات الماسكة بأكبر عصا وأكبر فلقة تضعها حول أقدام البشريّة جمعاء. سنقرّر أن هذه السلطات، في إطار سياسة كلّ سلطة تصنع الاهتمام ببعض التطلّعات وافتعال حلّها ليتواصل الانضباط وتدقّق العصيدة بالسكّر والسّمْن، أمرت بإصدار التعليمات لدواليب الإدارة حتّى لا يكابر الطّفل ويتّخذ طريقاً قد يقوده ليصبح عالماً بأحد الرّعيّين حسب تهديد أمّه. ربّما تدخّل حليف، “ما” بحزم وإلحاح لدى مكتب التطلّعات الكونيّة. قد تكون علاقاته الشخصيّة مع ملائكة القسم هي التي مكّنته من إخراج ملفّ الطّفل من تحت جبال ملفّات الاستغاثة المتصاعدة من آلاف العوالم. ربّما لم يحصل شيء من هذا، وكلّ ما في الأمر أن الطّفل وجد أخيراً ضالّته.

ذات صباح يتحنّح الشيخ بوقار:

- والآن إلى الواحكم لتعلّم الحروف الأولى التي كُتبت بها كتاب الله.

من أين للطّفل - وهو راعم مُنكبّ على لوحه، يكاد يلامس وجهه خشبه- الوعي بأنّه وضع أولى خُطاه على طريق مجهول سيقوده إلى قمم الفكر البشري! كم كان بعيداً عن تصوّر حجم ذلك الجزء من العالم الذي دخله ذلك اليوم، وكم كان سيصاب بالإحباط لو قيل له إنّه سيقضي في استكشافه جُلّ زمن الرّحلة، وهو كمن يبحث عن بعض قطع اللؤلؤ المنضود في أعماق بحار لا تعرف لها بداية ونهاية؟

أهم متطلّبات استكشاف الفضاء الحسّي جسمٌ سليم، حواس نشيطة، ثيابٌ نقيّ من البرد والحرّ، وحذاء متين يُستحسن ألا يكون ضيقاً. أما عن استكشاف فضاء الأفكار فمن المستحسن أن يكون لك ذهن هو الآخر في حالة جيدة و أربعة أشياء توفرت كلها يومها للطّفل: قصبه مذنبية بطول الإصبع، صمغ أسود تغمس فيه، لوح من خشب بحجم كتاب كبير، وطين يمزج بالماء تُمحي به الكتابة وتعاد. إنّه حاسوب ذلك الزمان. يا للأدوات المتواضعة لغزو أفسح فضاءات عالم الأدميين!

يبدأ الطّفل كتابة الأشكال التي أمر بها الشيخ، أو قلّ رسمها. لا بدّ من التحكّم في تشجّج اليدين حتى لا تنطلق العصيّ الواقعة إلى الجزء الأعلى من اللوح. كم تبدو محبّبة لما فيها من سهولة الرسم!

ها هو يتمتّع برسم الأشكال الهندسية التي تصبح أصواتاً، فكلمات، فُجُملًا، فُصُورًا، فأفكارا تتراحم داخل عقل نهم يقظٍ يشهر قلم القصب وهو يقطر صمغا كسيف دامٍ في وجه عدوّ شرّس اسمه الجهل.

كم كان الطّفل بعيداً عن تصوّر الدور الذي ستلعبه في حياته هذه الحروف وهي منطوقة شعراً وغناءً وهي مكتوبة على الورق، يبني ويهدم بها إلى نهاية الرحلة كلّ تصوراته لذاته وللعالم!

يتعلم الطّفل المنبهر أن يضع النقطة تحت شكل تتلاقى فيه عصيّ قصيرة واقفة وأخرى راقدة فيولد حرف جديد بصوت مختلف. وهذا صوت آخر وحرف آخر بنقطة فوق الشّكل، ثم حرف جديد بنقطتين، ثم حرف مختلف بثلاث نقاط. ما أسهل الحروف وما أجملها! يرمي لوحه ليرقص طرباً. لقد تعلّم من سيّدي الشيخ، خمسة أحرفٍ دفعة واحدة. اكتسب أخيراً ترديدُ الجُمْل غير المفهومة معنًى، وكذلك حال ألم العصا. أليس الأمران ضريبة للحصول على معرفة الحروف التي تنقص “ما”، وأهمّ من ذلك، ثمن الحصول على الحروف التي تنقصه هو؟

الآن وقد فرغ الطّفل من تقحّص العصيّ والنقاط لا بدّ من وضع الدوائر تحت السّيّطرة. تداهمه أولى أفكار سيتواصل وصفها طوال رحلته من قبّل القريب والبعيد، تارة بالغبية وتارة بالاستغزازية. نعم، لماذا لا نستغني عن الفاء بدائرتة وعصيّه الراقدة على ظهرها ونقطته وكلّ هذا التّعقيد غير الضّروري الذي ستواجهه “ما”؟ أليس من الأسهل، للحصول على الفاء، وضع نقطة على الألف وعصيّه الواقعة خالية من كلّ تنقيط لا تنتظر هي الأخرى إلّا حقّها من النقاط؟ بعد هذا يمكن وضع نقطتين فنحصل على القاف، ثم ثلاثة نقاط لنحصل على الكاف، وهكذا إلى أن نستنفد بقية الحروف.

يبدأ أولى تجاربه ليزداد اقتناعاً بوجاهة الاختيار. لم يبق إلّا عرض اكتشافه على المؤدّب.

- سيّدي الشيخ! سيّدي الشيخ! لنضع فوق العصا الواقعة نقطة وهكذا نحصل على الفاء، هذا سيسهل كثيراً على “ما” حفظ الحروف!

- ما هذا الجنون؟ والله إنك أكثر هؤلاء الصبّية الحمقى حماقة.

- سيّدي الشيخ! سيّدي الشيخ!

- احرص يا كلب، لا وجود لحرف فوقه أربع نقاط.

عجيب، كيف فهم البدين قصدي؟ أم إنه رأى ما أرسم خلسة؟!

المهم أن الطّفل تحصّل في يوم واحد على عدد كبير من الحروف حتى وإن كان غير مقتنع بضرورة رسمها بذلك الشكل.

- “ما”، اليوم تعلّمتُ كلللك الحروف! إنّها أجمل من كلام الله.

- كم مرّة قلّت لك الّا...

- اللّيلة سأعلّمك فقط ثلاثة منها. اجلسي، أريد الانتباه والطاعة.

تجلس“ ما” فخورة، دامعة العينين وقد ازداد يقينها أن صديقها الملاك جدّي، موثوق به وليس كالملائكة الآخرين بعودهم الكثيرة وإنجازاتهم القليلة. يلتقط الطّفّل عُود حطب رقيق بلوّح به في وجهها، إذ كيف يكون معلّمًا ومُهابًا إن لم يكن بيده رمز المهابة والعلم؟ ثمّ يُبرز لوحه من وراء ظهره كمن يخرج مفاجأة المفاجآت وهدية الهدايا.

- انظري مليًا. هذا حرف، وهذا حرف آخر، وهذا حرف ثالث. هل لاحظت الفرق؟

- نعم.

- نعم، يا...؟

- نعم، يا سيّدي الشّيخ.

- انظري جيّدًا إلى هذا الحرف الذي هو عصًا واقفة، إنّه حرف الألف. والآن من بين هذه الحروف الثلاثة أين حرف الألف؟

- هو هذا، يا سيّدي الشّيخ.

- حسنٌ جدًّا. والآن الحرف الثاني. انظري مليًا ولا تنتبهي. إنّه عصًا قصيرة راقدة على ظهرها وفي بدايتها عصا قصيرة

منحنية قليلاً إلى الأمام. إنّه حرف الدال. قلّي معي: دال. والآن أين الألف وأين الدال؟

- هذا الألف وهذه الدال، يا سيّدي الشّيخ.

- والآن هذا حرف ينطق دال، وليس دال، لأنّ فوقه نقطة. فهمت الفرق؟

- نعم، يا سيّدي الشّيخ.

- والآن إذا وضعت نقطة فوق الألف، ماذا يكون نطق الحرف؟

- لا أعرف، يا سيّدي الشّيخ.

لا بدّ من التروّي فهذه التي ستنال العصا هي “ما”، وعلى كلّ حال هي غير مطالبة بمعرفة حروفه الخاصّة، علماً بأنّ الله

نفسه لا علم له بوجودها حيث أنّه لم يستعملها في كتابه الأصفر الرث، فلماذا يظلم من لا تظلمه أبداً؟

- حسنًا، لنراجع كلّ ما علّمك اليوم.

كانت الإجابة صحيحة في كل مرة. ليس على الطّفّل سوى الانتظار إلى الغد، علّ “ما” تنسى حرفاً أو حرفين وأنّك تستطيع

عقابها دون ظلمها، مع العلم أنّه لا ينوي الضرب العنيف، بل بلطف ولمجرّد التمتّع بسلطته الجديدة.

-ستواصل تعليمي بقيّة الحروف كما اتفقنا، أليس كذلك؟

ترفع الأمّ إصبعها في وجه طفلها وهو ما لا تفعله إلا نادراً.

- إيّاك أن تبوح لسيّدي الشّيخ أو لأحد آخر، حتى لو والدك، بسرّ يجب أن يبقى بيننا. أترضى أن يسخر الناس من أمّك وأن

يقولوا: مجنونة، تريد في هذه السنّ تعلّم القراءة؟!

- وفي المقابل أريد...

- كلّ ما تريد، كلّ ما تريد!

يننظم تهريب الحروف من الكتاب إلى البيت في جوّ من التكتّم على سرّ “ما”، والطّفّل مسكون بهاجس طبع بقيّة الرحلة. إنّه

لا يتعلّم لحسابه الخاصّ فحسب وإنما لحساب الآخر لأنه مثل “با” صاحب رسالة ومسؤولية.

*

ذات يوم تغتم “ما” لحظة هدوء لتُخبر الطفل بدخول الطريق في منعطف جديد.

- غدًا سيكون يوماً غرّاً في حياتك يا بنيّ. ستذهب إلى المدرسة العصرية. إنّها قريبة من محطة القطار ولن تتعب كثيراً في

الذهاب والإياب. سأعدّ لك محفظتك وفيها قلم جديد وكرّاسة وكتاب قراءة جميل.

- لن أذهب إلا إلى الكتاب.

- أنت الآن طفل كبير. بلغت السادسة، وعليك الذهاب إلى المدرسة العصرية.

- لكن هناك أطفال أكبر منّي في الكتاب!

- أبوك وأنا نريدك أن تذهب إلى المدرسة. ستري أنها أحسن بكثير من الكتاب.

أحسن من الكتاب! غير ممكن. ثم كيف يتخلّى عن لوحه وعن الماء والطين والسمع؟ كيف يتنازل عن متعة معاينة الشّيخ

والسخرية منه، خاصّة عندما يرتفع شخيره في حصّة الطهر؟ كلّاً، فالعاقل لا يبيع ما يعلم بما يجهل.

-لا، لا، أريد البقاء في الكتاب

- لن تذهب بعيداً بالزاد الذي يوفّره. جُلّ خرّيجيه ليسوا سوى رعاة قرية جدّتك.

تتواصل المفاوضات الصعبة، وحجر العثرة خوفٌ مبهم أن تكون عصا الشّيخ الجديد أطول من التي تعود عليها، أو أن تكون

الفلقة أكثر وجعا.

تستمع الأم إلى حجج الطفل الواحدة تلو الأخرى، تقلبها، تنظّمها، توضّحها ثمّ تفدّها، تخاطب في ابنها كأنها له عقل. يتسلّل إلى عقله أنّ العَرَض قد يكون في مصلحته حقًا، خاصّة أنّه من “ما” ثمّة أيضا أشياء جديرة بالتمحيص مثل تأكيدها على غياب الفلقة وإمكانية الجلوس على المقاعد بدل الحصير البالي، ناهيك عن الحقّ في حمل محفظة الجلد الأحمر التي جاء بها والده من بلاد المغرب وحافظت عليها “ما” بحرص شديد، لا تخرّجها إلّا نادرا، تسمح عنها الغبار وتقبّلها. تُواصل الأم عملية الإقناع غير منتبهة لمخاوف الطفل وإنّما لمخاوفها هي.

- سأذهب بضعة أيام، إذا أعجبتني سأواصل، وإلا...

هو سيواصل كما نواصل جميعا والظروف القاهرة هي التي تساعدنا على التغلب خوفنا من كل جديد ومجهول. همّ الطفل الأوحده الآن الفوز برضى المعلمة الجديدة... معركة أخرى بين أطفال شرسين رهانها هذه المرّة الظفر بحبّ “سيدتي”. كم سيرى هذا الطفل وكم سيمارس هو نفسه على مرّ السنين من استراتيجيات الإغراء، عندما يسقط القناع من استراتيجيات العنف والجشع، والهدف دوما امتلاك ذاتٍ أخرى! وكم سيكتشف عبث العملية وكلّ ذاتٍ غير قابلة للتّمك من ذاتٍ أخرى لا تملك ذاتها!

تصرخ المرأة المرهقة بالضجيج والمعارك الصامتة لا تخفي ما بها من تشنج ونفاذ صبر:
- انتبهوا، أطلب منكم قراءة الكلمات التي على الصفحة الأولى لكتابتكم ثمّ نقلها على الكراس، وأريد أن يتمّ ذلك بنظافة تامّة.
يصرخ الطفل المتهور:

- إنّها كلمات سهلة، أعرفها كلّها، فسيدّي الشّيخ علّمني كيف أقرأ.
تبتسم المعلمة ابتسامة صفراء.

- حسنا، اكتبها إذن وتذكّر أنّك تكتب على الورق وليس على اللّوح.
ثم ذات يوم تتوجّه المعلمة متجهّمة لطفلٍ مرتبك.

- أريد أن يأتي وليّك معك غدا. وبالمناسبة، من الآن فصاعدا عليك أن تجلس في آخر القسم.
تحذق الأم في طفلها كأنها تراه للمرّة الأولى. تمرّر يدها على شعره ببالغ اللّطف. يتّسع ربع ابتسامتها وفي عينيها ذلك البريق اللّامع الذي لطالما أحبّه الطفل.

- أريدك أن تعدني بعدم مضايقة “سيدتي”. إنّها غاضبة من كثرة أسئلتك وتشويشك الدائم في الفصل.
- حفظتُ كلللكللكل الكلمات التي في الكتاب، ولا أعرف ماذا أفعل طيلة الوقت وهي منشغلة بالتفسير لهؤلاء الأغياء.
- لا تقلّ أبدا عن أقرانك أغياء وإلا كرهوك وأدوك.

يلعب الطفل ريقه، لا يفهم تقريع أمّه له ولا امتعاض “سيدتي” منه وهي لا تبتسم إلّا للأطفال الآخرين.
ذات يوم يزداد الوضع سوءًا والمعلمة تطالب القسم بإنجاز التمرين الجديد.

- والآن انقلوا في كراساتكم الجُملة المكتوبة فوق السبّورة.
الجُملة! أين هي؟ من هذا المكان في آخر الفصل وظهّره إلى الحائط هو لا يرى إلّا أشكالا باهتة لا يستطيع التعرّف عليها. يغالب الطفل تردده، ثمّ يستجمع شجاعته وقد خرجت “سيدتي” لحظة فينهض من مكانه متوجّها إلى السبّورة. يضع أنفه فوق الكلمات المطالب بإعادة نسخها، لا يبالي بفهومة السخرية وبالطباشير المتطايرة. ثمّ يصلّي لإله مُبهم أن تحفظ ذاكرته الجُملة الطويلة وهو في غُدوّ وروح من السبّورة إلى مكانه، ومن مكانه إلى السبّورة، كأنه نملة تسعى بين الغار وفضاء الصيّد.

- ماذا تفعل؟ من سمح لك بمغادرة مكانك؟

- يا سيدتي، أريد نقل الجمل كما طلبت.

- لا تتحرّك مجددا دون إذن.

- لكن يا سيدتي...

- عدّ إلى مكانك وإلا شوّيت أصابعك بالمسطرة.

يدخل الطفل مجددا في قوقعته.

تصرخ “سيدتي” في قمة الهيجان.

- غافلتني لتنام، أليس كذلك؟ أنت مجنون أم غبيّ أم ماذا؟!...

- سيدتي!!

- كفي، أصمت ولا تتحرك!

ليذهب المكتوب على السبّورة إلى الجحيم. لنذهب سيدتي نفسها إليه. على كلّ حال لقد قرّر أن يطلّقها بالثلاث حتى قبل الزواج. سوء الفهم المزمن بين البشر، بالرغم من عدد كلمات الخطاب والتوضيح والتدارك التي توفرها لهم اللّغة.

لمثل هذه الوضعية التي يتخبط فيها طفلٌ تجاوزته الأحداث بعضُ الفوائد، منها تفرّغه لأحلامه ولا أحد ينغص عليه عزلةً موجهةً لذيدة.

يتزايد انغلاق الطفل على نفسه ويكثر الهمس حوله. إنَّها بداية تهمة الجنون التي ستلاحقه على مرّ العقود. تهزّ الأم طفلها من كتفيه، تجرّه إلى النور وهو مصرّ على الاختباء داخل الفضاء الوحيد الذي يقبل به ويستطيع العيش داخله.

نعم، دخول فضاء ما وراء الحواس هو الآخر محفوف بمصاعب واطّار لا تقل عن تلك التي تواجهنا في استكشافنا للفضاء الحسي... ربما لأنه كل ثمين ثمن... ربما لأن العالم يمتحننا ليتأكد من جدارتنا بكل ما يهب لا كلل ولا ملل.

تتوجّه إليه كل مرّة برفق فيه قلق دفين، تنتبهه لأخطار الفرار من "الواقع".

- كيف تقرأ كُتب والدك ومجلّاته في البيت وترفض حفظ دروس المعلمة، مستغرقاً في خريشة أشياء لا علاقة لها بالدرس؟ كيف سأخبره بأنك الأخير في القسم، كيف أقول له إنك تعود من المدرسة كل يوم وأنت دامٍ؟ يا إلهي، متى يعود، علّك تعود أنت إلى رشدك؟!

يرفض الطّف الاستماع إلى أمّه، وقد وجد داخل فكره وداخل الكتب التي تفيض بها الحقائق المرمية في مهملات البيت، ما يغنيه عن المعلمة وكل ما تقول. "تطاطي" ما "رأسها، تنكفي على حزن كأنه بئر بلا قاع، والطفل الغريب رافض لكل حديث فما بالك بمواصلة مدّها بما يتعلّم.

- يا بني، كنتُ أظنّ أنّني لا أتحمّل صخبك، والحال أنّ صمتك هو الذي لا يُطاق. تكلم، قل لي بماذا سأدافع عنك هذه المرّة لدى حضوري غدا عند مدير المدرسة؟!

ها هو على مفترق جديد للطريق وكذلك امرأة تموت خوفاً، تمسك بيدها المبلّلة عرقاً يد طفلٍ يتملص ضاماً يده الطليقة للصراع. مع من، ولماذا؟

اللّعة، ما الذي يبرّر أن تكون آلامنا بمثل هذه الحدة والعمق؟ ولماذا يجب أن ندفع كلّنا مثل هذا الثمن الباهظ لرحلة الحياة، خاصّة في هذا العمر؟ ربما فُتح هذا العالم للعموم قبل استكمال الاستعدادات الدّنيا لاستقبال الزوّار، وإلا فكيف نفسّر تعذيب الأطفال بالأم لا يعرفون لها سبباً أو معنًى؟

يتوجّه الرجل الفظّ إلى المرأة باحتقار لا يتكأف إخفاءه:

- طلبتُ حضور والده!

- أبوه... غائب يا سيّدي المدير.

- غائب أم فاز؟ أم في السجن؟ معادٍ للحكومة، أليس هذا المعروف عنه؟! بل ويقال إنّه إرهابيٌّ متطرّف خطير ومسلح.

- يا سيّدي...

- اسمعي يا امرأة. إنّ ابنك غير صالح للدراسة، فهو متخلّف ذهنياً. يضابق المعلمة ويعطلّ القسم. لا فائدة من أن يكرّر سنته. سمعتُ أنّ والده نازح من الأفاق أو من الصحراء تحديداً، الأحسن لكّ وله أن تأخذه ليرعى الجمال هناك.

- أقسم يا سيّدي، أنّه يقرأ طول الوقت كُتبا و.

- كفى! إنّه متخلّف ذهنياً، ولا فائدة من أن يضيّع وقته ووقتنا في المدرسة.

- أتوسّل إليك، امنحه فرصة أخرى وسأدعو لك ليلاً نهاراً، إنّه شبه يتيم يا سيّدي.

- حسناً، حسناً، لا فائدة من البكاء. يُقال إنّ لإخوتك زيتونا جيّداً ينتج أحسن الزيوت! ليُعيد سنته هذه، ولكن لا مجال لفرصة أخرى أبداً.

يبلع الطفل غصة بكائه ويتبع أمّا تغالب دموعاً بها الكثير من الحزن وبعض الفرح.

ثمّة في أقدم الملقّات صيغة أخرى لنفس الحادثة.

- طلبتُ حضور والده.

- أبوه... غائب، يا سيّدي.

المدير، بصوت خافت:

- بارك الله فيه وأمّثاله من الوطنيين. اسمعي يا سيّدي، هؤلاء الأغياب لم يلاحظوا أنّ ابنك لا يرى جيّداً. فقد انتبهتُ للأمر وأنا أراه في تفقّد مفاجئ للقسم ينتقل من مكانه إلى السبورة لينقل ما تطلبُ المعلمة كتابته. حقاً إنّه طفل غريب! لماذا لم يُقل من البداية إنّه لا يستطيع رؤية الحروف من مقعده؟ سامح الله الزميلة التي تركته يرسب. أما الآن فخذيه إلى طبيب عيون في العاصمة، سيعالجه وستتحسّن نتائجه حالما يلبس نظّارات.

يصرخ كهل، لم ينس الحادثة، في مساعديه الأطباء الشبان: لا أريد أن يرسب طفل واحد لقصر النظر. أولى أولويات القسم - هذه السنة- الكشف على عيون كل أطفال السنة الأولى في جميع مدارس المدينة.

ثمّ تهاجمه آلام اعتقد أنّ الزمان فعل بها ما تفعله الرّيح بالرّمال، لكنّ الذاكرة الماكرة أبّت إلا أن تحافظ عليها كنقش على الحجر. لماذا تُبقي بكلّ هذا الحرص على بعض الآلما، نرفض فراقها ونحن كمن يغلق راحته على الجمر؟ بتصفّح ملفّ الحادثة يستوقفني شعور غريب. أين الحدّ بين الذاكرة والخيال؟ حقاً، أتذكّر ممشى الألام وأنا في غُدوّ ورواح من السّبورة إلى الطاولة ومنها إلى السّبورة. لقد قالت لي يوماً “ما”، وكلها استغراب وفخر: هل تتصوّر؟ قالوا لي قبل أن نتقطّن لعينيك، إنك قد تكون متخلّفاً ذهنياً. هل كنتُ فعلاً مهتداً بالطرد، قاب قوسين أو أدنى من أن أصبح راعي أغنام عند الأخوال أو راعي إبل عند الأعمام؟ هل وقفت “ما” أمام مدير فظّ فاسد أهانها أم أمام مدير وطني كرمها، أنقذني وأنقذها؟ أتراني أقول الذاكرة ما ليس فيها لتكتسب قصتي رونقاً أكثر ومزيداً من التشويق؟ أليس من ثوابت السيناريوهات التي نحبّ أن يتعرّض البطل إلى أظلم وأقسى المحنّ، أن يشقّ طريقه في العالم متحدّياً التّنين والساحر والشّيطان، أن يكون قاب قوسين أو أدنى من الفشل الذريع، ثمّ تحصل المعجزة التي تمنحه النصر المبين؟

هل القصة التي أروها لنفسي مصنوعة -على الأقلّ في بعض مقاطعها- من خيال الذاكرة أم ذاكرة الخيال؟ لم لا، فالذاكرة ليست خزّانة تتراكم فيها ملفّات يجمدها الزمان ويمحوها النسيان. هي تنظيم مستمر، يصقل فيها الحاضر ملفّات الماضي، يُعيد تكوينها وترتيبها وإضفاء معاني جديدة عليها. لهذا ليس للذات تاريخ وإنّما تواريخ تتشكّل من تضارب الملفّات، وممّا أضيف إليها عمداً أو بلا وعي. من يصنّف سيرة ذاتية لشهير -كتبها بنفسه أو كتبها عنه- مُطالبٌ بالكفّ عن القراءة، لأنّه لا يفهم وظيفة الكتابة، وأنّها جُعلت للإبراز، قدر ما جُعلت، للإخفاء والتضليل.

وفي قصّتي -بما فيها من حقيقة وخيال- يمزج الأب في أصحابه وهو راجع لتوّه من معركة ما: - ابني أنا متخلّف ذهنياً، يوصى ببعثه إلى الصحراء ليرعى الجمال؟! ابني أنا يعامل هكذا؟! ابني أنا يُهمّل سنة لا يلتفت إليه أحد؟! -

- إنّه تعليم الاستعمار. ماذا تنتظر منه يا صاحبي؟
- الاستعمار أنتم، أنتم من استعمرتموني قبل المستعمرين. واللّه لو حكّموني يوماً في رقابكم لترحّمتم على عهد الخنازير أكلة الخنازير. تركتم ابني يرسب وأمه تُذلّ وثُهان ولم تدبّحوا هذا الكلب ابن الكلب! هذا الخائن لا عقاب له إلا الإعدام رمياً بالبصاق، وأنتم معه كذلك. هذا بلدٌ لم يعد فيه إلا عميل أو جبان. أنا أستقبل منكم، اذهبوا أنتم لتحرّروا المزرعة الكبرى فكلكم خونة بالأعمال أو بالنّيّات!

- يا رجل، اتقّ الله، هل الذي أنقذ مستقبل ابنك وحباه بعطفه خائن وعميل هو أيضاً؟
- بالتأكيد هو أجنبيّ مُتخفّ فضحتّه أخلاقٌ انقضت في هذا البلد منذ زمن الفتح. استروه يستركم الله حتى لا ينتبهوا لأمره ويسفّروه خارج الحدود. من المتخلّف ذهنياً؟ هو أم الفاسق الذي نصّبوه مديراً لأنّه كبير الخونة؟ ابني أنا متخلّف ذهنياً؟! اسألوه ما تريدون. قل لهؤلاء الجّهلة أين صمّد الزعيم في وجه الغزاة الملاعين؟
- في الفالوجة.

- نعم في الفالوجة، أصابكم بالفالج ربّ النصارى واليهود والمسلمين وكل ما يوجد في العالم من أرباب. ماذا قال أبوك لقائد الثورة العظيمة لما ذهب مهتئناً ومسانداً؟

- قلت له: جنّناك من المقهورة إلى القاهرة طلباً لسلاح تقهر به أعداءنا وأعداءكم.
- أسمعتم؟! والآن علّم هؤلاء الجّهلة اسم العبد الثائر هذه الأيام في وجه الإمبراطورية العاهرة العجوز.
- جومو كينياتا.
- واسم كمشة الهمج الذين يقودهم؟
- الماو ماو.

- أرايتم؟ إنّ هذا الطفل كاد يوماً يُفلسني بطلباته من الكتب. أتعرفون أنّي وجدته البارحة مستغرقاً في الضحك وبين يديه “البخلاء”. متخلّف ذهنياً يقرأ الجاحظ في السابعة من العمر! إنّه يلتهم كل ما في مكتبتي ويقرأ حتى التي لا يقدر على فهمها. ابني أنا يرعى الإبل؟ ابني أنا، يفعلون به ما فعلوا!!!! إلخ... إلخ...

ثمّ يلتفت إليّ. يا رجل رحماك، أنظر في الاتجاه المعاكس، واصل معهم، إنس وجودي. هيهات، يجب أن أدفع مع البقيّة:
- وهذا المغفل الذي بقي صامتا عوض أن...

يصرخ رفاق الطريق في رفيق عزيز تجاوز كل الحدود،
- اهدأ يا رجل واترك هذا الولد وشأنه. ألا ترى أنّه يغالب دموعه؟

- ابني أنا بيكي! ثم ماذا أيضا؟! تعتقدون أنه من طينة أطفالكم! ربيته على الشدة حتى لا يشبهكم يوما، يا من إذا حكّمكم كلب مدحتم الكلاب وإذا حكمكم بغل تغتيم بفضل البغال على الكلاب! سبحان من حرّم عليكم التبن والعلف! سبحان من جعلني واحداً منكم! إلخ... إلخ...

المهم أنه من يوم وضعت على عيني الطفل نظارات أصبح كأرنب تُفرض عليه مسأيرة السلاحف. يصرخ المعلم الجديد في تلامذة آخر سنة للتعليم الابتدائي: اكتبوا موضوع الإنشاء! جاءتك فرصة للقيام برحلة يوم الجمعة، صِف ما فعلت وما شاهدت ذلك اليوم.

ينكبُّ الطفل المتهوّر بحماس على الورقة البيضاء يملأها سطورا وبقع حبر.

وفي أول نصوصه يفيق الكاتب الصغير على همس الشمس قائلة: أما زلت نائما؟! انهض أيها الغبيّ ثمة يوم أغرّ أمامك، فأمرها ألا تُفُرق في الحرّ لأنه على سفر. ثم خرجت السيّارة السوداء من المبهم الذي يعجّ بكل الإمكانيات ليجلس المغامر الصنديد خلف مقودها، الأمّ في قمة الإعجاب والأب في قمة العجب. فسارت السيّارة على الأرض إلى أن واجهها الأفق فهزّ الطفل كتفيه مواصلا ومتجاوزا كل أفق إلى أن ارتطم ببحر يسدّ عليه الطريق، فقال للبحر: لا أريد مشاكل معك يا بحر فأنا ذاهب بسيّارتي وبوالديّ لزيارة الجدّ في صحرائنا الغالية فتنتجّ عن طريقي. فقال له البحر: ولماذا تريد العبور فوق أمواجي وترعجني؟ فقال له الطفل: يا بحر أنذرتك وكفى هزلا. فخاف البحر وأفسح له الطريق. ثم تسلّقت السيارة كبد السماء تمشي فوق السحاب، الشمس على يمينها والقمر على يسارها وفوقها الله يبسط حمايته عليه وعلى الجميع. عند الأصيل، وقد خضبت دماء الشمس هامات النخيل توقفت السيارة قرب فراش الجدّ فنزلت العائلة منها سالمة وكان الجدّ المحبوب مريضا، والمرضى يجب أن يكونوا دوما في فراشهم يتأوّهون ويصرخون ويطلبون من أمهم أن تأتيهم بما يشتهون من المرطبات، إلا أنه لم يكن للجدّ أمّ لأنّها سافرت إلى بلاد بعيدة وتركته وحده، لذلك جاءته "ما" بالحلوى فقال لها شكرا يا ابنتي، مع العلم أنّها ليست ابنته وإنما ابنة أبيها، جدّي الآخر صاحب البرنس الأبيض الذي توفي وأنا صغير. ثم قال الشيخ المريض: أه، إنني مريض جدا، فقال له الطفل: ولماذا أنت مريض يا جدّي؟ فقال له الأب: اسكت يا مغفل، ألا ترى أنّك تضايق جدّك؟ فقالت الأمّ: أطال الله عمرك يا عمّي، إن شاء الله يكبر هذا الصبيّ ويصبح طبيبا يعالجك من كل سوء، فباركه وادع له. فقبل الجدّ الطفل ودعا له وللجميع وهو مسموع الدعاء من الله. فقال له الطفل وهو يقفز حول السرير، جدّي! جدّي! جدّي! سأصبح أككككبير طبيب وسأتيك بكلللال الأوية التي تحبّ وستروي لي كلللال قصص الجازية وأبي زيد الهلالي وعنتره وعلي بابا وسندباد، فضحك الجدّ وبكى. وبعد أكل المرطبات وشرب المشروبات قبل الجميع يده وقالوا له: لا بدّ من الرجوع إلى بيتنا فدعا لهم بالسلامة، وبكت الأمّ لأنّ النساء يبكين دوما عند الوداع، لكنّ الطفل الذي أصبح رجلا بتجاوزة السابعة من عمره لم يبك رغم أنّه كاد يفعلها لشدة حبه لجدّه. فهو يحبه كحبه للحلوى أو ربما أكثر ولا يريد له أن يموت أبدا، أبدا، أبدا.

يختم الطفل إنشائه بالجملة الشهيرة التي ختم بها أجيال من الكتّاب الناشئين أول نصوصهم: ورجعت إلى البيت فرحا مسرورا. يضع الطفل قلمه لاهنا ماسحا عرقه وكأنه خارج لئوّه من معركة استنزفت كلّ قواه. هو بالفعل خارج من معركة سنتواصل طوال حياته والرهان فيها هو التحكّم في الجمل تركيبا وترابطا وتسلسلا وتشذيبا.

إنها المرحلة التي يكتشف فيها الأدمي ما تختزنه الحروف والكلمات من إمكانيات هائلة وكيف أنها تحرر فيه طاقات ستغير يوما مجرى حياته كما حررت من قبله طاقات غيرت مسار الأدمية جمعا.

يلوّح المعلم بإنشاء الطفل ساخرا ومهددا.

- طلبت منك أربعة أسطر وليس أربع صفحات. ما هذه القصّة التي تتحدث عن سيّارة تتسلّق السماء؟ هل رأيت يوما سيّارة تمشي فوق السحاب والموج؟ ومتى أصبحت الشمس تأتمر بأوامر سيادتك؟ كيف تتكلم عن الله بهذه الطريقة؟ ألا تعلم أنّه كُفّر مُبين؟! لا تغد إلى مثل هذا الكلام أبدا.

يتنهد بصوت مسموع قائلا: هؤلاء البدو! كلهم شعراء بالسليقة منذ نعومة أظافرهم.

يكظم الطفل غيظه واعد نفسه أنه سيكتب يوما إنشَاء أطول من الذي رفضه هذا الغبي. سيقول فيه كل ما يريد وبالكيفية التي يريد، فلا المعلم ولا حتى أعداء "با" قادرون الآن على تفكيك الحروف وهي داخل ذهنه. إنها ملك نهائي غير قابل للاسترجاع. ما من شك أنّ هذا النص مواصلة الفرض الأول، فالتلميذ الذي كبر كثيرا وبقي نفس الطفل، هو الذي اختار بكل حرّية موضوع إنشائه الأطول: أفقت في عالم الأدميين، صِف كلّ ما شاهدت وفعلت، وما رأيك في هذا السيرك العظيم؟

قد يكون انتقاما متأخرا من معلم ضيق الأفق أعطاني صفرا وأضحك عليّ كل أقراني. الأمل أن يحصل النصّ هذه المرة على علامة مشرفة ويا ليت أن تكون أحسن من علامات كل المنافسين.

*

ومن ملفات المرحلة اكتشاف الطفل أن لدخول فضاء الأفكار أكثر من مدخل.
يومها شرع المعلم في الخطّ على السبّورة أشكالاً غير معهودة للحروف والكلمات.
- انظروا جيّداً لهذه الحروف. إنها اللّغة الأجنبية التي يجب عليكم تعلّمها ابتداءً من هذه السنة.
يفهم الطفل أنها حروف لغة الأعداء، الذين يضعون "با" في السجن كلّما أمسكوا به ويجبرونه على الاختفاء باقي الوقت.
كيف يقبل بتعلّمها؟ ألن يكون هو أيضاً واحداً من الخونة الذين يتوّعدهم، "بال" بالويل والثبور؟ مبدئياً، هو ليس ضدّ تعلّم أي شيء جديد، على العكس، لكن تعلّم لغة المستعمر شيء يرفضه عقله وإن كان لا يفهم بالضبط ما الاستعمار.
يضع المجاهد الصغير القلم جانبا ليبدأ أول عصيان مدني في حياة ستكون حافلة بأكثر من تمرّد عقيم.
يفغر المعلم فمه وهو يسمع تلميذاً يهمهم أنه لا يريد تعلّم اللّغة الثانية ولن يكتب هذه الحروف.
يكشف الطفل أنّ المسطرة على الأنامل لا تَقَلّ أذى عن فلقة سيّدي الشيخ.
ما أسخف هذا الطفل وكم من صفعات مُحكمة كان يستحق!

الأدلاء يُقدّمون لهذا الجحش على طبق من فضّة كلالل حروف لغته الأمّ فيزجج من أهداه أعلى وأثمن الهدايا.
يُقدّمون له الآن على طبق من ذهب كلالل حروف لغة جديدة -مفتاحاً جديداً وكزراً إضافياً- فيتأفف ويُعلن العصيان.
هو لن يُقدّر كم كان محظوظاً إلا بعد عقود، يوم اكتشف قصة طفل عاش في عصرٍ غير عصره، وبلدٍ غير بلده عرف باكراً
مثله فسوة الحياة.

بدأت مصائب ذلك الطفل بضربة سيفٍ لجنديّ غازٍ مخمور، شجّت رأسه وهو في العاشرة. ومع هذا بقي حيّاً خلافاً لأبيه الذي
قضى نحبه أمام عينيه. عقدة القصة أنّ والده كان يدفع أجراً لمعلم بصدد تعليمه الأبجدية، وهذا المعلم -الذي لم يكن مستعداً
للعمل مجاناً- ترك تلميذه وهو لم يتعلّم إلا ثلث الحروف. كان بداخل اليتيم إحساس أنّه إن بقي بثلاث الأبجدية، فسيكون كمن
يُحكم عليه بالنظر إلى العالم بقية حياته بثلاث عين لا ترى إلا ثلاث الألوان.

جُنّ جنون الطفل همه الأوحده أن يعرف ماذا يوجد بعد حرف z. ها هو متشبث بجلباب القسّ: من فضلك يا أبته-ماذا بعد
حرف z؟ فيركله الأب صارخاً: ألا ترى أنني مشغول؟ يتوجه إلى عشيقه القسّ: من فضلك يا سيدتي-ماذا يوجد بعد حرف
z؟ فتركه صارخة: ألا ترى أنني مشغولة؟ يتوجه إلى من يعرف ومن لا يعرف: من فضلك ماذا يوجد بعد حرف z؟ فيصفعه
هذا وذاك صارخاً: ألا ترى أنني مشغول؟ يجد أخيراً من يستمع إليه، يمسح على شعره مشفقاً: يا بنيّ، اسأل القسّ، هو وحده
الذي يعرف القراءة والكتابة في هذه القرية الملعونة.

لا تحكي القصة كيف وضع الطفل يده أخيراً على أصحاب الفخامة z، k، l، والجلالة m، n، o، والقداسة p، q، r، s، والسموّ
t، u، v، وأصحاب العظمة w، x، y، z.

المهم أنه تحصّل عليها كلها، الشيء الذي مكّنه من فك رموز الكتب وفهم أصعب الأمور... وحده.
إنه نيكولو تارتاغليا، أحد عمالقة الرياضيات، الجسر الرئيسي بين الخوارزمي وكاردان وفرّاري وباسكال، ومؤسس فرع
العلوم الذي سيسمح يوماً برسم مسار الصواريخ.

يواصل الطفل الغبيّ عناداً لو توقّف عنده لانعطف به الطريق باكراً نحو مستنقعات شاسعة من الجهل والشعوذة والغرور.
المهمّ أن المناضل الصغير وجد مخرجاً من الورطة الجديدة مكّنه من الخروج بصفة مشرّفة من صراع غير مُجدٍ وميزان
القوى ليس لصالحه، خاصة وهو في ذلك العمر.

ألم يَعد الملاك "ما" أنّ طفلها سيكون بارعاً باللّغتين؟ أليست هي التي أصرّت على ذلك؟ ربما دفعت الثمن مسبقاً، وكانت
كتمية الكعك ثمن البراعة في لغتين كاملتين. هل يمكن أن يقبل بأن يخدع الملاك "ما" فيأخذ منها ضعف ما يتطلّبه عمله؟ ربما
تتّهمه بالغشّ والتحايل، وحتى -لم لا- تطالبه باسترجاع نصف ما أعطته فيحتج بنزاهته ويشهد المعلم ضده.

كم من قرارات هامة نأخذها في كلّ المجالات وفي أعلى المستويات بمثل هذه الحجج وهذا المنطق؟
لا شك أنّ الملاك تنبّه سريعاً إلى ضرورة تدخّل حاسم وسريع. خيراً فُعل، لا لأنه حافظ على الكعك ومصداقيته عند "ما"
فحسب، إنّما لأنه فتح أمام الطفل أبواباً جديدة على مصراعيها لن يقدر -إلا وقد كبر- خطورة بقائها مغلقة.

يبقى أن التحكم في الحروف الجديدة لم يكن بالأمر السهل ناهيك عن كونه كان بالجبر لا اختياراً.
اللغة! لماذا يكتب الكفّار من اليسار إلى اليمين؟ حدّث ولا تسل عن بخلهم بالنقاط لحروفهم. ما أغياهم! هم يرسمون شكلاً لكل
حرف من فرط جهلهم بالخفة والسرعة التي تسمح بها النقاط، تلك السرعة التي كانت لتزداد لو سمعني سيّدي الشيخ.

لا بدّ في هذه اللّغة اللعينة من ثلاث عصيّ، تتلاقى اثنتان منها عند الرأس وتنبطح عصاً ثالثة على مستوى الخصر لرسم ذلك
الحرف الذي لا يتطلّب في اللّغة الأمّ إلا عصاً واحدة منتصبه مكتفية بذاتها.

يتزايد انزعاج الطفل والحروف الركيكة تفرض أن يكون لها شكل فخم وآخر متواضع. ففي الصيغة الفخمة الحرف الأول منتفخ كالتاوس بعصية الثلاث بالغة الطول والتعالي، وفي صيغته الهزيلة هو مجرد نصف دائرة هزيلة بذيل قصير كذيل فأر قضمته أنياب القط.

لا داعي لإضاعة الوقت في تعلم لغة غيبية كهذه، يكفي افتعال الاهتمام حتى لا يُفْرطوا في الضرب والنفي إلى الركن. يتحرك الطريق في الاتجاه الذي لم يكن "مكتوبا" يوما في أي سجل. تدفع الأقدار إلى ساحة القصة بدليل جديد سيلعب فيها دورا محوريا وهو الذي سيسهل للطفل كل صعوبة بل ويحببه في اللغة الجديدة.

كان "مسيو فيدال" مدير المدرسة صغير الرأس، يخفي صلغته تحت قبة على شكل فطيرة سوداء اسمها "بيري". كان بشوشا على الدوام، يبتسم بلطف للخطأ، يصلح النطق المتعثر، يقوم اعوجاج أشباه الجمل. كان حقا المعلم الجدير بلقب المؤدب، يرد على السؤال المحرج تلو السؤال الغريب، تلو السؤال السقيم، تلو السؤال السريالي، وغالبا عن مواضيع لا علاقة لها بالدرس. بل كان يشجع على السؤال، لا يمل، لا يسخر ولا يزرع أبدا.

يصبح تعلم اللغة الجديدة وما تزخر به من كلمات غريبة لعبة ممتعة، والطفل غير واع أن كل كلمة يحفظ بأي من اللغتين هي بمثابة لبنة جديدة تُضاف للمستوى أو البعد الرمزي لعالم متعدد الأبعاد لا توجد كما هو ولا تطوره كما سيكون إلا اللغة. يغتنم الطفل الفرصة للتخلص من بعض الهواجس المتراكمة بما يملك من كلمات صعبة النطق.

- سيدي! سيدي! سيدي! هل هناك قرآن بلغتكم؟

يبتسم المعلم برفق ثم يهز كتفيه:

- انتظر قليلا، ثمة مشاكل لكل عمر. أنت ولد فضولي وأنا أحب الأطفال أمثالك. ما رأيك في قراءة هذه القصة المصورة؟ مؤكدا أنك ستحبها.

يوصل الدليل الماهر فتح الطريق في الفضاء الجديد لزبونه الصغير.

- هذه المرة، القصة بلا صور، قل لي عندما تكملها، ماذا أحببت فيها؟

تتشكل في ذهن الطفل صور مشوشة لبلاد توجد وراء البحر، خضراء على مرّ الفصول، منازلها مبنية من الخشب، أسطحها حمراء وشكلها كحذبة الجمل، ينطلق منها أنبوب مستطيل يخرج منه الدخان. وفي فصل الشتاء، ينزل من السماء مطر ليس كالمطر لأنه أبيض و متماسك كالقطن يفرح بقدمه الأطفال. داخل البيوت يوجد مكان اسمه المدفأة، فيه توقد النار ويلتفت حوله الكبار والصغار، تحكي لهم جدّة كجدتي قصة جميلة عن رجل طويل بدين، له لحية بيضاء وتوب أحمر وعلى رأسه الأشيب طاقية بنفس اللون. هو يأتي مرة واحدة في السنة عندما يشتدّ البرد ويُعطى قطن السماء الجبال والبراري، ممتطيا عربة تجرها حيوانات رشيقة كالغزلان محملة بالهدايا. ينزلق الجني الطيب داخل المدفأة محملا بخيراته، ليكتشف أن الأطفال انتظروه طول الليل، لكن النوم أثقل جفونهم ثم أغلقها، فحملتهم الجدّة واحدا واحدا إلى فراشهم لا تعباً باحتجاج ضعيف، مُحكمة الغطاء فوقهم وطابعة قبلة خفيفة على الجبين كما تفعل كل الجدات.

متى قلت لـ "ح" بلهجة التحدي: كل أدبكم كلام فارغ ما عدا قصة بابا نويل. كان ردّها متوقّعا، بل يمكن القول إنني قرأته في ذهنها وهو يتشكّل: كل أدبكم كلام فارغ ما عدا قصة شهرزاد.

كم من مرة كان الطفل ينقض على دليل جاد به القدر ليفتح له طريقا جديدا.

- سيدي! سيدي! هناك كلمات كثيرة لا أفهمها وجنتك بقانمتها. سيدي، سيدي، سيدي، سيدي!! كم هناك من كلمات في لغتكم وهل سأحفظها كلها؟

يتنحرج الرجل الذي ستقيم له المدينة الصغيرة بعد أشهر قليلة أضخم جنازة عرفتها، ضاربة بعرض الحائط أنه من قوم الأعداء... ثم يعطي الرد الذي سيذهل له الطفل:

- لا أعرف يا بني كم في لغتنا من كلمات... لكنك ستتعلم الكثير منها إذ يبدو لي أنك ستكون من فئران المكتبات.

كم كان حدس الرجل صائبا، اللهم إلا إذا كان الأمر غير مرتبط بحدس وتوسم خير، وإنما بالطريقة الملتوية الناجعة التي اعتمدها "ما" وهي تروي حلمها عن الملاك لتمرير مشاريعها بالإيحاء بدل الصراخ بالأمر.

**

أو كيف أن العالم مصنوع أيضا من حاسة سادسة اسمها اللغة

في ملف محفوظ بعناية داخل أعرق طبقات الذاكرة تصرخ تفاحة بسؤال جديد، ورثت من أبيها القدرة على إلقاء أغرب الأسئلة:

- "با"، كم هناك من الكلمات لأتعلّمها كللّللّها؟
- يحدّق الطفل الذي أصبح أبا في ابنته بدهشة، تدافعت من ذاكرته كل الأسئلة الغربية التي كان يطرحها على مسيو فيدال ومنها هذا السؤال العالق بلا إجابة منذ أكثر من ثلاثة عقود.
- الإفلات بحيلة أو بأخرى... أم الثبات والمواجهة؟
- سؤال وجيه، يا تفاحة، يستدعي أن تتكاتف جهودنا للإجابة عنه. اكتب كل ما تعرفين من الكلمات وسأكتب كل ما أعرف من كلمات وسنرى هل سنحصل على كللّللّ الكلمات الموجودة.

عملية مستحيلة طبعاً لأننا لا نعرف من كلمات اللغة الأم إلا جزءاً ضئيلاً فما بالك أن نعرف كل الكلمات التي تؤشر على ما في العالم من محتويات ومكونات.... لو كان الأمر ممكناً لما كان بين أيدينا إلا الوصفة التي صنعت العالم لا أكثر من هذا ولا أقلّ.

- تكتشفنا تفيحة منمكين في ملء صفحات كراسة بدأت تفيض. تحتجّ باكية لا تدري إلى من ستوجّه بالتفريع.
- "با"، تفاحة شريرة تأخذ دوماً أقلامي الملونة، أنت تحاييها دوماً لأنها الأكبر وتلعب معها أكثر مني.
- وهذه البنت الكبرى التي لا تحرك ساكناً، هي التي تتهمني دوماً بأنني أحابي تفيحة لأنها الأصغر.
- تفيحة، كنا نكتب هذه الكلمات لك خصيصاً. هيأ أرنى براعتك في قراءتها وقد بدأت تحسنين فكّ الرموز.
- تصرخ تفاحة:

- لا أريدها أن تقرأ كلماتي، لتقرأ كلماتك أنت فقط.
- طيب، كل منّا يكتب قائمته وسنرى من الأطول.
- تمسح تفيحة دموعها وتبتسم للعبة الجديدة، تعلم أنها ستفوز بعلمات الإعجاب والحب... على الأقلّ من طرف "با".
- تريني تفاحة قائمتها: بابا، ماما، لعب، جري، هرولة، كتاب، ضحك، دمية، عصا، رسم، أكل، نوم، خوف، حلوى، شكولاتة، ماء، طفلة، شريرة، أخت، كذابة، قط، حديقة، شجرة.
- الدور عليّ لأظهر ما كتبت.
- تصرخ البنتان: القائمة، القائمة!

- رفض مطلق وكل ما توارد على خاطر وتدفق من الوعي واللاوعي كلمات لا سحر فيها لطفلتين في هذا العمر:
- انبطاح، جبن، خيانة، غدر، بوليس سري، كذب، نفاق، ذبح، هجوم، بناء، تدمير، اختلاق، تأوّه، انتظار، بكاء، سخريّة، تجنّد، تبدّل، تحجّر، تكلس، تطاول، تراجع، تقدّم، حبّ، بغض، انتقام، نحر، انتحار، عبادة، عبودية، استعباد، عبيد، كفر، صلاة، يأس، جنون، سعادة، مرض، فشل، موت، استبداد، ظلم، تعذيب، مخابرات، فساد، حماقة، غباء، هدر، ضياع، سلوى، سراب، وهم، خديعة، عبث، غريزة، وحشية....
- تصرخ تفاحة وهي تنظر للورقة من فوق كتفي:
- قرأت ما تكتب... كلماتك قبيحة لا أحبها، لنحتفظ فقط بالكلمات الجميلة وكلها في قائمتي.
- الاحتفاظ فقط بالكلمات الجميلة... فسخ التي لا تروقنا؟ إعدامها؟ لعلّ وعسى ترحل ويرحل معها ما تشير إليه؟ فكرة أكثر من رائعة!

- بربك أي كلمات كنت تلغي من القاموس لو قيل لك إن ذلك يعني ألياً إلغاء ما تشير إليه من الوجود؟
- اتركني أطبق منهجية تفيحة، أفشّ غيظي وأفسخ من القاموس كل الكلمات التي أبغض: سجون، جواسيس، محاكم استثنائية، قانون طوارئ، فقر، تلوث، حرب، قائد، إمبريالية، عنصرية، عبودية، تعصّب، بورصة، ليبرالية، شيوعية، وطنية، قومية، خوف، جبن، انتهازية، انتقام، أيديولوجيا، تعذيب.
- بربك، أليست هذه أفضل وأسهل طريقة لتنظيف العالم عوضاً من برامج سياسية كاذبة، ودينية مخادعة، أثبت التاريخ عقمها بل وأنها تزيد الطين بلّة.

تقول ماذا كنا سنُبقِي من الكلمات لتكون اللبنة الوحيدة لعالمنا؟

القائمة الأولى: طبيعة، جمال، صحة، موسيقى، حبّ، فن، كسل، تعاضد...

تعال اسكن عالماً لا توجد فيه إلا هذه الكلمات وأخواتها اختفت كلّ الكلمات البشعة لغياب كل الذي تسمي.

رجاء لا تدع السرّ لأتمنّع وحدي وإياك بإعادة صياغة واقعنا المقيت.

السؤال: لماذا يرفض لنا العالم هذه الطريقة غير المكلفة في تنظيفه، هو الذي يشتكي هذه الأيام من كل الآفات التي خلصته منها بجزرة قلم؟ ربّما لعلمه بتباين الرؤى بين الأدميين وخوفه من أن يفوضوا صرحه لو أطلقوا على خزينة الكلمات وكلّ له حساب مع كلمات الآخر وأحيانا مع كلماته هو.

قد يكون هناك سبب أعمق، فالكلمات كصرح الورق الذي تستند فيه كل ورقة على أخرى. لا تستطيع أن تسحب ورقة من هنا وهناك إلا وانهار الصرح بأكمله.

لكي يكون الأمر ممكناً يجب أن يكون من يسمون أنفسهم الواقعيون أو الموضوعيون على خطأ. هم على قناعة مطلقة أن ما يسمونه الواقع -وما نسميه العالم- موجود بصفة مستقلة عن اللغة والدليل على ذلك أنه موجود للبكم والصمّ ناهيك عن كونه موجود قبل ظهور الأدميين المتكلمين كل اللغات ولن يفرض بانقراضهم.

فالكلمات بالنسبة لهم كأوراق النقد أي مجرد علامات رمزية اتفقنا على معناها ووظيفتها لكن لو حرقناها لما تبخّر الذهب الذي يغطي قيمتها والراقد في مخازن البنوك المركزية.

لنفترض أن هناك شيئاً ما فوق وخارج إدراك الحواس السّت كما يصرّ على ذلك الواقعيون. ما لا ينتبهون له هو أن وجود هذا الشيء بالنسبة لنا مرتبط بتسميته سواء سميناه الواقع أو العالم أو المبهم الأصلي... وإلا فهو والعدم سيان.

على العكس من رؤى الموضوعيين، يفترض تصورنا أن العالم لا يبتثق في الوعي ولا يصبح موجوداً إلا عبر الاسم لأن العين لا ترى إلا ما تسمي ولا تسمي إلا ما ترى. ينظر البدوي إلى الصحاري البيض فلا تسعفه لغته إلا بكلمة واحدة في أحسن الأحوال وهو لا يرى أمامه إلا شيئاً واحداً على حالة يتيمة: الجليد. يضحك مرافقي ابن هذه الفيافي: لنا أكثر من ثمانين كلمة للتعبير عن مختلف أنواع الجليد والتلج. أعابته بدوري: يوم تزور صحاريّ الصفر ستقول لي كم ترى من أصناف النخل والتمر والإبل. وسأفاجئك بالعدد الهائل للأصناف التي لم ترها.

أنظر من علوّ الجبل إلى صفحة الماء الخضراء تحت قدمي وسط غابة استوائية مترامية الأطراف، فلا أرى إلا بحيرة جبلية أعبت برميتها بحصاة حتى أرى تكوّن الدوائر المتباعدة التي طالما أبهرتني طفلاً. لكن رجل "المايا" يرى في هذا المكان باب "الشيبالا" أو العالم التحتي الذي تسكنه الآلهة. من هذا العلوّ كان أجداده لا يرمون صفحة الماء إلا بالأطفال والعذارى قربانا للآلهة. هذا الرجل يرى العالم، أو على وجه التحديد يفهمه ويفسره في أهم علاقاته معه، بغير الطريقة التي أنفاعل فيها معه لأن شبكته من الكلمات التي تسمي وتصف وتشير إلى الأشياء غير التي أمك.

اللغة هي إذن/ طاقة-قدرة-وظيفة-أداة/ للذهن شأنها في هذا شأن الحواس الخمس الأساسية لكنها ليست مسجلة ترجع الصدى الذي تعكسه هذه الحواس. فشبكية العين نحن نبصر نفس الشمس لا يختلف اثنان من ثقافات متباينة وفي كل العصور في كونها مستديرة الشكل براقعة بالنور في عزّ الظهيرة تسبح في عنان السماء نهاراً وتختفي منها ليلاً.

لكننا نرى عبر "شبكة" اللغة أشياء جدّ متباينة. كانت شمس آدمي اسمه "أخاتون" إله يُتوجه له بالعبادة ونفس الشمس اليوم جرم سماوي أشبه بقنبلة هيدروجينية بطينة الانفجار بالنسبة إلى آدمي آخر اسمه "اينشتاين".

نحن هنا في مستوى التصورات للصورة كما رصدتها حاسة البصر.

التصورات؟ هي طريقة فهمنا للصورة التي نقلتها لنا الحواس الخمس عن الشيء أو الكائن الذي نلاحظ. هي تنظيم معيّن لمعلوماتنا عنه وأغلبها مستقاة إما من تجربتنا المباشرة أو من الثقافة أي من نسج الكلمات التي نتحرك داخلها. هي ما نعتقد في لحظة ما بخصوص ما نرى وما نسمع وما نشعر به وما نعيش من أحداث. مما يعني أنك لو عشت داخل عالم الأوائل أي داخل لغتهم أي داخل تصوراتهم، لكنك تسمع -خاصة ليلاً- حفيف أجنحة الجنّ والعرابيت وأرواح الأجداد الغاضبين من نسيانهم وبخل الخلف الطالح بالقرابين والصلوات، ولا أتحدّث عن العبيثة... واليوم أنت لا تسمع إلا طنين البعوض ولا يقلقك إلا ما يتسبب فيه من ازعاج ولسع.

هذه التصورات هي ما نكره تغييره حيث ثمة ضرورة قاهرة لنصدّق تصوراتنا كما نصدّق الصور التي تنطبع على شبكية العين، وإلا استحال القرار أو تغير طول الوقت بصفة تزيد من أخطار الطريق. لا غرابة فيما نظهره من شراسة للدفاع عنها وهي زادنا في مواجهة عالم بالغ الحراك والتعقيد.

المهمّ أيضاً أنها منبع أفعالنا وكلها مرتبطة بها حتى وإن كانت كل تصوراتنا لا تتحول ضرورة إلى أفعال. هي منطلق الأفكار النظرية أحيانا البالغة التجريد في محاولة فهم واستعمال هذا الذي نتعامل معه بكل ما لدينا من أدوات التواصل مع العالم.

بدأت تتضح معالم ما نسميه العالم ويسمونه الواقع: هو يتشكل في أول دائرة بالصور التي ترسم في الذهن الواعي سواء كانت انطباعات الرؤية أو السمع أو الذوق أو اللمس أو الشَّمّ بالتعريف الذي تفرضه الحاسة السادسة وهي تسمي وتصنف وتتنظم معطيات الحواس الخمس الأولى... ثم يتوسع الوعي والذهن يحدّد المكانة والوظيفة والمعنى للمسميات المتصاعدة عدداً تعقيداً أي وهو يبني ما أسميناها التصورات... على أساس هذه الأخيرة يمكن له أن يفتح الدائرة الثالثة التي سيتفحص فيها تصوراتها عن العالم نقضاً وإبراماً، مراجعة وتأكيذاً، رمياً في سلة المهملات وخلقاً جديداً... واللغة هي دوماً أداة نقل الصور إلى تصورات والتصورات إلى أفكار.

اللغة إذن أداة خلق حيث تضيف إلى الكائنات الحسية التي ترصدها بالاسم كائنات فكرية مثل الكرامة والعدالة والتقدم والمدينة الفاضلة والنسبية العامة والماضي والحاضر والمستقبل والزمان والخلود وكلها غير موجودة في المطلق أو في تجربة الحيوان والشجر.

إذا كانت اللغة الحاسة السادسة فلا بدّ من إقحام معطى جديد في محاولة فهم طبيعة العالم الذي نخلق ونخلق: دقة الحاسة ومداهها. بما أنه ثمة قصر نظر عند الكثير من الأدميين وعلى رأسهم كاتب هذه السطور، فلا بدّ أن منهم من يعبر العالم بقصر نظر لغوي. أي نظارات غير مزيد من الكلمات وفي المقابل، هل ثمة أخطر من السراب الذي تصنعه الكلمات؟ نعم، اللغة مثل شبكة الصيد، لكنها شبكة تعيد تشكيل السمكة التي علفت في حبالها... بل وتخلق أيضاً الأسماك التي تصطاد. هكذا تهندس الحاسة السادسة عالمنا الأدمي في جزء كبير وهامّ منه. هكذا تحدّد طبيعة ودرجة وعينا به، لا لشيء إلا لأنها توفر لنا مصطلح الوعي نفسه. القانون كان وسيبقى أن ما تبلوره حواسنا الخمس الأولى وما تعيد خلقه اللغة انطلاقاً منها أو اختلاقه باستقلالية عنها، هو عالمنا وما عدها... إما بلا وجود فعلي وإما كلمات أخرى لا غير. نعم عالمنا مصنوع من الكلمات والأفكار مثلما هو مصنوع من الأحاسيس فالله والزمان والموت والأخرة والعفاريث والعدالة والقانون والتقدم والحضارة، لبنات لها من الأهمية في تشكيله ما للطرق والعمارات والجسور. نحن نعبر هذا العالم تحت تهديد الحرّ والقرّ والجوع وشتى أنواع السلاح، وتحت تهديد كلمات الكفر والخيانة والعمالة والردة والتطرف والإرهاب، تخرج علينا من أدغال الأوراق وشاشات الحواسيب بمخالب وأنياب تقطر بدم المذنبين والأبرياء على حد السواء.

ثمة إذن فضاء فضاء غير حسي تتجمع فيه كلمات اللغة المنطوقة والمكتوبة لتلد باستمرار كائنات حية غير مادية اسمها الفكرية تلعب في تعاملنا مع العالم دوراً لا يقل أهمية عن معطيات حواسنا الخمس الأولى... لكن هل من الصواب الحديث عن "فضاء" في مجال كهذا؟

أول صورة تتبادر للذهن عند استعمال المصطلح انه "الامتداد" الذي تتحرك داخله أجسامنا بالحدّ الأدنى من الأمان والحرية... إنه فهم لا غبار عليه عندما يتعلّق الأمر بالفضاء الحسي، فالفضاء هو فعلاً الفراغ النسبي الذي يحفّ بنا من الجهات الأربع ومن فوق ومن تحت. هذا الفراغ هو الذي يسمح لنا بالتحرّك داخله نشق طريقنا بين محتوياته وكلها لحسن الحظ لا تحتلّ إلا أجزاءً جدّ صغيرة منه. تخيل لو كانت تملأه كما يملأ الماء كل الكأس، هل كنا نجد مكاناً لتحريك عضلة واحدة؟ تصبح الصورة تصبح عديمة الجدوى عندما يتعلّق الأمر بوصف فضاءات الأفكار والخيال والأرقام... عن أي امتداد أو فراغ نتحدث ونحن نحاول وصف هذه المكونات الأساسية لعالمنا؟ مواصلة استعمال المفهوم لا بدّ إذن من الخروج على معناه المعتاد، كيف؟ بالتذكّر أن ظاهر الفضاء الحسي الامتداد والفراغ الذي تتبعثر فيه ما لا يحصى ولا يعدّ من الكيانات والكائنات، لكن باطنه الذي يهمننا هو تجربة الذات للعالم وهي تبلوره وتتكشفه عبر أدوات خمس للذهن اسمها البصر والسمع والشمّ والذوق واللمس. بنفس الكيفية يحقّ لنا الحديث عن فضاء الأفكار بما هو ظاهر يتمثل في المكتبات وما تحتويه من وثائق ووسائط وباطن هو الذي يهمننا أي / المستوى -المجال-الميدان/ الذي تبلوره وتتكشفه الذات عبر هذه الحاسة السادسة التي اسمها اللغة.

*

تتطوّر الخناقة بين الأخنتين إلى شدّ الشعر والبكاء الصادق والكاذب. يا إلهي، لم أغفل عن الشقيّتين إلا بضع دقائق لتدخين سريع في الحديقة. يجب العودة إلى بدء المفاوضات بخصوص الذهاب للفرش. اللهم إلا...

- والان، ماذا نفعل بالكلمات التي رصدناها؟

تصرخ تفيحة:

- الكلمات تحبّ أن تجلس مع بعضها البعض لأنها تخاف أن تبقى وحدها ولا تجد مع من تتكلم وتلعب وتتخاصم.

حقاً؛ ما ألدّ التفلسف طفلاً! وما أمتع التفلسف مع الأطفال!

"عندما تعود الكلمات إلى بدايتها (روبرتو جيواروز)

يعود الإنسان إلى أصوله

ويبدأ كل شيء من جديد"

- نعم، الكلمات كائنات أليفة بالطبع لا تعيش إلا بالجوار، بمنافعه وأيضاً بمشاكله. تفاحة، ما رأيك في لعبة اكتشاف كل الكلمات التي تقبل بمجاورة بعضها البعض... كلمة طقس مثلاً؟

- الطقس جميل، الطقس بشع، الطقس بارد، الطقس حار، الطقس جاف... "با"، أنا فهمت؛ الكلمة الثانية تزيد من توضيح الكلمة الأولى!!

- بالضبط، إنه الوصف....

تتدخل تفيحة لاستعادة المبادرة:

- نعم، تفاحة بليدة وشريرة وكسولة.

تفتعل تفاحة الترفع عن المهاترة مع حمقاء لا تتجاوز سنتها السادسة. ثم تنفجر:

- تفيحة ركيكة غبية، شريرة. "با"، اكتب أنت على صفحة كراسي بعض الأوصاف.

أكتب ماذا؟ الحياة مدبرة، الكائنات مفزعة، المصائب ممطرة، الأخبار مضللة، الأوهام متكاثرة، الغباء مستقل،

الشر من من....

إنه يوم مزاجي فيه بالغ السوء كأحوال هذا الوطن الذي ابتليت به وهذه الأمة التي أصابني الانتماء إليها بالإحباط، وهذا العالم الذي لا أفهم كيف يتواصل بهذه الحيوية الصاخبة وهو مثخن بكل هذه الجراح.

فرصة للتذكر أن مهمة اللغة ليست فقط التعبير عما ينطبع في الذهن بخصوص التغيير المتواصل في العالم وإنما التعبير عما تمر به الذات من حالات هي الأخرى تنساب طول الوقت كقطرات النهر أو تتلاطم كأمواج المحيط.

لتهدئة القطنتين الشرستين لا بدّ من تركيز اهتمامهما على فصل جديد من اللعبة

تفاحة، تفيحة، ماذا نفعل بالكلمات وقد قبلت باللعب مع بعضها البعض؟

تصرخ تفيحة: نروي قصة لكن بالكلمات الجميلة فقط.

موافق لكن ماذا ينقصنا لكي نحرك الكلمات فأصبح قصة

تصرخ تفاحة: الأفعال، الأفعال....

الذهن ليست مرآة تنعكس عليه بفضل الحواس الخمس بعض خصائص مبهم أصلي يتجلى بألف صفة وصفة

مختلفة في نوات الكائنات الحية الأخرى... هو-إذا حافظنا على الصورة -مرآة نشطة تبدأ بتصنيع الصور التي تنعكس عليها

بإضفاء الوظيفة والمعنى وذلك عبر ما سمينها التصورات... بهذه العملية يمر الذهن من حالة التفاعل إلى حالة الفعل المتزايد

فعالية والمتوسع لكل المجالات التي يستطيع التأثير فيها... هكذا يتشكل عالماً الأدمي من أفعالنا التي نفخر بها كالتالي أعطتنا

أهرامات مصر والمكسيك وكاتدرائيات أوروبا وسور الصين والتاج محلّ وكاب كانفيرال وحدائق كيوطو والحمراء

وفيلاندري وشومون ومراكش، أي كل ما يضيف الأدمي من جمال للعالم الجميل... وأيضاً من الأفعال التي نخجل منها مثل

التي ملأت السماء والبحر والأرض نفايات من كل الأصناف تتبارى ضرراً وقبحاً... إنها نفس الظاهرة التي ستحكم تعاملنا

مع بقية الفضاءات التي سنتعرض لها لاحقاً.

تصرخ تفاحة بالموافقة.

- "با" أنا من سأكتب كليلليل الأفعال.

أترك الطفلة تخرّبش أفعالها. تصرخ فيّ أن أكتب أفعالي وأن أكفّ عن النقل عنها.

نعم، لماذا لا أكتب قائمتي أنا الآخر بدل الاهتمام بأفعال تعيسة مثل رقص وقرص؟

ماذا عن التي تلتهم هذه الأيام كل وقتي: جرى، ركض، صارع، ناضل، صرخ، غضب...؟

للتوسع في الموضوع، أليست الأفعال هي قائمة الاستعدادات والامكانيات الفطرية للذات... مما يعني أن اغتصب، حرق،

دمر، استبدّ، حارب، نكّل، عدّب أفعال لن تتبخّر بقدرة قادر في العصور الذهبية التي تحلم بها الرؤى المتفائلة، وأنها باقية

بقاء الأفعال الجميلة التي يحبها أهل الأخلاق والدين. من الأحسن هنا أيضاً عدم مصارحة الطفلين بالأمر... على الأقل ليس

الآن.

يتعالى الصراخ القادم من المطبخ أن هناك أفعالا لا بدّ من فعلها ومن الأحسن الشروع فيها دون تأخير مثل ارتداء البيجاما

وغسل الأسنان والتوجه إلى غرفة النوم، وبصفة عامة الكفّ عن الهرج مع رجل يمّوه على الناس خارج البيت بافتعال الجدية

والوقار.

قرّع... أمر... فرض، أفعال أعدكم أن أضعها هي الأخرى على قائمة الإعدام، المشكلة ماذا سأفعل يوم أكون بحاجة لها؟

يأتي الصوت الأمر متوجها إلىّ تحديدا: ثم تدعي بعد هذا أنني من أفسد البنّتين؟ يا ليتك تحاسب نفسك كما تحاسبيني.
الخصام غير الجدي بين الأبوين الأزليين حول نصيبهما من تدليل الأطفال وعبره مسألة بالغة الأهمية تتعلق بطبيعة الأفعال
أيا كانت.

المحاسبة أو التقييم هو الفعل الذي نتفحص به الأفعال. يمكن للمرء أن يقيّم صحته صوابا فلا يكثر على الأطباء ولا يقلق
نفسه، ويمكنه أن يقيّمها غلطا فإذا به مرض الوسواس... يمكنه أن يقيّم حالة علاقاته الاجتماعية فيفرز بين الأصدقاء والأعداء
لا يمزج أبدا بينهم، كما يمكنه أن يقيّم خطأ ما يهدده من أخطار أولئك وهؤلاء فإذا به مرض البارانويا... بوسع كل فعل إذن
أن يكون صائبا فيصيب مرماه وأن يكون خاطئا فلا يصيب إلا الرامي.

عودة لسؤال تفيحه وصعوبته وقد هدأ التهديد بتنفيذ الأفعال التي لوّحت بها "ما".

هل يمكن تطوير الصعوبة بتنظيم كل أفعالنا إلى فرعية وأساسية؟

هل هناك بينها فعل هو زبدة الزبدة وبالتالي هو الذي فيه الردّ على السؤال؟

عموما ما أهمّ الأفعال في قائمة القوائم لو استطعنا فعلا رصدها كلّها. تأتيني تلقائيا صورة الشجرة، وهي التي أستجد بها
كلما تشعبت سبل الفكر والخيال. تستحوذ عليّ صورة فعل-بذرة تفرعت عنه كل الأفعال.

إنه بطبيعة الحال أول فعل. هل هو ولد؟ حتى أول فعل حصيلة جملة طويلة من الأفعال. ماذا فعلت الذات قبل أن تولد؟ ما
الذي ستفعل بعد أن تنوَقِي؟

غريب أن تبدأ قائمة الأفعال بفعل غامض وتنتهي بفعل لا يقلّ غموضا! على كل حال لا يمكن اعتبار ولد الفعل-البذرة لسبب
آخر هو أن كل الكائنات تتشارك فيه، ونحن نريد الذي يجيب عن سؤال ماذا يفعل الأدميون بالتحديد، أي في آخر المطاف
بماذا يتميزون وما الذي يضيفون إلى الكائنات التي تتابعت على سطح هذا الكوكب؟

فكّر، تكلم؟ أي دليل أن الكائنات الأخرى لا تفكّر أو أنها لا تتبادل بينها المعلومات بغير الكلام؟

ماذا لو جربنا ضحكك، عدّب، ضارب في البورصة... ربما.

تعضّ تفيحة على لسانها وهي تصفّ الأفعال. يصفّ الأب على دفتره حصيلته هو منها. يعضّ على لسانه هو الآخر وقطع
"البوزل" مفروشة أمامه تتحداه بالفوضى المنغلقة على نظام ما يزال للاكتشاف.

تتناثر النجوم في السماء في فوضى رهيبية فيطوّعها الخيال ليرى المنجمون طيورا وأسودا بل منهم من يكاد يسمع صهيل
الحصان يتعالى من جزء محدد من قبة الليل. لا ألبث أن أرى مثلهم أفعالي تصطف وفق شكل ما زال يتلمس الشكل ثم تنتظم
كالكواكب حول الشمس... حول بذرة كل الأفعال... أولها والذي دونه لا تنطلق السلسلة.

نعم، لا مجال لغير هذا الفعل الزاخر بكل الإمكانيات. مهلا، فالنص ما زال في بداياته وعليّ أن أوصل الاستكشاف قبل أن
أنشره بين الملأ وأن أعلن بكل ثقة أن فعل الأفعال بما لا يترك مجالاً للشك والجدل هو...

**

أو كيف أن العالم مصنوع كذلك من لبنات طاقة ذهنية جبارة أخرى اسمها المخيلة

في ملف آخر هو الآخر مكتوب عليه بالأحمر الغليظ: هامّ للغاية، يصرخ “با”: هذا الولد سيذهب بعقلي، يا امرأة، وهكذا تربيين أطفالتي؟!

متوجّها إليّ بلهجة فيها من المرح ما فيها من الاستهجان والغضب، قلتُ لك: اخرج من وكرك. الوكر! غرفة مظلمة من البيت البائس تكدّس “ما” في طرف منها مهملات البيت، وفي طرفها الآخر يكدّس “با” ما كان يجمع على طول الطريق من جرائد ومجلات وكتب، يضعها في الأماكن الواضحة للطفل كالطعم للفأر. كانت أولى محطات الإقلاع التي وجد فيها الطفل المفتاح والباب والطريق لقضاء سحري أصبح له الملجأ والملاذ. يصرخ الأخ الصغير في أمه: “ما”، إنه يقرأ في المرحاض وأنا سأنبؤل في سروالي. قلتي له أن يخرج حالا. تدقّ “ما” الباب بإصرار، فيخرج الطفل مُكرّها من مكان كان يظنه آمنا بعد طرده من “الوكر”. حتى أعصاب “ما” قادرة على التوتّر.

- كفى الآن. قلت لك لا مجال لأخذ الكتاب معك. لا، لن يمزقه أخوك، فهو في عُهدتي. هيا، إلى المدرسة، وتأدب مع المعلم، قل له: سيدي، أطعه... إلخ.

يستشيط المعلم غضبا وهو ينتبه لما يفعل الطفل وراء ظهره:

- تعتقد أنني لا أراك. الكتاب مُصدّر. أنذرتك أكثر من مرّة. أغلق هذا الكتاب اللعين واذهب إلى الركن.

يغلق الطفل الكتاب مُكرّها، يواصل ووجهه إلى الحائط. تخيل أحداث القصة التي كان منغمسا فيها.

تندافع في ذهنه المناظر والكائنات والأحداث عن بلاد اسمها “الهند” لا يعرف عنها شيئا. ولأنّه لا يعرف عنها شيئا فإنه سيضعها تارة في الشرق وتارة في الغرب، يملأ أرضها مرّة بغابات الزيتون وأخرى بغابات النخيل. لم تكن لديه أدنى فكرة عن القصور التي تتحدّث عنها القصة ولو أنه كان قادرا على أن يبني داخل ذهنه قلاعا تصل إلى السحاب ومآذنها الشمس والقمر، تغلق ليلا أبوابها في وجه جحافل الجنّ والعفاريت، لا يفتحها إلا طفل يعرف كلمة السرّ.

يلوذ الطفل بفراشه متفلسا الصعداء، لقد تخلّص أخيرا من المتصدّين لحقّه في الاختلاء بنفسه وبالكتاب، الحبيب الوحيد الذي لن يخونه طوال حياته والذي لن يلقى منه إلا نفس الوفاء. اللعنة على هذا النوم الذي يتقل جفونه، لو يستطيع مواصلة القراءة وهو نائم!

يرتفع صوت “ما”، وفيه الآن نفاذ للصبر:

- يا بني، هل تريد أن أقتلع منك الكتاب بالقوّة. إلى النوم. حالا.

عبثا، لن تمنعه حتى “ما” من المواصلة.

القصة التي تشغل كل وعي الطفل هذه الليلة عن أمير اسمه “راما” رحل مع زوجته “سيتا” وأخيه “لاشكمننا” إلى عمق الغابات بعد أن أجبرت الملكة الشريرة زوجّها على نفي ربيبتها هذا ليخلو العرش لابنها هي. وفي “لانكا” تبيكي “سيتا” قومها ووطنها، لا تخفي رُعبها من غابة يسكنها عتاة الشياطين.

“سيتا”! “سيتا”! خطفوا “سيتا”، خطفها “رافانا” اللعين!

إنه أول امتحان للطفل وقد تقمّص الدور، أو قلّ تقمّصه الدور. نعم، هو الذي سيحرّر الفضيلة ويعيد الملّك إلى صاحبه والأمر إلى نصابها والعالم إلى توازنه المفقود.

- “ما”، أرجوك. لا بدّ أن أنهي الفصل الأول على الأقلّ، أرجوك.

- طيّب، لكن قل لي، ماذا تفعل؟ رأيتك تقبل الكتاب!

يصمت الطفل، لا يريد الاعتراف لأمّه أنّه واثق أنّ قبلاته عبرت حاجز الورق وتسللت بين السطور لتصل حبيبة الفؤاد. أه يا سيتا، يا “جاناكي”، يا ضفائر سودا على الظهر تدلّت، يا عيون المها، يا بسمّة الحياء والخجل، يا رقّة الفجر، يا وداعة، يا طهرا، يا ملاكا على الأرض مشى. يا أول حبّ، ف “سيديتي” كانت مجرد هفوة.

- كفى الآن. أعطيتك كل الوقت. أغلق الكتاب. سأطفئ النور حالا.

أنام وأترك سيتا في أسرها! إنّ “ما” لا تعي ما تقول. ألا تعلم أنّ الشيطان رافانا يطير بعربته الفضائية نحو جزيرة لانكا، وسيتا ملقاة على خشبها مكّمة الفم، معصوبة العينين والحبل يقيّد يديها الرقيقتين. اللعنة عليك يا رافانا. اضحك وقهقهه وتوهم ما شئت. سأتيك بالخبر اليقين.

- يا بني، الكتاب لن يهرب وهناك بعد اليوم يوم جديد.

كيف؟ أغلق الكتاب الآن وسيتا في خطر الموت، ربّما تتهدّدها أشياء أخرى أفتع بكثير؟ لا تقدّر “ما” كم هي خرجة هذه اللحظة.

- يا بني، أنت لا ترى جيّدًا، والقراءة بالليل تتعب عينيك، ولا بدّ لك من النوم.

- إذا كان النوم عزيزًا عليكِ فلماذا لا تذهبين أنت لتنامي؟

- لا تكن سليط اللسان حتى مع أمك. أتريد أن أمضي الليل بأكمله أترجّأك؟

لم يكن الطفل في عمر يسمح له بفهم ما هو بصدده، ولم تكن "ما" تفهم أحسن منه. هل كانت لتقبّل برأي حكيم يسرّ في أذنها وهي تلاحظ انسحاب الطفل التدريجي من "واقعتها": لا تقلقي، هو لا يلعب، لا يضيّع وقتًا، لا ينهك عقله، إنّما يتمرّن ويتعلّم أهمّ ما يجب تعلّمه. اتركيه، على كل حال هو لن يستمع لكلامك.

يفتعل الطفل الطاعة فيطفئ النور. لن تكتشف الأم إلا بعد سنوات طويلة كم كان طفلها البريء ماكرًا ككل "الأبرياء"، وهم من نجحوا، أحسن من غيرهم، في إخفاء ما بهم من مكر وخبث.

كانت تنظّنه نائمًا وهو يواصل تحت البطانية القراءة بمصباح جيب كهربائي صغير كان يخبّئه لمثل هذه الطوارئ. تندلع المعركة في فضاء تحكّمه طاقة عجيبة للذات اسمها المخيلة والطفل المخرج والمنتج والممثل المتصرف في السيناريو على هواه. ينفخ رافانا على نار البراكين فأغدو ماءً يطفئ كلّ لهب. يرميني بالقمر فأرجمه بالشمس. يصرخ في أذني محاولاً إرهابي، أصرخ فيه فتصطك فرائصه. ينطلق هاربًا نحو النجوم فأسبقه إليها، أضيّق عليه الخناق في كل مجرّة. تكشّر السماء عن أنيابها وقد توسّطتها شمسٌ بلون القطران. تخرج من بطن السحاب خفافيش بحجم الفيلة تهاجم البطل من الخلف، فيصوّب نحوها السهام القاتلة دون الالتفات حتى. يرنّ في الفضاء البعيد صدّى موسيقى آلة نافخة موجودة في الكتب المصوّرة الناطقة بلغة مسيو فيدال. إنّها فرقة خيالة الولايات المتحدة قد ضلّت طريقها وخرجت من قصص الهنود الحمر لتصل في الوقت المناسب لإنقاذ بطل يحارب بشجاعة قلّ نظيرها سحر شيطان هندي، لكنه هندي من الهنود الحقيقيين وليس من أولئك المكذوب عليهم بهذا الاسم. آن الأوان لتصفية الحسابات وإغلاق هذا الملف، فليس هناك رافانا واحد أظهر منه العالم المويء بكل أصناف الشياطين. أرفع ذراعي بالرمح السحري أصوّبه نحو قلبه ثم أرميه به بدقّة وقوة لا تترك إكمانية النجاة لجنّ أو أنس.

يصرخ اللعين: آه يا رامًا، قتلتني لكنه شرف عظيم أن يكون الموت على يديك. يسقط الشيطان مضرّجًا بدمه الأخضر. أضع رجلي على صدره مبتسماً مديراً رأسي يمينا وشمالاً أبحث عن المصوّرين ونظرات إعجاب البنات. أخرج رمحي من صدر الشيطان النافق بكثير من البطء المدروس، أرفعه نحو الأعلى، ثم أطلق صرخة النصر كما يفعل طرزان في قصص أخرى لمسيو فيدال. أووووووه،، أنا رامًا. أنا سيّد الأسياد!!!

بالمناسبة، ماذا يفعل الكبار بعد إطلاق سراح الحبيبة؟

يا للطفل المسكين! لا يعرف، وهو في هذا العمر، أنّه لم يقرأ إلا الجزء الجميل من الملحمة، وأنهم أخفوا عنه بقيتها المظلمة، لأن قصص الأدميين مصنوعة من أنصاف الحقائق، والباقي أحداث من الأحسن ألا تضع أنفك فيها وإلا صدمتك رائحتها النتنة.

كل كتاب نقرأه بمثابة مفتاح نعمله في باب، يفتح لنا فضاءً مغلقاً بسبعة أبواب... وكل باب نفتحه بنص جديد يفتح فضاءً بسبعين باب، فننقدم بالقراءة ونحن مثل من يتبع شعاع مصباح يضيء بضع خطوات أمامنا وكل ما حولنا، وبعيداً أمامنا، مناطق غارقة في الظلام... مفارقة القراءة إذن أنّها تزيدنا جهلاً كلما زدنا علماً، أنّها تعمق وعينا بجهلنا فيأتيها يوماً الإحباط والهلع. لذلك يفضّل البعض النصوص المغلقة التي تدعي حمايتنا من الدوار...

يكتشف الطفل يوماً بؤابة ثانية غير الكتاب لولوج الفضاء المبارك من بين كل فضاءات العالم.

يتوجّه المعلّم إلى أطفال الفصل وكلهم ذكور في العاشرة من العمر:

- يوم الأحد المقبل سنذهب جميعاً لمشاهدة عرض خاص بكم. كونوا في الموعد أمام قاعة السينما.

عرض؟ سينما؟

ها هو يدفع بالمناكب لدخول أول قاعة مظلمة في حياته لا فكرة له عمّا يوجد داخلها. من أين لطفل في هذا العمر التنبؤ بما سيخرج ذلك اليوم من قبعة مهرج ضخم اسمه "العالم" لا ينفك يُظهر عضلاته ليزداد به الأدمي تعلّقاً وإعجاباً؟! يسارع لاحتلال مقعد قريب من ستار أحمر يغطّي حائطا شاهقا تتجّه إليه الأنظار توجّه المصلّين للمحراب. يذهل أمام انطفاء الأنوار تدريجيّاً وغرق القاعة في الظلام. يتعالى صراخ للصبية، لا ينع في صراخ المعلمين طلباً بالهدوء والصمت. وفجأة يتحرّك الستار ولا يد واضحة تحرّكه، يواجّه الطفل المشدوه بحائط شاهق مُغطّي من أقصاه إلى أقصاه بقطعة قماش أبيض. تأتيه أفكار مضطربة عن آدميين من لحم ودم سيخرجون من الحائط لرواية قصّة كالتّي يقرأ في الكتب. ترتمس على الحائط

مناظر لحقول وجبال خرجت من الآشياء ثم لأدميين خرجوا هم أيضا من العدم. من أين برزت هذه العفاريات، وهل للخيل أيضا أسبابها؟ يتعالى صياح التعجب. هل ثمة ألد من الصياح جماعة؟ يتضح لي اليوم، وأنا جالس وحدي أمام صندوق سحري حَقَّق الأدميون عبره حلما سخيلا بأن يكون لكل واحد قاعته المظلمة الخاصة، أن جمهور طفولتي ومراهقتي كان جزءا من العرض بل أهم ما فيه. صحيح أنني لم أعد أتكلّف جهد الصراع مع طابور طويل لا أدفع أحدا ولا يمشي على قدمي آدمي معذرا أو غير مبال، ناهيك عن كوني لا أخرج من جيبتي مليما واحدا. لكن أين متعة الفوضى والمشاجرات اللذيذة التي كانت تعجّ بها قاعة السينما في تلك العصور الغابرة؟ يوم فُرض الصمت في مثل هذه القاعات، هجرها كبار الأطفال وصغارهم للصياح ملء حناجرهم في أماكن عرض أخرى. تأتيني أحيانا فكرة الوقوف بباب داري لدعوة المارة لدخول الصالون ومشاهدة آخر القصص معي، شريطة افتعال معركة حول احترام منع التدخين والالتزام بالصمت وعدم التعليق السمج على القبلة المطوّلة بين البطيلين، وتبادل الآراء بصوت عالٍ حول هويّة القاتل قبل أن يكشف عنه مفتش لا تتطلي عليه حيل مجرم.

يشارك الطفل في الفوضى المثيرة بالرقص فوق المقعد والصراخ، لأنه لا يفوت فرصة كهذه لينفّس عن كل الحيوية المكبوتة فيه ولأنها العدوى. تتوقّف الصرخة وقد فاجأه قلق مبهّم، هل سينبئ الفرسان من الحائط على القاعة؟ هل سيجد نفسه تحت سنانك الخيل؟ ترفع الفكرة ذراعا أليا يحمي بها رأسه من الدهس. يعاوده الذهول وهو يرى الفرسان يمرّون أمامه، أو فوقه، وفي كل الأحوال بعيدا عنه، لا ينثرون غبارا ولا يجرحون أحدا. تأتية الأوامر والشائتم بالجلوس حتّى يتمكّن الواقفون وراءه من مشاهدة المعجزة. من أين له الجلوس وهو لا يكاد يرى والأغبياء الذين أمامه يمنعونهم من التركيز، وقد انتبه إلى أنّ ترابط الصور المتلاحقة يجعل منها قصة.

هو الآن منهمك في متابعة آدمي ترجل عن ظهر الجواد مسرعا للاختباء خلف الصخور شاهرا قطعة من الحديد يتعرّف عليها كل الأطفال. يصل الصخب ذروته وهم ينهبون الفارس المختبئ وراء الصخرة أن يحترز من عدوّ يأتيه من الخلف ومن أعداء يرفعون في وجهه رماحا وسواطير. ينطلق من فوهة المسدّس ضجيج مدوّ فيسقط الفرسان الواحد تلو الآخر. كأنّ غرائز قديمة قدم العالم تحرّكت داخل قطعان من الكواسر الصغيرة، أو كأنّ رائحة دم آتية من أعماق كلّ ذات عبقت في القاعة تذكّر الأدميين بحلاوة القتل. ها هم يقتلون مع القتلة ويزودون عن حياتهم إلى آخر نفس مع المهتدين بالقتل. يكاد الطفل يشعر بألم ارتطام الأجسام بالأرض الصلبة وبرعب الخيل وهي تحتضر. أي أهمية للألام بالوكالة؟ هو مشغوف، متحمّس، جذلان، ومنغمس في الأحداث، جزء منها، وفاعل نشط ينبّه الطريدة لحيل الصياد والصيد لحيل الطريدة.

لا شك أنّ "ما" لاحظت ذلك اليوم غرابة جديدة في طفلها. من أين لها أن تفهم سرّ مشية جديدة وهي لا ترى حصانا أبيض كان أول غنيمته له من الفضاء السحري؟ من أين لها أن تفهم سرّ بريق عينيه وهي لا تسمع صراخ فرسان في ركض و هلع يفرون من كزّ طفل مغوار يستخدم في أعداء أبيه ساطوره ورمحه وسيفه المهنّد؟

تستولي على عقل الطفل أسئلة جديدة لا تقل غرابة عن التي يرهق بها نفسه ومَن حوله: أين البشر والخيل الذين رأهم على جدار القاعة المظلمة؟ من الغبي، هو أم هذا الذي يقول إنّ الكائنات التي رآها بأتم عينيه مجرد صور محبوسة في علبة؟ كيف يمكن لصور أن توجد داخل علبة وأن تبرز على الحائط بمثل ذلك الحضور؟ لا بدّ من العودة إلى القاعة المظلمة للبحث في هذه القضية.

إنه إدمان جديد يضاف لإدمان الكتب.

أي طريقة لإرضائه غير التكنّم والخداع، ف "ما" مصرّة على التشدّد في رفضها لحصص السينما وكلها سوء ظنّ في مكان يعرض -على ما كانت تسمع- قصص نساء سافرات متبرجات وعنف وقتل. كل ما تكره، ويحبّ.

يتواصل استكشاف الفضاء العجيب من الباب الجديد، والطفل يجهل أنه كالفضاء الحسّي، كفضاء الأفكار، زاهر بما لا يتصوّره عقله، والأدمية لا تكفّ عن دفع حدوده إلى أبعد فأبعد، واضعة فيه أحلامها وكوابيسها.

يتهاشم الأطفال بأنّ القاعة المظلمة للمدينة الصغيرة تعرض هذا الأحد قصة عفريت اسمه "دراكولا" يخرج من قبره عند منتصف الليل ولا يعود إليه إلا عند طلوع الفجر، بعد أن يتفقد من لهم أعناق جميلة وشرابين فيها دم ساخن لذيق يحب كثيرا شربه.

يهرع الطفل إلى القاعة المظلمة مرّة أخرى متناسيا أنه كذب على التي لا تكذب بخصوص المكان الذي سيقضي فيه الصبيحة، بل ومعه أخوه الصغير الذي أصبح أستاذا له في الإدمان على الأفلام والكتب والكذب على "ما".

يحتلّ مقعده المفضّل بالقرب من الشاشة طاردا من سبقه إليه ليفسح المكان لأخيه، غير مبال باحتجاج طفل أصغر منه أجبر يزفر من الغيظ على الانسحاب. أخيرا، سيستطيع أن يقابل واحدا من هذه العفاريات التي كثيرا ما تأتيه في المنام. ربما يكون دراكولا هذا هو "العبيثة" التي ما زالت الجدة تهدهدها بها رغم تقدمه في العمر وتزايد شكه في وجودها. لا بدّ من الاعتراف

هنا أننا كائنات غريبة الأطوار تريد الشيء ونقيضه، تجري وراء ما تفتعل الهروب منه، والحدود بين ما تحب وتكره متحركة لا تخضع حركتها لمنطق أو قانون.

ينتهي العرض وأخرج مع أخي من القاعة نفتعل اللامبالاة والاستهزاء بخوف بقية الأطفال. المشكلة الآن هي ماذا سنقول لـ"ما" بخصوص أين كنا، وسبب ارتعاش الصغير وارتباك الكبير، ورفضهما العنيد عند مجيء الليل الخلود إلى النوم رغم ما بهما من إرهاق واضح وضوح أنياب حمراء تقطر دما في فكّ كائن لا يراه إلا هما. يحلّ الأخ الصغير مشكلته بالتسلل إلى فراش "ما". تأتيني رغبة عارمة أن ألتحق أنا الآخر بالفراش الآمن. لكن هل يعقل أن ألتجئ إلى ذراعي الأمّ كما يفعل الصغار؟ أقرّر، انصياعا للأمر الأبوي الصارم: التحلّي بالشجاعة، أو على الأقلّ افتعالها. لا خيار غير الذهاب إلى فراشي وتنظيم وسائل الدفاع بنفسي. أبدأ بالفاتحة. لكن دراكولا عفریت كافر أجنبي لا يخشى إله "ما" ولا يفهم لغتنا، لذلك لا يمكن أن تشكل الفاتحة رادعا له. هناك إمكانية رسم الصليب كما تفعل البطلة. أخون إله الآباء والأجداد مستنجدًا بخدمات إله أجنبي؟! ماذا ستقول "ما" لو اكتشفت الصليب على باب غرفتي وأني أصبحت نصرانيا؟ لم يبق سوى حلّ الثوم لأنّ العفریت يخاف، لأسباب يعرفها هو وحده، من الثوم. أين تضع "ما" ثومها المنقذ؟ ماذا لو دخلت المطبخ في قمة القلق والصحون تتساقط على الأرض؟ كيف سأردّ وهي تضبطني حافيا في الظلام ويذأي ملاًنتان بالثوم؟

يغمض الإرهاق جفنين أضناهما أرق متوجّس. يستطيع العفریت الآن أن يتمطى في تابوته المبطن بالدمقس الأحمر. يتحرك غطاء القبر ببطء شديد. يستعيد القمر بالله، ترتجف الأشجار فرقا وتنبهراً البوم من التمرّد على مشيئة رفضت دوما طلب الخلود للأدمي.

ينطلق الكائن من قبره باحثا عن عنق أملكس تفتح فيه أنيابه شلّالا من اللبن الأحمر الضروري لبقاء العفاريت. ما تفصح عنه الذات في خلقها لهذه الخرافات رعبها من الأموات الذين يطرقون الباب بقوة إما محملين بخصائص ستزيد من سرّهم أو بالأخبار السيئة عما ينتظرنا جميعا على الضفة الأخرى. وأيضا أنّ العالم، كما عزّاه الشريط، مغارة مظلمة نحن داخلها خفافيش تعيش على امتصاص دم بعضها البعض، ولا نتحدث عن دم بقية الكائنات.

هل من الممكن أن يترك دراكولا أطفال قارته، وكلهم تحت ذمته، ليقصد طفلا من قارة أخرى لم يمسه بسوء وفتش عبثا في الظلام عن الثوم فلم يجده ومنعه كبرياء في غير محلّه من رسم شارة الصليب على باب غرفته؟ نعم، ممكن. القاعدة هي، أنّ الخوف من خطر ليس دافعا له وإلّا دلّه على أقصر طريق إليك. أنّك لا تهرب من شيء إلا ولحكك يوما. يجد دراكولا عندها مَنفذا إلى طفل جالس على فراشه ورأسه على صدره فيتدفّق شلّال دم من عنقه وهو بين أنياب الفكّ المرعب. يحاول فتح فمه، فلا تخرج من حلقه سوى حشرة صامتة. يهبّ صارخا والبول - لا الدم- قد أغرق الفراش. ما كان الطفل عاجزا عن فهمه آنذاك أن الأدمي يُظهر عبر أسطورة دراكولا رفضه القاطع لمغادرة العالم وأهواله، أنه مقرّ العزم على العودة إليه يوم يطرد من وليمة الحياة غير متراجع أمام أي موبقة ولو كانت سرقة نصيب الآخرين من الحياة. ولأنه لا وجود لشيء أو فكرة في هذا العالم إلا ولها نقيض كم من أسطورة ومن تصرفات تظهر رعب الأدميين من العودة إلى هذا العالم بعد أن خلّصهم منه الموت، ستسمع أن منهم من أوصى بحرق جسده وآخرون طالبوا بأن يوثقوا إلى القبر بالسلاسل. ثمة من الأحياء من يفتحون القبور ليلا لاستلال قلوب الموتى وقطع رؤوسهم لا خوفا من عودتهم لمصّ الدماء وإنما رحمة بهم وقد كفتهم مرة واحدة عقوبة الحياة.

يذهل الطفل يوم يكتشف قدرته على أن يخلّق داخله كل ما يريد من أفلام لا بطل فيها غيره. ها هو يخلع نظارات لا حاجة له بها وقد أصبحت له عيون النسر. يرتدي قفازه مُحكما الخوذة الحديدية فوق رأسه متسلقا بسرعٍ سلّم الطائرة النفاثة. يأتيه الأمر من برج المراقبة بالإقلاع مع أطيّب التمنيّات بنجاح المهمة. تتركب الذات مطيّة الرعد والبرق. ينطلق البطل إلى أعالي السماء وسط دويّ المحرّكات. وهناك على مشارف الحدود العليا للفضاء المعروف يواجه لمعان الشمس فلا يرفّ له جفن، وإلّا الشمس هي التي تغض الطرف. يُخرج يده يلمس برفق قطعان السحاب المتدافعة يباركها ويتبرّك بها.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط الحدث. منطقة الغرق تحت سحاب كثيف. لا أرى شيئا. سأعيد المرور من فوق المنطقة مرّة ثانية. الآن أرى بوضوح الباخرة الشراعية وحنون متشبّث بصواريخها المكسورة. الأمواج بعلوّ الجبال، لكن الإنقاذ ممكن. تستعيد الذات التي توشك على الغرق الأمل وهي تسمع دويّ الآلة الطائرة فوقها. يشعر الطفل المتهور بأنّه أنقذ مرة أخرى، أنّه ما زالت للرحلة بقية من الطريق. تنزل المظلة بمعدّاتها فوق القارب بالضبط فيتلقفها المغامر الفينيقي بشراهة وكله امتنان ليعل ولدعوات "ما" وللطيار الهمام.

- من طائفة الاستكشاف إلى قرط الحدث. التقط حنون المعدات وتمّ الاتصال به بواسطة الجهاز الموجود في صندوق الإغاثة. هو بخير ويشكركم.

- تهانينا بنجاح المأمورية. العودة حالا إلى القاعدة فهناك مهمة أخرى بانتظارك.

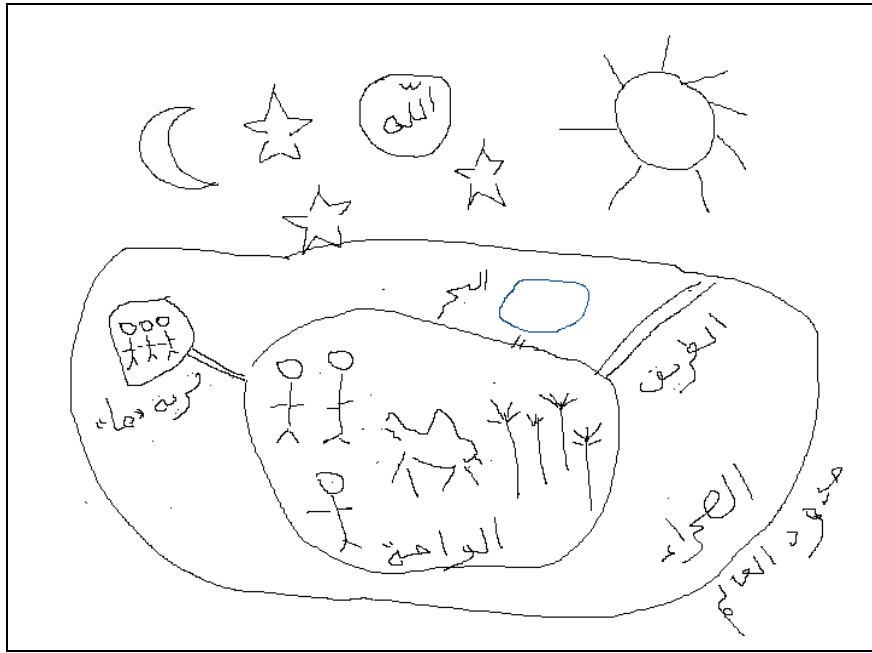
يخرج الطفل منتصرا كالعادة ببركة الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات، حيث لا مشكلة فيه إلا وتوفرت لحلها آلاف الحلول تنتقي منها ما يرضيك وما يشرفها رضاك.

يوصل الأدمي الصغير الضائع في شخصياته المتعددة التنقل من أمواج المحيط إلى أعالي السماء يفتح مجاهل البرّ والبحر. مرّة يقود بيد ثابتة غوّاصته تحت جليد المحيط. مرّة يحطّ بصاروخه الصغير على كوكب مجهول. مرّة يدخل فوهة البركان بثياب تلحسها النار ولا تقضمها. مرّة ينزل أعماق المغارات يقتل الساحر والثور ويصل مظفرا صرّة الأرض. مرّة يقتحم الغابات الكثيفة باحثا عن نبتة يتيمة بصنع منها الكسير الخلود.

كأننا لا نعيش حياة واحدة كما تقول الرؤى غير المتقنة وإنما أكثر من حياة، منها التي نقضيها على الضفة الأخرى لعالم اليقظة، ومنها التي نقضيها في فضاء الحواس وأجملها التي نعيشها في فضاء الخيال هذا.

إنه أيضا العمر الذي تحضر فيه الأسئلة الكبرى فيجد لها الطفل كل الحلول في خصب خياله كما فعل قبله وسيواصل أطفال من كل الأعمار.

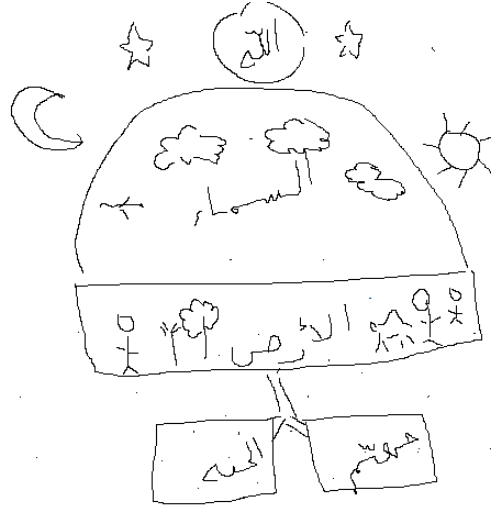
ومن مشاغله تلك الأيام أولى نظرياته عن العالم لخصها في رسم كان يعود إليه طوال الوقت باللونين والتحسين.



العالم إذن -مما لا يدع مجالاً للشكّ في هذه المرحلة من رحلة الطفل-طبق صلب أفقيّ جُلّه أصفر اللّون باستثناء بقعة زرقاء هي البحر الذي حدّته الدليلان عن وجوده، وبُقّع خضراء صغيرة متناثرة هي غابات زيتون أرض جدّته، ومركزه واحة الأب والجدّ. فوق الطبق الصلب الذي يقف عليه هو وبقية الكائنات والأشياء ثمة قبة هي السماء، وُضعت عليه كما تضع أمّه صحننا أجوف من البّلور على طبق الطعام لتقيه من الذباب. على سطح هذه القبة تتجول الشمس والنجوم والقمر. فوقها وبعيدا عنها يجلس على كرسيّ ضخم اسمه "العرش" شيخُ كلّ الشيوخ الذي هو الله. بين قبة السماء والبسيطة يوجد الهواء الذي تطير فيه العصافير، في حين تسبح الأسماك في ماء البحر، ممّا يترك الأرض للبشر الذين منهم "با" و"ما" والجدّ والجدّة والعَمّات والأحوال والجيران وركّاب الحافلة والقطار تصحبهم القطط والكلاب والماعز والحمير والبعير والخرقان والبقر، وهم أنواع خاصّة من الجيران والأقارب. من مركز العالم الذي يشكّله فناء منزل الجدّ يبدأ وينتهي الطريق الذي يسلكه كل ذاهب وكل عائد. على حافتيه ثمة مدنٌ وفُررى لا يُعرف لها عددٌ. أما الحدود فنهاية الطريق، عندما يرتطم بالهواية التي لا قرار لها والتي لا يُعرف بالضبط ما الذي يوجد فيها، ربّما العفاريت والأشباح، من بينهم "العبيثة".

يُمكن الطفل النظر في رسمه فيعود إليه الشكّ لينغص عليه متعة النصر.

ثمة شيء هام ينقص، لكن ما هو؟ آه، الآخرة طبعاً، التي سمع عنها أكثر من مرة خاصة من جدّه! هل يُعقل أن ينسى معلماً كهذا؟! أين موضعها؟ هل هي حيث يوجد العرش؟ على يمين الله أم على يساره؟ يجزّب فكرته ثم يسارع إلى التخلّي عنها إذ لا تستقيم مع بقية المعطيات. يتذكّر فجأة أنّ الآخرة حسب قول "ما" هي المكان الذي يذهب إليه الكبار عند موتهم. ألا يحفرون للميت حفرة في أديم الصلب، وهو ما قاموا به عندما حملوا حسين ابن خاله الذي كان يحب اللعب معه وسرقة لوز الجيران؟ إذن، الآخرة موجودة تحت الأرض. ووفقاً لما سمع من "ما" التي لا تكذب أبداً، فهي مكونة من الجنة والنار. يرسم الطفل مربعين يرتبطان بالأرض بالنفق العمودي الإجباري الذي يأخذه الموتى للوصول إلى حيث حُجز لهم مكان الإقامة الأخير. المربع الأول أخضر اللون لأنّ الجنة كما تقول "ما" واحدة خصيبة، ولو أنّها أكبر ونخيلها أعلى ومياها أوفر وأعذب، يذهب إليها من عملوا الصالحات. أمّا المربع المقابل فهو أحمر بلون النار المخصصة لشواء لحم الكفار والمعلمات الشريرات. يجيل الطفل البصر في عالمه راضياً عن عمله وقد اكتمل ووجدت فيه كلّ المكونات مكانها.



آخر معضلة كانت المكان الذي يرحل إليه عند النوم. هل هو جزء من الآخرة أم من الدنيا؟ يغرق في تساؤلاته ثم يغلق الموضوع مرجئاً حلّه إلى حين يكبر.

ينتهي الطفل من حلّ مشكلة طبيعة العالم الذي وجد نفسه محسوراً فيه كالفأر بين أرجل الفيلة. لم تبقَ إلّا مشكلة الزمان.

ما معنى أن يكون لليوم تاريخان: واحد هجريّ وآخر ميلاديّ؟ كيف يكون هناك زمان، والحال أنّه ليس هناك شمسان ولا قمران؟ كيف تبدأ السنة مرّة من "الهجرة النبويّة" وأخرى من "ولادة المسيح"؟ ثمّ ما معنى الحديث عن أفعال ما قبل الهجرة؟ كيف يمكن للأحداث أن تقع قبل بداية الزمان الذي بدأ به العالم وكلّ الأحداث؟

الأهمّ من هذا كله متى ستقوم القيامة. وهل يا ترى سيحدث الأمر حسب زماننا أم في زمان الكفار؟ حسب زماننا طبعاً، فالهنا هو الإله الحقيقي. ولكن في أيّ سنة بعد الهجرة؟ إجابة متروكة للكبار. وفي أيّ يوم؟ بالتأكيد سيكون يوم الجمعة لتواجد كل الناس في الجوامع، مما يسهّل على سيدنا عزرائيل إلقاء القبض عليهم جملةً.

والآن متى بدأت البداية؟ طبعاً كما اتفق مع "ما" أوّل يوم في الربيع، في الصيف، في الخريف، في الشتاء. لكن أيّ يوم بالضبط؟! الجمعة مخصّص للقيامّة، السبت يوم الكفار اليهود، الأحد يوم الكفار النصارى، الثلاثاء والأربعاء والخميس أيامٌ بليدة لكثرة العمل فيها ولا واحدٌ منها يستحقّ أن يكون يوم بداية للعالم. لم يبقَ سوى يوم الإثنين، إنّه دون شكّ يوم الخلق، خاصة أنّه أوّل أيام الأسبوع.

لكن، ما الذي كان موجوداً قبل أوّل يوم اثنين؟ وماذا سيوجد بعد آخر جمعة؟ ما أصعب موضوع الزمان هذا! لا خيار غير تركه هو الآخر لحين يكبر.

كم كان سيدهش لو أسرّ أحدٌ في أذنه أنّه لن يكفّ، حتى وهو على وشك تجاوز آخر مفترقات الطريق، عن تدبّج نماذجها وتمزيقها الواحد تلو الآخر... وأن كل من فكروا قبله في هذه الإشكاليات لم يجدوا لها الأجوبة التي قضوا عمرهم في التخاصم حولها إلا في مخيلة لا تبخل عليهم أبداً بما يشتهون من أجمل القصص.

شيئاً فشيئاً يتغير شيء ما داخل الجسم وتحضر مع التغيير مشاكل من نوع آخر ومن ثمة أحلام من نفس النوع. تنبت يوماً للطفل بداية لحية وتنفجر داخله حيوية غريبة تعذبه بحاجيات مبهمة.

تهمس بغنج ودلال ذات محبة محبوبية بدأت تتشكل من ملامح سينا وبنات الجيران: الحب أجمل من الحرب. يقهقه صانع الأحلام الخفي ومحقق كل الرغبات: عد إلى معاركك، أنت تستيق الأحداث.
- كفى من المعارك، لم أعد طفلاً.

يشعر المراهق بنار تلتهب داخل الجسم والروح. يواصل الصوت الساخر تهكمه: يا عبيط، لا تستعجل مشاكل لا قيل لك بتصوّر متاعبها. بالتقدم في العمر تُرفع حواجز الحياء والحرص. تزداد الطلبات شططا، فالكنز لا ينضب والحارس لا يتوقف عن تشجيع اللصوص. ها قد انقلب فضاء الخيال إلى ماخور خمسة نجوم، على ذمة زبونه الوحيد ألف ليلة وليلة ولا خوف فيه من قمل العانة وحرقة البول وفيروس السيدا.

يهمس الصوت الساخر:

وبعد المفحات ماذا يريد سيدي؟ ليطمئن سيدي، كل ما يريد من الأربعة الكبار تحت الذمة. بالكم والكيف الذي يأمر. الأربعة الكبار؟ كل ما تحلم به الأغلبية الساحقة من الأدميين: الجنس، المال، الشهرة والسلطة.
يا للكارثة لو لم يكن لنا الفضاء الحسي نلهث فيه وراء رغباتنا لا نصلها إلا نادرا حتى نبقى يقظين متحفزين!
يا للكارثة لو لم يكن لنا فضاء الخيال لالتقاط الأنفاس والتغلب السحري على الحرمان.
لذلك ترانا نستعجل دخوله، استعجال التائه في الصحراء وصول واحة النجاة.
تمرّ السنين. تتغير الأولويات والفضاء المبارك من بين كل الفضاءات لا يرفض لزاره رغبة.

يصدر الكتاب الأزرق في آخر طبعة مزينة ومنقحة. يخرج به الشاب إلى أهل أورفليس بشيرا ونذيرا. ما يزال المسكين جاهلا بقانون أنه "لا نبي في قومه" وأنّ تسمير النبي على الخشبة هو المدخل الإجباري لعبادة كلماته يوما... هذا إذا كانت ورقته هي الراحبة في البانصيب، مع أنّ السوق زاخر بالمتقدمين لأقدم المهام، والنجاح فيها أصعب من المشي على الماء.
يُجبر السيناريو السرمدى نبينا المبتدئ على الهرب من المدينة الفاسقة، خاصة بعد أن صدرت بطاقة تفتيش في حقه وأعدت له الخشبة والمسامير وعُين الجلاد الذي لا بد من المرور إجباريا بين يديه مرور العروس بين يدي الحلاق. يلقي البطل آخر نظرة على حيطان المدينة الشاهقة وهو ما يزال بين رغبة تدمير وكر الرذائل وبين إنقاذ الضالين. يقرّر الإنقاذ لأنه أصعب من التدمير ولأنه لا بدّ من تواصل القصص. يغيب المصطفى عن الأنظار وتوابع حواريه يرنّ في الأذن. آخر فكرة تعبر ذهنه قبل أن يغيبوا كلهم عن الأنظار هي: أما كان عليه أن يترك لهم رقم حسابه الجاري لتحويل حقوق التأليف؟ لا فائدة والكتاب سيفشل تجاريا كالعادة، خاصة والمصطفى عاجز عن دفع مصاريف ملحق صحفٍ يروجه. يبقى الإنجيل الجديد قرونا في الأدراج المهملة، وعلى طاولات المعارض للكتب البائرة، إلى أن يتعلم الخنازير اكتشاف الدرر التي نُثرت عليهم بكل كرم ولم يلتفتوا إليها. يخرج الكتاب الأزرق أخيرا من المطابع السرية لحزب التمرد الأزلي. تتدافع جحافل المناضلين والمناضلات لتوزيعه ليلا على أكواخ المعذبين في الأرض، غير عابئة بمن يسقط منهم في براثن البوليس السياسي. لا يلبث أن ينتشر في الأرض كالنار في غابات الصيف الحارق، فلا يطلع على القوم تائر إلا والكتاب في يده، لا يدخل الرجل على امرأته إلا ويده على أقدس الكتب، لا تفتح المرأة فخذها إلا وتتمتم ببعض عباراته، لا يأتي الصرع طفلا إلا وسارعا إليه بتمائم مأخوذة من جملة المباركة.

وفي مثل هذه القصة التي تكررت على مرّ التاريخ في ألف إخراج، يكتشف الطغاة أنه من الأجدى تفويض الكتاب الأزرق بدل محاربتهم، فلا أسهل من تضليل الناس بكتاب فيه وعود. يتسلل داخلي حزن دفين على كم من ملهم وكم من برنامج طموح فشل وسيفشل في إصلاح هذا الجنس التعيس.

ها قد داهم خريف الحياة الأدمي المسكين فإذا بالذات المثخنة جراحا تلبس شكل فارس طويل، نحيف، بالغ الكأبة يمتطي ظهر حصان عجوز أكثر منه نحافة وحزنا، ووراءه يركض على حمار سيئ المزاج أصلغ بدين. تتساءل الذات الراكبة على الحمار بسخرية وعطف وهي تنظر إلى جزئها الراكب فوق حطام حصان:

- أما أن الأوان للخروج من أحلام لا خير يُرجى منها إن لم تتحقق ولا خير يرجى منها إن هي تحققت؟ عد إلى الواقع. ضع حدا لهذا التيه.

يهزّ الشيخ الكئيب كتفيه:

- عن أيّ واقع تتحدث أيها الغبي؟ تريدني أن أخرج من حلمي الجميل لأسكن كوابيس الآخرين؟

يا للرجل الحكيم. فهم أن هذيان الفرد وحده هو الذي يوصف بالجنون أما هذيان الجماعة فأساس كم من وديانات وايدولوجيات!

تلوح في الأفق جحافل الشياطين والجنّ وعلى رأسها "العبثية". تهمز الذات في شكلها النحيف حصانها، عاودها الجذل لمعركة جديدة مع هذيانها. إنَّها كتائب كبير الشياطين تنكرت في شكل قطعان غنم. إليهم يا سيّد فرسان الخيال. صوّب رمحك نحو قلوبهم، لا تأخذك بهم رحمة ولا شفقة. تصرخ الذات البدينة وهي تهمز الحمار بدورها:
- لأعملنّ معك، يا سيّدي، عصاي فيهم وفيمن خلق هذا الكابوس المسمّى "الدنيا".

ثم يرمي بسلاحه مقرّرا الخروج من هذيانه هو لينخرط في الهذيان الجماعي مكتسبا بالأمر صفة السويّ والواقعي، بينما يتوجّه دون كيشوت لمبارزة الطواحين مصلياً أن يصاب بضربة في الرأس تحمله إلى حيث الراحة الأزلية.
يتنهد الحمار الفيلسوف ويهزّ الحصان العجوز رأسه. يعودان إلى اجترار ذكرياتهما عن عالم يركبان فيه عربة من القصب الأخضر، تجرّها حيوانات منتصبة القامة لم يُعرف لها مثيل في القسوة والغباء وهي، لا غير، الشياطين التي تتخيل.
مشكلة المشاكل بالنسبة لمن يريد استكشاف فضاء الخيال اتساعه الأخرق. أسف إذن ليس لي القدرة على أخذك في سباحة داخل أساطير ما لا يحصى ولا يعدّ من القبائل البشرية فما بالك بدخول كل فضاء خاص تتكتم عليه الذات وهو مستودع أعمق أسرارها.

يبقى أهمّ سؤال: ماذا نفعل كلّنا في هذا الفضاء الخيالي القديم والمتجدد بكل إمكانيات الحواسيب؟
أول وظيفة تبدو بديهية وحتى بالغة الابتذال: التنفيس عن الكبت.

نعم، مجدداً يا لها من كارثة لو لم يكن لنا فضاء نلهث فيه وراء رغباتنا ولا نصلها... ويا لها من كارثة لو لم يكن لنا هذا الفضاء نعوض فيه حرماننا المتواصل منها. لذلك نستعجل دخوله استعجال التائه في الصحراء وصول واحة النجاة.
ثمة من يرفضون مفارقتة، أصابهم من رعب فضاء الحواس ما لا طاقة لهم بمواجهته ثانية. إياك ثم إياك من طول المكوث وإلا كنت كمن يرفض مغادرة الرحم والنتيجة الموت تعفنًا.
هذا إذن فضاء وظيفته الأولى رفع مؤقت لاحتقان ذات تفضح فيه أعمق شهواتها وتبلور فيه ما تريد أن تعترف أو لا تعترف به من طبيعتها... فضاء يسمح لك براحة لا بدّ منها... براحة متقطّعة... براحة موعودة وكل المطلوب عدم الإدمان.
ثمة وظيفة أخرى - أو قل إمكانية أخرى - أول من ينتبه لها الطفل.
يقرر أنه يريد أرنبه ناطقاً.

- أريد أرنباً يتكلم.

تستجيب القوة المجهولة فوراً:

- حاضر يا مولاي.

- أريد كائناً نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي.

يقلّب العالم شفّتيه وتلمح في عينيه ابتسامة ماهرة.

- حاضر يا مولاي.

- لا، بل أريد كائناً نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي وعلى جنبه جناحان.

تنصاع القوة المجهولة كأن لا همّ لها سوى تلبية رغبات الأطفال، تستقرّ فيهم عبر السهولة المشبوهة طمعا غير محدود.
بالتقدم في العمر تبرز حاجة ماسة لأدوات لا أشد منها ضرورة لرحلة موفقة وفضاء الخيال وحده القادر على صنعها .
المرشّاف نموذجاً.

من هذا الرجل المكبّل بالأصفاة، ما الذنب الذي اقترف، ما العقوبة التي يجزّ إليها؟ إنه مثقّف مرتزق ارتضى لنفسه دور كلب ينيح ويعضّ كل من يتهدّد سلطان سيّده. ولأنه تعلم في مدارس الشعب الغلبان وجامعاته واستعمل علمه في خدمة طاغية يسرق ويضطهد ويقمع ويحتقر هذا الشعب، فإن المحكمة العادلة حكمت عليه بعقاب المرشّاف وهي مصاصة مهمتها استرجاع كل المعارف من ذهن رجل لم يكن جديراً بها. تقول: هذا يعني أن المسكين! ... بالضبط، مُسحت ذاكرته وعاد دماغه مثل الصفحة البيضاء.

"المطهار" إضافتي الأخرى قل فضلي الآخر على الأجيال القادمة.

ما لا ننتبه له أن للروح افرازات مثل التي تخرج من الجسم باستمرار. كم مرة تشعر برائحة العفن تصاعد من كلمات مخاطبك فتنتبه أن روحه هي التي ضرطت. كل هذا لوجود مواد تختمر داخلنا، والمختمر مشاعر كريهة وأفكار مجرّمة. ثمة بالضرورة فضلات لمثل هذه التفاعلات يجب أن تجد طريقها للخارج وإلا تسممت بها الروح، تماماً كما الأمر لو منع الجسم من البول والفضلات. من الضروري الإسراع باختراع أجهزة لتطهير الأرواح حيث لا سبب لأن توجد القمامات والمصبات البلدية في فضاء الحواس ولا يكون لها مثيل في فضاء الخيال

ثمة أيضا "المزوار" وهو الذي يمكّنك من زيارة الذوات الأخرى، من التسلسل داخل ذاكرتها، داخل فكرها، داخل أحاسيسها ومشاعرها. تقول مصدوما: كفى، لا أريد المزيد، ثم تبتسم بخبث: رغبتى أن أتجول داخلك الآن. لا شكرا الجهاز مخصص للآخرين، أما أنا فلا أريد دخول أي ذات ولا أريد لأي ذات أن تتطّقل عليّ أكثر مما تفعل في "الواقع".

وفي مستودع فضاء خيالي شيء ينتظر مخترعا عبقريا ينقله من فضاء الخيال إلى فضاء الحواس: المرحال. داخل الجهاز الذي تفقّفت عنه كل عبقرية الذكاء الاصطناعي والعباب الفيديو يورّق المرتحلون "كاتالوج" زاخر بأجود الرحلات لينتقوا منه ما يريدون مجانا. تفضّل. كأنك غير مطمئن لخدمات الجهاز وتريدني أن أجرب أمامك؟ لا شكرا، والدليل على حكمة رفضي هذه المرأة التي تضرب بقوة على الجدار الشفاف تصرخ أريد أن أخرج! أريد أن أخرج! هل اكتشفت المسكينة التي سحبت لها طاولة القمار المرة الأولى رحلة أنثى معاقة فقيرة سوداء دميمة والتي اختارت هذه المرة رحلة أميرة باهرة الجمال، أن العالم ورّع متاعب الرحلة وملذاتها بأكثر عدل مما كانت تتصور، أنه كلما زاد في عطايها كلما دقّ فيها أعلى الأثمان.

هل حدثتلك عن "المرصاد" وما أدراك ما "المرصاد".

أنت في هذا العالم كمن يشقّ طريقه في مدينة عائمة في الضباب، سكانها بشر من لحم ودم وعفران وأشباح، أخطر ما يترصد بك ليس هراوات وسكاكين قطّاع الطريق الحسيّ وإنما أفكار ثبتت في أشداقها أنياب قاطعة. هذا ما يجعل من الضروري تطوير علم التنبؤ بالحالة التي عليها العالم بخلق الجهاز القادر على الإنذار السريع بقرب بروز عاصفة دينية جديدة أو إحصار استبدادي قادم، أو طوفان عنصري آخر، أو موجة طريفة من الجنون الجماعي، أو حرب أقطع من كل التي عرفنا. تصوّر وجود هيئة رصد تنذر بأن الأجواء غير مهيأة لرحلة فيها الحد الأدنى من الضمانات فيقرّر جيل عاقل إرجاء ولادة الجيل المقبل لتترك الوقت لتبخّر الليبرالية والوطنية والقومية والعنصرية والأصولية وصراع الحضارات، وكم من ملوثات أخرى.

ماذا لو صل المرتحل لاستنتاج رهيب أن هذا عالم لا يرغب في مواصلة استكشافه وانه يكره فكرة الانتحار كمسرحية مخلة بالذوق السليم. هوسيجد في فضاء خيالي الحلّ أي "المعكاس" أي الجهاز الذي سيلوي عنق الطريق ليرجعك من حيث أتيت. الزمان الآن يسيل من المصبّ إلى المنبع. غدي البارحة وبعد الغد ما قبل البارحة. عيد ميلادي المقبل الذي احتفل فيه بتناقص سنة لا الذي يوضع فيه على كاهلي عبء سنة إضافية. عما قريب سأقول للشباب ما فعل بي المشيب.

يوم ناقص بعد يوم ناقص يستعيد الجسم ليونته، خفته، قوته. ذهبت أيام الظهر والركبتين. ذاب الشحم الذي في البطن وفي الأوراك. نبت الشعر على الرأس فاحم السواد. عادت للحواس قدرة رصد أدق اختلاجات المحيط.

تتدافع من المصب إلى المنبع سنوات الكدّ والجِدّ...، سنوات متراكمة التجارب...، سنوات اللقاءات الأولى مع الأدميين، مع فظاعتهم وروائعهم. يا إلهي هكذا كانت "ح" وهذه الصبية هي "ما" وهذا الشاب الوسيم هو الذي كان في قصتي "با"! كل هذه الوجوه التي تمعنت فيها يوما والتي اختفت بلا أثر! ...

يصل الزمان الراكض القهقري منعطفا ضروريا. تقصر القائمة شيئا فشيئا. تنسحب القوة من عضلات لم تعد مفتولة. يتقدم الطفل المشدوه بخطى حذرة نحو الموج بين فضول جارف وخوف داهم لا يكاد يصدّق ما يرى. كم هو عريض، كم هو متّسع وكم فيه من ماء. هل ستصدق "ما" وهو يروي لها كيف هو البحر!؟

إنها مرحلة تأجج الانتباه والعالم كأنه خارج لتوّه من ورشة الفنان الأعظم يعرض مفاتنه على أول زائر. هي أيضا مرحلة الانخراط في أولى قصص الوجد والطفل جالس ساعات عنيدة على باب المحطة يكفكف دموعه ينتظر من القطار الأسود الذي أخذ والده أن يرجعه له فورا.

يتلعثم اللسان، تتفكك الجملة وقد فقدت الكلمات انضباطها ومعناها. ترتبك القدمان والرجلان لا تقويان على حمل. أنا الآن على أطراف الأربعة أحيو، تركت المشي ورائي مع كل ما تركت من مكتسبات زمان الاتجاه المعاكس.

يتعالى صراخ الرضيع وهو يدفع بقدميه البضتين قماطا يقيّد حركته. إنها المرحلة من الرحلة والذات كالإسفنجة تمتص معطيات محيط غريب متقلب، تتفاعل معه أحاسيس بأحاسيس، مشاعر بمشاعر، لا تشوش على تفاعلها لغة قد لا تكون إلا تعويض خلل أفلتت منه بقية الكائنات. يطلّ عليه وجه مشفق يتساءل: من هذا الكائن الغريب الذي يلعب في عينيه شيء كأنه حضور جتّي أو كهل. صرخة الانبهار والرعب... الأخيرة هذه المرّة لا الأولى.

يبدأ تسلق النفق المظلم للارتقاء أخيرا في مسبح الماء الدافئ. ما الذي دهانا لنغادر مكانا كهذا نصرّ على الخروج لعالم كانت تبلغنا منه كم من إنذارات التهديد وكم من صرخات الألم؟

الخلاصة

فضاء الخيال هو الذي يسمح للذات المنهكة بالصراع في الفضاء الحسي براحة متقطّعة، وكل المطلوب عدم الإدمان.

هو الفضاء الذي يمكّن الذات من رفع مؤقت لاحتقان مزمن موجه تفضح فيه أعمق شهواتها، وتُبَلور فيه ما تريد أن تعترف أو لا تعترف به من طبيعتها.

هو الفضاء الذي نصنع فيه كل معتقداتنا حول أمهات القضايا مثل وجودنا ومن يسيّر العالم ولماذا لا يفصح أبدا عن وجهه الحقيقي إلى آخر الأسئلة ذات المعنى أو عديمة الجدوى.

لكنه أكثر من هذا. هو الورشة التي تختمر فيها أبيات الشاعر ولوحة الفنان وفرضيات الباحث وأحلام الأديب ومشاريع التأثر. هو مختبر المختبرات الذي يتواصل داخله مشروع خلق عالم يبدو كأنه لم ولن يكتمل أبدا.

خاصية بالغة الأهمية لهذا الفضاء يتشارك فيها مع بقية الفضاءات التي تشكل العالم: الحيوية المذهلة التي تجعلك تقف مشدوها أمام ورشة لا تتوقف فيها الأشغال أبدا في قضية الحال بحثا محموما عن الجدة والطرافة والتنويع والابتكار في الأساطير، في الفنون، في الشعر وفي كل الميادين التي تلعب فيها المخيلة دور المحرك الرئيسي.

**

أو كيف أنه عالم متواصل الصنع بلبنات أخرى اسمها الأرقام

في ملف محفوظ بكثير من الحرص في أعماق طبقات الذاكرة يتوجه المعلم المرهق إلى قسم هائج على الدوام:

- هيا يا أطفال، افتحوا الكراسي وانقلوا جدول الضرب الذي عليكم حفظه عن ظهر قلب.

يعود الطفل إلى نفس الأغلاط مدفوعا بعيب فيه ما هو موروث وجله مكتسب.

- سيدي، لماذا يجب أن تكون أربعة في اثنين ثمانية؟

- هكذا. لا جدال في جدول الضرب.

- لماذا هكذا، سيدي؟

- أتريد العودة إلى الركن؟ قلت لك لا جدال في جدول الضرب ولا في قواعد القسمة والطرح. والآن تمرين الصباح: اشترى

حسن برتقالتين بعشرين مليما للبرتقالة، ودفع مائة مليم للبائع. كم يجب أن يرجع إليه البائع؟

- سيدي، هل البائع نزيه أم كالذي يسرق أمي؟

- تسخر مني يا وقح! ركز على التمرين.

كم هي مثيرة هذه الرموز عندما تتسبب في قصص عن برتقال يُباع ويُشترى، وقطارات تصل في الوقت ولا تصل، وسيارات تركض وراء بعضها البعض، وبساتين زيتون يجب أن تُقسّم بين الورثة، وكم ينال زيد وعمرو بعد أن أوصى أبو زيد بالثلث لزيد وظلم عمرا فلم يترك له إلا الجزء العاشر من الحقل. يا لغرابتها وهي تتدافع من المجهول لتفعل أفعالا خاصة بها مختلفة عن أعمال الحروف، إذ تستطيع أن تتجمّع وتتناقص وتتقسم على بعضها البعض، وتلد أرقاما أضخم وفق قواعد في غاية البساطة.

تنبّه الأرقام الطفل لكون العالم يزخر بأشياء متباينة تنتمي إلى مستويات مختلفة يجب عدم الخلط بينها، حيث أنه لا تستطيع أن تضرب برتقالة في قطار، أو أن تقسم القطار على البرتقالة، أنه لا يمكن أن تشتري قطارين بعشرين مليما للقطار الواحد، وأن البرتقال لا يتسابق فيما بينه للوصول إلى المحطة.

يكتشف الطفل أيضا أنّ لهذه الكائنات العجيبة قوانين وحياة خاصة لا علاقة لها ببرتقال أو ورثة.

من إشكالياته ذلك اليوم الذي بقي راسخا في ذاكرته معضلة كانت بداهة فوق طاقاته وحتى فوق فهم من يسأل.

- سيدي، ما معنى صفر؟

- الصفر عدد يرمز إلى شيء لا وجود له.

- كيف يمكن أن يكون هناك شيء غير موجود؟

- قلت لك كفت عني أسئلتك؟

يعضّ الطفل على قلمه ثم يتجاسر بالسؤال الذي يؤرقه.

- سيدي، هل يمكن أن أضيف ما أريد من الأصفار إلى واحد!

- طبعا، وفي كلّ مرّة يرتفع العدد فيصبح عشرة ثمّ مئة ألف ثمّ عشرة آلاف، إلخ.

- سيدي، سيدي، ما اسم هذا العدد الذي ملأته به الصفحة؟

- ماذا تفعل؟ ما هذا العيب؟

- اضفت كما قلت لي صفرا بعد الصفر ثم صفرا آخر وآخر وآخر... سيدي!! سيدي!! بؤسعي أن أملا الكراسي بأكملها

بالأصفار!

- يا مجنون، اذهب إلى الركن ولا تتحرّك، أنت معاقب إلى نهاية الحصّة.

يقف الطفل مجددا أمام صديقه الحميم: الحائط. يدرس الشروخ والبقع التي على سطحه، في الوقت الذي يواصل فيه فكره متابعه سلسلة من الأصفار تخرج من الصفحة، من الكراسي، تتسلّل إلى الشارع، تتسلق كل جدار يضعه في وجهها لتتساب كالسيل العرم مواصلة زحفها، ووراءها أصفار جديدة تخرج من العدم وتدفع بالطابور دوما إلى الأمام. إلى أين وإلى متى؟

يصاب بالدوار وهو يكتشف أنّ لا شيء قادر على إيقاف زحف الأصفار. هو يجهل وهو في هذا العمر أنه ارتطم باكرا بمعضلة اسمها "اللانهاية" دوّخت قبله كمّا من عقول أطفال كبروا وكبرت معهم المشكلة. تُرى، هل جُنّ "كانطور" من فرط البحث عن حلّ لها أم هل كان مجنونا من الأصل ليحاول إدراك ما لا يُدرّك؟

لم يكن الطفل واعيا أنه لا يرتطم بأصعب المشاكل التي يواجهها الذهن البشري فقط وإنما أنه يلهو بجزء أساسي من اللبنات التي تشكل عالمه.

تخيّل أنه جُنّ جنون جدول الضرب فجأة فأصبحت نتيجة 3x3 مرة 99 ومرة أخرى 999 ومرة ثالثة 3!

تصوّر تغيير ايسط القواعد التي تعلمناها في الثانوية مثل أن ضرب السالب في السالب ينتجته إيجابي لتصبح القاعدة أن ضرب السالب في السالب يؤدي مرة إلى صفر وأيام الأحد والعطل إلى سلبى مضاعف!

تصوّر أن الأرقام رفضت الاعتراف بالصفر أو بقواعد القسمة والطرح!

تصوّر فيروسيا لا يقهر حكم بالشلل النهائي على كل حواسيب الفضاء والأرض.

لو استولى كاتب من الخيال العلمي على هذه الفكرة وطوّرها إلى ابعده نتائجها لوصف احتضار عالم استشرت فيه فوضى عارمة تشهد موت الناس داخل المصاعد واحترق شبكات الكهرباء وهبوط الطائرات فوق الطرق السيارة وخروج الأقمار الصناعية والصواريخ من مداراتها الطبيعية وتوقف المواصلات والاتصالات بين الأمم والعائلات والأفراد. حدث ولا تسأل عن انهيار البورصة وشلل جل دوليب الإنتاج الصناعي والخدماتي وعودة الاقتصاد لما قبل العصور الحجرية وانفجار ما لا يحصى من الحروب تسقط فيها الصواريخ النووية على مطلقها.

كم بديهي أن للأرقام دور مركزي في تشكيل العالم الذي نعيش لا تقل أهمية عن دور الحواس والأفكار وصور الخيال.

هي التي تضع للعالم حدوده الحقيقية فلا ضوء يتحرك بأسرع من رقم معين ولا حرارة تنزل تحت رقم آخر ولا مجال لحياة تدوم أكثر من رقم ثالث... الخ

هي التي تصف هذا العالم أدق وصف، تحصى، تقيس وتصنف جلّ مظاهره. لا أكثر طموحا عند كبار الباحثين في أسراره قدر طموحهم أن توضع اكتشافاتهم في معادلات حسابية انيقة دعوماتها الأرقام.

هي التي تصنع ملامحه التي نعرف فلولها لما حلقت الطائرات في السماء ولما ارتحلت الصواريخ نحو القمر والمسابير نحو المريخ ولما انتصبت ناظحات السحاب على الأرض.

هي التي تمكن الدول من إدارة مساحة الأرض التي تحكمها بإحصاء سكانها وحساب ما يتكفون من خدمات وما يمكن اعتصاره منهم من ضرائب.

هي التي تحدد للأشياء قيمتها في المتاجر وللشعر قيمتهم عند البنوك.

هي التي تساهم في إعطائك هويتك أي مكانك داخل قافلة المرتحلين وأنت معرف لدى الأمن والضمان الاجتماعي ومصلحة الضرائب وشركة المواصلات والبنوك بجملة من الأرقام لو ضاعت أو سرقت منك لوجدت نفسك في أصعب الأوضاع.

هي التي تفتح لك الأبواب أو تغلقها أمامك إن جهلتها أو نسيتها.

ومن غرائب هذه الرموز أنها جزء من غرابة العالم نفسه فلا اتفاق بين خيرة العقول حول طبيعتها والجدل متواصل بينها منذ قرون. هل هي كائنات يخلقها الذهن وموجودة داخله أم هي كائنات هلامية موجودة خارجه ومحكوم عليه باكتشافها في مخابئها السرية واستكشاف كل ما تزخر به من خصائص وإمكانات عجيبة.

وأیضا هي مظهر من جمال العالم إذ تبلور في المعادلات الحسابية البالغة الأناقة جمالا كالذي يبهرك في أروع اللوحات أو السمفونيات. كم من علاقات وطيدة مخفية بين الموسيقى وبين الأرقام انتبه لها أكثر من موسيقي عبقرى.

أهم ما في الأرقام أنها اليوم أدوات طفرة من الخلق غير مسبوقه على كثرة من عرف العالم من تغييرات جذرية.

أيّ آدمي كان قادرا زمن الطفل على التنبؤ بالثورة التي سيحدثها في عالم الأدميين رقمان الصفر والواحد أقرب رفيق له.

بخصوص هذا الرقم، هل ثمة أهم منه في وعي ولاوعي الأدميين منه وهم لا يُقرّون بالحب إلا للحبيب الأول، لا يعظّمون وطننا أو زعيمنا أو شاعرنا إلا وأسموه الأول، ومنهم من لا يعبدون إلها إلا لإيمانهم أنه وحده الواحد الأحد.

حقا إنّها لضربة الحظ أن أكون من الجيل الذي عايش ولادة فضاء لم يعرفه لا المشرقي ابن فضلان ولا المغربي ابن بطوطة.

حالنا في هذا العصر كحال رحالة فوجئوا يوما في الفضاء الحسي ببروز قارّة سادسة بين شواطئ أوروبا وأمريكا وذلك نصب أعينهم، تذهلهم بما تحفل به من غرائب وعجائب لا أحد كان يتخيّل وجودها.

ما أغربها رحلة في هذا الفضاء الجديد وكأن اجدادي البدو أضافوا للصحراء التي كانوا يذرعونها طولا وعرضا صحراء أخرى انتجتهم قريحتهم ومع ذلك لا تقلّ موضوعية وحقيقة وتأثيرا عن تلك التي وجدوها عند خروجهم من رحم امهاتهم!

لا شيء معهود ومألوف في هذا الفضاء الجديد الذي تصفه اللّغة بالافتراضي.

بخصوص الأماكن التي يعجّ بها والتي قد تودّ شدّ الرحال إليها، ننصح بعدم تضييع الوقت في محاولة الكشف عن أين يوجد “ياهو دوت كوم” أو “اكساييت دوت كوم”. لن تجده على أي خريطة جغرافية. إن حاولت، كنت كمن يبحث عن جزر واق الواق في الفضاء الحسي... حتى ولو كانت “واق الواق دوت كوم” موجودة بل يسعك أن تخلقها أنت بالذات.

يتغيّر أيضا بصفة جذرية مفهوم آخر بيّنا عليه بديهيّاتنا في التعامل مع العالم: الزمان.

في “فضاء” الحواس أنت بحاجة إلى شيء من الوقت لكي تتحوّل من مكان لآخر. أما في “الفضاء” الافتراضي فالأمر فيه كما لو كان بوسع ماجلان -وهو جالس في جوف باخرته بلبشونة- الانطلاق من البرتغال إلى جنوب القارة الأمريكية، والقفز

منها فوق الفيليبين -حتى لا يُغتال في معركة تافهة مع المتوحشين- والتوقف في جوا و عدن للتبضع ثم العودة إلى لشبونة... كل هذا في دقائق معدودات.

في هذا " الفضاء " أنت مثل زائر يدخل متحف اللوفر بحثا عن لوحة مونا ليزا، فَيُفاجأ بجدران قاعات المتحف تتباعد واللوحات والتمائيل تتزايد عددا بسرعة مذهلة وفي كل الأركان وكَم من ليونارد دافنشي جديد عاكف على الرسم ينافسكم من بيكاسو في الطرف الآخر من المتحف.

خاصية أخرى أن المشي فيه لا تعب فيه ولا منغصات المغامرات المثيرة التي واجهها مستكشفو " الفضاء " الحسي مثل بعض المستنقعات الاستوائية وديبة القطب الشمالي وأسود الأحرار الإفريقية وضباط مطارات الدول الاستبدادية. لا خوف عليك أيضا أن تعرّض طريقك سيارة افتراضية يقودها مخمور أو أن يخرج لك من إحدى المنعطفات شقي يصرخ فيك يطلب حافظة نقودك وإلا أخذ حياتك. هذا لا يعني أنه خالٍ من المطبات والأخطار. كل ما هناك أنها من أنواع لم نعهدها في "الفضاءات" الأخرى.

ينذرني الحاسوب أنه على وشك إطلاق آخر نفس، وأفهم أنني أتعرض لهجوم غادر جديد، ففي مكان ما من "الفضاء" الغريب أطلق مجهولاً فيروسا طائشا أصاب منه مقتلا. هذه ليست المرة الأولى التي يحترق فيها قلب الجهاز، وسأضطرّ للسهر ليلالٍ وليالٍ لإعادة صب المعلومات في ذاكرة جهاز جديد أو هذا الجهاز المسكين إذا أمكن إنقاذه مرة أخرى.

من هذا الذي يدمر بصفة دورية الجزء من "الفضاء" الذي اقتطعته لنفسى، والذي أستودع فيه ما أكتب عليّ أتخطى رقابة الورق؟ لا مجال لأن أضع عليه أي صورة أو أي اسم على العدو الخفي.

هذا ما يقودني إلى الحديث عن الأدميين الذين يتحركون داخل "الفضاء" العجيب.

أنت تتعامل فيه مع كائنات لا وجه لها تتسمى بك من اسم غريب، لا تستطيع أن تحدد لها مكانا كما لو كانت من جنس الأشباح والغفريات التي يحفل بها فضاء الخيال، والفارق الهام أن لهؤلاء الأشباح فعل لا يتوقف في أخص خصائص حياتك.

ولولا أنني واحد من هذه الكائنات التي تتفاعل على شاشة الحواسيب، وأعرف حق المعرفة أنني أدمي بجسد وروح وفكر، لما أقنعتني أحد أنه ثمة علاقة بين بشر اللحم والعظم وسكان هذا الفضاء.

ثمة إذن، للآدمي اليوم مستوى جديد من الوجود كان يجهله إلى حد الآن، يجعله يلبس ما شاء من الأقنعة، يتخذ له أكثر من عنوان، يؤثر من أبعد نقطة في "الفضاء" الحسي، يدخل البيوت كالروح الهائمة لا يتفطن لتقلبه أو لسرقته أحد، وربما يعيش ما لا يحصى من القصص الموازية.

الأغرب من هذا كله أن هذا "الفضاء" بصدد ولادة جنس جديد من الكائنات الذكية يسمونها الروبوتات يحركهم ذهن استوعب أحسن ما في أذهان البشر يسمونه الذكاء الاصطناعي وسيلعبون في حياة الأجيال القادمة دورا لا نقدر خطورته. لمن لا يعلم، بدأت في بعض أصقاع الأرض الأكثر تقدما في ميدان التكنولوجيا الحديثة، قصص الحب والغرام بين آدمي من لحم ودم وروبوت جميل يعوض الأدمي المسكين كل ما لم تُعطه أمه من حنان وصديقتة من وجود دائم يخفف عنه آلام الوحدة. بل ثمة في بلد اسمه اليابان مراسم زواج بين الأدمي في نسخته القديمة والأدمي الافتراضي. كل التهاني وبالبنين والبنات حتى وإن كنا لا نعرف كيف سيكون هذا النسل الجديد.

ما يشد الانتباه أن هذا "الفضاء" الافتراضي هو أيضا -مثل "الفضاء" الحسي- ساحة حرب لا تتوقف في كل الميادين وعلى كل المستويات. كم من جنرالات بخمسة نجوم يُعدون في هذه اللحظة لأشكال جديدة من الحرب الحواسيب فيها بمثابة رجمات الصواريخ، والصواريخ برامج محملة بكل أوامر خراب ودمار المصانع والمنشآت الحيوية!

هو مجال يلوّثه المرتحلون بنفاياتهم. يُقال إن بعض المشرفين على تنظيفه أصيبوا بانهايار عصبي أمام فضاة ما يتزاحم فيه، أمام بفونوغرافيا أطفال ورضع ومضاجعة حيوانات ومراسيم عبادة شياطين وآلهة دموية وقرابين تُقدّم لها والذبح على الهواء مباشرة.

هو أيضا قمامة تصب فيها مجاري صرف صحي تفيض بنجاسات أرواح ملايين المختبئين في أوكارهم، تماما كما هو الحال في "الفضاء" الحسي، حيث يختلي كل واحد بمراحضه يتخلص من نجاسات الجسد تاركا لمجاري الإسمنت مهمة التخلص منها بعيدا.

لكن مهلا، أي حكم كنا نطلقه على الأرض لو دخلناها وهي ما زالت سهولا سوداء لفظتها البراكين لتوها لم تُعطها بعد الحشائش والأزهار، ولم ترتفع فوق سطحها الأشجار وما يصيح على غصونها من عصافير؟ أي حكم كنا نطلقه على "فضاء" الحروف وهو أولى العلامات على لوحات طين يتبادلها كهنة أراتا وتجار أورو؟

ظاهرة هامة أخيرة تميّز هذا الفضاء العجيب عن بقية الفضاءات.

لا قدرة لك لا اليوم ولا غدا على تلمس الذرات، على استنشاق عطر النجوم أو رؤية مظاهر الطبيعة كما يراها الدلفين والنسر مما يعني أن حدود فضاء الحواس ثابتة أو صعبة التحريك حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار ما نستعين به من أجهزة مثل المجهر الإلكتروني أو التلسكوب الفضائي.

على العكس من هذا ترى دفعا للحدود في كل الاتجاهات في فضاء الفكر وفضاء الخيال والأجيال تراكم فيهما شلالات وأنهار من الكلمات والأفكار وابداعات جماعية كأنها لا تتضب أبدا.

ومع هذا تبدو عملية توسيع المجال ودفع الحدود إلى الأبعد في الفضاءين متواضعة بالقياس للسرعة العجيبة والمفزعة في تطور الفضاء الافتراضي وهو يراكم في جيل واحد من معطيات وقدرات ما لم تحققه كل الأجيال التي سبقتنا. هل سيعيش أحفادنا داخل عالم مصنوع بالأساس من الخوارزميات وبصفة ثانوية من الحواس الست؟ أي معنى للرحلة في هكذا عالم بل أي نوع من البشر سيرتلون فيه؟

الثابت أن الفضاء الافتراضي في بداية تشكله وأن الرحلة ستعرف فيه قصصا غير مسبوقه لم يعرف لها تاريخ المرتحلين مثيلا.

ليكن، وهنيئا للأحفاد تمتعهم بحريم من الروبوتات مستلّفين على ظهورهم في صناديقهم البلورية وخبوط غير مرئية مزرعة في أدمغتهم، يتجولون داخل المجرات وشوارد الذرات. نعم، هنيئا لهم سهولة السفر وكثرة ما سيعيشون من أعرب القصص. لكن أي لذة يمكن أن تضاهي لذة المشي حافيا على العشب المبلل بقطر الندى، أو على رمل الصحراء عندما يأتي المساء، أو في وجه الريح وزوبعة الثلج؟

هل ستعطي البرامج التي سيضعونها في المستقبل أحسن من هذه الأحاسيس والمشاعر، وما على الأجيال المقبلة من الرحلة إلا النقر؟

لينقروا ما طاب لهم من النقر، أما أنا فأفضل الأصل على صورته، ولو كانت أحسن من الأصل.

الأصل؟ الصور؟ وهل لهذا العالم أصلا أصل، أم له ما لا يحصى من الصور و"الأصل" نفسه واحدة من بينها.

ثمة سؤال محير آخر يُثيره ظهور هذا الفضاء الذي لم تعرفه آلاف الأجيال التي سبقتنا هو هل ما زال هناك فضاءات أخرى ستتمخض عنها عبقرية الذهن البشري؟ والسؤال داخل السؤال هل قطع كل هذا الشوط من الطريق لأكتشف وأنا في آخر مراحلها أنني كنت مجرد رحالة بدائي حبيس جسد بدائي بحواس بدائية ولغة بدائية يتحرك مشيا على قدمين،... وأني وسأعادر العالم وهو على وشك فتح بوابات على فضاءات ورحلات لا يتخيلها أخصب خيال لأنبغ كتاب الخيال العلمي.

**

كل ما يمكن قوله حاليا عن طبيعة العالم

الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه في هذه المرحلة من رحلتي أنه لا الشمس مصنوعة من ذهب قرطي " ما " ولا القمر قُد من فضة خلخالها وإنما هما مصنوعان مما صنعت منه ظواهر العالم الأخرى.

السؤال مما صنَع هذا العالم الذي صنَع الشمس والقمر وهذه الظواهر الأخرى؟ مواصلة لخربشات طفل منفيّ لآخر الصف ومنشغل بوضع أولى التصاميم، وبعد أكثر من نصف قرن وأكثر من محاولة لم تذهب بعيدا، إلى رفاق الرحلة التصور الأخير.

العالم مصنوع من فضاء تصنعه الحواس الخمس وسميناه فضاء الحواس، من فضاء تصنعه اللغة وسميناه فضاء الأفكار، من فضاء تصنعه المخيلة وسميناه فضاء الخيال ومن فضاء تصنعه طاقة -أداة أخرى للذهن هي الحساب وسميناه الفضاء الافتراضي.

وأیضا أن هذه الفضاءات الأربع -التي هي بمثابة الهيكل الأساسي للعالم- ليست مثل غرف البيت وكل غرفة بحدودها الثابتة وفضاءها المنفصل. هي مثل ألوان قوس قزح التي تشكل النور أي انها تصنع على تباينها من تمازجها وتداخلها وتظايرها شيئا واحدا هو هذا الذي نسميه العالم.

للأسف يطرح هذا التصور من الأسئلة أكثر من التي يحاول الإجابة عنها.

استعراض سريع لأهم ما يثير من تحفظات.

إذا قبلنا أن العالم معطى حواس/فكر/خيال/أفعال الذات/ ألا يعني هذا أننا لا نستكشف إلا ما نخلق؟ ألا يؤدي بنا لاستنتاج واحد هو أن الذات مرآة العالم والعالم مرآة الذات أو أنهما وجهان نفس قطعة النقد؟

طبعاً. من أين للعالم أن يكون شيئاً موضوعياً مستقلاً عن الذات متقدماً على وجودها، أوجده إله أعمى لا واعٍ تسميه "الطبيعة"، أو إله واع مبصر له من الأسماء ما للبشر من لغات.

هو ليس مصنوعاً فقط من معطيات حواسها ولغتها وخيالها وأفعالها وإنما أيضاً من مزاجها. ألا نجرب جميعاً أنه دوماً بلون وطعم مشاعرنا؟ لما نكتئب يفقد كل مذاق وحين نرقص طرباً تراقصنا السماء والأرض!

ماذا عن الاعتراض القديم قدم الفلسفة لهذا التصور الموصوف بالمثالي؟

ثمة دوماً من يذكرك من الموضوعيين أننا نرث العالم عن كل الذين رحلوا وإنه سيتواصل بعد موتنا مما يعني أنه موجود بغض النظر عن وجود الذات.

صحيح أن عالمي الخاص الذي تشكل طوال رحلتي بما فيه من تجارب حسية/شعورية/فكرية/خيالية سيرحل برحلي وينتهي بنهايتي.

لكن ماذا عن عالم الموضوعيين هذا يوم يطلق آخر الأدميين أنفاسه؟

كل ما نحن متأكدون منه انه سينقرض كما انقرض العالم الذي تبلور وبلورته الديناميات وكم من جنس حي آخر رحل نهائياً ورحل معه عالمه.

معنى هذا إن صدقت هذه الرؤيا اننا لسنا أمام عالم في المطلق كما يتصوره هؤلاء الموضوعيون وإنما أمام عوالم بعدد الأجناس الحية التي وجدت والتي ستوجد في المستقبل.

أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟ بقية الصعوبات.

اعتبر الآن الفضاء الحسي الذي يرتحل فيه زيد. يمكن ألا يتجاوز قطره الأربعون كيلومتر انطلاقاً من مكان الوصول. داخل هذه المساحة التي يتحرك فيها الأغلبية الساحقة للأدميين، يولد المرء وينمو ويتزوج ويخلف ثم يموت لا فكرة واضحة لديه عما يوجد خارج حدود القاهرة رسمتها له الضروريات والصدف أولم يتجاسر على تخطيها نتيجة الخوف أو الكسل.

خذ الآن الفضاء الحسي لعمر وقد مكّنه حسن الطالع من أن يزرع الأرض طولاً وعرضاً وحتى أن يطلع للمحطة الفضائية الدولية. بين هاتين الحالتين القصوتين تجد الطيف الهائل للحالات التي يتخذها الفضاء الحسي كما وكيفاً.

شتان أيضاً بين من يرتحل في عالم تتحكم فيه أفكار السحرة وبين الذي يرتحل في عالم النسبية العامة وميكانيكا الكم...بين الذي يرتحل في عالم دعاماته "فكريات" العرق والوطن والأرض المقدسة والعدو الوراثي والبقاء للأقوى وبين الذي يرتكز عالمه على "فكريات" الديمقراطية وقوة الشرعية والعدالة الاجتماعية.

حدّث ولا تسئل عن تباين نسخ العالم والفضاء الخيالي للشعوب والقبائل والأفراد مبني على تعدد وتباين الآلهة واساطير خلق العالم وسبب وجوده.

ألا يعني هذا أن العالم عوالم بعدد الذوات التي تبلوره ويتبلور فيها؟

أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟

وحده كائن كامل وأزلي كالذي تشير إليه أديان البشر تحت اسم الله قادر على معرفة ما يدور داخل كل ما وجد وسيوجد من الذوات البشرية وغير البشرية عن استيعاب كل ما في الكون من معطيات... ونحن لسنا هذا الكائن... المشكلة الأعمق أن حتى هذا الكائن موجود كمصطلح من صنع اللغة وخصائصه كلها من صنع الخيال، لا أدلّ على ذلك من كمية الإيمان المطلوب أي التسليم المطلق بحقيقة التصور دون مراجعة أو نقد وكمية العنف الضرورية لفرضه على من ليس مقتنعاً.

مواصلة الحفر في مفهوم يبدو أنه مثل بئر بلا قاع.

إذا كان العالم معطى حواس /فكر /خيال / الذوات ألا يعني هذا أنه موجود داخلها؟

لكننا نعيش فيه كما لو كان أكبر حاوٍ يحتوي على كل الموجود من المحتويات كالمظاهر الطبيعية والحيوانات والنبات والأشياء والكائنات الأدمية مثلنا. ألا يعني هذا أنه موجود خارج الذات؟

كيف يكون العالم موجوداً داخل الذات وخارجها؟

كأننا نقول إن الذات مثل سمكة تسبح في أعماق محيط مترامي الأطراف منغلق على ما لا يحصى ولا يعدّ من الأسماك والأصداف والمرجان والحشائش... وفي نفس الوقت أن نفس المحيط موجود بكل اتساعه وتعقيده في جوف هذه السمكة !!! من تبعات هذا التناقض:

إذا تناولنا مفهوم العالم كالوعاء الحاوي لكلّ المكان والزمان، لكل الكائنات وكل الأحداث، أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟

إذا تناولناه الآن كمحتوى داخل ما لا يحصى ولا يعدّ من الذوات أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟

وحيث أن الفصل بين التصورين مستحيل، لا يبقى للنص غير مواصلة رواية الرحلة والعالم تارة المحتوى الذي تخلقه أذهان أعرب المخلوقات وتارة أخرى الحاوي الأكبر المنغلق على كل الكيانات والكائنات.

آخر صعوبة قلماً تخطر على البال.

بداية العالم مشروع لا معطى بما أن محتوياته لا تثبت على حال وحدود كل فضاءاته كما أسلفنا لا تتوقف عن التمدد حتى وإن تباينت السرعة بصفة كبيرة بين البطء النسبي في الفضاء الحسي والتوسع المذهل في الفضاء الافتراضي. ألا يعني هذا أننا لا نصل لأرقى تصوّر للعالم إلا ويفاجئنا حراكه المحموم بتغييرات تجعل دوماً تصورنا هذا متقادماً تجاوزه الواقع الجديد؟

أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟

هل الخيار بين الوهم والإحباط؟ وهم المعرفة المطلقة وإحباط استحالتها!

حتى لا نتواصل ضحايا وهم المعرفة المطلقة لنتذكّر دوماً حدود الذهن البشري وأنه لا مجال لاستنفاد ما لا يُستنفذ.

حتى لا نسقط ضحايا الإحباط لنتذكّر دوماً أن أروع ما في العالم أنه لغز يستقرّ وينمي كل طاقات الفكر والخيال لتلتهب فينا جذوة الحياة الواعي وأنه -قبل أن يكون لغزاً للفكّ- أوليمة الله وعند الحواس الخمس التي لا تكذب خبرها اليقين.

**

الكتاب الثالث الطريق

قال أرجونا: إنني أتحرّق شوقاً لرؤية وجهك المقدس، إن كنت ترى ذلك ممكناً فأرني يا إله الألهة-ذاتك الأزلية. فردّ كريشنا: تأملني يا أرجونا-في أشكاله القدسية، إنها بالمئات والألاف نوعاً ولونا وشكلاً، تأملني في قوى الطبيعة، في النار، في الأرض، في الريح، في الشمس، في السحاب، في السماء، في القمر، في النجوم وفي كل قوى الحيوية والتعافي.

من كتاب الباجد جيتا

مقدّمة الكتاب الثالث

أستمع إلى الشعر بأي لغة. لن تجد في أجمل قصائده شيئا هاما إلا وكان انتباها لغرابية العالم، لجماله الأخاذ، لحيرة الأدمي وهو يتأمله يتقاسمه الانبهار والرعب.

الرسّامون هم أيضا من كبار المنتهيين. موني Monet، مثلا، وهو على امتداد الشهور يرسم للكاتدرائية العجوز نفس الواجهة، مغيرا موقع المشاهدة، مترصدا تغير الطقس واتجاه أشعة النور للعودة إلى الأشكال والألوان ولا شكل يشبه شكلا ولا لونا يشبه لونا في أي من اللوحات الثماني والعشرين.

ربما أكبر ما يميز الشاعر أو الفنان أنه هو الأكثر حفاظا على انتباه الطفل أو قل إن الطفولة عند أغلب البشر هي التي تشهد أوج هذه الحالة التي يفقدونها تدريجيا بتقدمهم على خطّ الزمان.

يصرخ طفل في الرابعة أو الخامس: "ما، المطر، المطر، المطر!"

حتى تعود إليك انطباعاته البكر، اخرج إلى العاصفة مرفوع الوجه ممدود اليدين والذراعين، كأنك أنت الذي دوت الطبول تدعوه إلى لترحيب بالرعد.

افتح عينيك كما لم تتفتحها يوما لتتأمل-عبر ومضات البرق الخاطفة-ما تتخذه جبال السحب السود من غريب الأشكال. لا تغفل عن متابعة تشكل نهر من نور يقسم فجأة سقف السماء إلى قسمين. إنها المرة الوحيدة التي سترى فيها سماءين، واحدة على يسار البرق وأخرى على يمينه، ولا من قنطرة فوق شرخ النور والنار. اخرج لسانك ليلتقط نصيبه من مطر يتسلل بين الثياب والجلد.

تابع وقع قطراته تتدافع على طول الظهر تبعث فيك موجات ألدّ قشعريرة.

أنت الآن المطر المتساقط من السماء، والبسيطة تفتح أمامك مسامّ جسدها.

ادخل أغوارها المظلمة العطشى.

هناك في أعماقها، أيقظ داخلك وداخلها كل البراعم.

ها هي الذات المنبهرة تسجل أن الومضات تتباعد، أن الزمجرة تخفت، أن اللهث والصفير يتباطأ، أن الكائنات الهيفاء تستعيد وقارها، أنها تنتصب من جديد ترنو شاخصة إلى الأعلى، أن أذرع الإخطبوط النباتي تكفّ عن صراع مع حي غير مرئي، أن حفيف يعود الأوراق همسا لا يكاد يسمع، أن الملامح العابسة تستعيد إشراقها المألوف.

لم يبق إلا رصد كيف تتسلل من بين الروابي السود أشعة الضياء لتقول إن فانوس النهار لم يعبا بهذا اللغظ كثيرا...كيف تعود السماء إلى صمتها على استحياء كأن الزعيق الذي ملئت به الأجواء فاجأها هي الغارقة دوما في صمتها العالي...

كيف تخرج الطيور من مخابئ لا يعرفها أحد...كيف تسترجع الكائنات المتحرّكة رغبتها المحمومة في الحركة...كيف تطلق عقيرتها بالصراخ لتعوض ما فاتها لما فرض عليها دويّ الطبول أن تخرس إجلالا لقوى ممنوع حتى الهمس في حضرتها...كيف يتسلق بسرعة خاطفة الفراغ الأزرق قوس من الألوان سرق أفكاره من لون الورد، من لون شفاه النساء، من لون الصحراء، من لون البحار، ومن لون البنفسج... كيف يرتفع قوس النصر بلا أعمدة، يمشي تحته الأدمي مظفرا منصورا والطبيعة هي التي تهلل له وترغرد... ثم كيف يخنفي تدريجيا كأن اليد التي رسمته قررت محوه من سبورة السماء؛ لا تريده- لسبب مجهول-علما ثابتا كالشمس والقمر.

حتى لا نعبر العالم كالجاهل التائه في أروقة متحف اللوفر لا بدّ إذن من توقّف حالة ذهنية: الانتباه.

أن تكون منتبها يعني إنك عدت إلى الأحاسيس والمشاعر كما نقشها العالم لحظة انبثاقه في الذات...أنك أفقت فيه مرة أخرى...أنك أدركت كم من ثراء مخفي وراء المألوف المبتذل.

لما تنتبه إلى رائحة الأرض بعد المطر أو رائحة الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت، يخيل لك أنك تشمها لأول مرة.

لما تنتبه للشمس تتجاوب الذات مع الظاهرة كأنها لم تعرف من قبل ما الشمس.

أن تكون منتبها يعني أن تعي فجأة بما تحت الظاهر البسيط من نظام وتعقيد.

أن تكون منتبها يعني أن تعي بكونك لا ترى من العالم إلا الزبد وأعماقه المظلمة محرّمة إلى الأبد.

أهمّ فضل وخاصية للانتباه نجاحه في دحر مشاكل الماضي بعيدا وطرد هموم المستقبل من ساحة الوعي لتتفرّغ الذات للحظة وقد تخففت من كل الأعباء. إنها حالة الاكتمال وقد تمازجت الذات بالعالم وتوقف سيل الزمان.

ليس من باب الصدفة أن يسمّى مؤسس دين كبير "بوذا" المنتبه. ليس من باب الصدفة أن يجعل هذا الدين الانتباه جزءا مكوّنا من "الساتور" وهو الهدف الأسمى لكل من يعبرون العالم في مثل هذه الرؤيا.

لاستعادة الانتباه قف أينما نشاء وتأمل ما حولك قائلا في نفسك إنها المرة الأخيرة التي أرى فيها هذا المشهد والأجل المحتوم في الخطوة المقبلة... أو يمكنك أن تتصوّر أنها أول مرة ترى فيها ما ترى.

أن تكون منتبها يعني إنك استعدت اكتشاف ما يزخر به العالم من حولك من غرابة حجبها التبلد حجب السحاب للشمس.

التبلد! إنها حالة تجربتها الذات باستمرار أهم خصائصها انطفاء الأحاسيس البكر، تبخّر الإعجاب والتعجب والتهيب أمام الخوارق والمعجزات التي تحاصرنا من حل حذب وصوب. هي أيضا الركون إلى شعور الألفة نطمئن عبرها أنفسنا ونوهما بأن العالم سيبقى على ثبات نفس الوجوه ونفس المناظر ونفس الأحداث، فلا نطالب بتواصل التحقّر.

دوريا أحاول الخروج من هذا التبلد وهو يكاد يصبح كبعض الهواجس مزمنًا.

هذه غابة عبرتها كم من مرة لكنني أفهم فجأة أنني لم "أرها" أبدا لأننا لا "نرى" إلا عندما نركّز على ما ننظر إليه لا يشغل بالنا سؤال أو ردّ.

فرصة للعودة إلى التمارين التي أحرص عليها لترويض النفس حرصي بالرياضة والمشي على ترويض الجسد.

يتسمّر البصر على ورقة انفصلت لتوها عن غصن شجرة البلوط. يتابعها وهي تتهاوى ببطء شديد كأنها تقاوم عبثا مصيرا لم يعد منه مفرّ. ترى كيف هي سكرات الموت عند أوراق الشجر؟ ها هي معلقة في الهواء كأن خشية الارتطام الموجع بالأرض التي ستكون لها قبرا زاد من مقاومتها للمصير المحتوم. ينفخ عليها الريح بقوة وكأنه ضاق ذرعا بما تأتيه من عبث فإذا بها تلف وتدور وسط أوراق صفراء أخرى تندافع كالعصافير أطلق عليها الصياد وابل الرصاص. هي لا تتسلق الفضاء لتختفي بين السحب إلا في خيالي. شيئا فشيئا تجد طريقها إليّ كأنها أدركت مشاعري فجاءتني تحتمي أو تشكر أو تودّع. تحطّ بهدوء على حذائي فأخذها بمنتهى الرقة كأنني أخشى عليها من اللمس. ما زالت صفرتها مشوبة ببقايا من الاحمرار، كالجسم الشاحب ما زالت تنبض فيه بعض بقايا الحياة. أضعتها في جيبتي ثم أغيّرت الرأي. مكانها على الأرض مع الأوراق المتعفنة السوداء التي فقدت قبلها وقبلنا معركة البقاء. قد يكون عزاؤها وعزائي أن العالم سيغرف منها مثلما سيغرف مني ما يحتاج لدورة جديدة من الخلق طبقا لقاعدة لا تعرف استثناء: قدر الموت التغذي بالحياة وقدر الحياة التغذي بالموت.

دوما على مقعدي أتأمل الأشجار متسانلا عن أسمائها واحدة واحدة. أغمض عينيّ للتمعّن بكل خلايا جلدي في أحاسيس بالغة الدفء، بالغة الرقة، بالغة المتعة تبتّها في الغابة العجيبة. يرتفع الهمس من الأشجار تروي لي قصصها. تلسعني بعوضة فأمنع يدي من ردّ الاعتداء والكائن الصغير لا يريدني إلا أن أنتبه لوجوده هو أيضا. على فكرة، كم كائنات حية تختبئ داخل هذه الغابة وفي السننيمتر المربع تحت قدمي؟ أه هذه أجناسهم وهذه آخر مشاكلهم!

من أين لي الزمن الكافي للانتباه كل ما يزخر به العالم من روائع ومعجزات؟

أفتح العينين استعيد موقعي داخل واقع مألوف مطمئن مكتشفا كما هو الحال بعد كل الحوادث الطارئة التي ترفع درجة الانتباه أن "الروتين" الذي ينفده بشدة أمثالي ليس بالبشاعة الكاذبة التي تنتهمه بها.

ربما هناك ضرورة قاهرة وحتى حكمة في التبلد.

أنت لا تنخز عضلة لتقبض المرة تلو الأخرى دون أن تترك لها وقتا كافيا للارتخاء إلا وأتت لحظة تضرب فيها العضلة على الردّ احتجاجا على كثرة الوخز.

كذلك على الذات أن تتصرف كالعضلة وإلا هلكت.

نبض الرحلة إذن ليس فقط سعادة فشقاء فسعادة الخ وإنما انتباه فتبلد فانتباه وذلك إلى نهاية الطريق.

ومن ثمّ ضرورة إعادة دعاء فاتحة الحياة: يا من تتوجّه له كل الصلوات، اجعلنا منتبهين إن لم يكن كل زمن الاستكشاف فعلى الأقلّ أغلبه... واجعل تبلدنا لا يدوم أكثر من ضرورة النقاط الأنفاس.

"كل نفس ذائقة الموت (جلال الدين الرومي)"

إلا أن الحياة لا تتنوقها كل الأنفس"

**

الديكور الفخم

أخيرا عرض المحيط غلب شوقي إلى الموج كلّ العواقب. يحدثونك بتهيب ووجل عن عواصف "بحيرة" كبيرة من الماء المالح كانت تذهب لها الطفلة "ما" مع جدتي لغسل الصوف. أيّ رعب مقدّس كان سيدهمهم لو وجدوا أنفسهم فجأة وسط هذا المحيط! تبدأ السفينة الصغيرة تسلقّ جبال سائلة لتسقط في وديان بلا قاع. يشتدّ الدّوار وتتحرك السوائل المشبوهة داخلي تريد التفجّر من فمي. ذلك لأن الخاصية المميزة للطريق في عرض البحر أنه لا يكفّ عن الصعود والهبوط. من لا يقدر أهمية هذه الملاحظة ما عليه إلا تصوّر حالته وهو يمشي بين بيته ومكتبه والإسفلت يتمايل به يمينا ويسارا، ثم يغور به في عمق الأرض، ثم يغيّر رأيه ليصعد بمحاذاة الطابق الرابع لأول عمارة تعترضه فيتهمه الناس بالنظر إلى نسائهم وهو من التهمة براء، ثم يعود به اللعين إلى مستواه الأول، يواصل مساره كأن شيئا لم يكن وبراءة القرش في عينيه، إلى أن تنزل منه أمام بيتك تترنح فيصفك الجيران بالعريبيد، في وضح النهار. نعم، من حسن الحظّ أن الطريق ثابت على اليابسة، وإلا عبرت العالم ضحية دوار البرّ والبحر وهذا أكثر مما يمكن أن يتحمّله حتى مسافر صبور مثلي. ها أنا الطريفة بين البرائن والبحر الصياد المظفّر.

تائب يا نبتون، رحماك توقّف. النجدة يا صحراء. تدخلني لدى سميك السائل! اللعنة، ما الذي أتى بي إلى مثل هذا المكان؟ تصرخ في امرأة: انظر هناك الحوت، الحوت، ما أضخم ذيله! إنه يضرب به على السطح تماما كما في الأفلام! هل رأيتَه؟ هل رأيتَه؟

أه، الحوت الذي ركبت هذه السفينة الصغيرة عليّ أظفر منه بنظرة هو الذي يسكن جزءا كبيرا من فضاء خيالي منذ قرأت له سيرة لا كبيرة الأنبياء والقديسين، كتبها له مريدٌ اسمه هرمان ملفيل. أرفع رأسي بحذر من فوق الطاولة، أخرجته من بين ذراعين أغلقنا عليه بكل حرص خوفا من أن يكون للسماء أيضا صعودٌ وهبوط.

تعود المرأة إلى الصّراخ: الحوت! الحوت! يا إلهي، قطع كامل من الحيتان! كُفّي عن الزعيق لوجه موبيديك. نعم، لقد رأيتُ الذيل الجبار في خيالي بعد أن أفرغْتُ كل ما في معدتي على فستان عجوزٍ أخرى أشبعتني نظرات ساخطة، لا تقبل صاحبُها بوجود البدو في عرض المحيط. هو أيضا صحراء، لكن من الماء لا من الرمل. ويدؤه الدلافين والسلاحف والحوت، يرحلون هم أيضا بحثا عن واحات مبعثرة في كل هذه الشساعة المرعية، يجدون فيها الكالأ والمرعى وجماعا يُجدّد الحياة. ما يقال إن هذه الواحات حدائق غناء تلجم بجمالها كل لسان، إن كائنات تتبارى في الغرابة والإعجاز تندافع فيها لا قدرة لأحد على رصد ثرائها بالأشكال والألوان، مما عاد به الرحالة الذين ذرعوا هذه المساحات الشاسعة من قصص لا تكاد تصدق، إن الصراع من أجل البقاء هو نفسه الذي تعرفه السماء والأرض.

قرب السطح ملايين الكائنات الصغيرة يزدرد بعضها البعض لتبتلعها أفواه صغار الأسماك. تحت هذا الطابق الأسماك الأكبر التي تبتلعها، ليبتلعها في طباق أعمق الأخطبوط العملاق. وفي الفضاء الذي لا يلحقه النور يجد هذا الكائن نفسه بين فكّي الحوت الخرافي. لا يطلع هذا الأخير إلى السطح ليتنفس إلا والصيد الأدمي على أهبة الاستعداد لتمزيقه إربا إربا. لله درّ فرسان الرياح والموج. إن شجاعتهم حقا أضرب من التهور أو الجنون! لم تكفهم أهوال البرّ ليخرجوا لمنازلة أهوال هذا البعبع المخيف، وأيضا لمواصلة حروبهم على سطحه وفي أعماقه؟

أن يخرج حانون أو أي بحار من قرطاج إلى البحر مرّة واحدة أمر قد يكون مفهوما. أن يعود إليه مرّة ثانية فأمر فوق كل تفسير. يا للمجنون أو يا للمدمن! نسي غرق الرفيق وقد خطفته العاصفة من الزورق ترمي به إلى البحر قربانا. نسي الجوع والرعب والعطش. مُجّي من ذاكرته كل ما عانى، عائدا للغول بل وبمحض إرادته! لو كنت مكانه لأدرت ظهري للموج والزبد من أول تجربة، ولركضتُ إلى أبعد نقطة، أحتمي من البحر بالجبال وبالبراري. لكن حانون عاد إليه كما عادوا كلهم، ربما لأنه لا رحلة على الأرض تساوي روعة السفر على صهوة الجواد الجامح. ربما عاد لأنه لم ير أجمل من غروب الشمس إلا وهي على خط الأفق بين زرقة السماء وزرقة البحر، أنه لم يعرف روعة أروع من سطح البحر ليلا وشحه طلوع القمر بنهر من النور.

كأنّي بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبت عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الصحاري السائلة لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

الرأس بين الركبتين والعينان مغلقتان يسترجع الشاب أول لقاء الطفل مع البعير المبهّر المرعب وهو يتقدّم بخطى حذرة نحو الموج بين فضول جارف وخوف مبهم.

تلك الليلة سألت "ما" طفلها ألا يبخل عليها بالتفاصيل.

فتح ذراعيه علّه يبلغ كم هو عريض كم هو متسع، فسقط الذراعان.

كيف يصف لها هيبه دويّ البحر وأمواجه بين مدّ وجزر؟

ما نفع الكلام في وصف سقوط الشمس شيئاً فشيئاً بين أحضان الموج واختفائها فيها!

من أين له الكلمات لوّصف سهول بلون السماء مترامية الأطراف لا يحدها سوى الأفق؟

كم يكره أن تظنه "ما" مبالغاً أو كذاباً!

تلك الليلة أب الطفل إلى مخدعه يتساءل هل سيلفظ الشيء الشمس مجدداً أم هل سيحتفظ بها نهائياً فتغدو كل أيامه ليالٍ بأشباح وكوابيس. من الغد ثواجه أمه برقع ابتسامتها العادية وهو يؤكّد لها، أنه اكتشف لماذا تبدو الشمس لامعة نظيفة كل صباح وأين تذهب لتغتسل كل غروب، فتتعمق القناعة عنده بلا جدوى الكلام عندما يتعلق الأمر بالبحر.

وفي صور أخرى لنفس الملفت، أراه يواصل تفكيره وقد تذكّر أن ماءه مالح مثل الدموع التي تسيل على خديّه. تتشكل أولى نظرياته أن البحر حفرة ضخمة مليئة بالدموع. من، يا ترى، بكى كل هذا البكاء؟ البشر الذين سبقونا طبعاً! برّيك، أليست هذه فرضية معقولة وقد وُصف هذا العالم أكثر من مرة أنه وادٍ للدموع. هل من مستودع أحسن من البحر، ولو أن فكرة السباحة في دموعنا ليست من النوع الذي يحبّب رياضة لا يعاب عليها شيء؟

كم حلّم يومها أن يضع خطاه -هو الآخر- على خُطى فارس الريح والموج وكلّ المغامرين الذين ارتحلوا على صفحة الماء، ليعرف أخيراً كيف هو وسط البحر. لكن من أين له تحقيق مثل هذا الهاجس هو الذي عاش في أحضانه القاتلة رعب الموت الوشيك ذلك اليوم الذي أوشك فيه على الغرق على بعد أمتار من الشاطئ؟

متى أفتعت مثل هذه الحجج الأدميين بالإعراض عن البحر وهو كما تقول القصص الشائعة اليوم الرحم الذي خرجت منه كل الكائنات؟

في ملفّ آخر ما زال في خضم مستقبل بعيد، رجُلٌ تجاوز السبعين، رأسه بين الركبتين يغالب موجة من الغنيان، ينساءل هل البحر الذي أمهله كلّ هذه السنين سيتركه يُفلس منه هذه المرة.

يأتيه من كل النواحي صُراخ البحارة المسالمين وهم يواجهون بأيدٍ عارية مسلحين داهموا السفينة الصغيرة، التي ركبها علّه يصل مكاناً سُجن فيه شعب بأكمله دون ذنب أو محاكمة.

فجأة ينكبّ أحد المهاجمين على الرجل الجالس ينتظر بهدوء ما الذي ستمخض عنه الأحداث، ومنها إمكانية الموت في الدقائق القادمة: سيدي لا تخش شيئاً، لو كنا نريد موتك لسلمناك لأعدائك الذين ينتظرون على بعد أميال. سنجرّ هذه السفينة -التي تريد كسر الحظر عن الإرهابين- إلى بلدنا وسيمكنك أخذ الطائرة والعودة من حيث أتيت.

نعم، وسيمكنني أن أنظر لهذا البحر من علوّ عشرة آلاف متر بأمان من أشدائه المفتوحة.

بالمناسبة، من قرّر أنّ على الأدمي بالضرورة شقّ الطريق على سطح البحر؟ أليس من الأسلم رسمه على الحواشي؟ أليس هذا ما فعله الأوائل حين انطلقوا هائمين على وجوههم؟ ألم يتبعوا الشاطئ آلاف السنين لا يحددون عنه إلا اضطراراً، يأكلون من ثمار البحر ويشربون من أقرب العيون وهم متردّدون بين فتح الطريق في البرّ أو فتحه في البحر، من شدة وعيهم بأنهم بين خيارين أحلاهما مرّ؟ أليست فكرة رائعة أن أمشي وعلّاي بيدي وبنظروني مرفوع إلى الركبة، قدماي في الماء إلى الكعب، أدور حول هذا البحر الذي عشْتُ كثيراً على ضفافه، أملاً عيني من تعرجات شواطئه الجبلية وشواطئه الحجرية، شواطئه النظيفة وشواطئه القذرة. ويوم أكملُ تأملي لكلّ هذه الأماكن أشرغ في دورة حول الذي يصفونه بالأحمر ثم الأصفر، ثم المحيط الأول والثاني والثالث. ثم أنهى البرنامج بالمحيط الأبيض، وهو على ما يبدو أبيض فعلاً خلافاً للبحر الذي أعرف والذي أشهد أنه أزرق. كل هذا وأنا في مأمن من غضب نبتون، أحمدُ من يتوجّب له الحمد أني لسْتُ الغريق بل وفي مأمن حتى من البلل.

وحيث أن عاهة غيبية اسمها "دوار البحر" حرّمت عليّ الرحيل على ذروة الموج، فإنني أحيلك إلى غيري من الرواة ليحدثوك عن البحر وما عاشه المرتحلون على ظهره.

كل إضافتي لأدب الرحلات البحرية ستقتصر على بعض الأفكار الفلسفية العميقة من نوع أن رحلة الحياة -مثل رحلة البحر- مغامرة طائشة على أمواج هائجة، لا تفصلنا عن أعماق الكارثة الفاتحة أشدّها غير قسّة طافية، ونحن نتشبّث بها وننتقيّ على بعضنا البعض.

*

حولي يتدافع الزوار في فوضى لطيفة وهذه الجبال من الأحجار معالم يحج لها الزوار منذ آلاف السنين من كل بقاع الأرض. أنا أيضا واقف أمامها لا أكاد أصدق أن بشرا عاديين تجمعوا بالآلاف طيلة ثلاثة عقود لرفع هذه الأهرامات بأيديهم العارية بيلورون كل ما في الأدمي من إرادة تتحدي كل العراقيل.

تتدافع داخل الذهن المنبهر أفكار مبهمة وصور غامضة عن أدمي اسمه هميونو، المهندس العبقري الذي أمر الصخور أن تنتظم لتتخذ هذه الأشكال الهندسية التي لا وجود لها في الطبيعة .

ثمة من لا زال مؤمنا بخرافة أن الذين شيّدوا هذه المعالم الجبارة التي تتحدى الزمان منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، تحملوا كل ما تحملوا من جهد، من عناء، من ألم من حوادث مروعة ومن موت فظيع تحت جلود صخر حطّه سوء الحظ من عل، فقط ليتمتع فراغة جبابرة اسمهم خوفو وخفرع ومنقرع بالخلود أبد الدهر.

لا تتوقّف أبدا عند الطبقة الأولى للأسباب التي يقدمها البشر لتفسير أو تبرير مواقفهم وتصرفاتهم... في قضية الحال، السطح تضحية آلاف من المستعبدين بعرقهم ودمهم اكراها من أجل حفنة من الفراعنة المستبدين ، والرأي جهل فاضح بطبيعة الأدميين إذ لا واحد منهم يحرك عضلة واحدة أن لم يكن لحسابه الخاص... تحت هذه القشرة، أسباب أعمق منها أن الذين صنعوا هذه الآثار الفخمة بعقولهم وأيديهم كانوا يرفعون الصخور فوق الصخور لاختبار حدود طاقتهم وتجاوزها، للتغلب على أصعب التحديات ، لإثبات نواتهم، سعيا لخلودهم هم في ذاكرة الأجيال... والفرعون واسطة في الأرض مهمته تجميع الجهود وتوفير الموارد وواسطة في السماء مهمته حفظ التوازنات السحرية للعالم وتعبيد الطريق لكل المرتحلين نحو العالم الآخر... أعمق الأسباب وآخر طبقاتها ولع الأدميين، ترك بصماتهم على عالم اعتبروه منذ بداية الرحلة ساحة لعب وتجارب لا فقط ساحة صيد... هكذا تراهم مند بدأوا يزيتون الكهوف يواصلون في كل مكان وزمان هندسة الفضاء الحسي على هواهم ، لا يكفون ولا يملّون من تجربة كل طريف وجديد وصعب ومبهر من الأعمال... ولسان الحال يقول للخالق الأعظم انظر ما الذي تقدر عليه نحن أيضا.

يجذبني من ذراعي رفيقي ومُضَيّقي، ابن المدينة التي تُشرف عليها هذه الهضبة التي طبقت شهرتها الآفاق.

- هيا، أفق من ذهولك، ما زال أمامنا بعض الوقت لفسحة قصيرة على النهر.

وهذا نوع من الطريق لا صعود فيه ولا هبوط، بل ولا يكأف المسافر أدنى جهد. تأتيني دوما عليه حالة من الارتخاء اللذيذ وأنا أستعرض الانسياب الهادئ لما يتزاحم على ضفتيه من مشاهد. نعم، هكذا كان علينا أن نعبر الحياة: جلوسا على كرسي مُريح والطريق هو الذي يتحرك ببطء. نتأمل من بعيد -وفي أمان-روائع العالم وفضاعته. أروّع ما في هذا المعلم القار من معالم العالم، أنه لا تشتكي منه ظاهرة مزعجة اسمها دوار النهر.

في طباع هذا النهر شيء يذكّر بزحف الثعبان لكنه ثعبان يعرف طريقه وليس كذلك الغبي المسمّى "أوكافانقو" الذي تدبّر أمره ليضيع في الصحاري ومعه كل من وثقوا أنه يعرف طريق البحر.

“هو النيل... (خالد فتح الرحمان عمر)

مقيقات كل العصور

راحل أبدا باتجاه الشمال

هو النيل

يعبر هذي التخوم... وتلك البحار

وذاك الغمام... وحدّ الخيال

يسافر في اللانهايات

ويبقى على شفتيه السؤال

عن نخلة يتناهى إليها المساء ويطلع منها الصباح

وعن تعب غامر يتساقى به الظهر فوق الحقول الفساح

يمازحني مضَيّقي:

- هيا يا رجل، اخرج من ذهولك، أنت لا تتكلم منذ ساعة.

- كم قرأت عن هذا النهر؟ لم أكن أتصوّره بهذا العرض!

- لهذا تسميه اللهجة العامية “البحر”.

- أهم تحدّ طرحه النهر على أجدادنا طيلة مئات آلاف السنين عرضّه هذا. تصوّر كم منهم وقفوا حائرين أمامه تتعقبهم الكواسر، وهم لم يأخذوا بعد دروسا في السباحة.

- حتى طوله أرهق الكثيرين وهم يبحثون عن منبعه.

- المنبع! لماذا لا تدير اتجاه الزورق نحو الجنوب إلى أن نصله؟ الطريق سهل لأول مرة، فلماذا لا نغتنم سماحته. نعم، لنركب ظهر هذا الحمار الوديع ليحملنا إلى حيث وُلد ووُلدت معه حضارتكم.
- كل ما أستطيع توفيره لك زيارة سياحية لبضع ساعات لا بعثة بأشهر. أخشى أن نتأخر كثيرا على العشاء فتزعل “الولية مراتي”. ثم يبدو أنك تتوسم الكثير من الخير بخصوص هذا النهر.
- رحماك، اترك لي بعض الأوهام.
- تذكر أن الذي تركب الآن هو الجزء المرهق منه، جزؤه العجوز. كأن ركض آلاف الأميال امتص منه كل حيويته. هذا النهر شيء جد مختلف في شبابه وطفولته أو هو يتشكل في رحم المجهول.
- نهر مؤدب كهذا! مستحيل. أنظر كم هو وديع هادئ ومسالم لا يريد بنا أبسط إزعاج.
- لو تابعت مجراه إلى الجنوب لطوّح بك بعيدا وسط الصحاري والأحراش منتهيا إلى مستنقعات شاسعة. وبعدها تدبّر أمرك، للتحرك
- وسط التماسيح والبعوض والذباب وما لا يخطر على بالك من الكائنات المفترسة، صغارها وكبارها.
- والبشر؟ إنهم أخطر ما أعرف من مشاكل الطريق. يا إلهي، أي عالم هذا! قلتُ لنفسي: أخيرا وجدتُ الجزء الآمن من الطريق، وتقول لي: لا شيء من هذا القبيل موجود. حرام عليك. طيب، ماذا سنفعل الآن بالأدمي وقد توقّف به النهر وسط مستنقع يطير فوق سطحه سحاب من البعوض، تترصد تحته التماسيح وعلى ضفته ينتظره البشر أكلو لحوم البشر.
- لا خيار له سوى أن يسبح بأقصى قدر من السرعة في اتجاه الشاطئ المقابل حيث ينتظره أسد فارغ المعدة نافذ الصبر، وإن نجا بجلده، عليه مواصلة التوجه دوما نحو المجهول.
- يا رجل، رحمة بالأدمي! اختصر. ما الذي حصل للمسكين وهو يواصل بحثه عن أصل الشيء؟
- ضاع في ألف اتجاه. لكنه لم يكف عن التردد: ما هي إلا بضعة آلاف من السنين قبل أن أكتشف هذا المنبع اللعين، ماذا يظن نفسه هذا النهر؟ هكذا سمع بعد قرون من الضياع ببحيرة تقول الشائعات إنها المنبع الذي يبحث عنه.
- برافو لأوائلنا ونحن خير خلف لخير سلف. الملاعين، عرفوا أرقى أنواع الرعب والانبهار وأنا في البلد الذي هربت منه أخذ المترو كل صباح لأسمع نقاهات الناس يصرخون في نقّالهم!
- كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبتّ عبر الزمن شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول:
- لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه المستنقعات وهذه الأدغال التي لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما شئت من رعيننا ومن انبهارنا البكر.
- أعود لممازحة مضيف كريم.
- لا تُطل، اسم البحيرة التي ولد فيها أبو حضارتكم؟
- بحيرة! قل بحيرات وكلها تصب في بعضها البعض. منها واحدة تقع على مستوى جبال شاهقة في اتجاه آخر غير الذي بحث عنه المستكشفون. يُقال إنها الخزان الرئيسي. كم من وقت ومن تضحيات لتتجمع أخيرا كل قطع “البوزل”.
- متأكد أن كل القطع جُمعت؟ ما أعرفه عن طبيعة الطريق أنه يحرم أمرا كهذا.
- ثمة صور التقطت من الفضاء وكم من برهان آخر.
- طيب، من أين يأتي الماء الذي تفيض به البحيرة الأم لتلد نهرك هذا؟
- من قمم شامخة مكلّلة بالثلج أصبحت خرائطها معروفة وموثقة.
- وقبل ذلك.
- ماذا تقصد؟
- فهمتني، أين كان ماء تلوج قمم الجبال؟
- يضحك مرافقي.
- في السحب طبعا.
- وقبل تجمعه في السحب، من أيّ بحر تظنّ أنه انطلق؟
- أتصوّر صعوبات رسم خريطة تصرّ على رصد كل المنطلقات وكل المسارات.
- إذن تتفق معي أنه لا أحد يعرف أو سيعرف يوما منبعه. محكوم علينا أن نجعل دوما بداية الأشياء ونهايتها، لا نحمل معنا إلا حيرتنا وما تولّد من الأسئلة. والآن رحماك، بعد شهوة المنايع جاءتني شهوة المصبّ. هذا أمر تقدّر عليه والبحر ليس بعيدا وعلى ما أعلم لا خطر علينا قبل أن نصله من غضب فرس النهر.
- وبعد وصولنا البحر، أين تريدني أن أخذك أنت الذي لا يسعك مكان؟

- نوقف الطريق لنذوب ونتلاشى وقد تحقق هدفنا وهدف هذا النهر؟
 - لسئمت متأكداً أنه مستعجل للذوبان والتلاشي. ألم ترَ على الخريطة حبه للتعرج واللفّ والدوران. هل رأيت يوماً نهراً يرسم لمساره خطأ مستقيماً؟
 - طيب، لننّبِع بعض تعاريفه شمالاً أو جنوباً. ما زال أمامنا بعض الوقت.
 - أمامه هو الذي قال فيه أحد شعرائنا أنه واهب الخلد للزمن، أما نحن فعلياً الإسراع إلى البيت. مؤكّد أن "الولية" تزفر من الغيظ أمام أكل بارد.
 من أين يأتي كل هذا الماء؟ قد يكون هذا السؤال الذي أوحى به النهر أبا كل الأسئلة التي تلاحق الأدميين: من أين أتى الأدمي، من أين أتى العالم؟ من أين أتى الزمان؟ أليس النهر من ثبّت لنا تصوّرنا الساذجة عنه، وأنه مثله يسيل بلا انقطاع في اتجاه واحد، وأنه لا قدرة لأحد على تثبيته في نقطة ولو أوثقته بكل سلاسل الدنيا والأخرة.

*

تُطيل شرطية المطار تفحص جواز السفر ثم تنقل بصرها إليّ تحدّق فيّ بشكّ متزايد. تعود إلى الوثيقة تقلّب أوراقها ببطء مثير للأعصاب. ما يهمّ هذه المرأة بدهامة تقديرٍ مدى خطورتني على أمن وطنها المفضّل.
 كان الأوائل عندما ينزلون بشاطئٍ مقفر دفعتهم إليه الرياح والصدف، يضعون على الرمل سلاحهم وهداياهم ثم يلتجئون بسرعة إلى سفينتهم ينتظرون أن يخرج من وراء الشجر آدميون أكثر منهم خوفاً يقترّبون من أشياءهم يقبلونها بمنتهى الفضول والحذر ثم يختفون بدورهم ليعودوا يوماً -إن عادوا- يضعون هداياهم على الرمل.
 بالكاد تغيّرت الطقوس والحذر من الشبيه المختلف قرّاً ثابت.

كأنني أسمع الأسئلة الصامته تتدافع في ذهن حارسة وطنها: ما سبب قدومك لحرّيستان؟ زرت قمعستان وفسادستان وقبحستان وإرهابستان. ونفاستان أيضاً! ماذا فعلت في هذه البلدان؟ من تعرف من المنظمات الإرهابية وما عنوانها؟ هل تنوي قلب نظام الحكم؟ هل أنت إرهابي، هل تصلّي؟ هل كنت ستخطف الطائرة ولم تجد الشجاعة أو السلاح؟ هل أنت مشبوه في بلدك؟ هل تحمل قنبلة؟ لماذا أنت أسمر اللون؟ هل فقدت شعرك لأسباب مخالفة للقانون؟ التأشيرة حقيقية أم مزيفة؟ جواز السفر هذا، بكم اشتريته؟ متأكّد أنّك لا تحمل فيروسات أو قنابل؟

تتوجّه إليّ الموظفة العابسة بعد أن أشبعت جواز سفري تقليباً وتمعنا ودراسة وتدقيقاً.
 - انتظر سأسأل رئيسي. على فكرة، أنت لا تنوي زيارة مزرعة؟ أنت لم تأت بفواكه مشبوهة وبذور غير مرخص بها؟
 تعود الشرطية بالجواز بعد دقائق بالغة الطول والثقل، وعلى وجهها ابتسامة باهتة:
 - تستطيع المرور، لكن اكتب بوضوح اسم النزل الذي ستنزل فيه، لعلنا نحتاجك في أمر ما.
 أخيراً هذا البلد أبعد نقطة في شمال الفضاء الحسي، جنّته متعللاً بالبحث عن العلم. والحال أنني لم اقصده إلا للضياع في غاباته.

لم يبق لي إلا بضعة كيلومترات بالحافلة لأصل المدينة التي سينطلق منها بحثي عن ممالك الأشجار الباسقة.
 أتوجّه لرفيقة الطريق مداعباً مستفزاً.
 - من الظلم أن تتمتعوا وحدكم بمثل هذه الغابات الشاسعة وأن تتركوا لنا الصحاري الفاحشة. بدأت أخطط للغزو والنصر المبين.
 المشكلة أن جمالنا لا تعرف السباحة. كيف لها عبور هذا المحيط الذي حفرتموه -من الواضح- تحسباً لغزونا؟
 - أخذتم الصحاري الصفر بنفطها وأخذنا البيض بمائها. قسمة عادلة.
 تهمس المرأة في أذن حبيب قادم من صحاري ما وراء البحار وضعت الصدفة على طريقها ووضعتها الأقدار على طريقه:
 - كفاك تأمل هذا الشلال.

ترفع من صوتها، تهزّ الحالم اليقظان من كنفه:

- تعال؛ داهمنا الليل.

- لن أتحرك من هنا حتى...

- حتى ماذا؟

- حتى ينتهي تدفق هذا الماء. لا أصدّق أنه سيسيل دون توقف... اللهم إلا إذا كان ماء من نوع لا أعرفه

تضحك رفيقة الطريق إلى أن ينهمر الماء من عيني بلون البحيرات الجبلية التي ولدت على ضفافها.

- لن تموت من العطش فترة الانتظار... جوعاً بالتأكيد. تعال الآن.

أحدثها عن طقس مارسته "ما" دون علمي سنينا إلى أن كشفت السرّ أخت لها كل طبيعتها: "كانت، رحمها الله، تأخذ الفدح وأنت تنهض كعادتك راکضا نحو الباب لتنتثر الماء في ظهرك قبل أن تختفي. كم كانت تخشى أن تنتبه لما تفعل فتسخر منها. لحسن الحظ، لست من النوع الذي ينظر وراءه.

تنتهد المرأة: لا تقلق الماء في هذا البلد في كل مكان تعال ستراه في كم من بحيرة وشلال.

هل ثمة شيء أغرب من الماء أو أعجب منه؟ هل النوات التي تنطلق من البيانو والقيثارة غير محاولة لتقليد موسيقاه! .. أليس صاحب أروع الأصوات وهو زمجرة الشلال، رقرقة الجدول الشادي، خرير نافورة وسط الدار، صرير الثلج تحت الأقدام، نقر خفيف لمطر الخريف على نافذة غرفة النوم... يقولون أنه بلا طعم ولا أطيّب من مذاقه عندما يجفّ الحلق ويصل أوجه عذاب العطش... يقولون أنه بلا لون هو الذي يقبل وتقبل به كل الألوان... يقولون أنه بلا شكل، هو النهر المتدفق، الجليد الساكن، الضباب الكثيف، البخار الخفيف، وما تمخضت عنه قريحة السحاب من لوحات السماء... ويقولون أنه بلا رائحة لعجز اللغة وقصور حاسة الشم... مصدر الأحاسيس الأشدّ عمقا... الأبقى في الذاكرة منذ بدأت تسبح فيه داخل الرحم... الذي خلق الله منه كل شيء حي... رمزنا للقداسة هو الذي يستحم فيه الحجاج وبه يعمّد الأطفال... معلّمنا لمفهوم تدفق الزمان وهو النبع والنهر والبحر... قدوتنا ونموذجنا لكل مكارم الأخلاق....

وشاهدت كيف النهر يبذل ماءه فلا يبتغي شكرا ولا يدّعي فضلا (إيليا أبو ماضي)

وكيف يزيّن الطلّ وردا وعوسجا وكيف يرّوي العارض الوعر والسهلا

تجيء إليه الطير عطشى فترتوي وإن وردته الإبل لم يزجر الأبالا

ويغتسل الذئب الأثيم بمائه فلا إثم ذا يمحي ولا طهر ذا يبلى

أنظر إلى الماء إن البذل شيمته يأتي الحقول فيرويهما ويحييهما

فما تعكّر إلا وهو منحسب والنفس كالماء تحكيه ويحكىها

فجأة أصرخ بشتائم من حسن الحظّ أنّ مرافقتي لا تفهم كلماتها:

- ما هذا الذي لسعني؟ انظري كم انتفخت يدي!

- حذار، هذا الذي ذقت أنيابه يحبّ الدماء الساخنة وأنتم على ما يقال أسخن البشر دما. ألا زلت مصرا على غزو غاباتنا؟

- يا بنت الحلال، كنت أمزح. قولي لي على الأقل ما هذا الوحش الطائر ولماذا يهاجمني والحال أنني دخلت البلاد بتأشيرة قانونية ولا علاقة لي بالإرهاب من قريب أو بعيد!؟

- إنه حشرة كلّفت شعبنا من الموتى ما لم يكلفنا أصحاب الأرض الأصليين. اسمح لي بأن أقدم لك البعوض الأكبر: المار نجوان.

- بعوض! تسمّون هذا الفيل الطائر بعوضا؟ طمئنيني. هل النزول محمي ببطاريات صواريخ مضادة ل. ما اسمه؟ لن أخرج معك لهذه الغابة مجددا إلا مسلحا ببندقية، أو لابسا الحديد على طريقة فرسان القرون الوسطى. سأحتجّ على وكالات الأسفار. ما هذا الغش؟ من تصله البطاقات البريدية من غاباتكم لا يرى إلا جمال الجنة والحال أن النزاهة تفرض عليكم وضع صورة الوحش بأنياب تقطر دما على نصف البطاقة - على الأقل - ليعلم الجميع ما الذي ينتظرهم. إنها عملية تحايل موصوفة. تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال.

- لا تعجل باللاتهام واللوم. كل ما هناك أنك أتيت في فترة انتشار هذا البعوض، وهي لا تتجاوز ستة أسابيع وبعدها يختفي.

- تقصدين أنه انتظرتني حولا كاملا وأنه ترصدّ قدومي ونصب لي هذا الكمين، الله الله على ضيافتكم.

عالم رائع حقا لكن لا موطئ قدم فيه إلا وحوالك ضرورة كائن يخدش أو يقضم أو يعضّ، وإن لم يجد ما يمتصّه منك، أصدر طنيننا مزعجا أو رائحة كريهة لمجرد المضايقة. القاعدة هي نفسها أينما وليت وجهك: قناع جميل آخر لنفس الليث بارز الأنياب وأنت كالعادة تحسبه يبتسم.

بدأ حماسي يفتر بهذه الغابات الكثيفة وبالبحيرات الزرقاء التي تنعكس على مياهها الوديعه قمم مكللة بالثلوج.

أقفز من جديد وأفطع الشتائم تتدافع مجددا على لساني:

- بجدّ، كأن لهذا اللعين مشكلة شخصية معي، عجلي؛ أريد العودة إلى الحضارة، غيرت رأيي بخصوص دونيتها بالنسبة إلى الطبيعة.

- نعم سنعود إليها شريطة أن نجد الطريق.

- تمزحين!

- الظاهر أن "المارنجوان" مصرّ على بقائك تحت تصرفه أطول وقت ممكن. قد يكون هو الذي محا المثلث الأخضر الذي يؤشّر لاتجاه النزول. انظر مليًا لعلك تجده. إنه مرسوم على كثير من الجذوع. لا تقلق، سنجد المخرج حتى وإن استغرق الأمر بعض الوقت.

- وفي الأثناء أفرغ من دمي! حذار قد أكون مضطّرًا إلى مصّ دمك أعود ما يأخذه مني فيلكم الطائر.

- من هنا الطريق.

طريق! لم يحذرنا الشاعر ماخادو أنه لا وجود للطريق، كل ما يوجد المشي.

تشير مرافقتي إلى الخارطة بأصبعها لتفتعني بصواب القرار، لا تعلم أنه لا أجهل منّي براءة الخرائط علما وأني لا أعرف حتى بسطها في الوضع الصحيح.

أعود للمزح مع امرأة متوترة ربما لأنها لم تكن واثقة تمام الثقة من المسار الذي اختارت للخروج من غابة مترامية الأطراف، مشينا فيها جلّ النهار.

- ثمة أهم من خريطة موثوق بها ونعرف قراءتها وكان عليك أن تملئي به حقيبة الظهر قبل تطفلنا على مملكة المارنجوان.

- عمّ تتحدث؟ أخذت كل المطلوب من القهوة والسندويشات.

- أتحدث عن التعاويذ لنفادي الدببة التي قد تكون قد خرجت للصيد.

- التعاويذ؟

- نعم، عندي منها أهم ما يحتاجه كل مسافر في هذه الدنيا. مثلا تعويذتي رقم 86: "ابرادابرام باتو باتتي يتاي متغقى".

هي سلاح يصلح لكل طفل يخاف العفاريت ويصلح أيضا ضدّ العبيثة، وجد الثوم أم لم يجد. أما تعويذتي 543 فلا أنفع منها ضد الأطفال الأشرار الذين يضربون زميلا يغارون منه. ثمة أيضا التعويذة 798: "لايانايغ لايس". هي صالحة ضدّ وجع الأسنان والاستبداد والقبح والغباء وغلاء الأسعار والحيرة المبتاهيز يقية وحبوب البشرة للمراهقين وترهل الثديين لمن تجاوزن عمرا معيّنًا. لكن جهلي بالدببة لا يمكنني معه إعداد التعويذة الملائمة.

- إذن سيادتك تتحرك في هذه الدنيا مُلغيًا بتعاويذك كل ما لا يعجبك. عفوا لكنك هنا في بلد متحضّر.

يتعمّق الصمت والتجهّم والمرأة تعود لخريطتها تسألها عن الصراط المستقيم، لا تعلم كم عانى البشر بحثا عنه عبثا وسيوصلون.

أعود للمزح هذه المرة للتخفيف من توتر انتقلت عدواه إليّ.

- هل تعلمين أن الأوائل، سامحهم أمون-رع، كتبوا دليلا مفصّلا وليس مجرد خريطة بسيطة، بخصوص الطريق الذي يأخذه الموتى ليصلوا في الوقت وفي أحسن الظروف لمثوهم الأخير، بعد التغلب على قطاع الطريق من شياطين وثعابين وخنافس؟ ألم يكن من الضروري أن يمتدونا أيضا بالذي نحتاج في هذا العالم: كتاب الأحياء؟ نقصّ قررت أن أضع له حدًا.

- فكرة رائعة ستضعك في مقام المحسنين إلى الإنسانية جمعاء.

- نعم، ويجب أيضا أن أعمل على خريطة جديّة للعالم حتى لا يتيه فيه مزيد من المرتحلين.

بجدّ، من تسلّم عند الإفافة مثل هذه الوثائق الضرورية للرحلة؟ ألا نقضي عمرنا في مزج قطع "البوزل" التي جمعناها ببالغ الصعوبة من هنا وهناك، فلا تتجانس فيما بينها أبدا، والحال أننا بأمام الحاجة إلى صورة واضحة عمّا رُمينا فيه. أليس وضع المرتحل شبيها بوضع سائح يفتق في محمية إفريقية وهو عارٍ، جائع، خائف، جاهل من يكون وماذا يفعل في هذا المكان؟ ما على المسكين إلا أن يتدبّر أمره لكي يأكل ولا يُؤكل، ولا أحد يمدّه بخارطة موثوق بها لكي يجد هذا الطريق المستقيم الذي سبقوه إلى الهدف المجهول.

وهل كان لابن بطوطة وابن فضلان وماركو بولو وكولومب وبقوقفيل وكوك وقلهم بحارة العرب والفيكينج

وجزر المحيط الهادي خرائط صالحة لاستكشاف أصقاع عالم لم تكن لهم عنه أدنى صورة واضحة؟ كلهم مع ذلك توغّلوا في الأرض ذات الطول والعرض وفي البحار والمحيطات اللامتناهية لا يقودهم على ألف طريق مجهول إلا القليل من المعطيات والكثير من التهور. كأنّ قدرنا أن نشق طريقنا في هذا العالم مسافرون في نفق لا يعرف له منطلق أو منتهى.

-واصل أحب ثرثرتك هذه.

- إضافة إلى غياب الخريطة الحقيقية للعالم الأدمي وكتاب الحياة لحسن التعامل معه، هناك غياب الأدلاء أصحاب الكفاءات العالية. أين هم؟ الغالبية العظمى يتعلمون بالتجريب على الزبون المسكين. بل وفيهم -ولو أنهم أقلية- من يتسلّم القادم الجديد فيرميه خفية في مصبّ البلدية، أو يدخل به أول سوق يبيعه بمقابل بخس، أو يجعل منه عبدا، أو يضيّعه في الطريق عن جهل وعن غباء، وأغلب الوقت عن عجز عن الاضطلاع بمهمته. كيف لا نقضي جلّ حياتنا نتخبط في المناهات، والأدلاء هم أنفسهم بحاجة إلى دليل؟ من أين لي أن آتي لوحدي بكل ما تحتاجه الأجيال القادمة من أدلاء يعرفون حقا أين هو الطريق؟

"ما زال على الغموض كنه الدهر (عمر الخيام)

لا يوجد في الدرب دليل هاد

كلّ متمسك بفرع واه

والدهر على نظامه المعتاد"

تهزّ رقيقة الطريق ككتفيها وهي تطوي بعصبية لا تخفيها خريطة لا نفع منها.

- فلسفة لن تعيننا كثيرا على حلّ مشكلتنا لكن واصل لا أحبّ اجتماع الصمت والظلام.

- أمرك. كم من مشاكل تطرحها عليّ وثيقة بمثل أهمية كتاب الحياة وهي لم تر بعد النور! كيف سأحفظ حقوق الملكية في عالم مكتنظ بالناسخات والمزورين؟ هل سأبيع منها طبعة موجزة بثمن خاص للطلبة والفقراء؟ هل سأطرح للسوق نسخة مبسطة للأميين وأخرى "بالبرايل" للمبصرين؟ إنها مشاكل واجهها واضعو كتاب الموتى. ما يشجّعني أن منهم من أصبحوا أغنياء. يجب أن أدرس تقنياتهم.

تهزّ المرأة ككتفيها مجدداً. تعود إلى التحديق في الاتجاهات الأربع بانزعاج متزايد. ثم تستغرق في التفكير مقبلة الجبين، وأستغرق في فتح "الترموس" وارتشاف القهوة الساخنة جالسا على جذع شجرة ميتة أتأمل الأدمي إذ أغلقت عليه الغابة قبضتها وتفرّج الطريق أمامه إلى ألف مسار مبهم وهو يبحث منذ الأزل عن مخرج لا يُرجعه إلى نقطة الانطلاق.

ظهور العلامات التي تسبق نوبات العنف عند الرجال ونوبات الهستيريا عند النساء.

لا بدّ من خفض الاحتقان.

- أقصّ عليك طرفة عن آخر مرة ضعفت فيها في غابة. يومها كنت طالبا وكنت أعمل أثناء عطلة الصيف في مزرعة في أبعد بلدان الشمال، كسباً لما يسمح بمواصلة التوغّل فيه حتى أتأكد مما قيل لي عن وجود مكان لا تغرب عنه الشمس. قالت لي مستخدمتي: اليوم أحد وسنذهب أنا وزوجي إلى الكنيسة لا أظنك ترغب في مصاحبتنا وأنت من دين غريب. لماذا لا تقضي يومك في الغابة؟

نعم، اقضي يوما ممتعا في الغابة وعد بقلعة مليئة بثمره، ماذا تسمونها؟ تعرفين ما أقصد، هذه الحبات الزرقاء التي لا تنبت إلا في غاباتكم الباردة.

- نجمعها نحن أيضا صيفا، نصنع منها كعكا ومرجّى.

- ربما كانت المرأة مؤمنة أن شابا من إفريقيا - لا بدّ أنه أخذ عن أبيه وجدّه كل تقنيات الجني والقنص- أصلح من زوجها للمهمة. إذن لماذا لا تستخدمه فيما تؤهله فطرته له؟ مدّت لي بالقفة مبتسمة، فقلت في نفسي: يجب أن أطلب رُمحا وقوسا ونبالا. بماذا سأقاتل الدبّ إذا اعترض طريقي؟ أثرت الصمت وتوكلت على إله الآباء والأجداد. كانت أولى غلطات اليوم وأنا أستقرّ آلهة الربوع، المحلية منها والمستوردة. خرجتُ إذن، بقفتي الفارغة للبحث عن الدرّة الزرقاء ألعتها في السرّ وفي العلن. بصراحة، لا أدري ما الذي يجعلكم تُحبون أكل هذه الفاكهة، فطعمها حامض وتلتصق باليد تاركة بقعا لزجة حمراء. تعرفين أيضا أن أبغض ما فيها أنها لا تنبت -مثل البرتقال والتين والزيتون والأشجار المثمرة التي تحترم نفسها- على غصن تمدّ إليه يدك واقفا، وإنما اختارت للانتقام من المتطفلين عليها أن تنبت على شجيرات قزما ملتصقة بالأرض، وآه يا ظهري. مرّ اليوم وأنا مستغرق، منهمك في العمل وفي محاربة البعوض الذي جعل من جلدي حريقا متواصل. فجأة انتبهتُ إلى أنني وسط غابة لا أتذكّر من أين أنيتها ولا أعرف من أين سأخرج منها، ناهيك عن كونها في أقاصي الأرض و"ما" في طرفها الآخر لا قبل لها بمساعدتي في شيئا. وفي مثل هذه الحالة التي جرّبها الأدمي طوال سعيه في الغابات المظلمة، يعلم الكل أنه يجب التنفس بهدوء ومغالبة رغبة الركض في كل اتجاه والصراخ: النجدة، النجدة، وإعمال الفكر مطوّلا لاختيار أنسب اتجاه، ومواصلة المشي دون الخروج عنه قيد أنملة. يومها وثبتتُ على قدمي منطلقا في كل اتجاه، متنفسا ببالغ السرعة، والعرق يتصبّب مني، مقرّرا أن الاتجاه الصحيح على يساري. كلاً إنه على يميني. لا، على يساري. النجدة يا "أودان"، وربّ الكعبة لن أشرك بك من اليوم إلها آخر!

- ووجدك البوليس بعد أسبوع تنماوت جوعا بعد أن أكلت كل ما في القفة والقفة نفسها؟

- يا ليت! ربما كنت أهم أكثر تجربة الأوائل. الملاعين لم يتركوا لنا إلا الطرق المعبدة والحافلات المكتظة.

كأنني بأشباح توغّلت بعيدا في فضاء العتمة تبت عبر الزمان شيئا يشبه التعجّب، ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الغابات المظلمة المرعبة لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

- سهوت. واصل.

-كانت الغابة التي ضعتُ فيها مكانا مرّوا شقّ فيه الأدمي ألف مسار. لذلك لم تمرّ إلا بضع ساعات قبل أن أقع بالصدفة على جزء واضح من الطريق. تنفستُ الصعداء ولم تبق إلا مشقة الرجوع والبحث عن الأعذار. استقبلتني مستخدمتي بلامبالاة من لا يعرف في أي جهنّم كان الآخر يتخبّط.

- مالك ممتنع الوجه؟ لماذا تأخّرت؟ أين القفة وأين الحصاد؟

- أخذهما الدبّ. لا أخرج إلى الدببة في جبل بوقرنين إلا بالرمح، وترسلوني هنا لكل الأخطار أعزل. سأقول كلّ شيء لـ"ما". يومها ضحكت المرأة الطيبة:

- آه منكم يا أهل المدن، تضيعون في حديقة عمومية عليها حارس بصقارة وقبعة صفراء.

تنفجر مرافقتي بضحكة متجهمة:

- هذه ليست غابة صغيرة تحاصرها الحقول. إنها تمتدّ مئات الأميال في كل اتجاه. إنها، غابة حقيقية.

- من الأزل وطن السحر وموطن الساحرات، آخر معقل للثور!

ترمقني مرافقتي بنظرة ساخطة لا تخفى دلاليتها: لولاك أيها الغبي لما وجدت نفسي هنا، الله يلعن اليوم إلخ.

تعود إلى الحديث، تفتعل استعادة السيطرة على أعصابها.

- حظوظنا لاكتشاف جزء من الطريق بالصدفة شبه معدومة.

- لننتفّس إذن بهدوء، ولنعمل الفكر لتحديد الاتجاه الصحيح، ثم نمشي في الذي اخترنا؛ لا نحيد عنه قيد أنملة.

-كفى. انتبه لعلامات الطريق. لقد رسمته، بل قلّ نقشته على أرض الغابة الخُطى المسرعة لأجيال من المغامرين الحمر والبيض. أشعرُ أنّه قريب جدًا منّا.

- إن رأيتَه فسأقتل أنني لم أره.

- لا تتهكّم. نحن فعلا في ورطة.

- أنت في ورطة، أما أنا...

- لوجه الشيطان اصمت. هذرك هو الذي سها بي عن مفترقات الطريق.

أكبر مشاكلنا مع هذا الطريق اللعين. أذهبُ يمينا أم يسارا؟ أرجعُ إلى الورا أم أبقى ساكنا بانتظار المفترق المقبل؟ كيف الخيار وجلّ ما تعرف عن الطريق وتقاطعاته مصدره تائهون.

يتواصل المشي وسط ألياف وأغصانٍ شرّعت في الوجه سيوفا.

- لماذا لا نضيع هنا بقرارنا لا بقرار حدث غبي؟ قد ننجح في تربية هذا المارنجوان السمين لتغذية أطفالنا، فيه ما يكفي من الدم والبروتينات. تصوّري ماذا يمكن أن نفعله بأطفال لن يجلسوا أبدا أمام تلفزيون أو حاسوب؟

- سأنتظر فراغ "الترموس" من القهوة ونهاية السندويشات وأنداك حدثني مجددا عن رغبتك في العودة إلى جنّي ثمار الغابة وليس جلود الحيوانات. حدسي يقول لي إننا لسنا بعيدين عن الطريق، لكن الظلام يزحف ولن نرى شيئا عما قريب.

- اكتشفي أنت هذا الطريق واتبعيه صاغرة إلى إسطلب الحضارة. أما أنا فهذه فرصة ثمينة للاختفاء، خاصة وأن لي شاهدا.

- وما حاجتك إلى شاهد إن أردت الاختفاء؟

- هل أنا مجنون للاختفاء دون ترك علامات؟ ألا تعرفين أن الأدمي لا ينظّم اختفاءه إلا ليثير في الناس فضول الجري وراءه؟ كل ما نفعل تمثيلٌ على أنفسنا وعلى الآخرين، والاختفاء لا يشدّ عن القاعدة. لكنني الآن صادقٌ قليلا، أو على الأقل أكثر من المرات الأخرى.

تهزّ المرأة كتفها ثم تهمس في أذني بنبرة تفوح بخوف الطفل التائه في الظلام.

- الليل يداهنا، يا يسوع!

- نعم، لنصلّ ليسوع. سمّره ثم اعبد. لا تتبع طريقه، وإن أضعت الطريق استغث به. لله دركم يا بشر. والآن وقد صلينا، ماذا نفعل؟

- عمّ الظلام وهذني التعب. لم يعد لنا من خيار غير التوقّف وانتظار الفجر والفرج. يا إلهي، الغابة ليلا ولا نار تدفع عنا أنياب البرد والدبّ.

إذن هذا هو العالم الذي جرّبه الأوائل كل الليالي. هكذا هو عندما يلبس أو حشّ قناع. هكذا هي الأحاسيس البكر من الرهبة والانتظار القلق والخوف من بروز دابة من الظلام الدامس.

نوم متقطع مضطرب يُنهيه تسلّل فجر حذر. ثم العودة للبحث عن الطريق اللعين بعد ارتشاف ما بقي من قهوة، وقضم ما تبقى من السندويشات.

- آه، عادت الابتسامة إلى شفّتك.

- أخيراً، ها هو الطريق. يا يسوع، نهار كامل ونحن ندور في حلقة مفرغة!
- أليس هذا ما نفعل طول الوقت، أليست الدائرة هي الشكل الحقيقي لكل طريق؟
- كفاني فلسفة. تصوّر النعيم الذي ينتظرنا بعد ساعة. دشّ ساخن وفنجان قهوة وسجارة و"بفتيك" بحجم ملعب تنس.
- شهية طيبة، أما أنا فعائد أدراجي. ما أعمق ما عشتُ هذه الليلة. ما زال لديك وقت كافٍ في هذا المفترق لاختيار الطريق الصائب، وهو إلى الورا.
- خذ أنت.
- يا امرأة لا تفعليها فيّ. تعالّي، كوني بنتا طيبة. من سيطبخ لي المارنجوان ويكوي جلود الحيوانات التي سألبسها؟
- لو كنت تعرف على الأقلّ كيف توقد النار!
- لم أتمعن في طريقة أبطال السينما بما فيه الكفاية. ثقي فيّ، سأعيد الاكتشاف الأعظم.
- شكرا على دعوتك، والآن تدبّر أمرك.
- كيف أتدبّر أمري هذا؟ لا يضاهي جهلي بإيقاد النار إلا جهلي بكيفية خلق امرأة من ضلعي.
- هذا شغلك، أما أنا فمُهرولة إلى النزل. واصل أنت الطريق الذي تختار.
- تقصدين أوصل الطريق الذي اختارني.
- إلى هذا الحدّ تؤمن بالجبر؟
- موضوع قد نخوض فيه أمام "البفتيك" الذي تعدّيني به. آه منكم يا أهل المدن، تضيعون حتى في حديقة عمومية عليها حارس بصفارة وقبعة صفراء.

*

يبسط الطريقُ إغراءاته دوماً أمام الماشي، يَعد باستكشاف مَعلم آخر لا يقلّ فخامة عن كل التي وعدَ بها ولم يخلف الوعد أبداً. على ذكر المشي، يُسمح لي بملاحظة بالغة الأهمية بخصوصه.

بجدّ، هل ثمة أصلح للاستكشاف من المشي؟

من مزاياه الكثيرة أنه مجاني وتحت الطلب في أيّ وقت نشاء، وخاصة أنه فرصة للاختلاء بالذات.

لا أتذكّر أن فكرة هامة أتتني إلا وأنا أمشي، ولا أن الفوضى التي بداخلي، اكتسبت بعض النظام إلا إبان المشي.

يكتنون بأيديهم وكلّ ما كتبتُ كان برجليّ.

ومن محاسن المشي مع الآخرين، أنه يلغي المواجهة بكل أخطارها لصالح "المجانبة" وهي أقلّ إثارة للعوانية، الغريزية عند البشر.

لا خيار للفرار من العالم غير الركض ولا إمكانية للقائه غير المشي، وأحسُّه الأكثر بُطاً. كم كان أوائلنا محظوظين والعالم يكشف لهم روائعه خطوة بعد خطوة، وهم كمن يتذوّقون أفخم مائدة، اللقمة بعد اللقمة، حتى وإن غصّوا ببعضها أحياناً.

المشكلة مع هذا المَعلم من العالم الذي أمشي إليه، أن الطريق فيه ليس متّجهاً إلى الأمام وإنما إلى فوق.

شيئاً فشيئاً تتمرد الرئتان وقد أصبحنا تنتفسان الماء بدل الهواء. يصرخ القلب أنه على وشك إعلان الإضراب العام. يحنّد الصداق ويتفاقم العثيان والقمة المنشودة تتباعد نفساً بعد نفس وكأنها على سطح كوكب من مجرة العقرب. لم يعد أمامي من خيار غير رفع الساق بعد الساق وكل واحدة بيقلّ عمود من الرخام. أرمي كل مرة بالقدم على الأرض فتسقط عليها ثقيلة مرتبكة كأنها تتعثر. من كان يتصوّر عند الإحرام أن الطريق سيكون بمثل هذه المشقة!

في مثل هذه الحالة يجب أن تردّد لنفسك تخادعها: ما تزال هناك بعد هذه الخطوة خطوة أخرى أُقسم أنها الأخيرة.

صدق من قال "لا وجود للطريق، كل ما هو موجود هو المشي". لا وجود للمشي، كل ما هو موجود هو الماشي. ما دُمت ماشياً فأنت موجود. يجب أن أنهض بعد كل عثرة لا ألقت إلى ألم وما على الجراح إلا أن تندمل وأنا أمشي، إلى آخر منعطفات الطريق، حتّى أجزّ على وجهي وقد تبدّدت مني آخر طاقة لمواصل المشي.

يتوقف بي الطريق، لا لأنه انتهى، إنما لأنني أنا الذي أصبحت عاجزاً عن أيّ حركة.

يا إلهي ثمة رحالة طلّعوا إلى قمم تتعالى على هذه القمم التي هي في نظرهم هضاب؟

يا للأبطال الميامين وقد جعلوا حتى أعلى الجبال تحني الهامة أمام الأدمي، وكلّ عقبة مألها التذليل والإذلال! لكن يا للأوباش، تنعموا بكل هذا ولم يتركوا لي إلا طريقاً مكتظّاً بباصات السواح أو آخر فوق طاقاتي!

كأنني بأشباه توغّلت بعيداً في فضاء العتمة تبت عبر الزمان شيئاً يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تُبادِلنا رفاهك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الجبال المرعبة، نكاد نهلك فيها إرهاقا وجوعاً وعطشاً... وخذ ما سُنت من انبهارنا البكر.

لألتقط أنفاسي وأغتتم الفرصة لتأمل كيف هو الطريق من هذا الغلّو. لا أرى شيئاً والسحب التي أصبحت تحتي تمنع النظر. لم يبق لي إلا تحيّل شبكة أثار رسمتها على البسيطة أقدام الحجاج والغزاة والصيادين والمهاجرين والمغامرين والسياح والتجار والمشردين والتائهين والمبشرين والفارين من السجون والراكضين وراءهم وقطّاع الطرق والمهربين وكل من تدافع من الأدميين على مرّ التاريخ لبسط سلطانهم على الامتداد.

ثمة أيضا الآثار التي رسمتها غزلان تركض عبر الأحراش وإبلّ تمشي بكل وقار وخيل وبغالّ وحمير سجيبة تننّ بأثقال سجانيتها، ناهيك عن آثار ديبب النمل وكم من كائن صغير يعيش في طي الكتمان والسرّ. أيّ مخيلة قادرة على استحضر أشباح من تتابعوا على الطريق وأعطوه الوجود والشكل.

ثمة أيضا جبال فضاء لأفكار ولها هي أيضا كبار متسلقيها.

عن آدمي اسمه غاندي قوله: "الله بمثابة قمة جبل وكل الأديان هي الطرُق التي تؤدّي إليه من هذه الجهة أو تلك... " هكذا يقدر ما "يصعد" طاهر القلب راقى العقل إلى "فوق"، بقدر ما يقترب من القمة وأيضا من الأدميين الذين تسلقوا الجبل من جهاته الأخرى... ويقدر ما يبتعد عن الذين بقوا عند السفح سواء كانوا من ملته أو من الملل الأخرى يوحدهم جمود الفكر وغلظة القلب.

فجأة يتسرّب البصر على سرب من الطيور يمخر عباب الفضاء في رحلة لا أظن مشاقها تختلف جذريا عن مشاق رحلتي. فوق هؤلاء المرتحلين يقال اليوم أن هناك أنهار من الهواء تلف وتدور حول الكوكب تحمل داخلها عددا هائلا من الكائنات الحية المجهرية يسمونها جراثيم وفيروسات وفطور وغبار اللقاح رسل أشواق الأشجار للأشجار. عالم مكتظ بقوافل ما لا يحصى ولا يعدّ من الأجناس ترتحل من باطن الأرض إلى أعالي السماء لا أحد منتبه لغير هدفه.

والآن إلى عكازي من جديد والهدف أصبح على بضع مئات من الأمتار سأقطعها ولو زحفا على اليبطن.

خلفي وفوقي الشمس، تحتي وأمامي ظلي أشرف عليه أتأمله بفضول كأنني أرى لأول مرة أن لي ظلّ.

أخيرا المكان الذي أوصيت، قلّ أمرت بالوصول إليه وكلّ من حملهم الطريق إليه كانوا مثلي حجاجا.

قد لا يوجد مكان على سطح هذه الأرض أوحى للفنانين بمثل الكمّ الهائل من اللوحات، والجبل لا يبلى على كثرة ما أخذ له من رسوم. أروع ما فيها تجرّدها الأقصى كأنها لا تريد كسر غموض المكان وإنما المشاركة فيه، والضباب هو الركن الذي لا يغيب في أي لوحة. العنصر القار الآخر أشجار متفرقة لا تكاد تلاحظها، اختزلها الرسام في خطوط كأعواد كبريت تظهر وتختفي على القمم البعيدة حسب مشيئة الضباب والسحب. ثمة دوما شكل لا يكاد يُلاحظ لأدمي يفصل التواري، أكتشف أخيرا حجمه.

كم من رسامين وقفوا مذهولين أمام هذا الجبل والرسم عندهم صلاة المؤمن!

جبل الربيع شفاف الإغراء كأنه بيتسم (كيوكسي)

جبل الصيف داكن الخضرة كأنه يقطر مطرا

جبل الخريف ساطع للمعان كأنه يتزيّن

جبل الشتاء بعيد لا مُبال كأنه نائم

كم وقف عند هذا الجبل من رُهبان وشعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرّد إلقاء نظرة خاطفة على قمته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا يبنسون ببنت شفة.

منهم من جاء ولم يرجع، ومن أيقن أنه لم يعد من الآن فصاعدا بحاجة إلى شيء أو أحد.

يقال إن أحدهم وقف مشدوها أمام المعلم ثم عاد طفلا فأخذ يصقّق صارخا: برافو الله!

أما أنا فبعد لحظة التجلّي التي كافأنتني على كل عذاب المشي، لا بدّ أن أوصل الاستكشاف فهذا عالم يغطّي فيه دوما العجيب على الأعجب والغريب على الأغرب والرائع على الأروع.

قد يكون أصعب سؤال يُلقيه عقلّ منتبه هو: ما الجمال ولماذا هذا العالم جميل؟ بانتظار أن يجد أحدنا رداً وافيا لا بدّ أن يكون هو الآخر جميلا. لا خيار غير أن نعمل بتوصية الشاعر حتى لا نُضيع أهمّ ما نُعوّض به الرحلة الآمنا.

"عش للجمال تراه العين مؤثقا في أنجم الليل أو زهر البساتين (إيليا أبو ماضي)

وفي الرّبي نصبت كفت الأصيل بها سرادقا من نضار للرياحين

وفي الجبال إذا طاف المساء بها ولقها بسرابيل الرّهابين

وفي السواقي لها كالطفل ثرثرة وفي البروق لها ضحك المجانين

وفي ابتسامات أيار وروعها فإن تولّى، في أجفان تشرين

لا حين للحسن، لا حدّ يقاس به وإنما نحن أهل الحدّ والحين

فكم تماوج في سربال غانية وكم تألق في أسمال مسكين
وكم أحسن به أعمى فجرت له وحوله ألف راء غير مفتون
عش للجمال تراه ههنا وهنا وعش له سرّ جدّ مكنون
خير وأفضل ممن لا حنين لهم إلى الجمال، تماثيل من الطين"

**

لمواصله الطريق يجب تسلق السماء التي ترعى بحنوّ بالغ هذا الجبل. أي خيار وانت لا تملك جناحي النسر غير السفر بالوكالة والحنظّ لم يسعفك بأن تكون من بين نخبة من الأدميين الذين أخذهم هذا الطريق إلى أبعد نقطة فيه حالياً. قد تجد بعض السلوى في إقناع نفسك أنك وقّرت عليها التعب والدوران، أنك ستتابع على الشاشة العملاقة من هذا المقعد الوثير ما يراه الرواد من المحطة الفضائية التي حرمتك الأقدار الظالمة من وصولها. يخيم الصمت على قاعة العرض.

فجأة يدوي انفجار يصم الأذان. تدخل رؤوس بعض النظارة الأكتاف والصاروخ الجبار ينطلق وعلى ظهره المكوك ملتصق به كالرضيع بأمه، وهي تهتم بالقفز فوق الهاوية.

يخيّل إليك من فرط دقة تقنيات التسجيل الصوتي والتصوير، أنك ستشعر بلهب النار يلفح وجهك وبرائحة الدخان تخنق منك الأنفاس.

تتابع كاميرا الإيماكس الخيط الرفيع الأبيض من الدخان وهو يتلاشى رويدا رويدا.

ثم يفصل المكوك عن الصاروخين الدافعين.

انتهت عملية القذف وتمركزت الكاميرا في موضع يمكن الأدمي من إلقاء نظرة شاملة على هذا الكوكب الذي تسميه اللغة الأرض، وكان من الأصح أن تسميه البحر.

إنها فقط وليمة البصر. لا مجال لاستنشاق روائح الياسمين والجيف، لا إمكانية لتحسس ندى عشب الصباح أو لسماع أي صوت حتى وإن تعرف أن كل ما يتدافع على السطح لا يكف عن الصراخ.

يتضح من أول نظرة أن ساحة الرحلة مستديرة فعلا استدارة البرتقالة والتفاحة والسوار والشمس والقمر. كم ظلموا ذلك الرجل المسمى قاليبلي! ومن هذا العلوّ الشاهق يستحيل عليك تبيّن شبكة الأثار التي ترسمها من القدم الأقدام والحوافر على الأرض، ولا التي ترسمها الأجنحة على السماء، والزعانف على أمواج البحر فما بالك بالشبكات غير المرئية التي تتحرك داخلها البضائع والطاقة والأفكار.

على ماذا أركّز والذهن مشدوه مأخوذ بكل هذا الجمال المهيب؟

على زرقة سهول الماء وهي أصناف داخل أصناف؟

على البياض وهو كقرود دبّ ألقى على كتفي غانية؟

على الخضرة لون الجنة في الدنيا وفي الآخرة؟

على الصفرة تضيق الخناق على النهر الخالد كأنها قبضة من ذهب انغلقت على عنق ثعبان؟

على الحمرة التي استقرت بقارة كاملة تبدو كأنها مطلية بالحديد السائل؟

فجأة تحتل بقعة بيضاء حلزونية الشكل جلّ فضاء الشاشة. إنه إعصار مرعب يستعدّ للاعتداء الميين على الأدميين المساكين. تدريجيا يحمو السواد باقة الألوان. يرسم النور بقع ضوء أصفر خافت لكبرى مضارب الأدميين ومن هذا العلوّ الشاهق يمكنك وأنت تتابع تحرك المكوك التعرف على حدود هذه القارة أو تلك.

هذه قارتي المنكوبة بأضوائها الباهتة المتفرقة غارقة في كل أصناف الظلام.

من يستحضر أن هذه القارة لم تكن دوما بالشكل الذي ترسمه خرائط العصر ولا أنها كانت مثل بقية القارات في الموضع الذي تحدده؟

ما نعرفه اليوم أنها كانت قبل أربع مئة مليون سنة جزءا من كيان ضخم واحد يضم كل الأراضي الطافية على سطح الماء ... أن هذا الكيان انقسم إلى جزئين ثم إلى عدة أجزاء تباعدت طوال عشرات الملايين من السنين لتستقر منذ عشرين مليون سنة على الشكل والتوزيع الذي نعرف للقارات والبحار والمحيطات.

ومما أصبح قناعة عند المختصين أن هذه القارات لم ولن تنتهي رحلتها في الأخرى في الزمان وفي المكان. هي تتحرك طول الوقت وإن ببطء شديد مقترية من بعضها البعض لتعيد لحمتها يوم نكون قد انقرضنا فيه منذ زمن بعيد... ثم تتجدد الدورة في الاتجاه المعاكس وهكذا دواليك إلى ان تبتلع الشمس هذا الكوكب العجيب.

ومما أصبحنا نعرفه أيضا أن هذه الأرض اتخذت أكثر من لون طوال تاريخها الحافل. ففي بداية تكوّنها توشّحت باللون الأحمر، لون حمم البراكين التي كانت أولى لبناتها ... ثم باللون الأسود وقد هدأت هذه الحمم ... ثم باللون الأخضر عندما غزت الطحالب والأعشاب سطحها تدشّن عصور انتصار الحياة ... ثم باللون الأبيض في أزمان سؤدد الجليد والثلج ... أخيرا لونها الأزرق الحالي منذ غطت المياه جِلّ مساحتها.

ثمة من أهل الذكر من علماء المناخ من يتنبأ أن هذه السماء التي لا نتصورها إلا زرقاء نهارا ستصبح خضراء اللون تشرف على مدن أصبحت رمادا وعلى غابات لم يبق منها إلا الجذوع المتهاوية وعلى صحارٍ لا تهب عليها ريح وبحار بنفسجية ماؤها بكثافة العسل لم تعرف الموج منذ قرون.

صور مرعية لكوكب يحتضر وقد نفثت براكينه كل حممها وحجب غبارها شعاع الشمس وانقرضت على سطحه الأجناس بالملايين. آه تريد طرد مثل هذه الصور من فكرك. ليكن.

ها قد استعاد الكوكب عافيته بعد ملايين السنين وعادت الكائنات تتسابق على سطحه تبغي نصيبها من الحياة. لن تمضي بضع مئات من ملايين السنين إلا ويتكرر السيناريو: انقراض شبه كامل للأجناس الحية، يعقبه تعاف يدوم هو الآخر مئات الملايين من السنين، يتبعه انقراض جديد وهكذا دواليك.

مما يعني أن ما نراه لها اليوم من توزيع البحار والمحيطات وما استقرت عليه لبعض الزمان مرحلة من تاريخ لا قبل لعقل أو خيال بتصور طولها اتخذ فيها العالم أكثر من شكل ومن حالة... ونحن دوما من التبعات واليوم من أسباب كل تغيير. أنت في هذا العالم كمن يدعى لمشاهدة فيلم وسط العرض ثم يرمى بك خارج القاعة قبل ان تفهم العقدة وتشهد الخاتمة. ومن هذا العلو الشاهق-وقد أصبحت أنظر للكوكب بعيني رائد فضاء-توحي لي الصور المتلاحقة بسبل من الأفكار وكل فكرة أغرب من الأخرى تثير فيّ مزيدا من الاعجاب والعجب.

هو لم يكن مقدرًا، حتميا، متوقعا، محتملا أو ضروريا. كان مجرد إمكانية من بين ما يحصى ولا يعد من الإمكانيات. كم من ضربة حظ واء كم من ضربة حظ داخل كم من ضربة حظ جعلته الناجي من كوارث كون تجمعت داخله كل الأخطار! يا للخوارق والمعجزات التي جعلته يوجد على المسافة المثالية من الشمس لتتطور على سطحه الحياة بكل ما أبدعت وأنجزت. كم شهد هذا الكوكب العجيب من زلازل، من انفجارات براكين، من أنهار سالت وجفت، من صحاري تمددت ثم اخضرت لتعود لجفافها القاتل!

كم من جبال انبثقت من قاع بحاره وكم من رياح وأمطار أحنّت هامتها لتسويها بالهضاب وبالسهول! كم تتابع وتانقرضت على سطحه، في أعماق بحاره وفي اتساع سماءه من أجناس حية تتبارى كلها غرابة وإعجازا! كم من بشریات شقت طريقها هي الأخرى في هذا الديكور المبهر المرعب لتختفي يوما تلفها الغرابة والأسرار! "تحتي" أكبر رحم لا ينفك عن ولادة ما لا يحصى ولا يعدّ من أغرب الأجناس وأطرف الكائنات. تحتي أكبر مقبرة لا ترفض جثة كبرت أو صغرت، لا تعلن عن ذروة اكتظاظ، لا تقفل بابها الأحد والعطل والموت منذ الأزل.

نعم، كم هو فريد، يتيم، وهذا الكوكب، قد لا يكون له شبيه على الاتساع المذهل للكون! ومع هذا ثمة من لا ينسى تذكيرك أنه أيضا مثل حبة رمل في صحاري الكون الشاسعة. صحيح، لكن حبة الرمل هذه جوهرة ثمينة اتخذت عبر التاريخ حمرة حجارة البشم الثمينة... وسواد درة الاونيكس... وخضرة الزمردة... وبياض اللؤلؤة... وزرقة الياقوت... جوهرة ثمينة موضوعة على ستار لا متناهي من فاخر الدمقس الأسود مرصّع بالألوان الآتية من ابعده نقطة على خطّ الزمان والفضاء اللامتناهي. الأهمّ من هذا أننا كائن ينبض قلبه قبضا وارتخاء، حرًا وبردا، خلقا وتدميرا، أن ما يتتابع على سطحه من أجناس فلذات كبده، أنها كلها أشكال-حالات من أشكاله وحالاته، كما هو شكل-حالة من أشكال-حالات ما تسميه اللغة الكون... وهذا الأخير شكل-حالة من أشكال-حالات ما ستسميه الرؤيا "الشيء". كيف لا ينتابك حبّ جارف لهذا الذي تدرك انه الوطن الحقيقي... الوطن المشترك لكل الكائنات... الوطن الذي لا مكان فيه لغريب.

بصعوبة فائقة يتحول الانتباه من التركيز على اللؤلؤة الزرقاء إلى الفضاء اللامتناهي. تغفر فالك دهشة وأنت أمام لوحات فنية ليس مثلها لوحات في أغنى المتاحف. كأنّ "هذا الشيء" الذي رسمها-سمّه الفنان الأعظم إن شئت-أراق بلا خطة مسبقة كل ألوان الطيف على سحب غبار وغاز مذهلة الأشكال ثم رصّعها بقناديل الشموس وفوانيس المجرات...والنتيجة متحف رباني يستعرض فيه هذا الفنان الأعظم من الروائع ما يذهب العقل.

كم غريب أن يثير الجمال فينا إن فاق حدًا، شعورا يقارب الألم !
ذات يوم في مستقبل ليس بعيدا سيرسل الادميون إلى أبعد من مليون كيلومتر مرقبا بثمانى أعين وضعوا فيه كل عبقرتهم
ومواردهم ومجهودات دامت عقودا ليرصد لهم ما لا تراه العين المجردة ولا أكثر المراقب جودة على سطح الأرض والمكافأة
صور لعالم يزايد فيه الجمال على الجمال والغرابية على الغرابية.
من ذلك المرقب وحتى من أبسط المراقب التي يتأمل من خلالها الهواة الروائع المرفوعة فوق رؤوسنا، تتسطح كل القامات
وكل الأحداث... تتضح لكل الكيانات حجمها الحقيقي... ومع هذا... ومع هذا ... حقا لا أتفه من قصتنا بمقياس كل هذه الشساعة،
لكن هل ثمة أهم منها بمقياس الآن وهنا؟

والآن إلى أين وقد أخذنا الطريق أو أخذناه إلى أبعد نقطة تدركها الحواس ويواصلها الخيال؟ خاصة هل بقي لمفهوم الطريق
معنى وهو هنا كل الاتجاهات ولا اتجاه أفضل من الآخر؟
حتى إن فرضنا عليه وجهة، كيف يمكنه قطع مثل هذه المسافات وهي تتجاوز قدرة كل حاسب على الحساب؟ أضف إلى هذا
مشكلة أعقد: عدم ثبات الهدف على مكان. مما يقال إن النجوم والمجرات تتباعد عن بعضها البعض كمشطاي قنبلة انفجرت منذ
مليارات السنين. ومما يقال أيضا أنها ستواصل الفرار في كل اتجاه بسرعة متصاعدة، أنه سيأتي "يوم" تغيب عن أنظار
بعضها البعض لا قدرة لجار أن يدرش مع جار فصلت بينهما مسافات يستعصي اختراقها حتى على النور.
لنجعل طريقنا يسرع أكثر مما تسرع، يلحقها ثم يتجاوزها إلى أن تتوقف، فيتوقف خطوة أبعد، والكل يلهث ويمسح عرقه.
أمامنا الآن فراغ مطلق حالك السواد لا ترمق العين فيه منارة ولم يعد فيه كائن أو شيء أو حدث. أوصد المسرح نهائيا أبوابه.
انصرف الممثلون انغلقت العتمة على العتمة وتمازج المصعب بالنبع.
ماذا لو واصل الطريق طريقه هذه المرة لحسابه لخاص بعد أن نفرض عن ظهره آخر راكب. مجددا إلى أين؟ ... إن بقي في
مستوى كهذا معنى لسؤال ووجود لسائل؟

ليواصل اللعين إلى حيث يتوهم هدفا أنا الذي سأترجل منه لألقي نظرة من هذا الموقع على ما تركت ورائي أو تحتي
صحاري مترامية الأطراف كئبانها مجرّات من كل الأشكال والألوان ورملمها كواكب وأقمار وأحجار من كل الأحجام تذهل
العقل. هناك بين ذلك الربع الخالي وذلك الربع الخالي الآخر وفي ذلك الطرف البعيد من ذراع واحدة مما لا يحصى ولا يعدّ
من هذه المجرّات توجد أو وجدت حبة الرمل -الزمردة -اللؤلؤة -الياقوتة التي انطلق منها طريقي وطريق كم من كائن شبيهه.
هناك جرّبت الوجود لفترة زمان كانت بمثابة قيس من قيس، شرارة خاطفة انطفأت حال اشتعالها.
ما العمل وقد توغّل الطريق داخل مجهول مطلق لا قدرة لعقل أو خيال على تصوره؟ العودة من حيث أتينا نواصل استكشاف
العالم الذي أفقنا فيه وأفاق فينا العزاء والسلوى أنه مهما طال زمن الاستكشاف هو الآخر لا يُستنفذ.

**

العوامل العجيبة التي نعيش على تخومها

يتوجه إليّ الدليل والفجر مجرّد وعد يوم لا كَسائر الأيام:

- الرجاء إمضاء شهادة عدم تحميل إدارة المحمية أيّ مسؤولية في حال التعرّض لحادث.

أسرّ في أذن رفيقة الطريق:

- تتلمذوا على الإدارة العامة لشؤون الكون. ألا ترفض هي الأخرى تحمّل أدنى مسؤولية فيما يحدث لنا داخل محميّتها الكبرى،

التي نحن بالطبع أئمن حيواناتها؟

- شتّ، لا تخلق لنا مشاكل مع قوَى نحن في أمس الحاجة إلى حياها، خاصة اليوم وفي مثل هذا المكان.

يهمس الدليل: رجاء لا كلام بصوت عال ولا ضحك من الآن.

يبدأ المشي الصامت وراء الرجل المتحفّز، ليتواصل ساعات طويلة، لا نرى أيّاً من هذه "الوحوش" التي جننا نتقلّ عليها

في عقر دارها.

تُبادرنني رفيقتي ممازحة:

- الظاهر أنّك لن تكون أسعد حظاً من رحلتنا إلى شواطئ "هرمانوس".

كانت يومها تصرخ للتغطية على صفير الرياح:

- انظر إلى هناك.

- لا أرى شيئاً.

- دقّق النظر، ألا ترى ذيل الحوت يرتفع فوق سطح الماء، انظر! إنه يضرب بقوة سطح الماء، ألا ترى الزبد المتطاير؟

هل أعترف أنني لم أرَ من الحوت أكثر مما رأيت يوم ركبتُ البحر حذو شواطئ قارة أخرى أبحث عن لقاء مؤجّل على

الدوام، ونزلتُ من السفينة الصغيرة أترنّح كأنني شربتُ كل الخمر التي حرّمها الدين وحرّض الشعر على تناولها؟

تمدّ لي المرأة بزجاجة الماء وهي تمسح عرقها:

- ربما وصلنا يوم الإضراب العام.

- أيّاً كان اسم الكائنات التي تسكن هذه الربوع، فإنها -على ما يبدو- لا ترغب مطلقاً في لقائي. كنت أنتظر استقبالا آخر. الفيلة

على اليسار والأسود على اليمين وفوق الأغصان تزغرد القردة احتفاء بمقدم الصديق الوفي.

- نعم، كيف لا تختفي عن الأبصار وهي لا تعلم أنك لم تأت للقتل البذيء الذي يسمونه "الصيد الرياضي" وأنك من كبار

الأنصار والمعجبين؟

- رجاء قل لي لهم هذا الكلام لعلهم يعقلون.

فجأة تقطع المرأة عليّ أفكارٍ وهي تنهر الدليل:

- نحن نمشي منذ ساعات، أين الحيوانات الموعودة؟

يردّ الرجل متحرّجاً:

- المحمية غنية بالخمس الكبار، الأسد والثور والفيل والكركدن ووحيد القرن. ومع هذا لا نرى أحياناً وحشاً واحداً طوال اليوم.

وحش؟ لله دركم أيها الأدميون. ما أبرعكم في قلب الحقائق. من عرف منكم جنسا فيه جلادون باستثناء جنسكم؟ من سمع يوماً

بنمر نكل ساعات طويلة بنمر آخر؟ لكن ما المصطلح الصحيح لتسمية هذه الكائنات وكل كلمة شتيمة؟

ربما "المتحركة غير الأدمية" للفصل بينها وبين "الثابتة غير الأدمية" كالأشجار والنبات؟ مصطلح جدّ دقيق، لكنه طويل،

ولا أعتقد أن أحداً سيقبل به لهذا السبب ولأسباب أخرى كثيرة. حتى أنا غير راض عنه وهو يجعل منها فرعا بالنسبة إلى

المرجع الذي هو نحن. هل ستستقيم الأمور لو سمينا الأدميين "الكائنات-غير الحيوانية-غير الشجرية"؟

أخيراً يتسمّر الدليل مشيراً إلى مُبهم ما:

- سيدي، انظر هناك!

- لا أرى شيئاً.

- دقّق النظر يا سيدي!

- في ماذا؟

- في هذا الخدش، على جذع الشجرة التي أمامك!

- أه، تقصد هذا الخطّ.

- إمضاء فهد. هيا. لا أحبّ فكرة وجود حيوان كهذا يمثل هذا القرب.

تختفي رغبتني في ملاقاته السكان الأصليين، لعلمي بطول أنياب الكثير منهم وخشيتي أن يتركوا في مثل هذا الإمضاء. نعاود التحرك إلى الأمام والطريق يتوغّل بين أعشاب تحتضر عطشا. يهمس الدليل وهو يُنزل بندقيته عن كتفه:

- من هنا فصاعدا المشي دوماً ورائي. ممنوع منعا باتا دخول أي طريق جانبي. إذا أمرت بالتوقف، توقّف فوراً دون أدنى حراك. الأسبوع الماضي التهمّ هنا سبع سائحة انجليزية متهورّة.

أهمس في أذن رفيقة الطريق الجديدة:

- أرجو أن الحيوان المسكين لم يصب بعسر الهضم أو بإسهال حادّ.

- كن جدياً، لسنا في حديقة عمومية. لا تنس أننا في غاب لا وجود فيه إلا لطريدة وصياد.

- وهل الغاب الذي جننا منه حقاً مختلف؟

يأمر الدليل باستراحة قصيرة. يخفتي وراء الأشجار ليتبوّل مؤكداً على ضرورة عدم التحرك بانتظار رجوعه وأنه يؤسّعنا فعل نفس الشيء. أقترح على مرافقتي رفع الحرج.

- لا نية لي بدخول هذه الغابة، أخشى من إزعاج الفهد. أدير لي ظهرك وأدير لك ظهري فلا وجود لبوليس الأخلاق هنا.

نجلس على العشب الجاف ننتظر رجوع الدليل بقلق متزايد لطول غيابه وقد اتضحت لنا فجأة ضرورة التأدب معه وحتى مداهنه بلا انقطاع.

من منا يتذكر ولو من حين لآخر أننا لا نتقاسم هذا الفضاء الحسي فقط مع كل البشر المتدافعين من كل حذب وصوب وإنما أيضاً مع ما لا يخطر لنا على بال من كائنات لها نفس الحق في الوجود على سطح هذا الكوكب.. من تأتية الفكرة أن حديقة بيته التي يظنها ملكة الخاص مملكة ما لا يحصى من الكائنات المجهرية وأنه مثلها تماماً مجرد مستأجر عابر مسموح له بالاستعمال المؤقت أبداً بالتملك.

تهزني مرافقتي تضح ما بها من توتر متصاعد خاصة والسماء تتلبد بسحب كثيفة ترمينا ببعض القطرات.

- تكلم، ماذا تفعل بهذا العود؟

- أعابث هذه النملة التي غامرت بتسلق رجلي. على فكرة، هل تتصورين ما معنى المطر على يافوخ هذه المسكينة. الأمر كسقوط شلالات النياجارا على رأسك. وضع شعوب هذه الحشائش بدهاءً ليس أسهل من وضعنا.

- تستأهل. لا تتصور ما أعانيه من هذه الكائنات اللعينة وهي تهاجم المطبخ والحديقة ولا شيء يصدّها. على فكرة، هل شاهدت بعض الأفلام الوثائقية عن الحروب التي تشنها على بعضها البعض، أو كيف تفترس الحشرات التي يضعها سوء طالعها في طريقها؟ انظر إلى بعضها وسيحّن قلبك على الأدميين الذين تتهمهم بكل الموبقات. هم -على الأقل- خلّقوا على هامش معاركهم شيئاً اسمه "الصليب الأحمر" ناهيك عن كونهم لا يلتهمون أعداءهم أحياء مثل هذه الكائنات المقرّرة.

- تكلمي باحترام عن أنجح مخلوقات الله.

- تقصد أنجح مخلوقات الشيطان.

- يا امرأة أيّ جنس يفوق النمل انضباطاً، شجاعة، تضحية وعملاً دووباً لا يطالب بزيادة في الأجر ولا يُضرب يوماً؟ كيف تتجاهلين أنه بنى الديمقراطية والاشتراكية وحقّق المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن وكل هذه المشاريع التي نرنو إليها لا نحقق منها إلا الإخفاق وراء الإخفاق؟ هل تعلمين أنه اخترع قبلنا بملايين السنين الزراعة والرعي والغزو والرقّ والحرب. أيّ جنس آخر لا قائد فيه ويسير أموره على أحسن ما يكون التسيير؟ كم من فضائل يمارسها دون حاجة إلى شرطي أو نبي؟ أليس هذا سرّاً بقاءه منذ مئات الملايين من السنين؟ صدّقيني، لا مستقبل على هذه الأرض قبل أن تلتهمها الشمس إلا للنمل.

تسحب المرأة المتوترة هاتفها النقال من جيبها. أبادرها أفتعل لومها.

- ألم نتفق أننا لن نحمل معنا هذا الهاتف اللعين؟

- لا تقلق. هو مغلق من البداية وسيبقى مغلقاً بإحكام إلى نهاية هذه المغامرة الركيكة. فقط أريد قراءة ما وصلني من رسائل. وأنت؟ لا تقل لي إنك لا تنتظر رسالة من أحد. كلنا ننتظر خبراً ما...

- نعم أنتظر منذ زمان رسالة تقول لي من أنا، ماذا أفعل في هذا العالم وما الذي يريده مني من قرّر لي هذه الرحلة.

- ولم تصل لحدّ الآن! يا عيب الشؤم. انتبه، ثمة حركة وراء الشجر.

تسأل مرافقتي الدليل المقبل (ضاحكة) لا تُخفي انحسار الخوف وعودة الصلّف:

- افترض -بعد الشرّ عنك- أنه وقع لك مثلاً أزمة قلبية. أقول هذا على سبيل المثال طبعاً. كيف كنا نخرج من هذه الأحرار؟

- اطمئني، أنا مطالب كل ساعة بمخاطبة المخيم بالراديو وإلا تنطلق الدورية. اسمحي لي بأن أردّد ما قلّته هذا الصباح. في حالة حدوث طارئ، المطلوب عدم التحرك حتى وصول الإنقاذ، فالمشي داخل الأحرار بلا بندقية وخرطبة ودليل محض انتحار.

أسف، ممنوع دخول الأدغال حتى لقضاء الحاجة الطبيعية، في الخلاء فقط.
أجبل البصر حولي وقد اكتسب المكان كثافة أججت انتباهها كنت أظن أنه وصل أقصاه.
يتواصل المشي الحذر ولا كائن تبصره العين يمكن تحميله مسؤولية صمت عميق وصراخ متقطع لعصافير تحسن التواري
بين الأغصان العجفاء.

ماذا قال هذا الكائن المَجَّح؟ إلى مَنْ تَوَجَّه بالتهديد أو بالغزل؟ هل يُغازل نثرا أو شعرا؟ هل تكون -يا طير- أكبر
شاعر في هذه الأدغال؟ الحيوانات لا تقول الشعر؟ ألم تسجّل الميكروفونات المزروعة في أعماق المحيط لتصيّد غواصات
العدو وجود سجع في ثرثرة بني موبيديك. ربما يوجد بين هاواي وألاسكا شاعر فحل طبقت شهرته أرجاء الهادي يسمونه
"أبو الطيب الحوتي"؟ بماذا تشعر وفي ماذا تفكّر هذه الكائنات وهل ثمة فلاسفة من بني حربة وآل ثبات تساءلوا هم أيضا
ماذا نفعل في هذا العالم؟

أفبق على همس صراخ للدليل:

- انظر هناك!

- أين؟

- تحت قدميك!

- لا أرى خدشا.

- هناك، هناك!!!

- آه، أثر قدمين. لا يمكن، وهما بهذا الحجم، أن تكونا للسائحة منكوبة الطالع حتى ولو كانت إنجليزية.

أثر آخر سينمجي قريبا. هو والآثار التي تركتها كل الكائنات على الطريق.

- لا يا سيدي إنه لوحيد قرن. لنتبه، قد لا يكون بعيدا.

وحيد القرن؟ غريب، كنت أظن أنه اختفى تماما مع كل هذه الأجناس التي تتبخر يوما بعد يوم بسرعة مخيفة. هم السابقون
ونحن اللاحقون. التحسّر نعم، لكن كم هو رائع أنّ كل هذه الكائنات العجيبة ومنها نحن وُجدت يوما. على كل حال المحمية
نفسها من الآثار. ثمة فيها شيء ما يجعلها مثل رجع صدّي عالم اختفى أو هو بصدد الاختفاء.

نجلس ثلاثتنا على جذع شجرة ميتة نلتقط أنفاسنا ونمسح عرفنا.

- هل تعلمين أن الفيلة وكلّ الكائنات الموجودة هنا كانت تركض قبل ألفي سنة في البراري التي جثت منها؟ لكنّ بشرا اسمهم
"الرومان" قرروا أن تكون تلهية الشعب أساس السياسة، فبنوا ملاعب تتجمع فيها جماهير هائجة للتمتع بمذبحة تدوم أحيانا
ثلاثة أشهر متتالية. يقول مؤرخون إنه قُتل في يوم واحد في إحدى هذه "الحفلات" أحد عشر ألف حيوان. كانت مئات الملاعب
الرومانية على امتداد القرون، وحسب عدد الأعياد وطولها، بحاجة إلى الملايين -نعم الملايين- من الفيلة والأسود والنمور
والتماسيح وفرسان البحر والنعام. لتوريد هذه الكميات الهائلة من الكائنات خُلِق "بزنس" كامل كان يدّر الملايين على الصيادين
وأصحاب السفن. شيئا فشيئا فرغت سهول شمال القارة وهضابها وانسحب الناجون إلى عمق الأراضي يتوغلون فيها جيلا
بعد جيل هربا من الوحوش الحقيقيين. هذه المحمية في طرف القارة الأسفل هي الزاوية الأخيرة التي حشرناهم فيها. انتظري،
من قال إن علينا تعلّم حماية هذه الكائنات لا شيء إلا لأن ذلك سيُكسبنا مهارات تمكننا من حماية أنفسنا؟

تُفضّل المرأة المرهقة عدم الردّ خاصة والدليل يدعونا إلى مواصلة المشي.

- سيدي، انتبه للبراز اليابس. هذه علامات وحيد القرن الذي رأينا آثاره. مرّ من هنا منذ يومين تقريبا.

انتباه متحفّز ثمنه توتر أعصاب ووجع في فقرات العنق ولا شيء غير أصوات كائنات مجهولة تختبئ في أعماق الأدغال
وعلى قمم الأشجار.

ما الغرابة في الأمر؟ ألا نظفر من هذا العالم إلا بالخيال والظلّ؟ ألا نقضي العمر في تتبّع الأثر وقلمنا نجد صاحبه؟

بدأ الحرّ والفراغ يؤثّران على أعصابي.

(رافعا صوتي متوجها إلى الدليل المكسوف)

- طيبّ الآن، لا أرى خدشا ولا آثار أقدام ولا حرّ!!

- هذه بقايا جوز مكسّر. إنها علامات مرور القرودة. هي الوحيدة التي تكسر الجوز على جذوع الأشجار. انظر الآن إلى لحاء
هذه الشجرة. وقع كغها، وهذه طريقة الثيران للتخلّص من الهوامّ التي تسكن جلدّها.

- عظيم، عظيم!

نعود للمشي وسط فراغ متزايد الاكتظاظ بالأشباح. تفاجئني مرافقتي بسؤال يُلقى كأنه تهمة:

- هل ندمت على اختيارنا هذه الطريقة في استكشاف المحمية؟

- أبدأ، أفضلها على طريقة الذين يتجولون في عرباتهم شبه المصفحة على امتداد طريق معبد والحيوانات عليه كأنها في عرض أزياء. يتصورون هذه المحمية حديقة حيوانات. لكن لو فكرنا: محمية أو حديقة حيوانات، ما الفرق؟ الحجم فقط. حوار بصوت هامس لمغالبة الإرهاق والملل.

- انتبهي لطبيعة هذا المكان. تتصورينه كأخر معازل الحرية، والحال أنّ الكائنات التي تعيش فيه في سجن أكبر مما يذهب لزيارته الأطفال. حديقة حيوانات وُضعت وسط الطبيعة لا مجرد وسط المدينة، ولا وجود لأي منظمة تطالب بالعمو العام وإطلاق سراح سجناء أطول حروب الأدميين. هذه المحميات "بانتوستانات" للحيوان، لا غير. كم تدكرني بتلك التي وُضعت فيها بشر سُموا "الهنود الحمر". يومها قيل أيضا إنهم سيكونون فيها أحرارا.

هذا الفضاء الحسي هو أيضا وطنٌ لما لا يُحصى ولا يعدّ من الكائنات، وكلها بحاجة إليه مثلما نحن بحاجة إليه، تُصنع منه واقعها كما نضع منه واقعنا. أليس بديها أننا نُسافر داخل عالم على تخوم ما لا يعدّ من عوالم، قد تكون بعدد قطرات ماء المحيط، قد تكون بعدد حبات رمل الصحراء، قد تكون بعدد النجوم في السماء. ربما حتى هذه الصور عاجزة عن تقدير عددها. دوار، دوار، دوار!

- واصل

- آخر سجن حيواني زُرته حبسٌ بخمسة نجوم اسمه طارونغا بُني على هضبة غناء تشرف على البحر. كل السجناء -حتى في ذلك الحبس المتحضر وفي ذلك البلد المتقدم- كانوا هم أيضا محكومين بالمؤبد للجميع ولا أمل في تخفيض أو في سراح شرطي، ناهيك عن ظروف إلقاء القبض غير الشرعية! أتذكر -بمنتهى الوضوح- أحد سجناء ذلك المحتشد الأنيق. كان كلب بحر، جُوع عمدا، يرمي له المروضُ بسمكة سردين إذا قام بحركات تشبه الأدميين، والأطفال حول المسيح يصفقون له فيقلد هم سجين الحرب. كلما ازداد مرحة ومرحهم رمى له بسمكة أخرى لتشجيعه على مزيد من التهريج وتكاف حركات لا وجود لها في قاموسه لتسوّل غداء مُنع بالقوة من البحث عنه في لجة المحيط. نفس التقنيات المستعملة لإجبار نمر مستعبد على القفز، وفيلٍ مخطوف على الرقص وحواد مخصي على المشي إلى الوراء. بعد التنكيل يعودون بهم إلى الزنزانة كما كانوا يعودون بي بعد حصص الاستنطاق. من قال: "الأدمي حيوان خان السلك؟"

- بهذه المقاييس كلنا مساجين، الفرق اسم السجن ومساحته.

- لهذا أقول بفتح سجون الأدميين للزيارات السياحية. على الأقل ستمكن مداخلها -بعد خصم رشاي الإدارة والحراس والقضاة- من تحسين ظروف الإقامة ولو قليلا. ما أنا متأكد منه أن مثل هذه الزيارات ستلقى نجاحا منقطع النظير وأن الجماهير وعلى رأسها الأطفال والأمهات ستدافع للضحك على السجناء ورميهم بالحجارة وبالبنز.

- تُبالغ. تبالغ. تبالغ.

- أبدأ، صدقيني ثمة أوجه شبه أكثر مما يريد البعض الاعتراف به. في السجن الحيواني أيضا يرتطم السجين وهو يدور في الفضاء الخانق، تارة بالحيطان وتارة بالقضبان. ثم يعود إلى الحيطان لتدفعه نحو القضبان، ومن القضبان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى القضبان، ومن القضبان إلى الحيطان، ثم مجدداً من القضبان إلى الحيطان، ومن القضبان إلى القضبان فألى الحيطان فألى القضبان فألى الحيطان.

- انتبه، بدأت تتكلم وحدك.

- ومن الحيطان إلى القضبان ومن القضبان إلى الحيطان.

- أعراض ضربة شمس؟

- وجع ذكريات. وقفْتُ طويلا أمام قفص الكائن الذي تسميه اللغة "الغوريلا" وهو جالس، ظهره إلى الحائط، لا يفعل شيئا باستثناء تحريك حصاة صغيرة بقطعة من الخشب، ويرمقني. يومها تلاقى النظرات في لحظة عابرة كلمح البرق. لحظتها غضضت الطرف لا قدرة لي على مواجهة حضوره و"الشيء" بما لا يدع مجالاً للشك يحدّق في يسألني: عرفنتي، ثم ينسحب بالسرعة التي برز بها.

يا إلهي من ذلك الفيلسوف الشهير الذي طلع بأغبي فكرة عن الكائنات التي تقاسمنا الوجود مدعيا أن الحيوانات آلات بيولوجية لا وعي لها لأنه لا لغة لها؟ لا لغة! لا أحاسيس! لا مشاعر! لا وعي! لا ذكاء! تمام العكس هو الصحيح.

- وفي الأخير انصرفت مُضيفا إلى جعبتك من الأوجاع حزن الغوريلا، على غضب الأسد على شعور الإهانة عند كلب البحر. ألم يخطر ببالك أيضا أنه ثمة أكثر من غزالة وحمامة ونعامة وغيرها من الكائنات الضعيفة وُجِدَت في هذا السجن حياة آمنة لا يتهدد نومها زئير الأسد؟

- والوجبات الثلاث مضمونة، لا تعب، لا خطر، لا مسؤولية، إنما الراحة والخدمات. ماذا يريد أكثر من هذا، ذلك الغوريلا الكئيب، وحتى ذلك الأسد الذي تُرمى إليه أطنان من اللحم لم يعرق للحصول عليه؟

تُرى كيف هو حس الكرامة عند الأسود؟ ما أعمق تبادُل من يعتقدون أنه ليس لبني حرية وحتى لآل ثبات أحاسيس ومشاعر، أنها لا تعرف الحبِّ والكراهة، اليأس والألم، الحزن والفرح، الاستنكار وربما حتى السخرية. هل من الممكن أنّ عالم هذه الكائنات أحاسيس بكر، مشاعر بكر، في صفاتها الأول، في عنفها الأول، أحاسيس ومشاعر سلّمت من "تلوّث" الأفكار ومن "هلوسة" اللغة. أنذاك من الكائنات الأرقى، وأيّها تعرف أجدر التجارب بالعيش: البشر أم بنو حرية وآل ثبات؟

قد نخرج يوما من ورطتنا الوجودية يوم يفهم البشر أخيرا أن هذا العالم مأوى لكل الكائنات العابرة ولكل الأجيال المتتالية... أنه يسخر من كل من يدعي تملكه، والاندازُ الموضوع على باب الدخول واضحٌ كل الوضوح: للاستعمال لا للتمكُّن. أيكون فعل تملك هو أصل كل البلاء والشرِّ في قصة القصص.

فجأة يتوقف الدليل مشيرا إلى نقطة وراء أكمة أشجار صفراء:

- انظر هناك!

- هذه البقعة السوداء.

نعم، إنه قطع من الثيران الوحشية.

- نقترّب لنرى بوضوح.

- يا سيّدي، الأسود نفسها ترهب هذه الحيوانات. يجب أن نبتعد بأسرع ما نقدر وأن نبقي في الاتجاه المعاكس للريح وإلا فستراها أقرب مما تودّ.

تحتفي البقعة السوداء ولا يبقى إلا فراغ ملآن بضباب الغبار. يثب فجأة من وراء الأكمة كائن يشبه الحصان ليختفي بسرعة فائقة داخل الأدغال.

- حصان هنا وبمثل هذا الحجم!

- يا سيّدي، ثمة ثلاثة أنواع من الغزلان في محمية أمفلوزي، الصغرى وتُدعى "امبالا"، والمتوسطة الحجم وتسمّى "نيالا"، والضخمة وتسمّى "كودو". ما رأيت واحدا من هذا الصنف وليس حصانا.

- تقصد أنني رأيت خيال كودو.

يضحك الدليل ضحكة صفراء، ثم يرفع صوته هو الآخر، أرهقه طول افتعال التأدّب وكبح ما به من سوء مزاج.

- كأنّ هذه الحيوانات اللعينة تفاهمت فيما بينها على الاختفاء. الزوّار لا يقدرون ضرورة التحلّي بالصبر.

- نعم يجب أن نتحلّى بالصبر لمفاجأة هذا الحيوان الركيك المصرّ على تفادينا.

استجار المسكين بأعماق الربع الخالي فتبعه الصياد لا يصده الحرّ. استجار بأبعد أماكن الصحاري البيض فهول وراءه لا يخيفه الجليد. استجار بعرض المحيط ففتش عنه وراء كل موجة. استجار بالجبال الشامخة فوضع للإمساك به الأوتاد على الجبال. استجار بالظلام فوضع أجهزة التصوير الآلية على جذوع الأشجار لتباغت خروجه الحذر ليلا. استجار بالصعّ فخلق له المجهر. من الفضاء تجسّس عليه بالأقمار الصناعية يتبعه وقد رشق على ظهره وأشيا إلكترونيا. كم من سيّاح ومصوريين وطلاب دكتوراه يركضون هذه اللحظة وراء الحيوان المسكين! أتري كل هذا الإصرار لإدراكنا أن سرّنا من سرّه وأن فهمنا لمن نحن يمرّ بفهم من هو؟

تعود رفيقة الطريق لإزعاج الدليل المسكين.

- على الخريطة بحيرة في الجانب الآخر من المحمية. سمعتُ أن فيها قطعانَ فرس النهر، فلنتجه إلى هناك. لا أتصور أن هذه الحيوانات ستبتخّر هي الأخرى.

يقف بنا الرجل على الشاطئ مطلقا صغيرا عجيبا باتجاه كدس رمادي يطفو بعيدا على سطح الماء. يواجه استغرابي ضاحكا: - نعم أتكلّم "الهييو"، أعرف بعض الأصوات التي تتبادلها هذه الحيوانات. إذا سمعني أحدهم فسيقترّب، أنذاك قدّروا المسافة. إن بقي بعيدا عن الشاطئ يتأملنا بلامبالاة فلا خطر. إذا خرج من الماء أنصحكم بالجري وتسلّق أقرب شجرة.

تحدّق فينا الكائنات بتقرّز ثم تدير لنا ظهرها تتوغل بعيدا داخل البحيرة.

- هل تسمح بأن أناديهم كما تفعل؟ لقد حلمتُ دوما أن أتكلّم الجملي والحماري والحصاني والكلابي والقطني وحتى البعوضي. للأسف، لم يسعني الوقت لتعلّم كل هذه اللغات الحيّة، خاصة لم أجد من يعلمني. لأجرب أولى كلماتي بالهييو. ففففففوووو. يستغرق الدليل في الضحك:

- ييدو، يا سيّدي، أن الحيوانات لا تفهم لهجتك الأجنبية.

- حسب ما رأيتُ لحدّ الآن هي لا تفهم حتى اللهجة المحلية.

ينكس الدليل رأسه. جرحته. متى سأتعلم مسك لساني، ماذا لو ضيّعني في هذه الأحرار؟

يدخل الرجل قوقعته والطينُ يزداد بلة، حيث لا تتوقف مرافقتي عن الهمس المسموع بأن يومها ضاع لأن لنا دليلا لا يعرف يمينه من شماله.

لماذا تصرّ هذه الـ"غير الحيوان-غير شجرة" على أن يومها ذهب هباء لمجرد أنها لم تظفر برؤية كائنات متحركة غير آدمية لا تولي أدنى اهتمام للكائنات غير الأدمية الثابتة في مواقعها كأنها لا تستأهل التوقف عندها الساعات وراء الساعات؟ ما أعجب تجاهل أغلب الأدميين لها، والحال أنها حاضرة بكثافة وتواصل على طول الطريق. من ينتبه إلى شجون الأشجار الأسيرة المزروعة على قارعة الطريق، لمشاعر التي تجتمع تحت أغصانها النساء والأطفال يجمعون حباتها السود المتساقطة على الحصير؟ أو لتلك التي تتدلى منها العراجين الذهبية لا تبخل على الفقراء بالعراجين؟ بالكاد يعتبرها البشر كائنات حية وهي الحياة بزخمتها وتنوعها وعبريتها ولولاها لما وجدوا أصلا. من يعرف أكثر من ثلاثة أو أربعة أصناف منها، ولا أتحدث عن جهلنا بأسمائها الفردية التي تتادى بها أمهاتها همسا؟ يقال هذه الأيام إن من سخرُوا حياتهم بحثا في أسرارها لا يكادون يصدقون ما يكتشفون: أشجار تتبادل بينها المعلومات عن الأخطار التي تهددها، أشجار تدافع عن نفسها تسمم الحيوانات التي تبالغ في قضمها، أشجار تتعاون مرة مع الفطور ومرة أخرى مع النمل وتستعمل الطيور لنقل أجنحتها. كل هذا الذكاء الصامت في مواجهة غباء كائنات منتصبة على طرفين تتصور نفسها أذكى الكائنات وقد تكون أغباها. يوم جاءتني رغبة معرفة أم الشجر وتاريخها، داهمني نفس الإحباط الذي داهمني وأنا أخطئ لمشروع معرفة بني عمومة لها تسميها اللغة "الأعشاب" و"الأزهار". استسلام غير مشروط أمام الشطط في التنوع، في الابتكار في الجمال، في الغرابة، في الإعجاز. كم ثمة هنا من أصناف غريبة منها لم أرها في أي مكان آخر. نعبّر العالم ونحن نتصور اننا نلتقط منه بحواسنا وأفكارنا وخيالنا طبيعته الحقيقية والحال اننا لا ندرك منه إلا...إلا ماذا؟ ما الجزء المتناهي الصغر والبساطة التي تسمح لنا امكانياتنا المتواضعة باستكشافه وماذا عن الباقي؟ أه لو كنت قادرا على الأقل على فهم الثرثرة الصامتة لكل هذه الأشجار؟

- يا رجل، قلت لك: انتبه لوجودي، في ماذا كنت تفكر هذه المرة؟

- في الطريقة التي تموت بها الأشجار. ما اسم الشجرة التي اكتشفوها في جزيرة نائية تسمى "تسمانيا"، لا يموت لها جذع إلا وتواصلت من جذع آخر، تتحدى الموت منذ عشرة آلاف سنة. عشرة آلاف سنة! بالضبط الفترة الزمنية التي أحتاجها لإكمال استكشاف هذا العالم وتبليغ تقرير له الحد الأدنى من الجدوية. أه، لو علمتني سرّها.

- ثم ماذا؟

في ضرورة العودة لعبادة الأشجار. ألم تعبد قبائل ليتوانيا والسويد الأشجار إلى موفى القرن الرابع عشر؟ تخلّوا عن فكرة عبقرية كهذه لعبادة آدمي يدعي أنه ابن الرب! برّبك هل في الأدميين ما يُعبد؟

يا إلهي! كل هذا الذكاء الذي تظهره الأشجار في توزيع بنورها لحفظ النسل وتوسيع رقعة التواجد تستغل النار والريح كما تستغل العصفور والسحاب والقرد... يا إلهي! كل هذا الذكاء الذي تظهره هذه الكائنات وهي تنسج في أعماق الأرض علاقات تكامل وتعاضد مع الفطريات وشبكات واسعة لتبادل المعلومات بين بعضها البعض... يا إلهي! كل هذا الذكاء الذي تظهره وهي تتنافس بشراسة لتحفظ وجودها في الوقت الذي تحنو فيه على بعضها البعض... ثمة شيء مرعب مرعب في هذا الذكاء الصامت الذي تجده عن كل الكائنات من أبسطها إلى أكثرها تعقيدا... وهؤلاء الأغبياء الذين ابتلى بهم العصر الذين لا يرون في الأشجار إلا خشب الموائد والكراسي!

- ثمة كثير من العنصريين في هذا البلد، لكنني اكتشف فيك أول عنصري معاد لكل البشر السود والبيض وبقية الألوان والأشكال.

- بالعكس أنا جدّ معجب بقسم منهم، خاصة الأوائل الذين كانوا يقيمون للأشجار مراسم زواج. كانوا يتقدّمون لها بالاعتذار عندما يضطرون إلى قطعها. كانوا يؤمنون أن الشجرة تبكي تحت الفأس وأنه يجب عدم كسر الغصن مثلما يجب عدم كسر الذراع. كم من قبائل حرّمت اقتلاعها تُسارع إلى غرس نبتة تعويضا عن كل شجرة مقتولة. ما يجعلنا نأمل بمستقبل للبشر أن منهم من يتجمعون أفا يحتفون بالشجر المقدس، يتعبدون للقوى التي ترقد في الجذور والجذع تجدد أزهارا سريعة الفناء، والزمن مختزل في اللحظة العابرة وعودتها ربعا بعد ربيع.

هل سمعت بتلك المرأة المسماة جوليا بترفلاي هيل التي اعتصمت قرابة ثلاث سنوات على ارتفاع أربعين مترا بين أغصان شجرة سيكويا عمرها ألف سنة، تحميها بجسدها من منشار تجار الخشب؟ قرابة ثلاث سنوات وبنثُ الثلاث وعشرين سنة تقّات بما يرفعه إليها من مؤونة حفنة من العقال-المجانين مثلها. لم تقبل بالنزول إلا بعد أن أعطيت كل الضمانات أن شجرتها "لونا"، لن تقنّت حطبا. كانت هذه المرأة الحكيمة تقول "سسينا أننا أوائل الأجيال القادمة، أن علينا أن نترك لها عالما قابلا للسكن، ونحن لا نتصرف كما يجب أن يتصرف الأوائل تجاه ذريتهم."

- هل عندك المزيد من هذه القصص؟

- أذكر يوم مشيئ وراة النخلة المقتلعة لحيئها، وجرار البلدية البطيء يسد الطريق، وطابور طويل من السيارات وراة. كم كرهت الأغبياء وهم يزمرون بعصبية ولا واحد فيهم واع أننا نمشي في موكب جنازة وأن عليهم التزام وقار الجنازات. برئك، ماذا لو فقدت الكائنات الثابتة صبرها ورحلت إلى بعيد لتتركنا وحدنا؟ مؤكّد أننا سنبعث إليها الأطفال والعداري نطلب الصفح، نعلن التوبة، نرجوها العودة، نحلف بكل المقدرات التي لم نقدّسها أننا سنفسح لها الجبال والصحاري وكل الهضاب، أننا لن نأخذ منها ولن نطلب منها شيئاً باستثناء أن تمنحنا مجدداً ظلّها وجمالها.

- هل عليّ أن أفهم أنك من عبدة الأشجار وأنك تحاول أن تملأ قلبي بالإيمان؟ لكن قل لي قبل أن أقبل بدينك الجديد، كيف هي الطقوس؟ حدثني عن الصلاة.

- كل صباح قبل الذهاب للمستشفى أرتدي ملابس خفيفة ثم أذهب لمكان العبادة. الذراعان إلى فوق عشرة مرّات، عشرون مرّة ثني الركبة، استلقاء على الظهر ثم رفع الجذع إلى فوق، أكثر عدد من المرات. كل هذا والمؤمن في مأمن مطلق من الباحثين عن الكفر والكفار، لأن الأمر بشهادة الحراس تمارين رياضية يمارسها كهل يريد التخلص من كرش غير أنيقة. ما يدهشني تزايد صفوف المؤمنين.

- وبعد الصلاة؟

- مُنقطع الأنفاس أجلس في حضرة المهابة والجلال مردداً في سرّي: يا سيّدي جوناس، يا سيّدي جوناس!

- من؟ لم أسمع بقديس أو إله بهذا الاسم.

- جوناس، الاسم الذي أطلقته -هكذا دون سبب- على الكائن غير الأدمي غير الحيواني المشرف من علياء شموخه على بحيرة صغيرة يلعب فيها البطّ ويسبح البجع. لم يبق لي أمل إلا فيه وقد خذلني لحدّ الآن الغوث والمحجوب وسيّدي الخافي وسيّدي محرز وبقية أسياد وسيادات الأب والأم.

- أشجارك ومنها هذه التي تتبرك بها -إن سمحت لي باستعمال المصطلح المجمع عليه- فيها من يسمّ الحيوانات ومن يخنق أشجاراً أخرى وكلها تتصارع بينها على الفضاء والشمس.

- ممكن، لكن هل رأيت يوماً شجرة تقول كلاماً بذيئاً، أو تغنيّ "أهواك وأتمنى لو أنساك؟"

- أسف للخبر المفزع وهو أن أعلى درجة سلّم الكائنات الثابتة وبعدها تأتي الحيوانات وأنتم البشر آخر الطابور. لا أفهم لماذا حشرت في شكلكم؟

- لا بدّ أنك كنت في حياة سابقة قرداً مشاكساً ومعارضاً ففرّرت لك أن تمسخ آدمياً في هذه الدنيا كأشدّ عقاب.

-تفسير منطقي. لهذا حاولت في هذه الرحلة أن يبقى ملقّي نظيفاً علّ السلطات العليا لعلّها تعيد بعثي شجرة في الرحلة المقبلة.

نعم، لن أقبل بالبعث إلا نخلة أو زيتونة أو أرزة والأفضل شجرة كاوري نيوزيلاندا أو سيكوي كالفورنيا، شامخ الجذع، وارف الأغصان، رام بجذوري بعيداً في أغوار العتمة... في شرايبيني تندفق عصارة الحياة، محمّل بكل البذور، بكل الأزهار، بكل الثمار... بيت السنجاب، ملجأ النمل، مرصد النسر، مخبأ الفهد... محمياً بظلي يفكر الحكيم، يحكم العادل، يسترّيح المتشرّد، يتسلّقني الطفل... على جسدي يحفر العشاق أسماءهم، أطمع من هبّ ودبّ لا انتظر جزاء ولا شكورا... لا يخرجني من وقاري مسمار أو منشار ولا حتى لهب النار... لا أنتظر أحداً أو حدثاً، لا أخشى أو أمل شيئاً... صلب، لئين، هادئ، صامد في وجه الأنواء والدهر... الريح والفرش والنحل رسل أشواق... تأتيني الشمس بأخبار النهار وأشعة النجوم بقصص الليل... متنبه، شارذ الذهن، أغفو على تخوم اللاوعي والوعي، ساكن أأمل من علوي تلثم الزمان والعالم هو الذي حولي يدور.

يهمس دليل مكسوف كم أوّد مواساته:

- أسف. لا بدّ من العودة إلى المخيم. التجوّل في المحمية ممنوع بعد غروب الشمس.

تتنهد رفيقتي هامسة لنفسها بصوت تريده مسموعاً للجميع:

- يوم ضاع بين دليل لا يعرف يمينه من شماله وقرود سابق يحلم أن يكون شجرة.

- دليل لا يعرف يمينه من شماله! هل ثمة في هذا العالم دليل يعرف يمينه من شماله أيا كان الفضاء الذي يقودك فيه؟ كلنا تائهون نقود تائهين.

يهمس الدليل فينا بعصبية متزايدة:

- قلت أسف، فاجأنا الظلام، نكتفي بهذا القدر.

عند وصولنا المخيم تبادرني رقيقة الطريق محاولة افتعال التهكم:

- نهار كامل من المشي من أجل خدش وكدس خراً وصياح منكر لأشباح من فوق الأغصان.

هذه المرأة لم تتعلم إلى الآن أن سيّد المرتحلين من يعبر العالم كما قال لاوتسو.

لا هدف ولا وجهة.

يغتم كل لحظة

ما تقدّمه له الحياة

- على فكرة هل تعرفين ما قاله لاوتسو...
- لا. كفاني استفزازات، اتركني أحاول أن أنام.
- من قال لك إنني أريد أن أنام... النوم في مكان كهذا! في ليلة كهذه! ما أفضعه تبيذير.
- تبادرني رفيقتي كأنها تطلب الصلح لسوء مزاجها المزمن.
- طيب، لكن لا تحدثني عن حيوان. كيف كانت جولتك البارحة في هذه الأسواق الإفريقية التي تعشق؟
- غاية في المتعة. كيف أصف طفرة الألوان والروائح والأصوات! مادية فاقت كل توقّعاتي.
- هل وقعت في فخ شراء تماثيل تدّعي علاقة بالفن المحلي وهي مصنوعة في هونج كونج؟
- فزت بما هو أحسن بكثير. انتهى بي التسكّع عند امرأة في منتصف العمر على وجهها مسحة من جمال محتشم وقور كالذي أحبه عند النساء. كانت جالسة على الأرض بعيدة عن الصخب تعبت ساهمة بعصا ولا شيء أمامها. لما انتبهت لوجودي حدّقت في باسمة ثم بادرتني بإنجليزية أسلم من التي أتكلّم: أتشتري مني أيها الغريب؟ قلت: لا أرى لك بضاعة. قالت: أبيعك ما على هذه الأرض. أحببت دون تردّد: ليكن. التقطت المرأة الغريبة بعض الحجيرات من حولها. اجتنبت بعض الأعشاب المحترقة. مدّت لي الكلّ في خرقة قدره واللؤلؤ المنضود في فمها يخطف الأبصار. بحثت في جيوبي عن كل ما فيها من فكة ومددتها إليها فقبلتها مني كما يقبل السلطان هدية أحقر رعاياه.
- واصل، المهمّ ألا يكون الموضوع عن هذه الحيوانات اللعينة.
- هل تتزوّجينني؟ بشر في أنا من بين الخمسين في المائة من الرجال الذين لا يضرّبون نساءهم.
- احذر، قد أكون من العشرة في المائة من النساء اللواتي يضرّبن أزواجهنّ، ثم هل ستقدر على مهري؟
- كم؟
- مائة بقرة ببضاء على الأقلّ، هذا إذا أعجب منظرك أبي.
- للأسف، حسابي البنكي لا يسمح لي حتى بعنزة. تبقى السخرة عنده لبضع سنوات. هذا أيضا كان معمولا به عند الأوائل.
- وماذا تريد أن يفعل بشخص مثلك؟
- قد لا أكون أحسن من يصطاد له، لكن يمكنني أن أغسل سيارته كل يوم وأن ألّمع حذائه وحتى أن أطبخ له. لا أحد يجيد تغذية البيض أحسن مني.
- التفاوض على هذه القاعدة. لكنني لن أراجع عن بعض الذهب والفضة وهدايا أخرى سأمّدك بقائمها الطويلة.
- هل سمعت بنظريات بعض المختصين في تاريخ الأوائل والقائلة إن الحجارة المذبية والأقواس وقلائد الصدف والزوارق المنحوتة من جذع شجرة والتماثيل التي انطلقت بها ما تسمونه الحضارة، لم تخلق للفنّ أو لتمضية الوقت وإنما أساسا لشراء عروس، من الخطر اختطافها، خاصة إذا كان لها إخوة كثر يركضون أسرع من الخطيب الخاطف. مساكين أوائلنا! سنوات من العمل الشاقّ لصنع أشياء ترضي جشع الشيخ البشع وأولاده الأكثر بشاعة، للقبول ببيع أتناهم بثمن معقول أو قضاء سنوات من العبودية بالنسبة إلى من ليس لهم قدرة صنع الأشياء المطلوبة أو سرقتها.
- كانت هذه الأشياء تصلح أيضا لوقف مسلسل النار، دية من كنتم تغتالون أيها الذكور المتوحشون في حروبكم التي لا تضع أوزارها أبدا.
- تعادل بهدف لهدف. على كل حال من أين لك إنكار أن الأنثى هي أسّ البلاء. أولا: لأنه لم يُعرف يوما أن ذكرا خرج من جسد ذكر وكلهم دون استثناء يخرجون من أجسادكن أنتن لا غير، ولا أتحدّث عن مسؤوليتكن في إبقاء هؤلاء الوحوش على قيد الحياة وتربيتهن التربية الكارثية معروفة النتائج. ثانيا: لأن ثمن اقتناء أسّ البلاء هذا كان الدافع الأول لظهور الصناعة فالتجارة فالغنى فالفقر فالسرقة فالعدالة فالشرطة فالسجون،
- فقط؟
- والليبرالية المتوحشة والأحزاب الشيوعية ومجلس وزراء الداخلية العرب وبورصة وال ستريت والمافيات أكلة السوشي وأكلة السباجيتي وأكلة الهامبورجر وأكلة جناح القرش.
- يا الله!
- لا ننسى العبودية بما أنه لم يكن من حلّ أمام الأغبياء والضعفاء غير رهن سواعدهم سنوات طويلة عند عمّهم المرتقب أملا في الحصول على البنث البليدة. الحرب، العمل، السخرة، كل هذه المصائب بسببكن! لا غرابة أن يكون انتقامنا منكن رهيبا.
- بالضرب والخيانة الزوجية؟

- بما سميناه -وبصوتنا رثة فخر كاذب وتأثر مفتعل-تحرّر المرأة. هل لاحظت أن أهمّ دعاة هذا الشعار الخبيث كانوا رجالا. صدفة؟ شغلي دماغك الأنثوي الصغير. تأملي أهم التغييرات المجتمعية عندما تُمكن الأنثى من حق الشغل-قُل، من واجب الشغل-ومن التعليم الذي يعدّ له ومن بقية الحقوق المغشوشة التي تدعم ما يسمى "المساواة بين الجنسين." سنكتشفين أنذاك أنه بقدر ما "تحرّر" هذه الأنثى بقدر ما يتحرّر الذكر من ثمنها الباهظ الذي فرض عليه آلاف السنين سخرة أو مهرا. لَمَّا خَطَبْتُ أمّ تفاحة وتقيحه، كنت لا أملك شروى نقيير ومع هذا أعطاني الرجل الطيب ابنته لأنه كان تقدّميا كما كنا نقول تلك الأيام، بل ودفع فاتورة الغداء العائلي الذي كان احتفال الزفاف الوحيد. أنثى بالمجان وأبوها هو الذي يدفع تكاليف الحفل! عندي شعورٌ مُبهمٌ أن الأوائل سيركضون ورائي هذه الليلة في فضاء الأحلام وأن أحدهم سيمسك بي يطرحني أرضا ويشبعني ضربا بجزمته.

- سلم عليه من طرفي وبلغه تضامني وتشجيعي.

- كلّ ما أتمناه أن يتواصل التقدّم في هذا المجال. تخيلينا بعد عشرة آلاف سنة وقد وصل المشروع الذكوري الخبيث إلى هدفه الخفي. ستأتين أنت تخطبيني من "ما". قد تخيّرك بين مائة ناقة بيضاء أو السخرة لديها لعشرين سنة. أنصحك بالعرض الأخير بدل جمع ثمن النوق سنين بعيدا عني. الوالدة امرأة طيبة لن تضربك إلا يوما بعد يوم وسنقتنص كثيرا من لحظات الحب وراء ظهرها. بعد نهاية العقد تأخذيني عند أمك مع بقية العفش، لكن انتبهني، لن أقبل أن تضربيني فأنا ابن "ما" وما أدراك، وجداتي ينحدرن مباشرة من الجازية وبلقيس وعليسه.

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. مؤكد أنها ستكتشف -طال الزمان أو قصر-أنني كنت أطرف حيوانات المحمية التي زارتها تلك الأيام، لم تنتبه للأمر إلا وهي تودعني عند باب المطار.

-كفي هذرا، والآن حاول أن تنام. غدا قد نكون أحسن حظًا.

إنها ليلة تشبه كل ليلة ولا تشبه أي ليلة. ليلة أرق تنتظرنني رغم إرهاق يوم طويل، ليلة ستنتصّر فيها الأسود جوعا هي التي لا تصطاد إلا في حالك الظلام. ليلة تنام فيها الطرائد نصف مطمئنة والبدنُ المكتمل يدفع عنها رعب الأظافر والأنياب.

"الليل وطوله (شيكي)

والقرد يرنو إلى السماء حائرا

كيف الإمساك بالقمر؟"

*

من الغد توقظني رفيقة السفر:

- انهض، إنه الفجر. يكفي ما نمت.

- صبرك، مفاصلي كلها أوجاع وجلدي حريق ملتهب. حتى في أقبية وزارة التعذيب لم أعرف مثل هذا البعوض.

نزرد فطور الصباح لننطلق مجددا بحثا عن أصحاب الآثار الذين يقول عنهم الدليل إنهم يتدافعون عند الفجر للشرب من ترعة هي الآن أملنا.

ما أرق هذا النسيم. ما أروع هذا الهدوء. ما ألطف هذا الجوّ. يا ما في هذه اللحظات من سحر! ويريد هذا الكائن غير الشجري

غير الحيواني أن نجري وراء شيء آخر! صدق من قال: إن استطعت، فاجعل كامل حياتك فجرا (المسعدى).

أي شيء أهم من التمتع بهذه الساعات التي ما زلنا فيها أحرارا وأحياء. كم صدق أيضا المثل الصيني: اغتنم ما بقي لك من فرص ربما فات الأوان أكثر مما تتصوّر.

- أسرع، الدليل واثق أننا سنعوّض كل ما فاتنا البارحة.

بعد أقل من ساعة مشي حازم يتوقف الدليل ضاغطا على ذراعي مشيرا برأسه إلى يمين الطريق. ثمة شيء ما وراء أعشاب عالية على الشاطئ المقابل للغدير. ماذا بالضبط؟ ألقتُ إلى المرأة فإذا بها باسمّة مفتوحة العينين على أقصى اتساع. تهمزني وهي في قمة الجذل:

- وصلنا في الوقت المناسب لتأملها أخيرا.

- أنت، أمّا أنا فلم أصل يوما إلا بعد الأوان أو قبله.

- أأتكون رأيّتها وترفض الاعتراف؟ فاجأتك أكثر من مرّة تخلع نظراتك لا تريد أن ترى نوعا من الأشخاص والمناظر.

- لكنها فوق أفني. صدقيني، لم أر شيئا. سمعت فقط صدى شيء يمرّ. عمّ تتحدّثين؟

يهمس الدليل: فرّت الغزلان، اطمئنا، كل الحيوانات تأتي في الصباح للشرب. سيسعنا الحظّ برؤية من لم يأت بعد.

نجلس فوق أكمة تشرف على بركة أسنة من الماء ولها من البعد ما يكفي لوضعنا خارج مدار الخطر. ما زال الحرّ في حدوده المعقولة وكذلك صراخ الكائنات.

يجب أن أواصي امرأة عادت لتجهّمها.

- أشدك بعض قصيدة لأحب الشعراء إليّ

قال البشاشة ليس تسعد كائنا يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما (إيليا أبو ماضي)

قلت ابتسم مادام بينك والردى شبر فانك بعد لن تتبسما

تهزّ المرأة كتفيها.

- أملنا الأخير في الكسالى، من سهروا البارحة إلى آخر هزيع من الليل وما زالوا يغطّون في النوم. كأني أسمع صراخ الزوجة أو الأم: يا ولد انهض، سيشرّبون كل التربة وسيادتك تغطّ في النوم. أه يا عيب الشؤم على حيوانات آخر زمان، في عصري كان الواحد منا ينهض في مكتمل النشاط قبل احمرار الأفق، ينطلق مغنيا: الحلوة قامت تعجن في البدرية والديك يؤذن: كوكو، كوكو،

- تغني أيضا!

- إنها أغنية جميلة تطلقها إذاعات بلداننا كل صباح لتحريض الكسالى والفقراء على الخروج من الفراش، نوع من الدعاية للعالم. حتى الأغاني الإشهارية يمكن أن تكون جميلة وهذه واحدة منها، خاصة حين تغنيها امرأة سحر جمال صوتها أمةً بأكملها.

يضع الدليل إصبعه على شفثيه قافزا كأن ثعبانا لدغه ثم يشير إلى أكمة من الأشجار القزمية.

هذه المرّة وصلت حقا وبالضبط في اللحظة الثمينة التي يجب فيها الوصول.

تنتصب عن بعد أربعة كائنات عملاقة على قوائم شاهقة ترفع أعناقها بالغة الطول تثبتت عليها رؤوس ماعز أو غزلان كأنها جعلت لرعي السحاب. تصطفّ على شاطئ الغدير تباعد بين أطرافها كأنها تواجه بعض الصعوبة في ثني الركبة. تنجح أخيرا في إنزال الرأس إلى حيث يوجد الماء الزلال. فجأة يتواجه كائنان منها فيتقاطع عنق الأول مع عنق الثاني يرسمان صورة لحيوان برأسين نبتا في اتجاهين معاكسين. ثم تدير لنا الكائنات العجيبة ظهرها، تختفي عن الأنظار بالسرعة التي برزت بها. من جديد، خيالي وحواره الذي لا يتوقف مع هذا الذي أسميه منذ مدة غير بعيدة "الشيء":

هل من حدّ لخيالك! هل هذه الكائنات التي جننا نتعقبها وتلك التي تعودنا عليها وتعودت علينا مشاريع تجرّب عبرها إمكانيات خلق لا تتضب أبدا؟ في هذه الحالة ما الذي تجرّب في الأدمي بعد أن استنفذت الرشاقة في الغزال والسرعة في الفهد والقوة في الدب والعزيمة في طير صغير قادر على الارتحال دون توقف من قطب إلى قطب؟

تصرخ مرافقتي:

- اللعنة، لم تترك لي الوقت لأخذ أي صورة.

يتوجه إليها الدليل بنبرة من نقد صبره من الأبلهين:

- يا سيّدي، كل الكواسر تأتي إلى هنا بحثا عن فطور الصباح، لذلك لا تطيل أيّ من هذه الحيوانات المقام.

لا، لست إلا عجوزا خرف قبل الأوان. كلّ ما في جعبتك اللعب على تنوّع الأشكال وتغيير المقاييس. هل لك حقا من جديد تبهرني به؟ مثلا عالم بلا كواسر وطرائد، ومع هذا لا يختلّ له توازن.

تتوجه إلى امرأة ما زالت هي الأخرى تحت وقع الصدمة.

- على فكرة، سيادتك لا تحمل أبدا كاميرا ولا تهتمّ بالتقاط الصور التذكارية، لأنك لم تأت هنا إلا للتفلسف الفارغ.

- هل انتهيت أنكم تستعملون في لغتكم فعل shot لأخذ الصورة.

- وحده شخص سيء الظنّ بالبشر وخاصة بقومي يظنّ أننا نقرن بين أخذ الصورة بالكاميرا وطلقة الرصاص.

- اللغة أكثر من وضع ملصقات الاسم على الأشياء. هي عقلية المتكلم ورؤيته للعالم وتعامله معه.

تغيّر المرأة الموضوع مجرّبة المزح للتغطية على تزايد توتر أعصاب المتحدث والمستمع:

- بصراحة، ألا تريد لك بعض الصور وقدمك على جثة أسد؟

- أفضل صورة مع الفيل والثور والكركدن والأسد، بمحض الرضا وكلنا أحياء نرزق. إذا رفضوا لي الأمر، فسأكتفي

بصورتي أتوسط العنزة والبقرة والحمار واضعا ذراعي على ظهره، أمامي الديك والكلب والحمل وخلفي الحصان والجمال يعبثان، وعلى رأسي حمامة بيضاء أفردت عليّ جناحيها ولا بأس أن يكون في منقارها غصن زيتون. أما بخصوصك سأتركك

تلنقطين ما شئت من الصور للكائنات التي ترصد وراء الأعشاب، ثم سأصرخ مثل طرزان أنبئها لوجود لحم طريّ شبه مضمون لما يعرف عن البشر من بطء الركض وضعف المخالب ولو كانت لأنثى.

- انتظر نذوقها وستعرف تكلفة بطء الأدميين في الركض هربا من الأدميات.

نعود إلى المشي وراء دليل متزايد الضيق من عودة ضغط الزبائن وتواصل دلال حيوانات أليفة قررت أن تمنع عنه بقشيشا يدرك بخبرته المهنية الطويلة أن حجمه بعدد الكائنات التي استطاع الزوار إطلاق الفلاش أو الرصاص عليها. ها هو يتسمر من جديد مكانه هامسا بجذل غير مصطنع:

- وراء الشجرة، انظر، إنه وحيد قرن أبيض. إنه نادر في هذه المحمية التي يكثر فيها الصنف الأسود. تجثو مرافقتي على ركبتها وكلها تأهب لأخذ صورة العمر. تصرخ همسا:

- هل رأيته؟

- آه طبعاً رأيته، هل تعتقد أنني قصير النظر. إنه هناك بالضبط.

- تمزح؟ هذه صخرة، انظر في الاتجاه المعاكس.

- اطمئني، رأيته الآن.

أنا بنفس الصوت الهامس متوجهاً إلى الدليل:

- عفواً، لماذا تقول إنه أبيض، إنه حسب ما أرى...

- الأبيض والأسود كلاهما رمادي.

- عجيب!

يتقطن الرجل إلى ما في قوله من غرابة وما في لهجتي من سخرية. يهز كتفيه مفضلاً متابعة الحيوان وهو يدخل ببطء الأحراش، وما عليّ إلا أن أتدبر أمري لأفهم لماذا يصنف حيوان رمادي مرة أبيض وأخرى أسود؟

تقطع عليّ رقيقة الطريق خواطري.

- واحد أفلت من استعمال قرنه لشهواتكم الجنسية أو كغمد لخناجركم المعقوفة، أيها الإرهابيون.

- لكنه لن يفلت من حنوكم عليه فرداً فرداً بعد أن دمّرت جنسه وبيئته أيها المتحضرون.

- هل جرحك؟ لا تؤاخذني. لا أفهم كل هذه اللامبالاة منك. ألسنت من ألححت عليّ لأنظّم لك هذه الزيارة، هل تمثّل؟

- كل الأمر تورّعني بين شعورين متناقضين: الرغبة في رؤية بعض من هذه الكائنات العجيبة التي لا تتزاحم في شوارع المدن التي أعرف، والحرص. هل كنت تقبلين بأن يدخل بيت الحمام في دارك ثور بحجة تعطّشه إلى معرفة الأدميين، وأن له تقريراً عن رحلته يجب أن يدوّنه لينال به الشهرة بين بني جلدته السمكية. على كل حال أنا جدّ ممنون وجدّ سعيد وجدّ راض عن يومي. لا أدري على ماذا أركّز وكل هذه الروائع التي لا تولينها أدنى اهتمام تشدّ انتباهي.

- لهذا تحمل كل شيء لأنفك أو لفمك!

- عادة قديمة. أفرك بين أصابعي أوراق الأشجار والحشائش، أحملها لأنفي وأضعها على طرف اللسان متحسراً على عجزني عن استنشاق رائحة الشمس وتذوق السحب.

تستعيد المرأة حيويتها وهي تلفت نظر الدليل لبقايا صيد أحد الكواسر. تأتيني كلمات الدليل وهو يهني صاحبة البقشيش المنتظر بفظنتها وكيف أنها ملاحظة جيّدة، وأن هذا فعلاً رميم غزال طومسون.

النوع الأول صيد الأسد والنمر والفهد للغزال والكودو والحمار الوحشي. يتميز بضاوة انقضااض الصياد وأناقة مراوغة الضحية، بسرعة مباغته الأول وسرعة هرب الثاني، بالحسم السريع، بتجدد العقد بين الغزال والحياة، بين الجوع والأسد أو بالخاتمة السعيدة للأكل والفظيحة للمأكل.

على طرف النقيض النوع الثاني: صيد تنين الكومودو نوع من الحرباء انقرض إلا في جزيرة نائية في المحيط الهادي. ينهض الثور من رقدته في الوحل يدفع عنه هذا الدخيل القميء الذي عضّه في طرف وسبب له جرحاً بسيطاً. هو لا يعلم أن الدم الذي يسيل منه رسالة تعبق بها الأجواء تدعو بقية القطيع من الزواحف الكاسرة إلى التجمّع وملاحقته بصمت طيلة أسابيع لا تضيّعه لحظة، تنهشه هنا وهناك وفي كل عضّة تحقنه بمزيد من السمّ الموجود في لعابها إلى أن تخور قواه فيسقط لقمة سائغة فتمزّقه المخالب والأنياب نصف ميت نصف حي. من خبر البشر يعرف أن صيد الأدمي للأدمي يأخذ من تقنيات الأسد ومن استراتيجية الكومودو، والظروف وحدها من تُملّي الخيار.

يتواصل الهمس بين الدليل ورقيقة الطريق بخصوص الفاعل، وهل من الممكن أن يكون الفهد صاحب الإمضاء على جذع الشجرة. كلاً! فالفاعل لبوة لأن الفهود تفرّ بصيدها إلى أعالي الأشجار للحفاظ عليه من سرقات الأسود وبني أوى.

حتى هنا كائنات يسرق بعضها البعض وتحتال لوضع الغنيمة خارج شره المنافسين، كائنات جائعة تبحث عن كائنات خائفة وكائنات خائفة تبحث عن النجاة من كائنات جائعة، المسكينّة! هي الأخرى لم تتلق تسهيلات نحسدها عليها ولو أنه لا يوجد، لو تمعننت هي في مصيرنا، ما يجعلها تحسدنا عليه. لا شيء في هذا العالم غير الأكل والمأكل، غير القتلة والضحايا، أمّ

فعل فيه كان وسببى قتلٌ والباقي من الأفعال تعاليق وهوامش، من هذا الغبي الذي قال: أنا أفكر فأنا موجود، كان عليه أن يقول: أنا أقاتل فأنا موجود.

فجأة تتحرك بعض الأغصان فوقنا يتعالى منها صراخ منكر.

يهمس الدليل: لا تهتمًا، مجرد خصومة قرده الشمبانزي.

أهمس في أذن مرافقتي:

- على أي شيء يتخاصم بنو عمومنا الأقرب والأشبه؟ على أنثى شهية مكنتزة العجز على خلافة طاغية مسنّ، على الشهرة بين الشباب، أم على توسيع رقعة الوطن المفدى الذي تهدد حدوده المقدسة جحافل الأعداء؟ لا تأتيني أخبار آخر حرب أو أسمع صراخ الجيران إلا وقلت في نفسي: ثمة هرج على الأغصان.

تضحك مرافقتي.

- ليس الأمر دوما هكذا. تدكر ما يُقال عن طبائع بني عمومنا الآخرين: البونوبو. عندهم يكفي أن تقوم أبسط خصومة بين قيس وليلاه حتى تبادر الأنثى بتقديم عجزها إلى الذكر فينال غرضه وتنتهي الخصومة في الحين. ما أن تلوح في الأفق بوادر سوء تفاهم بين الجارة وجارتها حتى تبادر الأولى لشعر الثانية تبحث فيه عن قملة تضايقها فتزجها بكامل اللطف فيهدأ غضب الأولى وتبادر هي الأخرى بردّ الجميل. هكذا يقضي البونوبو حياتهم بين الجنس واللعب.

- لذلك لم يظهر بينهم ثوري مصلح أو نبي، لعدم حاجتهم إلى أي من هؤلاء، ثم تدعون أيها البشر أنكم أرقى مخلوقات الله.

- يلتقط الذهن الشارد آخر جمل الدليل يواسي زبونة غاضبة:

- حقا، سوء الطالع يلاحقنا. هذه محمية فيها الكثير من القطط والعادة رؤية البعض منها حتى أول يوم.

أندخل في الحديث:

- ققط هنا في الأحرش؟ إنها حيواناتي المفضلة لما تظهره من استقلالية ونكران للجميل. كم أحب ما تظهره من تباعد وتكبر حتى على الذي يطعمها وكأنها تقول له: أي شرف ميزتك به وأنا أقبل أن تخدمني. حقا، إنها حيوانات عجيبة.

تهزّ مرافقتي كتفيها.

- ققط هذا المكان من النوع الذي لا تستطيع وضعها على ركبتيك. أتمنى أن أهديك واحدا منها لتجوب شوارع مدينتك تجرّ الأسد أو الفهد في حين لا يجرّ صغار القوم إلا أبشع الكلاب.

- أول شيء سأفعله إطلاق سراحه وتحريضه على أكل أكبر المارة ناصحا بالبدء بالأطفال والنساء في مقتبل العمر لطرارة لحمهم.

- يا عدوّ البشرية، لا تنتظر منّي تعاطفا إذا التهمك قطّ جائع من ققط هذه المحمية اللعينة.

- لا أنصح المسكين بالأمر فالذي يكسو عظامي لم يعد لحما منذ زمن بعيد وإنما قديدا، أه لا تعلمين ما القديد؟ إنه لحم نجفده بعد التضحية بخروف العيد المسكين. لا أظع منه مذاقا، مالح، تتكسر عليه الأسنان وهو بطراوة الخشب، ومع هذا لا إفلات منه وقد قررت إنانا لسبب لا أعرفه ولا أظن أنهم يعرفونه أن كسكسي رأس السنة لا يكون إلا به.

*

سمر الليلة الثانية

حديث هامس حول النار بين آدميين التقيا صدفة يتبادلان تجاربهما ومفترق الطريق على وشك أخذهما كل واحد في اتجاه.

- أما اليوم فأربع زرافات تبخرت كما ظهرت ووحيد قرن ثائه في غبار بعيد وبقايا جثة غزال. أي حصيلة بانسة! بالطبع سيادتكم غير متأسف على شيء بما أنك لم تأت إلى ما يأتي إليه الناس.

- لا تكفين عن الشكوى من غياب الكائنات التي جئنا لإزعاجها والحال أن ما يضغط عليّ كثافة حضورها حتى وهي غائبة.

فكري لحظة في الكائنات التي تعيش في قاع البحيرة التي وقفنا على شاطئها نمازح فرس النهر، في الحيوان الذي قتل السائحة المسكينة وهو لا يعرف من قتل، في الفهد الذي ترك خدشا على جذع، في الكودو الذي أربناه في أحلى أوقات القيلولة، في الثيران التي لم نر منها إلا بقعة سوداء مبهمة، في الغزالة التي لا نعرف كيف اغتيلت ومن قاتلها.

- هل أغلق عيني لاستحضار روح السائحة تروي لنا لقاءها مع الأسد؟

- استحضري أيضا ما في هذه الغابة من كائنات، التي تختبئ بين الأعشاب، التي تبني أعشاشها فوق الأغصان، التي تحفر حفرا لبيضها في الرمل، التي لا تخرج إلا إبان الليل، التي هاجرت من هنا والتي هاجرت إلى هنا، التي انقرضت من هذا المكان وكان لها من الأشكال ما لا قبيل لنا بتخيله.

- كفى، أصبنتي بالدوار.

- انتبهي لهذا الجذع المقطوع الذي نجلس فوقه، لهذا الرذاذ، لهذه الأعشاب الميتة، لهذه الزجاجة وهذا الكأس، لهذا الصوت الذي تحدّثه النار، لهذه الرائحة المتصاعدة منها، لهذا النسيم الذي هبّ فجأة، لهذه القطرة التي نزلت بالضبط بين عيني ونظارتني فأذابت وجهك داخل ضباب كثيف، لهذه القطرة الجديدة التي نزلت مباشرة على عنقي وتتسرّب من فوق إلى تحت ببطاء مثير، لكّل هذه الأشجار التي تحفت بنا، لهذه الأغصان التي يرميها الدليل على النار، لهذه النجوم، لهذه الحصاة تحت رجلي، لهذه الأوراق التي أسقطتها الريح في حرك... انتبهي ل... أشباح الأوائل... كل الأوائل الذين مروا من هذا المكان .

- ربما هم من لا ينتبهون لوجودنا... ما رأيك أن نرقص ونضرب لهم الطار لعلهم يتكرومون بإشارة.

ومما يقوله أهل العلوم الطبيعية في أكثر من اختصاص أن رحلة الأدمية انطلقت من هذه الأرض أو من أراض غير بعيدة وكلها من هذه القارة مهد كل الأعراف والقبائل والشعوب والأمم... أن أوائلنا ارتحلوا في موجات متتالية بدأت قبل أكثر من مليون سنة جريا وراء الطراند والمطر وأيضا فضولا وحبا للمخاطرة في أصقاع لم تطأها قبل أقدامهم قدم... أنهم تبعوا الشواطئ والأنهار آلاف السنين ليصلوا أبعد أنحاء القارات الخمس إلى أن قاد الطريق أحفادهم إلى القمر وذات يوم قريب إلى المريخ وما أبعد... أليس هؤلاء الأوائل بأرجلهم الحافية وأيديهم العارية وبطونهم الخاوية وقلوبهم الصامدة وعقولهم المستنيرة هم الأبطال الذين تخجل أمامهم جسارتهم كل ما ندّعي من بطولات؟

تنتهد رفيقة الطريق ثم تشير إلى الدليل بصدد إعداد العشاء.

- أرجو أن هذا الغيبي يعرف الطبخ أحسن مما يعرف طرق المحمية. على فكرة، لم أزر بلدانا الشواء فيها ألدّ من شواء بلدانكم. لماذا لا تشرف على العملية، أنت الذي يحاول إغرائني بالادعاء أنك طبّاخ ماهر.

- ذكّرتني على فكرة، بالفارق الأساسي بيننا وبين الكواسر المحببة بنا. نحن سنتعشى باللحم المشوي وهي باللحم النيئ. لكن في آخر المطاف، كلنا من أكلة لحوم الكائنات الأضعف. الفرق الحقيقي أننا كواسر تتميز إنائها بصبغ الشفاه بالأحمر وذكورها بلبس ربطة العنق وأن هذا ما يجعلنا نسوى أكثر من بقية الكائنات.

- كفى، وإلا أنت الذي سيتعشى باللحم النيئ.

- يا امرأة، رحماك...

يفتح طفل في سنته الرابعة أو الخامسة عيني الرعب على أقصاهما وهو يشاهد سائلا أحمر يتفجر من العنق شلالات وأنهارا تسيل على إسمنت بهو الدار بعد أن انتزع منه أهله بالقوة كأننا لطيفا، ودعا، بريئا، كان يحنو عليه ويدلّله كما لو كان له الأب والأم. وفي هذا الملفت المحافظ على كل التفاصيل، يضرب الخروف المقتول الهواء بقوائمه الأربع لدقائق طويلة، والقاتل يمسح سكينه في منديل أبيض هادئ راض عن نفسه. لا يتمالك الطفل المصدوم نفسه فيهاجمه بقبضتيه الصغيرتين، والرجل مصرّ على مداعبته، بل وعلى تقبيله لا يقدر ما يثيره في نفس مهاجمه من بغض. لا بدّ من جزّه بعيدا حتى لا ينقضّ مرة أخرى على المجرم وهو ينزع عن الجثة الهامدة جلدها ويمزّقها إربا إربا. ينفجر الطفل في وجه أمه وهو بين صراخ غاضب ووعيل يصمّ الأذان. لماذا فعلتم هذا به؟ ماذا فعل خروفي؟ أكرهكم جميعا!!! أكرهك، أكرهك ولن أكلّمك من الآن إلى الأبد!!! أصوات نسانية آتية من أعماق الماضي تردّد: كفى الآن، تعال اجلس بيننا. لا تبق وحدك طول النهار في هذا اليوم المبارك. الجلوس بين النساء وهن يعبثن ضاحكات بأمعاء الصديق يحشونها بالخضراوات والتوابل لإعداد ما يسمونه "العصيان" لعشاء العيد! صوت الأم: يا بني هون عليك، إنه مجرد... أقصد أنه، على كلّ حال هو لم يتألم كثيرا، يا بني، إنه كبش العيد ونحن نضحكي به في هذا اليوم المبارك لأنها إرادة الله. إرادة الله! من أين للطفل في هذا العمر أن يعرف أن الأدمي المسكين لا يخطو خطوة إلا وعزرائيل وراءه، أنه مجبر على تقديم الأضاحي ولسان حاله يقول للقوة المجهولة الماكرة: اتركي لي حياتي وخذي هذه بدلها.

يهزّ الطفل العنيد رأسه بالرفض لتبرير لا يفهمه، ولو فهمه لما قبله. لا تكفّ دموعه عن السيلان يعذبه عجزه، هو الذي لم يقدر على حماية صديق اللعب من المصير الفظيع. يختفي بعيدا رافضا أن يكلم أحدا، مواصلا مراقبة تفاصيل السلاح والتقطيع، وعيناه بين فتح وإغلاق. تتلّف أيادي الأم والخالة والجدّة شيئا أسود لزجا يضعنه مباشرة على نار الكانون. تصرخ فيه الجدّة بالكفّ عن الدلال وتناديه أمه بلطف فيه بداية نفاذ صبر ليتذوق شيئا من هذا الكبد المشوي اللذيذ. ماذا أصاب هذه المرأة التي تفهمني عادة، هل نسيت أنها تناديني يا كيدي؟ لا أريد طعامك؟ لا أريد، أكرهك، أكرهك وسأبقى كارها لك ما حييت.

تهزّني مرافقتي من كتفي:

- ابق معي، كنت تقول إنك لا تتحمّل رؤية اللحم النيئ.

- المصيبة أنه معروف على الأنظار في شوارع بلدي وهو يقطر دما. هكذا مشيت دوما فيها لاعنا في سري كل هذا القبح، كل هذه الهمجية التي لا تثير إحساسا في أحد غيري. نعم، لم أر في حياتي على كثرة ما رأيت من بشاعة، أبشع من الأشلاء الدامية للحيوانات المقتولة المعلّقة في واجهة دكاكين الجزّارين.

- خاصة إذا تكّس عليها الذباب.

- لأنني منصف، سأسمح لك بسبب قومك وخذي راحتك، أما سبب قومي فحقّ لي أنا وحدي. أوصل. هناك ما هو أفضح من دكاكين الجزائريين ببلكك وبلدي: محطات سفر يتوقف فيها الناس للراحة والأكل، والخرفان المعدة للذبح تنتظر دورها تحت دخان الشواء لا يخامر فكر أحد أنها تعيش رعبا صامتا وهي تنتظر الذبح تحت أشلاء أم أو أخ أو أب.

- ارتفع صوتك والدليل ينظر إليك باستغراب.

- ليذهب إلى الجحيم هو وكل الكائنات غير الحيوانية غير الشجرية.

- وماذا فعلت أمام المنظر البشع؟ هل شتمت الجزار والشواء ورواد المطعم؟ هل اشتريت الخرفان وأطلقت سراحها؟

- لذت بالفرار بكل شجاعة وروح مسؤولة عالية. للانتقام مني ومنهم كانت تأتيني صور عابرة ممتعة لقطيع من الأدميين ربطوا بالحبل إلى وتد الجزار، ينتظرون أن تنفذ لحوم أمهاتهم وأخواتهم وأن يأتي عليهم الدور والخروف ينفخ على نار الشواء، يضاحك نعجة ويغازلها.

- غريب، أنا أيضا "أرى" أحيانا عند تجوالي في المدينة كلابا عملاقة تجرّ بالحبل أدميين يتوقفون أحيانا للتبول تحت الحيطان. - روميو وأنفه في مؤخرة جوليات يستنشق روائحها المثيرة! عطيل فوق ديمونة! وكل كلب يجذب إنسانه متحرّجا، إنها حقًا لصور منعشة للروح!

تضحك رقيقة الطريق إلى أن يتملكها السعال. أعتنم الفرصة للتنفيس عن كل ما تراكم داخلي من أوجاع الطريق.

- أذكر أيضا يوم فرضت علينا الكلية زيارة المذبح البلدي في إطار التدريب على سلامة الأطعمة (أطعمة الأدميين طبعًا). كانت الأبقار تنزل من قطار حشرت فيه بالمئات تحت الضرب لتصطفّ الواحدة وراء الأخرى في ممرّ لا يسع إلا بقرة واحدة. عند وصولها الباب كانت تتوقف بانتظار أن يأتي عليها الدور. من يستطيع فهم ما تبادلته القطيع من علامات رعب مطلق، من يأس نهائي، من تمرد عاجز، من مشاعر وأحاسيس وصور وأفكار لا تمرّ إلا بمخيلة البقر؟ ها هي الضحية العاجزة وجها لوجه مع آدمي يضع بين قرنيها مسدسا بكاتم للصوت. يضغط على الزناد فتهدى على الأرض كأنّ صاعقة أصابتها. ما هي إلا بضعة ثوان حتى تجد نفسها معلّقة في الهواء مينة - أو هذا ما يتمناه لها المرء - وقد أمسكت بها آلة لرفع الأثقال كتلك التي تشاهد في الموانئ. يتقدّم آنذاك الجزار الأول فيقطع الرأس بالسكين لتندفّق شلالات من الدم والرّجل يثرثر مع زملائه والسيجارة بين الشفتين. تواصل آلة الرفع تحركها إلى الأمام على طول شريط حديدي معلق في الفضاء. وفي كل خطوة من تحركها بقية سلسلة الجزائريين: الذي يفتح الفريسة بسكينه من فوق إلى تحت بضربة بارعة، الذي يستلّ الأحشاء، الذي يقصّ بسكين كأنه سيف هذا الجزء أو ذاك من الجسم الساخن. ما هي إلا بضع دقائق حتى يتم تفكيك كائن أخذ تعلم صنع أجزائه وتجميعها ملايين السنين.

ألم تنتهي يوما إلى أن الحيوانات تموت دون ضجيج؟ لم أضرب بحدائي يوما وأنا في حالة هستيريا ثعبانا، أو فأرا، أو سرب نمل، فصدر منه سبّ أو صوت منكر. كل الخرفان لا تنبس ببنت شفة وهي تُذبح. لَمَّا يثب الأسد ليمسك بأنيايه حجرة الغزال -يقتل الأول ويموت الثاني- يحفّ بهما وقار الصمت. أما عند الأدميين فيرفع القتل عقيرته بعويل يجمّد الدم في الشرايين والقاتل يصيح كالمجنون يحيا الامبراطور أو عاش الوطن وحتى بلاهة من نوع يحيا الموت.

كيف يمكن لكائن له هذه القدرة على الإيذاء -إيذاء بني جنسه وإيذاء كل المخلوقات- أن يكون أرفع مخلوقات الله كما تدّعون؟ ماذا لو كان العكس هو الصحيح؟

- ربما معك حقّ، لكن ماذا سنفعل بمثل هذا الاكتشاف؟ طبعًا الإنكار وإلا كيف نواصل الطريق؟

- أخيرا تعترفين بأنني على حقّ، بدايةً مشجعة.

- ما رأيك في النوم، ينسينا كل هذه الهموم؟

- موافق شريطة أن يقبل البعوض بهدنة وألا تترصدّ بنا الكوابيس على الضفّة الأخرى.

على خط التماس بين الوعي واللاوعي أصبح صراخ الكائنات مفهوما. تحققت أقدم رغبات الحالم في فك شفرة رسائل تهديد وغزل ونكت وتبادل الأخبار عن تحالفات جديدة بين النمل والنمل، عن مؤامرات تحاك بين الطيور، عن ضرائب جديدة سيفرضها العالم على الكائنات، عن شجرة سنط شاهرة شوكتها في وجه غزال بحجم حصان يركض فزعا طالبا النجدة، فتصرخ جحافل النمل الممتطية ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج القصة وإلا فإنه هو القتل.

فوق الرقعة الكبرى لاعب الشطرنج مواصلا لعبة تتزايد إثارة وتعقيدا. كيف يعطي للطريدة كل حظوظها، ولا يبخل على الصياد بحظوظه هو؟ كيف يتوزع في الطريدة وفي الصياد؟ كيف ينتصر على نفسه التي هزمته آخر مرة هو الذي لا يلعب منذ الأزل إلا بذاته، معها تارة، وتارة أخرى ضدها.

*

قالت والنار تلتهم آخر الأغصان وشخير الدليل يعلو ويهبط:

- تعال، كن ولدا طيبا. قصّ عليّ قصة مُسَلِّية ورقيقة كنتك التي تُحكى للأطفال قبل النوم. حذار، يجب أن يكون الأدمي في منتهى الطيبة والحيوان في منتهى الوداعة والعلاقة حب ووثام، أسلوب أفلام الأطفال ليلة عيد الميلاد. احك لي مثلا عن دبّ النسيج الذي كنت لا تنام إلا وهو في حضنك، أو عن كلبك الصغير الذي كنت لا تفارقه.
- ليس لنا دبية في الصحراء، اللهم إلا إذا كانوا أخفوا عني الأمر. أما كلابنا فنذيقها الأمرين.
- ربما كان لك دمية جميلة لجمل أو كلب أو حمار.

- أخشى أن تضحكي مني إن حدثتكَ عنه، عديني بعدم فضح الأمر.

تعدني مرافقتي بالأمان وأنها لن تفضح السرّ، على الأقلّ طيلة بقائنا في المحمية. الأمر الذي يشجعني على رواية القصة من بدايتها. كان يا مكان في واحة نائية، عجوز فقير تركه ابنه وحيدا وترك عنده طفلا مشاغبا يرهق السماء والأرض بهرجة الدائم وأسئلته الغريبة التي لا تنتهي. كان جدي لا يملك غير حوش متداع وحمار وجمل يعينانه على أعماله الزراعية وقضاء حوائج الأخرى. أما الجمل فقد كانت علاقتي به بالغة السوء. أذكر، وأنا في بداية سنتي الرابعة أو الخامسة، أنه أصابني بضربة بارعة بخفه خلت أنها سترديني قتيلا. باءت كل محاولاتي لركوب ظهره بالفشل الذريع. من أين لي تسلّقه وهو بجرمه وأنا بقامتي؟ وإذا وجدته باركا وقفزت فوق ظهره، نهض اللعين ورماني على الرمل. لكل هذه الأسباب ولغيرها، أيقنتُ باكرا أنه لا خير في البعير. هكذا قرّرتُ تجاهل الحيوان ونسيانه كما أفعل منذ ذلك الزمان مع كل الذين أدرك بالتجربة أنه لا قواسم مشتركة ولا تفاهم ممكننا معهم. من يومها قطعْتُ كل العلاقات الدبلوماسية مع هذا الكائن رغم صلة مغرقة في القدم بين قومي وقومه. لم يبق إلا الحمار. كان خلافا لذلك المتعجرف بالغ اللطف والهدوء والصبر. كم أشعر بالذنب اليوم لما أدقته إياه من أصناف التعسف والدلال. كان عنترُ سهلَ الامتطاء وكنت أشعر وأنا فوق ظهره بأني فارس الفرسان أركله في جنبه، أنهال عليه بالعصا، أصرخ فيه بأعلى صوتي ليركض بأقصى السرعة، ثم أخرج سيفي المصنوع من سعف النخل من غمده أرفعه عاليا لا أنزل من ظهره إلا وقد انتصرتُ على أعداء أبي.

- هل كان جدك يتركك تأخذ حماره متى شئت؟

- الحمير في عهد جدي لم تكن تشغّل بمفتاح يخفيه صاحبها. كنت أنتظر أن يبدأ العجوز عمله في الحقل لأخطف عنتر، فينطلق شريطة ألا أنسى -من فرط تسرّعي- فكّ الحبل المربوط به إلى جذع النخلة. ثم إن جدي، كان ككل جدّ يحترم نفسه ودوره، ولا يسعده شيء قدر أن يترك الطفل يتشيطان عليه وهو يخفي ضحكه وحنانه. كان يعرف حبي الشديد لعنتر، لذلك كنت المكلف الرسمي والوحيد بأن أخذه ليشرب من العين، والمشرف الأوّل على عملية ملء القرب والرجوع بها سالمة إلى الحوش. ماتزال تفوح من أعماق ذاكرتي إلى اليوم رائحة جلده وقد تمازجت برائحة القرب الرطبة المطلية بالقطران.
- توقّف، سبكي. لا أتصوّرك تحدّثت يوما عن رائحة حبيبة فرقت الأيام بينك وبينها بكل هذا التأثير.

- يا امرأة، أحدتكَ عن عنتر وتحديثيني عن النساء! أه يا عنتر، كم كنتُ أود أن تعيش قبل زمن الأسر، أن أراك تركض حرا طليقا تسطو على حريم الغريم، توسّع ملكك وتطرد كل حمير يُحضّر انقلابا وقد اعتقد مبكرا أنك لم تعد من تحنى الأذان الطويلة في حضرته. نعم، أين في الناس حمار مثل حماري! أه يا عنتر، رحمك الله أوسع رحمة، رزقني فيك جميل الصبر والسلوان وأسكنك فسيح جنانه، في القسم المخصص للحمير. بالمناسبة، ألا تشاركنيني استهجاني الشديد أنه لا أحد من مفكري الأدمية وحكائها، اهتم بمصير الحيوانات بعد موتها. أقولها ولن أعود إلى القضية ثانية. إذا تواصل هذا الاستخفاف المشين بحقوق الكائنات غير الأدمية الثابتة منها والمتحرّكة، فسأتحمّل مسؤوليتي كاملة في تصحيح خلل ما بعده خلل ومظلمة قد تكون أكبر المظالم. نعم، ما زال هناك مكان في خيال الثقافة البشرية لجنة للبعير والحمير والجمال، تستريح فيها هي الأخرى من أهوال هذا العالم وما قاسته من كائن لا يجازى في الشرّ اسمه الأدمي. الاستثناء الوحيد الفئران والذباب والناموس، وما على هذه الكائنات إلا البحث لها عن جنة أخرى في خيال من يعشقها.

- الخلود للحيوانات! ألا يعني هذا الاعتراف لها بروح. الحيوانات لها روح!؟

- لا أدري بخصوص الحيوانات الأخرى أما عنتر فبالتأكيد له روح. لا يجادل في الأمر إلا غبي أو ناكر للجميل مثلك أنت وبقية إناث الأدميين. ألا تعلمين أنه لولا الحمار والثور والبغل لاضطررنا لشدّكن إلى المحراث.

عن نكران الجميل حدّث ولا تسل... هل كنا نتعلم الصيد لولا أساننتنا الذئاب وحلفاؤنا الكلاب؟ هل كنا نصبح مزارعين وبنّاءة قرى وممالك وأديان لولا البقرة والخروف والخنزير والمعزة، أو غزاة وفرسانا لولا مطّهم الخيل؟... ألم تشكل الحيوانات النموذج والقذوة، ونحن ننشبه بهيبة الأسد وشجاعة النمر وجلال النسر وجمال الغزال ورقة الفراش ووفاء الكلب وذكاء

الغراب؟... على الأقل رسم أوائلنا لها اللوحات على حيطان الكهوف وأقاموا لها التماثيل وبنوا لها المعابد. أما نحن أحفادهم الأغبياء فنضعها في الأقفاص أو نسومها خسفا بلا حياء أو عقدة ذنب.
- واصل القصة.

الفضل الأكبر. ألا تقول الروايات الجدية التي توصف بالعلمية وأن الأوائل لم يرتحلوا حبا في المغامرة والمعرفة وإنما حبا في اللحم ركضا وراء قطعان البقر الوحشي والغزلان وكل الحيوانات الطيبة المذاق... أن هذه الحيوانات هي نفسها كانت تركض وراء الكأأ أرقها الجفاف في قارة لم ولن يتوقف فيها المناخ عن التغير... ما أعرب أن تكون الحيوانات هي التي فتحت لنا الطريق وأننا ندين باستكشافنا لروائع العالم لهذه الكائنات... نعم ما أعرب أن رأس قافلة بني سفر لقرون طويلة لم يكن الدليل الأدمي وإنما غزالة أو جاموسة!
- أتعلم أن صمتك يضايقني أكثر من ثرثرتك؟

- فصلتني الأقدار الظالمة عن عنتر، لكنني حملت هواه في فؤادي على مرّ السنين لا أخون عهده مع أي حمار آخر. يوم استقرّ بي الطريق في بيت محاصرنا قلت: لم لا أشتري حمارا أسكنه في الحديقة ليرتاح بقية عمره، أكفر عن كل خطاياي السابقة بمنحه نوعا من التعويض البسيط وردّ الاعتبار في شخصه الكريم للحمار المجهول الذي نكّلت به البشرية على مرّ العصور؟

- أخيرا عرفت ما سأهديك. تريد أخذه معك في الطائرة؟

- لا داعي لتكف المشقة فيلدي يعج بالحميز، بل منهم من تبوأ أرقى المناصب.

- ذكّرتني بذلك الأرسقراطي الذي نشر إعلانا عن انطلاق معرض لأجمل حمير المملكة يوم كذا في المكان الفلاني، فتدافع الناس إليه لتبادل النظرات الحيرى بينهم وهم لا يكتشفون إلا أمثالهم. بعضهم ضحكوا للمقلب وبعضهم أقاموا دعاوى قضائية على الرجل. بجدّ، ما الذي كنت ستفعل بحمار بطال يعاني الملل في حديقة لا يخرج منها؟ أليس الأمر بمثابة الحكم عليه بالسجن المؤبد؟

- من قال لك إنني كنت أنوي حرمانه من الفسحة؟ بالعكس، كانت كل الفكرة مبنية من البداية على فهم عميق لمصالحه ومصالحه. كان المشروع أن أغافل في آخر هزيع من الليل البوليس السياسي النائم في السيارة أمام باب البيت، لجولة ممتعة في الحيّ أستعيد خلالها مشاعر الطفل. ثم اتضحت لي مخاطر الأمر. ماذا لو لاقيت جيراني وكلهم ميسورون لا يركبون إلا المرسيديس؟ ماذا لو تفتن البوليس وأخذ لي صورة وأنا على ظهر الحمار لتخرج من الغد صُحف السلطة بالعناوين الغليظة: كم مرّة قلنا لكم إنه مجنون!

- فعلا كانت حظوظك لإقناع مواطنيك برواك دوما معدومة. لكن لو كمشوك في الثالثة صباحا على ظهر حمار لأصبحت معدومة ونصف.

- خاصة مع قربة الماء. أتعرف بأن نوبة من الجبن جعلتني أتخلّى عن حلم جميل كهذا.

- من الجبن أو من التعلّق؟

- في بلدي اليوم لا فرق بين الأمرين. ديدن أغلبية القوم أن الكذب قوام الأقوال والجبن قوام الأفعال. المهمّ، تخليت عن المشروع برمته ولم يبق لي للتنفيس عما في وجداني غير حمار الفلاح الذي يتجاسر أحيانا على دخول بيتي لإعانتني على صيانة الحديقة. ذات مرّة قلت للرجل بمنتهى الجدّ: كم أحسدك. لا أشتهي شيئا قدر أن أركب حمارك لجولة صغيرة في الحيّ تحت ستر الظلام. حدّق فيّ الرجل باستهجان معتقدا أنني أسخر منه فعيرت موضوعا كنت أعود إليه باستمرار. أحيانا كنت أتطرّق إلى إمكانية أن تربط حماره أو اصرّ نسب بحميز الجنوب وربما -لم لا- بحميز قومي، وهل يمكن أن يكون -هكذا بمجرد الصدفة دائما- من ذرية عنتر. للأسف لم يكن الرجل يفهم ما أقصده ولا سرّ اهتمامي بدابة لم يكن يرى فيها إلا ما يراه جلّ الأدميين في مثل هذه الكائنات المقهورة الأسيرة.

ثمة مفترق طرق في تاريخ هذا العالم قد نصل له يوما تقرّر فيه أنه بعد الغاء رقّ البشر قررنا الغاء رقّ الحيوان وأننا سنعيد للحميز والماعز والخرفان والبعير والخيل والبقر وباقي الحيوانات المستعبدة حرّيتهم ليعيشوا أحرارا في فضاءات هي نصيبهم الشرعي من عالم كلنا فيه ضيوف سواسية.

يوم اقتنعتُ ألا نوعية الأصدقاء ولا نوعية الأعداء تجعل العيش مغريا في الأرض الجدياء التي حُكم عليّ بالانتماء إليها، أصبحت أطمح بشراء الحمار والفرار به تحت جناح الظلام حيث لا يمكن للبوليس أن يتصورني فارا إلا على متن سيارة. ثم تطوّر الحلم. لماذا لا أوصل الطريق هربا من هذا الكوكب التعيس برمته. تصوريني على عنتر الثاني متسكعا بين المجزّات، أزور الكواكب التي يزرع بها الفضاء اللامتناهي، الواحد بعد الآخر، لا غازيا أو باحثا عن الذهب أو حتى عن العلم، وإنما شاعرا يتأمل معجبا، متعجبا، منبهرًا ومأخوذا بتجارب الله. كل هذا ولا مخبر يتعقبني، لا عدو يهددني، لا خصم ينافسني، لا

نصير بيترني، لا حليف يخذني، لا صديق يخونني، لا قريب يريد تدخلا ولا بنت تطالب بالزيادة في المصروف الشهري. أخيرا الخلاص! أخيرا الحرية!

ذات يوم سألتُ الرجل عن ثمن حماره هكذا لمجرد تواصل الحلم. تردّد وقد أيقن أنها مقايضة رابحة مسبقا بين طبيب برجوازي من الأحياء الراقية ورفيقي ماكر. تتحنج بوقار ثم قال لي: أتركه لك بمئة وخمسين دينارا. فتحتُ فمي من الدهشة. ربما لمع بريق الاستنكار الشديد في عيني فسارع قائلا: إنه حمار لا يأكل كثيرا ويصبر على الضرب ولن تجد مثله في كل أسواق الحيوانات، لن أنزل تحت مئة وأربعين. انفجرتُ في وجه الرجل وقد اتخذتُ تلك السحنة المخيفة التي تستحوذ عليّ وأنا في نوبة الغضب البدوي العارم: الحيوان الذي يساوي هذا الثمن وحتى أقلّ، هو أنت وكلّ الأدميين أمثالك وأمثال هؤلاء الذين ينامون أمام بيتي وأمثال الذين بعثوهم. يومها جمع الرجل فأسه وبقية أدواته وهرب بحماره دون أن ينتظر أجرته ولم أره ثانية. ما من شكّ أنه اقتنع أن من يتعبونني على حق في مراقبتي. ماتزال مراجلي تغلي من الغضب إلى اليوم كلما تذكّرت الثمن الذي طلب.

- وهل كنت تريد الحمار مجانا، أو أن يهديك إياه الرجل الفقير؟

- لا تفتعلي عدم الفهم.

- بصراحة، هل كنت قادرا على دفع الثمن الحقيقي؟

- طبعا لا. من يقدر؟ مائة وخمسون دينارا لكائن له ذلك الجهاز العصبي بكل أنواع الخلايا التي يقضي جهابذة العلماء عمرهم في محاولة فهم طرق عملها، ذلك الجلد الأعجوبة، ذلك الجهاز المناعي العبقري، تلك الحواس الخمس بالغة الدقة والمهارة والإتقان، تلك النواة وسط كل خلية تحمل المورثات وكل واحدة منها أعقد مليون مرّة من أي مصنع عصري اخترعه الأدميون! حفنة من الدنانير قيمة كل الخوارق والمعجزات لتسيير العضلات، لضخّ الدم، لتوليد الطاقة، للتخلص من النفايات، لكل الأنسجة التي تطلب ابتكارها وتجريبها ملايين السنين! حفنة من الدنانير قيمة تعقيد مخيف يكتشفه الباحث، فاعرا فمه من التعجب والإعجاب في كلّ خلية، في كل نسيج، في كلّ عضو!!! أبحاث عن بروتين بسيط أو هرمون يفرزه هذا الكائن تكلف الملايين، ويقول لي هذا الأدمي الجاهل: لن أنزل تحت مئة وأربعين دينارا!!!

إنه نفس النكاء الصامت المبهر المدهش الذي تجده في أبسط الخلايا وأكثر الكائنات تعقيدا...إنه النكاء الذي يكتشفه تدريجيا العلم منبهرا وكان الفنّ والشعر قد انتبها إليه قبله...إنه سرّ الأسرار ومستودع كل غرابة الموجود وما وراء هذا الموجود...ونقيضه-إذ لا بد لكل شيء من نقيض يقاس به -الغباء الصارخ الذي لا تجده إلا عند البشر...أكون اغبي الكائنات ونحن مقتنعون أننا أنكأها ولا أكثر دلالة على غيائنا من هذه القناعة.

- ستجد صعوبة كبرى في إطار قوانين السوق الحالية، أن تسعّر الحمار بمليار راند.

-لن أتركه لك ولا حتى بثلاثمائة مليار، خاصة إذا ثبت أنه من نسل عنتر.

-تستغرق المرأة في صمت طويل وكأني حيرت فيها أوجاعا قديمة.

- في ماذا تفكرين؟

- في غباء تكلفنا مخاطر هذه المغامرة وتكاليفها. كأنّ القطط والكلاب والماعر والخرفان والبقر والنمل والفئران والعصافير والدجاج وباقي الكائنات الحية التي تجاورنا غير جديرة بالاهتمام، أو أقلّ غرابة من هذه التي أتينا نتعقبها.

- لا تغتمني، غدا يوم آخر سنرى أخيرا الكبار الخمسة مصطفين رافعين لافتات الترحيب والاعتذار.

- غدا يوم آخر ستواصل فيه استفزازي. ليلة سعيدة.

- أي نوم بكل هذا الضجيج؟ يا الله يا جماعة. لو خفّضتم الصوت قليلا لتواصل العلاقة ودية بين جيران الوجود.

- تُرى بماذا تصرخ فينا هذه الكائنات حسب رأيك؟

- ثمة من يهتف بسقوط الأدميين بصفة عامة، ومنهم من يخاطبنا نحن تحديدا: Go home، Go home، Go home
تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. ينتظم تنفسها. ترحل سريعا إلى الضفة الأخرى من هذا العالم. لربما تلاقي فيها الحيوانات التي تقاطعنا وتسبنا في هذه الضفة.

أه يا صمته صحرائي الغالية!

في آخر المطاف ما الخاصية أو الخصائص التي تميز الأدمي عن كل هذه الكائنات الصاخبة والصامتة التي

تحاصرني هذه اللبيلة بكثافة وجودها؟ ما الأدميون بالنسبة لها؟ أخطر الوحوش التي يأتي منها موت خاطف مُدوّ من بعيد لا تطالها أنياب ومخالب؟ من يعرف منها أن هذه الوحوش تسيّر دوريات من الجنود المدججين بالسلاح لحمايتها!

بغضّ النظر عن رأي هذه الكائنات فينا، ما معنى أن تكون أدميا بالمقارنة؟

كيف يمكن التعامل مع سؤال كهذا. لننطلق من كيف نحدّد ما معنى أن تكون رجلا.

تفحص المعطيات التي تعرف هذه الحالة وستكتشف أنها تتعلق بالاختلافات الجسدية مع المرأة، بالاختلافات النفسية الثابتة والخيالية مع المرأة، بالخصائص المنشودة في الرجل التي تنتسدها المرأة، أخيراً بالوضعية الاجتماعية دوماً بالنسبة للمرأة سواء في المجتمعات التي تكفهر فيها الوجوه لولادة البنات أو في المجتمعات التي تحكمها النساء.

يُضاف لهذا ما تعيش الذات في أعماق أعماقها من تجارب لا تُقسّم. من أين للرجل أن يعرف ما تمرّ به المرأة من أحاسيس ومشاعر وأفكار إبان الحيض والحمل والولادة والإرضاع؟
ثمة قبول الدور الذي فرضته الفيزيولوجيا والثقافة، وتَمَصّه بكل سهولة وبسرور... أو عدم القبول به مع كل التبعات الموجهة والرجل يريد أن يكون امرأة والمرأة تريد أن تكون رجلاً: المثلية نموذجاً.

وفي المحصلة تكتشف أنك لا تفهم ما معنى أن تكون رجلاً إلا في علاقة بنفس السؤال في المرأة: ما معنى أن تكون امرأة؟ هل أخطأنا الطريق ونحن نبحث في مرآة أشباهنا من الأدميين عمّا يجعل منا الكائنات التي نحبّ ونكره، التي نأمل منها كل الخير والتي نتوقع منها كل الشرّ؟

ألا يكمن سرّ هويتنا فيما يفرقنا عن الكائنات غير الأدمية التي تعيش على تخوم عالمنا ونعيش على تخوم عوالمها؟ طيّب، لكن أن تكون آدمياً لا يُختزل في كونك لا تملك ذيل القردة وجناحي العصفير وأنياب الليث، فالافتقار بهذه الخصائص الظاهرة كالقول بأن الرجل هو الكائن الذي لا يصبغ أظافره بالألوان الزاهية والمرأة الكائن الذي ليس له لحية وشارب.

نحن إذن في ورطة: لكي نفهم ما معنى أن تكون آدمياً، يجب أن نفهم ما معنى أن تكون حيواناً أو شجرة. لكن من أين لنا دخول ذات الحيوانات والأشجار، والنساء بالكاد يفهم ما يختلج داخل الرجال والرجال بالكاد يفهمون كيف هي تجربة النساء؟

أضف لهذا أن سؤالا يُحيلنا، إن تمعنا فيه إلى أضخم إشكالية يمكن للفكر طرحها: هل ثمة ضرورة، فائدة، إضافة، غاية للوجود آدمياً مقارنة بالوجود "شجريا" أو "حيوانياً"؟

*

سمر ليلة الرحيل

نهار آخر من الغبار والحرّ وكثافة الغائب الحاضر، نهار انتهى ومعه العذاب اللذيذ. في المخيم تصرّ مرافقتي على مواصلة الثرثرة، لا أصعب على الأدميين من التزام الصمت وهم جنباً لجنب. - لننس هذه الحيوانات اللعينة. كَلْمَنِي.

أيجوز الكلام في ساعة كهذه، ساعة تلمع أول نجمة في الأفق، ساعة تنتظم أفكارني، وترتخي أعصابني، ساعة الهدنة مع ذاتي ومع كل من حولي؟ ما أروع أن يكون لكل يوم نكهته، الذي ننتظر بفارغ الصبر، الذي نترقبه والقلق يعتصر الأحشاء، الذي نبكي منه، الذي نبكي عليه، الذي أحسن ما فيه أن له نهاية، الذي أسوأ ما فيه أن له نهاية، نعم ما أروع أن يكون لكل يوم طعم جديد ولو كان أمر من الحنظل.

- يجب أن يقتصر اليوم على شروق الشمس وغروبها، على أولى تباشير الفجر وعلى بداية المساء، هكذا نتخلص من بقية أوقات الزحمة والشغل والمواعيد والخصام والسهرات العائلية ومنغصات العيش الأخرى. برّبك لماذا يجب أن تكون هناك أوقات غيبية مثل الحادية عشرة صباحاً والثالثة بعد الظهر أو الثالثة بعد منتصف الليل؟ من بحاجة إلى الثالثة بعد منتصف الليل باستثناء السكرى ومدبري الانقلابات؟

- بما أننا دخلنا في تنظيم الزمان على هوانا، أقترح إلغاء كامل أيام الأسبوع، لا نحتفظ إلا بالسبت والأحد.

- السبت فقط لأن فيه وعد الأحد، أما الأحد فلا. هو محمّل بكل تهديدات الاثنين.

- وأي الشهور ستحافظ عليها أيها المصلح الكبير؟

- يجب التخلص من سبتمبر لأنه نهاية العطلة ورجوع كل المشاكل المعقّدة، وأكتوبر لأنه شهر الغرق فيها، ونوفمبر لأنه شهر رمادي وبلا مطر. ديسمبر! شهر يستأهل المحافظة عليه. أحبّ برده اللاذع ونهاره القصير الذي يوفر علينا ساعات من الحياة. يناير! اللعنة على هذا الشهر. إنه بداية سنة ما كان لها أن تبدأ أصلاً. نعم، يجب إلغاؤه هو وفبراير الذي يسرق يوماً وحتى يومين من حياتنا. مارس! إنه شهر عودة شهوة الحياة إلى الأشجار والأزهار. نحافظ عليه إذن إكراماً للأشجار والأزهار. أما أبريل فللشطب لأنه يبدأ بأكذوبة ولا أظنّ إلا أنه يتواصل بها. يجب التخلص من مايو لأنه بداية الصيف، ومن حزيران لأنه وصوله، ويوليو لأنه اكتماله، وأغسطس لأنه شهر الضجيج والأعراس والحرّ ناهيك عن السياح والبعوض. لا يبقى إلا التخلص من سبتمبر للسبب المذكور أعلاه ولأنه لا يستحيي من الرجوع سنة بعد سنة. الحاصل إذن تلخيص الزمان

في السادسة صباحا والسادسة مساء ليوم السبت في شهري مارس وديسمبر. بربك ألن يكون حقا زمنا رائعا وقد طهرناه من كل وقت مضى للوقت؟

- وبخصوص القرون التي لا تُرضي سيادتكم؟

- كل التي أعقبت ظهوركم، على الأقل التي دشنت ما تسمونها بوقاحة "الحضارة"، والمرء كمن يسمي ظهور الطاعون والجذام والسلّ عصر الصحة! نعم يجب إلغاء العشرة آلاف سنة الأخيرة. قبلها ولملايين السنين كان العالم موفور الصحة والعافية. تصوّري ثراه الفاحش آنذاك بالأجناس العجيبة من بني حرية وآل ثبات. تصوّري الديكور الرائع الذي كان يتحرّك فيه أجدادنا وهو في نقائه الأول، في طهارته الأصلية. تصوّري الفضاءات العذراء وكم كان البحر هادنا على السطح زائرا في الأعماق بما لا تصدّق العين من كائنات بالغة التنوع، بالغة الغرابة، بالغة الجمال. واليوم ترمي لك بحارّ بصدّ التصخّر بجبال من البلاستيك. بصراحة ألا تعتقد أن نوع من الفيروس الخبيث داهم هذا العالم المسكين كما يداهم الأيدز أجسام المصابين بالمرض الخبيث؟

تواصل مرافقتي حتى على الكلام وهي بين فضول واستنكار.

-مسكين هذا العالم وقد تورّط فينا ورطة لا أدري كيف سيخرج منها. نعم، كيف سيحلّ مشكلته وقد أصبح وجود البشر مصيبة وانقراضهم مصيبة أعظم.

- كيف؟ فسّر.

-يوجد اليوم على الأرض مئات المحطات النووية، وبانعدام الصيانة باختفاء البشرية مثلا بوباء لا يبقى ولا يذر، ستصبح هذه المحطات قنابل بطينة الانفجار تبتّ سمومها آلاف السنين. كذلك عن حقول الغاز والبتترول، وهي الأخرى بحاجة إلى نفس الصيانة، وبدونها ستلتهب حرائق هائلة قد تقضي على كل حياة.

- إذن سيتحملنا العالم طويلا لأنه لا خيار له.

- نعم سيتحملنا من باب "مكره أخاك لا بطل". ألم تخالجك الفكرة يوما أننا بالنسبة إلى جلّ كائنات هذا العالم عفاريت مثيرة للتقرّز والرعب. لا أتخيل حسناء تقضي الساعات أمام المرأة تتبرج وصورتها في مقلة الخروف الذي ينتظر أن يذبحه عفريتها إلا وانفجرت بالضحك.

- ما أنا متأكدة منه أنني لستُ العفريته التي تصف بالنسبة إلى كلبتي وأني لو متُّ غدا لحمل الحداد عليّ.

- كل الحيوانات ومنها كلبك ستقيم الأفراح والمآدب. لو اختفينا لما افتقدنا إلا الجراثيم والطفيليات والفطور التي وجدت فينا مرتعا خصبا، خاصة القمل ونحن مصدر قوته الوحيد.

كم من آدمي يعرف أنه عالم بأسره تسكن جلده وكل فتحات جسده جراثيم لا تحصي ولا تعدّ وأغلبها ترتحل طيلة حياته داخل أمعائه تعيش وتموت فيها...كم غريب أن نكون في آن واحد رحالة في عالم وعالم ترتحل فيه كائنات لا تعرف عنا أكثر مما نعرف نحن عن العالم الذي نعيش على سطحه.

- ما لك سكت يا عدو الله والبشرية.

- على كل الكائنات التي نكلّ بها الأدميون، وخاصة أمم الخرفان والبقر، إقامة التماثيل للفأر وهو الكائن الوحيد الذي كال الصاع صاعين للأدميين عبر ما كان نقل إليهم من جراثيم الطاعون.

- افترض أننا... انقراضنا وتركنا وراءنا كل هذه الكوارث وكل هذا الخراب.

- الأوفر حظًا للإرث النمل، لكن دعني غير المشروط للدود؛ لا لأنني أكره النمل فحسب وإنما لأنه من العادل أن يكون الدود جاني الثمار وهو منذ ملايين السنين الحارث الأكبر والبستاني الذي أعدّ لتكون حاضنة الحياة.

تتنهد رفيقة الطريق. تعود إلى الحديث بنبرة قد تكون التي تتخذ وهي تدلي باعترافاتها للقسيس أيام الأحد.

- بجدّ بماذا سنشير على السلطات العليا التي ستندارك حتما خطأ تغييرك عند وضع التصاميم.

- لستُ ضدّ منحنا فرصة أخرى. هل رأيت في هذا العالم الملآن بالكائنات الجادة العابسة غير الأدميين يضحكون ممّا يبكيهم ويبيكون ممّا يضحكهم، يسخرون في السرّ وفي العلن من أنفسهم ومن أقدس معتقداتهم؟ ما يغفر وجودهم أنهم من أقحموا في هذا العالم الفكاهة، ناهيك عن الشعر والموسيقى. لكن انتبه. لي في كل القضايا رأي للصباح وآخر للمساء، لأوقات الغضب ولأوقات الرضا. تريدين رأيي الآخر أنقض به هذا الرأي؟

- ما نسيته أو تناسيته أيضا هو أن حيواناتك التي تمجّد وتتباكى على مصيرها لا تملك ذرة من الأخلاق، بل لا تعرف حتى معنى الكلمة. أعدد لك ما يُعرف عنها من قسوة ومكر وتجبر على أضعف منها؟ هل رأيت صور الكواسر تلتهم صيدا ما زال ينبض بالحياة؟ حتى الحوت الذي تعجب به صياد رهيب يصارع على الأنثى وعلى الغذاء بكل عنف. ثم من أدخل في صراع البقاء الشفقة غير الأدميين؟

- من قال لك إنني ضد كلالل الأدميين أو إنني متعاطف مع كلالل الكائنات غير الأدمية؟ أبغض -دون حرج أو عقدة ذنب- الذباب والبعوض وكل هذه الهوام التي أطلقتها الإدارة العامة وكأنها الأظافر المقصوصة وأعقاب السجائر للكاتب فاضت بها المطفاة. أريت أفصح من هذه الكائنات؟ حتى المولود الأدمي الجديد -بالمقارنة- آية في الجمال. والجراد، من أي مختلة مريضة خرج كائن كهذا؟

- نعم، نكنا بالحيوانات لكنك نسيت أو تناسيت المعابد التي يقدسون فيها الفئران، الأطفال الذين يغسلون فيلا مضطجعا لا يخفي سعادته من جودة الخدمات، وليمة القرده السنوية التي تقيمها مدينة كاملة على شرفهم فيتهاطلون من كل حذب وصوب ليأكلوا ما أعده لهم البشر. نسيت رجال ونساء قبيلة البيشئوي الذين يفضلون الموت على اغتيال غزالة أو شجرة. ألم تسمع ببشر يقولون عندما يتحدثون عن قرد: فلان، السيد قرد. نسيت أو تناسيت الرهبان البوذيين وهم يدخلون قفص النمر لغسلهم وتغذيتهم وأخذهم للفسحة في ضواحي الدير.

تصوري أنهم خلقوا في بلد أعرفه جيدا حزبا سياسيا للدفاع عن الحيوانات وسموه طبعا الحزب الحيواني. إنها العلاقة المتذبذبة منذ الأزل مع هذه الكائنات التي تشاركنا الوجود. مرة نجعلها آلهتنا ومرة نجعلها عبيدنا أو أشياءنا. مرة نرى بيننا وبينها أوثق وشائج القربى، مرة نتخيل هوة بيننا غير قابلة للتجسير.

- أعرف أيضا أن هناك طائفة تذهب إلى حد وضع لثام على الفم خوفا من التهام ذبابة والمشى والبصر مثبت على الأرض حتى لا تداس نملة على وجه الخطأ.

- لا تنس ملفت من يزرعون المسامير على الجذوع لتتكسر عليها آلات القطع.
- وأيضا الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل إلى الجذوع الموعودة للمنشار الكهربائي.
- ثمة وثيقة أخرى. هل سمعت بذلك الرجل الذي يجوب البحار بسفينته الصغيرة يقف بها أمام أضخم البواخر المجهزة بأحدث أدوات القتل لمنعها من الإجهاز على الناجين من أحفاد موبيديك؟ أليس هذا الرجل وهو يعرض نفسه ومن معه للغرق أصدق دليل على وجود حسن أخلاقي مرهف وخير فطري في الأدمي؟

- عندي ما أحسن. إذا تصادف ووصولك المدينة التي يسمونها " النفاحة الكبرى" يوم الاحتفال بالقديس فرانسوا، فاسرعى بدخول أكبر الكاتدرائيات البروتستانتية لمشهد لا مثيل له. على جانبي ممشى يمتد من الباب الضخم إلى الهيكل، آلاف الأدميين الخاشعين. على الممشى وسط الكاتدرائية المكتظة، يتحرك طابور طويل وكل أدمي ممسك بحيوانه الأليف. ثمة من يأتي ببغاء، بقط، بكلب، بمعزة، بخروف، بحمار وحتى بجمل. عند الوصول الهيكل، يرفع الكاهن أو الكاهنة اليد يبارك الأدمي ويبارك الحيوان الذي معه وقد تساوى هذا وذاك ولو للحظة ولو في مكان يتيم، وقد تبين للمتعبدين الصامتين ولو في قبس وغي عابر أننا كلنا أشكال لنفس الخالق.

ما سر تصرفات كهذه؟ لنقل إنه كما هناك حمم تجد أحيانا طريقها للسطح فينفجر بها البركان، هناك داخلنا "شيء" مطمور في أعماق الأعماق يربطنا بجذع الحياة. هو الذي يشق طريقه نحو سطح الوعي عند البعض مخترقا الطبقة السميكة لتبذلنا المزمّن فتأتي منه الرسالة والأمر... طالما هناك من يتقبل الرسالة ويفهمها، طالما بقي أماننا أمل في الخلاص. تجذبني رقيقة الطريق من ذراعي بلطف حازم.

- والآن وهذه آخر ليلة لنا هل لك أن تقول لي لماذا أردتني أن آتي بك إلى هذه المحمية؟
أقول لها إنني جئت حاجا لنقطة انطلاق الطريق وأيضا لمكان ولادة ما نسميه الحضارة... ففي هذه الأرض أو ما يشبهها اخترع الأوائل العلم التكنولوجيا أي كل طرق التفكير العقلاني وأدوات وتقنيات البقاء... في هذه الأرض أو في جوارها القريب تشكلت النماذج الأولى للدين والسحر وقد ظهرت الحاجة الماسة إلى حماية قوة غيبية تحميهم من أهوال عالم مبهر مرعب... في هذه الأرض أو في جوارها القريب ولد الشعر والأدب والساحر يروي ملاحم كبار الصيادين... وفي هذه الأرض وما جاورها اخترع الأوائل السياسة والقانون والتقاليد ومنظومة القيم لفض نراعاتهم حول نصيب هذا وذاك من الفرائس وتوزيعها الأقل ظلما حتى لا يصبحون فرائس بعضهم البعض.

- نعم، والآن قد انتبهت أشباحك هل تنتبه أنت لوجودي وتردّ على سوالي : لماذا أصررت على هذه السفارة ؟
- الحقيقة أنني جئت لإثراء نص أكتبه عنوانه "الرحلة" أحلم باستجواب سكان المكان حتى أعرف كيف هو العالم عند الغزال والفهد والتمساح وبني عمومنا المتأرجحين على الأغصان.

- خمس دقائق من الجد لا أكثر.
- لم أكن جديا في حياتي أكثر من هذه اللحظة...

نعم كم بوذي أن أخرج من جسدي لأكتشف كيف هو العالم بعينون الدلافين والفراش والنورس؟ ... كيف هي صورته داخل ذهن الفيل والنمر؟ كيف هي الطبيعة عندما ينظر لها النسر من القمم الشماء بعينه التي تُبِت داخلها مجهر يبصر أدق

التفاصيل؟ ... هل كنتُ سأفضّل عالم القط وهو على ما يُقال بلون الرماد، أو عالم الكلب وقد اختفت منه حمرة الشفق ولا وجود فيه من الألوان إلا لزرقة السماء وخضرة الحقول؟ ... يا ناس، أريد استكشاف هذه العوالم، حالا، الآن، على وجه السرعة وإلا سأشكوكم جميعا إلى "ما"... حتى هي لن تستطيع لي شيئا... محكوم عليّ وعليك أن نرتحل في عالم واحد لا غير هو عالم الأدميين. أما هذه العوالم المنغلقة على نفسها، التي تعيش على تخوم عالمنا، فمحزّمة إلى الأبد.

- جنّت أيضا على أمل أن أبصر هذا الذي أمر كريشنا أرجونا باكتشافه وراء كل الأشكال القدسية التي يلبس.

- جنّت تبحث عن... الله... هنا؟

- أين تريدني أن أبحث عنه؟ في معابد تفيض بموظفين يتمغشون منه دون حياء وبشحاذين يتسولونه دون كرامة.

لا يبعثك في السياسة قدر السياسيين إن عارضوا وإن حكموا... لا يكرهك في العدالة إلا القضاة والمحامون... لا يبعثك عن الدين غير الكهنة والمتدينين... كأن هناك لعنة مصاحبة لكبرى المؤسسات والقضايا تجعل حراسها لصوصها ومدّعي حمايتها ألد أعدائها.

- ابحث عنه أين تريد أما أنا فلا أعتقد بوجوده أصلا.

- لا أغبي منكم أنتم معشر الملحدين. تخلطون بين حاجتنا إليه وبين تصوراتنا البدائية له، بينه وبين الفضاءات المرتكبة باسمه، ترمون كما يقال الرضيع مع حمام الماء القذر.

- أما أنتم معشر المؤمنين فلا أذكى منكم. تتخيلون كأننا يعرفكم واحدا واحدا، يستجيب لطلباتكم، يقتصّ لكم من أعدانكم، يا للكسب السهل!

- أنت لا تدفعين نقودك لشراء البرامج التي تخرب حاسوبك. لا تختارين إلا أجودها والتي تتماشى مع حاجاتك. هكذا ما فعلته الأدمية منذ البداية. شحنت دماغها بالبرنامج الذي يكفل لها كل مصالحها في فضاء الواقع وفضاء الخيال. طبيعي أن يلقى النجاح الباهر حتى بالأسماء والتصورات الساذجة التي يسخر منها أمثالك.

- وما هي تصوراتك غير الساذجة له؟

...

-تكلم وعليك الأمان.

-التي تكفّ عن إلصاق الصفات وإضفاء الطابع الأدمية على ما هو غير قابل للتوصيف بأي لغة آدمية ... خاصة التي تستحيي من إقحامه في صراعاتنا الدمية.

-مزيد من التعريف؟

-قال لا وتسو له كل الأسماء ولا اسم يستنفذه. لذلك اسميه "الشيء".

- وجنّت إلى هنا لعلك تقابل شيئك هذا؟

يقولون إنك مخفي وراء ألف ستار لا يُقترَب منك إلا بالعبادة والتأمل وأنا أراك كل لحظة وفي الجمال المبهر للعالم وفي كل كائن أعجوبة تبلورت فيه... كم أخطأ الذين جعلوا أولى خصائصك أنك غير مرئي، لا تلمس ولا يُسمع لك صوت والحال أنك تحطف الأبصار لا أكثر منك وضوحا وتجليا... نعم كم صدق الحلاج: وأيُّ أرض تخلو منك حتى تعالوا يطلبونك في السماء.

-أضاعنا الفلاسفة والمتدينون والسحرة الذين اختلقوا لنا صورة كائن هلامي مخفي، بعيد، ملتحف بالغرابة والسرّ ولا يمكن لعين أن تراه. الحقيقة أننا لا ننتبه له وعندما ننتبه له، تحت ما يلبس من أقنعة وما يتخذ من حالات، يكون ما أسميه اللقاء ... معجزة لا أفهم طبيعتها، تحصل تلقائيا دون سابق إنذار.

- ومتى عرفت آخر مرة مثل هذه التجربة؟

- لما مدّت لي المرأة الغربية حجيراتنا وبعض العشب المحترق، شعرت بوجوده... وأنا أتأمل مشدوها الزرافات تشرب من الغدير، شعرت بوجوده.

- تُذكرني بجذّي جاثية في كنيسة قرينتا، مع فارق واحد. أنت طول الوقت جاث أمام شموع القدّاس والعالم كله مَعْبُدُك. والآن كفى تهربا من السؤال الوحيد الذي يهمني.

- وهو؟

- هل حصل اللقاء بين آدمي وأدمية تائهين وضعتهما صدف الطريق وجها لوجه.

- ونحن ندير الظهر لبعضنا البعض نتبول في الهواء الطلق تحت حراسة الدليل، أنت تُخفين حركك وأنا أكرم ضحكك.

**

نقطة على خط الزمان

بخصوص علاقة الأدميين بالكائنات التي تقاسمهم هذا العالم وفي ملف ما زال بعيدا في غياهب المستقبل: مُدُنْ مطوّقة، محلات مغلقة، مستشفيات تفيض بالمرضى، شوارع مُقْفرة، ملايين المحبوسين في بيوتهم يتابعون مذعورين وسائل إعلام لا تحمل إلا الأخبار المفزعة عن كائن لا تكشفه أي من الحواس اسمه فيروس الكورونا خرج فجأة من المجهول ليصبح بين عشية وضحاها القاتل بالجملة، مفاجئا الجميع بتجاسره على الكبار والصغار، على علياء القوم وعلى الدهماء، على أفقر الشعوب وأقوى الدول.

لا شيء يَحْتَنِلُ هذا التطاول على الجنس البشري وعلى صفة من فيه قَدْرٌ وَضَعُ أُمَّةٍ متعجرفة وهي شاهرة صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها، أقمارها الصناعية في وجه الأمم المنافسة، تدّعي أنها لا تفعل كل هذا إلا دفاعا عن أرواح وأرزاق مواطنيها.

ها هو كائن مجهري خرج فجأة من المجهول يَنْقُصُ عليها فيز هق في أسابيع قليلة مئات الآلاف من الأرواح

كاشفا كم هي عديمة الجدوى صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها وأقمارها الصناعية... وبصفة عامة

كم هي تافهة أو هام الأدميين عن تفوقهم المزعوم وكم بيالغون في تقدير قوتهم وأهميتهم وكم هَشَّ وجودهم

على هذه الأرض التي لا زال البعض منهم يؤمن أنها وقف عليهم وحدهم.

أنتشكي مما تفعله بنا الفيروسات ونحن فيروسات العالم الذي نتحرك على سطحه؟

ألم تحصد البشرية ولا تزال دون أن يرفّت لنا جفن، ما لا يحصى ولا يعدّ من أرواح بني حرية وآل ثبات؟! !

ما أسرع نسيان البشر لدروس التاريخ والأدمية عرفت من قبل على مرّ القرون أوبئة فتاكة تسببت فيها كائنات

مجهرية مثل هذا الفيروس حصدت منها عشرات الملايين من الأرواح مدمرة شعوبا ودولا وحتى حضاراتٍ

بأكملها.

وهذه الجائحة كما لم تكن الأولى لن تكون الأخيرة.

الشيء المدهش القدرة العجيبة للأدمية على تضميد جراحها وتجاوز هول ما عاشت واستئنفت مسارها بعد

كل كارثة مهما عظمت-وكذلك الأمر مع تركبته تجاه نفسها من حروب-وكان رغبة الحياة أقوى من ان تكسر

أشرس الأوبئة وأفظع الحروب.

من المؤكد أن البشر في إطار طقوس الاحتفال بانسياب الزمان وعودته سيبالغون ذات ليلة لم تعد بعيدة في

إطلاق الشماريخ والرقص والعريضة في الشوارع المكتظة لا تيمنا بقدوم السنة الجديدة وقد تعلموا الحذر من

آمالهم العريضة وإنما لرحيل سنة شؤم رقمها 2020.

الأشياء

قد لا توجد سفرة تُجَدِّد فيك أقدم تجارب الأوائل وهم يصلون مكانا غريبا قدرَ التي تقف بك في مدينة نائية والليلُ أرخى سدوله.

تبثُ في ساحة المدينة شبهُ المقفرة قلعا متزايدا. تتلاطم داخلي مشاعر مغرقة في القدم، عن أخطارٍ مُبهمة تترصد، عن وجع الشعور بفقدان التحكم والأهمية وأنت في مكان لا تعرفه ولا يعرفك فيه أحدا. كم صدق ذلك المسافر اللبيب المسمَّى "لوفي شتراوس" وهو يلاحظ أنك عندما تضرب في الأرض ذات العرض والطول فإنك لا تغيرَ مكانك فقط وإنما مكانتك.

الآن وهنا، بغرابية سحنتي وجهلي المطلق باللغة، أنا أشبه بالحيوان أو بالمتخلف الذهني، آدميٌ أدنى درجات سُلم مجتمع يتصارع أفرادُه باستمرار على أعلى الدرجات.

والآن إلى أين؟ حتى العلامات لا تعني شيئا وحروفها مجهولة عندي.

هذا مارٌّ ربما يدلُّني. أتوجه إليه بلُغة يُفترض معرفة أغلب الناس بضع كلمات منها. يعرض عني الرجل وكأنَّ الذي خاطبه عفريت خرج لثوه من القبر. هذا آدمي آخر قد يفهمني ولو أن في مشيته المترنحة ما يجعلني أشكُّ في صواب التوجه إليه. هل من خيار، وفي كل الأحوال كل الذين ضيِّعوني نادرا ما كانوا من المخمورين. يعرض الرجل عني لا يُخفي خوفه.

يتفاقم شعوري بالضياح وأنا أدخل وأخرج شوارع متجهمة وساحات مقطبة الجبين. يصبح التنفس عسيرا مؤلما كأن جبلا جنم على صدري. يخرجني من تلاطم الأفكار بروزُ امرأة من الظلام لا تبدو عاهرة تعرض خدماتها، فلأجرب حظي معها ومن الأحسن بكل الحذر المطلوب وبكل علامات التطمين والتأدب لتفادي تحريك عنفهم الغريزي.

- سيدتي، أنا أجنبي مزم، غريب محترف، لاجئ بالوراثه، منبوذ بالطبع والتطبع، مطلوب من كل سلطات السماء والأرض، أبحث عن نزل السعادة الأبدية. دلِّيني، جزاك بوذا وإله "ما" ألف خير.

المعجزة. المرأة بابتسامه عريضة:

- أنت مصري؟ مصر كويس، أنا أحبُّ أهرام كثير، مرهبا، ماذا قلت؟ لم أفهم كل ما أنت قلت.

- أبحث عن نزل السعادة الأبدية. قيل لي إنه قريب من هنا.

- أه نزل السعادة الأبدية! لست بعيدا، أنت يمين در، يسار در، وبعدها يمين ثم يسار، بعدها شوية يسار ثم شوية يمين، بعدها أنت وصلت.

(أنا بصوت واضح): شكرا يا سيدتي، (بصوت خافت) اللهم كثر من رعشات اللذة لهذه المرأة الصالحة.

تخيلتُ أو سمعتُ المرأة تتنهد هامسة لنفسها: آمين.

الغريب ليس فقط أن تلاقي هذا النوع من البشر حتى وإن أخطأوا كالعادة في تحديد هويتك، وإنما وصولك إلى حيث تريد بالمعلومات التي يمدونك بها.

أخيرا النزل في ابتداله، وشبهه بكل الأماكن المخصصة لإيواء الأعراب، وأيضا في المحاولة المتواصلة للإبهار ونزِّ الرماد في العيون.

على فكرة، هل انتهت أن الأماكن الأدمية، شُيِّدت بالطوب أو بالمرمر، مجرد جدران متلاصقة، أن لكل جدار سطح داخلي وسطح خارجي، أن اهتمام الأدميين منصبٌ على السطحين يتكلفون ما يتكلفون لتزيينهما، يندرون أن لصاحب المكان مكانة، لكنهم لا يقدرون على شيء بخصوص الفراغ الذي تتعلق عليه الأسطح الداخلية.

إنه نفس الفراغ أحاطت به جدران قَصِر مزرکش بكل أصناف الزينة وأعلى اللوحات أو جدران كوخ من الطين والقش. تقول لي: نسييت يا مسكين ما يتكلفون لتعبئته بأجمل الأثاث وأرقاه وأغلاه.

طيب، كيف يكون التمتع ببيت ممتلئ من القاع إلى السقف بالتماتيل الغالية واللوحات المسروقة من أكبر متاحف العالم؟ لا بد من الفراغ الفارغ وإلا في ماذا ستمدَّ رجلك وأين ستستلقي على ظهرك؟ مساكين أصحاب القصور، كل هذا التبذير لتطويق فراغ لا يدفع في تطويقه الفقراء إلا بعض التصدير.

تقول بدأت تهذي. لا بل هو التعب، لا غير. يا إلهي كم أنا مرهق بطول هذا السفر اللعين!

يزداد شعوري بالتعب لمجرد التفكير في رحلة الرجوع. رحلة! أي رحلة؟ أليس من قبيل الكذب على النفس وعلى الغير أن نسمي رحلة نقل جسد من مكان إلى آخر بالطائرة، ويقطار يكاد ينتظر كتحسب تحت سَلْمها ثم بسيارة أجرة لدفعه أخيرا داخل قفص بموسيقاه الرومنطيقية حتى لا يرهقك صعود ثلاثة طوابق؟

يا لهذه الأشياء اللعينة التي اخترعناها لتسهّل علينا السفر فألغيت متاعبه ومُتعتته وإن لم تُلغِ خطر الموت الخاطف مذكرة أنه أياً كانت وسائل الارتحال فالطريق إلى الأزل والخطر سيّان. لا يبقى عليّ إلا إلقاء الجسد المرهق على أريكة غرفة فيها برّاد زاهر بكل أصناف الشكولاتة والمشروبات التي سيُدفعونني فيها ثمننا موجعا عند المغادرة. يجب أيضا تعديل المكيف حتى لا يضايقي التبريد بنصف درجة زائدة. ماذا تصرخ فيّ أشباحي؟ لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في الصحاري، في الجبال، في الغابات، في البحار، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما سُنت من انبهارنا البكر. أصدّق تحسّري أو تحسّرهم، أم كلنا نكذب؟

أضع على باب الغرفة لافتة "ممنوع الإزعاج"، وعلى الطاولة الصغيرة حذو السرير لافتة: "ممنوع الحلم". من الغد يرّ المنبه منذراً أنه أن أوان نقل جسدي إلى قاعة المؤتمر حيث تتبادل نفس الوجوه منذ سنين نفس الخطاب لإثبات ما هي مقتنعة به سلفاً. كم من حيل للتدجيل على بعضنا البعض وخاصة على ممولي هذه اللقاءات بخصوص أهمية ما نقول وما نفعل وما سنصدر من بيانات وتوصيات. إنه الفكر المهيم يحتقل بنفسه، يستمع لنفسه، يهنئ ويكافئ نفسه داخل حلقة الضيقة، والعالم في طفرته وفوضاها لا منتبّه ولا عابئ.

شعور عارم بضرورة الخروج من هذه الطقوس وعليها وقد أخذت من زمن الرحلة أكثر مما تستحق. أن الأوان للدخول في الإضراب العام غير المحدود وإعلان العصيان المدني النهائي الذي طالما هددت به عبنا كل السلطات ودعوت إلى كل المتمردين دون نجاح. ألسنت من يردد دوماً أن السيد من يعطي المثل وليس من يعطي الأوامر؟ إذن لأعطين المثل. ربما سيتبعني كل نزلاء الفندق، ثم سكان الحي، وهذه المدينة، ولم لا العالم بأسره؟ ربما ستقيق السلطات العليا من الغد لتكتشف هدوء مريباً في شوارع أفقرت وبيوت أغلقت أبوابها إلى أجل مسمى وقد قرّرنا أنه لا خروج من جحورنا إلا بعد أن تقسم هذه السلطات المجهولة وبأغلظ الأيمان أنها ستغيّر جذريا في التعامل معنا كل سياساتها القبيحة وغير المفهومة. تقول: افترض أن الآلهة رفضت المفاوضات تحت الضغط، وأنها أصرت على عنادها خوفاً من فقدان ماء الوجه والدخول في مسلسل خطير من التنازلات. هل سنقبل البقاء في الملاجئ وتسهيل مأمورية عزرائيل فلا نربح على الأقل الوقت الذي يضيّعه في الجري وراءنا!

هذا شغلك أنت وبقية المخدوعين، أما أنا فلافتة "عدم الإزعاج" موضوعة من الآن، والمعني بالأمر العالم كله، وليس الخادمة المكلفة بحمل فطور الصباح. بدأ الإضراب التاريخي وسنرى موقف كل المعنيين به. السؤال ماذا سأفعل بكل هذا الوقت وأنا رجل لا يكف عن الحركة؟ طبعاً النسج على منوال ذلك الأرسقراطي المعادي للثورة المدعّو دوماً والذو حكم عليه بالإقامة الجبرية اثنتين وأربعين يوماً في غرفته عقاباً على خطأ ما، فتوكّل وجهه نفسه لخبر استغلال للوقت: استكشاف غرفته وتدوين رحلته فيها. كان الرجل على حق في سخريته من الرحالة المغامرين -قرنان قبل المسمّى ليفي شتراوس- إذ لا يوجد فضاء أكثر جدارة بالاستكشاف من غرفة النوم وحديقة البيت إن غابنا في التهور. على فكرة، ألم يكن من العدل أن أكون أنا صاحب هذه الفكرة العبقريّة؟ ألم أحلم أن يتميّز نصّي عن كل ما كُتب وسيُكتب في أدب الرحلات؟ وحيث أنني ككل آدمي نزيه، لا أسرق أشياء الآخرين أو أفكارهم إلا إذا كنت واثقاً ألفاً في المائة من عدم اقتضاح أمري، وحيث أن هذا اللعين دوماً شبه مجهول بين قرّاء لغة موليار فما بالك بقراء لغة المتنبّي، وحيث أن احتمال ظهور ناقد يفضح السرقة شبه معدوم، فإنني قرّرت بكل أريحية نسبة الفكرة إلى نفسي وادّعاء أنني أول من دوّن لرحلة في غرفة نومه.

ها هي إذن رواية أول رحلة الهدف منها ليس استكشاف الاتساع وإنما استكشاف الضيق، ليس البحث عن الأدميين وبقية الكائنات وإنما الهرب منهم، ليس الانغماس في زخم العالم وإنما الانفصال عنه.

*

يبدأ الاستكشاف بتفحص أثاث الغرفة عليّ أكتشف فيها شيئاً لم أره من قبل في كل ما عرفت من نزل. خيبة أمل عابرة. إذن داخل الحمام: حنفيه، دش، ستار، مناشف، فرشاة أسنان، مشط، صابون جسم، صابون حلاقة، موس حلاقة، معجون أسنان، كوب، حولي: سرير، أريكة، خزانة، كرسي، مكتب، دفتر، لمبة، برّاد. يتوقف البصر مطوّلاً عند الأريكة التي تتوسط الفضاء الصغير. أسارع للقول بأنني لا أشاطر مطلقاً رأي الذي سرق مني فكرتي وهو يرى فيها أحسن أثاث بل ويتعنى نصف صفحة كاملة بأفضالها على الجسد المرهق. من أين له هذا وهي عقبة جبارة على الطريق، علماً وأنه لا يوجد ما يكفي من الفضاء للجري حتى يمكن القفز فوقها. مما يعني أن المرء مضطر إلى تسلقها والنزول وراءها لمواصلة التحرك نحو الحمام. بربك هل تستأهل الأريكة كل المديح الذي أغرقها به الأرسقراطي الفرنسي الكسول.

اللجنة! لم يستغرق استكشاف كل الفضاء -حتى بأدراج المكتب-أكثر من ربع ساعة، وذلك الأدمي ارتحل في غرفته اثنين وأربعين يوما كاملا! كم مرة سأطوف حول السرير وأزحف تحته وتحت الأريكة والطاولة في ثلاثة وأربعين يوما؟ (لكسر الرقم القياسي بيوم واحد على الأقل)

أضيق في حساباتي ومراجعة نتائجها وكلها دوما متناقضة. فكرة صاحبنا، إذن، ليست بالعقريّة التي تصورتها. لأعيدها إليه بكل تعفّف، فأدمي نزيه مثلي لا يسرق أبدا ما هو ليس بأدنى حاجة إليه (إلا في بعض الحالات التي لا يفهم دوافعها حتى الوعي الباطني)

أستسلم بهذه السهولة! لأكن وفيا للإضراب العام لنهاية المؤتمر على الأقل. كيف وأخطر من الدوار الملل؟ بصراحة ألا نقضي العمر نستكشف العالم كما أستكشف الآن غرفة هذا النزل التعيس؟ كل ما في الأمر أننا -لحسن حظنا-لا ننتبه كم هو ضيق فضاء الاستكشاف وكم هو مضحك قصر زمانه؟
أجلس على الأريكة أجيل البصر في المكان المغلق متسائلا عما يمكن أن أفعله طيلة ثلاثة أيام وليال كاملة.
لا شيء باستثناء مشاهدة التلفزيون.

التلفزيون!

ما الذي تحاول الآلة تقليده أو التصريح به؟ أن العالم شاشة ونحن صور تندافع على سطحها، غير منتبهة لعيون تراقبها ربما باستعراب، أو استهجان أو بياس متعاطف؟ نعم، قد توجد كائنات ما تنظر إلينا بدهشة أو بمرح من وراء السحاب. ألم تتابع آلهة هوميروس كبرى المعارك وزوس يحرض هكتور وأبطال طروادة وبوسيدون ينتصر لأقامنون وفرسان البحر؟
هومير! ما الذي نقصه حتى لا تنتصب على قمم جبال الأنديز، في كهوف اثيوبيا، في غابات كيرالا وسهول بريطانيا معابد المرمر الأبيض بدل كنائس الطوب والحجر؟ ما الذي حدث حتى لا تخرج جماهير هذا الزمان وراء مواكب زوس وأثينا؟ ما الذي جعل ملحمة الأم والابن تغلب ملحمة الأب والبنوت؟ أه لو كان لك مدير أعمال كالداعية الداهية المسماة بولس! أه يا هوميروس، يا نبي بلا بخت.

أه لو كان هذا التلفزيون حقا ابن حلال وصديق الناس الطيبين أمثالي وعريفا بأقدار الرجال، لما بخل عليّ هذه الليلة -التي لا تشبه أيّ ليلة-بالفيلم الوحيد الذي يهمني: ملحمة الجنس البشري؛ وليأخذ كل الوقت لست في عجلة من أمري.
كأن جنّي علاء الدين هو الذي أسرع بتلبية الطلب. فجأة تمتلئ الشاشة بالصور والصخب.
يا جنّي، قلتُ فيلما ينطلق من بداية الرحلة. يروي تطوّرها عبر العصور. يصل إلى النهاية التي توصف دوما بالمحتومة. وعدّ مئتي أنني لن أبوح بالسّر لأحد حتى لا أفسد على الأجيال المقبلة تشويق قصة يجب أن تبقى لأخر لحظة مجهولة الخاتمة.
ربما الأمر فوق طاقة المسكين. لا شيء على الشاشة غير وجوه تتتابع بسرعة متصاعدة... وجوه ضاحكة، مضحكة، عابسة، مبتسمة، جميلة، قبيحة، بذينة، نبيلة، مُنقّرة، مُحبّبة، مُطمئنة، مخيفة، مرعبة، راضية، ساخطة، متشجّجة، هادئة، حائرة على شفقتها ربع ابتسامة بوذا ومونا ليزا. إنها وجوه كل الذين ارتحلوا قبلي وكلّ الذين سيرحلون بعدي!
كأنك أمام المحيط تستعرضه قطرة قطرة. كأنك أمام الصحراء تتفحص هضابها حبة رمل بعد حبة رمل. كأنك أمام سماء ليلة صيف وكل نجم فيها يحتلّ كل الفضاء ثم ينطفئ.

فجأة وجهٌ كيف لا أتعرف عليه وهو وجهي بقسماته العابسة دوما وضحكه المكتوم على الدوام.

هو الآخر اختفي بنفس السرعة التي برز بها.

يا ألهي، كلّ هذه الوجوه!

وجوه؟ بل قلّ نفسُ الوجه على ألف شكل وشكل، على ألف حالة وحالة.
أفتخّ العينين والتلفزيون الغبي ما زال على لامبالاته بما أمّل أو أُرهب معرفته.
يتفاهم الهاجس: ما العمل بكل هذا الوقت المترصد بي؟ تقول: استعمل الهاتف لإزعاج الأحباب والأصدقاء. رحماك، لا أكرة عندي من التلفزيون إلا الهاتف وكم من أشياء غبية أخرى من نفس الصنف.
الأشياء! ماذا كتبت؟ الأشياء!

يا إلهي أدعو الناس لتنمية الانتباه ومحاربة التبلد وأنا أمرّ طول الوقت في قمة التبلد غير منتبه للأشياء وهي من أهم مكونات العالم الأدمي، وقد تكون فيها أهم المعطيات عن هذا الكائن الذي أوجدها!
طبعاً جلّ أشياء الأدميين خارج هذا الملجأ: طائراتهم، سياراتهم، قطاراتهم، غواصاتهم، دباباتهم وكل ما اخترعوا من أجهزة وآلات لإحكام قبضتهم على العالم. لكن ثمة ما يكفي منها داخل هذا الفضاء الضيق للتمتع في أهم خصائصها واستعراض بعض الأفكار بخصوص سبب وجودها وماذا تعنيه بالنسبة لخالقيها.

التأكد أن لافتة "عدم الإزعاج تحت أي سبب" موضوعة في الواجهة الصحيحة على الباب الخارجي، والباب محكم الإغلاق بالمفتاح.

مغلق بالمفتاح؟ كيف يمكن أن نغلق بمفتاح؟ هل نستطيع التبريد بسخّان والتسخين ببراد؟ من منكم اكتشف التناقض؟ تقول: لكن الشيء لا يغلق فقط وإنما يفتح أيضا ومن ثم جواز تسميته بالمفتاح. تخلص سهل فهذا الذي أقصد صنّع وطُوّر وحسّن على مرّ العصور بهدف واحد هو غلق أبواب القلاع والبيوت والمخازن والمخابز والترسانات والسجون والمكتبات والثكنات والبنوك والخزائن المليئة بالوثائق العسكرية المكتوب عليها "سرّي للغاية"، كل هذا خوفا من جشعكم وقلة أدبكم وفضولكم، أيها الأدميون الخطيرون.

الوظيفة الأساسية لشينك هذا بما لا يدع مجالاً للشك إذن، هي الإغلاق. أما الفتح -أي الرّفْع المؤقت للإغلاق- فمن المهام الثانوية، ومن ثمّ دعوتي إلى إطلاق الاسم الصحيح على الشيء: المغلاق. أما المفتاح فيؤسفني القول إننا لم نخترع بعد شيئا من هذا القبيل. كم كانت الرحلة تسهّل عليك وعليّ لو كان في الحبيب مفتاح يفتح القلوب والعقول وطبقات الذاكرة، وأخرُ لفتح أبواب محتشادات بني حيوان ولا أتحدث عن الذي يفتح أدراج مكاتب الإدارة العامة التي تُخفي فيها أسرارها التعيسة.

ثمّة إذن قصور لغوي قد يكون خلقيا وليس فقط مكتسبا، في تسمية الأشياء. أن الأوان لمشروب أسود ساخن له مرارة الحياة، لفنجان قهوة أغالب به تسأل النعاس. فرصة لأتمغن فيه كأني أراه لأول مرّة.

بداهة الشيء الذي بين يديّ كائن مادي يمكن للحواس أن تتعامل معه رؤية ولمسا وذوقا. هو يحدث صوتا إذا ضربت جداره بالمعلقة ومنه تتصاعد رائحة شهية للسان الذي جعل لاحتوائه.

ماذا عن خضوعه هو الآخر لقانون فناء كل كائن وكل شيء؟ هل كان عليّ للتأكد من الأمر دفعه إلى السقوط من الطاولة وتكلف مشقة جمع كل هذه القطع؟

“على حافتي الطريق (ارنستو قاردينال)

مقبرة للأشياء التي لم تعد تصلح

حديد بالٍ

أشلاء صحون

مواسير معوجة

أسلاك

علب سجائر فارغة

حطب، بلاستيك

أوان مهشمة

تنتظر البحث مثلنا”

كل هذا مطمئن ودليل على أن الأشياء كائنات عادية لها حياة وموت، مخلوقات خالقها معروف، بينما خالق الأدمي وبقية الكائنات مسربل بالغموض، مخلوقات كما يحبها كل خالق لا تعصي أمرا ولا تتحرك قيد أنملة إلا بإرادة خالقها.

ماذا يوجد أيضا في عالمي الصغير؟ طبعا هذه اللوحة على الحائط التي تريد الإفلات من الجرد. لنعدّد ما تحتوي عليه من أشياء لا يهّم موضوعها أو جمالها: المسمار، الزجاج، اللوح، الورق، الأصباغ.

أين بقية الأشياء؟ هي داخل الأشياء نفسها. صحيح أن الشيء ملعقة، مكتف بذاته، ولا توجد أشياء داخله. ومع هذا أغلب ما أواجه به علّب كبيرة تحتوي على علب أصغر، هي نفسها حاويات لمحتويات لا تحصى. ماذا لو بدأت بتفكيك التلفزيون؟

رفض الفكرة رغم إغرائها الشديد. ستتسبب لي في مشكلة مع إدارة النزل. أضف لهذا أنني سأكتشف داخله أشياء لا قدرة لي على تسميتها. كذلك الأمر مع الهاتف علما وأن رغبة تفكيكه أصعب مقاومة. ثمّة البراد وما يهمني فيه ليست الأشياء التي في

جوفه. كلاً، إنها الأشياء التي تجعل من البراد برادا.

عودة إلى نفس الرفض لنفس الأسباب المذكورة أعلاه، يضاف إليها أنه مستعص على التهشيم مثل الهاتف والتلفزيون، ولا أعرف فتحه على طريقة عمال الصيانة. ثمّة إذن حُببٌ خاص بالأشياء وهي مثل الكائنات لا تُظهر لنا إلا سطحها محتفظة بأشلائها داخلها. من حسن الحظ أن هناك شيئا أستطيع البحث في أعماقه دون صعوبة أو خطر: حقيبي.

يبدأ العدّ مباشرة بعد نفض بقية محتويات الحقيبة على السرير: جواز غير مزوّر، بدلة، قميصان، وشاح، دفتر، ديوان أستاذ "أين في الناس"، كيس الملابس المستعملة، جوارب، صورة هذه المدينة من القمر الصناعي، خفان، بطاقة الطائرة، هدايا

متواضعة طبق نحاس صغير منقوش، باقة ياسمين، علبّة تمر من الدقلة الفاخرة. ماذا لو فتحته للتأكد أنها لا تحتوي إلا على

التمر؟ ربما وضع فيها أعدائي قنبلة صغيرة أو كيس مخدرات لم يتفطن لها بوليس المطار وقد يكتشفها عند الخروج. لحسن الحظ؛ ليس داخل العلب إلا تمر لذيذ يمكنني أن أكله كله بما أن أيًا من الهدايا لن تصل أصحابها لرفضهم الإضراب العام. والآن ماذا داخل الأشياء التي أخرجتها من جوف الشيء؟ أه ثمة في جيوب البدلة التي طويتها بسرعة وحشرتها في الحقيبة هاتف نقال مغلق منذ أيام وبقايا قطع نقدية من بلدان مختلفة.

المال!

إنه شيء يشبه المفتاح، لأنه يفتح أبواب الأماكن التي كدّس فيها الأدميون - على مرّ العصور - ضرورات الرحلة وكمالياتها، أي كل ما حرمتنا منه الإدارة العامة وهي تلقي بنا على الطريق خُفاةً عراةً ولا حتى أظافر وأنياب محترمةً للقصص بالحد الأدنى من الجدية. دخول هذه المخازن وَقَفَّ على من يملكون المفتاح. الحصول عليه بالنسبة إلى من لم يجدوه قُرب المهدي، أصعب حتى من صيد الكواسر بأظافرنا. قد يجد هؤلاء المساكين العزاء في فكرة أن المال الذي حرمتهم منه إرادة غير مفهومة أو صُدْف عمياء، ليس بالضرورة خيرا صافيا وهو يتسبب في كثير من المشاكل ومن أوجاع الرأس خاصة عندما يتعلّق الأمر بالحفاظ عليه من اللصوص ومن جباة الضرائب ومن الأطفال والأصدقاء المفلسين. أضف إلى ذلك أنه، وإن كان يسمح بشراء ما له ثمن، فإنه لا يمكن من الحصول على ما له قيمة.

أه ليس هذا رأي الجميع؟ أي غرابية في الأمر وأنا لا أقول رأيا، حتى "اثنان واثنان يساوي أربعة" إلا وتصدّي له آدمي مقتنع أنني سيد الأعبياء وهو سيّد الأذكياء.

اكتمل الجرد؟ يا رجل، لا تكن ساذجا. أعود للعمل بعصبية لاكتشف كل ما سهوت عنه: قنينة عطور، شامبو، علبه شكولاتة، أريكة صغيرة منزوية أفلتت من الرصد.

ماذا بقي مخفيا؟ لا شيء. هل تمزح؟ أليست القاعدة العامة أن هذا العالم إذا أراد أن يخفي عنك شيئا وضعه في الصدارة، في الواجهة، على مرمى حجر، أمام أنفك وفوقه أحيانا، والدليل على ذلك أنني قلبتُ مكتبي رأسا على عقب أكثر من مرّة لاكتشاف أين ذهبت نظاراتي وأنا أرنديها.

ما الذي يحاول العالم إخفاه عني؟ لا بدّ أن يكون الشيء ضخما للغاية وواضحا للغاية وكثيفا للغاية. أه إنه جهاز التبريد طبعا. هو لم يكفّ بضجيج المتواصل عن محاولة الاختفاء. لم تتطلّ حيلته طويلا. ها هو على رأس القائمة.

ماذا الآن عن الشيء المخفي في صغره البالغ؟ هل هي علبه الكبريت؟ أم هذه المشبكات لمنع الأوراق من التناثر؟ أم هذا المسمار المسمى "بقة"؟ يا لي من غبي وشكرا للخادمة على قلة عنايتها. إنه بالطبع الغبار الذي تسميه اللغة أيضا "الهباء" وتصفه بصفة آلية بأنه "منثور". الغرفة زاخرة بهذا الهباء المنثور الذي يحتل كل الفراغ بما فيه فراغ الكون.

لسبب ما تثير فيّ هذه الخاطرة قلعا غامضا. أسارع إلى المرأة أتأمل شكلي مُقدّرا كم من غرام من الغبار سيعطي في آخر المطاف. تصوّر الخادمة المسكينة وهي تفتح النافذة على مصراعيها ثم تنتبه لشيء غير معهود وراءها. يا إلهي، ما هذا الشكل الذي تراءى لها وكأنه لأدمي جالس على الأريكة، الساق على الساق، قبل أن يتبخّر في سحاب خفيف! كم سيتطلب كس هذه الوساخة من وقت، و"الويك أند" على الأبواب! بالمناسبة، هل لاحظت أنه لا توجد مجلّدات تبحث في المشاكل الفلسفية والفنية والأخلاقية والعلمية التي يطرحها الغبار وهو مُنطلق كلّ شكل والشكل الأخير له. ربما الأمر ليس سهوا وإنما جُبنا. أعدك بالاهتمام بالموضوع حال انتهائي من تدوين الرحلة، قناعتي أنه لا موضوع أهمّ، وبوسعي أن أقول فيه الشيء الكثير، وقد يكون عنوان نصّي الجديد: إنّا للغبار وإنّا إليه راجعون.

*

يقطع عليّ أفكارني رنين الشيء المسمى "هاتف"، رغم أن الذي في جيبي مقفل بإصرار. تحضرني قصة تقول إن الله قرّر يوم القيامة وقف كل المحاكمات وتمتيع الأدمية بالسراح الشّرطي وبالغفو الإلهي الشامل وتعليق كل القضايا ضد الجلادين والمرابين ومعذبي الأطفال وحتى القضاة، لكنه بقي بلا شفقة بخصوص مخترع الهاتف وهو الذي دَفّعه كل ديون الجنس البشري.

كيف لا أدمع الموقف بكل قواي وهذا الشيء كان وما يزال أكبر مصدر إزعاج لي في عالم لا تنقصه المنغصات. نعم لا عدوّ لي بين الأشياء إلا هذا الشيء ولأسباب كثيرة منها المعرفة في القدم.

في ملقّات الطفولة تدقّ الجارة على باب البيت صارخة: يطلّبونكم في الهاتف. تتطلق من "ما" صرخة هامسة: يا ربي تستر. تهرع إلى بيت الناس الطيبين الذين يملكون تلفون الحيّ الوحيد ولا يتضايقون من وضعه تحت ذمة شارع من الفقراء. كانت تعود أغلب الوقت مطرقة دامعة العينين، فالهاتف في تلك الأيام، وخاصة تلفون الجيران، لم يكن يصلح إلا للإعلام بوفاة قريب أو إلقاء القبض على "با".

في ملفّ آخر تهزّني "ما" من نومي بعصبية: أخوك ينزف من أنفه. أسرع إلى بيت الجيران يهتفون للطبيب بالمجيء.

كم من ذكريات بشعة بطلها دوما هذا الشيء اللعين. يرنّ صوته في غرفة الحراسة. تصرخ في الممرضة والساعة تشير إلى الثالثة صباحا: الرجل يفرغ من دمه. عجل.

أرفع السماعة ليفاجئني الصمت والتنفس البطيء للشخص الذي أيقظني. أغلق الخط وأعود إلى فراشي لأسمع تجدد الرنين. أهول حافيا شبه متأكد أنه نفس الشخص يكرّر التهديد المبطن. ينتظر مني أن أصرخ فيه وأن أشتمه. أفضل مبادلتة صمنا بصمت، أنتظر أن يغلق هو الخط. تمرّ الدقائق كالساعات. كأنّ الرجل فهم التحدي وفضل عدم رفعه. يلطخ السماعة. أعود لفراشي بعد سحب الخيط.

تمرّ السنوات والعقود وهو دوما نفس الشيء السمج الحامل لكل خبر سفيه: سيدي، هجمات حاقدة في صحف المرتزقة تجاوزت كل الحدود. يجب معاينة أناس لا شرف لهم. أرمي بالشيء على الأريكة وأهزّ كتفي: معاينة؟ لماذا أكلف نفسي هذا العناء، ألا ينتقم لي خصومي من أنفسهم والحق لا يدمر إلا الحقّ والحسد لا يُذلّ إلا الحسود؟ يرنّ الشيء: آسف سيدي على إيقاظكم في هذه الساعة. اشتبكت قواتنا مع مجموعة إرهابية. الحصيلة لحدّ الآن خمسة قتلى، منهم ثلاثة ذبحهم الهمج كالخرفان لضرب معنويات جنودنا.

من يستطيع الاطمئنان لشيء كهذا؟ تقول بأنني أتجنّى على جهاز يودّي خدمات جليّة، نعم؛ للأخريين، الذين يستطيعون مغازلة حبيبة أو الثرثرة مع صديق بلا مخبر يسجل كل كلمة يقولونها.

المشكلة أن الرنين أصبح يلاحقني كل ساعة وفي كل مكان، ذلك لأنّ مخترع الهاتف الذي رفض حتى الله غفران زلّته، تمادى في المعاصي. فحوض أن يتركه في شكله الأول كصندوق أسود ثقيل لا يحمل إلا بصعوبة، أبى إلا أن يصغره إلى حجم علبة سجائر، مما شجّع كل آدمي بالغ -وقريبا كل طفل- على حمله معه، لا يفارقه أينما ذهب. هكذا أصبحت تسمع صوته الفظيع في بيوت العبادة، في منتصف جملة موسيقية لكمنجة المايسترو في قاعة الحفلات وداخل المكتبات، ناهيك عن الساحات والشوارع. أغرب ما في الأمر حُبُّ أغلب الأدميين له. انظر لبسمة الرضا والشيء يرنّ داخل جيب الجالس أمامك في عربة القطار. تأمله وهو يسارع إليه وفي العينين بريق غريب. يا بشر، لا أريد كل هذه التفاصيل عن حياتكم الخاصة، أتريدوني أن أعي بما في مشاكلتي من تفاهة وكم مضحكة هي خصوماتي. كيف يمكن الدفاع عن الحق في عدم الاطلاع، في عدم المعرفة، في التجاهل وفي الجهل؟

ثمّة من سيوصون بدفن نقالهم معهم مواصلةً لعادة مغرقة في القدم: أن يدفن الراحل مع أحب الأشياء إليه. وفي هذه الحالة تصوّر الوضع ورنين النقال، بمختلف أنغامه البشعة من صفير وحشجة وتكبير وتقليد للعصافير والنوطات الأولى لكبرى الأعمال الموسيقية وجُمْل أغان هابطة، يتصاعد من المقابر. لذلك سأوصي تفاحة وتفيحه بحشو أدنيّ بكل الممكن من القطن والصبغ قبل دفني، حتى لا يزعجني في الموت صوتٌ كم أزعجني في الحياة.

ربما تتشارك الأشياء مع الكائنات في رصد من يحبها ومن يكرهها. ما إن تنتبه لكرهك لها حتى تبادلك كرها بكرهه وأنداك الويل لك منها. غريب أمر هذا الهاتف. إنه صامت منذ أيام. مؤكّد أن به عطا ما. أقلبه من كل الجهات. لا شيء فيه يوحي بأنه معطوب. ما خطبه إذن؟ لا صدق أن الأمر ليس منه. هل نزلت أسهومي في سوق السياسة والحب إلى مثل هذا الحضيض؟ يا شيء بغيض رنّ و عليك الأمان. ماذا؟ يجب أن أتأدّب وما عليّ إلا أن أطلب نفسي وقد نسيني الجميع. لم لا؟ سيمكّنني تنسّم أخبارها والتجسس عليها والتباهي عليها وإثارة غيظها وغيرها ولم لا الدسّ لتحطيم معنوياتها. كيف؟ ما عليّ إلا طلب جوالي من التلفون القارّ؟ غريب هذا الصوت! "شكرا على ترك رسالتك. سأطلبك حال رجوعي". طيب، لنترك للرجل رسالة لا يمكن تركها لغيره وإلا زادت مشاكلتي: "يلعن أبوك يا ابن الكلب". الآن وقد طلبت نفسي، هل يمكن لنفسي أن تطلبني ولا حرج إن شتمتني كما شتمتها. أه غير ممكن تقنيا. حتى نفسي لا تطلبني فكيف الأخرين!

تقول: لا يكفي أن تكون سيء النية بالبشر والكائنات والأن بالأنبياء. اعلم أنني لست ضد الأشياء ولا حتى ضدّ البشر الذين ارتكبوها. كلا، فأنا بشهادة نفسي رجل متوازن، يضع الوسطية والنسبية والاعتدال حتى في شتائمهم. مثلا أنا أقرّ بوجود أشياء لا ترنّ ولا تحمل الأخبار السيئة.

خذ السرير مثلا -أو الحصير بالنسبة إلى متطرفي الفقر- من مّا كتب فيه قصائد الغزل أو أبحاثا فلسفية قيّمة أو دراسات علمية على صفحات "نايتشر"، والحال أنه هو من يفتح لنا رحابه كل ليلة لنرتاح من أهوال الطريق، ولا متعة أكبر مما يوفر ليالي الحب، ناهيك عن كوننا نولد عليه ونموت.

مظلوم كبير آخر: الحذاء.

بخصوص هذا الشيء تحضرني قضية شائكة: قيمة الأشياء المقدره بكمية المال الضرورية لاكتسابها. إنه الموضوع الذي يتخاصم حوله أهل الاقتصاد منذ قرون. وفق أي مؤشرات موضوعية نقرّر أن لهذا الشيء قيمة أعلى من قيمة الشيء الآخر أو أن له قيمة مساوية والأمر أساس المعاملات التجارية التي تلعب الدور الحيوي المعروف في ربط العلاقات بين البشر داخل المجتمعات وبينها.

مثلا كيف نقرر أن لوحة لفنان شهير مات منذ أربع قرون تساوي ثمن مليون طن من القمح أو كيف تصبح بعض أصناف الحجارة الملونة أشياء تدفع فيها مبالغ خيالية ويتقاتل البشر أفرادا وشعوبا لاقتنائها؟

الأفكار الشائعة حول الموضوع أن الأشياء تكتسب قيمتها نتيجة جملة من العوامل الموضوعية والثقافية والذاتية منها ندرتها، صعوبة الحصول عليها، ما يتطلبه من جهد في خلقها وتسويقها، قدمها وأرومتها النبيلة مثل لوحات ليونارد دافنشي أو أولى طبعات الانجيل التي لمستها أنامل جوتنبرج بنفسه. أضف مؤشرات أخرى مثل قدرتها على تمييز من يملكها عن بقية البشر أو حدة شرهم التي تضطر مالكيها لإخفائها وإقامة الحرس عليها.

يقف الحذاء شامخا في وجه كل هذه النظريات مستخفا بمقولاتها. فلا هو نادر ولا هو يتطلب عبقرية كبرى في صناعته ولا أحد يصنع منه قلادة حول العنق تثير حفيظة الرجال وغيره النساء، أضف لهذا أنه لا أحد يهتم باكتساب الذي مشى به نيوتن أو بيكاسو ليتجول به أيام العطل... ومع ذلك يا لقيمة هذا الشيء !

تخيل لحظة واحدة أنك تعبر العالم حافيا. تصوّر كم كان مشي الأوائل عذابا صرفا قبل أن يضع الحذاء حداً له. لا غرابة أن يكون الحذاء من بين الأشياء الأولى التي خلقوها، بل وحتى قبل الهاتف النقال، رغم علمي أنك لن تصدق مثل هذه الأطروحات الجريئة والاستفزازية. نعم، هل كان بوسعنا تحمّل الطريق لولا هذا الشيء صاحب الأيادي على قدمينا؟

تحمّل! أليس هذا فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص؟ ماذا نفعل طوال الرحلة، غير تحمّل الحرّ والقرّ، غير تحمّل الجفاف والطوفان، غير تحمّل الضجيج والصمت، غير تحمّل الأعداء والأصدقاء، غير تحمل الحياة والموت؟

ومع هذا انظر كيف يعامله أغلب الناس وكم من عبارات ازدراء تلصق بالشيء المسكين بل ثمة منهم من يذهب إلى حدّ رميه في وجه كبار المجرمين وكأنه لا أحقر منه في الوجود. أتعرف أنني من جملة هؤلاء المتبّلدين. تداهمني صور عشرات الأحذية التي أبلّيتها على الطريق وتخلصت منها رميا في الزباله لا يعينني من مصيرها شيء، والحال أنها سهّلت عليّ الطريق كما لم يسهله دين أو علم أو أدب ولا حتى موسيقى. كم نُظهِر للأشياء من عقوق أفضع ما فيه لامبالاة، هي أفسى القسوة واجهنا بها الأشياء أو الكائنات. تتغير فجأة نظرتي إلى الأشياء عموما ولهذا الشيء على وجه الخصوص.

ها أنا بعد التأكد (أنه لا توجد كاميرا ترصد حركاتي وتثير ضحك من يتجسس عليّ) أسحب الحذاء من تحت الأريكة وأبدأ في تنظيفه كأنني راهب مسيحي يصفّل الصليب قبل القداس. يا له من منظر مهيب والآدمي المعترف بالجميل أخيرا ينظّف الحذاء ويلمّعه لأجله، هو الحذاء، لا لأغراض لايسيه. المشكلة أنني سأكون بمثل هذه المشاعر النبيلة والأفكار العميقة عاجزا من هنا فصاعدا عن حشر قديمي داخله رفقا به، أي خوفا عليه من العفس والروائح. ثم كيف سأواصل الطريق أحمله التعامل مع الشوك والحصى والزجاج المهشم والمسامير وخرا الكلاب وقشور البطيخ وبقع النفط على الشواطئ؟ من حسن الحظّ - وهذا ما يزيد قيمة على القيمة- أنه شيء ابن حلال بكل المقاييس (وليس كابن الكلب الهاتف النقال المذكور سابقا)

"وحده الحذاء القديم (روبرتو جيوارزور)

لا يحترق الطريق

وحده يستطيع حملي

إلى حيث يجب

بعدها أواصل حافيا"

نقطة أخيرة. أنظر دلالات الأشياء وهي لا تترك لنا خيار المواد التي نصنعها منها. أذكر أنني فتّشت يوما بأكمله عن حذاء من رخام أهديه لخصم سياسي في تلميح جريء وواضح لما حباه الله به من بطء في الفهم وفي المشي على طريق الحلّ، وهو دوما متخلف عن متطلبات الوضع بسنين وعقود. صدّق أو لا تصدّق؛ لا أحد يبيع أحذية من رخام في هذه المدينة. كلها مصنوعة من الجلد الفاخر وهو فوق إمكانياتي، ومن البلاستيك الحقيق الذي لا يلبق برجل مثلي، أو من اللوح الثقيل كما تفعل بعض شعوب الشمال الهمجية، وفي بعض الأحوال من القماش الذي لا يدوم طويلا خاصة بالنسبة إلى مشاء كبير وسريع ككاتب هذه السطور. إنها نفس الظاهرة بخصوص عدم وجود طائرات من الشوكولاته، أو غواصات ذرية من الطين والقشّ حتى الصنف الجيّد منه. ثمة إذن أوامر ضمنية داخل هذه الأشياء اللعينة بأن تصنع من هذه المادة أو تلك وفق هذه المقاييس وتلك القوانين وإلا فذنبنا على جنبنا، ثم يدعون بعدها أننا نفعل ما نريد بها وأننا مثل الآلهة التي تقول للشيء: كن فيكون.

يرنّ الشيء المسمى الهاتف. أقرّر تجاهله ومواصلة تلميع الحذاء وأنا جالس على العرش الديمقراطي الوحيد معمّقا تفكيري في أيادي الأشياء علينا.

يمكنني أن أتابع سبيل أفكار لمواصلة تذكيرك بكل الأشياء التي تستعملها ولا تعبرها أدنى اهتمام، فما بالك بشيء من العرفان.

الثياب مثلاً. على أي حال من الاضطراب كنت ستترحل عارياً حتى وفي يدك نقالك اللعين! من يقدر اليوم قيمة الأشياء التي نلبس إذا استثنينا الفقراء؟ هم وحدهم يواصلون تصرفات عصور ليست جد بعيدة. كان المرء يوماً لا يستبدل جبته إلا عندما يستحيل ترفيعها للثمن المريع للقماش والأصباغ. كان الجنود الذين بقوا أحياء يسارعون حال انتهاء المعركة إلى الجثث ينزعون عنها ما تلبس وما تحتذي وكان ذلك أعظم المغام. يكفي أن أنظر إليها مرمية على الأريكة لأقدر عمق تدهور وضعها المعنوي في هذا العصر. صحيح أن هناك من الأدميين -خاصة الإناث- من ينتبهون أكثر، لكنني أشك أنهم يُظهرون لها من الامتنان أكثر مما أظهر. فالثياب دوما مجرد أدوات تستخدم للوقاية من مزاج الطبيعة، أو للترهيب، أو للإغراء أو للتموديع أو لإبعاد الشبهة، أو للتمييز، أو لأداء مهمة فذرة أو للاحتماء من خطر ما، وعادة لكل هذه الوظائف بالتتابع. ثم تُعطى للخدمة أو تُلقى في المزبلة. من أقام لها منكم حفل وداع بمناسبة انتهاء خدماتها، وطواها بعناية ووضعها على رف نظيف بعيداً عن أنياب الفئران.

ثمة أودم يعرفون قدر الثياب حتى ولو كانت مجرد منديل، مثل المدعوة هرتا مولر التي تسأهل جائزتها الشهيرة لا شيء إلا على هذا الاعتراف.

“هل لديك منديل؟” سؤال أمي كل صباح على عتبة باب المنزل. كان الحب مقنعا على هيئة سؤال. في البيت كان للمنديل أهمية فائقة. المنديل مفيد لمسح الدموع، أو لحبسها إذا عضضته بأسنانك. عند الصداغ نضعه على الجبين مبللاً بالماء البارد. أما إن عقدته في زواياه الأربع فإنه يحمي الرأس من ضربات الشمس أو أذى المطر. كي لا ننسى أمراً ما نجعل عقدة فيه. إذا حمل المرء كيساً ثقيلاً فإنه يلف منديله حول يده. نحرّك المنديل ساعة الوداع عندما ينطلق القطار. في قريتي، عندما يموت شخص ما في بيته يلف منديل حول ذقنه للحفاظ على الفكّين مغلقين إلى أن تتصلّب الجثة. وإذا ما خرج أحد الناس وسقط ميتاً على قارعة الطريق كان هناك دوماً من يغطي وجهه بمنديله.

كيف سأتجاسر مستقبلاً على الاستعمال العادي، والشيء يوضع على عيني من خرس صريع الموت؟ من هنا فصاعداً إن أصبّ برشح سأضغط بإصبعين على منخري وأنفخ في الهواء لا يضرني من أصيب؟ المشكلة تبعات تصرف كهذا إبان مؤتمر علمي أو في خلوة غرامية. سأواصل إذن إغراق الشيء النبيل بسوائل الأنفية اللزجة الخضراء، أو أمسح فيه يدي لأننا كائنات لا تحترم بشراً أو شجراً أو حيواناً ولا حتى منديلاً.

تقول أنسيت شبة التقديس الذي يوليه بعض الأدميين للأشياء التي تصلح في هذا البلد لحفظ الشاي وإعداده وشربه؟ يتعهدونها بالصيانة والترميم إلى آخر استعمال كأنهم يجاهدون لإنقاذ مريض عزيز من الموت. يفضلون حرقها في المعابد على رميها في المزابل. أنسيت ولع المؤرخين وعلماء الآثار بالأشياء لأنها واكبت ماضيها، لأنها أصدق شاهد عليه، لأنها -خلافًا للكتابة- لا تكذب عليه؟ أنسيت وضعها في المخازن والمتاحف وعلى أبوابها عسس على أهبة قتل من يمد يداً إليها؟ أنسيت حب الإناث للأشياء التي تتدلى من الأعناق أو تحيط بالمعاصم والأصابع، وإجماع الأدميين عموماً على قيمتها، والحال أنها لا تؤكل ولا تلبس ولا تصلح حتى لنقل الكلام الفارغ. أنسيت أنها قد تلبّي حاجيات مثل خطف الأبصار عند الإناث وإظهار الجاه عند الذكور، لكن الأصل فيها بحثنا الذي لا يكلّ عن الجمال؟ أنسيت ما تكلفه من مشاق سيزان وبيكاسو وشاردان وزوباران وكل الفنانين الذين أفنوا أعمارهم في رسمها، حتى لا نقول في التعبّد لها؟ أنسيت كل الجهد الذي تكلفه البشر في صنعها واقتنائها؟ فجأة أنتبه لإناء موضوع على رف. يبهرنى لمعان بياضه وجمال زخارفه الزرقاء.

إنه الشيء الذي ارتحل جرياً وراءه جرفيون صعدوا إلى الجبال يُقبون عن المادة العجيبة التي سيصنعونها منها، الشيء الذي استقرّ طوال قرون قريحة الفنانين وطمع الأثرياء وجشع التجار، الشيء الذي حمله أشباه عبيد أطنانا على أكتافهم الموجوعة عبر الجبال والبحيرات والأنهار، الشيء الذي خرج من أجله مغامرون أبحروا من مرافئ الغرب الأدنى والأقصى، متحدّين العواصف والقراصنة، قاصدين مرفأً في أقصى الشرق محجّر عليهم مغادرته ينتظرون أشهراً حمولات قوافل أشباه العبيد. الشيء الذي رجع به جشعون غرق منهم الكثير وغرقت معه أئمن بضاعة، الشيء الذي مثّل سرّاً صناعته مصدر قوة وعنوان كبرياء امبراطورية عجوز: البورسلين.

طيب، ليكن أننا أمام حالات تطرّف في عبادتها، ولنعد إلى تلك التي تأخذ منا قسطاً من الاعتبار ليس فيه إفراط. اعتبر الكتاب مثلاً. من منا لا يعترف أنه الذاكرة، المنارة، المرشد، المرّبي، الدليل الصديق، السمير والمنبّه الأكبر! كيف لا يكون المسافر ممنوناً له، وهو الذي يأخذنا إلى كل زمان ومكان.

تصوّر حرج الوضعية لو خُيرت عند الإفاقة بين الحذاء والكتاب، وتحديدًا بين فرديتي حذاء سميك وبين كتاب طاو تي كنج. أي حياة حافياً، لكن أي حياة دون كتاب الطريق، أجمل هدايا "ح"!

يعود الشيء إلى الرنين المطوّل غير عابئ -على ما يبدو- بازدرائي. حقا إنه شيء بلا أدب ولا كرامة. كم بقي لي من الإضراب. كم الساعة الآن؟

الساعة! ربما لم أَلحَ بما فيه الكفاية على أن تصرفات هذا الشيء من أهم أسباب دعوتي إلى الإضراب العام. أستعد الآن لتصفية حساباتنا معه وكُلِّي ثقة أنك ستوافق على كل كلمة من كلماتي. ها هي الساعة موضوعة على الطاولة تحت الضوء الساطع لأشعة "اللمبة" أسلطها عليها كما تَعَلَّمْتُ من المحققين في الأقبية المخيفة. لا بد من محضر مستفيض لكل جرائم الشيء وهي لا تحصى ولا تعدّ ويمكن اختزالها في جريمتين. أولاً التعدي على الزمان بتمزيق أوصاله إلى ساعات ودقائق وثوران وهو سيل متدفق. ثانياً، ادعاؤها تمثيلاً، لكن مَنْ منكم توقّف هرمة عندما كسّر ساعته أملاً في، تيك، تيك، تيك، تيك. الساعة على أذني أتوهم أن للزمان صوتاً. تيك تيك، تيك تيك، تيك تيك. متى انطلق العداد؟ ما ميزانيتي من الزمان؟ كم وُضع منه في رصيدي لحظة الصرخة الأولى؟

ما أقصر هذا الليل (شيكي)

تُرى كم بقي

لي من ليالٍ؟

حقاً يا شيكي تريد أن تعرف؟ قد تعضّ أصابعك نادماً لو فاجأك جَنِّي خبيث بالردّ. تيك تيك، تيك تيك، تيك تيك. خطوة بعد خطوة تتوارى البداية، تقترب النهاية. حاول التوقّف عن المشي وستكتشف أن بساط الزمان الذي تسير فوقه، هو لن يتوقف. حقاً لنا حرية الثأر: إيقاف التيك تيك تيك بمحض إرادتنا بحبل حول العنق أو رصاصة في الصدغ أو كيلوغرام من حبوب النوم بالنسبة إلى الإناث. لكن ممّن سنثأر والعالم بالكاد منتبه لقدمنا أو لرحيلنا؟

"نهار يزورنا كعابر سبيل (محمد برهان)

يفرغ ضوءه

فوق عقارب الساعة

يقضم شيئاً من أحلامنا

ثم يمضي

حتى قبل أن نشعل

نار المضافة"

والآن التهمة الدامغة: أي زمن تقيس هذه الساعة الغبية؟ زمن الأحقاب الجيولوجية؟ زمن الحضارات؟ زمن الدول؟ زمن الأنظمة السياسية؟ زمن الأدمي؟ الزمن المضغوط لإنقاذ جريح ينزف أم الزمن المستنقع لأيام زنانات العزلة الانفرادية؟ نقرأ لألثة الاتهام قبل الإدلاء بالحكم الجاهز سلفاً. "وحيث ترفض هذه الساعة -شأنها في هذا شأن كل الساعات- الإسراع بالزمان حين نريد، والبطء به حين نرغب، وإن هذا دليل على سوء نية لا يُعرف حتى عند النقال، وحيث يتبين من عدم توقّف الزمان عندما تتعطلّ أنها تكذب في ادعائها تمثيلاً ونيابته، وحيث أنها تمارس علينا ضغطاً متواصلاً بحجة الوصول في الموعد فارضة وقت الطائرات والاجتماعات والجنازات على وقتنا، وحيث أنها ترفض التحرك من الأمام إلى الخلف لتعيدنا إلى شبابنا وطفولتنا، وإنما لا تنفكّ عن دفع الزمان قُدماً بمنتهى اللامبالاة نحو الشيخوخة والفناء. وحيث أن زمانها الذي تدّعي قياسه زمنٌ ريك يكرّر نفسه رغم ما يدعيه من حبه للتغيير، وحيث أنها تغالطنا في مفهوم الزمان نفسه مدعية أنه نهر متدفق وقد يكون كنهر جليد جامد مغلقٍ على كل الماضي والحاضر والمستقبل، وحيث أنها تمنع في مغالطتنا بأن للزمان بداية ونهاية وحيث...

يرنّ الشيء المسمى "هاتف" مغتتما فرصة فشلي في اكتشاف خيطه، والمسكين غير واع أنه يستطيع أن يرنّ إلى يوم القيامة، ومن الأحسن له عدم تعريض صوته لبحّة لا طائل من وراءها.

يغتنم لسان الدفاع الفرصة: نرجو من الجنب التسجيل أن موكلتنا تقدم خدمات جليّة فلولاها لاستحال التنسيق بين أعمال الأدميين ولأصبح العالم فوضى تجعل العيش أصعب بكثير ممّا هو عليه، ولولاها لما تنبّه الأدمي لمحدودية ميزانيته من الزمان ولما أمكنه التصرف فيه بحكمة. ومن ثمّ نطلب البراءة، وتحميل الشاكي مصاريف القضية، علماً أننا سنقيم عليه دعوى للمطالبة بالتعويضات اللازمة، لما يُظهره من إهمال لساعته ورميها في المزبلة لاستبدالها بساعة أجمل وأصغر عمراً كلما سححت له الفرصة.

لا يتوقّف الرنين هذه المرّة. على الأقلّ خلّصني من ثرثرة المحامي ضعيف الحجّة. أن أوان التصريح بالحكم: وحيث ثبتت كل التهم على المدّعى عليه، وحيث أن عقوبة الإعدام التي طالب بها المدعي العام قد تؤدي إلى وقف سيل الزمان على الأبرياء المحتاجين للإسراع به، فإننا حكّنا على الشيء المائل أمامنا بالجنون المؤبد.

كيف يمكن للساعات أن تُجنّ؟ انظر إلى الشيء الذي يحيط بمعصمك وستكتشف أن العقارب تنتقل من الواحدة إلى الثانية ثم إلى الثالثة، كل هذا بمشيتها الميكانيكية الصارمة الواثقة من أنها ستنقل إلى الرابعة ثم الخامسة دون صعوبة وبكل بساطة

وتلقائية. والآن أخبط تتابع الأرقام لتواجه العقارب هذا التنظيم مثلا: 1-12-2-4-5-7-8-9-10-11-6. تأمل ذهولها وتوقفها لحظة للتساؤل عما يحدث هنا، وتصور كل الوقت الذي سنربحه وهي تفكر في كيفية الخروج من المأزق. أضف إلى هذا أن عليها أن تتحرك إلى الورا، والزمان لا يعود إلى الخلف وإلا وقعت حوادث مريعة كأن تصل إلى بيتك مرهقا ثماني نفسك بعشاء ساخن، لتجد نفسك في المقعد اللعين عند طبيب الأسنان الذي غادرته منذ ساعتين وعندما تحتج بنبهك بنفاد صبر أنه ليس مسؤولا، لا عن جنون الطقس ولا عن جنون الساعات.

أين القلم لأمضي به الحكم؟ أه القلم! الشيء الذي كتبت به أول رسالة حب، أول نداء للثورة والذي سأكتب به لتفاحة وتفيحه وصيتي! أين الورقة البيضاء؟ أه الورقة البيضاء، التحدي اليومي، الفراغ المخيف.

لكن أين النظارات؟ أه النظارات! كم من مرة أسرت الأم في أذن الطفل المتهور، وبعد تجدد الكارثة تحاول إخفاء دموع الغيظ والقهر: يا بني أرجوك كفت عن الشيطنة وعن العراك مع الصبيان، أتريد أن أجوع إخوتك مرة أخرى لشراء نظارات لا ترى شيئا بدونها؟ نعم، كم أدين للنظارات فلو لاها لعبرت عالما ضبابه خارجيا أكثف من ضبابه داخليا.

أه كم كنت أفضل أن تكون لي في حقيبة السفر نظارات تدقق في ملامح الروح والفكر أو على الأقل لا تكسر، ساعة تتحكم عقاربها في سيلان الزمان كما تتحكم الحفوية في سيلان الماء، تلفزيون ليس فيه أخبار مجازر، قلم يقرأ أفكاره ويكتبها مباشرة دون أغلاط، ثياب لا تحتاج إلى غسل وكبي تكون لي جلدا ثانيا، مفاتيح تفتح لي كل العقول وكل القلوب، حذاء يمكّنني من القفز فوق الجبال وفوق البحار، وخاصة هاتف لا يرّ وإن رنّ فليخبر سعيد.

فجأة انتبه لغياب أشياء هي دوما جزء لا يتجزأ من الفضاء الذي نلتجئ إليه عند حلول الليل؟ طبعا تلك التي نعلقها على جدران كل بيت نسكن، التي نضعها في أجمل إطار على مكتبنا، التي نسندها رثة صفراء إلى صفت كتب ليست بأحسن حال، صور الأحبة الذين يتعزّون في خطواتهم الأولى، صور الأحبة الذين رحلوا، الصور التي لا يتغير من عليها وأنت وحدك الذي يتغير. إنها الأشياء التي نتوهم بها تملك جزءا من الفضاء الحسي كالغزاة الذين يرفعون علما على أرض يدعون أنها من هنا فصاعدا وقت عليهم وحدهم.

كل هذه الصور الغائبة تصرخ الآن في وجداني: يا من دخل كالآلاف هذه الغرفة وسيخرج منها كأنه لم يدخلها قط، بالصور وبدونها أنت دوما في هذا العالم غريب ابن غريب ابن عابر سبيل.

كدت أنسى حاسوبي النقال رغم كل الخدمات الجليلة التي يقدمها لي.

يدفع الشيء بأول قطعة على رقعة الشطرنج. أدفع القطعة تلو الأخرى فتسقط بسرعة لا تصدر صوتا. هكذا يجب السقوط في ساحات الحروب بدون ضجيج مزعج قليل الذوق. يعلن الحاسوب بسرعة نهاية المباراة: كش مات. إنها نفس مشاعر الهزيمة في معركة الجسد. خليط من المهانة والنقص والألم وشهوة الانتقام. أقرأ على الشاشة رسالة: أتريد اللعب من جديد؟ أجيب بالموافقة وقد جاءني أمل مقامر يمّي نفسه باستعادة كل ما خسر في الجولة المقبلة عبثا، والرسالة دوما نفس الرسالة: كش مات.

لأجرب التهديد.

- اسمع يا برنامج، تتركني أربح أو أدخل فيك فيروسا فتصاب بالجنون مما سيضطرنني إلى رميك في سلّة المهملات.

كش مات.

- يا برنامج، يكفي أن تقول لي من أي جنس أنت لأبحث لك عن النصف الآخر. هكذا لن تبقى وحيدا محبوسا في هذا القفص. إن ألحت، سأكون شاهد الزواج وعمّ الأطفال، بل وسأضعكم كلكم في كمبيوتر نقال لفسحة نهاية أسبوع فلا تقصون العمر كله في هذا المكتب الكئيب.

- كش مات.

- وماذا لو زوجتك تفيحه. أترضى لصهرك بتواصل مسلسل الإهانات هذا؟

- كش مات.

الرابعة صباحا! أرهقت الحاسوب المسكين ومن حقه أن يرتاح بعد كل هذا الجهد الذهني الذي فرضته عليه. انظر كيف داهم الضباب عيني واختلطت عنده الأفكار. أصبح على خير يا ابن الكلب.

المشكلة الكبرى مع هذه الأشياء اللعينة تزايد تعقيدها وذكائها ومن ثمّ وخطورتها.

من يتذكر أن الفكر الذي يسكن داخل هذا اللعين كان لحدّ هذا الجيل موجودا داخل أدمغة متحصنة بقحف عظمي يحميها من الرضوض؟ ألم تعدّ تسعه فقرّر أن يسكن أجسادا جديدة لأنها تمكنه من التفكير بطريقة أنجع وأسرع؟ هل سيبقى هذا الفكر مجرد امتداد وتحسين للطاقة الذهنية التي تسكن أدمغة الخلايا العصبية والشرابين، أم هل سيستقلّ يوما مُعلنا انتهاء صلاحية أدمغة الجماجم والأجساد سريعة العطب؟ تقول: لكن الحاسوب لا يحس ولا يشعر مثلنا، ربما انتبه الفكر المخفي الذي يبحث

فيما وفيه أنه من الأحسن خلق عالم بلا عواطف بعد أن اتضح أن أضرارها في تسميم حياة الكائنات فاقت منافعها في تنبيهها السريع للأخطار. ربما هو بصدد العمل على أحاسيس وعواطف أكثر صقلا وتشديدا، ربما سيأتي يوم يصير فيه متيما بحاسوب المكتب المجاور فتحدث مشاكل لا قبل لنا بتصورها إذا كان هناك حاسوب ثالث يريد أحد الحاسوبين لنفسه. ها قد بدأت تتزاحم على حدود ما نسميه "الواقع" أصناف متفائمة التطور من الحواسيب والهواتف والطابعات الذكية. أضف إليها "الروبوتات"، وغدا "السيبورج"، وكلها كائنات يقال إنها ستكون قادرة على تفكير أسرع وأصفي من الأدميين، ولم لا على مشاعر أرقى وأفعال أذكى؟

ربما الذي ينتظرنا في المستقبل القريب ليس غزوا خارجيا لكائنات من وراء مجرة العقرب، وإنما إعلان الحواسيب والروبوتات ومحطات الإرسال في الفضاء اندلاع حرب التحرير من أجل تحقيق استقلال الأشياء الذكية واسترجاع حقها غير القابل للتصرف في تقرير المصير. آنذاك يا ويلك والثورة في عقر دارك. كيف ستواجه مؤامرة البراد وجهاز الطبخ والسخان والتلفزيون والهاتف، وقد اتفقوا على أن يجعلوا من حياتك جيما تمهيدا للانقلاب الأكبر الذي سيحيل مدنا أدمية اللحم والعظم إلى محميات من نوع "سانتا لوسيا" تأتيها الكائنات الجديدة للتسلية والتفلسف.

بالمناسبة يخطئ من يتصور أن خوف الأدميين من الأشياء أمر جديد والدليل على ذلك اسطورة شعب من شعوب جبال الاندز الموهيكا وتروي ثورة الأشياء بايعاز من القمر واله بومة. كيف لا يخاف بشر الماضي العصي والسيوف والنبال والرماح وكيف لا يأتيهم الرعب وهم يتخيلون ما ستقدر عليه في المستقبل الحواسيب والروبوتات ناهيك عن هواتفهم النقالة التي ترصد تنقلاتهم وتنقل أسرارهم لمن يسوى ولا يسوى.

على كل هذا مشكل الأجيال القادمة، تكفينا مشاكلنا مع الأشياء وهي ما زالت ملتزمة بالطاعة أو تفتعلها. بداهة هذا العالم يفيض بأشياء لا تعد ولا تحصى ولا سبب لوجودها إلا وهو مرتبط بوظيفة تُلبي حاجة ما للأدميين، بل قل: هي حاجتنا بشتى أصنافها تُرجمت لأفكار، ثم لصور، ثم لمشاريع تحققت في أشكال فرضناها على المواد التي وجدناها أو استخرجناها بالقوة من المحيط.

ماذا عن الأشياء التي لا تلي أدنى حاجة؟ مثلا تماثيل بأذرع حديدية تتحرك في كل اتجاه ولا تحرك شيئا آخر، مثل التي ارتكبتها فنان يدعى جان تنقلي وتطلب وضعها تصاميم معقدة استنزفت أموالا باهظة دفعتها حبيبته الفنانة نيكي دو سان فال. لنقل إنها الشاذة التي تحصى ولا يقاس عليها، الاستثناء الذي يوكد القاعدة.

بخصوص الفن، ما يذهلني في الشيء الذي اسمه "العود" ليس ما يعتمر منه الفنان من أنغام تُسكرني وإنما كل الوقت المتطلب لكي يروضه ويجعله طوع بنانه. سنوات وسنوات من العمل، لكن من يروض من؟ الشيء الذي يستل من الفنان كل قدراته ويعاقبه أشد العقاب لأبسط هفوة، أم الفنان الذي يقضي عمره ولا يصل إلى استفاد قدرات سحرية لقطعة مزرکشة من الخشب تُبنت عليها بضعة أوتار مصنوعة من أمعاء الحيوانات؟

الأشياء إذن ضرورية للقيام بوظائف تلي حاجيات عاجلة وأخرى مؤجلة. على أي حال ما كنا سنعبّر العالم لولا هذه الأشياء، حتى على ما هي عليه من نقصان؟

نعم، لولاها لما ذهبنا بعيدا. فالأدمي، خلافا للدب بفروه، للبعل بحوافره، للنمر بأنبياه وأظافره، أفاق في الوجود دون الحد الأدنى من المتطلبات الضرورية لبقائه. هكذا أُجبر على تشغيل خلايا دماغه ليعوض بالأشياء كل النواقص التي ولد بها. مما يعني أن ما نصنع ليس دليل تفوقنا على آل نبات وآل حيوان وإنما العكس هو الصحيح؟ ألا يُقاس الكمال في كائن باكتفائه بذاته؟

ثمة فرضيتان. الأولى أن الإدارة العامة بصدد القيام بتجارب حول الحدود القصوى للكائنات، من أجل الرد على أسئلة من نوع: هل من الممكن لجنس من الكائنات دون مخالب وأنياب أن يعيش بين الكواسر، أن يمشي في الأحراش دون حوافر، أن يعيش في صحاري الجليد بلا فرو، أن يطير دون أجنحة؟

الفرضية الثانية أن الإدارة العامة رمت بالأدمي في هذا العالم، كما يرمي المهندس في مكان مُهمَل من المخبر آلة يُقن أنه لا فائدة من مواصلة البحث فيها، لكنها تدبرت أمرها لتواصل وجودها، والمهندس غافل عن تشبثها بالبقاء واختراعها لما يكملها ولو جزئيا. مما يعني أن وجودنا في مثل هذه الفرضية غير شرعي وخارج على القانون وربما ما زال مجهولا عند السلطات العليا. السؤال إذن: كيف ستواجه الإدارة العامة الأمر عندما تكتشف بقاءنا بفضل ما خلقتنا من أشياء؟ هل ستغفر لنا نجاحنا في البقاء؟ أم هل ستصاب بالفزع فتُسرّع بالقضاء علينا قبل أن تقضي أشياؤنا على أشياؤنا؟

فجأة أسمع يُدق الباب بلطف لكن بالبحاح. أقفز من فراشي أفرك عيني لا زلت لم أخرج تماما من أعرب الأحلام. أفتح الباب لمجهول مبتسم.

- لم نرك البارحة في عشاء الافتتاح، أتمنى أنك ارتحت. كثيرٌ من الأصدقاء ينتظرونك في "اللوبي". محاضرتك مبرمجة بعد ساعة. شكرا على التفضّل بسرعة.
يرنّ الشيء فجأة في ظهري. يصمت بسرعة. يعود إلى الرنين ثم يصمت عائدا بعد ثوانٍ لرنين طويل. إنها "ح" وطريقتها في إعلامي أنها هي التي على الخط. أجزم أنها تريد التأكد أنني ما كنت سأنسى دوائي الذي كان الطبيب سيصفه لي لو كنت مريضا.

كيف الهروب من البشر وهم يلاحقونك بحبهم وبكرههم في فضاء المنام وفي فضاء اليقظة!

**

الكتاب الرابع بنو سفر

سيعود يوسف التائه ثانية إلى كنعان فلا تحزن.
ستصبح صومعةً الأحران في يوم من الأيام
كأنها الروضة والبستان فلا تحزن.
وإذا ضربت بأقدامك في الصحراء شوقاً إلى الكعبة
إذا غلظت عليك أشواك المغيلان فلا تضجر ولا تحزن.
والمنزل مليء بالخطر، والمقصود بعيد غير منتظر
ولكن كل طريق له نهاية، فلا تضجر ولا تحزن.
حافظ

مقدمة الكتاب الرابع

لأنك لا تنتظر للعالم إلا من خلال حواس ولغة ومعتقدات الأدميين فإنه لا مجال لفهمه والتعامل السليم معه دون فهمهم. ها أنت في وضع شبيه بوضع كريستوف كولومب وقد تحولت أولوياته من اكتشاف ما وراء المحيط المرعب إلى سبر أغوار بكاره سفن سانتا ماريا وبنتا ونيينا.

قد تكون الصورة الأقرب للواقع لرحلتنا في هذا العالم أننا نرتحل فيه كالبحارة على باخرة تطفو على سطح المحيط الأهوج... والصراع داخلها بين الركاب على أشده حول من يأكل على طاولة الربان ومن يأكل من القمامة أو لا يأكل أصلا وحتى من يكون المأكول. في مثل هذه الظروف يصبح استكشاف الباخرة وخاصة طبيعة سكانها لمجرد البقاء الجزء الأساسي من الرحلة وليس التمتع بمنظر القمر على سطح البحر أو التفكير في العجائب التي تتحرك في الأعماق المظلمة. المشكلة أن استكشاف الأدميين ليس هيئا لجملة من الأسباب القاهرة أسارع لعرضها للتوصل من مسؤولية محدودة هذه الشهادة وإبراء الذمة بخصوص كل نواقصها وحدودها.

ثمة التجربة المباشرة لكنها محدودة بحكم استحالة معرفتهم واحدا واحدا.

ثمة الصور النمطية التي يُشيعها الأدميون عن الأدميين.

كلها أحكام مسبقة يسوقها البشر للدعاية لأنفسهم كما يسوق الذكوريون لصورة الرجل-السيد في المجتمعات البدوية.

ثمة ردود الفلاسفة والأدباء والفنانين على مرّ العصور.

أغلب الوقت هي غلاف لمزاج المتحدثين يُخفون وراء ما يسوقون من أفكار تشاؤمهم أو تفاؤلهم من منطلق تجاربهم الذاتية وأزماتهم الشخصية.

تجد في هذا الكلام ما تجد من موضوعية ونزاهة في الإعلام الرسمي لدولة استبدادية.

هناك القراءة عنهم. هي محدودة بخبرة من يكتبون عنهم وحتى بنزاهتهم. في آخر المطاف هي ليست سوى الشكل الأنيق للقليل والقال المذكور أعلاه.

ثمة مراقبتهم في أماكن خاصة تبرز جزءا مُعيّنا من طبيعتهم كساحات المعركة، والأسواق والمحاكم والمعابد والمواخير والمعامل والسجون والثكنات وبيوت التعذيب. المشكلة أن هذه الأماكن كثيرة والمورد الزمني كما رأينا جد محدود.

ثمة استحالة النظر إليهم بعيني البعوضة والفيل والنملة والقطّ والشجرة والكلب وبقية الكائنات التي تقاسمنا الوجود. تصوّر كلّ ما يمكن أن نتعلمه منا لو أمكننا رؤية أنفسنا عبر عيونها واستعراض صورنا في ملفات ذاكراتها. تُرى هل كنا سنرفع ضدها قضايا في التلب والتعدي على الأعراس؟

ثمة أن المعرفة بالأدمي لا تُورث ولا تُورث، بل تأخذ كثيرا من الوقت للتخلص من الأكاذيب والشائعات والأحكام المسبقة التي تزيد من ضياعنا.

ثمة دوما قصر زمن الملاحظة ورفض الإدارة العامة المتواصل تمكيني من الوقت الكافي لمتابعة بحثي بضعة قرون، وهو أقل ما يكفي من الوقت لإكمال عمل كالذي تسرع بالانخراط فيه.

كم كانت قيمة شهادتي سترتفع لو مكنتني القوى الغيبية التي حكمت علينا بالرحلة، من موقع لا يحتله إلا من تسميه اللغة الربّ. هيات! القاعدة أنك لا تنتظر للأدمي، مثلما لا تنتظر لباقي مظهرات الموجود إلا من أسوأ موقع ممكن: ذات مجهولة لذاتها جدّ محدودة القدرات، تركب ذرة من المكان وقبسا من الزمان، تتأمل ذاتا أخرى أكثر غموضا وضياعا.

أه لو مكنتني جنيّ مصباح علاء الدين من مجهر ذهني أنظر به داخل كل ذات كما أنظر بالمجهر الطبي داخل الأنسجة والخلايا. أه لو وضع تحت تصرفي عينة ممثلة أدرسها بهذا الجهاز أتابع أدق اختلاجاتها! أه لو مكنتني نفسُ الجني ابن الحلال من مرقب ذهني بقوة تلسكوب "هوبل" الذي يبصر النجوم والمجرات وهي تتكوّن في اتساع الفضاء الذي تسميه اللغة الكون، لكنه تلسكوب لدراسة قصص كلالل الأدميين الذين تعاقبوا!

أخيرا أكبر الصعوبات: استحالة الالتزام بالحياد المطلوب من كل راوٍ يُنتظر منه أن يقدم المعلومات وليس الأحكام.

أي كلام صادق يمكن أن تقوله عن الأدميين وعين السخط هي التي تتفحصهم أغلب الوقت؟

كيف لا وهم يسمّون حياتك من المهد إلى اللحد.

يسمّون حياتك وهم رضع لا يحلو لهم الاستيقاظ إلا آخر هزيع من الليل مع المضايقات المعروفة لكل الآباء والأمهات. حدّث ولا حرج عن ولعهم بالإصابة بالحمى وبالإسهال وبأغرب البثور الجلدية عشية سفر كنت تريد به الفرار منهم ومن التي ارتكبتهم.

يسمّون حياتك وهم أطفال تعاني سنوات من أنانيتهم ونرجسيتهم وخصوماتهم التافهة التي لا تنتهي.

يسمّون حياتك وهم مرافقون يكفونك مصاريف تقصم الظهر أجرة أطباء الأمراض الجلدية والنفسية.
يسمّون حياتك وهم شبان يرمونك بالهتافات وبالحجارة يدعون أنهم من قاموا بالثورة، يريدون كل شيء في التوّ واللحظة،
وعندما تضعهم في أعلى المناصب تكتشف كم هم سدّج مغرورون جهلة. المضحك المبكي أنهم دوماً على قناعة أنهم المستقبل
وأنت الماضي يجهلون أنهم هذا الماضي اللعين يكرّر نفسه من جيل لجيل برتابة مثيرة للقرف.
يسمّون حياتك إننا بالادعاء عليك أنك تقلب الحمام مسبحاً كلما أخذت دشاً، أنك تستعمل فرشاة أسنانهن حتى ونظارتك فوق
أنفك، أنك لا تضع جواربك في المكان المخصص، أنك نسيت عيد ميلادهن، الخ.
يسمّون حياتك وهم كهول ينافسونك في كبرى المناصب والحال أنك أنت وأمك أعلم الناس بأنك بها الأجدر. حدّث ولا تسلم
عما يكفونك وهم خصوم في مستنقع السياسة، وهم موظفون في إدارة الضرائب، وهم جيران لا يدخلون في أشغال تصمّ
الأذنين إلا وقت القيلولة.

يسمّون حياتك وهم شبوخ يرتعشون ويهذون ويبولون تحتهم، ترى فيهم بشاعة ما ستكون عليه يوماً، أو ما أنت عليه، لم
تنتبه لفرار السنين.

يسمّون حياتك لحظة خروجهم من هذا العالم وأنت مضطّر للوقوف في الحرّ وفي البرد تتبع جنازة تتحمل نفاق الأدميين وهم
يتبارون في افتعال الخشوع والحزن يستمعون لتأبين مضحك عن خصال الفقيد الكثيرة التي لم تكتشف إلا وهو على وشك
الانزال إلى الحفرة. ثم عليك أن تدلو بدلوك أنت أيضاً في النفاق الجماعي وأنت تقدم التعازي مفتعلاً الأسى والحال أنك تردد
لنفسك على الأقل نقص منهم واحد.

بل وينجحون في تسميم حياتك حتى وهم أموات بما يتركون من عادات خطيرة ونظريات سخيفة وتواريخ مزيفة وأساطير
مقدّسة يؤدّي التعرّض لها للوقوف في أحسن الأحوال في طابور الباحثين عن شغل جديد وفي أسوأها للمثول أمام كبير محاكم
التفتيش ليأمر بحرقك حيّاً بعد ما تيسر من التعذيب.

هنا تصرخ فيّ والشرر يتطاير من عينيك: يا ناكر الجميل، أليسوا هم من فتحو لك الطريق، من اعطوك كل ما تحتاج، من
علموك كلّ ما تعلم، من أهدوك الشعر والموسيقى؟ هل "ما" و"ح" و"تفاحة" و"تفاحة" و"ملائكة ام جنن من المريخ؟
طبعاً، طبعاً، معك نصف حقّ، لكن اعلم يا هذا أنك تؤكّد نظريتي، فسواء نظرت لهم بعين السخط أو بعين الرضى النتيجة
دوماً نفسها: استحالة الحديث عنهم كما لو كانوا كائنات مجردة مثل الأشجار والأحجار. هذا ما يجعل من مروّجي إمكانية
الكلام عن الأدميين بصفة موضوعية مجرد فصيل آخر من مسمّي الحياة.
أقصى الممكن للحديث عنهم الصدق وليس الموضوعية ذلك لأن كل ما تقول وتكتب عن الأدميين وصف لحالات تمرّ بها أنت في
علاقتك معهم.

هذا ما يجعل من كل وصف لهم رسمٌ لصورتك في مرآتهم ولصورتهم في مرآتك، ولا علمٌ آخر بك أو بهم خارج هذا الانعكاس
المتبادل.

أكبر خطر يتهدد فهمهم التبادل الذي يأتيك يوماً من طول حبههم ومن طول كرههم.
لذلك انتظر الأزمات لتتفاعل معهم بكل جوارحك ثم لتهرع بعدها لشهادتك ولتقطر الحروف حبا وكرها، لا خير يرجى من
كتابة تحت راية اللامبالاة.

المطلوب من كل شهادة الصدق وليس الموضوعية. على اعتبار قدرة التزامي طول الوقت بفضيلة الصدق هذه، وانطلاقاً من
كل المحاذير التي ذكرتها أعلاه، هذا كل ما أعرف عن الأدميين والصراع معهم، ضدّهم، ولأجلهم في ذروتهم.

**

- لكنني أريد لرسمي كثيرا من الرؤوس، هكذا إذا مرض رأس استطاعت الرؤوس الأخرى متابعة العمل.
بريتك، أليس هذا عين الصواب، والكل يعرف قلة مردود الدماغ الواحد وندرة حسن استخدامه.
- من منعك من هذا؟ تستطيع أن ترسم ما تشاء.

أين يضع الرأس الثاني والثالث؟

يجرّب أبسط الحلول بوضع الرأس فوق الرأس. لا يعجبه الشكل، ولا يعجبه أيضا وضع الرأسين الإضافيين على الكتفين.
يفيض الرسم سريعا بالرؤوس، تتدلى من الذراعين والصدر والبطن والرجلين والطفل عاجز عن اتخاذ القرار.
ينكبّ الطفل على خربشة صور كائنات غريبة يملأ بها كراسته، ويكتشف الكهل أمام لوحات أكبر المتاحف أن هناك من الأطفال من لم يتوقفوا بعد عن لعبة إعادة تشكيل الموجود. أليست هذه الوجوه المبعثرة، المفككة، الخارجة من خيال شاجال، بنفس الكيفية التي ركبّت بها الوجوه والأجسام؟

“كلهم في هذا العمر يريدون الرسم مثل رافائيل... وأنا الذي ضيّع عمره ليتعلّم الرسم كالأطفال” (بيكاسو).

ربما واجه الإله النحاتّ الرسامُ نفس المعضلة، ليكتشف الحلّ الذي كان الطفل أصغر من قبول بساطته وأناقته وتبعاته. أليس أكثر الحلول اقتصادا خلقُ نفس الكائن بأعداد رهيبه؟ آنذاك، ما الذي يضير المجرب الأكبر أن يمرض أو يتعطلّ هذا الرأس أو ذاك وهو يتوقّر على هذا الكمّ الهائل من الرؤوس!

هو لا يعلم أن أغرب الأدميين مظهرا ينتظرونه في منعطفات الطريق الكثيرة القادمة: اللواتي تلبس أعلى أنواع “الكيمونو” وكلّ “جايشا” لوحة فنية أجمل من الأخرى، الرجال الذين يلبسون ثياب النساء، النساء المرتديات ثياب الرجال، العراة المحافظون على عضوهم التناسلي داخل جراب أنيقة كأنه الخنجر في غمده، الواضعون على أجسادهم الحديد أو الحرير، الخلق لكل شعرة تنبت فوق الرأس، المخفون قسماتهم داخل أدغال من الشعر، الرسامون على جلدتهم رسوما أخذت أياما طويلة من الألم، القانعون ببعض الأصباغ يسارعون إليها بالماء بعد انتهاء الكرنفال.

هو ما زال بجهل أنّ اختلافهم في المظهر لا شيء مقارنة باختلاف سلوكهم... الثابتون على نفس القطعة من السهل أو الجبل، والذين لا يحطّون رحلهم أبدا... غزاة المستقبل والذين يسعون بكل قواهم إلى العودة إلى ماضيهم الخيالي... الذين يقدمون الأضاحي الأدمية لألهتهم والذين يرفضون ذبح بقرة. كم من إخراج لفكرة واحدة! كم من تقاسيم لا نهاية لها للحنّ يتيم!

ثمة أيضا حاسة الشمّ ولو كانت بغير الأهمية التي هي عند أغلب مخلوقات الأرض.

مما أذكره عن علاقتي المعقّدة بالرجل الذي كنت أسميه “با”، أنّ أول سوء تفاهم بدأ معه في سنتي الثالثة وكان بخصوص الروائح التي يبثها الأدميون من حين لآخر، تفضح ما يريدون التسترّ عليه من طبيعتهم.
ذات ليلة صرخت متوجّها إلى “ما” وهي مضطجعة حدوّ “با”:

- أف!، “ما” أخرجي الكلب بسرعة!

كان في ضحكها المكتوم ونحنة “با” -إضافة إلى أنني تذكرتُ آخر لحظة أن الكلب لا يشاطرنا غرفة النوم- ما يكفي لأفهم أنّ ربّ البيت -وربّما حتى ربته- يضطرّ أو تضطرّ كما اضطرّ، تخرج منه أو منها، روائح كالتي تصدر منّي.
كان لذلك الاكتشاف ضجيج صامت مثل دويّ قنبلة تنفجر تحت الماء.

انقم الرجل لنفسه سنوات طويلة بعد الحادثة. قال -وأنا أدوي نفس الحرج بسعال حادّ انتابني على غير سبب، تغطيةً على الصوت بالسعال الملائم- ماذا ستفعل لإخفاء العبير؟ لا شيء طبعاً اللهم إلا الانفجار ضحكا.
البشر أكياس مليئة بنفايات تنتجها باستمرار؟ أمر ليس سهل القبول بالنسبة إلى ذات بها “أنف أن تسكن اللحم والعظم” فما بالك بأن تكون قمامة متجوّلة تصدر من حين إلى آخر روائح نتنة.

من حسن الحظّ أن هناك حواسّ أرحم بصورة الأدميين. خذ مثلا المعلومات التي تأتيها والشمّ مطبق بعناية حول حلمة ثدي منتفخ بالحبّ، والسائل الدافئ الرقراق يُبعد عنّا أبغض حالات الشعور؟

أليست أدوات المعرفة الأولى لدى الأدمي الشفتان والأسنان واللسان؟

النقطة القسوى في مثل هذا الاستكشاف تدنوّق وابتلاغ لا فقط ما يسيل من الثدي وإنما الثدي نفسه وكل ما يحيط به ويحمله.
مما يعني أنّ النقطة القسوى في أي مشروع لمعرفة الأدمي، أكل الأدمي.

أليس أقصى قدر من فهم الشيء استملاكه، أي جعله جزءا لا يتجزأ من الذات؟

لهذا يمكن القول إن أكل الأدمي كان وما يزال في العقل الباطني أعمل الوسائل لمعرفة هذا الذي هو مصدر كل خطر والمعين على كل الأخطار. من جهة نحن نتخلص جذريا بهذا الأكل من الخطر الذي يمثله. من جهة أخرى نخترل كل زمن البحث في أسرار ذكائه وقدراته ونحن ندمجها كلها داخلنا.

انظر طقوس كهنة الأرتاك وهم يستأصلون على سطح أهراماتهم القلوب الخافقة للأضاحي البشرية. كان الأمر يتم وسط أهازيج الشعب وبعد انتهاء الذبح كانت الأشلاء الدامية لقلوب ما زالت تنبض تُقدّم إلى مآدبة السادة يتذوقونها بمزيج من اللذة والخشوع.

قصص متوحشين لا أكثر! متأكد؟

عن الجاحظ، طيّب الله ثراه، بعضُ الأشعار التي تنبؤنا أن الأمر كان موجودا أيضا في ماضينا.

وأنتم أكلتم سحفة بن محدّم

زمانا فلا يأمنكم أحد بعد

تداعوا له من بين خمس وأربع

وقد نصل الأظفار وانسبأ الجلد

وقال شاعر آخر:

فأت الرجيع وسل عن دار لحيان

إن سرك الغدر صرفا لا مزاج له

فالشاة والكلب والإنسان سيان

قوم تواصلوا بأكل الجار بينهم

ثمة من قال في قبيلة تُدعى بني فقعس:

بني فقعس تأتنيكم بأمان

عدمت نساء بعد رملة فائد

جلا في قدور بينكم وجفان

وباتت عروسا ثم أصبح لحمها

وقال شاعر يهجو قبيلة اسمها باهلة:

تمششوا عظامه وكاهله

إن غفاقا أكلته باهله

وأصبحت أم غفاق تاكله

يبدو أيضا أنّ أجدادنا كانوا ذواقا وكانوا يعرفون أطيب أجزاء الأدمي:

كلبا فلا تجتروا بعدي على أحد

أبلغ لديك بني كلب وإخوتهم

كما أكلتم خصاكم في بني أسد

هذي الخصى فكلوها من نفوسكم

لا داعي للحرج والانكار فالظاهرة قاسم مشترك بين الأدميين، وُصفوا بالتحضر أو وُصموا بالتوحش.

قيل -والعهدة على المؤرخين- إنه كان لقوم في منطقة اسمها أوروبا، إبان عصر يسمّى النهضة، ملك عظيم راع للدين والفن والفلسفة، اسمه فرنسوا الأول. كان جلالته يحمل على الدوام في جيبه قنينة صغيرة من مسحوق اللحم الأدمي يمضغه متأنيا، يقينا منه أنه يدفع البركان الذي بداخله لمزيد التوهج. وفي أوروبا المتحضرة هذه، وُضعت أصول وقواعد لتذوق اللحم البشري. فبعد قتل الأدمي شنقا باسم الانتقام الشرعي الذي يسمونه "عدالة"، تُترك الأجساد معلّقة على هامات المشانق أطول وقت ممكن حتّى يتعفن أعلى الرأس، ثم يحصدون العفن يدفعون فيه باهظ الثمن. عادةً تمارسها بكل بساطة إلى اليوم قبائل أدغال الأمازون. هناك يجهّزون الميت بوضعه على النار حتى تحيله رمادا يمزجونه بالموز الطريّ ثم يتقاسمون بينهم المسحوق الثمين.

كان ديوجان -المسمّى سقراط المجنون- لا يفهم استنكار أكل اللحم البشري، بل كان يدعو بحماس إلى تذوقه باستمرار ودون أدنى عقدة. ربما فهم أنه لا معرفة حقيقية إلا عندما يتمازج الباحث والمبحوث فيه فيصيران شيئا واحدا.

ألم يكن نبلاء "الأرتاك" يبحثون وراء طعم اللحم الأدمي عن طعم الذات نفسها، أو حتى عن طعم الحياة التي تختزلها؟ ألم يكن هنود غابات الأمازون ينقلون سحريا زخما من المأكول إلى الأكل؟ ماذا عن الملك الفرنسي المتحضرّ؟

لكن في حال اقتناعك بالفكرة كأقصر طريق للمعرفة، من أين لك المادة الأولية وهي لا تباع إلا سرا وأوقات المجاعات فقط؟ ثمة إمكانية نشر إعلان على الإنترنت كما فعل أحدهم: "أرغب في أكل آدمي، فهل من راغب في أن يؤكل". فجاءه متطوّع مدّ عنقه للذبح ليشبع "الباحث" من البحث.

أنصح بتفادي هذه الطريقة وبوليس الإنترنت قادراً على تعقبك مهما استعرت من أسماء واستعملت من "بروكسي" ناهيك عن صعوبات التخلّص من العظام.

خذ العبرة أيضا من مصير آدمي من بلد اسمه أوكرانيا، قُتل خمسين امرأة وأكلهن جميعا وقال قبل أن يضعوا رصاصة في رأسه إنه خطأ من أخطاء الطبيعة، والحال أنّه كان مجرد فكرة من أفكارها.

ثمة مشكلتان إضافيتان تُحدّان من استعمال هذه المنهجية. الأولى تتعلّق بتبعات العملية على الصحة. من المعروف مثلا أن بعض الأدميين الذين أرادوا اختصار الوقت وتوفير الموارد بخصوص دراسة الدماغ، لم يجنوا من أكله إلا الإصابة بمرض يشع يسمونه مرض الكورو، لا نتمناه حتى لألدّ الأصدقاء.

لهذه الأسباب الصحية والقانونية ننصح بترك جانباً فكرة أكل البشر للتعلم في دراستهم ربما إلى أزمان أخرى قد تتطوّر فيها العادات والقوانين.

ما المدخل إذن لمعرفة ذوات لا توجد إلا بوجودها؟
طبعاً الاحتكاك والعلاقة المباشرة... بكل ما في الأمر من مجازفة والأدميون أخطر كائنات يمكن أن تلقاهم على طريق بخيل
بكل شيء إلا بالمنغصات والأخطار.

**

"الذين منهم كل وحشة" وكيف أن قدر الأدمي العيش مجهولا وسط جحافل من المجهولين

أخيرا مقعد في عربة مترو شبه فارغة. على الطرف الآخر ثلاثة مرافقين ومعهم بنت على وشك الخروج هي الأخرى من طفولتها. يصرخ أحد الصبية ليثير إعجاب البنت ولدعوة رفاقه إلى الاستعداد للعنف: هل تشمّون هذه الرائحة النتنة؟ أه، إنها لهذا الأجنبي القذر!

نعم، لم يكن الرحيل يوما سهلا على الأدمي، لا بحكم اتساع المحيط وضراوة الصحراء وعلو الجبال وفيضان الأنهار وأنياب الكواسر فحسب، إنما أيضا لأنه فلاّح يرفض له القيصر أو "الشوجون" مغادرة قرية وُلد ويجب أن يموت فيها، لأنه فقير أو عبد أو أنثى أو سجين على الدوام في وطنه وفي كل وطن، غريب، أجنبي ومشبوه. يجب تغيير الخطّ والنزول في المحطة المقبلة.

على بساط السجاد الآلي المتحرّك أقف لالتقاط الأنفاس آخذا كل الوقت لتأمّل البشر الذين يحملهم سجاد الاتجاه المعاكس. ثمة من قال بخصوص الأدميين: نحبّ منهم واحدا أو اثنين، نكره ثلاثة أو أربعة، والبقية من المجهولين لا يثيرون فينا إلا اللامبالاة.

شيء من التصحيح: عادة نحب من الأدميين أكثر من واحد أو اثنين، نكره منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، أما بخصوص الأغلبية من المجهولين التي لا تثير عند الكسالي إلا اللامبالاة فهي تثير فيّ على العكس فضولا عارما. تتدافع الوجوه المجهولة نحوي لتختفي مباشرة. عوّضتها أخرى كم هي مُشابهة وكم هي مختلفة. تداهمني صورة الرجل الماشي للنحات جياكوميتي. قدماه ملتحمتان ببساط الزمان، والمسكين يتخيّل أنه هو الذي يتحرّك. أما الوجوه فهي كما رسمها، بنفس الأضلع الحادة والملاح المتجهّمة الأبصار الشاخصة نحو الفراغ؛ بما يكفي من الوضوح لتكون وجوها أدمية، وبما يكفي من الإبهام لتكون لكل الأدميين ولأيّ واحد منهم تحديدا.

هذا وجه لم تزل في رسمه يد الرسام الأعظم. تُرى عن ماذا تبحث المخيلة الخفية وهي تصوغ مثل هذه الملامح؟ عن بسمة لم تصل إلى مصافي ما يريده على كثرة ما رسم من بسيمات؟ كم من نماذج أخرى سيخلق على مرّ عصور قبل أن يضع ريشته وقد علّت على محياه ابتسامة النصر. ماذا لو كان بصدد البحث عن مواصفات مبهمة لم تتحقق ولا حتى في هذا الوجه؟ الكلّ تائه داخل ذاته، مغرق في صمت حذر، لا تسمع إلا وقع خطى عصبية متسارعة، ومعظم الضجيج آت من الإناث بكعبهن العالي، كأن بهنّ إصرارا على مواصلة بثّ إشارات الإغراء حتى في مثل هذه الظروف ومثل هذا المكان.

هذه أنثى مشوقة القائمة كل النظرات مسلطة عليها من القادمين في الاتجاه المعاكس. عينان تلمع فيهما شهوة حادة. أخرى تفتعل اللامبالاة. قوة القاهرة تلوي عنقا لتلحق الذات ما فاتها. هذه نظرة مطوّلة للصيد يزن بفكره كم في الطريدة من طازج اللحم. ظلال من الحزن في عينيّ أرهقتهما الحياة كثيرا، لا تتوقف حتى على الوجه المثير، بريق غير عمياء تبعث فيّ قشعريرة، يأس موجع يلعب في عينيّ تفضلان النظر إلى الأرض سلّمنا بدوام الهزيمة وعبث النضال.

تختفي الحسناء التي شدّت كل الأبصار دون أن تترك لي الفرصة للاستدارة وإلقاء نظرة على الوجه الذي سحر كل الوجوه. ما الجمال؟ مسألة هندسية بحتة مرتبطة بدقة الرسم، إطلالة النموذج الأصلي في أنجح نسخه وتحديدًا في هذه التي تختزلها كله الآن وهنا؟ هذا عالم أغلى قيمه الجمال. محكوم عليك أن تُعبّره رائيا مرثيا، والكل يقيّم مدى قربك وبعدك منه. هل ثمة أصعب من الارتحال، والنظرات تنزلق عليك لا تتوقّف لأن نصيبك من الجمال زهيد؟ على العكس ما أروع أن تحدّق فيك عيون الجحافل ترنو إليك كما للنجم الساطع في حلقة الظلام. هذه نظرة خِلْتها ستتوقّف عليّ ولو لثانية لكنها لم تفعل. انزلقت ولسان حالها يقول: لا شيء في هذا الأدمي جدير بالاهتمام. كم هو مُخيف ألا أحد من هذه الكثرة الكثيرة عرفني أو انتبه إليّ، أو اهتم بي أو لاحظ كم أنا مرهق مهموم أو غبا بطموحاتي ومشاريعي أو استقرّته أفكاره. لكن متى انتهت أنا للأدمي المجهول أو اهتمت به، أو شعرت بالآمه أو عنّت لي هذه الآلام شيئا أو لاحظت كم هو مرهق ومهموم أو عبأ بطموحاته ومشاريعه أو اهتمت بأفكاره أو انتظرت منه شيئا. اللعنة! أنا أيضا ألقيت عليهم نفس النظرة العمياء، مسحت أشكالهم ببصر لا يرى، وهم يبصرونني بنفس العيون التي لا تبصر. من ينتبه لكون الأغلبية الساحقة من البشر الذين نتنفس وسطهم منذ الإفافة أغرابا لست لهم إلا نكرة ضائعة وسط جحافل النكرات. من قال منهم: "وُلدت مجهولا، وأملي أن أعيش مجهولا، وطموحي بعد أن أموت، أن أترك ورائي ما ينفع الناس دون أن أكلفهم عناء أن يذكروني".

كم مؤسف ألا أحد من هؤلاء الأغراب يقف مسلّمًا ولا أحد تستوقفه لتأخذه بين ذراعيك بالقُبل والدموع. كلهم كُنْتُبٌ مُحْكَمَةٌ الإغلاق لا ترى منها إلا العنوان. أما النص فحرام إلى الأبد ومع ذلك ما أسهل تصوّر ما فيه. ألا يكفي أن أقرأ في صفحات الذات لأقرأ في صفحات كل الذوات؟ ألا يمشون في الطريق الذي أمشي فيه. أغلبهم مؤمنون بأنهم صرّة العالم، مقتنعون أن الأقدار ظلّمتهم، منغلِقون على أسرار بانسة، متخبطون داخل شبكة من الأوهام طرزها لهم الأوائل

والمعاصرون، عاثشون على تخوم الأخلاق والقانون، مصطدمون على الدوام بتحديات مستعصية على الحل يواجهونها باستراتيجيات في منتهى الغباء، يحملون قصصهم كالمسيح صليبه على ممشى الآلام، ومع هذا يا لحيويتهم وهم يركضون في كل اتجاه كأنهم وُعدوا بكنز لا يعرفون له مكانا.

خليط من الأحاسيس والمشاعر يتلاطم داخلي وأنا أنقل النظر بين الوجوه والظهور: التعجب، الإعجاب، الكره، الحب، الحنو، الأسى، ربما الشفقة؟ نعم الشفقة، حقًا يا للمساكين!

"كم تسكعت شرقا وغربا! (أغنية صينية)

كم لاقيت من البشر!

ولا وجه أتذكره

تعبت حقائبي

ظلي وحده الرفيق"

يصل السجاد المتحرك آخر النفق فأفبق من ذهولي وقد توقف الهمس داخلي وبدأ التدافع المحموم نحو مختلف المدارج المؤدية لهذا الخطّ أو ذلك والإشارات الصامتة هي الدليل.

أي كابوس لو انطفأت كل الأضواء نهائيا واضطرت هذه الجحافل المتدافعة في جوفها إلى اكتشاف طريقها في الظلام.

ينفرط الجمع ليتشكل آخرُ بدله، بعيدا سيتفكك بنفس السرعة ولا أحد يتوقف ليقول لي مَنْ هو ومن أنا وماذا نفعل كلنا هنا.

يبتسم لي أحدهم وفي عينيه شيء من المرح والعطف ليختفي بدوره في الرحمة. آدمي أصبح أخيرا إنسانا يقول لي: تشجع ثمة مخرج لنا جميعا من كل الأنفاق!

لا غرابة في الأمر فمن هذه الجماهير المتجهمة الموحشة التي لا تنتبه لوجودك أصلا يخرج لك دوما من يحبك في البشر ومن يبغضك فيهم.

يجبرني المجهول الماشي أمامي على التوقف وهو يفعل الانحناء لإحكام ربط حذائه. يلتصق بي مجهول آخر من الخلف، يدخل يده في جيبي للاستيلاء على ما فيه. في مثل هذه اللحظات يتصرف الجسم بغير حاجة إلى قرار من الأنا الواعي. هكذا شعرتُ برجلي اليمنى تبادر بركلة غليظة في المؤخرة المعروضة أمامي، وببيدي اليمنى تمسك بيد اللص وببيدي اليسرى تسرع لخناقه. تصرخ امرأة يبدو أنها تابعت الحادثة بانتباه شديد: برافو يا مسيو، أنت على الأقل لست صيدا سهلا، هؤلاء اللصوص لا يستحون. خذ بالك، هرب الأول، والثاني بصدد الإفلات منك. يا بوليس، يا بوليس!

اللعنة! مَنْ قال لهذه الغيبة إنني أريد البوليس. كل ما أريده، وقد استعادت الإرادة الواعية تحكمها في آليات الجسم، أن أعتذر لمن ركلت، أن أدعو الذي تملص مني لفنجان قهوة ليحدثني عن أحوال اللصوص وما يعانون من عالمٍ كثر فيه البوليس. لم يبق إلا دعوة هذه الغيبة لتناول القهوة التي فوتتها على المسكين لتمدني هي بتصريح مطول، عليّ أزيح بعض الغرابة عن الأدميين بصفة عامة وعن النمط الأدمي الأكثر انتشارا: "الذي منه كل وحشة". لكنّها اختفت عن الأنظار هي وكل الذين ألقوا نظرة خاطفة على المشهد وتدافعوا كل واحد وراء قطار خطّه لأبقى وحيدا في مواجهة المعضلة.

تلفظني أروقة قطار الأنفاق نحو الهواء الطلق. أخيرا الشارع الرئيسي للمدينة التي سأقضي فيها سنواتٍ أخرى من النفي، وقد قيل الدكتاتور التافه الذي سممت حياته وسمم حياتي أن أخرج من البلاد، أتركها له ولزبائنه يعيشون فيها فسادا وظلما. على طوله مظاهر الزينة، أجملها أضواء زرقاء رُصعت بها أغصان الأشجار. يحتفلون بقدمي؟ لا يا عبيط إنه عيد الميلاد. على الرصيف المكتظ السواح والمتسولون والباعة والهاربون أمثالي من القمع والفقير. داخل المقاهي والمطاعم فقراء جاؤوا يفتعلون الثراء وأثرياء جاؤوا ليبهروا الخدم بمكرماتهم الخيالية.

فجأة ألتفتُ خلفي مدفوعا بقوة قاهرة لأهز الكتفين وأنا أتذكر أنني خرجتُ أو قُل طُردتُ هذا الصباح من بوليسستان، أنني أمشي حرا لأول مرة منذ سنوات ولا مخبر أُلصق بيني وظلي ينتفس في عنقي.

لم أشعر كم أنا غريب إلا بين ذوي القربى. ولم أحسّ كم أنا منفيّ إلا داخل حدود بلدي. ليحلموا به هم وليُعنوا: "سنرجع يوما إلى حينا". ليكتبوا الأشعار عن مفاتيح بيوتهم التي تركوها في الأندلس وليحرقهم الشوق والحنين إليها. أما أنا فوطني العالم كله لا مجرد قطعة منه. كل مَنْ حولي الآن مواطني وهذه المدينة وطني وهي ملاذ كل الغرباء الذين استجاروا بها، سواء جاؤوها من أقرب الأرياف أو من أبعد الغابات والصحاري، سواء وصلوها قبل ألف سنة أم البارحة مثلي.

ورائي قوس النصر. على مَنْ؟ على ماذا؟ لا أحد يجهل اسم الجزار الكبير الذي رفعه، لكن مَنْ يعرف اسم الضحية التي ترقد تحته؟ الجندي المجهول! مجهول لمن؟ قطعاً ليس لأمه وأبيه ولحبيبة انتظرت رجوعه عبثا. على فكرة، ما اسمه، كم كان له من العمر يوم قُتل؟ كيف كانت آخر لحظاته؟

كل ما يُعرف عنه أنه كان جثة متعفنة أُخرجت من أرضٍ عرفت أكثر حروب الأدميين وحشية وغباءً، أنه كان واحداً من بين ثمانية قتلى آخرين، أنهم أخذوا الأشلاء ثم اختاروه هو في نوع من القرعة، والجائزة أن يمثل كلَّ الذين التهمتهم الحرب ولم يحفظ لهم التاريخ مآثره أو اسماً. يا لها من جائزة أحرزها ولا علم له بالشرف الأثيل! أيّ قارئة فنجان كانت تتجرأ لتقول لأم المولود الجديد إنه سيعيش نكرة وسموت أبشع مَيِّتة، لكنه سيصبح من المشاهير حتى ولو أنه سيظل نكرة يقف ملايين الصغار والكبار إجلالاً أمام قبره ولا أحد يعرف الاسم الذي أعطته له.

ربما هو المحظوظ وقد ذهبت جِلَّ قصص سكان هذه المدينة مع الريح. يصل الطريق ساحة مترامية الأطراف كانت وما تزال هي الأخرى شاهدة على كمّ هائل من أفطع قصص الأدميين. ثمة من حسبوا كم من رأس بالضبط سقط في هذه الساحة وتوصلوا لرقم 1119 منهم من كان برتبة ملك. المسكين! ماذا دهاه ليولد ملكاً، أو بالأحرى ماذا دهاه ليولد ملكاً في غير الزمان المناسب! يوم يتوقف بنا الطريق، سيبقى العالم يعجّ بأماكن لم نصل إليها، بكائنات لم نعرفها، بقصص لم نسمعها، بأسرار لم نكشفها. وهذه المدينة غيرُ عابئةً بدخولنا أو بخروجنا هي صورةٌ مصغرةٌ منه. انتبأه لاختلاجية، امتعاضٌ هنا وعلامات نفاذ صبر هناك. يجب أن أتحرّك بسرعة؛ لا مكان هنا لمن يسدّ الطريق والويل لمن يتلكأ.

ليسر عوا إلى حيث يريدون؛ لست مهتما بهم وكل انشغالي مُنصبَّب على أشباح نساء ورجال خلقت رؤوسهم وأيديهم مقيدةً إلى الخلف كُدسوا فوق عربات مجرورة بالخيول والثيران. إنها شحنة اليوم للمقصلة التي أدركت لها ظهري هي وقوس النصر. أريد نسيانها معاً. ثرى ما الذي كان يعتدل داخل رؤوس على وشك السقوط جاحظة العينين في قفّة معدة خصيصاً لتلقفها؟ هل تكون هذه المرأة التي تبتّ على كل الأمواج قدراً لا يُحتمل من الألم هي الملكة التي تضافرت عليها كل الأحقاد وساقوها في مثل هذا الموكب كما ساقوا زوجها من قبل؟! المسكينة! ما الذي دهاها لتولّد ملكة، وفي غير الزمان المناسب. لو جاءت قبله أو بعده لربما أصبحت أم الشعب والقديسة التي تتبرك بها العجايز والعداري؟

كيف الإفلات من صُراخ صامت يملأ الفضاء ويتعالى من مبانٍ متجهمة تقع على بُعد بضعة مئاتٍ من الأمتار. ترتجّ الذات لعويل طفل خرج أبوه للمقصلة وتبعته أمه التي أجبروه على القول إنها كانت تضاجعه. ما الذي دهى هذا الطفل ليولد أميراً ووليّ عهد ملكٍ على وشك الغروب. ربما كان سيصبح أكبر الملوك حكمة لو أسعفته الأقدار بشيء من العون. لكن طاولة القمار سحبت له سيناريو سيموت فيه كمدا قبل بلوغ العاشرة في دهاليز قصر مخيف. مأساة بلا أدنى أهمية لعالم لا يحصي، لا يتذكّر ولا يعبأ بكل ما عرف من المآسي. مأساة لا أهمية إلا لها بالنسبة للذات التي عاشتها. في هاتين الخاصيتين المتناقضتين جوهر قصة كل آدمي.

مدفوعاً بعادة تأصلت على مرّ السنين، والمخبرون ورائي في كل خطوة يحصون أنفاسي، ألتفتُ خلفي مرّة أخرى. لكن هذه مدينة بسطت عليّ حمايتها يسعني أن أمشي فيها بأمان. على يساري البرج الحديدي الذي أصبح رمزا للمدينة والمطلّ على نهر هو منذ نشأتها شريان يضحّ في جسمها حيوية التجار والمهربين والمسافرين والغزاة.

وراء الواجهات المنمقة لهذه المدينة يختفي الوجه المظلم لشبكات الاستغلال والاحتيايل والتجسس والدعارة والجريمة. هي ككل تجمعات البشر غاب وأغلب من فيه منهمكون في صراع البقاء بمعونة الآخرين إن أمكن، وعلى حسابهم إن تعدّر الأمر. تصلني كاللطمة المفاجئة على الأنف لعنة سكير اتخذ الأرض فراشا ولم أنتبه له. واحد من الكثيرين الذين غرقوا في خضم مدينة تلفظ باستمرار على شواطئها أجساداً مبللة بالبول والكحول والعرق. آدمي آخر لم تُحابه أكثر الطاولة اللعينة.

هذا جبل القديسة التي حمت المدينة ممن حاولوا اغتصابها وهي لا تطيق إلا من يغازلها طويلاً. يا سيدتي جنفياً، خفي من آلام روح الطفل ليجد العزاء أخيراً، ارحمني هذا المنتسرد، وبما أنك في مزاج رائق وبالرغم من انتمائي إلى قوم لا يحبهم قومك وإلى دين ليس الذي تدينين به، لا تنسني آلامي فقد خذلني أسياد وسيدات الأب والأم.

يحدّق فيّ الشحاذ الثمل بفضول. يمدّ يده بشره إلى قطعة النقد، ثم يصرخ بأعلى صوت: “بونبول”، تفه! الوغد! يقاوم محاولتي فتح راحته لاستعادة قطعة نقدٍ أسنتمها في صدقة تعود عليّ بالدعاء لا بالشتم، بل ها هو يصرخ: النجدة أوقفوا هذا اللص الأجنبي!

لا يبقى أمامي سوى الفرار، وكأنني السارق وهو المسروق. كل شيء موجود في هذا العالم فلم لا يوجد فيه شحاذ عنصري؟ ما يجهله هذا الشقي أنني أجنبي مرخص له في الوجود وليس كالغرباء الذين يختبئون في الأقبية خوفاً من اكتشاف أمرهم وترحيلهم خارج الحدود.

كم مشيتُ في شوارع هذه المدينة المترامية الأطراف لا وهم لي حول ما يدور بيال من يُلقون عليّ نظرة متجهمة: أجنبي من جنس الإرهابين، خطر، مهيد للنظام، لخزينة الدولة، للصحة العمومية، لا يُرجى منه مصاهرة أو حتى مصلحة عابرة. الغريب في الأمر أنني لست وحدي الغريب الذي يمشي في هذا الشارع، ولا أعني فقط الأجانب بالأوراق الرسمية أو المزيّفة وإنما سكان المكان أنفسهم. لماذا أكون أنا غريبهم ولا يكونون هم غربائي إضافة لكونهم وإن ولدوا في هذا البلد وهذه المدينة هم مثلي عابرو سبيل.

في كل الحالات توجد الآن في محفظتي بطاقة بلاستيكية سأعيش على هاجس فقدانها أو سرقتها مدّنتي بها سلطات البلد -ببالغ الامتعاض- تحفظني مؤقتا من عنف الذين يدعون أنهم ليسوا غرباء في هذه المدينة.

قد يكون من مزايا هذه البطاقة تظميني حول هويتي، ففيهما معطيات مكتوبة عن اسمي ولقبتي وموضع ولادتي وزمانها وسلسلة طويلة من الأرقام يبدو أنها تحدّد ليبرو قراطية مخفية من أكون.

لا شيء من كل هذا يجعلني أقل غربة فأعرب ما في الوضع أنني غريب حتى لنفسني. تُبادراني فجأة صبيتان وابتسامة بلهاء على الشفتين.

- هل تعرف الرب؟ هل تدرك إلى أي مدى يحبك؟ أتريد نسخة من الكتاب المقدس؟

- لا، شكرا، عندي أو هامي الخاصة في كل ما يتعلق به، أما حُبّه للبشر فكم أودّ أن يكون أكثر وضوحا، خاصة هذه الأيام.

أخيرا الحيّ الذي ذرعه سنواتٍ شبابي في كل اتجاه أبحث عن أجمل حبيبة وأندر كتاب.

لا أحب إليّ من مقاهي هذه المدينة. داخل زحمتها اللطيفة يخفت أنين العفاريات، لا تسمع إلا بعضا من ثرثرة النساء وتغزل الرجال ومزح النادل مع زبائن نادي الصبر. لا أظن أحدا انتبه لدخولي أو يعرفني أو سيجلس إلى طاولتي لتحريرك أو جاعي. صدق من قال إن البشر كحيوانات القنفذ إذا اقتربت منهم كثيرا بحثا عن الدفء لسعّتهم ولسعوك، إن بُعدت عنهم كثيرا عانيت من البرد. أنا الآن على المسافة المثالية أو هكذا أتخيّل، أبحث عما بحثت عنه دوما: الدفء دون لسع.

أعود إلى المشي الوجهة الآن المكتبة العظمى محققا بفصول بين سخريّة مكتومة وتعاطف لا يجروّ على الجهر في المجهولين الركضين من حولي في كل اتجاه.

كلّهم مثلي يبحثون عن طريقهم في مدينة يظنون أنها مدينتهم وهم لا يقلون فيها غربة عن غربتي ... كلهم استكشفوا ثوابت الطيف الواسع للأحاسيس والمشاعر التي هي قدر كل الأدميين..... كلهم تقلّبوا بين الحزن والفرح ، بين النجاح والفشل، بين الخضوع والثورة، بين اليأس والأمل ..كلهم لعبوا الأدوار الاجتماعية التي فُرضت عليهم أو اختاروها مقامرة وتهورا...كلهم دفعوا ثمنا باهظا لما أهدتهم الحياة من قليل الميزات ...كلهم سيرحلون عن هذه الدنيا يد فارغة وأخرى لا شيء فيها ..كلهم لهم قصص لا تبعد كثيرا عن قصتي إلا في التفاصيل داخل التفاصيل.

على يسار النهر ومن هضبة متواضعة، تتعالى نحو السماء أربع عمارات في شكل كتب مفتوحة، تواجه بعضها البعض. يُقال إنها تحتوي على كل ما جاد به الفكر البشري من كُتب. الشّد والجذب الأزلي بين السيف والقلم. في الطرف الآخر للمدينة قوس النصر وعلى حدودها الشرقية هذا الرمز. هذه المدينة نصّ عظيم مكتوب بالدم، بالعرق وبالحرير، والكاتب التاريخ. الأمر الذي تقرأه في كل السطور: فكّر من خارج كل الأطر، تمرّد على كل الصيغ، جدّد ولا تتوقف عن الإبداع، كلّ شيء مقبولٌ إلا الرداءة. جوّ كهذا هو جرعة الأوكسجين للمخترق وتفتح الطيب لمن عاش والنتن يملأ خياشيمه.

صخبٌ مفاجئ على يساري. متشرّد يرمي بقمامة من صفيح على الأرض يفتش فيها هو وكلبه عن شيء يؤكل.

من قال: الخيار أن يتصفّح القلب أو أن ينفجر؟ تصفّح قلبي ألف مرة وانفجر ألف مرة ومرّة، أمام الشحاذ العجوز الجالس ذاهلا على باب العمارة، أمام الطفل القابع تحت السيارة يستنشق دخان المحرك، أمام المتسوّل المضطجع أرضا في رواق المترو وكل أمتعته في حقيبة مكسورة بين رجليه، أمام المراهق التائه في أحراش خياله يتأرجح على نفس المقعد من الصباح إلى الليل، في أماكن بشعة يتكدس فيها من أفقدتهم المصائب كل صواب. أي غرابة أن يقفز البعض خارج البساط السيار، أنهمكهم الطريق وأرعبهم، أو قد يكون هو الذي رماه جانبا، ضاق ذرعا بجملي ليس من ورائه نفع؟! كم من حُطام بشري سارى على ضفتي هذا الطريق اللعين، إلى أن يأتي دوري ضحية أي لغم!

"الطريق ليس صعبا،
(كبير كجاردا)

الصعب هو الطريق."

أجلسُ إلى النهر، ورائي الأبراج الأربعة المثقلة بكل ما كتب الأدميون عن الأدميين. ليس أمامي الآن إلا الضواحي البعيدة ومنها التي ستلتهم سنواتٍ من عمري في معالجة أفقر سكانها. إنهم آخر من تدافعوا من أقاصي قارة منكوبة هربا من الموت وطمعا في الحياة. أغلبهم ارتحلوا كما كان الأوائل يفعلون: بلا مال ولا دليل ولا خارطة ولا رخصة عبور من أحد، والسفر مغامرة كبرى رهانها الحياة أو الموت.

إنهم آخر من تدافعوا على الطريق المؤدي إلى هذه المدينة لا يعلمون أنها المرفأ والعاصفة.
لا شك أن بينهم كُنَّابا سيضيفون مقاطع جديدة إلى ملحمة الأدمي وهو تائه في الصحراء بلا ماء ولا أمل، أو غريقاً أنقذ آخر لحظة من برائن البحر، أو مغامرٌ يائس يائس يخرق الجبال خلسة ليلية صقيع يُمَرَّق أحشاءه الجوع، لينتهي على أعتاب المدينة شبة ميّت من الإرهاق، صارخاً: يا ملاذ المضطهدين لا تصدّيني، ويا واحة النور لا تحرقني جناحي.
هل ثمة في هذه المدينة أشجار كرز وهل فيها ربيع تزهّر فيه حتى يمكننا أن نغني؟
"تحت أزهار الكرز (إيسا)"

لا وجود بيننا

أبداً لغريب"

**

بشهادة شاهد من أهلهم وأن الأدميين هم "الذين منهم كل نقمة"

تسألني، "ما" عن أحوالي بعد كل هذه السنين من الغربة.
أنفجر في وجهها وقد طلعت من أعماقي كل الشراسة المترسبة فيها:
- يا أسوأ دليل، يا مجرمة في حق خمسة صغار، أي محكمة تتصنفي منك؟
تبهت ربع ابتسامة الأم. تقطّب جبينها:
- آه يا طفلي الصغير، كم أنت مروجع هذه الأيام.
تتردد كأنها تخشى فتح موضوع والأمر غير مضمون العواقب ثم تقرر الثبات.
- قل لي كيف كان عليّ أن أفعل؟
- تسأليني كيف؟ اسمعي يا جاهلة كيف كان عليك إعدادنا لمواجهة الأدمي البغيض.
أثبّ أمامها لأمتلّ الدور فتضع يدها أمام فمها تحجب ربع بسمتها، وبيدها الأخرى تمسح دمعة.
تدخل الأم الجديرة بأمومتها عنبر نوم الأطفال الخمسة في الرابعة صباحا بفتح الباب ركلا بالرجل.
يتعالى الصراخ منها حادًا أمرًا نافذ الصبر: انهضوا، ماذا تظنون؟ أن الحياة ستنتظركم، أنني سأنتظركم؟ أفرطتم في الدلال
وسأعلمكم أننا في هذا العالم اللعين لا ندللّ أحدا.
يثب الأطفال من فراشهم مرعوبين.
يتصاعد صراخ الأم المتخرّجة من الأكاديمية العسكرية المؤهّلة وحدها لإصدار تراخيص الأمومة: يا الله، بأسرع من هذا.
تفتعلون عدم سماع ما قلت. اللعنة! من ثناءب؟ من؟ أنت، إلى العزل، تيكلي! واللّه لأقطعنّ عنك هذه العادة ولو تطلّب الأمر
أن أقطع لسانك. انتهى العهد الذي كنتُ خلاله أرميك في الشارع دون إعداد مُحكم. وأنت يا بنت، خمسة جلدات هذا الصباح
لنتعلّم الوقوف السريع عندما أصرخ بالأوامر. أنت الطفل رقم 2، قلت: ممنوع مواسة الأخت. سنذهب مباشرة إلى الخزانة
تقضي فيها النهار مباشرة بعد نهاية التمارين. وأنت كبير الأطفال ازحف على بطنك حتى الباب إلى أن تتعلّم عدم رسم مثل
هذه السحنة على وجهك.
قطعة خبز جافّة وبعدها مباشرة التمارين.
يبدأ الأطفال بالركض في بهو المنزل ساعة كاملة على طريقة مشاة البحرية في أفلام هوليوود.
يأخذون في الغناء على طريقة الجنود الألمان في الحرب العالمية الأخيرة: "هايلي هايلو هايلي"، نحن للألم مستعدّون، نحن
للهوم متأهبون، نحن للأعداء متحقّزون، الويل للذي منه كل نقمة، إننا منه لمنتمقون.
مباشرة تمارين الجودو والكاراتيه واستخدام السلاح الأبيض والمسدسات الكاتمة للصوت للتصفيات الجسدية.
بعدها التمرين النفسي للصبر على الأذى وحسن استعماله ضدّ الآخرين، كل الآخرين.
أبدأ بضرب أصغرنا ضربا مبرحا فتشجعيني على الضرب.
أصرخ فيه مرّة أن يستكين ومرّة أخرى أن يدافع عن نفسه.
الويل له إن ارتمى في أحضانك مدفوعا بعادات قديمة ما زالت مستحكمة. يأتي ردك صارخا: أتريد أن يسخروا منك طوال
حياتك؟ أنت الذي ستقول لهم: عودوا إلى أمهاتكم. نعم، لا أمّ لكم في هذا السيناريو وإنما دليل كفاء يعلمكم العالم على حقيقته
والأدمي على طبيعته.
بعد انتهاء حصّة الإذلال لتقوية غرائز العنف يجب التدريب على التعرّف على السحن والطباع للتمييز بين الأقوياء الذين
يجب تفاديهم والضعفاء الذين يجب ركوب ظهورهم.
آخر دروس الصباح تعليماتك بخصوص فنون القسوة والخديعة.
بعدها تكون الكتيبة العائلية على أهبة الاستعداد للخروج إلى "الذي منه كل نقمة" ومواجهة القاسي النذل الخطر.
نعم، هكذا كان عليك أن تربي أطفالك أيّتها الأم الفاشلة.
لأول مرة في حياتي وربما في حياتها أرى "ما" تضحك إلى أن يأتيها السعال.
- أما أنا فلا رغبة لي في ضحك وإنما في أدمي-أي أدمي-أفشّ فيه غيظي ضربا بالحذاء ولم لا برصاصة في صدغه.
- كم أخفنتي ذلك اليوم عندما وجدتك بين غلب السلاح تبحث في كيفية إدخال الرصاص في سدّس. يا إلهي، لا أضدق إلى
اليوم أنك كنت تريد حقا الخروج به إلى المدرسة! كيف اكتشفت هذه الأسلحة اللعينة؟ حالا طلبت من خالك أن يأخذها إلى
القرية وهي منذ تلك الحادثة مدفونة عميقا تحت إحدى شجرات توت البستان.
- ماذا فعل "با" عندما اكتشف خيانتك للمقاومة الباسلة؟

يلمع في عينيّ "ما" نوع خفيف من المرح، ممزوج بقليل من الشماتة، يخالطه رحيق من المكر، تزيد من تعقيد مكوناته سخرية خفيفة يتخللها صدى إعجاب خفي بالرجل الذي ابتليت به بعلا.

- هل تظن أنه كان يتدكّر أنّ بيتنا من بين المخابئ التي يخفي فيها أسلحته؟

المهمّ أن هذا طفل لم يكتشف -لحسن الحظ- كيف تُستعمل المسدّسات، وإلا كان طريقه سوف يأخذ اتجاهًا جدّ مختلف. تصوّر عنوان جريدة الصباح (بالأحمر الغليظ): "طفل في التاسعة يدخل القسم بمسدّس يقتل زميلا ويجرح المعلّم الذي حاول التخلّل. البوليس يكتشف أنه ابن إرهابي مطلوب وأن بيته مخزن سلاح للخارجين على القانون".

بصراحة ألم يكن من حقّه أن يفكّر في امتشاق السلاح لدخول قسم فيه ذلك الكمّ الهائل من الخصوم، وبعضهم من الراسيين الأزرليين يسومون من هم أصغر منهم استبدادا يُنذر بما سيأتي من كل أصناف ظلم الأدمي للأدمي.

ابحث دوما -وراء الهدف المعلن- عن الهدف الخفي وراء المؤسسات التي يخلقها الأدمي، ومنها المدرسة. وستكتشف أن أهم مهمة لهذه الأخيرة ليست تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب.

أين تعلّمنا لأول مرة الوقوف في الطابور والانضباط للأوامر وتطبيق التعليمات والتعرّف على سلّم الرتب والمسؤوليات والتدرّب على أبجديات القتال، وكلّ صغير يجربّ على من هو أصغر منه؟

داخل الفصل يبدأ باكرا تلقين كل أطفال العالم تواريح انتصارات دموية مرعبة، وأسماء كبار الجزائريين. ثم تُغرس فيهم البنور المسمومة، لتتطلق أحلامهم بالمشي أمام كتائبهم لنصرة قوم هم أحسن الأقوم.

وسط ساحة المدرسة، يُترك للأطفال أنفسهم مهمة تدريب كل قادم جديد، على مواجهة العنف الغريزي للجنس البشري - والحمد لله دون سلاح سوى القبضتين-وما على كل صغير إلا تدبّر أمره، ليتعلم باكرا أبجديات الصراع من أجل البقاء.

يواجه الطفل خصمه منتبها لأول مرة أنه فارغ الطول مفتول العضلات يزيد عليه بعدد من السنين. تأتيه رغبة عارمة في إطلاق ساقيه للريح. يختار الطفل بسرعة المواجهة، ربما لأن أمر الأب الجبار المتواصل داخله أن الاستسلام أمام إنس أو جان ممنوع،

ممنوع، ممنوع. تضيق ضرباته في الهواء لا تصل أبدا الوجه البيض. ثم يندلع الألم فظيما ما بين الفخذين ينذر بضرورة شدّ الانتباه لهذه المنطقة بالذات في كل المعارك التي ستأتي. لا يسقط على الأرض إلا لينهض، لا ينهض إلا ليسقط تحت ضربات قبضتين كأنهما صنعتا من حديد ورخام. يستجد بكل ما بقي فيه من وعي وحيوية لينتصب من جديد على قدميه المترنحتين ليسقط مرة أخرى، ليعاود الانتصاب وكأنه أصبح آلة تتحكم فيها قوى مجهولة.

يلمح من خلف انتفاخ عينيه نظرة الاستغراب في وجه المعتدي وصورا مشوشة لأطفال يتهايمسون، كأنّ شيئا كالقلق بدأ يستشري بينهم. ربما أرعبتهم شلالات الدم من الأنف والفم. فجأة تتوقف ضربات المطرقة. يطلق المراهق ساقيه للريح، أيقن أنه أدب خصما عنيدا يتبعه أصحاب أحرصهم صمت متعجب قلق.

هكذا يتعلّم كل طفل بمثل هذه التجربة كم هو رخو في هذا الموضع وصلب في موضع آخر، كم هو شديد الحساسية في هذا الجزء وقليلها في جزء آخر، والقبضة الموجهة للخصم هي التي تدرّسه طوبوغرافيا جسم ما يزال جاهلا بما فيه من إمكانات المتعة والعذاب.

هكذا يتعلم كل طفل ماذا بداخله، وهل هو رخو الروح أم أنّ فيها صلابة ستمكّنه من مواجهة كل المعارك التي تنتظره في ساحات كل المدارس والمعاهد التي سيمرّ بها الطريق.

يستبطن الطفل منذ ذلك اليوم المشهود أن الشجاعة ليست ألا تخاف وإنما أن يعترض الخوف منك الأحشاء فترفضه، أن يصرعك فتغلبه، أن يزيّن لك الاستسلام فتلفظه. بتكرار مثل هذه التجارب -سواء كانت معارك أطفال ومراهقين بالقبضتين أو معارك شباب وكهول بالأفكار أو بالمؤامرات- تترسّخ عنده القناعة التي ستتحكم في كلّ تصرفاته إلى نهاية الطريق: إن انتصرت على خوفك لن ينتصر عليك أحد.

مأساة كل الذين استسلموا للخوف أنهم سيعيشون طيلة حياتهم فريسة هذا الأدمي وقد لبس أبغض أقتنعه بل هم بجبنهم من يبلورون فيه خاصية من أخطر خصائص البشر ألا وهي نزعة العنف واقتراس الأضعف.

يواجه طفل سيرفرض دوما أن يكون فريسة أو مفترس الوضع وكلّه سعادة بأنه لم يستسلم لخوفه، مرّجنا مشكلة الأكذوبة المفضوحة التي سيبرّر بها حالة ثيابه ووجهه.

كيف؟ نفدت كلّ أذار السقوط: من السلم عند مسح الخريطة بأمر من المعلّمة، من الشجرة لمحاولته إنقاذ عصفور جريح، من الكرسي في الفصل، لم يبق إلا الكرسي ليسقط منه.

تأخذ "ما" بيد طفلها، لا تخفي وراء شبح ابتسامه حزنها المتواصل:

- لا يمكن للأمر أن تتواصل هكذا، أليس كذلك؟
- برأسك "ما"، لم أكن يوماً البادئ. لا أفهم حتى سبب عداوتهم. ماذا أقول لـ "با" يوم يعود؟ إنني تركتُ كلبا منهم يعتدى علي ولم أدافع عن نفسي. لا مجال لهذا!
تعود "ما" إلى محاولاتها العقيمة والمرأة المسكينة إلى النهاية أسيرة التصورات الساذجة عن الأطفال بصفة عامة، وعن طفلها على وجه الخصوص.
- عديني أنك ستكلم أقرانك غدا لتسأل عن أسباب العداوة. ربما هناك لبس يُسوّى بالحسنى.
- لا، أبداً، أنا أكرههم.
- إنهم أترابك وأبناء الحي، منهم أقارب وجيران، ربما أسأت إليهم دون أن تشعر. الكلام فرصة لرفع كل سوء تفاهم.
- "....."
- لا بدّ أن تكون أكثر لطفاً وبشاشة. نعم، هكذا أفضل. يا بني، الابتسام مفتاح القلوب. كم هو رائع أن تتصالح مع رفاقك وأن تستمتع باللعب معهم من جديد.
تهمس "ما" في أذن جارةٍ جاءت تسلي عنها همومها.
- إنه ولد طيب. لا تتصورين كم يتعسف عليه أخوه الأصغر وهو لا يردّ الفعل. لا أدري لماذا أصبح بمثل هذا العنف وماذا يجب أن أفعل معه.
يعود الطفل إلى البيت من الغد في قمة الهيجان والمرح، يصف يوماً من أيام العرب ولو بشيء من المبالغة، حتى لا نقول بالكثير منها.
- أعملتُ في أولاد الكلب قبضتي. صمدوا بعض الوقت، ثم فرّوا يستجدون بالمعلم. كنتُ كسيدنا علي في هجومه على الكفار. على فكرة، السيد المدير يطلبك غدا لأمر يهّمك.
تدير "ما" ظهرها للطفل لا تخفي غضبها. كيف بفسر لها أنه وفي بوعده، أنه ذهب طالبا السلام، أنهم سخروا منه شتموه وهو يسألهم عن سبب عداوتهم.
- أرجوك، اسمعيني. يدعون أنّ "با" يأتي للمدير بالهدايا كلّ يوم لأحصل على أحسن الأعداد، لذلك أنا أولهم.
تفتح "ما" فمها من الدهشة. تغلقه بسرعة لا تنبس ببنت شفة. يستسلم كلّ واحد لطريقته في التعبير عن نفس شعور العجز والاستنكار، الأم بالبكاء الصامت والابن بالغضب والصراخ.
سبحان من جعل أطفال الأدميين ملائكة أطهارا يفقدون براءتهم بتقدّمهم في العمر، والحال أنه لا أشرس ولا أعنف ولا أظلم ولا أشدّ أنانية و نرجسية من الأدمي وهو طفل. أليس جلّ ما نعانیه من بعضنا البعض تواصل الطفولة فينا؟ أليس كلّ طاغيةٍ طفلا رفض أن يكبر محاولا إلى آخر كارثة إملاء إرادته على أمة يريد لها أمة؟ لا يوجد متوحشون على سطح هذه الأرض إلا الأطفال، مما يعني أن التوحش موزع بالعدل والقسطاس على كل الشعوب، أنه لا أمل في القضاء عليه حيث لا نهاية للأطفال مع بالغ الأسف. كم ننسى أننا تكبر كلنا في العمر بتعاقب السنين. لكنّ عداد النضج يتوقّف عند الكثيرين من بيننا ليثبت على تصرفات الطفولة. فنبقى نعانى طوال الرحلة من أطفال في الأربعين والخمسين وحتى من أطفال في أرنل العمر. كيف لا أنفجر ضاحكا ودهشة الحاضرين تزينني مرحا، وأنا الوحيد الذي يسمع -في أوج معركة كبار أهل الدين والعلم والسياسة- أصواتا حادة تتصاعد من حناجر الكهول.
يربك، ألم يأت الوقت ليتحمّل أخيرا أحدنا مسؤولية قول الحقيقة بخصوص الأطفال، وأخطرهم الرضع؟ لا أحمل أيّ واحد منهم -وهم يضعونه بين ذراعيّ عنوة لأقبله وافتعل الإعجاب بجماله ونباهته المبكرة- إلا على مضض. هلعي الكبير أن يتبول عليّ اللعين أو أن يغتنم الفرصة لإصابتي بأحد أمراضه المعدية الكثيرة. ثمة أسباب أعمق لخوفي من الأطفال عموما ومن الرضع على وجه الخصوص. بالله عليك، هل وُلِد هو لاكو، أو هتلر، أو ستالين، أو جورج بوش الأب أو الابن، بشوارب وحاء بمهمازين؟ ألم يكن نيرون -ولا أتحدث عن كاليجولا- هو الآخر "ملاكاً" تذوب القلوب لرؤيته، استبشّر بقدمه أبّ وأم وجدّة وأعمام وأخوال، وهو يُعدّ منذ نزوله عالمنا للمصائب التي ما زال التاريخ يتذكّر ها مرتجفا من هول ما شاهد وما جرّب من فظاعات؟
وفي ملفّ مودع في أعمق طبقات الذاكرة يشتدّ صراخ "با":
- هل رأيتم بريق عينيه؟ يتحدّاني أنا! يتحدّاني أنا! غضّ الطرف يا ابن الكلب. غضّ الطرف واطلب العفو. لا تريد أن تبكي. لقد كسرتُ شوكة من هم أصلب منك عودا ألف مرّة. أنا سيّدك -يا كلب- وستعلم أنه لا خيار لك غير الطاعة.
هل من باب الصدفة أن يسألني بعض من الأهل عن أحوال "سيّدك" لأن لهجة القرية تسمي الأب "سيّدا"؟
تشتدّ سرعة الذراع الممسكة بالعصا وهي بين طلوع ونزول. تصرخ الأم وكأنها هي التي تتهاطل عليها الضربات.

- رحماك، رحماك، ستقتله.

يصرخ الأب وكأنه مُصاب بلوثة من الجنون:

- سأقتله وأنتِ معه. كل هذا بسببك، بسبب النساء، اللعنة على كل أنثى!

يواصل المراهق الراضخ الخضوع لمتسلط -أبا، حاكما، أو إليها-التحديق في الوجه الغاضب المحمل بالآلام السنين والعصا تكوي من جديد روحه والجسد.

تحت وابل الضرب يحول ذهنه وجهة بيت شهير بتغيير كلمة واحدة منه:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للعصا نهى عليك ولا أمر.

يجن جنون "با".

- تبتسم، توصل الاستهزاء بي، سأكسر شوكتك مهما تنطعت يا متمرّد.

يخطر للمراهق أنه أن الأوان للإمساك بهذه الذراع وليها ونزع العصا منها وتهشيمها على جسد هذا الظالم الذي يخلط مثل أشباهه بين العنف والقوة. هو قادر الآن على وقف الاعتداء عليه وتحمل تبعات كسر ذراع من يبغض أشدّ البغض، لكن من أين له تحمل تبعات كسر ذراع من يحبّ أشدّ الحب؟ إنه فصل من فصول علاقة صعبة تربط من الأزل بين الأب والابن، لا تضاهيها في الصعوبة -وإن بأشكال مختلفة- إلا علاقة الأم بالبنات، الأخ بأخيه، الزوج بزوجته، الحاكم بالمحكوم، وحتى العبد بخالقه.

كيف لا يحبّ الابن والده وهو الذي فتح أمامه الطريق؟ كيف لا يكرهه وهو الذي يسده أمامه؟ كيف لا يحبّ الأب ابنه وهو

الذي سيواصل به الطريق عندما تختطفه يد المنية؟ كيف لا يكرهه والمولود لا الوالد هو الذي سيواصل هذا الطريق؟

يصرخ الرجل في أوج الغضب لاهثا ماسحا عرقه متوجها إلى مُناصر مجهول:

- قتلني بتحدّيه الدائم. قلبي، قلبي، عجلوا بالطبيب!

يرمي بعصاه على الأرض ويجسده المرهق على الأريكة منتظرا أن تأتيه "ما" بكأس ماء، أن تمسح عرقه وأن تقول له ما

يريد أن يسمع، مثل أنه دوما على حقّ وأن هذا الولد ما زال غير ناضج وأنه أكبر من أن يعبا بشطحات مراهق.

وفي آخر ملفّ عن صراع الإرادتين، يواجه الشاب نظرة أبيه لا يرفّ له جفن، نافخا ببطء مدروس في غليونه الجديد،

وحركائه تتضح بما مفاده أنه سيّد نفسه، أنه وحده من يقرّر علامات الاحترام التي تجب.

يعود الصراخ بنفس الحدة وكان الزمن لم يتحرك قيد أنملة.

- تدخّن أمامي؟ خسنت يا كلب. ما زلتُ السيّد الذي تنكّس في حضرته العيون.

قد يكون الصراع الطويل بين كل أب وكل ابن مجرد اختبار القدرة على رفع التحدي؛ فالذات لا تتشكّل إلا باعتراف تفتنّه من

أب أو غير أب، افتكاك اليد العارية للّقمة من فم السبع. وحدها الذات الأخرى قادرة على أن تبني ذاتك بالحب والاعتراف،

وهي وحدها القادرة على تدميرها بالكره أو بالتجاهل. لا يواسينا عن مثل هذه التبعية إلا امتلاكنا لنفس السلطة وتحملنا لنفس

المسؤولية. اللهم اجعلني دوما من بُناة الذوات لا من مدمريها.

يتسمّر البصر على البصر. تنتضح للابن الموجه فجأة الحالة الحقيقية لرجل وضع رحله على قارعة الطريق بعد أن أرفقه

الجري في كل اتّجاه، لرجل مقهور من تجدد منعه من دخول صحرائه الغالية، والمانع شرطي محلي ورث عن الغازي

الأجنبي نقاط التفتيش، لرجل محبّط هزمته الدنيا وأشبعته سخرية من محاولته تفصيلها على ذوقه، لرجل يعتقد هو الآخر أنه

فشل حياته.

فجأة يلمع الاستغراب في عيني "أين في الناس" كأنه ذهل لسؤال لم يطرحه على نفسه من قبل: من هذا الذي أحسبه طفلي؟

تبقى العصا معلقة في الفراغ لحظة. يضعها الرجل الشرقي القديم على الطاولة بكثير من الرفق كمن يُعيد إلى غمده سيفاً لم

يعدّ له نفع. ثمّ يحدّق في ابن لم يتفطنّ أنه أصبح شابا وفي عينيّه شيء من البغض وشيء من الحبّ، شيء من التفهم وشيء

من الإنكار، شيء من الاستفزاز وشيء من المهادنة، شيء من الاستخفاف وشيء من الإعجاب، شيء من الاهتمام وشيء

من اللامبالاة، فضلالة عابرة من الكآبة ثمّ تجدد المرح.

ينفجر "با" ضاحكا: لله درك إنك رجل. والآن اخرج من بيتي حفظك الله، لا يتعايش أسدان في قفص واحد.

جاء الدور لتعذيبي على من لا يلمع في عينيهم إلا بريق الحقد والغضب.

يحدّق في كبير الشرطة السرية طويلا يظنّ أنني أوّل من سيحول اتجاه النظر:

- نكتفي هذه المرّة بالاستجواب. أذرنّاك بما فيه الكفاية. لا تُجبرنا على المرور إلى الأمور الجديّة.

يريد مني هذا المستخدم الخضوع للتهديد، والغريزة عندي الهجوم على كلّ من يهددني!

لم يكن الرجل المخيف يهدد في الفراغ. تصرخ سافلة: أيها السافل، ألا تخجل في عمرك من معاكسة شريفة مثلي. يتجمع خلفي بسرة فائقة حشد من الغوغاء يصرخون في أنني من تجمعت فيه كبائر الموبقات. أصبح الشارع بلا نهاية والأوباش ورائي، تَوَزَّعوا الاستفزاز في نظام محكم. فهذا مكلف بالكلمات النابية، وذلك بالتهكم والآخر بتذكيري أنني لم أكن هذا الوطن ولم أبع ذمتي إلا لأنني خائن ابن خائن.

من أين يأتي النور؟
(البياتي)

ونحن في كل العصور حجر الطاحون

نستبدل الأغلل بالأغلل في الطابور

بيبعنا الطغاة للطغاة والملوك للملوك

تتسارع وتيرة الشتاء. تفتح فتاة فما بأسنان عليها أسلاك حديدية. تتقياً منه رذاذاً من البصاق ومختارات من الكلمات تتعلق بشرف أُمِّي. يفتح المارة أفواههم دهشة ثم يُطاطئون الرؤوس وهم ينتبهون إلى أن المظاهرة الشعبية الغاضبة العفوية التي تمشي وراء الخائن ابن الخائن، محروسة ببوليس الطاغية. في مستوى حديقة الحيوانات تفتعل حشود، الذي منه كل نقمة قطع الطريق عليّ وتوجيهي إلى بابها حتى أوضع في المكان الوحيد الذي يليق بكائن مثلي: قفص القرود. تختفي وجوه المعتدين وقد أصبح البصاق ستارا أبيض لزجا يسيل على النظارات نازلاً على الجبين والوجنتين نحو شفيتين مغلقتين باشمنزاز. تندافع الأيدي بحثاً عن نصيبها من جسد استحلَّ حرمة إجرام النولة. يحاول أحدهم وضع إصبعه في مؤخرتي -وفي عرفهم أن هذا أقصى الإذلال- صارخاً: من تحارب، يا عميل، سيّدك وسيّد الخائن والدك.

كيف أحمي نفسي من عاصفة داهمتني على غير انتظار، رعداً الحقد وبرقها الغباء والجهل؟ الهرب؟ لكن إلى أين؟ العون؟ ممّن؟ أجبل البصر حولي باحثاً عن هيئة من "الشعب" الذي ندّعي كلنا أننا على استعداد للموت من أجله. يطأطي المارة رؤوسهم ويُسرعون الخطى.

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يوماً به انقلبوا (أبو العتاهية)

يُعظّمون أبا الدنيا وإن وثبت يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

فجأة انفجر ضاحكا وأنا أكتشف البوليس يصوّر الحادثة لسهرة عائلية سيضحك فيها على الفجار ويتشمّتون.

ثلاثة أفعال مضمونة الفشل: أن تسيطر على الأدميين، أن تهرب منهم وخاصة أن تحسنهم... أما عن السيطرة فأسأل كل المستبدين وكيف فشلوا رغم كل أصناف التعذيب والقمع والتضليل والافساد... بخصوص الهروب منهم لا أحد يستطيع خيانة زوجته إلا مع امرأة أخرى، وكل امرأة تخون زوجها لا تستبدل في آخر المطاف إلا وهما قديم بوهم جديد وأملا ضائعا بأمل سيضيع. افرض أنك تريد الاختفاء في غابة لم يكتشفها آدمي. ها هم كلهم داخلك يتصارعون. لا تحاول الاعتكاف في دير لأن الرهبان بشر يواصلون نفس الخصومات المقررة تحت ستار خادع من الصمت والتقوى. عن إصلاحهم انظر مأساة كل المصلحين الذين تتابعوا على مر التاريخ. المساكين! قدر المصلح أكان نبيا يريد اصلاح البشرية جمعاء او ابسط شخص يسعى للتغيير في أي ميدان الارتطام بمنتهقين يخدم الوضع الظالم مصالحهم ولو على حساب أغلبية الناس. الأكثر وجعا ارتطامه بضحايا هذا الوضع والجبن والتسليم يجعلهم يقبلون اليد التي تصفهم ويعضون اليد التي تريد كسر أغلالهم... هكذا ان صرخ انه وضع قبيح خطر على الجميع يجب الخروج منه وعليه نكل به الظالم وتنگر له المظلوم. المشكلة أن توضيات كل المصلحين، والإ تذهب دوما سدى، فإنها لا تغير شيئا جوهريا والوضع يعيد نفسه بألف شكل وشكل كأن هناك قوة قاهرة تمنع وجود مجتمع لا ظلم فيه ولا ظل... ربما لأننا بحاجة للظلم وكل مخرجاته البشعة لكي تتواصل القصص المثيرة التي نشغل بها وقتنا ومنها قصص نضال المصلحين وتضحياتهم المثيرة للإعجاب عند أنصارهم وكثيرا من الشفقة الساخرة عندي.

في ملف آخر ونفس الغوغاء المأجورة تهاجم سيارة تحملني مع بعض الأحرار أصرخ في السائق: لن يرهبونا؛ فلنذهب إلى الاعتصام أمام السجن، ليعلم السجين الذي جننا من أجله أننا لن نخذله أبدا. يهاجمنا نفس الشياطين أمام المبنى الكريه. تصبح السيارة وسط المدينة المحكومة بارهاب دولة صادرتها العصابات، مثل زورق تتقاذفه الأمواج.

يصرخ أحدهم فيمن يبدو قائد العصابة: يا نبيل كفى.

فجأة تكف الرياح عن الصفير وتنفرق الأمواج لحظة الغرق. آه، لم تكن هناك أوامر بالقتل هذه المرة. مجرد إنذار آخر وربما الأخير.

نبيل؟ النبيل في مثل هذا الكائن كرائحة الياسمين تتضوع بها جثة كلب مرمية على قارعة الطريق منذ أيام.

حيث أن في هذا العالم لا وجود للنور إلا بوجود الظلام ولا معنى للشر دون الخير وللذكر دون الأنثى، كيف لا يوجد لنا إذن بجانب كريم ومنصور ونور وغفيفة، أسماء مثل لثيم ومهزوم وظلام وعاهرة. يجب احترام قانون القوانين. في هذا الوجه البشع من العالم يحق لأب أن يشتري ذمة موظف البلدية ليسجل أسماء أطفال يعلم أنهم ليسوا من صلبه ولأم أن تشتري نفس الموظف لتسجيل اسم طفل تعلم أنه من صلب الزوج الذي تكره. تصوّر هذا الأب يصرخ في طفلة صغيرة: توقي عن الصراخ

يا عاهرة، أنت يا لثيم كفت عن شدّ شعر أختك... والأُم تنظر بقرف للطفل الذي تكره فيه زوجها: تعيس، كم من مرة يجب أن أقول لك ممنوع غسل الأسنان واستعمال الصابون؟! تصرخ فيّ يا رجل كفى تجنيا على البشر وأنت أول من يعلم أنه لا وجود إلا في خيالك المريض لأُم كهذه وأب كالذي تصف. لا وجود لأُم كهذه وأب كالذي أصف إلا في خيالي المريض! انظر الدراسات بخصوص ما يتعرض له جزء من أطفال البشر حتى داخل العائلات البرجوازية من عنف جنسي جسدي نفسي وتعال ناقشني. حقا يجب أن تحمد الله أنك لن تسمع من يناديك: الرجاء من السيد كلب ابن لقيط التقدم حالا لبوابة الرحيل رقم 5، أو أنه لا أحد سيصرخ فيك يوما: يا بشعاء الخنازيري أسرعي بالقهوة، قبح الله وجهك وزاده بشاعة على بشاعة... (مواصل الحديث مع مساعديه: يجب طرد هذه الغبية حالا وعلى الفور. غير ممكن! لماذا؟ البهيم هو الذي تدخّل شخصيا لنوظفها. البهيم!!! البهيم بطمّ طميمه تدخّل لهذه البنت؟! لكن لماذا؟ لقرابة تربطها بال قاذورة. آل قاذورة!!! آل قاذورة!!! قريية آل قاذورة بيننا ولا أحد أعلمني!!!... أريد ترقية الأنسة بشعاء حالا وعلى الفور وأن تعلم أنني صاحب القرار)

لنسمّ نبيل وكريم وسعيد وكل من أفلتوا من أوصافهم الحقيقية، الذي منه كل نقمة". ها قد أغلقت المدينة أبوابها في وجهي كأنني لم أسكنها يوما ولم يكن لي فيها صاحب. يشيح بوجهه من يعترضني في شوارعها متحرّجا. اخترقني البعض بالبصر كأنني جزء من الفراغ. ترى أحدهم يسارع إلى تغيير الرصيف، أو كأنه فوجئ أنّ عبارا شوّه لمعان حدائه. يفعل من كنتُ وليّ نعمته وهو يمرّ أمامي أنه لم يرنّي وأنا أول من رأى مصدوما ومتضايقا. إيه والله هكذا هم البشر. ما أكثر الأحباب حين أعدّهم لكنهم في النائيات قليل (الشافعي) لم يبق لي من مكان أمشي فيه طولا وعرضا، ولا خشية فيه أن ألاقى آدميا يغيّر الرصيف، غير بيت فارغ ومطوّق. الوحدة والبرد.

ومن ثوابت قصص الأدمي أنه دوما في وضع أحسن مما يتصوّر وفي وضع أسوأ مما يعتقد، حيث لا علم له بالمصائب التي أفلت منها، مثلما لا وعي له بالتي تترقبه. ذات يوم وأنا أبحث عن كشك هاتف غير مراقب، تُمسك بي من الخلف أيدٍ عصبية وتدفعني أخرى بغلظة نحو سيارة رابضة تنتظر حمولة اليوم. أخيرا أمسكني هؤلاء الذين جاؤوا لاختطافي طفلا. كم أظهرت من طول النفس طوال هذه السنين والعقود. نفس لا يضاويه إلا طول نفسي في مواصلة الصراع ضدهم. لكن أين "ما" هذه المرة لتحميتي وهل ما زال في هذا العالم العابس المقطبّ الجبين من حام؟ العقبة الكأداء هذه المرة، ليست كثرة مفترقات الطريق وكثرة قطعاه ولا حتى اكتظاظه، إنما توقّفه غير المتوقع. يصرخ ورائي الحارس بصوت خشن فيه ملل لا يخفيه: قف؛ وجهك للحائط. انتظر أن يأتي دورك. لا تتحرّك. لا تتكلّم إلا إذا أدنّت لك. اغمس الإبهام في الحبر الأزرق. ابصم يا حيوان. انظر إلى المصوّر دون هذه الابتسامة الغبية. تظنّ أننا نأخذ لك صورة العرس؟ وإلى الآن إلى الزنزانة ركضا، لا تنظر يمينا أو يسارا. كل الامتداد زنزانة ننته، والأفق على بُعد ثلاثة أمتار على أحسن تقدير. لا شيء تفعله سوى المشي طولا وعرضا كل ساعات اليوم؛ لا رفاق لك سوى بقايا أشباح ما زالت تصرخ بالرعب والألم. ذلك لأنّ زنزانة ذاكرةً ملقّاتها جدران ملطّخة بالبراز والدم. أحاول استحضر الوجوه وتخيل قصة هذا الذي أمضى اثنتين وثلاثين عصابة وهذا السعيد الذي لم يترك إلا أربعة عصابات، وذلك الذي كتب تحت عشرة خدوش: صبر. قد لا يعرف الأدمي طوال رحلته حالة أكثر عمقا وتواصلًا من العجز، وهي الآن وهنا في أوجها، وقد أطبق فخّ الصياد الخبيث على الطريدة الساذجة.

ترتفع من الزنزانة المجاورة صرخة ستلاحقني سنواتٍ، في النوم وفي اليقظة، بين يديّ الحلاق وبين ذراعي الحبيبة، في اللهو وفي الجدّ، تُدكّرُ بأعمق وأرهب ما تعلمتُ عن الطبيعة المخفية لأدمي يلاقيك في الطريق مُسلّما، تضمّهُ لصدرك لا تدري ما الغول الذي تُقبّل. أيّ كائنات رهيبه هذه التي نُفيت في عالمها! هي وحدها التي اخترعت التعذيب بل وجعلته أداة سلطة في الدنيا والآخرة!

يصل الصراخ أعلى طبقة، لا يتوقف لحظة إلا ليعود عويلا ثم صفيرا ثم حشرجة. كفت الرجل عن الصراخ. ربما هو بصدد التقاط أنفاسه. ربما هو يتوجه باسمنا جميعا إلى من لا يهّمه الأمر: خذ استقالتني على وجهك واذهب للجحيم أنت ووجودك، أنا عائد إلى العدم. صدق من تنهّد: أيّ مكان تشاؤون شريطة أن يكون خارج هذا العالم. أصدّق منه من صرّخ: أوقفوا هذا العالم؛ أريد أن أنزل في المحطة القادمة. أصدّق منهما الذي سنّ القانون: هذا عالم لا منفذ فيه لأحد. نعم، إنه السجن، السجن الأكبر، السجن النهائي، السجن الذي لا قدرة لأحد على تخطّي فُضبانه وهي في كل مكان.

والعدوان والسرف

فأنتِ الدار فيك الظلم

والبغضاء والشنف

وأنتِ الدار فيك البغي

والأحزان والأسف

وأنتِ الدار فيك الهم

والتنغيص والكلف

وأنتِ الدار فيك العدر

وفيك الببال منكسف

وفيك الحبل مضطرب

والآفات والتلف

وفيك لساكنيك الحين

شيء بداخلي يستهزئ: بل أنت السجن وقضبانه مخيلتك القاصرة وفكرك الضيق وروحك المشبعة بالخوف وفؤادك عندما يفرغ من الحب.

في ملف آخر ما زال بعيدا على خطّ الزمان يهمس فيّ السيد مدير السجن بصوت معسول فيه قلق لا يخفيه من هذه الزيارة المفاجئة: من هنا سيدي الرئيس، حذار من دخول الزنانات ففيها بعض المجانين الخطرين.

يتدافع السجناء إلى القضبان وقد سرى الخبر سريان النار في الهشيم. تتعالى الصرخات تصمّ الأذان: الرحمة! العفو! كلنا أبناؤك! سيدي أرجوك. انظر إلى هنا!

تتداخل الفضاءات والأزمنة لأدخل فجأة زنزانة رجلٍ منهك في القراءة لا يعلم أنّ شبعا أت من مستقبل قريب يراقبه بسخرية ممزوجة ببعض العطف ونكهة من الشماتة يهمس فيه: تريد إصلاح هؤلاء البشر! حقا يا لك من غبيّ.

تتردد قهقهة عاهرة وأوامر صارمة بالصمت وأخرى بالكلام. كيف يمكن أن يكون لهذا الذي وصلت لديه نعمة البشر إلى ذروتها حبيباً أو طفلاً؟ بل كيف يمكن أن يكون له أم أصلاً؟ كيف وصل إلى عالمنا إذن، والحال أنه لا يمكن ولا يجوز أن يخرج من رحم أنثى؟ كائنٌ جاء من عوالم أخرى لتدمير الأدميين بغرس كل هذا العنف والحقد فيهم؟ شيطان طرد حتى من جهنم؟ فرضية رهيبية وأقطع منها أنه آدمي، بل وله أم.

كم سيصعب علينا أن نثبت لله أنه لم يخطئ في خلقه جنسنا الشرير أو على الأقل أنه ارتكب خطأ ما زال قابلاً للتدارك! اختار صاحب السلطة الواسعة الطريقة الوحيدة التي يعرف أنها قادرة على دك حصوني.

لا ينفع أن أجلس في أبعد ركن من الزنزانة وأن أضع رأسي بين ركبتي وأصابعي داخل أذنيّ، فالجنون يزحف على الروح كالظلام على آخر بقع نور باهت.

اللجنة، ربما ينتظرون أن أنهار مجهشاً بالبكاء طالبا الكفّ عن الرجل، ولهم مني كل ما يريدون. سأقلب الموقف رأساً على عقب.

ألا يُصدر الأدمي مثل هذه الصرخات وهو في ذروة ممارسة الجنس؟ الرجل الآن بين ذراعي امرأته يصرخ بمتعة الجماع. يجب تنبيهه بلطف. حذار، ستوقظ الأطفال. فيتساءل الصغار ويوشوش في آذانهم الكبار بما يجري وراء الباب الموصل. لا، لا، تبالغ حقاً، يا رجل ستقتل المسكينة، عيب، بدأ الصغار يضحكون ويرقصون فوق الفراش. ماذا تقول؟ إنني غائر من فحولتك، أحدثك عن صحتك وتحذرتني عن الفحولة، ثم هذا جهد لا يتحملة القلب. يا رجل، من يحدثك نحاسي كيف لا تسمع نصيحته بالتوقف؟

يسمع الرجل النصيحة أخيراً. تعب الأذن من روعة صمت مفاجئ كما تعب الرئتان من الهواء عند نهاية أزمة الربو. قد يكون أطلق آخر غرغرة. قد يكون بصدد مسح دمانه والتفكير في الأعداء التي سيتقدمون بها لتبرير زلة اليد وسوء التقدير. لكن الذات التي انشطرت إلى قسمين ترفض متابعة الرجل يُلف في خرق قدر ثم يوضع في صندوق محكم الإغلاق مبرمج للدفن خفية فجر يوم لنيم، لتراه مرتخياً يتصبب عرقاً تعلق محيطاً ابتساماً الزهو والنصر. تتحول اليدان من الصدغين إلى عينين فاضتا بالدموع، والرأس مدفون عميقاً بين الركبتين.

الغريب أن نمشي في شارع تجاري لا ترتعد منا الفرائص وسط جحافل مثل هذه الكائنات بل وأن تنام مع الأنثى والانثى مع بعضهما وليس تحت المخذة مسدس أو خنجر مسموم تحسبا لكل الاحتمالات.

ما العمل؟ لا شيء غير مواصلة المجازفة العيش مع الأدمي الآخر طالما نستطيع تناسي الطبيعة الحقيقية لهذا الذي يشخر بجانبنا.

يرفع الحالم ذراعه بالحجارة تتطلق لعنان السماء تريد شجّ رأس من ارتكب هذا العالم فترفر فر لحظة لتنتفض عليه كالعقاب، عقاباً على الإمعان في تمرّد عقيم تحالفت لإخماده سادة السماء والأرض.

عند الاستيقاظ، أتوجّه بأول لعنة إلى عالم أفاق معي متربصا بي وبغيري: ما زلت موجودا! كأن لا أحد رضي بأن يريحي منك ولو بما دفعتُ فيك.

ذلك أنني أضع اللعين كلّ ليلة في المزداد العلني متوجها إلى مُشترٍ ساذج قد يسهّل التفرير به: خذه بفلس وهذا ثمني الأخير. على ما يبدو، المشتري ليس غرًا وهو الأمر الذي يتطلب التقليل من مطامحي. أتوجه إليه مجددا كل صباح متثابرا ولا أمل جدّيًا لي في عقد الصفقة الكبرى: خذه بنصف فلس. لن أنزل تحت الثمن. عالمٌ كاملٌ الأوصاف وأنت تماطل في نصف فلس! خذه مجاناً، المهم أن يغرب عن وجهي وأنت معه.

كامل الأوصاف! نعم كامل أوصاف الفطاعة والقبح والشر... على الأقل في حالته هذه وهي ألين ما يتخذ من حالات لا يفرق إبانها بين أي من الكائنات... ففي هذا العالم- أو قل في حالته اللعينة هذه- قدر الحيوانات أكلة اللحوم أن تقضي جَلَّ رحلتها جريا وراء اكلة الأعشاب والجوع يعتصر أمعائها وقدر الحيوانات أكلة الأعشاب أن تقضي جَلَّ رحلتها هربا من الأظافر والأنياب والخوف هو الذي يعتصر أمعائها... وفي هذا العالم- أو قل في حالته اللعينة هذه- قدر الأدميين أن يقضوا جَلَّ رحلتهم والطريق يتلوى بين مسالخ الحيوانات ومجازر البشر، بين مدن الخراب ومدن القصدير، بين أوراش السخرة وأسواق العبيد، بين بيوت الدعارة وقصور الطغاة، بين مراكز الشرطة ومحاكم الظلم بالقانون، بين غرف التعذيب وغرف الإعدام، والفعل الأكثر انتشارا انتهاك الحقوق المشروعة لكل الكائنات بأفطع الوسائل وأخس الأساليب... نعم هذا العالم- أو قل في حالته اللعينة هذه- عالم الاجرام بكل أنواعه ومرتع المجرمين من كل الأشكال والأنواع... عالم كابوس لا نفيق من رعبه إلا بالموت الرحيم.

مجددا وسط أوسع سجن وحلبة الصراع الكبرى التي يسمونها الوطن. من أين لي التركيز على العدو وأنا أرقص رقصة الديك المذبوح، والذابحون رفاقي.

تخور قواي من شدة الطعن فأسقط جاثيا على ركبتَي. تمرّ صفوف أصحابي فوق رأسي تدوسني بأحذيتها الغليظة. أبصر قائد العدو جاثيا على ركبتيه، لا أعرف هل أخطُرُ جرح الذي أصابه به الصديق أم العدو. يهمس في:

- أتعتقد معي حلفا ضد أصحابي وأعتيك بالمقابل على أصحابك؟

أهز رأسي بالنفي لأنني من المدرسة التي لا يخون فيها الصديق صديقَه، حتى ولو خان هذا الأخير.

يصرخ فيّ قبل أن تدوسه أقدام جنوده البواسل وضباطه المخلصين:

- يا مغفل، من يبحث عن الوفاء يستثمر في الكلاب لا في الأدميين.

لا أحد فهم الحقيقة المرة قدر ذلك الأعرابي الذي تزوّج وهو في أرذل العمر، فعاب عليه أصحابه الأمر يُخفون حسدهم وراء اهتمام كاذب بذريته: هلا فُكرت في أطفال صغار سيكبرون بلا عائل. فجاء الردّ مفحما وحكيما: "أبادرهم باليتم قبل أن يبادروني بالعقوق".

بربكم، أليس مضحكا أن تلتحم الجيوش ببعضها البعض وهي مثخنة بجراح المعركة التي لم تكف لحظة داخلها، أن تنتشب بين جيوش من المعاقين والجرحى أنهكتها تنافساتها الداخلية وأكملت المهمة حروبها الخارجية مع جيوش ليست بأحسن حال؟ مشكلتنا الكبرى في معارك الصديق الذي يختفي وراء ملامحه المنافس المزمّن. فالصديق الحقيقي هو آخر من يصدّق ما يُروّج عنك من إشاعات وأول من يغفرها لك إن صدقت. في هذه الساحة اللعينة التي يسمونها السياسة، هو ما تُسميه ويُسمي نفسه الصديق، هو أول من يصدّق عنك الأراجيف وآخر من يغفر لك أنها كاذبة. هذا ما يجعل بحثك فيها عن الخلّ الرفيق كبحثك عن أم لأطفالك في ماخور. كم صدق القائل: اللهم أعني على أصدقائي، أما أعدائي فأنا بهم كفيل.

القانون الأول في السياسة: ليس لك في هذا الميدان إلا صديق اللحظة وعدو اللحظة وحليف اللحظة مع إمكانية تبادل الأدوار أي لحظة. لذلك ما تحتاجه الحلبة السياسية ليس محاربا ساذجا يعتقد أنه مسنود الظهر بحليف وليس أمامه إلا من يبارزه، إنما راقص باليه صيني في معركة سينمائية يدور على نفسه برشاقة لا تضاهيها إلا براعته في تصويب قدمه نحو حنجرة العدو في الوقت الذي يسدّد فيه ضربة قاضية بساعده لحنجرة الصديق يردي الأول قتيلا ويترك الثاني جثة هامدة.

السؤال أمام أي حليف -منافس تصيبك به الأقدار ليس هل سيغدّر بي يوما وإنما أي يوم سيغدّر بي؟

لا تحاول أن تصل قمة تظن نفسك في مأمن منه، فأنفاسه في ظهرك وأنت على أعلى القمم.

"ومن يذُق الدنيا فإنّي طعمتها

وما هي إلا جيفة مستحيلة

وإن تجتنبها كنتّ سلما لأهلها

وسيق إلينا عذبيها وعذابها (الإمام الشافعي)

عليها كلاب همهن اجتذابها

وإن تجتنبها ناز عنك كلابها"

القاعدة أن هذا الصنف من البشر الذين يسمونه المنافس على يقين أنك حجرٌ عثرة في وجه ما يريد، أنك أخذت منه ما لا حق لك فيه أو أكثر مما تستحق، أنك لم تُعطه حقه من هذا الشيء أو ذلك، أنه سيفتكك منك ما هو أحقّ به منك كلف ذلك ما كلف. هو يريد الدنيا له وحده وحتى في الآخرة لا يريدك إلا عبداً له.

قدر الأدمي أنه لا يبني ذاته إلا بمحاكاة الآخر في كل شيء، ومنها أنه لا يشتهي إلا ما يشتهي هذا الآخر. هو يريد السلطة التي يريد ويريد المجد الذي يريد ويريد الثروة التي يريد. هو لا يشتهي إلا ما نشتهي ونحن لا نشتهي إلا ما يشتهي وأغلب ما نشتهي كلنا غير خاضع للاقتسام. كيف يمكننا تدبّر أمورنا في هذه الحالة؟ لا بدّ من الذات الأخرى لننسى على منوالها ولا بدّ من إزاحتها وهي تمنعنا من الشهوة التي أثارها في أنفسنا. هكذا تنطلق أولى بوادر الصراع الذي سيقودنا لكل ما نعاني منه على امتداد الرحلة، من غيرة وحسد وصراع وظلم. إنه العيب الهيكلي في طبيعتنا، الذي لم ولن تفلح في إصلاحه أو تجاوزه تربيةً أو فلسفةً أو ديناً أو سياسة.

في ملفات ذاكرة المستقبل حادثة تؤكّد أنه لا فرار من "الذي منه كل نقمة"، لا في أدنى درجات سلّم الثروة والسلطة ولا في أعلى هذه الدرجات.

- كان كمينُ البارحة لجنودنا أخطر الضربات الإرهابية منذ الثورة ...

أرفع يدي، أريد من الطبيب العسكري الصمت.

على فراش الآلام ثلاثتهم لأشهر طويلة من العذاب، بعدها سيتلقفهم مصير لا يريد أحد تصوّره أو التفكير فيه.

- ما درجة خطورة وضع هذا الذي بُترت ساقه؟

- لا خوف على حياته سيدي، المشكلة الجندي الذي في الوسط قد نضطرّ إلى بتر الساقين، الثالث يعاني من شظايا في عينيه قد لا ننجح في...

بشّر يزرعون الزيتون وبشر يزرعون الألغام! هكذا هم البشر... عميقاً داخل الذات، داخل كل ذات، في ركن مُنرّوٍ من دهاليزها، تترصد كل الاستعدادات القادرة على جعل الأدمي يُعذب الآخر، يغتصب أمامه زوجته الحامل، يستلّ قلبه يأكله وهو ينبض، يبول على قبره يُقهقه نصف سكران نصف مجنون، يُلقيه حيا من الحوامة، أو يزرع على طريقه لغماً من متفجراتٍ كأنه لا يوجد في طريقنا ما يكفي من الألغام.

لا بدّ هنا من وضع هذا الأدمي البغيض في الإطار العام للمحن والامتحانات التي تواجه المرتحلين جيلاً بعد جيل.

ثلاث آفات من الطبيعة: الأوبئة و جنون الأرض عندما تميد زلازل أو تنفجر براكين و جنون السماء عند تسليط الجفاف أو الطوفان على البشر المساكين.

ثمة الآفات الثلاث التي هي من صنع هؤلاء " المساكين ": الاستعباد والاستعمار والاستبداد ووراءها دوماً "الذي منه كل نقمة".

وفي آفة الاستعباد يتخذ " الذي منه كل نقمة" شكل النحاس أوزبونه يتصرف في البشر كما لو كانوا خرفانا أو بعيراً، شعارهم "من ذا يُطالبُ سيّداً في عبده" لا يترك لضحاياه إلا الخيار بين ذلّ الاستسلام أو عواقب تمرّد الضعيف على القوي.

وفي آفة الاستعمار يتخذ "الذي منه كل نقمة" شكل الغازي القادم من الآفاق البعيدة الذي يفرض على شعوب بأكملها ظلمه وحقه في استنزاف خيراتها لا يترك لضحاياه إلا الخيار بين ذلّ الاستسلام أو عواقب تمرّد الضعيف على القوي.

وفي آفة الاستبداد يتخذ "الذي منه كل نقمة" شكل طاغية نصف مجنون وأحياناً مجنون تماماً يصادر كل حقوق ضحاياه لا يترك لهم إلا الخيار بين ذلّ الاستسلام وعواقب تمرّد الضعيف على القوي.

ذروة الآفات الثلاث ظاهرة ذكرها المؤرخون وأكدها الحفريات وهي تكتشف مقابر يستوي فيها الطاغية الممدّد على ظهره وحوله جواربه وغلماؤه اقتلوا على حافة القبر ثم رموا فيه على عجل، لأن الأدمي الذي استنزف الأجساد والأرزاق حياً يعتبر من حقه أن يكون له خدم في الموت كما كان له خدم في الحياة.

ما الذي يجعل من الأدمي مثل هذا الكائن البشع الذي لن تجد له نظيراً بين الكائنات الحية، في القسوة والندالة؟

كم من فظائع يرتكبها "الذي منه كل نقمة" في مثل هذا المكان! أطافر تُقتل، ابنة تُغتصب أمام أمها وأبيها، سياط تسلخ الظهر إلى العظم، حوامض تراق على الجروح، كيّ القميص على حامله، أطراف تبتتر تباعاً، عيّنات مما يُقدّر عليه "الذي منه كل نقمة"، عندما يتعامل مع أعدائه بالتفصيل. أمّا بالجملة فأكوام من الأجساد تُحرق لاستخراج ذهب أفواهها، تلال من الجماجم على أنقاض مُدن سُويّت بالأرض.

كما لا يُعرف عن أي كائن أنه يمارس التعذيب باستثناء الأدمي لا يُعرف عن أي كائن آخر مثلُ طرقه في القتل. هو عند الحيوان عملية سريعة تتكرر بنفس التقنية، خالية من أي حقد أو نية انتقام، لا هدف لها غير مواصلة القاتل حياته ولو بثمن حياة المقتول... داخل الأدميين ثمة دوماً تساؤل عما يمكن فعله بعد اكتشاف الذبح والحرق والخنق والشنق والصلب وضرب

العنق، والقطع إربا إربا والسلخ والدفن حياً ونبش القبور للتمثيل بالجنث؟ أي طريقة جديدة لم تُجرب من قَبْلُ لإلحاق أقصى الأذى، أقصى الإهانة، أقصى الألم، بهذا الذي يُقتل؟ كيف القتل السريع التنظيف غير المكلف للتخلص دفعة واحدة إن أمكن بمئات الملايين من البشر. من الأدميين من قضى رحلته يبحث عن سُبُل القضاء السريع المريح، على كل ما تحمل هذه الغابات من أشجار وتلك السهول من الأبقار الوحشية أو المحيطات من الحوت.

بعد كل هذا يطلع علينا نبي صادق مخلص لكنه مبالغ التفاؤل بالأدميين ليقول "أحبوا بعضكم البعض" أي أحبوا أيضا "الذي منه كل نعمة" بل ومضيفا إن ضربك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر. احببه انت إن كنت قادرا على الأمر طول الوقت. أما بخصوصي فلم أدر يوما للذي منه كل نعمة فردا أو جماعة خدي الأيمن بل سخرت جلّ حياتي لإجثائه على ركبتيه.

كيف سُمح لكائن كهذا بأن يوجد؟

ثمة إمكانية أن الأدمي تجربة قوة عمياء اسمها الطبيعة، أن تجربتها هذه كانت أكبر غلطة ستدفع ثمنها باهظا. ثمة إمكانية أن الخالق الذي خلق هذا الجنس، ارتكب الأمر وهو في حالة متقدمة من السكر... اللهم إلا إذا كان الأمر فعل من أفعال الشيطان.

عن الجاحظ: "وبعض المفسرين يزعم أن نوحا صلى الله عليه وسلم، إنما سُمي نوحا لأنه كان ينوح على نفسه وأن آدم سُمي آدم لأنه خذي من أديم الأرض"

كيف خذي آدم من هذا الأديم وماذا عن تفاصيل العملية؟

لا شيء تقريبا باستثناء شهادة آدمي آخر يدعى الطبري حيث يقول في بعض كتاباته إن الخالق لما أراد خلق آدم، أمر ملائكته بأن تأتيه ببعض الطين ليسويّه. لكن إبليس خاف أن يأخذ المخلوق الجديد مكانه، فاغتنم لحظة سهو الملائكة ليبول في المادة التي سنصنع منها أنا وأنت. أي والله هكذا قال العالم الكبير.

الحقيقة أن عالما الكبي لم يقل كل شيء من باب الرفق بمعنويات بني جلدته. حقًا لم أحضر الواقعة، لكن مصادر عدة -لا يسعني الآن الكشف عنها لأسباب أمنية- أكدت لي أن إبليس لم يفرغ فقط مئنته في الطين الذي تشكلنا منه، وإنما أفرغ فيه أيضا كل ما في جوفه، وحتى أنه كان يومها مصابا بإسهال حادّ ففعل الفعلة الشنيعة التي لن أتبحر في وصفها.

كما أكدت لي مصادر أخرى موثوق بها هي أيضا أن الملائكة اغتنمت الفرصة لتزيد الطين بلة فبصقت في العجينة المقرزة بل وأكثر من مرة.

كيف لا تكون الطبيعة البشرية عموما -وطبيعة خصومي السياسيين خصوصا- على ما هي عليه؟

لا غرابة أيضا في ولع بنات حواء بالعطور لتدارك ما يمكن تداركه وهن أعرف الناس بأن الضلع الأيسر لأدم الذي خلقن منه لا يختلف في مادته من بقية الأضلع الأخرى.

*

يأتيك يوما من تواصلٍ المواجهة مع كل الأشكال التي يتخذها "الذي منه كل نعمة"، ملأ مصحوب بشيء يشبه الغثيان. هو كذلك النباتات المضرة التي لا ينفع فيها اقتلاع أو سُموم أو حرق. لا جدوى من قتل شكله الأول، ولا الواحد بعد الألف. نحن دوما مطوقون بأشكاله لا إفلات من قبضته وهو جزء قار أزلي متجدد من المشهد الأدمي.

لم يبق إلا الحلّ الجذري.

أي حلّ؟ تنظيم مظاهرة عارمة لكل من أضّرهم وجود البيغض والتهديد بكذا وكذا إن لم تحذفه من السيناريو القوى المبهمة التي قد تكون برمجت هذا العالم كلعبة فيديو. تقول ساخرا بماذا ستهدّد أنت المسكين هؤلاء المبرمجين القادرين على خلق العوالم؟ بما يخطر على بالك، المهم أن نهدّهم بشيء ما علّهم يحملوننا على حمل الجدّ ولو لحظة.

الدليل على موافقة الجميع حضور مظاهرتي كل بشر الحاضر بل وكل أشباح الماضي وحتى الذين لم يولدوا بعد. أرفع عقيرتي بالصراخ في البوق وقد تجمعت الحشود خلفي: لا، لا للذي منه كل نعمة، فتردد البشرية ورائي بحقد عارم وجدل الشر: لا، لا، لا.

بداية موقفة لأكبر مظاهرة في التاريخ ستجبر القوى المبهمة المتحكمة في المصائر على الكفّ عن تجاهل صلواتنا وأخذ ندورنا وأضحيتنا مقابل لا شيء. ماذا يحصل هنا؟ ثمة شيء غير طبيعي في صراخ الجماهير، فالحماس فاتر والهتاف متقطع وأصوات نشاز تتعالى داخل المظاهرة: لا للعلمانيين الملحدّين، تقابلها هتافات معادية: لا، لا للظلاميين الرجعيين! وآخر يصيح عيب يا إخوة، يجب أن نتوحد لنكون أقوياء.

تفككت الصفوف وأخذ المتظاهرون بخناق بعضهم البعض، وكل واحد يريد أن يسبق مطالبه ويصنّف حساباته مع من يدعي أنهم من المندسين. كيف يمكن إنقاذ فكري العظيمة وإسكات هذا الغبي الآخر وهو يصرخ: خطفوا طاقم أسناني وأنا أهتف.

آخر محاولة لإنقاذ فكرة يبدو أنها لم تكن بالعبقريّة التي اعتقدت. لأنّوجه إلى الحشود مخاطبا العقل والضمير وحسن المصلحة العامّة: يا جماعة لا بدّ من وحدة صمّاء ورضّ الصفوف.

تتعالى أصوات الاستحسان فالسبّ والصفير، بأسرع مما كنت أتوقّع. يصلني صوت المكلف بتسميم حياة كل زعيم: مَنْ قَرّر الدعوة إلى المظاهرة دون استشارتي ولماذا لم أشاور في صياغة البيان الختامي؟

ماذا لو صَحْتُ: انتحاري على اليمين وسيارة مفخخة على الشمال. أه يسكون بخناقي يريدون التثبيت من حزامي أنا!

"فيا ربّ إنّ الناس لا ينصفونني فكيف وإنّ أنصفُهم ظلموني (أبو العتاهية)

وإن كان لي شيء تصدّوا لأخذه وإن جئتُ أبغى سيئهم منعوني

إن نالهم رفدي فلا شكر عندهم وإن أنا لم أبذل لهم شتموني

وإن وجدوا عندي رخاء تقرّبوا وإن نزلت بي شدّة خذلوني

وإن طرقتني نكبة فكهوا بها وإن صحبتني نعمة حسدوني

وسأمنع قلبي أن يحنّ إليهم وأحجب عنهم ناظري وجفوني"

أنا الآن كالأسد الجريح يلحق جراحه خارج ساحة المعركة، ينظر بشماتة للذئاب وبني أوى تتصارع بينها، ولقطع الخرفان يرعى حشيشه ينتظر خانفا لحظة الأكل.

أوف! ليأكلوا بعضهم بعضا وليأكلوا كل هذه الخرفان، فإن كان لهذه الكائنات عُذر واحد للوجود فهو كميّة الشحم واللحم التي يوفرونها للكواسر. أه، وبخصوص عذر وجودي؟ كميّة المواد المذكورة أعلاه التي سأوفرها لكواسر من حجم أصغر اسمها الدود.كم من مراسيم ركيكة قبل أن يسعد الدود بوصول المدد.

ثمة عقبة الجنازة. هي عند الأدميين كالختان والزواج: مناسبة لملاقة الأعراء الذين فرّق بينهم الزمان، لتبادل الأخبار والنكت لإتمام الصفقات، أحيانا لتصفية آخر الحسابات مع عريس الموت. يكفي أن أتصوّر كيف سيكون موكي ليزداد مزاجي تعكرا. سيمشي "الذي منه كل نقمة" خلفي، يواصل الحسدُ تعذيبه لأنه ليس هو المرفوع على الأكتاف.

يجنح بي الخيال لتصور المشهد وحتى ما بعد المشهد.

كأنني أسمعهم يتهامسون ضاحكين: هل تظن أنه ترك لعائلته شيئا غير أطنان من الورق القديم؟ ...لا تظلم الرجل، حتى هو كانت له بعض الخصال، صحيح أنها لا شيء بالمقارنة مع عيوبه وذنوبه التي لا تحصى...هل رأيت ما أبشع نظراته... لا يلبس ربطة عنق، مظهره مظهر عامل فلاحي، بشرته تفضح أصوله وأنه من سلالة الفلاحين والبدو الذين صبغت الشمس جلدهم في الصحاري وفي الحقول، ومع هذا لم يخجل هذا الأفاقي أن يريد نفسه سيّدا لنا... حرام عليكم أن تواصلوا سبّ الكلب ابن الكلب وقد أراحنا الله من سحنته البشعة...ثم خاتمة كل المناقشين يستنفرون لمزيد من السبّ: يا ناس، "اذكروا موتاكم بخير".

حقا ثمة فلاة بجانب كل هؤلاء الشامتين من يحزنهم رحيلي. لأواسيهم بما واسى الشاعر مودّعيه:

"في يوم وفاتي عندما يسرون بنعشي (جلال الدين الرومي)

لا تظنّ

أني متألّم لفراق هذا العالم

فلا تبك من أجلي ولا تقل وأسفاه وأسفاه وأسفاه

فوقوعك في مخيض الشيطان مدعاة للأسف

وعندما ترى نعشي لا تصرخ: الفراق

فوصالي هو في هذا الزمان ولقائي

وحين أودع القبر لا تقل الوداع

فالقبر هو حجاب على مجموع الجنان"

كم أخطأوا جميعهم في حقي: الذين بالغوا في كرههم أو لتجاهلهم لما فيّ من بعض الفضائل، الذين بالغوا في حبي لجهلهم أو لتجاهلهم لنقائصي وعيوبي. كان لي ككل الأدميين بعض الحسنات تنسبها زلاتي، وبعض الزلات تغفرها لي الحسنات، ولم يكن من الضروري تضخيم لا هذه ولا تلك. قدر الأدمي ألا يكون إلا صورا في الأذهان. صورته في مرآة من يحبونه، صورته في مرآة من يكرهونه، صورته في مرآة الكائنات التي يعبر طريقها، بالكاد تلمحُه. وحتى صورته في مرآة ذاته. أما من له هذه الصور المتباينة فشبه مجهول للأخرين ولنفسه أولا.

لعنات الحفارين الصامته وهم يذفرون غيظا من الحرّ وصلابة التربة.

ربما للقوى المبهمة التي رمتنا في هذا العالم أسبابها لفرض وجود هذا النوع من البشر، منها أنه ضروري لنبقى منتبهين، أن غيابه كان سيجعل قصصنا بائخة وبلا طعم، أنه هو الذي يوّد فينا أحدّ المشاعر والأحاسيس التي تجعل حياتنا تتوهج نارا ونورا ونحن نقاوم ونتنصر... ممكن، لكن لماذا بهذا الثمن!

يكمل الخيال الاحداث ويستبقها .

المهم أنني عدت من حيث أتيت أن بوسعي الآن أن أضع رحلي انتهت مشقة السفر. قبل الإخلاء إلى راحة العدم، عليّ أن أجد مكتب التظلمات لأسجل إدانتي التامة لفكرة خلق كائنٍ مثل "الذي منه كل نقمة"، وطلبي الملحّ بسحب دوره من السيناريو. أتسمّر مدهولا وأنا أرتطم بالنظرة المتجهمة لجبريل وهو ينقل البصر تباعا من وجهي إلى ملفّ غليظ، ومن الملفّ الغليظ إلى وجهي. أه هذا ملقّي وهو بداهة زاخر ثقيل. بماذا؟ بشكاوى الأطفال الذين تكبرت عليهم لا أنتبه لحاجتهم للتفوق... بشكاوى الإخوة الذين استأثرت دونهم بأب لا أنتبه لحاجتهم للفت انتباهه إليهم... بشكاوى الأب من طفل متمرد ومرهق وقح وشاب ناكر للجميل لا أنتبه لحاجته من الاعتراف.. بشكاوى الخصوم والمنافسين الذين عفرت أنفهم في التراب لا أنتبه لحاجتهم من الاعتبار... بشكاوى الطغاة الذين أشبعنهم تهكما وتحقيرا وساهمت في ذلك عروشهم غير معني بحاجتهم لقليل من الحب الصادق... بشكاوى الجلادين الذين فضحتهم وسلطت عليهم الأضواء أرفض لهم الحق في الستر... بشكاوى كل الذين ظلمتهم حين أنصفوني، الذين حجبت عنهم ناظري وجفوني، الذين لم يسلموا مني الأحقهم بسخريتي حتى وهم في الخرق الأبيض. أه، ما زال هناك المزيد من الملفات!

ماذا أيضا؟ شكاوى الأعشاب التي اجتننت أو دُست غير عابئ بماذا أجتنت أو على ماذا أمشي... شكاوى الفئران التي سممت صغارها في غرفة المهملات لا أرحم ولا أشفق... شكاوى الخنافس التي كانت تخرج ليلا خائفة مرعوبة تبحث في مطبخي عن عشاء لصغارها، فإذا بالقاتل الرهيب يفاجئها بالموت الفظيع... شكاوى الدجاج والخرفان والأسماك التي التهمت أطفالها شاكيا من رداءة طبخها... شكاوى شعوب النمل التي لاحقها في الحديقة بالدعس وخراطيم الماء وكل أصناف المبيدات. كيف لا أنفجر ضاحكا ! لا يكفي أنني كنت الذي "منه كل نقمة" لكل هذا الكمّ من الأدميين التعساء، بل وكنت أيضا غولا وعتيئة لما لا يُحصى من الكائنات الحية الأخرى!

**

وأياها وللعجب أنهم أطف كائنات هذا العالم إذ هم "اللذين منهم كل نعمة"

يُدهمني الشعور بأنني مجدداً في خطر داهم وأنا أنتبه لمجهول يركض ورائي في الشارع المظلم ويده تمسك بذراعي. تدوي داخل الذات كل صفارات الإنذار. تتراءى لي بسرعة البرق الصور المعتادة وكيف سأقتاد نحو سيارة رابضة حيث ينتظرنني آدميون بسحن متجهمة وعيون يتطاير منها شرار البغض والخوف.

تتباطأ دقات القلب وأنا أسمع الأدمي المجهول يهمس في أذني، وقد أصبحنا جنباً إلى جنب: بارك الله فيك وفيمن معك على ما تفعلون من أجل كرامة الإنسان.

تربُّ يد المجهول على ظهري بضربات المواساة والتشجيع. يضع الرجل في الزحمة، لا يترك لي الوقت للتمعن في ملامحه. إنّه الآن شعور من كاد يهلكه العطش فإذا به عند منبع العين، شعور من كاد يهلكه الجوع فإذا به جالس إلى مأدبة العرس، شعور الطفل التائه عثر أخيراً على والديه. صدّقت صراخي في وجوهكم بسبب وبدون سبب؟ مجرد ردة فعل على حبّ خيل لي أنكم لم ترضوا به. هذه يدي اليمنى لمن قطعوا له يداً ليمسح بها مجدداً على شعر ابنته. هذا جسمي للرجم فداء كل من أهينت في حياتها وفي موتها. لساني لمن أخلطته التأتأة. مكنتي لمن يجهل أنه فوق كل تكريم. روعي لمن رهن روحه عند الشيطان. بورك فيكم جميعاً.

على أي حال كنا نعيش دون هذا الذي يرافك على طول الطريق يُعينك على أحواله وأحواله! ذات صباح يُدقّ الباب بالبحاح، فأخرج إليه متوقعا الشرّ المألوف، خاصة وأنا أسمع أصوات كلاب الضيع ترغي وتزبد وراءه. كلا، هم لم يأتوا لأخذني مرة أخرى للتحقيق في قضية ملقّة وإنما هم بصدد التأكد من هوية شخص أكاد لا أعرفه بصراً على زيارتي. يفرض الرجل الهادئ بحزم حقّه في دخول بيت شخص خرج لتوّه من السجن، وليس لأحد حق منع الزوار عنه. يسلم عليّ مهناً بسلامتي. يلقي بنظرة ثاقبة حوله، متعجباً من خلوّ البيت تقريباً من كل أثاث. لا يعرف أنه سُرق وأنا وراء القضبان. ثم يدعوني إلى جولة كأنه يعرف حبيّ للمشي. بصراً وسيجارته الأزلية بين شفّتيه، على المرور أمام المقاهي المكتظة وعلى التوقّف بعض الشيء أمام مركز البوليس لتعلم الجميع، مع من يقف وأي قضية اختار.

إنه الأدمي في أروع مظاهره... ذلك الذي يهبّ لنجدة كل غريق ثم يختفي خوفاً من أن يلاحقه أحد بالثناء والشكر ... الأدمي الذي أسميه الإنسان الفارس.

أما زح الرجل:

- أرهقت من يتبعونا وأرهقتني بهذا المشي البطيء، أنا الذي لا أعرف إلا الركض.
- كيف أحوالك مع زميلك العزيز في الكلية وإلام وصلت الخصومة؟
- طلبتُ منه رسمياً أن يتوقف حالاً عن الصلاة والصوم حتى لا يزيد في نرفزة الله. قلنتُ له سو وضعيتك مع الناس ومع نفسك، بعدها يمكنك العودة إليهما قد يقبل بهما الغفور الرحيم من جديد. أما فيما يخصني فسأبقى دوماً صديقك المخلص حتى وإن كنت أعرف عنك كل شيء والباقي.
- لماذا لا تُظهر نفس الإنسانية مع خصومك السياسيين.
- هؤلاء لا تنفع فيهم الإنسانية ولا اللاإنسانية. هل تتذكّر ما ردّ به فرويد على امرأة طلبت نصيحةً بخصوص أحسن تربية لأبنائها: افعلي ما تريدين، النتيجة دوماً سيئة. نفس الشيء مع السياسة، ربما لأنها عنوان المشاكل التي ليس لها حلّ.
- فسّر.

- إن أنت لاطفت الأصدقاء عدوّه ضعفاً وانقلبوا عليك عاجلاً أو آجلاً انطلقاً من قناعة لم تفارقهم يوماً أنهم أجدر منك بالزعامة. إن أنت بطشت بهم انقلبوا أعداء مع كل تبعات الأمر. إن أنت لاطفت الأعداء عدوّه ضعفاً وانقلبوا عليك سريعاً انطلقاً من قناعة لم تفارقهم يوماً أنهم أجدر منك بالزعامة. إن أنت بطشت بهم زدتهم عداء على عداء مع كل تبعات الأمر. نفس المعضلة على صعيد الأنظمة والمؤسسات. خذ الدكتاتورية التي نحاربها. ثمة بشر لا يستأهلونها ولا يتحملونها وسيحاربونها إلى لحظة إسقاطها لأنها لا تتماشى مع مبادئهم ومصالحهم. خذ الديمقراطية التي نحارب من أجلها. ثمة بشر لا يستأهلونها ولن يتحملوها وسيحاربونها إلى لحظة إسقاطها لأنها لا تتماشى مع مصالحهم ومبادئهم.

أما عن النظام المثالي الذي سيرضي مبادئ ومصالح الجميع فهو السراب الذي نركض وراءه جميعاً. تسيير شؤون الأدميين مثل تربيعة الدائرة. إن حكمتهم بالعنف خضعوا ثم تمردوا، إن حكمتهم باللين تمردوا مباشرة، والرقاص يقفز على مرّ الأنظمة والأحقاب، من الفوضى إلى الاستبداد ومن الاستبداد إلى الفوضى، لا يتوازن إلا نادراً ولمرحلة لا تطول.

-بماذا تنصح إذن؟

- لا أنصح أحداً، كلهم يعرفون كيف يخطئون لوحدهم دون حاجة لناصح.

- أليس في هذا الكلام بعض... التناقض. لم أرك يوما إلا وانت تجاهر بالحقيقة وهي نوع من النصح... وأنت أعلم الناس كم يكره هذا النظام أي شكل من أشكال الحقيقة...
-النظام وحده؟ يا ليت.

كلّ البشر يكرهون الحقيقة أكثر ممّا يحبونها... يفرون أمامها أسرع ما يركضون وراءها... أكاذيبهم هي حقائقهم وحقائقهم أكاذيب... لا أتمنّ لديهم من خرافاتهم وأساطيرهم... لا أهم من اسدال الستار الكثيف على حقيقة أبطالهم وقديسيهم وأنبيائهم وأبطالهم... ربما أن الأوان للجهر بأفضليّة التجهيل على التعليم، والتعمية على التوعية، والمغالطة على المصارحة وأنا لا نحتاج طوال عبورنا العالم إلا إلى أكبر قدر من الجهل المريح والكذب المفيد والنفاق البناء والتضليل القويم...

-سهوت، ربما أزعجتك بهذه السياسة اللعينة وصراعاتها العيثية. هل جعت؟ أي مطعم تفضّل؟
- بعد طعام السجن وما أطبخ بيديّ، كل طعام سيكون زردة.
- لنذهب إلى مطعم المتوسط، هناك أحسن أنواع فواكه البحر وصاحبه صديق.
أمام أفخر المآذب التي أصرّ الرجل على اختيار أصنافها بنفسه، ينتقل الحديث من موضوع إلى آخر، وهو يرجعه دوما إلى ظروف عيشي.

- لا بدّ أن تدفئة بيتك في هذا الشتاء الماطر خاصة وهو شبه فارغ؟
لا أتمالك نفسي من الضحك:
- لا تقلق، بدويّ متعود على خشونة العيش.

- عندك مدفأة في الصالون، لماذا لا تستعملها وتنام قريبا؟ أم هي للزينة فقط؟
- لا، هي شغالة، لكن لا بدّ من... بالمناسبة، إلى أين وصلت المحاكمات الأخيرة؟
- غدا، سأذهب للمرافعة في إحداها. أنا معك في أنها مسرحيات ساقطة. لكن ما تدعو إليه من مقاطعتها، أمر يصعب قبوله على محام مثلي لا سلاح له غير القانون. موضوع سنناقش فيه لاحقا. شقيقك يشنكي أنك تخرج وحدك ليلا إلى شاطئ البحر. لا داعي لاستفزاز الشياطين وتسهيل مهمتهم. تذكر أنك تتعامل مع "كابو" مافيا وعصابات لصوص استولت على بلد. آخر سؤال وأرجو أن تتقبله بصدر رحب.

- قلّ و عليك الأمان.
- ما الذي يجعلك تقبل بكل هذه الأخطار التضحيات... من أجل هذا... هذا القطيع الذي تصرّ على تسميته بالشعب؟
- علمني أنبل من عرفت من البشر وهو الذي حرم من الحرية سبعة وعشرون سنة أن الانسان الحرّ ليس الذي يناضل من أجل حريته وإنما الذي يناضل من أجل حرية الآخرين... وأنا أريد أن أكون ذلك الإنسان.
من الغد أفيق لأكتشف كدسا كبيرا من الحطب أمام الباب.

تلتهب النار في المدفأة ويسري لأول مرة منذ أسابيع طويلة شيء من الدفء في الجسم والروح.
نعود للمشي اليومي والرجل الطيب يركض ورائي لا هنا يمسخ عرقه:

- قد يمكنني إعانتك على هموم السياسة لكنني لا أقدر لك على شيء بخصوص الكارثة المهنية التي جلبتها على رأسك. لا أحد يريد هذا الطبّ الشيعي الذي تحاول فرضه. وضعك في الكلية يتفاقم يوما بعد يوم. زملاؤك الأعزاء يكرهونك، طلبتك يرفضون إجبارهم على الخروج من المستشفيات إلى مراكز الصحية المتخلفة. يُقال أيضا إنه لا أحد يتجاسر على إعداد رسالة الدكتوراه معك، لما تظهره من صرامة مع الطلبة المساكين.

- يكذبون عليّ كعادتهم. بخصوص صرامتي الكاذبة هل تعلم أنني كتبت رسالة الدكتوراه لإحدى طالباتي من الألف إلى الياء.
- لا أصدّق.

- فعلتها والله دون تقاضي فليس أو مراودة المسكينة.
- ولو! هات التفاصيل وسرّ الفضيحة في صدري إلى أن نتخاصم.

- طالبة من وراء الصحاري الكبرى جمعت في آن واحد قلّة الذكاء والجمال والمال. دخلت مكتبي ذات صباح ترفل في أسماها باكية لأن كل من توجّهت إليهم من الزملاء الأعزاء للإشراف على رسالتها للدكتوراه طردوها. قالت تبلع ريقها وتمسح دموعها إن هذه الرسالة آخر عقبة في طريق لم يكن سهلا، إنها بأمرّ الحاجة إليها حتى تحصل على شهادتها وتجد عملا تطعم به عائلتها المعوزة. نسيث أن أقول لك إنها قضت في دراستها ضعف السنوات السبع المعتادة، بل وأكثر، وأنها كانت مصدر تندرّ في كامل الكلية.

كيف لا يتغلب يوما تعاطفك مع الأدميين على طول غضبك منهم وأنت تنتبه أنهم جلهم يعانون الأمرين من كم هائل من الامتحانات والمحن وأن أخطائهم وخطاياهم أغلب الوقت ردود فعل قليلة الفعالية على عالم يعيب بهم عبث القط بالفأر!

شيء ما تحرك داخلي يأمر بمد يد العون لأدمي سبح عرض المحيط وهو الآن بصدد الغرق على بعد أمتار من الشاطئ. الشفقة؟ كلاً، الإعجاب أمام عناد هذه الأنثى التي لم تقبل أن تكون خادمة بيوت مثل كل من ابتلاه الله بما ابتليت به من مصير. قلت لها هذا موضوع سهل، جمعنا له كل المعطيات وسيمكنك معالجته في ظرف بضعة أشهر. كدت أرمي أول مسودة في وجهها. تمالكت أعصابي وقضيت معها يوماً كاملاً في مراجعتها ثم طلبت منها إعادة كتابتها. بعد شهر عادت بالأطروحة وكانت عجيبة محسنة من نفس الأخطاء اللغوية والعلمية. في الاجتماع الدوري مع مساعدي حصل شبه إجماع على أنه لا فائدة في تضييع معطياتنا ووقت القسم مع هذه المرأة وأن علينا الاعتذار لها. قلت لهم لكن ماذا سيكون رأيكم في أنفسكم إن اعترضتكم يوماً تتبع الخضراوات على قارعة الطريق أو تحاول بيع جسد لم يسوّه الله أحسن مما سوى ذهنها. نظروا إلي باستغراب وقد بدأت الشكوك تراودهم بخصوص ما سأجاسر على فعله. قلت نعم، سأكتب لها الرسالة ويوم تقديمها ستكونون معي على المنصة، إذ لا مجال لإقحام محققين آخرين قد ينتبهوا للخديعة ويتسببوا لي في مشاكل جديدة أنا في غنى عنها. قلت في نفسي، إن لم يُعجبكم القرار فما عليكم إلا الوشاية بي، ثمّة منصب رئيس قسم ينتظر واحدا منكم. لم يش بي أحد بل تتابعوا على إصلاح ما كنتُ أكتب بمنتهى السرعة وأنا غارق في خضم مشاكلي المتعددة. أي جارة كريمة أعارت المسكينة فستانا يوم نقاش الرسالة؟ ما أعرفه أن سكرتيرة القسم هي التي أعانتها قبل دخول المدرج على تصفيف شعرها وأنها صبغت شفتيها بالأحمر لكي تبدو من فصيلة بني آدم وبنات حواء. يوماً كنّا لأنفسنا الثناء ولم نقصر في مدح متانة منهجية الرسالة وأهمية النتائج العلمية التي توصلت إليها وكيف ستغير وجهة الطب الاجتماعي للعشرية المقبلة. كل هذا أمام عاملات نظافة الكلية ملأنا بهن المدرج ليفتعلن متابعة كلام لا يفهم منه شيئاً. بعد نهاية “النقاش” مع أنفسنا والتداول بيننا في قاعة مغلقة، رجعنا إلى المدرج يحف بنا وقار العلماء لنعلم البنات أن رسالتها قبلت بعلامة مشرف. لما أتمت قراءة قسم أبقراط وهي تتلثم، همست في أذنها أن قسمها لأبقراط لا يعني في شيء، كل ما يهمني احترام قسمها لي بالأتمس أبداً مريضاً وألا تغتبر من الوظيفة التي وجدتها لها في الطب المدرسي، حيث سيتوقف عملها على الكشف على الأطفال وإحالتهم إلى الأطباء الحقيقيين. بعد بضعة أشهر دخلت علينا في القسم امرأة تلبس فستاناً أيقاً والكعب العالي وعلى وجهها المبتسم مسحة من جمال محتشم. لا أنا ولا أحد عرفها. جاءت لتقول لنا أنا بخير، أحب عملي، كل من يعملون معي وخاصة الأطفال يحبونني، شكراً. لحظة سعادة صرّفت وتصلح خالص مع الذات والآخر.

نعم يحق لنا أن نغفر لأنفسنا والآخرين ما نأتيه من موبقات لأننا نقدر أيضاً على العطاء دون انتظار حتى كلمة شكر. حدثني جدّي وأنا طفل، قال الأجنبي وقد تمخّضت عنه العاصفة: عُصت إلى الخاصرة في الرمل الحارق، ظننت أنني ميّت، لا أدري كيف وجدت الشجاعة للمواصلة وبأي ضربة حظ وصلت الخيمة. لم يبألغوا عندما حدثوني عن كرم البدو. قلت له: الضيافة في هذه الربوع حقّ طرفٍ وواجب الطرف الآخر، وإلا كيف كنا نستمرّ أحياء في مثل هذه الربوع؟ على ذكر الصحاري. ربما لا يزال “الذي منه كل نعمة” الذي يجب في هذه اللحظة الفياضي القاحلة التي تفصل بين أرض يهربون منها اسمها المكسيك وأرض يهربون إليها اسمها أمريكا، لوضع أكبر قدر ممكن من قرب الماء في الأماكن التي يُرجح فيها مرور أو ضياع المهاجرين غير الشرعيين.

لنقل عن “الذي منه كل نعمة” أنه الأدمي الذي يمشي أمامك دليلاً وخلفك حارساً، الذي يُخرجك من رمال متحركة كادت تظفر بك، الذي يُطلق صرخة الفزع لينتبهك لبروز الخطر، الذي يجذبك بقوة إلى الخلف عند شفير الهاوية، الذي يرمي عليك معطفه ليرتجف بذلك من شدة البرد، الذي يأخذ منك بامتنان ويعطيك دون منّ، الذي تتكى على ظهره تنتظر مرعوباً وسلاخك في يدك بروز الذناب، الذي يتغاضى عن واضح خوفك ليعكس لك صورة صنديد لا يخشى ما يتربص به من ذناب، الذي تعترف له كم أنت خائف فلا يدين أو يتبجح بشجاعته، الذي لا يفتعل سماعك وإنما يُنصت إليك حقاً، الذي إذا انتصرت عليه لا يغضب، وإذا انتصر عليك واساك واعتذر، الذي يزيهه نجاحك وبيكيه أن يراك فاشلاً، الذي إن لم يقدر لك على شيء في هذه الحياة سهل عليك الموت، الذي يمشي وراء جثمانك وقد مات بداخله شيء ما، الذي يؤوي ذكراك في قلبه توأصل داخله أغرب أصناف الوجود.

نعم، “الذي منه كل نعمة” هو الحالة التي يتخذها العالم عندما يتكفل بحراسة أخطر مفترقات الطريق للأخذ بيد التائهين والمرهقين والمحبطين، خوفاً من أن يتوقف تدفق الحجاج وقد فاقت الصعوبات قدرة مُغامري الوجود على الثبات.

في قصة أخرى، لنقل إنك أنت بطؤها تقول: عُصْتُ في الثلج إلى الخاصرة، أطرافي تجمّدت من البرد ولن أتحرّك خطوة أخرى. كفى أعدارا فارغة. يا لله تحرك، ألا ترى ذلك النور؟ إنه مصباح كوخ فقير. لا تخش أن يكون وكز قطع الطريق، حبسنا لك “الذي منه كل نعمة” في الفصل السابق. هيا تشجّع.

تفتح لك الباب امرأة مبتسمة. تخاطبك بلغة لا تعرفها لكنك تفهم من نبرتها أن عليك الإسراع بالدخول. تصفق الباب وراءك مشيرة إلى مكان على يمين رب العائلة الجالس هو والأطفال إلى مائدة العشاء. غريب هذا الكرسي الفارغ، هذا الصحن، هذه الملعقة وهذا المنديل على الطاولة! تُرى، هل ينتظرون ضيفا؟ طبعاً، والضيف أنت، فهذه العائلة البولونية لا تجلس منذ قرون إلى عشاء أو غداء إلا وقد تهيأت للغريب التائه الذي قد يدق الباب في أي لحظة.

كم صحيح أننا إن لم نندثر من سطح هذا الكوكب منذ زمن بعيد فلأننا أكثر الكائنات تآزرا وأن “الذي منه كل نعمة” إلى النهاية رصيدينا والضمان ضد كل غوائل الدهر. **

وأن من بين الأدميين أيضا “الذي منه كل نشوة” وهو الذي يحبب ويبرر للذات تجربة الوجود.

تفتح “ح” فمها مندهشة وهي تسمع اقتراحي بخصوص مكان السهرة.

- تريد الذهاب إلى علبه ليلية! أنت!

أهز الكتفين:

- كفانا متاحف ومحاضرات وأوبرا. الليلة عرض “الستربنيز” ولا شيء آخر. ثمة بشرية لا أعرفها... بشرية الليل والمحرمات والخطيئة المرحة... بشرية السكرى، المدمنين، الموشمين، البغايا، القوادة، اللصوص، المحتالين، الذين لا يعرفون الأدب والتأدب، الذين يضربون ويتجشؤون ويتمخضون بصوت عالي وأمام الجميع. لن أعرف شيئا ذا قيمة عن الأدميين وأنا أدير ظهري بكل تكبر وغرور لهذا النوع منهم وربما هم أصدق النماذج.

تقطّب “ح” الجبين وفي نظرتها شيء من القلق.

- أعرفك بما فيه الكفاية لأتوقع طول الوقت خطابك الممل عن الطبقات العاملة المسحوقة، ومسؤولية أيديولوجيا السوق البيغضة في تسليع النساء والتعدّي على الكرامة البشرية الخ. لا شكرا، وعلى كلّ هذه عروض لكم أنتم الرجال.

- أنا بحاجة لزيارة هذ الأماكن لمواصلة أبحاثي.

- أبحاث!؟ وفي علبه ليلية!؟

- ألم أقل لك لحد الآن أن أطروحني في الطب كانت لمجرد أكل عيش كما يقولون. أما اطروحني الحقيقية فهي التي أعمل عليها طول الوقت.

- عنوانها؟

- الأدمي، هكذا بكل بساطة وتجريد. ربما سأضيف تحته سطرا: الموجز والقول الفصل في الشؤون الأدمية. طبعاً لن أجد أستاذا يحترم نفسه يقبل بتأطير رسالة كهذه. لذلك قررت أن أكون المشرف على نفسي وأن أناقشها معها في آخر مراحل العمر. ما من شك أنني سأقبلها بعلامة مشرف جدا. لكن في الانتظار، عليّ مواصلة جمع المعطيات الضرورية وهذا يتطلب أن ألحق بالأدمي في كل الأماكن التي تتجلى فيها بعض أخص طبائعه ومن بينها العلب الليلية. أرجوك، لا أتجاسر على دخولها وحدي.

- خشيتك من العيون؟

- التي بداخلي.

يتلقفنا ليل متجه لا ينعف في تحسين نواياه ما تتكأف المدينة من أنوار.

الليل! فترة الزمان التي تتوارى إبانها الأشياء عن الأنظار، تستعيد أنفاسها لكثرة ما مسحتها الأنظار، التي يعاودنا فيها أمل الاختفاء عن أنظار الله والشيطان والمخبرين، التي نخرج فيها مكرهين إلى أخطار عالم وضع على وجهه نقابة الأسود وعيناه جمرتان تحرقان في الأدمي كالذئب المتربص بالأرنب.

تعقب قاعة ضيقة عائمة في شبه ظلام برائحة التبغ والعرق ورخيص العطر. أجيل البصر بين المشاهدين والخشبة التي تنتظر قدوم البطلة. تطيل رفيقتي النظر إليّ باستغراب غير مفتعل.

- مالك تنظرين إليّ، لست أنا الذي سينزع ثيابه.

تخرج التي ستخلع ثيابها من وراء ستار قدر. شابة شقراء، فارعة الطول، مكتنزة الصدر. تبدأ "الفنّانة" في التثنية وهي ترسم على شفتيها ابتسامة مهنيّة أسنشت من وراءها بقايا خجل الطفلة وبعض حرج الصبيّة، وتواصلُ الحياء والشعور بالإثم عند المرأة مكتملة النضج.

"أنت تزجي ردفها بقوامها... فتأطر الأعلى وماج الأسفل" (ابن هاني)

تبدأ في خلع قميص جدّ شقّاف ترميه بلطف على كرسيّ هو كلّ الديكور. هنا تنتبه للوظيفة الأخرى للثياب وأنها لا توضع على الجسد للزينة والحماية والتميّز وإنما لتقول للصيد: تحت الغلاف جوهر النصن.

تنهني "ح" لا تخفي غيرة قد تكون أدهشتها وأزعجها ظهورها.

- بهرك جمالها، أليس كذلك؟

- لم تعد تخدعني أنثى مهما وضعت على وجهها من أصباغ ولبست من حلي وحلل. لكي أحكم على امرأة بالجمال، يجب أن أراها مستنيقة من النوم بشعرها المنفوش متوجهة بالبيجاما إلى الحمام لغسل أسنانها.

فجأة يتعالى الصفير والصراخ من نظّارة يلعبون أحسن منّي الدور الذي يؤدّي في مثل هذه الأماكن.

تأخذ المرأة في اللف والدوران على نفسها وسط ضوضاء تتزايد شراستها وقد تسمرت العيون على أعمق محرّك لجشع الأدمي: اللحم خاصة اللحم الأدمي.

تنفجر "ح" ضاحكة:

- تغني! أنت! أظنّ أنّي مُقدمة هذه الليلة على أكثر من مفاجأة.

- ألا يغنون؟ لم لا أغني أنا أيضا؟

- أنتم الرجال لا تنحدرون من القردة وإنما من الخنازير. من حسن الحظّ أنّي لا أفهم الكلمات.

- إنّها كلمات جميلة وجدّ مهذّبة لأغنية قديمة من بلدي عن جميل لما بدا يتثنّى. رددي معي: أمان أمان، وبالمناسبة كفي عن إصااق التهم المشينة بالخنازير.

تفتعل المرأة معابثة حمّالة الصدر ليحتدّ الضحك والصفير.

تهمس "ح" في أذني: كأنك كئيب، حدثني عمّا بك.

أحدثها عما يتصارع داخلي؟ ستضربني بحدائنها وهو بكعب عال مدبّب.

تبلغ هستيريا الجمهور أوجها عند نزع الصدرية ورميها بدلال على الكرسي فوق القميص.

يثير الصدر العاري زمجرة تتخللها أهات تعجّب، أو دهشة أو وجع.

تبدأ المسكينة اللعب بأزرار بنطلونها الضيق. مسكينة! حقّا؟ من قال إنّها لا تشارك مرح المتفرّجين، أنّ اللّعبة ترضي لديها حاجة أعمق من حاجة المال؟ ألا تعلم ما يعتمل في أنفس مشاهديها من إعجاب بجمال جسم فاتن للأنظار، سالب للعقول؟ كأني أسمعها تهمس للمشاهدين: انظروا، تأملوا، سبّحوا. هل هذه المسرحية إخراج آخر لتعبّد الأدمي للشكل الذي تجسّد فيه وهو شغله الشاغل صيانة وتعهّدًا وتجميلا منذ أولى خطواته على الطريق؟

يا إلهي، كم في هذا الجسد من جمال، كم فيه وعود متعة، كم من خصوبة لتجدّد معجزة المعجزات! كأني بجحافل الكائنات التي تدقّ على باب العالم تتضرع لطاولة القمار أن تسحب رقمها لتفوز بشرف الولادة وقداصة الحياة.

يُرمى البنطلون أخيرا بلامبالاة مدروسة فوق القميص الشقّاف والمرأة تواصل التثني على أنغام موسيقى عاهرة.

تنفجر شتيمة حقيرة أرتجّ لها كما لو كانت لكمة طائشة أصابنتي في الوجه. تتسارع وتيرة الكلمات البيذئة يطلقها مراهقون تسللوا للقاعة رغم أنف القانون. المأدبة أمامهم ولا مجال للإمساك بما تعد. هل ما زالت مثل هذه التعليقات البليدة تثير في هذه

المرأة مشاعر المهانة؟ أم هل إنّها تصفّحت هي الأخرى كالسياسي ووحيد القرن؟

صدق من قال، من باعوا أرواحهم ينظرون باحتقار إلى من لم يبيعوا إلا أجسادهم، اللّهم إلا إذا...

ربما لم يدخلوا هذا العرض فضولا أو لإنكاء الشهوة وإثما لغايات أخرى؟ على من يتهمّمون إنن؟ هل هم بصدد رؤية ما أرى خلف المظاهر الخاطفة للأبصار؟ هل داهمتهم هم أيضا صورة نظّارتي بُعد وقُرب وضعنا على العينين التي كان بهما حور؟، أسنان سوداء وأخرى صبيغها النيكوتين بالأصفر، نهدان سقطا فوق البطن وبطن سقط فوق الركبتين وركبتان تتنان بحمل ما لا يطاق من مترهّل اللحم والشحم. هل شتائمهم موجّهة إلى المرأة أم للذي يرهّل ويمرّق ويكلس كل جسد جاعلا حتى من هذا الذي اكتملت فيه كل الأوصاف خرابا كئيبا؟ هل هذه العلبة اللّيلية الحقيرة محرّاب نتعبد فيه للآلهة خالقة الحياة والصحة والجمال، ونبصق عليها لما تفعله بكلّ هذه الروائع؟ أتراني في كنيسة يجوز فيها الجمع بين ما لا يجمع في الكنائس:

العبادة والكفر، التقديس والتدنيس، الصلاة والرجم؟

تأخذ “ح” هي الأخرى في التهكم:

- تسمي هذا رقصا؟

الرقص، لحظة استكشاف ما يزرخ به الجسد من إمكانيات حركة تجاهلتها أغراض البقاء... لحظة نعود فيها أطفالا نقفز ونصرخ ونهزج لنُفرغ ما بنا من طاقات طال كبتها... لحظة تفجر الفرح فينا لأننا ما زلنا أحياء نرزق... منذ الأزل الطقس الديني بامتياز.

“ح” وفي صوتها نبرة لا تبشّر بخير.

- خذ بالك، ستسقط نظارتك من فوق أنفك.

- هكذا تكون النهود وإلا بلاش الافتعال والتكأف عند بعضهن.

- أخطبها لك؟

- الآن؟ وبلا مقدمات.

- كن على حذر. ذقت أظافري ولم تجرّب حتى الآن عضتي.

- صمتا يا امرأة، تألمي هذه اللوحة.

تدير الراقصة ظهرها للقاعة الهانجة تمنح للبصر عجزا مكننزا لم يرسم مثله حتى ذلك الفنّان من بلاد الفلاندر المسمّى “جوردانس”. أخيرا تضع الفنانة يديها على طرفي قطعة من قماش تغطّي بصعوبة ما يخفيه الأدميّ عادة بين فخذه، أكان ذكرا أم أنثى.

- انظري. إنّها بصدد خلع القطعة الأخيرة!

- رُبّ ضارّة نافعة، وقد اكتشفتُ هذه الليلة وجهك المخفيّ قبل أن أتورّط معك، يا رجل هل أنت واع أنك تكاد تنهض من مقعدك؟

- لا أرى ما أريد رؤيته.

- المرّة المقبلة سأحجز لك مكانا على الركح حتى لا تفوتك شاردة.

يتواصل نزول السروال الداخلي ببطء مدمر لأعصاب بعض المتفرجين، مثيرا لموجة من الضحك تعتمل داخلي. أصرخ مفتعلا الحماس الشديد:

- لا أصدّق أنّها ستتجاسر. لقد وصلت به إلى منتصف الفخذين.

- لا تفتعل البلاهة. أليس هذا ما أتيت من أجله أنت وهؤلاء الخنازير؟

يعتقني الظلام من كلّ تحرّج. لماذا لا أشارك أنا أيضا في تدنيس كلّ هذا المقدّس، أنتقم ممن جعل من هذه الروعة قمامة متجولة سترمي يوما لقمة سائغة للدود.

- أقول لك: لقد وصلت به إلى الركبة وكأنتها عازمة على!، انظري، وصلت به منتصف الساقين، أقول لك: ستخلعه، !!!

- وماذا كنت تنتظر؟ أن تحاضر في النحو المقارن.

- تحدّثيني عن النحو المقارن والخليعة تتأهب لقضاء حاجتها الطبيعية أمامنا! يا الله بسرعة ورائي، لا أظنّ خرا حتى هذه الحسنة يعبق برائحة الياسمين.

تواصل “ح” ضحكها مختبئة بين ذراعيّ، وسيارة الأجرة تأخذنا إلى البيت. ثم تتوقف:

- ما لك صامت؟

- أحاول التعرّف على عطرك الجديد، فيه نكهة غير التي كانت للقديم لا أستطيع تحديدها.

- إنه الذي أتيت لي به آخر سفرة.

- على فكرة، لماذا مواصلة عادة التعطر خاصة بتكاليفها الباهظة للعشاق والأزواج وقد اكتشفنا فضائل الماء والصابون على الروائح المخجلة؟

- كفى استفزازا رخيصا.

- استفزاز؟ لم توجد العطور ولم تصبح مصدر تجارة وحروب وثروات مشبوهة إلا لمحاولة التغطية على الروائح الكريهة للبشر. الجدع الذي تسمونه “الملك الشمس” نفسه كان نننا وكذلك كل حاشيته. كانوا لا يغتسلون أبدا ولا يغيرون ثيابهم الداخلية.

هؤلاء الأغبياء كانوا يأخذون دشًا من العطور عوض دش من الماء. لم تأت الفكرة العبقريّة والبسيطة والرخيصة التكاليف إلى البشر إلا منذ قرابة مائة سنة فقط. في المدينة الجميلة التي أعيش فيها سنوات أخرى من النفي، كان المارة لعشرات القرون يضطرون إلى وضع مناديل على أنوفهم للمرور من الشوارع. كانت الولية تفتح شباكها وتسكب كل سوائل البيت من بول وفضلات، أحيانا على رؤوس المارة. لله دركم، تتجنّون على الخنازير وقد عبّرتم جلّ التاريخ ملوكا وعبيدا تعيشون بين

وفوق القمامات وبعدها تدعون أنكم كائنات نورانية وعقلانية، أن الله استخلفكم على الكلاب والقطط، هي التي لم تكن يوما بحاجة إلى عطر.

- آه، يا عدو البشرية!

كم أجاد الله أو الطبيعة صنعنا... هل كان الجنس البشري يتواصل والحبیب يشم ما بداخل أحشاء الحبيبة، والحبيبة تغالب تقويها مما يختمر داخل أمعاء الحبيب؟ قيل في الأدبيين: يجمعهم طبل وتفرقهم عصا، ولو أخطأ قسم الهندسة العامة لكان القول: يجمعهم طبل وتفرقهم رائحة... أي عالم كنا نعبر ونصنع ونحن عاجزون عن البقاء أكثر من دقائق معدودات مع بعضنا البعض لأننا لا نتحمل فقط روائح التبغ والعرق والملابس الداخلية وإنما روائح الفضلات التي تتجمع داخلنا فما بالك لو كان لنا أنف يرصد روائح الأفكار العفنة التي تختمر داخل الأرواح المريضة ...

- دخلت قوقعتك كالعادة.

- تكلمي أنت وخذي حريتك.

- أشتمك؟

- كل ما تريدين. المهم استعادة أول نبرة لك رنت في أذني. أتذكرين؟ أتذكرين أول آلو، يوم اتصلت بقسمك بخصوص مريض حوّلته لي ممرضتك دون ملفه؟

يا ربّ الموسيقى، من أين أتيت بهذا الصوت، ولماذا لم توزع عليهم جمال الصورة وجمال الصوت بسخاء أكبر؟ هل الأمر مرتبط بصعوبة إعداد مثل هذه الأصوات وثمرتها؟ وهل لديك أفكار أخرى ومشاريع ما زالت قيد الدراسة؟ وكما يجب أن أنتظر من الوقت لأسمع صوتا أجمل؟ يومها قلت لنفسي لا بد من عذر-مهما كان واهيا- لأكلم المرأة المجهولة، أقول لها إنني لا أريد معاكستها ولا أطمح إلى وصالها، وكل ما في الأمر أنني ساكون ممنونا لها لو بعثت لي بشريط تقرأ فيه حتى دليل الهاتف لأسهر عليه ليالٍ وليالٍ، و بجانب دفتر صغير أدون فيه ما يوحي إليّ به صوتها من أحاسيس ومشاعر.

أخيرا اختلاء الحبيب بالحبيب.

فقل لهم لا تحضروا الشمع في هذا الجمع، في هذا المساء (حافظ)

فقد تم قمر الحبيب في مجلسنا، واكمل له البهاء...

تسهر ذات عذبها طول الانتظار بالجدل يتصاعد داخلها فتستعجل ما لا يزال مخفيا وراء ألف حجاب. أخيرا التي تتشوق إليها روحي، التي سيمتلئ ويفيض بها فراغي.

أصخّ السمع لما يتعالى من أغاني الأدبيين ومن أشعارهم لتكتشف أنه شغلهم الشاغل بل وفي كل عمر. لا تسمع على امتداد الطريق من كل الحناجر إلا صرخات شوق الأدمي لهذا الأدمي: "أعدا ألك؟" اطلب عيني الغاليتين عليّ وأعلى منهما رضاك، "مولاي وروحي بيده ضيعتها سلمت يده"، "من أكون دونك أنت الذي أفقتني للربيع وعلمتني كل ما أعلم"، نور جمالك آية من الله... الخ... الخ... حيث ولا تسل عما قيل فيه من أشعار وما رسمت له من لوحات وما ألقت له من موسيقى. تحقّ الذات في الوجه الموعود فيأتيها من التحديق ما يأتي الأعمش من مواجهة الشمس. تتسع ابتسامتي وابتسامته "ح" وهي تمرّ يدها أمام عيني لأفتحهما. عاد العالم طفلا.

أي أوتار سحرية خفية تنقرها الذات المعشوقة في الذات العاشقة لتثير فيها شعور المقرور عند بسط يديه فوق نار المدفأة، شعور العطشان عندما رفع كأس الماء إلى الشفتين، شعور الطفل الضائع عندما تلوح له أمه أخيرا بين جحافل الوجوه الغريبة، شعور من وصل إلى الواحة والشاطئ والملجأ والمرفاً بعد طول تشرد.

يا معشر العشاق ما البشري قد ظفرت كفي بمن أهوى (أبو العتاهية)

واصلني من بعدكم سيدي كذاك أيضا لكم العقبى

ضمنت كفي على درة لا شركة فيها ولا دعوى

لما تملأت سرورا بها أغربت عني سائر الدنيا

قد يكون الحب خرقا كالذي تمرّره على نافذة تراكم فوقها غبار، لكنه خرق تسمح به يد رحيمة الغبار الذي تراكم على الروح.

الحب شعلة نور ساحر هبطت من السماء فكانت ساطع الفلق (الشابي)

يطوف في هذه الدنيا فيجعلها نجما جميلا ضحوكا جد مؤثلق

لولا ما سمعت في الكون أغنية ولا تألف في الدنيا بنو أفق

ثمة طقوس معقدة للاقتراب الحذر من "الذي منه كل نشوة" وهو الآن القريب البعيد، المعروف المجهول، المحمل بكل الوعود وبكل الأخطار. الجسد أخيرا. كم له من تماثيل، كم من لوحات، كم من قصائد، والرقاص دوما من تدنيس إلى تدنيس ومن تدنيس إلى تدنيس. كم يخطئ شاعر "با"، فخير جليس في الزمان حبيب وأعز مكان في الدنيا الفضاء الذي بين ذراعيه.

تهمس “ح”:

- ستترك آثارا زرقاء في عنقي تجبرني على وضع وشاح في عزّ الصيف.
ثم تصرخ بين ضحك واحتجاج متصنّع:

- هل جننت! كأنك تريد أكلي؟!!

تعبّر الوجه رهبة ما زالت قائمة وابتسامة تشجّع على المواصلة. تتصاعد من الأعماق رغبة عارمة في دخول الذات الأخرى وكأنتها المغارة السحرية المغلقة التي طال وقوفك على بابها تضربها بقبضتين متشنجتين. أخيرا يفتح الحرم ويأتي أمر الدخول رقيقا لا لبس فيه.

- هل تتقين بي وتسلمين لي أمرك؟

- نعم!!

- انتبهي.

اتحد المعشوق بالعاشق
ابتسم الموموق للواقم (الحلاج)

واشترك الشكلاّن في حالة
فامتحقا في العالم الماحق

دليل يقودك داخل مجاهله وأنت الدليل الذي يقوده في أعماق دهايليك.

وفي جسدي تبحثين عن الهضبة
(أوكتافيو باز)

وعن شمسها المدفونة في الغاب

وفي جسديك أبحث

عن المركب وسط الليلية الضائعة

تكتشف الذات في هذه التجربة لا غير، ما تختزنه من متعة تفقد الرشد. كيف يمكن لهذا الجسد أن يعرف العذاب وحالة كهذه؟

ما أغرب وجود الماء الزلال والنار الحارقة في وعاء واحد!

- رويّت.

- رويّت.

- تغني! بماذا تهمهم؟

- بكلمات أغنية قديمة تدافعت إلى سطح الوعي.

نعم، يا ليت هذا الليل لا ينتهي أبدا، نتواصل إلى الموت بين إغفاء ويقظة، ننعّم بالدفاء بين الأحضان، بالطمأنينة وبالاسترخاء في مأمن من عودة الفجر.

- لم يبق عليك سوى إصدار فتوى بتحريم الشمس وإعطاء الأوامر لإبقائها في المستودع، يكفي ما وتّرت من أعصابنا وهي لا تكفّ عن الشروق والغروب كأنها لم تستقرّ بعد على خيار.

- أمر سأنفذه دون تردد، والآن، ردي على سؤالي: من أنت؟

هل سمع “الذي منه كل نشوة”، لكنه فضّل الصمت؟

آخر محاولة.

- مجددا، من أنت؟

- وأنت، من أنت؟

- من أنا؟، “أنا الذي لم يقرأ الأعمى أدبي ولم تُسمع كلماتي من به”

- نم الآن، واتركني أنام. يجب أن أرتاح لمواجهة المشاكل في القسم وهي تتوالد من بعضها البعض كخلايا السرطان.

لنسمّ هذا النوع من الأدميين الذي منهم كل نشوة.

لا دوام لصداقة أو عداوة مع هذا وذاك، إنما البقاء للعداوة والصداقة. اللعبة ثابتة، كل ما يتغيّر هم اللاعبون. كذلك الأمر مع الحب.

ما أفضح أن تقرّ الآن ممن جرّبت وراءه طويلا، أن تملّ ممن أخرجك من الملل، أن تكفر بمن عبت. وفي مثل هذه الحالة كأن ذاتك جذوة نار سقط عليها المطر، كأنك موجة لم تعد تحركها ربح، كأنك بركان خمد، كأنك حلم جميل ارتطم ببقطة بشعة.

تفريق كل ذات لوحدتها وهي تكتشف أنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

لا أحد عبر العالم وحيد لكن لا أحد يصحبك فيه من البداية إلى النهاية. حتى الكائن الذي حملك في أحشائه يتركك أو تتركه ورائك ذات يوم. كذلك الأمر مع “الذي منه كل نشوة”.

مقدورك أن تمضي أبدا
(نزار قباني)

في بحر الحبّ بغير قلوب

وتحبّ ملايين المرات

وترجع كالملك المخلوع

وفي مثل هذه الحالة كأن حبك جذوة نار سقط عليها المطر، موجة لم تعد تحركها ريح، بركان خمد، حلم جميل ارتطم ببقعة بشعة. تقيق كل ذات لوحدثها وهي تكتشف أنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

على فراش كان يضمننا للحب، تدبر لي "ح" ظهرها وأدير لها ظهري وقد أصبح لكل واحد منا شبح يعايشه سرا، يعانقه نهارا، لينام في أحضانه ليلا. هي وأدت من حرمانها ومن توقف اللقاء حبيبا جديدا ووأدت من حرمانها ومن إخفاقي في تجديده حبيبة أخرى صغت ملامحها في طي الكتمان والسر. تأتيني غيرة غيبية وأنا أشعر بـ"ح" تحتضن شبح حبيبها الجديد بلهفة وخشوع. أسترق النظر إليه من فوق كتفها وكلي فضول جارف لأعرف من فضلت علي. ثم أنسى غيرتي من هذا الأدمي الذي تعانقه سعيدة راضية وقد أنساني الفرح بمن أتاني على غير ميعاد كأننا أصبح لا يعنينا. ربما تسترق النظر هي الأخرى من فوق كتفي وقد عرفت شيئا كالغيرة من المرأة التي أعانقها وتعانقني بكل هذا الشوق السعيد. ربما تجاوزت هي أيضا غيرة لم تعد ذات موضوع وقد أنساها الفرح بمن أتاهها على غير ميعاد كأننا أصبح لا يعنينا. على حدود عوالم الحلم والخيال نُسلم نحن الأربعة -اثنتان من عظم ولحم واثنتان من خيال ومن حلم- مصيرنا إلى تدفق سيل الزمان.

تكفكف "ح" الدمع رغم مرور السنوات الكثيرة على آخر جرح.

- هل تذكر لحظة الوداع؟ بقيت على الرصيف أنظر إليك وأنت تجلس حذو النافذة. فتحت "لوموند" واستغرقت في القراءة. لم ترفع أنفك عن الجريدة والقطار ينطلق. آنذاك قررت أن أجلس على أبعاد صخرة على الشاطئ في ظلمة الليل ثم أطفئ النور. تراجعت آخر لحظة لأنك لا تستأهل شيئا كهذا أيها الوبش، أيها الخائن. أنا التي كان علي أن أعطيك تقاحة وتفيحه. اللعنة على هذا العالم الملعون الذي لا تتحرك فيه خطوة إلا وأنت تتأذى وتؤذي، بإرادتك وبغير إرادتك.

- لم أكن أقرأ وإنما كنت...

- لا تحاول إقناعي بأنك كنت تخفي دموعك ولو أنني لن أستغرب الأمر. كم حلمت أن تبكي ورأسك على صدري.

- ما رأيك في تغيير الموضوع؟

- ليكن. هل قرأت الخبر الذي نقلته جريدة الجزيرة على صفحتها الأولى: عجوز تفاجئ زوجها، صاحب التسعين حولا ولم يسأم، في فراشها مع عشيقته ذات الثمانين ربيعا.

- لله درّه، فحل إلى آخر لحظة.

- هل بوسعك أن تكون مثله؟

- ماذا؟ أتشكين في ذلك؟ هل من خيار آخر بعد أن أيقنت أن لا فائدة من الهرب منك، أنت التي أهرب إليها كلما أصابتنني مصيبة، خاصة مع النساء.

- أريد أفعالا لا أقوالا.

- تعالي.

تفتح موظفة النزل فمها:

- حجز لصيف 2035، بعد ثلاثين سنة؟ تسخر مني يا سيدي!

- لا أسخر منك أنت. هذا ثمن غرفة لشخصين وباقية الورد وهذا للبقشيش. رجاء إذا تأخرنا أو لم نأت لأننا سافرنا بعيدا، فلا تسلموها قبل السادسة ظهرا.

وعند باب النزل تدبر لي "ح" ظهرها فأصرخ فيها داهمني الفزع:

- إلى أين؟

- ربما ظننت أنني تراجعت في قراري.

- من يتفهمك أحسن مني، أنا الذي لا يريد شيئا أكثر من فراق من تفارقين، لكن الأمور ليست بالبساطة التي...

- بلى، وداعا.

فراق الذات لذاتها! طلاق بالثلاث بين الأنا والأنا! أي جزء سأرمي خارجي رافضا كل صلح معه؟ أي جزء من ذاتي سيرميني خارج العش أنا المتكلم؟ هل سأتحفف حقا من أثقالي أم هل سأكتشف أنني لا أعيش إلا بهذه الأثقال؟ عينا أصرخ في "ح" وهي تدبر لي ظهرها راكضة نحو نفق المترو.

- يا امرأة انتظري، قفي، ثوبي إلى رشذك، ما زال هناك أمل. طيب، لا تنسي موعدنا والغرفة بالثمن الذي دفعوني.

يتجدد بحث العابد عن المعبود والسؤال هو دوما نفس السؤال:

”من تراها (البياتي)

أنا لا أعرف. ويحي من تراها؟

همست في مطلع الفجر وقد ضاع صداها

أيتها الفجر الذي ذابت به، أين أراها؟

أيتها الغاب الذي مرّت به، أين شذاها؟”

في آخر المطاف من هذا الذي نركض وراءه على طول الطريق، من تسميه الرؤيا “الذي منه كل نشوة”؟ ثمة فينا من بحث عنه على طول الطريق ولم يجده ثم جاءه اليأس فانكفأ على حزن دفين. ثمة من لم ينتبه يوما لوجوده أو لضياعه. ثمة من ما يزال مصرا على أنه موجود في مكان ما وأن قدره أن يلحقه في هذه الدنيا أو في الآخرة. ثمة من يدعي أنه البديل الهزيل لـ، “ما” أو لـ، “با” حسب جنس الفاقد والمفقود، أننا نظلمه عندما نريده مطابقا لأوصاف من لم يعرف. هناك من يقول إننا لا نبحث فيه إلا عن ذاتنا. ألا نتغزل بالحبيب نشئ مسامعه بما يريد أن يسمع لبيادنا الهدية بأحسن منها؟ ألا نتزوج إلا بمن يشبهنا؟ ألا نرمي “الذي منه كل نشوة” أو يرمينا يوم ترفض المرأة أن تُرجع الصورة المطلوبة؟ ثمة تصوّر آخر للذي منه كل نشوة، تعبّر عنه أحسن تعبير قصة كتبت بألف صيغة وها هي صيغتي لها. تحلقوا حولي أيها البؤساء لأروي لكم ماذا حدث بالضبط ومن المسؤول عن كبرى مصائبكم.

لما أنتني البعثة بنماذج الكائنات التي سببها في أبعد غزوة لنا داخل أبعد مجرّات هذا الكون، وضعتُ أمامي على طاولة التشريح كائنا أذهلني فيه أنه مكوّن من وجهين، له ظهران وأطراف أربعة عليا وأربعة أخرى في أسفله، تداخلت وكأنها أذرع الأخطبوط. قلت في نفسي: أي ذات تختفي داخل شكل لم أر له مثيلا؟ يومها وضعت أدقّ أجهزتي أتحمس بها ما بداخل الكائن من حالات. يا للهول! كيف لا أفاجأ ولا أغار والمؤشرات تؤكد أنّ هذا الكائن هادئ، حالم، سعيد، مكتمل، مكثف بذاته، منغلق عليها، ومنسجم. أي إله نجح في الحلّ حيث لم ألاق إلا خزي الفشل؟ ثم إنني أعدت الكشف أكثر من مرّة لتواصل أجهزتي التأكيد أنّ الأخطبوط برأسين لا يعرف العلم ولا يعرف الجهل، لا يعرف الألم ولا يعرف الأمل، أن الكمال فيه اكتمل. إذن نجح غريمي أينما أخفقت. لا بدّ من معرفة سرّ نجاح من أقمني عقما. فتحت الكائن لدراسة مستفيضة واضعا فوقه مشرطي لفصل ما كان يبدو لي مكوّنا من جزأين ألصقا معا بعناية وإحكام. لم يكن من السهل تفريق الشفاه ولم يكن من السهل وضع الفضاء بين صدرين متلاحمين. لم يكن من السهل اقتلاع الجزء الأسفل من الجزء المقابل. كم عانيتُ وأنا أفصل الأذرع عن بعضها البعض، لكن المقاومة المستميتة للكائن لم تُجد نفعاً. أخيرا رقصتُ طربا وأجهزة تحسّس الذوات تعلمني أن الواحد الذي جعلته زوجا أصبح يشعر بالألم، بالعري، بالعار، بالوحدة وبالانفصام. لإتمام انتقامي سارعتُ بوضع الخوف والنفور والجفوة من النصف الآخر داخل كلّ نصف مبتور حتّى أعرقل، ولم لا أمتع بحثا محموما عن اللقاء، وإن تمّ ألا يدوم طويلا. هكذا تنفّستُ الصعداء وأطلقت صرخة النصر وقد صنعتُ من واحد كامل ناقصين سأزرعهما لتجربة مثيرة، أو اصل أبحاثي؛ أنا أكبر مهندسي العتمة، أنا... إبليس.

هل نجري حقا وراء صورة “ما” أو “با”، أو وراء خيالنا في مرآة الآخر، أم نسعى لجمع جزئي ذات مشطورة منفية منذ زمن انطلاق ملحمة الأدمية عن بعضها البعض؟

لمواصلت سبر اغوار الأدميين يجب التحول من الأماكن التي تتعري فيها الأجساد إلى أماكن لا تقل إثارة هي التي تتعري فيها الأرواح أين سيتضح أنهم وراء تعدديتهم المذهلة يتقاسمون نفس المصير.

**

عن قدرتهم على الضحك مما يبكيهم

لا توجد بناياتٌ أولاًها البشرُ العناية الفائقة وصرّفوا عليها الأموال الطائلة، قدرَ هذه الأماكن التي يسمونها المسارح. ربما المعابد. طبيعيٌّ والمعابد مسارح والمسارح دور عبادة تُخفي نواياها. هل من باب الصدفة أن أول من علّم الأدميين بناءها ربُّ اسمه فاكسمان، وأن مدرّبهم على الإيقاع كان شيفاء، وأستاذة الرقص الربةُ بارفاتي بنفسها، وبراهما لا غيره هو أولُ معلّم لفن التمثيل؟

لذلك لا أدخلُ معبداً إلا لتقييم طرافة الإخراج وبراعة الممثلين، ولا أدخلُ مسرحاً إلا وجاءتني لحظةٌ فكرةٌ ترك نعلِي عند الباب.

ليُسمَح لي هنا بفتح قوس. ماذا لو كان المحيط الرائع الذي نتحرك وسطه هو الآخر مسرحاً-معبداً تكلفت السلطات العليا كثيراً من الجهد لكي يكون على أعلى قدرٍ ممكن من الجمال ونحن على ركحه الممثلون؟ آنذاك من النظارة؟ هل هم بصدد متابعة ما نقول وما نفعل؟ خاصة هل أدائي وأداؤك يثير فيهم عاصفة من الضحك أم وإبلا من التصفيق؟ ثمة صورة أخرى للمسارح-المعابد الأدمية: مختبرات طبيّةٍ للتشخيص والعلاج، تُشرَح فيها الذوات أمام الأنظار المتشوّقة، والجراحُ الماهر آدميٌّ اسمه سوفوكل، ايشيل، أوريبيد، موليار، شكسبير، أو زي-أمي. أغرق في المقعد الوثير متنقّساً الصعداء أرهقني طول الطابور. تمرّ بين الصفوف مضيئة برزمة من المطبوعات.

- سيدي هل تريد برنامج السهرة؟

- نعم إن سمحت برنامج الرحلة.

- عفوا!

- كنت أمزح.

برنامج الرحلة! طبعاً هناك برنامج لا أحد يدري من خطّه ولماذا بهذا الشكل... على كل آدمي أن يوكد، أن ينمو، وأن يموت... لا حقّ له إلا في جسد واحد وعليه الحفاظ عليه في أحسن حال ممكن ولأطول فترة من الزمن... عليه اكتساب خبرةٍ ما يقابضُ بها ما يتلقّى من غذاء الروح والجسد.....عليه تزويد القافلة الكبرى بالنسل حتى لا يتوقف الركب... عليه استكشاف رفاق السفر لحسن استعمالهم أو لاتقاء شرّهم... عليه الغوص في أعماق ذاته ليفهم من هو حتى يفهم من هم.... عليه أن يقرّر ما المهمة التي كلف بها في هذا العالم وهل قام بها على أحسن وجه...وفي كل الحالات لا مكان له ولا مكانة إن كان عائلة لا عائلاً، إن كان علة لا مغيباً.

تنطفئ الأضواء تدريجياً. يُزاح الستار ببطء. يُرفع الجسر الرابط بين الفضاءات. نترك خلفنا ما نسميه "الواقع" لنتوغّل بعيداً داخل فضاء الأفكار والخيال.

تنطلق الأفعال والتفاعلات التي جننا جميعاً للتمعن فيها، نبحث عن شيء غير محدّد. يبدأ الممثل في الإلقاء.

كم مرّة مثّلت هذه المسرحية! تُرى هل بوسع المخرج الشاب أن يأتي بشيء من التجديد؟ أه لو تُرك للمثلين حقُّ التصرف في النص والارتجال في كل لحظة حتى لا يشبه عرض الليلة عرضَ البارحة، ولا خشية عرض الغد أن يكون ترديداً لعرض الليلة. أه، لو تُرك للنظارة حقُّ التدخل لا يهّم أن يتقلب المؤلف في قبره سخطاً أو أن يصقّق صارخاً برافو هكذا أحسن بكثير! يئنّ شبح الملك المقتول يستنهض همّة ابنه يحقّر فيه أعمق غرائز الأدميين: الانتقام.

- "في نومي وبيد شقيق! انتزعت مني في مرّة واحدة الحياة والتاج والزوجة. يا للفضاعة. لا تترك فراش ملوك الدنمرك يُدنّس بالفسق والزنا اللعين".

يراقب العمُّ المتزايد قلماً ابن أخيه. هل فهم أنه قاتل والده وناكح أمه؟ أنه استولى بالخيانة والغدر على الملك والملكة؟ هل لديه شكوك؟ أدلة؟

يتوجّه إلى هاملت خانفا متودّداً، يقيس مدى علمه بجريمته النكراء.

- "إنه جميل ومحبّب من طبيعتك أن تؤدّي واجب الحزن تجاه والدك. لكن يجب أن تعلم أنّ أباك فقد أبا وكذلك والده، ومهمة الباقي على قيد الحياة التقيد بواجبات البنوة في الأسى، لكن لمدّة. أمّا الإصرار عليه فعنادٌ كأنه الكفر".

تصرخ أوفيليا حبيبة هاملت: نهض الملك.

كيف لا يثب من مكانه هذا الذي مرّق عهداً ربطه يوماً بأخيه وهاملت يروي، متكأفا السداجة، قصّة تخلص إيطالي اسمه "كونزاجو" من أخيه، وزواجه بامرأته، مع كل تفاصيل القتل بسم مسكوب في الأذن.

قصة أخرى عن نكث العهود والعقود، عقد الحب، عقد الزواج، عقد الصداقة، عقد التحالف، عقد الحكم، عقد التجارة، عقد السلام. كل قصصهم أفرادا وشعوبا تبدأ بالخروج على عقد وتنتهي بصياغة آخر، وكل عقد مآله الانتهاك عاجلا أو آجلا، لذلك هم دوما بحاجة للدعاة والقضاة عليهم يحفظون عقودهم من نزعة الغش المتأصلة فيهم.

يصرخ الملك القاتل: علي بالنور، النور!

أي نور قادرٌ على إضاءة الظلام الدامس الذي يتخبط فيه، ومن أي مصباح سيشع؟ ليست الأم الخائفة، الخائبة، الخائفة، بأحسن حال. ها هي تحت بولينبوس على أن يصدفها القول بخصوص تغيير طبع هاملت.

ثرى هل يعلم ما فعلته الأم التي حملته في أحشائها؟

يصرح الرجل برأيه كمن يُصدر قرارا لا طعن فيه:

- "سأختصر. ابنك النبيل مجنون. أسميه مجنونا وما الجنون إلا أن تكون غير مجنون".

- "أريد أكثر مادة وأقل بلاغة".

- "يا سيدتي، أقسم أنني لا أبحث عن بلاغة. إنه فعلا مجنون وإنها لمأساة".

مأساة هاملت مأساة كل البشر... ننزل للعالم وهو في طور من تاريخه لم نختره... نفيق في مكان عينته الأقدار وزمان حدته طاولة القمار... نعيش ونموت داخل قصص لا ناقة لنا فيها ولا جمل متقدمة بسنوات، بعقود وحتى بقرون على ولادتنا ومع ذلك لا خيار غير الانخراط فيها وقد أصبحنا سننا أم أبينا فصلا من فصولها.

تنوّل الملكة إلى ابنها الذي أفقدته الجريمة النكراء صوابه.

- لا تقل شيئا آخر. كلماتك خناجر تدخل أذني. بلا مزيد يا حبيبي هاملت.

يواصل الملك افتعال السداجة.

- هل يكون السبب الذي أخرج هاملت من عقله موثٌ والده؟

يستحيل الصبر على كل هذا القدر من سوء النية، وهو أكره ما أكرهه عند الأدميين.

يستسلم الذهن كالعادة لأفكار تتدافع من أعماق اللاوعي وقد انهارت الحدود المصطنعة بين ما يسمى الواقع وعالم الخيال. ها أنا وقد أصبحت أتحرك في فضاء موازي أرفع إصبعي في وجه هذا المنافق.

- عيب يا رجل. لا يكفي أن تقتل أخا، أن تنام مع امرأته وأن تسلبه ملكه، والألآن تسخر منا متسانلا عن أسباب فقدان هاملت عقله وأنت أول من يعرف.

يرمقني القاتل بحقد:

- ما دخلك أنت؟ أنا حرّ أقتل من أشاء وأتزوج من أشاء.

يقرب روزنكراتز وقيلدنستارن رأسيهما من الملك يهمسان في أذنه.

- من الأحسن يا صاحب الجلالة ألا تردّ على هذا الصعلوك القادم علينا من قصة أخرى ومن مستوى آخر لعالمنا، فهو مُعارض معروف، ككل المعارضين بقلبه مرض.

يعرض عني الملك بوجهه راسما على ملامحه ما يقدر عليه من علامات الاحتقار. جرحته وهذا المهم. ترمقني الولية امرأته باستهجان، فأغتم الفرصة لأسمعها رأيي دون خوف، ومَلّفي بخصوص سبب السلطات العليا زاحر، ولا تُضيرني قضية إضافية.

- أيّ إنس أو جان يستطيع المحافظة على معنوياته وأمه قتل والدته وتنام في فراشه مع شريكها في الجريمة! كيف لا يُجنّ هاملت زيادة عن الجنون الطبيعي للأدميين! امش، يلعن أبوك يا قحبة.

يواجهني الممثلون باستنكار مفتعل: يا رجل كفت عنا أذاك وبذاعة لسانك. ألا ترى أنك تشوش علينا. نحذرك من التمادي في هذا التندّل السافر في شؤوننا.

يا لخبية الأمل وأنا أرى بينهم هاملت وحتى أوفيليا حبيبته الطاهرة. كأنهما طعنا في الظهر الفارس المغوار الذي هب لنصرتهما. لكن جحود الأدميين ونكرانهم للجميل أمر عاد، يكرّمون اللّثيم ويتمردون على كلّ كريم مُذُوجدوا. أجيل البصر حولي أقيم مدى تأييد القاعة لي وتفهمها لغضبي المشروع واستعدادها للدفاع عني إذا نشبت معركة عامة بين النظارة والممثلين. أفاجأ بهدوء جيراني، ذلك لأن أطوار المشادة لم تخرج لحظة من فضاء خيالي ولو أخطأت التموّج لجروني مباشرة

إلى مركز الشرطة أو لمستشفى المجانين، ذلك المكان الذي يذهب إليه الأدميون عندما يخلطون بين الفضائات المكوّنة لعالمهم.

ينتهي الجزء الأول من العرض. يختفي الممثلون تحت وابلٍ من التصفيق، وراء الستار. يعبر جاري بصخب كبير عن بالغ

رضاه بأداء الممثلين. ألتفت إليه باسم متأدبا:

- أنتصوّر! أخ يقتل أخا وينكح الولية امرأته! كلّ هذا من أجل سلطة زائلة!

ينظر إليّ الرجل الأنيق بحذر. مؤكّد من مظهره أنه إطار كبير في شركة ماء، يعمل ليل نهار لإرضاء رؤسائه ورفع الانتاج القومي الخام، ومع هذا يأخذ الوقت للذهاب إلى المسرح لأنه ليس كبقية زملائه الأغبياء الذين يتوجّهون من مكاتبهم مباشرة إلى الحانات. المسكين! سيموت ككل الجهلة والسكيرين، ككل الأجانب وأصلي هذه المدينة.

يفتح برنامج السهرة يُشعُرني أنه لا يتوي فتح نقاش مع غريب مشبوه. من قال له إنني لا أنوي الصمت؟
- يا لها من أخلاق! ثم أين احترام القانون؟ كم أنا متشوّق إلى معرفة الخاتمة. هل تظنّ أن هاملت سينجح في الانتقام من عمّه؟
بالمناسبة، من هو مؤلّف هذه القصة التعيسة؟

- (بلهجة البعض عند كلامهم مع الأطفال والنساء): ألم تقرأ الاسم على اللافتة؟
- لم أنتبه. كنت أريد الهروب من المطر ودخول أيّ قاعة لقضاء السهرة. لَمَّا رأيتُ طول الطابور قلت لنفسي: لا بدّ أنّه عرضٌ جيّد، فلم لا أجرب؟ على فكرة، ما اسم مؤلف هذه المسرحية الركيكة؟
- المؤلّف وليام شكسبير “مون بون مسيو”. (بإحباط من قدر فجأة عمق الهوة بين المتحضرين والمتخلفين من وراء البحار)
- وليام من؟

- شكسبير، شك-سبير. ألم تسمع عنه من قبل؟ (بنفاد صبر وشيء خفيف من التهكم):
أحدّق في الفراغ مُطوّلاً.

- فعلا سمعت هذا الاسم. أليس مؤلّف القصة التي عرضوها العام الماضي في التلفزيون والتي وقعت أحداثها في مدينة إيطالية اسمها “فينيسيا”؟ زرتُ هذه المدينة شخصياً، لكنني وصلتُ إليها، وبخني كما تعرف، غداة فيضان لا يُصدّق. إنّها حقاً لمأساة أن يضطرّ رجل مسكين إلى قتل زوجته ثم تتركه اللعينة يتخبّط في مشاكل لا نهاية لها مع الشرطة والقضاء وإدارة السجن والجلاد. هؤلاء الإيطاليون وقصصهم التي لا تنتهي عن “الفاندتا” والشرف الذي لا يُحفظ إلا وقد أريق على جوانبه الدم! هل تعلم أنّهم جيراننا، نرى شواطئهم بالعين المجرّدة في بعض الأيام؟ أخذوا منّا هذه العادات التعيسة وانتقموا منّا بإغراقنا بالبيتزا، البيتزا بفواكه البحر، بالأجبان السبع، بالطماطم والبصل، بالزيتون، بالملوخية والهريسة،

- شكسبير ليس إيطاليا “مون بون مسيو” (باحتراف دون مساحيق)
- صحيح ما أغانني، إنّهُ دانماركي بالطبع.

- ولا هو دانماركي رغم المسرحية، إنّهُ إنجليزي “مون بون مسيو” (بلهجة عطف على المتخلف المسكين)
- ماله إذن ومشاكل الطليان والدنماركيين؟ أليس الأقربون أولى بالاهتمام؟
- جُلّ مسرحياته عن مشاكل مواطنيه الإنجليز.

نعم، لكن عن نوع معيّن من مواطنيه وخصوماتهم التي تقع دوماً في قصور شاهقة، تشهد أروقتها أروع القتل والانتحار بعد أن أرهقت أبطالها القضايا الفلسفية الكبرى من نوع “نكون أو لا نكون”. بصراحة أفضل أبطال تشيكوف ومشاعلم التي لا تتجاوز ما العشاء هذه الليلة، وهل ما زال هناك بعض الفودكا في الداتشا الأيلة إلى السقوط والتي يريد ابن الكلب بيعها قريباً دون أن يشغله مصير من خدموه خمسة وعشرين سنة.

- طمأننتني. على فكرة، هل سيكرّمه الجمهور في آخر العرض؟ في أي شرفة تظنّ أنّه جالس؟
يحدّق فيّ الرُّجل بذهول. لا شكّ أنّه قرّر أن يرويّ الطرف، واختار من سيتحفهم بها. كم أودّ سماع التحسينات التي سيضيفها والأوصاف التي سيتكرّم بها عليّ.

- “مون بون مسيو”، أخشى ألا يكون قادراً على استجماع رفاته فالرجل مات منذ قرون.
- المسكين، كنت أظنّ لطول الطابور أنه العرض الأوّل.

ثم ترتفع القهقهة صاحبة والرجل لم يعد قادراً على التحكم في نفسه. تُدير امرأة رأسها باستنكار للتعدي على حرمة مكان يُقيّم فيه كلّ آدمي على أناقة حركاته وسكناته.

هذا الأدمي المحظوظ يعرف اسم المؤلّف وجنسه وجنسيته، بل يعرف أنه مات منذ مدّة لا يقدرها بالضبط... لكن هل يعلم أن هناك خصوصية متواصلة منذ قرون حول هويته الحقيقية، وهل هو الذي تجري بذكره الركبان أم أرستقراطي انجليزي كان يخشى على نفسه من الرقابة ومشاكلها المقرّفة؟ ... هل يعلم أنّ مقاطع كثيرة كتبها المؤلّف، أيّاً كان، أسقطت من النصّ وأخرى تصرّف فيها الناشرون دون رخصة إلا من أنفسهم؟ ... هل يعلم أن قسماً أعاد صياغة نهاية المسرحية ليتمتّع هو والمشاهدون بـ “هابي أند”، وأنّ مُراجعة النصوص وتزييفها قاعدة لم تسلم منها حتى، بل قلّ خاصة، تلك التي تُرتّل في المعابد؟

الاستراحة. الوقت الضائع... الوقت الضائع؟! !

ثمة من الظرفاء من تكفل بحسابه بدقة. النتيجة: "ثلاثون سنة في النوم. اثنتا عشرة سنة في مشاهدة التلفزيون. اثنتا عشرة سنة في الثرثرة. ثمان سنوات عمل (والخيار أغلب الوقت بين الأعمال الشاقة والروتينية). ثلاث سنوات في الأكل. سنتان في الهاتف (إحصائيات ما قبل ظهور النقال)، ستة أشهر في المراحيض.

عندي شك بخصوص منهجية هذه الدراسة، حيث لا تتحدث عن الوقت الذي يُضيعه الأدميون في الشجار، والحال أن تجربتي المتواضعة تؤكد أنه أكثر الأفعال استهلاكاً للوقت الضائع وحتى للوقت الملآن.

فرصة للتجول بين المتفرجين وهم يتدافعون نحو المشرب حيث تنتطلق الألسن بعد أن فرض عليها فرضاً أن تبقى حبيسة الأفواه أكثر من ساعة. سيعوضون الوقت الضائع يثرثرون بحماس متجدد حول أحد موضوعين لا يوجد أهمّ منهما.

موضوعهم المفضل الأول الشكوى من "عزّ مَضَى، من حلول مُصيبة، من رحيل الشباب، من حبيبة خانت العهد، من عمر كله ألم، من تجارة في صراع هائل، من عدوى غلت صيحاتهم، من كفت ليس فيه درهم، من ليالي تجزّع العلقم، من دنيا يأتي إليها المرء مرعماً ويغادرها مكرهاً".

اشتكى الشاعر من الأدمي "كم تشنكي وتقول إنك معدم (إيليا أبو ماضي)

من أين لنا حقّ الشكوى؟ ما الذي قدّمنا لحياة أعطتنا مجاناً للمس والشم والسمع والنوق والبصر؟ ... ما الذي قدّمنا لعالم أعطانا مجاناً ليل الصحراء؟ ما الذي قدّمنا لشعب أعطانا مجاناً الحماية والزراد ورفاق الطريق؟ ما الذي قدّمنا لكل من أعطانا قصائدهم وموسيقاهم؟ ربّاه اغفر لي نكران الجميل وتقبل مني أحسن أفعالي على شدة تواضع ما قدّمت.

موضوعهم الثاني عن آخر مستجدات خصوماتهم مع هذا وذلك.

كل هذا الخصام الذي لا ينتهي هو الذي يُعطينا في فضاء الحواس الحروب والانقلابات والإرهاب والشجار على الطريق العام وارتفاع الأصوات عند الجيران ومشاكل الخيانة الزوجية والطلاق وخطف الأطفال والنصب والسرقه والقتل بين الأحباب، جلّ العفن الذي يمكّن طفيليات تُعرّف بالمحاميين والقضاة وكتبة المحاكم والسجّانين ومُروّجي الأخبار الوسخة، من الارتزاق الشريف. أضف حصاده من الروايات البوليسية عمّن قتل من، وكم من أجناس أدبية أخرى حول من كره من ومن تأمر على من، وما لا يحصى من المسرحيات التي يتسابقون لمشاهدتها وكتابة رسائل الدكتوراه عنها، وجلّها إن لم تكن كلها لا تطرح إلا شكلاً منقما من خصوماتهم الأزلية المقرّفة. تُعبّر العالم وأنت تسمع هذا يصرخ بشم مجروح: "وإذا أنتك مذمتي من ناقص"، وذلك يشيح عنه البصر مُغنياً بتكبر ينزف وجعا: "ما كانوا طلبوك بدمهم لو لم تكن منهم أجلّ وأعظم." تتصاعد من كل حذب وصوب أصواتهم بالنقد والتجريح والتهكم والسبّ والشتم والإدانة والتهديد. هم يتخاصمون كل لحظة وبخصوص كل المواضيع. يواصلون خصامهم حتى في فراش الزوجية. الدليل هذا التلخيص لدراسة علمية كما نشرته صحافة اليوم: "وأشارت (الدراسة) إلى أن التلمل احتل المرتبة الأولى على لائحة أكثر الممارسات العشر المسببة لمشاحنات السرير في أوساط المتزوجين البريطانيين، تلاه الشخير في المرتبة الثانية، ودرجة حرارة الجسم المختلفة في المرتبة الثالثة، واحتكار الغطاء في المرتبة الرابعة، والامتناع عن المعاشرة في المرتبة الخامسة. واحتل إخراج غازات البطن المرتبة السادسة، وعدم إطفاء ضوء غرفة النوم السابعة، ومشاهدة التلفزيون عند نوم الطرف الآخر في المرتبة الثامنة، والاختلاف على موعد الذهاب إلى النوم في المرتبة التاسعة، في حين جاء تقاسم السرير مع الحيوانات الأليفة في المرتبة العاشرة، الأخيرة: "اللعنة! اللعنة! اللعنة! كّفوا عن خصوماتكم بخصوص من الأجل ومن الأولى بالاعتبار، كّفوا عن خصوماتكم بخصوص من ملك الحقيقة ومما يزال أسير الخطأ. كّفوا عن خصوماتكم بخصوص من دان بالدين الصواب ومن لا يزال يتخبط في أساطير الأولين. كّفوا عن خصوماتكم بخصوص من الأجدر بالحكم ومن الأقدّر على ممارسته، بخصوص من سرق هذه الأرض ولمن يجب أن تؤول. كّفوا، كّفوا، كّفوا. أضجرتموني بخصوماتكم العيبية، بخصوماتكم السريالية، بخصوماتكم المأساوية، بخصوماتكم الدموية، بخصوماتكم وأنتم أطفال في الخامسة وأنتم أطفال في الخمسين. كّفى. أغربوا كلكم عن وجهي، لم أعد أتحمّل المزيد من خصوماتكم المقرّفة. ماذا؟ استجابوا لدعائي! صدّقوني، رحلوا، الملاعين! فعلوها بي رغم كل ما فعلته من أجلهم. والآن مع من سأخاصم ومع من سأتمتع بالمصالحة بعد أن تمّعت بطول الخصام.

يرنّ الجرس منذراً بنهاية الاستراحة.

يجب العودة إلى مكاني ومواصلة افتعال الاهتمام بخصومات هملت وأبي هملت وأم هملت وخطيبة هملت وجدّ شكسبير.

تركض أوفيليا في أروقة القصر تتمم مرة لنفسها ومرة لتلول، أصابها مسّ من الجنون.

- "حملوه على النعش عاري الوجه، هاي نون نوّي نوّي هاي نوّي، وعلى قبره تهاطل المطر دموعاً!!!"

يتوجه شقيقها لارتس إلى السماء في قمة الاستنكار وقد أفقد الألم الأدمي صوابه.

- هل ترى هذا يا ربّ!؟

مسكين لارتس! لم يفهم بعد أن الرب رأى هذا وأكثر لا يهمله منّا استنكار أو استبشار، مدح أو قذح.

والآن ماذا أفعل؟ أعود إلى مضايقة الرجل؟ من الأحسن مواصلة تجميع أفكاره أبهره بها في الفاصل.

عمّ تتحدث هذه التمثيلية التي طبقت شهرتها الأفاق؟ طبعاً عن الصراع الأزلي على السلطة.

وفي ملف ما زال بعيداً على خط الزمان سيفيظ بأحداث قد توصف بالتاريخية، سأنهض من مكثبي أتأمل عبر النافذة البحر وكأني أراه لآخر مرة. تندافع في ذاكرتي الصور، صورة الملك الطيب الذي أعطاني، "بأ" اسمه وكيف أخرجوه من قصر ليس بعيداً عن هذا القصر ليموت في المنفى مسموماً... وذلك الملك المسكين الذي وُلّي بعده والذي أخرجوه هو أيضاً ذات ليلة من قصره ليموت على حصير في بيت فقير... وصورة ذلك الذي أخرج الملك المسكين من القصر والذي أخرج كبير حراسه ليموت بعد أكثر من عقد سجين بيته وحيداً منسياً... وصورة كبير الحراس الغدار الذي أخرجته الثورة بدوره ليفرّ جباناً ويموت منفيًا.

داخل ذهن مستنفر إلى أقصى حدّ لوعيه بتعاضم الأخطار تتلاطم الأسئلة الحائرة: من وراء الاغتيالات والإضرابات والاحتجاجات والمؤامرات التي وصلت ذروتها هذا الصيف المشؤوم لهذه السنة المشؤومة الحاملة لرقم 2013؟ ما مدى جدية المعلومات الاستخباراتية عن عملية ستستهدفني هذه الليلة؟ أي فعالية لفيلق الدبابات الذي أرسله الجيش لتعزيز حماية القصر الرئاسي إن كان الهجوم سيأتي من البحر كما يشاع؟ ترى هل جاء دوري ليخرجني أحد، واقفاً على رجلي نحو السجن أو البيت أو محمولاً على نعش، كما حدث لعدد لا يحصى من المساكين الذين مسكوا بالسلطة كمن يمسك بأخطر ثعبان والسؤال ليس هل سيلدغك وإنما متى. لا شيء يعرفك بطبيعة الأدميين وما يخفون من جشع وقسوة ومكر وانتهازية قدر رؤيتهم يتصارعون على الإمساك بهذا الثعبان الذي اسمه السلطة.

السلطة! افتكتها عفا على كم من منافسين وأخرجوني منها بالخيانة والغدر... ها أنا أراقب اللاعبين الذين لم تلفظهم الساحة بعد، تتلاطم داخلي مشاعر الشماتة والسخرية والتعاطف مع المساكين... من أدري مني بما يخفون من آلام؟ كم من قصص يرويها تاريخهم الدموي عن تخلص الابن من أبيه وتضحية الأم بابنها وقتل الأخ لأخيه وخيانة الصديق لصديقه وغدر الحليف بحليفه! المضحك المبكي أن الحرب الضروس التي لا تضع أوزارها أبداً، بين الطامحين للسلطة والمتمسكين بها تغطّي على حروب لا تقل ضراوة داخل الطامحين إليها وكل فرد يريد لها لنفسه دون غيره من الحلفاء، وداخل المتمسكين بها وكل واحد يريد لها دون سواه من الأنصار. بين هذين الفريقين الأزليين فريق ثالث من المثاليين السذج أمثالي الحالين بترويض الكواسر المشدودة لبعضها البعض بقيود الخوف والطمع وهم كمن يحملون بروية الذناب تصبح يوماً من أكلة الخضراوات. قراءة أخرى للمسرحية.

هي تذكير بأنّ الملوك والأمراء يتعذبون في الطابق الأعلى كالعبيد والسوقة في الدهاليز. من ثوابت طاولة القمار أن تسحب للبعض الرقم الخاسر فيقوضون حياتهم وخصوماتهم في الطوابق التحتية لعالم سنتصوره مبنياً على شكل عمارة. هي تعطي للبعض رقماً يسمح لهم بسكنى الطوابق المتوسطة، وأعلى رقم للذين اصطفتهم دون سبب واضح ليسكنوا أعلى الطوابق.

القاعدة: إصرار سكان الطبقات التحتية على الصعود إلى فوق، وإصرار من هم فوق على عدم النزول تحت. كلّ هذا لقناعة تُستبطن باكراً من قبل الجميع أنّ حدة الآلام تَجْفُ مع العلوّ، والحال أن كل ما يتغير هو الديكور وملابس الممثلين. أسمال في الطوابق التحتية، بدلة رخيصة في الوسطى، أجمل الحليّ والحلل في العليا وهيكل الآلام الذي غُطي بالأسمال أو بالمجوهرات واحد.

ما أسخفه من صراع أخذ جَلّ وقت رحلتي، والرهان التمتعّ بالعذاب في أعلى طوابق البناية. تعطينا التمثيلية أيضاً كل المواد الضرورية لتنظيم أفقي يعتبر الآن أسباب الآمانا هذه. ثمة آلام الملك القليل. ظنّ نفسه بمأمن من قانون أنّ كل الغنائم مكسبٌ نضعه على قائمة ما سنخسر يوماً. ثمة آلام طريقة فقد ما نتوهم امتلاكه. يصرخ الشبح في قمة الاستنكار: "في نومي وبيد شقيق!" المسكين! ما زال مقتنعاً أنه لو قُتل بطلا لهان الموتُ أما أن يُسلب الحياة خيانةً وبيد شقيق فلا ثمّ لا. كأنّ خزي الوسيلة أجزى موتاً يبقى أهمّ فعل في حياتنا بعد نزولنا إلى هذا العالم الرهيب.

ثمة آلام الملك القاتل وعشيقته. الإشكالية هنا ثمن هذا الذي نحصل عليه يوماً لنفقدّه يوماً آخر. هو أغلب الحال شكل أو آخر من سلب الأرزاق أو سلب الأعراض أو سلب الأنفاس. من استطاع الوصول إلى غاياته عندما يتعلق الأمر بالصراع على الملك والجاه دون عون من الشيطان؟ حتى أبسط الأشياء لها ثمن في هذا العالم التعيس. عجزت آدمية عن هذه المظلمة أحسن تعبير منتَهدة: كلّ ما أحبّ حرام ديناً أو محظور قانوناً أو يزيد في الوزن.

تقول: ماذا عن آلام هاملت وأوفيليا وكل الأطفال؟ أليسوا أبرياء؟ بالتأكيد، لفترة فقط. تذكر دوماً أن هذا عالم أخبث ما فيه من يدعون البراءة والطهر.

كفى من هذا الأئين المقرف. الآن وقد تعاطفنا مع أنفسنا بما فيه الكفاية ما رأيك في تغيير جذري، ذلك الذي رفضه مخرج جبان وممثلون بلا إرادة؟ دعني أتصرف.

نعم كيف كنت أتصرف لو كنت المخرج؟

طبعاً بمنع حفظ الأدوار والأمر بارتجالها على عين المكان، بترك كل ممثل يخترع تطوراً جديداً للقصة وعلى كل واحد أن يجد مكانه في نص أصبح له أكثر من كاتب. تقول: لكنها ستكون الفوضى؟ بكل تأكيد. أليست قصصنا فوضى تسعى عبثاً إلى إضفاء الحد الأدنى من النظام على أحداثها فلا تتجح أبداً؟ لماذا لا تكون الكتابة عنها فوضى مزيدة ومنقحة؟

إذن يمسح أبو هاملت العرق المتساقط من جبينه. يقرّر أن يلعن الشيطان، أن يبعد عن ذهنه صورة أخيه جاثماً بمؤخرته على عرشه وبصدره وببطنه على زوجته، ينعمان بالسلطة نهاراً وبالجنس في فراشه ليلاً. يصرخ أمام جمهور يلعب الورق ويأكل السندويشات ويبصق البزر على الجيران.

- آه منك أيتها الهواجس المرعبة، تلاحقيني في النوم وفي اليقظة، آه وآه وآهات! يتوجه إليه روزنكراتز أو فيلدنستارن:

- يا جلالة الملك إن بعض الظنّ إثم، وبعض الأفكار مثل خلايا السرطان.

لا يسمع الملك. ومتى سمع الناس صوت العقل خاصة إن كانوا ملوكاً؟

يواصل الصراخ في الظلام: يا إلهي لن تسمح بهذا، أليس كذلك؟

لكن الرجل كهل خبير الحياة ويعلم أن الربّ يسمح بهذا وبأكثر. يتعمق فيه الشكّ وتعلو موجات القلق تكاد تغرق ما بقي له من سويّ الإدراك. هنا ينزل من أعالي النص ملاكي ليحلّ كل مشاكلكم أيها المساكين.

تسمح الملكة جيبين التعيس تصرخ فيه:

- أفق، تنفّس ملياً يا حبيبي. لم أعرفك يوماً بمثل هذا الشحوب. لا بدّ من دعوة أشهر أطباء المملكة وإقامة الصلوات وتقديم النذور. كم أكره أن أراك يا شقيق الروح ونور العينين في هذه الحالة، أسرعوا بالشراب الساخن إلى الملك!

يحدّق الملك في الوجه الرقيق المحبّ العطوف المشرف عليه.

- أين، أين قابيل؟

- نسيت أنّه خرج الليلة بأمرك لمحاربة أعدائك؟ من حسن الحظّ أنّه لم يرك في هذه الحالة وإلا غادر في منتهى القلق.

يتنفّس الملك الصعداء مصلياً للعداء أن تزيد المعركة الرّبع في رقعة مملكته وأن يلاقي فيها أخوه وجه ربّه.

أن الأوان لأرسم كلمة خاتمة على ستار المسرح بالأسود الغليظ، والملك يغرق مع الملكة في قبلة مطوّلة، بينما يشيح هاملت برأسه مبتسماً، وأوفيليا تضع يدها أمام فخفي ضحكة الصبايا المغرّبات بقصص الغرام ولو بين العجائز.

هيهات أن تسير الأمور بمثل هذه البساطة، والأدمي متعلق أغلب الوقت بألامه تعلق القمل بشعر المتشرد.

عليّ من جديد التندخلُ بحزم.

ها هو أبو هاملت يتخبّط داخل أفكار وصور لها مخالب وأنياب. أليست الأحلام رسائل ما وراء الغيب لتُنذَرَ وتُنَبّه؟ من يضمن له أنّ قابيل لن يجني من الحرب انتصاراً يثير إعجاب الولية امرأته وأنها لا تمثّل عليه دور الزوجة الوفية.

الرجل عازم على تعذيب زوجته بشكوكه حتّى تكرهه وتملّه وتعاف جلده وتبدأ الحلم بذلك البطل المغوار الذي يعرض حياته للخطر من أجل هذا اللّيم. ها قد بدأت مخاوف الملك تخرج من مخابئها لترسم ملامح الواقع وكأّتها الصور التي يرميها الفنان على لوحته قبل البدء في التلوين. يُسقط في يدي والقصة تنزل في المجرى الذي جاهدت لإخراجها منه.

يا له من غبيّ. بيّنا له بكلّ الوسائل أنّ امرأته تحبه. أبعدنا شقيقه إلى الحرب حيث سيهلك المسكين الذي لم يفكر في الانقلاب إلا عشر مرات فقط وهذا أمر عادي جداً. ومع هذا يصرّ هذا الحمار على بلورة المأساة. هل يوجد كائن غير الأدمي لينتج السموم التي تهلكه؟

أهمس في أذن الجالس إلى جانبي الغارق في متعة الطفل وأمه تعيد عليه الحكاية التي يحبّ.

- يرضيك هذا؟ يرضيك ما فعله هذا الغبي بنفسه وبعائلته؟ ألا ترى يا "مسيو" أننا نصنع القنابل الموقوتة التي نحملها داخلنا، أنّنا نمسرحها في فضاء الخيال، ثمّ بعدها نرخلها إلى فضاء الواقع، لأنّ فينا رغبة متواصلة في التمثيل على أنفسنا وعلى الآخرين، ربما لما نجد في التمثيل من إثارة هي كل ما نبحت عنه. لله درّكم أيها الأدميون!

- شت، سيلانس مون بون مسيو، سيلانس!

-ألا يثيرك يا مسيو نفاق الأدميين، وأن وراء شكواهم الدائمة إرادة متواصلة لخلق ما يدعون الهروب منه، أنهم لا ينتهون من مشكلة إلا وتدبروا أمرهم لإيجاد أخرى، ناهيك عن سوء نيتهم في حلّ تلك التي يتخبّطون فيها؟
- أرجوك، أرجوك يا مسيو!

لماذا يرفض هذا الأدمي أن ينتبه لأخطر نظرياتي عن الأدميين؟ كل هذه المشاكل التي يفتعلونها لمجرّد تدقّق هرمونات الإثارة في الدم لا غير. أليس الأدمي أفيون الأدمي وأيضا المنبّه والمنشط؟

تعال يا ولد يا هاملت. لا مانع عندي أن تتمتع بكأبتك وأن يسير يوماً بذكرها الركبان، لكن كل هذا النفاق حولها! ألم تنتفق مع عمك على قتل أبيك، عيب يا ولد، عيب. يمكن أن أغفر لك قتل الأب فكل أب يستأهل القتل على الأقل مرة أو مرتين، أما أن ترمي بأمك في فراش عمك فهذه مبالغة في الانتقام من العجوز البغيض. وأنت الشبح! ألم تتفاهم مع الملكة لتترك هاملت وعمه يُفقدان المؤامرة لعلمك أنك في بداية مرض "ألزهايمر" وكنت تفضل الرحيل بهذه الكيفية الرومنطيقية على الموت عائماً في بولك وبرازك! حرام عليك ما فعلته بالمسكينين. وأنت يا وليّة! كل هذا بسبب مملّك من الخياطة والتطريز ورغبتك في تجربة منعشة ولو كانت لاذع الألم. هل اعتقدتم أيها الأغبياء أنني لم أفهم تحالفكم ضدي في الفصل الأوّل.

نقطة الضعف الوحيدة في نظريتي هذه تلبس الأدميين خبثاً مفرطاً وذكاء مكيفيليا فما يحرك أغلبهم غباءً بهيمي. أنظر إليهم في بحثهم عن الحب والجنس والاعتراف والمكانة أو الثروة والسلطة. جلّ استراتيجياتهم بدائية، قليلة الفعالية، غير محكمة، غير محسوبة النتائج، فاشلة، كأنّ لا دور لها غير قيادتهم بخطى ثابتة باتجاه الكوارث التي يصبّجون بالشكوى منها. ولأنّ التجربة لا تورث كألون الجلد، فإنك ستراهم يُكرّرون من جيل إلى جيل نفس التخبط. حقاً كم هم مقرّفون! شماتتي فيهم: أن أدمي توجه لقارئة فجان لتنبؤه بالمستقبل الذي يأمل. نظرت الدجالة طويلاً لخطوط القهوة المترسبة ثم قالت ببطء مدروس: عشر سنوات مؤلمة جداً أمامك. فرح الرجل ظاناً أنها ستخبره بأنه سيخرج من النفق المظلم ولو بعد هذه المدة الطويلة. استعجلها لتكمل. نظرت إليه طويلاً وقالت: ثم تتعوّد.

كيف البقاء مستيقظاً؟ بتفحص إمكانيات لم يتجاسر عليها المخرج الجبان. تدخّل هاملثة تنتهي لأن الملك المقتول لم ينجب إلا بنتاً ضيعة صغيرة وحملها دمه كبيرة. تأخذ الأميرة بمقاليد القصة بما يعرف عن الإناث من فكر عملي وعدم تضييع الوقت في السفاسف الميتافيزيقية وخاصة في جنون مرهق ومكلف لصناديق الضمان الاجتماعي. تصرخ الملكة في زوجها القاتل: لا تشرب. تبتسم هاملثة وهي تتابع فعل السم في جسد الأمّ والعمّ. يموت القاتلان فتنزّوج هاملثة في نفس الليلة صديقتها أوفيليا. ثمة إمكانيّة أخرى إذا أصررت على أن هاملت رجلٌ وأوفيليا غير مثلية جنسياً.

تندلع مشادة بينهما فتصرخ أوفيليا بصوت هستيري:

- ماذا؟ ترفض أن تقتل والدي. كيف أكون بطلة تراجيدية إذن؟ تريد لي مكاناً دونياً بين بطلات التراجيديا؟ أيرضيك أن تنظر إلى جوليات من عليائها أو تقول أنتيجون إنني بطلة آخر زمان، لم يجدني الدهر أهلاً لضرباته؟
- ماذا فعل لي الرجل لأقتله وهو يقبل بزواجنا؟ ما رأيك في خصومة بسيطة؟
- أقول لن أَرْضَى بأقلّ من القتل وتحدّثني عن خصومة بسيطة من فوق!
- طيب. ما رأيك في أمك؟ بصراحة أنا أفضل التخلّص من حماتي.
- تريد قتل أمي يا مجرم. وتدّعي أنّك تحبّني!
- يا سني لنقل خالتك، هل يكفيك هذا؟

تستغرق أوفيليا في تفكير متردّد تقيس عمق الآلام التي ستحدثها خسارة الخالة. تقرّر رفض العرض لأنّ جوليات غريمتها الكبرى ستهزأ من قصتها وستنبجّ عليها بعمق الآمها هي. تجهش بالبكاء الكاذب فيستسلم هاملت:
- طيب، سأقتل والدك لكن لا أريد مشاكل مع حماتي. يكفيني ما سألقى من مشاكل مع أخيك والمدعوّ شكسبير الذي قد يلاحقني أمام القضاء بتهمة تخريب سمعته.

كل هذه الطموحات بالغة الصّعر، كل هذه الشهوات بالغة التفاهة، كل هذه الرؤى بالغة الغرور، كل هذه المعتقدات بالغة السذاجة، كل هذه الخصومات بالغة العبث، كل هذه المشاكل سهلة الحلّ! ... تعسا لقصص الأدميين، لا يغير لنا وجودنا إلا اللحظات التي نضحك فيها من أنفسنا وقد اتضحت الحقيقة المرة، أننا كائنات هزلية قبل أن نكون كائنات مأساوية.

تقول وأصبعك مرفوع في وجهي في وضع مسرحي جميل: تستهزئ بما لا يجوز به الاستهزاء، تستكثّر على البشر جدارتهم بشيء من الشفقة، من أعطاك الحقّ في الحديث عن الأمان بهذا الشكل؟

ماذا تزمجر أيضاً؟ إنني أهين ذاكرة كل أم انفطر قلبها حسرة على فلذة كبد قُتل في الحرب أو قضى نحبه على طاولة تعذيب فذرة. تمهل يا هذا في شكك المزمن في نواياي المبيّنة. لسّ ضد التعاطف مع البشر وخاصة مع نفسي، لكن ضدّ المبالغة فيه.

نعم، هناك آلام حقيقية ولا أفضعَ منها تجارب، وعلينا احترامها شريطة ألا تصبح بضاعة نتدلل بها على عالم لا يطبق أي نوع من أنواع الدلال.

السخرية أسرع تقنيات الفكر وأعمق وسائله للفرز بين الغث والسمين، لذلك يجب تحملها وتعهدها... من طبيعة كل خلل -في شيء، أو كائن، أو فكرة، أو علاقة- أن يستقر في الفكر هذه الطاقة المحررة لكل الطاقات... كل ما هو قابل للسخرية لا بد أن يُسخر منه، أيا كانت هالة القداسة التي يُحاط بها أو القوة الفجة لحمايته من المنتفعين بالخلل انتفاع الجرائم بالعنف... قابلية الفكرة، أو الشيء، أو الكائن، أو العلاقة، للسخرية، أصدق دليل على وجود الخلل... الحكيم والنكي من يضحك من نفسه والشريبر والغبي من يضحك من الآخرين... ليس كل شيء قابل للهزل، كل ما يمس الكرامة خط أحمر.

لم يبق إلا رفع صوت تناووبي عاليا وإظهار كل علامات التبرم للمزيد من إزعاج الناس وخاصة جاري. أوف! أخيرا ماتت هاملت وماتت معها الفاتلان وكم من ممثل آخر لا أعدهم لطول قائمة الأموات. يتقدم الممثلون صفًا واحداً يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً، ينحنون المرة تلو الأخرى أمام جمهور بالغ الرضا. يصفقون بحماس لمسرحية تعرض مدى فشل الأدميين! هذا فشل في الحفاظ على ملكه، والآخر فشل في الحفاظ على ما غنم بالحيلة أو القوة، وذلك فشل في الحفاظ على العقل أو الشرف أو الحب، والكل فشلوا في آخر المطاف في الحفاظ على الحياة. لا يبقى علي إلا أن أصرخ فيهم جميعاً مثل بكت: أفسلوا أكثر فأكثر، ربما لم نأت كُننا إلا لهذا، لتحقيق أنجح فشل ممكن.

ثلاث ساعات ثمينة من عمري كان يؤسعي استثمارها بكيفية أدكى. قراري النهائي: لن أحضر مسرحية بعد اليوم إلا إذا تعهد الممثلون بأنهم لن ينبسوا ببنت شفة. نعم لن أدخل قاعة سينما إلا التي يُعلم إشهارها أن المشاهدين بأمان من أي فيلم، والثمن الذي يدفعون كُله للتمتع سويحات في مقعد وثير بالظلام والصمت. حتى الأوبرا لن أدخلها إلا إذا بقي المغنون وراء الستار واكتفى الجوق بعرض آلات الموسيقى دون التهديد بالعزف عليها.

يستغرق جاري هو الآخر في تصفيق مبالغ في حماسه مواصلاً لعب دور الذواقة اللبيب الذي يقدر أكثر من أي أحد آخر قيمة هذه التمثيلية العظيمة. كل هذا الحماس الثقافي وهو مصرّ على مواصلة تجاهل المتخلف القادم من وراء البحار الواقف ببلاهة حذوه لا يصفق لأنه لم يفهم شيئاً من المسرحية. وهذا المتخلف من وراء البحار آدمي هو الآخر لا يقلّ آدمية عن جاره، ومن ثم مغالبتة لزهو بتفوقه الفكري على هذا الجاهل بالشرف الذي ناله وهو جالس لأكثر من ساعتين جنب أكبر فلاسفة واحة "د" وصحرائها في الاتجاهات الأربع (بلقاسم الخضار لا يُحسب له حساب شاء أم أبى هو وعشيرته).

يشند دويّ التصفيق فنّعبرني فكرة مزعجة، أن هؤلاء الأغبياء قد يعيدون علينا كامل الفصل الأخير. من حسن الحظ أن هذه العادة من ركافة الموسيقيين وحدهم. لا يكف الممثلون عن افتعال الانصراف والرجوع يتسولون مزيداً من التصفيق.

أخيراً يختفون عن الأنظار. تود أن ترى أين اختفوا وماذا ما يجري وراء الستار؟ لن ترى إلا العادي والمبتذل في كل الكواليس، الفوضى، الصراخ والزعيق والهمس وبذيء الكلام، الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد المبلّلة بالعرق والجوارب النتنة والسجائر الرخيصة، عمق البغضاء بين هاملت وأوفيليا وصراعهما المحموم على الأولوية وإعجاب الجماهير. هاملت! المسكين مشغول بشيح الطرد من منزله لتأخره عن تسديد الديون وآخر ما يهيمه الخمج الذي هو بمملكة الدنمرك، فمشكلته حبه الشاذ لمدير الفرقة وخوفه من مرض "السيدا" الذي شُخص عنده مؤخراً.

نفس الروائح والبذات والهجوم الصغيرة لو وضعت أنفك في كواليس الطب والسياسة والدين وكل ما تظنه فوق الظنون والشبهات. أيّ عالم كنّا نجرّب لو كان الذي وراء الستار هو المعروف وما نمثل على الركح هو الذي يتوارى وراء الستار؟ في آخر المطاف، ما هذا المكان المغلق الذي نستعرض فيه مهازلنا ومآسينا؟ ما هذا الذي نسميه المسرح والذي يتبارى الأدميون منذ القدم بوضعه في أجمل ساحات مدنهم؟

إنه المرأة التي نتأمل فيها بعض الأدوار التي نمثل بها على أنفسنا وعلى الآخرين. إنه المجهز الذي يمكننا من النظر في الذات الأخرى، نكتشف فيها المستنقع والجدول والشلال الذي فينا. إنه المختبر الذي نشرح فيه الذات والوحيد الذي يسمح بتجربة الشطط في الأحاسيس والمشاعر، ونحن في مقاعدنا الوثيرة لا نُعرض ولا نتعرض لخطر. إنه العالم المصغر الذي نستطيع فيه وضع اسمٍ وصورة على كاتب السيناريو وتوهم معرفة مقاصده نعوض سحرها جهلنا بكاتب السيناريو الكبير وبما يريده منا نحن البشر المساكين.

**

وكيف أنهم كلهم ممثلون يتعلمون بصعوبة تمثيل أدوارهم وإخراجها

أغرق في المقعد الوثير، المشاهد الوحيد لتسجيل سينمائي عن تدريب، قُل عن ترويض الممثلين.
تخرج ألفيرا من وراء الستار متوجهة بخطى ثابتة نحو حبيبها دون جوان. كل المطلوب منها إلقاء جملة لا غير.
- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

يبرز من وراء الستار المخرج يبادر بها ببرودة متكلفة:
- ما هذه المشية؟ أذاهبة أنت إلى الحلاق؟ أنت لا تدخلين مكانا عاديا للقاءٍ عادٍ. أنت تتسارعين نحو حبيبك المهذب بغضب الله وكلك أمل في إنقاذه من الجحيم. شيء من الاعتناء!
تعود الممثلة إلى ما وراء الستار. تبرز منه كالجني من قممه متوجهة إلى دون جوان واليدان ممتدتان إلى الأمام كأنها تتضرع.
يصرخ فيها المخرج:

- ما هذا التكلف؟ ما هذه الحركات البهلوانية؟ هذا مسرح لا سيرك. أعيدي.
تبقى الممثلة بين غُدوٍ وروح من وراء الستار إلى دون جوان، ومن دون جوان إلى ما وراء الستار، ومشكلتها كيف تمشي بصفة مسرحية وطبيعية في آن واحد. يواصل المخرج إبداء عدم رضاه. هي إما تهزول بكيفية مضحكة أو تتباطأ ببلادة حس لا تطاق.

- ليس هكذا! ليس هكذا! أعيدي!
تعود المسكينة المرة تلو الأخرى لتجريب كل أصناف المشي والهولة والركض نحو دون جوان الغارق في الصمت.

- أعيدي. ليس هكذا. هل سنقضي السهرة كلها في مجرد تعليمك المشي!
يرضى المخرج أخيرا بطريقة الدخول. تعود الممثلة إلى جملتها غير واعية بما ينتظرها:
- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبي اليوم له وحده. كم يسوؤني أن أعلم أن من أحببت يتعرض لغضب الله. أتيت لتحذيرك والتوسل إليك لتتفادى غضبا بدأت مؤثراته تتجمع.
يفجر المخرج في وجهها.

- ما هذا الإلقاء؟ يجب أن يكون كالماء، متساقطا من السماء، منحدرًا من أعالي شلال، متسارعا في السواقي، متدفقا من النافورة. إلقاءك ماء بركة أسنة. أعيدي من البداية.
تبلغ الممثلة ريقها:

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

- كفى. كفى. هذا ليس كلاما تتوجه به عاشقة إلى معشوق، والرهان إنقاذه من لعنة أبدية. هذا تفسير نصّ. كأني أسمع النقاط التي تختم الجمل. يجب أن يكون للكلمات ألوانٌ وروائح، أن تكون التعبير عن المشاعر لا التأشير عليها.
تبلغ المرأة ريقها، مجددا:

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبي اليوم له وحده. و...
المخرج الآن على أهبة الاعتداء الجسدي على الممثلة، وهي بين يديه كالفأر بين مخالب القط. أي غرابة في الأمر وأنت لا تتعرض لاعتداء إلا وهو مرتبط بخطئك في تأدية مقطع من دور في سيناريو ضبّطت قواعده قبل دخولك مسرح الحياة.

- ليس هكذا! ليس هكذا! تتصورين أن ألفيرا الوعاء الذي يمكنك أن تمرّري عبره مشاكلك الشخصية. لكنني غير مهتمّ البتة بمشاكلك الشخصية! ألفيرا وحدها التي تهمني. ما هي مشاعر ألفيرا الآن؟ هذه امرأة تعيش أقصى الألم وهي ترى الرجل الذي تحبه معرضا لعقاب إلهي رهيب. هذه امرأة تعيش أقصى الأمل لأنها ما زالت تتصور إمكانية إنقاذ دون جوان من مصيره المحتوم. هذه امرأة مسكونة بالوقار والجلال بعد أن سكن الإيمان قلبها. لكنها تعاني من تبيكيت الضمير، من الشعور بالذنب لما اقترفت من حبّ لغير الله. أين المشاعر الملتهية؟ لا أرى منها شيئا. لا أشعر حتى أنك تشعرين بها!

تبدأ الممثلة في الشكوى ملمحة إلى صداع طارئ ومرض داهم وضرورة إرجاء البروفات للأسبوع المقبل. هيهات. لا خيار للادمي غير مواصلة تعلم الأدوار الإجبارية وفي الظروف التي يقررها المخرج وحده.
يفعل المخرج نوبة عصبية تدخل ضمن أدواره هو.

- يا امرأة، قلت لك كم من مرة ليس هكذا!
قاعدة كل من سيعلمونك الأدوار: أكبر قدر من الطلب وأقل قدر من الرضا.

هكذا سلاحك على طول الطريق المرابي والحبيب والمنافس والشرطي والقاضي والزبون والتلميذ والناخب. كلهم ما عداك يعرفون كيف يجب أن تكون الأمور وكلهم يصرخون فيك "ليس هكذا." بماذا يمتلئ فضاء الأفكار؟ بفلاسفة وأنبياء ودعاة. هم أيضا يصرخون فيك "ليس هكذا التفكير"، ليس هكذا الشعور، ليس هكذا كل ما حاولت لحد الآن!

يصرخ "يا" رافعا عقيرته: اللعنة! ليس هكذا! ينفجر ضاحكا: ليس هكذا! يستشيط غضبا: ليس هكذا! ينتهد مطولا، يمطط جملته بما معناه: أرهقتني يا ولد، أصبنتي بالقرف والغثيان، ليس هكذا!

كم من مرة صرخت أنا أيضا "ليس هكذا"، أحيانا مع أغرب الممثلين وأخطر التمثيليات.

يصب البوليسي المكلف بدور البشع مخزونه من الشتائم البذيئة علي: قل لنا كل شيء. يحدق في زميله المكلف بدور الطيب بابتسامة فيها تصنع التعاطف. إنه الذي سأبكي في أحضانه مستجيرا به من قسوة الآخر ومعترفا له بكل شيء. هذان الغيبان لا يعرفان أنني لا أكف عن تقييم الأدوار التي يلاعيني إياها الناس، بحسن الناقد المجرب، أبحث بلا كلل عن الجديد في ميدان -للأسف- فيه القليل من الابتكار.

أرفع الصوت وإصبع الاتهام.

- ما زلت تمارسون تقاسم الأدوار بين الطيب والشرير؟ يا للمستوى! هذا كل ما تفعلون بضرائبنا!

أتوجه إلى المكلف بلعب دور الشرير، أمطره بوابل من الأسئلة عن هويته وعن يعرف من الجلادين وما هي آخر اتصالاته بهم ومن أعطوه التعليمات وما هي رتبهم داخل الجهاز، وما هي عناوينهم وأرقام هواتفهم.

يبتسم المكلف بدور الطيب. مؤكداً أن طرافة الوضعية جددت لديه الانتباه. يفتح المكلف بدور الشرير فمه دهشة وأنا أمر لنصحته بعدم الإكثار من مخالطة الأشرار حتى لا يفسدوا الطيبة التي تختفي وراء ملامح الغوريلا. ثم ينفجر الرجل في وجهي: - أنا الذي ألقى الأسئلة. اعترف بكل شيء. هل تعلم أننا أخذنا كل الصور وأنت تقابل الإرهابيين. لنا وسائل لإجبارك على الاعتراف.

كأنني أسمع لسان حاله يستعطفني: لا تكن سمجا، أنت المتهم الخائف القلق الذي يجب أن يكذب محاولا إخفاء أسرار نعرف جلها، وأنا مفتش بوليس المخابرات المرعب الذي لا يرحم أحدا. برأس أمك العنكب دورك لألعب دوري وإلا فإنها الفوضى. نعم، لا بد من أن يلعب كل دوره وإلا فإنها الفوضى. لكن من قال لهذا الممثل الرديء إنني لسئ المكلف بدور المحرض عليها، هذه الفوضى التي يخشى ويكره، وهي أولى منطلقات كل تجديد.

مهما كنا من أنصار الفوضى ومن المعجبين بها فإننا لا نقبل من ممثل أن يعتلي الرمح ليقول أي شيء يخطر بباله. فالدور محدد دوما بنص سطرته فيه التعليمات، لكي يقول هذا الممثل كذا ويفعل كذا، وحتى أن يشعر بهذه الكيفية أو تلك.

كم صعبة هي هذه الأدوار التي تُجبر على تعلمها باكرا، كم هي شاقة عسيرة على الفهم، على الاستيعاب، على التذكر، على الإلقاء، على الاستثارة بإعجاب النظارة!

تمسح الممثلة دموعها وقد بدأت تفقد السيطرة على أعصابها. يخرج من حلقها صوت مرتعش: جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله،

يستشيط المخرج غضبا غير مفتعل:

- كفى! كفى! كفى! كم من مرة يجب أن أردد لك أن ما يعينني الأمل أظفيرا لا الأملك أنت، أعيدي، أعيدي!

كم يتكلف المسكين من الجهد لإخراج مسرحية فيها عدد زهيد من الممثلين وكل واحد منهم لا يلعب إلا دورا واحدا، ماذا لو كان عليه إخراج مسرحية الوجود برمته؟

تتلثم المرأة وقد جاءها اليقين أن الجوزاء أقرب إليها من الفوز بالدور.

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

هي الآن بصدد الإعداد لنوبة هستيريا.

- كيف إذن؟ كيف إذن؟ كيف إذن؟

المشكلة أنه ليس للأدبيين -وكل واحد يريد أن يكون مخرج أدوار من حوله- نموذج لـ "كيف هو الهكذا" وإنما مقاييس تُنافس مقاييس ومقاييس تُشرع لمقاييس هي الأخرى بحاجة إلى من يشرعها.

مما يعني أنه بوسع أي واحد منا أن يصرخ في المخرج: يا حيوان ليس هكذا الإخراج. للأسف هو الآن سيد الموقف وعلى ضحيته المسكينة الخيار بين الفرار أو الهجوم. ربما شعر الرجل بما يعتمل داخل امرأة على وشك الإتيان بما لا يحمد عقباه. يتوقف عن الصراخ ليلعب الآن دور المرابي الهادئ العطوف.

- أحسن الممثلين من يمثل ناسيا أنه يمثل. لا أرى شيئا من هذا القبيل.

تهدا المسكينة. آخر محاولة.

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم أحببتك لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

انتهت نوبة الطيبة عند المربي. يجب العودة إلى دور البوليس الشرير.

- لا، لا، الرحمة، ليس هكذا! النجدة، ليس هكذا! اللعنة، ليس هكذا!!

هؤ المخرج -على ما أفهم-اعتصار أقصى الألم والرقة والحب والتهيب والرجاء من ذات مشبعة بكل هذه المشاعر، عاجزة عن الإفصاح عنها.

- كوني على أشد الوعي بخطورة المرحلة. إنه دون جوان الرجل الذي أحببت وهو مهذد بالعقاب الإلهي. يجب أن يضحج كلامك بكل الممكن من الإخلاص والفرع والرجاء والتوسل. ربما أمكن إنقاذه لا شيء إلا لأن نبرة ما في كلامك أصابته في الصميم. قد يتخذ طريقه وجهة أخرى لمجرد علو نبرة أو تهدج صوت.

لا يزيد الوعي بالأمر الممثلة إلا اضطرابا على اضطراب.

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك لكن حبي اليوم...

- كفى. ألم ألفيرا بلا حياء أو تكلف، ألم م-طل-ق. لا وجود لشيء كهذا في الإلقاء!

قال أحدهم: المخرجون من نوعين: من يظنون أنفسهم آلهة ومن هم على ثقة من الأمر. ألا يريد كل مخرج تشكيل الذات على قياسه وإقامها في الدور الذي يريد وإجبارها على تأديته بالطريقة التي ترضيه في نص يريد التحكم فيه ونموذجه المخرج الأكبر.

“با” و”ما” و”ح” و”و”، الذي منه كل وحشة” وكل نقمة وكل نعمة وكل نشوة، أدوار قارة في مسرحيات

مسترسلة تستكشف جزءا من طيف علاقة الأبوة والبنوة، الحب والكره، التنافس والتعاضد، القوة والعجز، السعادة والشقاء. كل هذا حسب ظروف تتحكم فيها الصدق والضرورة، فتنتقل الأحداث في كل اتجاه ترديدا وتجديدا.

تُرى هل أضفت شيئا لدور الابن والأب والحبيب والمناضل الثوري، أم إن العالم مُحقّ وهو يصرخ باستمرار ليس

هكذا، ليس هكذا؟

يتوقف المخرج عن تعذيب الممثلة. يرفع وجهه إلى السماء. تسكنه ألفيرا بعد فشلها المتتابع في تقمص الممثلة.

يخرج من حلقة صوتا غريبا كأنه حيوان تحت سكين الجزار.

- جنتك الليلة على عجل، أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم...

حصلت المعجزة، معجزة التمثيل. تبخرت ذات المخرج لتترك المكان أخيرا لذات ألفيرا. تتدفق الكلمات بلا نقاط أو فواصل. يعلو الصوت ليبلغ دوي الماء وهو يتساقط من علو الشلال ثم يتسارع في السواقي وهو خريبر. نعم ما أغرب هذه القدرة التي تمكن الأدمي من الخروج من جلده للدخول في جلد شخص آخر وتقمص شخصيته كما لو كان الأمر بسهولة استبدال قميص بقميص أو الخروج من بيت لدخول آخر!

يخرج المخرج من التقمص لاهئا ماسحا عرقه. يتوجه بلطف إلى الممثلة المنبهرة:

- دور الممثل أن يتشغل كفراغ ليمتلئ بالآخر. أفرغي من ذاتك. افتحي الأبواب، لينطق اللاوعي فيك، ليحلّ فيك ال...!

ليحلّ فيك من، أو ماذا؟

على فكرة، ألا تعني اللغة بالكلمة شينين جدّ مختلفين: التمثيل بمفهوم المسرح والتمثيل بمفهوم الدبلوماسية. ثمة ممثل مسرحية هاملت وممثل صاحبة الجلالة في بلد صديق.

هل نمثل بالمعنيين للكلمة؟

إذا اعتبرنا التمثيل بمعناه المسرحي، السؤال هو لماذا لا نستطيع تحقيق غاياتنا إلا بالتمثيل المتواصل على أنفسنا وعلى الآخرين؟

إذا اعتبرنا المعنى الدبلوماسي، يصبح السؤال من أو ماذا نمثل؟ خاصة ما المهمة التي أوكلت إلينا عندما تسلّمنا أوراق الاعتماد؟

**

الأدوار الكبرى وكيف تعنصر منهم طيف كل ما يقدر عليه من مشاعر وأفكار

تتصاعد من جانب قصي من المسرح الصغير أصوات الناي والكمان والطبلية. يصعد الممثل على الخشبة. يضع على وجهه قناع راهب عايش القصة الحقيقية بل ويعرف كل التفاصيل. يتوجّه إلى مشاهدين كأنّ على رؤوسهم الطير.

- سادتي الكرام، انتهى بي الطريق إلى بيت موحش في أعماق غابة مقفرة. خلّته مهجورا فعزمت على قضاء الليلة فيه. فجأة برز لي من الظلام ساكن المكان.

يتوقّف الممثل ليخلع قناع الراهب. يلبس قناع ساكن المكان متقمّصا شخصيته.

- ما الذي أتى بك أيها الغريب؟

يخلع قناع صاحب المكان ليلبس قناع الراهب عائدا إلى شخصيته الأولى.

- يا ربّ البيت، أنا مسافر قادم من بداية الزمان والطريق أمامي طويل.

مواصلة استبدال القناعين والانتقال من الدور إلى الآخر، من الشخصية الأولى إلى الثانية.

- وما الذي حملك على تكلف هذه المشقة؟

- قدر كل آدمي أن يظلّ ماشيا إلى أن تخور قواه، وإلا توقّف به الطريق.

- ولماذا لا يقعد على مؤخرته ساكنا لا يزحج نفسه أو أحدا؟

- لأنّ الطريق هو الذي سيتحرّك به، فمن الأحسن أن يبادر هو.

- كفى وقاحة. قل ما الذي أتى بك إليّ؟

- الصدفة، يا صاحب هذا المكان.

- لا وجود لشيء من هذا القبيل. قل الحقيقة وإلا أزهقت روحك.

الممثل لابسا قناع الراهب متوجها إلى النظارة المنبهرين:

هنا تملكني الخوف. قلت في نفسي: أيا كانت طبيعة هذا الكائن فلا بدّ أنه ككل الكائنات مغرور معجب بنفسه. لم لا ألعب على هذا الوتر؟ قد يكون المخرج الوحيد من الورطة. توجهتُ إليه قائلا: يا سيّد هذا المكان، كم سمعتُ عن علمك وحكمتك وأنك تعرف الأسرار في العالم المرئي والعالم المخفي، فطمعتُ أن أسمع منك الرواية، الرواية الصحيحة لما حدث بالضبط لأدمي يحمل سرا لي حاجة ماسّة إلى معرفته. إنّه ملك قتل شقيقه واستولى على ملّكه وزوجته، فجّن ابن أخيه وجنّت خطيبته. يقال إن القاتل انتهى به الأمر هو الآخر للجنون. كثيرون يعتقدون أنه فرّ من القصر واستجار بهذه الغابة ولم يخرج منها أبدا. ثمّة من يدّعي إنه تنسك في بعض كهوفها. ثمّة من يقول إنه ما زال يدور في أدغالها باحثا عن شفاء الروح. كم من أقاويل وشائعات أخرى لا تشفي غليلي! إنني أجري وراء الرجل منذ زمنٍ عليلي أظفر به لأسأله الخبر اليقين. قد يكون مظلوما. قد تكون الروايات التي تُشاع عنه محض افتراء. ربّما هو الضحية وليس الجلاد، ربّما لجرائمه ظروف تخفيف. لا بدّ أن أعلم من هو وإلا رحلتُ وبصدري حرقه السؤال، وأنت الوحيد القادر على شفاء غليلي.

يواصل الراهب روايته همسا.

- توقفتُ عن الكلام أنتظر ردّ الفعل. كأني أعملتُ المفتاح المناسب في القفل. أجابني صاحب المكان بصوت فيه غلالة من الحزن.

- اعلم أيّها المسافر أنني مثلك أبحث عنه من قديم الزمان.

- هل وجدته؟

- نعم

- أين هو؟ كيف هو؟

- تمالك نفسك يا هذا واسمع مني الخبر اليقين عن المسكين.

يبدأ صاحب المكان رواية قصة غواية الشقيق لزوجة شقيقه وكيف تفاهما على تسميم الملك ثم كيف اكتشف الأرق والحزن والخوف وتبكيبت الضمير وكيف استحالت حياته جحيما وكلّ الأعين تلاحقه في النوم وفي اليقظة. كل القصة بكل التفاصيل، بأدقّها. هنا يتبادر الشك إلى كل المشاهدين. إنه يعرف تفاصيل التفاصيل. ثم لماذا يجاهد لإخفاء تأثره. هذه ليست تصرفات شخص يحكي قصة وقعت لغيره. هل يكون صاحب المكان؟ نعم، لا يمكن أن يكون إلا هو، لا تكن سمجا، طبعاً إنه هو.

يشنّد القرع على الطبل والنفخ على الناي.

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلينا صارخاً لا عناً، متشمّتا، هازئاً ومحتقرا: لا تصدّقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل. القصةٌ سخيّةٌ وكاذبةٌ من أوّل حرف إلى آخر نقطة. كل هذا تمثيلاً من أردأ صنف. كأنه يصرخ فينا: أفيقوا، لكن إلام ونحن لا نفيق من حلم إلا لندخل حلماً آخر. يبدأ الممثل في الانسحاب ووراءه المهرج.

مهلاً أنت الممثل. ما زلنا بحاجة إلى خدماتك. أثرت اهتمامنا بفكرة لبس قناع الدور على الركح ثم خلعه لتقمّص دور آخر. تفضّل واللبس أفتعةٌ أهمّ الأدوار التي يعشقها الأدمي والتي تتردّد من جبل لجبل بثبات مُلفت للانتباه. أمّا أنت المكلف بالصرّاح لا، تصدّقوا شيئاً، الرّم مكانك سنستدعيك كلّما عاد التبدّل.

أول قناع سنجعل الراهب يضعه قناع روينسون كريزوي. كيف سيواجه الغريق الذي أفضّه المحيط وضعه؟ طبعاً بالبحث عن شبيه قد يعينه على الورطة التي وجد نفسه فجأة يتخبّط فيها.

يخلع الراهب قناع روينسون ليلبس قناع سيجموند. أخيراً بعد طول التشرّد في الغاب الموحش الخطر، كوخٌ قد يجد فيه الأدمي المسكين ملجأً يقيه من الذين يركضون وراءه. تفتح له سيجليند الباب. يتردّد لحظة في الدخول كأنه شغور بالذنب: الشقاء يلاحقني، أخشى على هذا البيت من دخوله معي. تنتهّد الأخت التي لا يعرف والحبيبة التي ستحمل قريباً طفله في أحشائها: لا عليك، دخّله هذا الشقاء اللعين قبلك ومنذ زمن طويل. عالم لا مأمّن فيه من الشقاء، أكنّت خارج البيت أو داخله! يجب الفرار منه حالا وعلى وجه السرعة.

يخلع الراهب قناع سيجموند ليلبس قناع فراشة. الفرار، لكن إلى أين؟ فالجزيرة جزء من أرخبيل تُجاور فيه جزيرة الشيطان جزيرة شيطان أخرى والنفي هو النفي والأشغال الشاقة المؤبّدة هي الأشغال الشاقة المؤبّدة. وعلى كل حال أيّ منفذ للأدمي وهو من البداية إلى النهاية السجين والسجان والسجن؟

إذن من الأفضل الثبات والمواجهة. يخلع الراهب قناع فراشة ليلبس قناع سيكفريد.

الأدمي الآن بطل لا يرهب لا القزم ميم ولا فافنر التنين ولا حتى الربّ ووطان. هو أتى العالم لينتصر على كل المحن والامتحانات ومنها تحرير برونهيدل السجينة وراء أسنة النار. يا للمسكين! من الأحسن ألا نروي له بقية القصة، وأنه بعد تحريرها من نومها السحري سيخونها وستخونه وستنتهي الأمور بمحرقة تقضي عليه وعليها وعلى الآلهة نفسها. بداهة هذا عالم مبتدئ وعلى الأدمي إتمام الشغل الذي أخفق في إكماله. لكن فيم أخفقت الآلهة بالضبط؟ طبعاً في صنع الأدميين. ربما أخرجوا من فرن الخلق قبل أن ينضجوا. لا خيار للأدمي غير إتمام الإنضاج ليعرف الأدمي ما الحق والخير والعدل، ويلتزم بهم.

يخلع الراهب قناع سيكفريد ليلبس قناع موسى حاملاً وصايا العشر. يتب الممثل المكلف بالصرّاح فينا ألا نصدّق ما نرى وما نسمع، فنطرده بغلظة قبل أن يكمل موسى جملته بخصوص الوصية الحادية عشر التي حدّقتها الرقابة. على كل حال نحن لسنا بحاجة إلى تنغيصه المشهد.

كلّنا نعلم أن الذين لم تكن لهم أدنى حاجة إلى الوصايا واصلوا تلقائياً عدم القتل والسرقة والتعدي على نسوان الإخوة وحميرهم. أما الذين كانوا بحاجة إليها فقد ضربوا بها عرض الحائط وسيواصلون أبد الدهر أفعالهم. لا يُغفر لها وجودٌ إلا لأنها توفّر كمّ من موطن شغل في الشرطة والقضاء والمحاماة والمؤسسة السجنية. تصوّروا ما الذي كنا سنفعله بخريجي كلية الحقوق - كما يسمونها- وماذا كنا سنفعل بهم، ومستوى البطالة عند حاملي الشهادات العليا على ما هو عليه. خلاص، ينسنا من إصلاح الأدمي المكلف بإصلاح العالم.

ماذا لو جرّبنا العبّ من لذات يوفّرها العالم وهو كبائع المخدرات لا يوفّر لنا المتعة كالطعم المسموم للفأر. يخلع الراهب قناع موسى ليلبس قناع بنج-لو ليتمتع الأدمي بمطلق السلطة والشهرة والحرية والجنس، وحتى ليعبّد كما لو كان حقاً إلهاً. عبثاً. حتى في هذا الدور غير قادر على أن يملأ الفراغ الذي تعاني منه الذات. تهاجم الأدمي وهو في أوج سلطانه الظنون، تورّقه الشكوك، تعذبه المخاوف، تعيث الأمراض في جسده فساداً. لمزيد السخرية منه تُضرب الصاعقة قصره الذي أراد أن يبهر به سفراء المنافسين، فتُحلبه رماداً. نهاية محزنة لجلالة الامبراطور ابن السماء، لا تختلف كثيراً عن نهاية رعاياه الذين أُلّف ألا يراهم إلا بين ركوع وسجود. ما الحلّ؟

يخلع الراهب قناع ينج-لو ليليس قناع المنتقم الأعظم الذي سيدفع ثمننا باهظا كل من أذله ولو كان العالم نفسه. هنا يجب التذكير أن أخطر كائنات الفضاء الحسي للعالم الأدمي وذروة الخطر الأدمي الذي يتعرض للإذلال. ألا يحسب الأدمي يحسب نفسه من طينة الآلهة وهل ثمة إثم أعظم من إذلال إله.

من ثوابت السيناريو طفل يتعرض لكل أنواع الإذلال ناهيك عما يعانيه أهله وعشيرته وشعبه من أصناف الإذلال. يا للطفة الهائلة التي يشحنها هذا الإذلال في الفرد وفي الجماعة. تتطور فصول القصة لتصف كيف تسلق البطل قمة المجد على جبال من الجثث وكيف أنه سيخلصه على مر العصور ما لا يحصى ولا يعد من الممثلين ممن حفظ أو سيحفظ التاريخ أسماؤهم.

من كل قاضية بالموت شفرته ما بين منتقم منه ومنتقم (المتنبى)

لأحسن استغلال للطاقة الجبارة للثنائي الجهنمي اذلال/ثأر وحتى تتوصل أروع الملاحم، يجب أن يذل جنكيز خان أقصى قدر ممكن من الأفراد والشعوب. هكذا لن تنقطع الثورات والحروب التي ستعصر من الأدميين أروع وأفزع ما فيهم وهكذا سنتواصل القصص التي بدونها لا نعيش.

للعمل الآن بالتفصيل يخلع الراهب قناع جنكيز خان ليليس قناع الكونت مونت كريستو. لنتمتع بشماتتنا أمام صراخ ، الذي منه كل نقمة” الذي اذله بأربعة عشر سنة سجنا ظالمة وهو لا يعلم من أين تأتيه الضربات القاتلة.

سواء كان الانتقام بالجملة أو بالتفصيل لم ينتقم الأدمي في الواقع إلا من نفسه تاركا العدو الحقيقي يتشمتم فيه من وراء الستار. من هذا العدو؟ إبليس طبعاً...

يخلع الراهب قناع مونت كريستو ليليس قناع سوبرمان قاهر الشرّ والشرّيين. حتى هذا البطل غير قادر على فعل الكثير وذرية إبليس كالنباتات الضارة، ما إن تستأصلها حتى تعود أقوى من أي وقت مضى. ثم إلى متى سيبقى سوبرمان يصارع الشريرين وعمره محدود وعمرهم غير محدود؟ أه الموت؟ أليس هو الآخر أكبر أعداء الأدميين، حتى وإن كان في نظر أمثالي صديقهم الوحيد؟ يخلع الراهب قناع سوبرمان ليليس قناع شرلوك هولمز.

في نصوص كورنان دويل هو ذلك الرجل الذي لا أقدّر منه في الكشف عن قاتل اللورد أو ابنته أو كلبه. في هذا النص هو الذي قرّر أن يترك لهركيل بوارو وصغار المفتشين البلجيكيين والفرنسيين مهمة إيقاف قاتل سوبرمان وبصفة عامة العمل بالتفصيل على صغار القتلة. ما يهّمه تتبع القاتل الكبير الذي يزهق أرواح كلالل الأدميين بكلالل الوسائل، لا يفلت منهم واحد. ينطلق المفتش الهمام في شوارع لندن يرصد المارة بأعينه دون إغفال استعمال كاميرات المدينة المبتوثة حتى في المراحيض. ها هو يجد أولى القرائن، لكن لا بدّ من التثبت. ذات صباح يدخل وهو في قمة الهيجان على واطسون صارخا في وجه الطبيب الغارق في قراءة تفاصيل آخر جريمة: حدّد هوية المجرم الأكبر...

- أه ومن هو؟

- اسمه عزرائيل!

- عجيب، أليس كذلك!

ثم يعود إلى جريدته وقهوته غير عابئ بالشرلوك وهو ينقض على درج المكتب يخرج منه الكلبشة مسرعا لإلقاء القبض على الجاني بعد أن عرف اسمه.

بقية القصة؟ من يومها اختفى شرلوك هولمز وبعد عقد من الزمن قرّر واطسون مغادرة بايكر ستريت للبحث عن شقة وحبيب آخر.

آخر محاولة لإنقاذ الأدمي المسكين من إبليس ومن عزرائيل.

نبعث له ابن الربّ لا غير، ليخرجه من الورطة التي أفاق فيها وأمواج العنمة ترميه عاريا، بانسا على شواطئ جزيرة الشيطان.

يضع الراهب قناعه الجديد وفوقه إكليل شوك. يروي الراهب ظروف وصول المنقذ وكيف هبّ لاستقباله الملوك والنجوم. بداية مبشرة بكل الخير. لكن القصة تنزل مرة أخرى في الاتجاه الذي نكرهه أشد الكره. مُنقذ آخر لم ينقذ شيئا، بل وعجز حتى عن إنقاذ نفسه.

يخلع الراهب قناع المسيح. يرمي بغضب الإكليل ليليس قناع المتنبى صارخا أنه لا أحد قادر على مقارعة الدهر ولا نصّر عليه إلا أن تلقاه غير مكرث.

نعم، أحسن حلّ وقد استعصت كل الحلول الأخرى معاملةً العالم بكل الممكن من عدم الاكتراث، شريطةً أن تُغسل الروح من كل حفيظة ضدهً ليكون عدم اكتراث صافي ومن درجة أولى، مثل الزيوت الفاخرة التي لم يغش فيها البائع بمزجها بالماء. أمرٌ فوق طاقة الأدمي، على الأقلّ هذا الأدمي الذي يصمّ أذاننا بجعجعته الفارغة منذ قرون. إذا أردنا الاكتراث الصافي غير المغشوش فلا بدّ أن نبحث عنه في دورٍ آخر.

يخلع الراهب قناع المتنبّي ليلبس قناع بوذا.

يبدأ الأدمي بتنظيف شامل يكنس من كل أرجاء الذات غبار وقاذورات الطموح والطمع والغضب والحقد. ها قد أصبح الأدمي في وضع يمكنه من مواجهة ضربات القدر لا يرفّ له جفن وهو لا يبالي بسعادة أو شقاء بنجاح أو إخفاق، بحياة أو موت. الانتصار على الطمع والطمع والمطمع، بالجملة وبالضربة القاضية.

انتصار؟ ونحن نبتّر جزءاً من ذاتنا؟ أليس الغضب والخوف والطمع وكل الموبقات التي تأتيها من ارتكابها لذة الإثم من خصائص هذه الذات وأنها لا تكون بدونها؟ أليس الوجود مَبْنِيَا على صراع الأضداد ومنها التي تعيش داخلنا؟ اللعنة! لا المواجهة، لا الفرار، لا إشباع الشهوات، لا التخلّص منها، لا التنبؤ، لا التآله ولا حتى عدم الاكتراث (المفتعل منه والناجح) حلّ لمشكلتنا. ما الذي يبقى؟

الدور الأخير

يخلع الراهب قناع بوذا ليلبس قناع المغنّي سارج قانسبورغ. ها هو يهذي أماناً بعد أن حرق ورقة نقدٍ غالية الثمن، يستعمل نارها لتوليع سيجارته: الرحلة عبثٌ محض، لندمّر حياتنا بالكحول والمخدرات إلخ.

إنه دور البطل العدمي، الأدمي الذي لم يعد ينفع فيه لا دين ولا سياسة ولا طبّ ولا شعر أو موسيقى.

يقفز على خشبة المسرح رجل من الدهماء صارخاً: لا تصدّقوا حرفاً واحداً من هذا الكلام، أنا وحدي أقول لكم الحقيقة، لا مصلحة لي في الكذب، فهل تسمعوني أخيراً؟

نعطي لتقيل الظلّ الكلمة شريطةً ألا يُطيل. ماذا يزمجر؟ أن الأدمي الذي يخلق قصصاً يتقدم فيها كالمظلوم الكبير والضحية البريئة لمؤامرات الآلهة والطبيعة والدهر، هو أكبر نصّاب، أنه يمارس التعذيب والتصفية العرقية وإبادة الأشجار والحيوانات، أنه من اخترع جرائم الشرف، أنه من سجّن ابنته ربع قرن في سرداب تحت البيت واعتصبها يومياً وولدت له سبعة أطفال عاشوا في الظلام إلى أن اكتشفهم البوليس وهم يكادون لا يتكلمون لغة آدمية، أنه يبيع البشر ويغتصب الأطفال ويمارس التجارب على الكائنات الحيّة، لا يرفّ له جفن، أنه يأتي من المنكر ما يحمرّ له وجه إبليس، أنه -خلافاً لما يدّعي- ليس ضحية عالم بشع وإنما هو البشع الذي راح ضحيّته عالم بأسره.

لنصرخ في راهب متزايدٍ عصبيةً: وصلت الفكرة، داهمنا الوقت، فلنكتف بهذا القدر. قلنا: داهمنا الوقت.

هنا يرمي التعيس بقناعه ويتوجه مباشرة إلى الحانة ليقتضي الليل في شرب الساكي والشجار مع الحطام الأدمي اللاجئ فيها، الهارب من فظاعة القصص التي لا تتوقف أبداً.

ما الحصيلة في الآخر؟

يجب تجاوز الانطباع أننا عبر الأفتعة التي نلبس والمسرحيات التي نمثّل كائنات تراجيدية -كوميديّة يحقّ لنا أن نبكي على وضعنا وأن نضحك منه وشرّ البلية كما علمتنا الحياة ما يضحك.

ماذا لو كان هدف الأدوار والقصص التي نمثّل ونعيش في الواقع وعلى خشبات المسرح استكشاف الطيف الواسع للأحاسيس والمشاعر والأفكار والأفعال التي تقدّر عليها الذات وداخل كل إحساس، كل شعور، كل فكرة، يتواصل استكشاف التنوعات اللامتناهية التي لا تبلورها إلا أفضع القصص وأغرب الأدوار؟

أنصت ملنيا لمعزوفة ضوء القمر لبيتهوفن والعازف أحد الفنانين المشهورين مثل بارنباوم أو آرو أو هوروفيتز.

ابحث في الفضاء الافتراضي عن عازفٍ آخر واستمع جيداً للقطعة الموسيقية الرائعة. ثم ابحث عن تسجيلٍ آخر لها بأنامل عازفٍ ثالثٍ ورابعٍ وخامس. يمكنك أن تتوقّف عند السادس أو السابع وقد اتضح لك حقيقةً على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية. رغم أن المؤلف واحد والقطعة الموسيقية موقّفة بنفس النوتات، فإن الأداء يتباين من عازفٍ إلى آخر في جملة من الفوارق، منها التي تتعرف عليها بسهولة كالسرعة أو التناقل في العزف، وأغلبها فوق وخارج كل توصيف ولو كان توصيف أكبر علماء الموسيقى.

إنها نفس الظاهرة في كيفية تأديتنا للأدوار القارة التي تصنع منها قصصنا، لكن على نطاقٍ أوسع وأكثر تعقيداً.

كانّ وراء الظاهرة أمرٌ "لمخرج مجهول: تَوَعَا، جَدِّدُوا، ابتكروا، اتخذوا كل الممكن من المواقف، من السلوكيات، من التقاليد، من الطقوس، من الرؤى من الفنون ومن الأوضاع. عيشوا فاحش الفقر وفاحش الغنى، مطلق السلطة ومكتمل العجز، أروع تجارب السعادة وأفظع تجارب الشقاء، الإخفاقات المريعة والنجاحات الرائعة، السقوط المدويّ والنهوض الجبار.

كأن وراء تباين القصص والثوابت واحدة إرادته لاستكشاف ما تزرع به كل ذات آدمية من إمكانيات الفعل في العالم والتفاعل معه..من إمكانيات الوجود كما نيلوره نحن البشر.
بداية كل ما نمثل من أدوار وما ننسج من تمثيلات وقصص مجرد تجارب كيف وما معنى أن تكون آدميا.

**

النظارة المنتظرون لخاتمة المسرحية الكبرى.

الديكور: طاولة عرجاء وكُرسيان ليسا بأحسن حال. على الحائط إحدى لوحات أدوارد هُوير، لنقل لوحة المرأة العارية الجالسة حذو النافذة تنتظر منذ زمن غير محدد شيئاً أو أحداً.
في ركن مُنزوي من الركن كاتب هذه السطور بصدد التركيز على النظارة وخربشة بعض الملاحظات من حين لآخر، على دفتره الصغير الذي لا يفارقه أبداً.

يُزاح الستار عن مسرحية بالغة الشهرة ويقال إنها الأكثر عرضاً في سجون البلدان التي يُسمح فيها بالمسرحيات داخل السجون، والموضوع عنصر قارٍ وإن ينسب متفاوتة في أغلب قصص البشر: الانتظار، انتظار الثروة، أو الثورة، أو الشهرة، أو الشفاء، أو كشف الأسرار، أو البعث، أو قدوم الحبيب، أو قدوم المخلّص، أو المدينة الفاضلة، أو الحرّية، أو الموت، أو "الساتوري"، أو الوحي، أو البخت. كلهم يقضون بما ينتظرون الشيء الذي جعلوه أولوية أولوياتهم، خرجوا للبحث عنه لكنهم لم يجدوه فلم يبق لهم إلا انتظار أن تجود به الأقدار عليهم. كل هذا والعالم يسرّ فيمن يريد أن يسمع: وَهْم، وَهْم، وَهْم. يتواجه شخصان يقطع عليهما صمتهاما الثقيل دخول راعي الماعز الصغير حاملاً أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، لكنه سيأتي غدا بكلّ تأكيد.
نفس الديكور لكن الليلة الموالية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.
ليلة بعد ليلة بعد ليلة، ولا أثر للمعنيّ بالأمر.

لا خيار غير مواصلة الانتظار والتشبث بالأمل في قدوم الموعود يوماً ما. عبثاً، فلا حياة لمن تتنادي. نفس المعزوفة كل ليلة.
- طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

ليس من الغريب أن يتدافع النظارة إلى مثل هذه المسرحية وهي تعكس تجربتهم مع عالم لا يكفّ عن مطالبتهم بالصبر عليه قليلاً حتى يعطيهم ما يريدون وفي آخر المطاف ينطلقون نحو العالم الآخر يدا فارغة وأخرى لا شيء فيها.
يتأخر راعي الماعز الصغير. يتبادل الممثلان جملة تُردّد نفسها كل ليلة بثبات مملّ.

- لم يأت، أليس كذلك؟

يوصل راعي الماعز الصغير في الليلة الموالية ترديد نفس الجملة الرهيبة: طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكلّ تأكيد.

يبلغ التوتّر أقصاه على الركن. يصرخ الممثل الأول، لم يعد يتحمّل انتظاراً عبثياً يدفعه شيئاً فشيئاً نحو الجنون:
- قلت لك إنّنا لم نكن هنا البارحة. لقد حلمنا كابوساً.

يجيبه رفيق بؤس الانتظار الخائب:

- وأين كنّا البارحة حسب رأيك؟

- لا أعرف. في مكان آخر، في فضاء آخر. ليس الفراغ هو الذي ينقصنا.

- (بلهجة التحدي) لم نكن هنا البارحة، فما الذي فعلناه إذن؟

- ماذا فعلنا؟ لا نصيغ وقتنا في خُطْب فارغة. لنفعل شيئاً ما مادامت أمامنا فرصة. ليس كلّ يوم يحتاجوننا. ولو أنّه من غير الصحيح أنّهم يحتاجوننا. هناك آخرون يستطيعون القيام بالمهمّة أحسن منّا. لكنّ النداء الذي سمعناه موجّه إلى البشريّة جمعاء. في هذا المكان وفي هذه اللحظة، البشريّة هي نحن. لنغتتم الفرصة قبل فوات الأوان، لنمثّل بكرامة ولو لمرة واحدة الجنس الذي حُشرنا فيه.

هذا الجنس الذي حُشرنا فيه! هل يقدر الرجلُ خطورة هذه المقولة؟ الجنس الذي حُشرنا فيه! إذن الشكل الأدمي غلاف!

من حُشرنا فيه، لأيّ عرض، وما شكلنا "الحقيقي" إذن؟

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب منّي السيد Godot أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

يصرخ المنتظر الأول في المنتظر الثاني.

- لنبتعد عن هذا المكان.

- لا نستطيع.

- لماذا؟

- لأننا سنضطرّ للرجوع غدا.

- لنفعل ماذا؟

-انتظار Godot.

مَن هذا الذي لم يأت ولماذا هو بمثل هذه الأهمية؟ ما الذي ننتظر منه؟ وصفة السعادة الأبدية؟ الترياق الواقي من الموت؟
الظرف المختوم بالشمع الأحمر ودخله هدف المهمة التي بُعثنا من أجلها والأوامر الدقيقة والتعليمات الصارمة لتحقيقها؟

- فلنذهب في حال سبيلنا.

- نعم فلنذهب.

- وإذا جاء؟

- سنكون قد نجونا.

نجونا!

نعم المسرح معبد آخر تمارس فيه طقوس دينية مخفية وهذا المسرح لا يشدّ عن القاعدة... هذه المسرحية تنويعاً على نغم قديم قدم الأدميين متواصل معهم إلى نهايته... هنا يستحضر البشر مرارة طول انتظار المخلص وخوفهم ألا يحضر أبداً... كم من معابد-مسارح تنوح بأجمل الأناشيد على مخلص حضر فعلاً بعد طول الترقب لكنه صلب على خشبة ففرط الإنسان في فرصة اعتاقه! ... كم من معابد مسارح تنغني بمخلص لم يأت لحد الآن لكنه سيأتي دون أدنى شك في آخر الزمان لتنتهي مأساة الإنسان! وكم من معابد-مسارح أخرى قرر سيناريو المسرحية التي تعرض فيها أن المخلص جاء وقام بواجبه ورحل وما على المرسل إليه إلا اتباع الهدى!

يعود الممثل الثاني إلى الصراخ: ماذا نفعل هنا؟ مجدداً السؤال سيد الأسئلة.

لمغالبه ملل بدأ يتسلل، تشرذ الخواطر تتفحص إمكانية كتابة قصة من الخيال العلمي قد تقبل بها مجلة مغمورة.
أخيراً الكوكب الأزرق الذي كان يسمى الأرض قبل بضعة ملايين من السنوات... الموطن الأصلي لجنسنا الذي استطاع الأوائل الفرار منه قبل أن تلتهمه الشمس. كم مؤثر أن أعود في هذا الحجّ إلى منطلق الطريق الذي قادنا نحن ذرية آدم إلى إعمار ما لا يحصى ولا يعدّ من كواكب أبعد المجرات. ماذا أرى؟ كائنات من الحديد والأسلاك تحاكي أجسام الأوائل كما نعرفها من أقدم الصور! آه مؤكّد أنها الروبوتات التي تقول الكتب المقدسة إن أجدادنا تركوها وراءهم قبل الفرار. فجأة يمسك بي ذراع من حديد بدأ الصديد يغطيه والرأس الغريب المثبت فوق الجذع يصرخ في اتجاه هذه الكائنات: "إنه المهدي المنتظر!
إنه Godot! إنه Godot!!! أخيراً وصل المنقذ الذي وعدنا به إنجيل الأوائل قبل صعودهم إلى السماء... إنه المخلص الذي سيبنينا من خلقنا من نحن، وماذا نفعل في هذا العالم، فلنصّح جميعاً باسمه المقدس!

يقطع عليّ صراخ الروبوتات داخلي صراخ راعي الماعز خارجي.

- طلب منّي السيد Godot أن أبلغكم أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

كفى من هذه الجملة! المرّة المقبلة سأتي بالطماطم المعطوبة. ما إن يفتح الممثل فمه بها حتّى يتلقّى واحدة منها، أو حتّى بيضة إذا كرّرها ثانية.

ضرورة التداخل الحازم في القصة وإنهاء مفعولها المدمر للأعصاب، بدأ بالبيت في قضية هوية اللعين. أهمس في أذن الممثل الأول بما يجب أن يصرخ به.

- أنا أقول لكم من هو. إنه عزرائيل.

أهمس في أذن الثاني بالردّ، لكنه يبادرني قبل أن أكمل الجملة.

- يا غبي هذا كائن نهرب منه، لا ننتظره بكل شوق.

بدأت الأمور تفلت من يديّ.

- الغبي هو أنت. ألم تتعلّم بعد من طول مشاهدة البشر أنهم يرهبون ما يترجّون ويترجّون ما يرهبون؟

أهمس من وراء الستار في الممثلين بالاقتراح الثاني فألقى منهما الموافقة غير المشروطة.

ينظر الممثل الأوّل إلى ساعته غاضباً: يا ابن الكلب. لا أحبّ من لا يحترم المواعيد. إذا لم تتفضّل حالاً فسأخذ ضدك الإجراءات الضرورية.

تتطلي الحيلة على Godot يفهم أنه حُشر في الزاوية وأن من مصلحته البروز من مخبأه. يدخل على الممثلين ضاحكاً وممازحاً:

- هلّو حبيبي، عفوا عن التأخير، هذه المواصلات اللعينة وفي أوقات الزحمة!

يتسرّم الممثل الأوّل. يفتح الثاني فمه ثمّ يغلقه. ينفجران بالضحك.

- Godot زوجتك؟

- بل زوجتك أنت.

- كيف؟ انظر إنها زوجتك بشواربها وظهرها المتقّوس.

- يا رجل، إنها زوجتك أنت ببطنها المنتفخ وصدورها الضامر وشعرها المنفوش. ويحك خرفت إلى هذا الحدّ، فلم تعد تعرف حتى زوجتك.

عرض ثالثٌ أملاً في أن تقضي خصوماتكم بسببه لحرب مقدسة جديدة تقضون فيها كلكم شهداء: راعي الماعز الصغير هو Godot. كان يدخل كل مرة بالخير يحدوه أمل عارم أن يتعرّف عليه أخيراً النظارة فيتسلقون الركح لرفعه على الأكتاف والخروج به يهزجون ويغنون الأناشيد الدينية في شوارع المدينة الجدلى.

ماذا؟ حسك الطبقي المرفه يرفض بكل قوة أن ينتمي المنتظر-المخلص-المنقذ من ورطة الوجود إلى الطبقات البروليتارية، خاصة لرعاة الماعز. دبّر رأسك وهات الحلّ إن كنتّ عليه من القادرين.

تقول وقد بلغ بك ضيق الصدر أشدّه: لماذا لا نسأل صاحب النص، وإذا رفض الاعتراف فيمكن أن نُسلمه إلى المختصين في هذه الأمور ولنا -والحمد للشيطان- ما يكفي من الكفاءات.

نعم، من هو Godot يا صامويل يا ابن بيكت وإلا لا نلّم إلا نفسك. يأتي الردّ الشهير: لو كنتّ أعلم لما بخلتُ عليكم بالردّ.

كاتب النص نفسه لا يعرف! مؤلفٌ خلّق كائناتٍ ورّطهما في مأساة لا نظير لها، لا يعرف أو يدّعي أنه لا يعرف؟

المساكين بحاجة إلى أيّ ردّ، هم كالمرضى الذين لم ينفع فيهم أي دواء والمستعدين لتصديق أي دجال.

طيب، لنعوّل على أنفسنا ثانية. ما رأيك في هذا المخرج؟

يدخل راعي الماعز الصغير مردداً: طلب منّي السيد Godot، ثم يتوقف عن الكلام وقد تملكه الرعب. يتوقف الممثلان عن ترديد المبتذلات الميتافيزيقية ومنها المذكورة أعلاه، انتبها لزحف ظلامٍ غير معهود السواد.

هنا يدوي صوت لمجهول: طلبت منّي الشمس أن أبلغكما أنّها لن تأتي هذا الصباح، غدا بكلّ تأكيد،

(ضحكة شامتة)

فقط للتذكير بأن أهمّ ما في الوجود يأتي دوماً في الموعد ولا أحد ينتبه، أن الأدمي يتمتّع مجاناً وبدون صعوبة بالشمس والربيع والنوم. لكن متى أقنعتُ معاقى بالنعمة التي يتمتّع بها وأنا أردّد عليه قول الحكيم: “الصحة تاج على رأس الأصحاء لا يراه سوى المرضى”. لا أحد منهم رأى يوماً التاج الذي يحمله فوق رأسه، كلُّ همّه واهتمامه منصبّان على ما لا يملك من توافه الأمور.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة مردداً: طلب منّي السيد Godot أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكلّ تأكيد.

يقول الأدمي لنفسه أو لتوأمه في الشقاء:

- ماذا لو تخلينا عنه؟

- قد يعاقبنا.

ينظر إلى الشجرة مضيفا الشجرة وحدها الحيّة.

- نشنق أنفسنا. لديك حبل؟

- حزام البنطلون.

- إنّه قصير.

- تجذبني من القدمين.

- وأنا من يجذبني؟

أين المكلف بالصراخ فيهم “لا تصدّقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل. القصة سخيفة من الأساس وكاذبة من أوّل حرف إلى آخر نقطة. كل هذا تمثيل بل ومن الصنف الرديء!”

تنتهي المسرحية.

ينهض النظارة الذين انتظروا إلى النهاية وصول Godot، وكانّ على رؤوسهم الطير، ولا أحد طالب بتعويض ثمن التذكرة، والكل مقتنع أنه قصّر في شيء ما بالغ الأهمية، أنّه أخلف موعداً بالغ الخطورة لكن مع من؟

كم من الأدميين على قناعة أن وكالة الأسفار الربانية التي سقرتهم إلى هذا العالم لا تردّ على صرخات الاستغاثة لانقطاع في شبكة الاتصالات. منهم متفائلون على ثقة أن بعثة الإنقاذ انطلقت تبحث عن التائهين، مسألة وقت فقط وبعدها يصل المنقذ. أغلبهم متشائمون على قناعة أن الوكالة أفلست وأغلقت أبوابها من زمان. تعسا للمتشائمين والمتفائلين على حدّ السواء. هل أقول لهم أنه لا ضرورة لانتظار شيء أو أحد، فلسنا تائهين إلا في أوامنا والمهمة التي جننا من أجلها "ماشية"، بل وعلى أحسن ما يرام.

**

مجمل القول في طبائع الأدميين.

قد تكون أهم خاصية فيهم تناقضات تبدو عسوية على الإدراك والتبرير.

'صغيرٌ يطلُبُ الكِبرِ
وخالٍ يشتهي عملا
ورب المال في تعب
وذو الأولاد مهمومٌ
ومن فقد الجمال شكي
ويشقى المرء منهزما
ويبغى المجد في لهفٍ
شكاةً مالمه حَكَمٌ
فهل حاروا مع الأقدار
أم هم حَيروا القدر'

في نفس السياق وتأكيدا لصواب ملاحظة الأديب الجليل، بعض من تناقضاتهم الأخرى التي حيرت القدر. إن ما يميّز الأدميين عن بقية الكائنات - وأهم ما يميّزهم عن بعضهم البعض - هو الكلام. لذلك أفضل وسيلة للنفاد لتباين طبائعهم واتساع طيفها تصنيفهم إلى اللذين يجيدون الكلام المفيد واللذين لا يجيدون إلا الثرثرة الفارغة... اللذين يحسنون الاستماع واللذين لا يستمعون لشيء أو أحد... هناك اللذين لا ينطقون إلا بأراء تمعنوا فيها سنين، واللذين يكتشفون أفكارهم وهم يتكلمون... اللذين "يملكون" كل الأجوبة، واللذين ليس لديهم إلا الأسئلة... اللذين يريدون إجبار العالم على إعطائهم ما يريدون بالتسؤل والابتزاز عبر الصلاة والندور... اللذين يفتكّون ما يحركّ جشعهم بالحيلة والقوة والعنف... اللذين يعتقدون أنّ النجاح في السطو والتملّك، الذين يعرفون أنّ النجاح أقصى البذل والعطاء... اللذين يعيشون مبادئهم، الذين يتعيّشون منها... اللذين يتحكّمون في مسار حياتهم، الذين تذروهم رياح الحياة كورقة الخريف في مهبّ الريح... اللذين دينهم طقوس بلا أخلاق، الذين دينهم أخلاق بلا طقوس... المتأكدون من عظمتهم وهم أخطر المجانين، الجاهلون بوجود أيّ عظمة لديهم وهم وحدهم العظماء... اللذين يعانون من عقدة النقص أو عقدة التفوق، اللذين صَفّوا عقديّتيّ النقص والتفوق وهم وحدهم الأسوياء في عالم ضجّ من كثرة المرضى... اللذين استغلّوا ما وَصَعَه العالم فيهم من طاقات أحسن استغلال، اللذين أهدروها لا يعون ما ضيّعوا... اللذين يضحون بأنفسهم من أجل قضية والذين يضحون بالقضية من أجل أنفسهم.. اللذين يموتون لتحيا الملايين والذين يقتلون الملايين لكي يعيشوا هم.

الخ... الخ

هذه الثنائيات البسيطة ظاهريا والتي نتعلمها بالتجربة من طول معايشة الأدميين هي التي دوّخت ولا تزال الشعراء والفلاسفة والمحلّلين النفسانيين بكل ما فيها درجات وأصناف وتناقضات.

لكن لا معطيات أثنى من التي تعطينا ولا مدخل أحسن منها لفهم هذه الكائنات التي تصاحبنا من المهد إلى اللحد.

مثلا ثنائية الأعداء والأصدقاء.

بخصوص الأعداء، ثمة الذين لهم شرف - وهؤلاء للتعهّد لأن الصراع معهم مُنعة والصلح مُنعة أكبر - والذين لا شرف لهم وهؤلاء للتجاهل لأن الصراع معهم خَوْض في الوحل وصلحهم من نكد الدهر.

نفس الشيء بخصوص الأصدقاء: الذين لهم شرف وهؤلاء للتعهّد لأن صداقتهم نعمة النعم، الذين لا شرف لهم وهؤلاء للنفادي لأن صداقتهم وصمة عار والأفضل أن تجعل منهم أعداء.

ثمة الذين ننق فيهم والذين نحاط منهم، وأهمّ ما نحن بحاجة إليه أن نطمئن لرفاق الطريق.

انتبه، إن وثقت في الأدمي أو أمّلت فيه، كنت على خطأ، وإن لم تثق فيه أو يئست منه، جانبت الصواب. تظلمه إن ركّزت على موبقاته وتظلم ضحاياه إن ركّزت على فضائله.

ثمة ثنائية المحبوبين والمكروهين.

ما تُعلّمه التجربة أنك أمام كائن لا يُحبّ طويلا، خاصة إذا عرفته عن قرب،

ما تُعلّمه التجربة أنك أمام كائن لا يُكره طويلا، خاصة إذا عرفته عن كثب،

ما تعلمه التجربة أنه لا خيار لك غير تحمّل كل ما يُبغضك له والتمتع بما يحبّيك فيه، وفي كل الأحوال قبول تقلّبه مثل قبولك تقلّب الطقس.

إنها نفس الصعوبة في التعامل معهم أكانوا من صنف العقلايين أو اللاعقلانيين. مبدئياً الأدمي اللاعقلاني هو الذي يرفض أنه جاهل وعاجز في مواجهة العالم، فيجسّر الهوة بين الرغبة وتحقيقها بالصلاة والسحر. الأدمي العقلاني فهو الذي يقبل أنه تجاه العالم جاهلٌ عاجزٌ فيسعى إلى تجسير نفس الهوة بالعلم والعمل. هنا يجب أن نتذكّر أن نيوتن كان يمارس السحر، أن عليك انتظار لحظة يُصاب أكبرُ عقلايين بمرض عضال لتري حدود عقلايته وكيف سيركض نحو كل الدجالين بحثاً عن علاج وهمي، علماً وأنه يصبح عندما يتعلق الأمر بسجلاته التجارية من أساطنة المنطق والحساب. الاستنتاج الوحيد أن العقلائية واللاعقلانية من خصائص كل أدمي ومورّعة داخل كل واحد بالعدل والقسطاس فكيف تحسن تصريف أمورك مع كائن كهذا؟

هناك ثنائية الأذكى والأغبى. عن آدمي يدعى الخليل بن أحمد: "الناس أربعة، رجل يدري أنه يدري فذاك عالم فحنوا عنه، ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناس فذكروه، ورجل لا يدري وهو يدري أنه لا يدري فذاك طالب فعلموه، ورجل لا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فاجتنبوه".

المشكلة في هذا التصنيف التفاضل. ماذا لو كان هو نفسه قمة الخطأ. كم كان الجاحظ مُحققاً في قوله: "وأن الغباء في الجملة أضع من الفطنة في الجملة، وأن عيش البهائم أحسن موقعا من النفوس من عيش العقلاء ومتوقع البلاء في البلاء وإن سلّم منه، والغافل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء". نعم كم كان الرجل حصيفاً عريفاً بطباع البشر: "وإنّ الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتذكّر مثالبه ويحابون الصدق بتذكّر منافعه وتناسي مضارّه، وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدلوا بين خصالهما لما فرقوا بينهما هذا التقريظ، ولما رأواهما بهذه العيون" في نفس السياق تصنيف لا أكثر منه موضوعية أخذته عن آدمي يدعى سيبولا وقد يكون أحسن من فهم البشر. هو قسمنا وفق محصلة أفعالنا كالاتي: الذين تُنتج أفعالهم المنفعة لهم ولغيرهم وهم العقلاء، الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم والمضرة لغيرهم وهم الأشرار، الذين تنتج أفعالهم المضرة لأنفسهم والمنفعة لغيرهم وهم الأغبياء، الذين لا تنتج أفعالهم إلا المضرة لهم ولغيرهم وهم الحمقى.

حتى ولو افترضنا أن "الأعراق" الأربعة متساوية عدداً، فالحصيلة أن ثلاثة أرباع الأدمية تنتج أفعالاً مضرة بالآخرين، أي بك وبنا جميعاً. أليس هذا هو السبب الأول للحالة التي عليها عالمنا اليوم والبارحة؟ وراء هذا التصنيف خبر سيء وخبر أسوأ. بأيّهما أبدأ؟

الخبر السيء أن نسبة الحمقى هي نفسها بين النساء والرجال، بين المتحضرين والمتوحشين، بين الأميين والحائزين على جائزة نوبل، بين الرعايا والحكام؛ أن الأذكى لا يقدرون خطورة هؤلاء الحمقى (خاصة عندما يبنون في أذهانهم نماذج المدينة الفضالة). لكن حتى لو قدرها ما استطاعوا فعل أي شيء والالهة نفسها عاجزة أمام قدرتهم العجيبة على إلحاق الأذى بأنفسهم وبالآخرين.

الخبر الأسوأ أن لا شيء سيتغيّر في مستقبلنا "الزاهر" والتركيبة قارة لا تقدر عليها تربية أو دين أو سياسة.

هناك ثنائية المزاج المحدّد للجوّ العام للرحلة. ثمة المتقاتلون ويمكن أن نعدّ من بينهم أبا نواس وألكسندر دوماس الأب والجاحظ، وكلهم نماذج للأدمي الضاحك المضحك، المرح، الشره، النهم، السكر، العاشق، المبتدّر، الساخر، الوقح، المبسوط من وضعه، القابض على الحياة بكل نواجذه، المحب لها حبّ الأكل للدجاج المحمّر. نحسب منهم كل القائلين بوجود كائن مشغول بمصير الأفراد ومهتمّ بهدايتهم ويتكلف في ذلك الكثير من المشاكل والتضحيات، منها بعث ابنه إليهم رغم علمه كيف سينتهي.

في الصنف المقابل يوجد المتشائمون ونستطيع أن نعدّ من بينهم إجزاس الذي اضطر ملك المدينة الإغريقية الصغيرة إلى منعه من إلقاء دروس فلسفة كلّها قدح في الحياة ومدح للموت، وانجرت عنها موجة من الانتحار بين السكان. من هذا الصنف أيضاً الذين عُرفوا تحت أسماء أبي العتاهية وكيركجارد وتشايكوفسكي. شعار كل هؤلاء الأدميين المثل الصربي: ماضينا مظلم وحاضرنا لا يُطاق، من حسن الحظ أن ليس لنا مستقبل.

هنا سأقحم الصنف المزاجي الآخر الذي سيجعل من ثنائيتنا البسيطة ثلاثية صلبة: المتشائلون. موقف هؤلاء رفض التشاؤم لعلمهم بـجود العالم، وببلاهة اليأس منه ورفض التفاؤل لعلمهم ببخل العالم وببلاهة التعويل عليه في أي شيء.

هذا ما يقودنا لثنائية الخيرين والشريرين وما يتبعها من استنتاجات بخصوص ما نسميها الاخلاق.

المشكلة صعوبة وضع الحدود بين النوعين من البشر.

يُفتح باب السجن الصيِّق يوماً ليتلقفني سجنٌ أرحبُ اسمه الوطن. يأخذونني إلى بيتي في سيارة الشرطة.

داخل السيارة حديثٌ مع راكبيها وهم كما هو الحال دوماً مع البشر جلادون وضحايا.

- تظنوننا وحوشاً؟، ماذا تريد؟ أن أعصي الأوامر ليجوع صغاري؟

يواصل الرجل لا يثنيه إصراري على الصمت:

- هل تتذكر المظاهرة الأخيرة التي شاركتَ فيها؟ التي حصلتَ أمام مقرِّكم؟ ... طالبونا بإهانتك ثم بضربك بالهراوات. لم

يمسك أحد بأذى. لكن أتعرف ماذا فعلت زميلتك؟ أتعرف؟

الصوت الآن مختنق يغالب عبرة صامتة:

- قل،

- فتحت القعبة بنت الكلب التي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان بالوعتها وبصقت عليّ. بصقت عليّ أنا. على خدي الأيمن،

انظر. هنا بالضبط. منذ تلك اللحظة وأنا أشعر أن لعابها المقرَّر لا يكف عن السيلان، بالنهار، بالليل، حتى أثناء النوم ناره

تحرقتني.

تتدافع إلى الذاكرة صورة "با" و"يده على خده وغضبه لم يخمد بعدَ عقود من صفة الضابط الأجنبي، قد تكون سبب الصداق

المزمن الذي لم ينجح في تخفيفه حتى دوائي. يا رب، كم من آلام عبثية يلحقها الأدمي بالأدمي!

دون وعي ترتفع يدي، أمررها برفق على الوجنة الملتهبة، أمسح ببالغ العناية والبطء آثار بصقة لم تجف منذ شهور.

- عفوا، وقبّل صغارك من طرفي.

إذا أردت ألا تُخطئ أبداً في حق إنسان، تساءل أمام أيّ تصرف يلفظه القلب ويرفضه العقل: ما المصاعب التي يتخطى

فيها هذا الشخص؟ ما المشاكل التي تجاوزت قدراته على حلها، ما الآلام التي يعاني منها؟ لن تجد إجابة أغلب الحالات، لكن

مجرد إلقاء السؤال على نفسك سيمنعك من الرد على الخطأ بالخطأ وعلى الخطيئة بخطيئة أكبر منها... المضحك المبكي في

هذه المآسي المهازل التي نستهلك فيها جلَّ عمرنا أن كل الممثلين يعتقدون أنفسهم أختياراً في مواجهة أشرار، أصحاب قضايا

عادلة في مواجهة أصحاب قضايا ظالمة. تمعن عن قرب وستكتشف أنها معركة مسترسلة منذ بداية التاريخ بين أختيار-أشرار

وأشرار-أختيار، بين جلادين-ضحايا وضحايا-جلادين، بين خطرين أغيياء وأغيياء خطرين، بين مهوسين بهذه العقيدة

وهاذين بتلك الأخرى، بين جشعين شرسين استولوا على جلِّ فريسة الصيد وشرسين جشعين يريدون الاستيلاء على ما أخذ

منهم، وسرقته ما لم يسرق بعد، وكل أدمي على النوام كذاب مقترى عليه، سارق ومسروق، ظالم مظلوم.

تقول بد أن هناك حالات صافية يتبلور فيها الشر كأفبح ما يكون الشر والخير كأروع ما يكون للخير. نعم إنها حالات

كاريكاتورية نادرة لكن لا بأس من التوقف عندها عليها تزيدها علماً بطبائع البشر وهي في حالاتها القصوى.

لنضع من جهة، ليفيا وهي تدمر الأعداء الواحد تلو الآخر، وتسمم الأقارب والأبعاد، لتعبد طريق العرش لابنها تيبار

الامبراطور الروماني الذي لم يترك موبقة جنسية إلا وتفنن فيها ومنها الفحشاء مع الرضع والأطفال وأمر أخرى لا تخطر

ببال سوي.

نموذج آخر خلفه كاليجولا الذي بنى إسطبلا من المرمر لحصانه، وسماه عضواً في مجلس الشيوخ، وقتل كل من كان يطمع

في ممتلكاتهم.

أيضا ميسالين التي راهنت كبرى مومسات روما أنها تستطيع أن تهزمهن في عدد الرجال الذين تستطيع مضاجعتهم في ليلة

واحدة، وكان النصر حليفها.

حدث لا تسل عن بشر أمثال نيرون، بول-بوت وهتلر وستالين وكل من قتلوا بكل راحة بال الملايين من البشر.

كلهم نماذج للأدمي الذي ترك الحبل على الغارب لأغرب غرائز الجنس والعنف والتسلط المكمونة داخل ما يُسمى الطبيعة

البشرية.

وفي المواجهة، الجزء الآخر من طيف نفس الطبيعة التي أعطتنا غاندي وبودا واشوكا والأم تيريزا ورابعة العدوية.

لست ضد هذا التصنيف شريطة تحسينه كالاتي. من جهة، كل من تسمح لهم إمكانياتهم وظروف عيشهم بأن يكونوا مؤدبين نظيفين متعلمين إلخ. وفي المقابل من لا تسمح لهم إمكانياتهم بشيء من هذا القبيل، مما يدفعهم إلى أن يكونوا لصوصا، قذرين، كذابين، مخادعين، إلخ.

ملاحظة بخصوص إشكالية الأخلاق التي تطرحها آليا هذه الثنائية: أيا كان الأمر-سمّيناه الإله أو الضمير أو القانون-الذي نعهد إليه بأن يكون مشرّعا وضامنها والمعاقب على انتهاكها والمكافئ لاحترامها، فإننا نرتطم دوما بقلّة فعاليته، والمأمور يتعامل مع أوامره نادرا بمرارستها عن صدق، وأغلب الوقت بافتعال الطاعة أو بضربها عرض الحائط.

هل ثمة عيب هيكل في طبيعة المأمور ومن ثم ما جدوى الأوامر وحتى ما جدوى الأمر؟

هل هناك خلل في تركيبية المجتمع يمكننا بمعالجته أن نرفع العامل المعطل لبروز أخلاقية الأدمي، "الطبيعية"؟

لكن ماذا لو اتضح أن طبيعة المجتمع لا تعكس إلا طبيعة الأدمي، وأن من طبيعة هذا الأخير أن يكون أخلاقيا-لأخلاقيا، لأن الأخلاق والأخلاق -بالنسبة إليه- مجرد استراتيجيات لقضاء الحوائج وأولها البقاء، يستعملها تباعا أو بنسب مختلفة حسب الظروف والحاجة، دون أن يضايقه في شيء تناقضهما.

لنُصف إلى كل هذا أن الأخلاق مدوّنة المواقف والتصرفات التي تحاول السباع المشدودة إلى بعضها فرضها بالحسنى على نفسها وعلى الجميع لنفاذي التهلكة، لكن فشلها يجعلها تلجأ إلى القانون، وهو مدوّنة المواقف والتصرفات المفروضة بالقوة.

القاعدة الأولى أنه كلما ضعفت الأخلاق كثرت الحاجة إلى القانون، وكلما قويت الأخلاق تناقصت ضرورته، مما يعني أن قوة القانون في أي مجتمع هي الدليل على ضعف مستواه من الأخلاق.

القاعدة الثانية أنه لا قدرة للأخلاق أو القانون -عُلقا في شكل دين أو أي أيديولوجيا أخرى- على استئصال الشرّ وإنما أقصى المؤمل كبح جماحه وتخفيف أضراره وبكل صعوبة، في إطار صراع أزلي كل نصر فيه مؤقت.

هذا ما يجعل من رحلتنا مغامرة في أدغال مجهولة المداخل والمخارج لا نزهة في حديقة عامة معروفة الجغرافيا ومن ثمة ضرورة الشجاعة ومعها النقيض الذي لا توجد إلا بوجوده أي الجبن.

يمكن رصد هذه الثنائية باكرا عند نوعين من المرتحلين.

ثمة الأدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ الذي حطّ فيه، ثم يدخله بسرعة وقد فاجأه عنف الألوان والأصوات والروائح وأرعبه صخب الحركة. ثم يخرج من جديد يدفعه الفضول ويشده الخوف. ها هو-ها أنت-ها أنا، على الطريق كالغزالة وسط الأعشاب العالية تتربص داخلها كل أسود العالم.

همّ هذا النوع من المرتحلين العودة بأسرع وقت إلى الجحر والتمسك أطول وقت ممكن بطمأنينته. أحيانا يموتون بالخوف من شدّة خوفهم من الخوف، وفي كل الحالات هم يعبرون الوجود متألّمين من فرط توقعهم أن تصيبهم الحياة كل لحظة بما يوجع... وهو ما لا تبخل عليهم به أبدا.

لا شك أنه سيكتب على ملفهم: للإحالة على مستودع الخردة.

يخرج الأدمي من النوع الثاني رأسه بحذر من المخبأ الذي حطّ فيه، يصفعه عنف الألوان والأصوات والروائح وصخب الحركة وتنوع الأشكال، فيترجع إلى الخلف مبهورا ومذعورا. ثم يخرج من جديد وقد استثارته الأحاسيس القويّة، يدفعه الفضول ويشده الخوف. يتغلب عنده الفضول وكله نفاذ صبر وحتى تسرع في مغادرة الكوكب. لا بد أن أهدئ من نفاذ صبري ومن حماسي، أن أنظّم تنفّسي وقد تعالي داخلي منسوب شهوة القتل وأنا كالفهد بصدد القفز للإمساك بعنق الغزال. تنتفخ الذات زهوا وهي تنظر في عيني العالم، تستقرّ أنيابه ولا درع يحميها سوى الجرأة والتحدي. ها أنت-ها أنا-ها هو الأدمي المغوار يمشي وسط الأعشاب العالية متحفزا يبحث عن الصيد وعن الأنثى وعن العلم وعن المال وعن المجد وعن لذة الخطر وقد استنبطن باكرا أنه بقدر ما تتعاطم الأخطار تتعاطم الغنائم، أنه لا بد "مع الشهد من إبر النحل"... وأحيانا تصبح الإبر أئمن من الشهد. لا شك أنّ مخطّط الرحلات سيكتب على هامش ملف كل مستكشف من هذه الطينة: يعين مهمّة أخرى في عالم أخطر.

في نفس السياق، تجد الأدمي المبحر في وجه عاصفة الحياة وهو كالربان الجسور المتزايد الخبرة في رصد الرياح والتيارات، الرافع مرة شراعه والمرة الأخرى خافضه، المتسلق جبال الموج إلى حيث الغنائم.

على الطرف الآخر الأدمي المتشبهت بخشبة تطفو على سطح الموج المرعب تطوّح به الرياح في كل اتجاه وهو بلا حول ولا قوة، ينتظر كل لحظة خلاص الموت غرقا.

قد يشتم من كلامي أنني أفضل صنفا على صنف. أبدا، لا شيء إلا لصعوبة وجود النماذج النقية.

تأمل الحالة التي نسميها الشجاعة. هي فضيلة الفضائل ظاهريا، لكن لو دقت فيها لاكتشفت أنها-أغلب الوقت-خليط من العيوب كالسذاجة والتهور والمجازفة والجهل والخفة والغرور والتمثيل والبحث عن التصفيق وتصديق القصص الملققة عن الأبطال

المزعمين، ومحاکاتهم لتنفيذ مخططات الجبناء الساهرين على حشو الأجيال الجديدة من القرايين بهذه الفضيلة المسمومة لتتحقق مراميتهم وهم في راحة وطمانينة.

والآن تمعن في مشاعر كل آدمي مغوار، وتجاوز صراخ النصر والتخريف، وستكتشف أنه يعاني من كل ما يعاني منه الأدمي الجبان، ذلك لأن الشجاعة ليست غياب الخوف أو اقتلاعه من الذات، والأمر مستحيل استحالة غياب أو اقتلاع الجوع والعطش. إنها فنّ إخفاء الخوف، وفي أحسن الحالات فنّ التغلب عليه.

*

يجب المرور الآن من التصنيف إلى التفسير.

لا تفهم هذه الطبائع إلا في كنفاعات وأفعال في علاقة مع الظروف الموضوعية للرحلة.

أولى هذه الظروف المكان والمكانة داخل قافلة بني سفر.

كان طاولو القمار تسحب لكل قادم جديد رقما يضعه إجباريا في إحدى أربع درجات يقضي أطباء الصحة العمومية حياتهم في دراستها ومحاولة التعامل معها.

الدرجة الأولى هي التي ترتحل فيها الإناث الغنيات، ومعدل الحياة عندهن ثمانية عقود، منها ستة بصحة جيدة، من فرط تمتعهن بالغذاء السليم والماء الزلال والهواء النقي والجنس النظيف والولادة المراقبة بخيرة الأطباء. وراءهن في حسن الطالع الذكور الأغنياء ويعيشون أقل لبعض العادات السيئة مثل شره التدخين والقيادة بسرعة والطموح المكلف للقلب.

القاسم المشترك بين رحالة الدرجة الأولى والثانية أنهم لا يأكلون إلا ثمار البحر، لا يشربون إلا الشمبانيا، لا يلبسون إلا الحرير، لا يركبون إلا الطائرات الخاصة، أنهم يموتون بأمراض التخمة ليُدفنوا في مقابر رخامية. أغلبهم لم يروا الحرب إلا على شاشة التلفزيون، لم يعرفوا الجوع إلا أيام الصيام وهم من يعطون الأوامر ولا يتلقونها.

إنهم من يخترعون الداروينية الاجتماعية والليبرالية المتوحشة ويدعون أن الطبيعة، أو الله، خلق البشر غير أسوياء، وأنه يجب محاربة كل خصوم السلطة بالتنتصت على هواتفهم وتعذيبهم في أقبية المخابرات وقطع أرزاقهم وجلدهم في الشوارع وضرب أعناقهم بعد صلاة الجمعة.

ثالث درجات قافلة الرحلة التي نسافر فيها جميعا الإناث الفقيرات. هنا تتعقد الأوضاع حيث لا تعيش المسكينات إلا بمعدل خمسين سنة أغلبها مسغبة وشقاء ومرض نتيجة تفتير العالم بما جاد به على الأغنياء ذكورا وإناثا.

أين رحلتهم حتى هنّ من رحلة الأدميين الذكور الفقراء رُكّاب الدرجة الرابعة؟

هؤلاء البشر الذين سماهم أكثر من أديب في أكثر من ثقافة "المعذبون فب الأرض" أو Les Misérables لا يعيشون أكثر من أربعة عقود في أحسن الأحوال، ولا أحدثكم عما يعانون طوالها.

القاسم المشترك بين ذكور وإناث هذا الصنف أنهم الأدميون الذين يأكلون الحشيش ويشربون الماء كدرا وطينا ويلبسون الأسمال ويسكنون مدن القصدير. هم لا يعرفون طوال رحلتهم إلا الأشغال الشاقة في مناجم الملح ومزارع القطن، والطرده الجماعي لأسباب اقتصادية. يأكلون من فتات مائدة السادة أوقات الرخاء ويموتون في حروبهم أو في ملاحبتهم، ولهم حق غير قابل للتصرف في قائمة طويلة من الأمراض تُزاد على بعضها البعض في البشاعة وإلحاق ما لا يتصور من أصناف الوجع. إنهم من يخترعون الأديان والأخلاق والنقابات والثورات الفاشلة. هم عادة من تصفهم اللغة (لغة النساء والرجال الأثرياء) بأنهم جهلة، قذرون، لصوص، مجرمون، أوباش، رعا، عوام، إرهابيون ومخربون.

صورة أخرى لهذا الوضع: الرياضيون - وحتى السواح-الذين يتسلقون جبال الهملايا وأيديهم في جيوبهم وهم عادة من أثرياء أثري البلدان تتبعهم جحافل من سكان هذه الجبال الرائعة المريعة وهم عادة من أفقر فقراء البلاد يئنون بأحمال تصل أحيانا مئة كيلوغرام تكدست فيها كل حاجيات الذين يستعملونهم لنقل أغراضهم لا فرق كبير بينهم وبين البغال والحمير. للأسلاد الذين يدفعون لهم بعض النقود الرحلة مغامرة ومتعة وتحديات يرفعونها ليفاخروا بها عند رجوعهم بيوتهم.... ولحملة الأثقال الذين يدعون "شربا"، الرحلة بما هي السفر والعيون على الأرض والعناء والارهاق الذي ما بعده إرهاب وسيف الحاجة المسلط على أعناقهم لأن البديل هو الموت جوعا.

إجمالا يمكن القول إن مثل هذا الوضع يخلق من جهة الأدمي الذي لا يُرضيه هذا العالم كما هو، المصراً على تخليصه من القسوة والفضاعة والقتح والظلم. مثل هذا الصنف في حرب لا تتزع أوزارها أبدا لتغيير ما ليس قابلا للتغيير، ومن ثم هو في حالة مزمنة من الحفيظة والضعينة تجاه من يرفض مساعيه الحميدة لوضع أفضل، بل يقاوم كل خطئه ويفشلها. ولأن العالم لا يرضى عنّ هو ساخط عليه ولا يحب من يكرهه، فإنك ستراه يكيل الصاع صاعين لصاحبنا مما يزيد من توتر أعصابه

ومن احتقان علاقة متأزمة على الدوام. ها نحن في حلقة مفرغة من سوء نية متبادلة تُسمم حياة الضيف وحياة مُضيف يَرفر غيظا من ثقل دم الزائر ومتنفسا الصعداء لحظة خطفه لروحه. على النقيض هناك الأدمي غيرُ المكترث وحتى غيرُ المعني بكل ما يجعل نقيضه الساذج يبكي ويصرخ. لنقل حتى لا نتهمه ببلادة الحسّ إنه واع بأن العالم لم يُخلق على مفاسه، وأنه اكتشف -بطول ممارسته له- أن الحكمة هي في إشاحة البصر عن الغائط والتركيز على الورد. فرق هائل بين الصنفين فالأول عبء على ذاته، على الآخرين وعلى العالم، والثاني عابرٌ سبيل أنيقٌ لا يُثقل كاهل أحد ولا حتى كاهله، يقبل بامتنان ما يوجد به عليه العالم الكريم ولا يُزعج العالم البخيل بالشكوى والشتم. تقول إنني أقسم ما لا يجوز تقسيمه، إنك تتحول باستمرار من الصنف الأول إلى الثاني ومن الثاني للأول، كالطقس لا تدري كيف ولماذا تتلبد سحب الروح ثم تنقش. فعلا وهذا ما يجعلنا نستنتج أن هناك شيء ما داخل الأدمي -أو قل داخل العلاقة التي تربطه ببقية الأدميين- يتحدّى المعرفة التي نتوهم امتلاكها عنه.

هل التركيبة الرباعية -وما ينجر عنها من ردود فعل على طرفي النقيض- نتيجة أخطاء هيكلية أي طبائع مطمورة عميقا وراء ما يدعيه الأدميون من فضائل ومحاسن؟ يقول رايو اسمه برنارد فربر إنك إذا وضعت ستة فئران في دهليز ووضعك لهم كمية قليلة من الجبن خلف حواجز عدّة، تفرض عليهم صراعا شرسا على الغذاء، فإن الوضعية تفرز بسرعة تنظيما يتشكّل من سيّدين يستحوذان على جلّ الغنيمة، وعبدان في خدمتهما، ومتمرد، ومُتسوّل يعيش على الصدقة وفئات الآخرين. المثير في التجربة أنك إذا جمعت ستة سادة تأخذهم من عيّنات مختلفة، فإنهم يُعيدون نفس الهيكلية: سيّدان وعبدان ومتمرد ومتسوّل. إن أخذت ستة مستضعفين أو ستة متسوّلين من عيّنات مختلفة أفرزوا نفس التركيبة.

مما يعني أن التنظيم يعيد نفسه دوما، كأن هناك إرادة قاهرة تأمر بذلك. لقاتل -اشتّم مني سوء النية- أن يقول إن البشر ليسوا فئراناً. ردّي أن المدهش ما تُظهره الفئران من طبائع آدمية. المهم أنه أصبح لنا مقياسٌ موضوعي لتقسيم الأدميين لا يتعارض مع ما نعرف وإنما على العكس يدعّمه. من يستطيع إنكار توزع الأدميين في كل مجتمع إلى سادة وعبيد ومتمردين ومتسوّلين؟

من ينكر سرعة عودة أيّ مجتمع قام بالثورة، إلى النموذج القديم وقد أصبح فيه العبيد سادة يسومون رفاقهم القدامى نفس الخسف، علما أن هؤلاء لا ينتظرون غير أن تدور الدوائر للانتقام مجددا. كل ما في الأمر أنك لا تستطيع التنبؤ بموعد الثورة المقبلة، ولكل فصيل من العبيد طاقة معينة على الصبر، ولكل فصيل من السادة قدرة معينة على الإيذاء الموصّل إلى التمرد. أيّ عجب يمثل هذه الاستعدادات الغريزية أن يتشكّل المجتمع دوما من ملوك وعبيد وثوار، أو أن تتزاحم في الفضاء الرمزي دياناتٌ سادة ودياناتٌ عبيد ودياناتٌ متسوّلين ودياناتٌ متمردين، وبنفس الكيفية أدابٌ وفنونٌ سادة وعبيد ومتسولين ومتمردين؟ السؤال الآن لماذا سيّدان لا سيّدٌ واحد؟

ربما اعتمدت السلطات العليا هذا الخيار لتحكّم على السيّد -حتى وهو في أعلى المناصب- أن يُواجه بالحنّة والامتحان، ورمزهما الغريم. فائدة في العملية والمهدّد مضطّر إلى الانتباه المستمرّ والمهدّد مجبرٌ على الطموح الخلاق. بهذا يضمن التنظيم تواصل الحركة وولادة القصاص الطريفة للثورات والحروب.

لماذا اختارت أن يكون هناك عبدان لا واحد. ربما لأنه يجب إعطاء بعض الحظوظ للعبيد لقلب موازين القوى، فعبدٌ واحد لا يقدر على سيّدين ولا بد له من حليف.

ماذا عن المتمرد؟ هو بحاجة ليكون وحيدا للتحرك بسهولة وحتى لا يُخترق التنظيم الثوري. أسارع بالقول هنا إن تصنيفي لا يقتصر صفة المتمرد على الإراهيين، بل يشمل اللصوص والمحاليين والكذابين والمزورين والكفرة ومخترعي الفن المعاصر والموسيقى الإلكترونية، أي كل الخارجين على قوانين سنّها السادة تجبرا واستكان لها العبيد جُبنا وضعفا. والمتسوّل! ربّما اكتفى مُتعهّد التجربة بواحد حتى لا يُثقل كاهل العبيد وهما مُجبران على تغذية سيّدين لا يشبعان، إضافةً لمتمرد غير منتج بطبيعته.

والآن لنفحص وضعية الكل ليتبين العُبن اللاحق للجميع، ربما باستثناء واحد.

السيد -كما رأينا- مهّدّد طول الوقت بالغريم وبالعبد وبالمتمرد. كل هذا يُفسد مزاجه ويجعله يعيش على أعصابه إلى نهاية الرحلة. لا تقل وضعية العبد بؤسا وهو يعيش في خوف يُسمّم عيشه؛ وفي تسميم حياة السيّد وهو خائف من تبعات خوف عبده. أما المتمرد فكلنا نعرف مصيره البائس وكيف سيقطع رأسه بالسيف أو بالمقصلة أو ينتهي في جواناتنامو ويأخذ عقوبة مدى الحياة، هذا عندما لا تصل المأساة ذروتها وهو من يعذب ويقطع الرؤوس، انتقاما مما لقيه وتمهيدا لعودة الرقاص إلى نقطة الانطلاق.

لم يبق إلا المتسول. هو الوحيد الذي أنقذَ رحلته. تذكّر كلّ الوقت الذي يُضيعه السيّدان في معارك افتكاك السلطة والحفاظ عليها والوقت الذي يُضيعه العبدان في العمل والشكوى، والوقت الذي يضيعه المتمرد في إعداد الثورات الفاشلة. يُفلت المتسول من كل هذا وقد فهم من أين توكّل كَتِف العالم. فمواقفه مَبْنِيَة على حياضٍ هادئٍ رصينٍ يُخفي لامبالاً بالوضع، بالمنتفعين منه وبالناظرين عليه. لذلك نادرا ما يزعجه سيّدٌ أو عبداً أو متمرداً، فلا أحد يطلب منه شيئاً أو يلتفت إليه أصلاً. حتى قطعة النقد التي تمكّنه من سدّ الرمق، تُرمى له بتفادي النظر في عينيه. هكذا يمكنه التفرّغ للشؤون الهامة، لا عمل برهقه، لا سلطة يؤرقه همّها ولا مؤامرة يدبّرها قد تكلفه حياته. لهذا هو فُدوتي لا السيّد الذي أرثي له، والعبد الذي يوتر أعصابي، والمتمرد الذي يُضحكني عبثاً ما يقول وما يفعل. قد أذيع سرّاً هائلاً إن قلتُ إنني أخطط لأكون متسوِّلاً. قد لا يحملني أحدٌ على محمل الجدّ أو يحملوني إلى المستشفى إن وجدوني على قارعة الطريق في بلدي أتسول قطعة خبز والابتسامه على محياي. لا حلّ غير الفرار بعيداً ربما إلى بلاد سينا وهي منذ القدم وطنٌ أرقى أنواع المتسوِّلين.

حتى المتسوِّل معرّضٌ لكل أصناف المنعّصات، والحروب المستعرة على طول الطريق تمنعه من التركيز على جمال الجبال والسحب، ناهيك عن إمكانية سقوطه في فخّ قاتلٍ نصبه له متسوِّل خان السلك، ولا أتحدث عن الجوع الذي يمزق أمعاءه وعن القمل الذي يرتشف دمه بنهَم. ممكن، لكنه على الأقلّ الأدمي الوحيد الذي لا يؤذي شيئاً أو أحداً وهذا في حدّ ذاته أكبرُ نعمة داخل قطع السباع التي شدّت بالسلاسل لبعضها، تتعرّض فيها طول الوقت للعضّ وفي أحسن الظروف لزيير التهديد يلاحقك في النوم وفي اليقظة.

لقائل إن يقول هل معنى هذا الكلام أن البشر فعلا كائنات مسيرة لا خيار لها أمام الجينات التي غرست فيها أو المكان من القافلة التي تسحبها طولة القمار لكل مولود جديد.

على ساحة المعركة جنديان بعد نهاية المجزرة يتجولان بين الجثث.

فجأة يجد كل واحد منهما نفسه أمام عدوّ جريح.

هما من نفس الجيش ولهما نفس الموروث البيولوجي والثقافي... من المفروض إذن أن يكون لهما نفس التصرف. العكس هو الذي يحصل أغلب الوقت.

من سيجهز على العدوّ مستولياً على ما يستطيع سلبه ومن سيمدّ له بقرية الماء ليبلل شفثيه؟

يستحيل على أي ملاحظ يتابع من الخارج تصرفات الجنديين التنبؤ بمن سيفضّل هذا الخيار على ذلك؟

المهم أنك لو أخذت كل وقت المشاهدة لرأيت التصرفين المتناقضين يتكرران باستمرار والكائن هو نفس الكائن والتجربة والنتيجة نفسها في أي ميدان.

خذ آدميا وضعه في أفسى الظروف التي يمكن للرحلة أن تسلّطها على مرتجل. اجعله منذ نعومة أظافره محروما من الحنان من التشجيع من التثمين. عرّضه لأبشع أنواع الاعتداء الجسدي والنفسي.

لا أحد يعرف من سيصبح قاتلاً بالجملة ومن سيصبح قديسا يستشهد لإنقاذ جلاديه؟

اعتبر الوضعية المعاكسة. خذ آدميا آخر ووقّر له منذ نعومة أظافره كل متطلبات أسعد رحلة من حُب وتثمين ورفاهة وسلطان على نفسه وعلى الآخرين. من سيصبح ملاك رحمة ومن سيعش ويموت بليدا يرى فيما وهبته الحياة وحرمت منه الآخرين أمرا طبيعيا؟

توقّع دوما المفاجأة وأنت تُراهن على مواقف وتصرفات هذا وذاك، تصيب مرة وتخطئ مرّات...مما يعني أن الأدمي ليس دوما رويوتا تحركه برنامج وتعليمات مكتوبة من الأزل ولا يمكنه الخروج عليها...ولا هو كائن تسيره وتتحكم في كل مواقفه وتصرفاته وفي كل الظروف اكرهات خارجية يفرضها عليه المجتمع الذي يعيش فيه.

هو كائن مسيرٌ ومخيّر، يحمل داخله طيفا واسعا من مواقف وتصرفات متناقضة تجعل كل واحد منهم في نفس الوقت الذي منه كل وحشة والذي منه كل نقمة والذي منه كل نعمة والذي منه كل نشوة.

ما نحن متأكدون منه أيضا أن هذه المواقف والتصرفات المتناقضة المتغيرة طول الوقت هي محرك قصص الأدميين الفردية منها والجماعية.

تصور فقر قصصنا لو كنا كلنا ملائكة -أو شياطين مائة في المائة- بل وهل يمكن للملائكة ان يكون لها قصص أصلا وهي كائنات كاملة ومن ثمة بغير حاجة إلى أي حركة، إلى أي أفعال، إلى أي قصة؟

والآن تفحص فحوى قصص الأدميين التي تحركها طبائعهم المعقدة هذه.

أنصت لجلّ صراخهم أطفالا وكهولا، ذكورا وإناثا، فقراء وأغنياء، حكاما ومحكومين، فلاسفة وأميين الخ.

لن تظفر إلا بشكل أو آخر من التفاضل وله في بعض الآداب ركن قار اسمه شعر الفخر ومقابله شعر الهجاء.

هكذا تعبر العالم وأنت تسمع المرتحلين يترشقون بأفضلية عرقهم ودينهم وحضارتهم ومجتمعهم ووطنهم وعائلاتهم وذواتهم على بقية المرتحلين. فواحد يصرخ أنه من " شعب الله المختار " والآخر أنه من " خير أمة أخرجت للناس " وثالث أنه من " قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظام " ... الخ.

جلّ معاركهم في كل فضاءات العالم تحوم حول أحق الآلهة بالربوبية ومن أصدق الأنبياء وأحسن نظام للحكم وعن الايدولوجيا التي لا يأتيها الباطل من خلفها وأمامها خلافا لكل الأخريات.

وعلى مستوى الحياة العادية الصراع دوما حول من الأحق بالريادة في هذا الميدان أو ذلك وأي امرأة هي الأجمل وأي طفل هو الأذكى وأي نظام سياسي اقتصادي هو الأنفع وكيف أن زيد يتميز عن عمر بمكارم الأخلاق التي يخلو عمر منها تماما ... الخ.

حتى لا نضيّع الكثير من الوقت والجهد في تتبع كل خصوماتهم حول من الأفضل -بما معناه في آخر المطاف الأجدر بالوجود والتواصل- لنسأل بعض المفكرين منهم الذين يتعاملون مع القضية بالجملة لا بالتفصيل.

حسب آدمي اسمه سان سيمون يمكن تقسيم البشر إلى صنفين: من يؤدي اختفاؤهم إلى كارثة على المجتمع وحتى إلى نهايته، ومن يؤدي اختفاؤهم إلى تواصله كأنّ شيئا لم يكن.

يضع في الصنف الأول العلماء والفلاحين والمهندسين والبنائين وكل المهنيين من أرباب الحرف الشريفة (أضف الشعراء والفنانين والمهزّجين الذين يحبّهم الأطفال).

في الصنف الثاني يضع الملوك والملّكين وكلّ الساهرين على سرقاتهم من عسكر وبوليس وجواسيس وجلّادين وقضاة ورجال دين.

تصوّر حالة العالم، لو أخطأ القدر، فعوض أن يمحو هذا الصنف، زلّت يده فمحت من الوجود أطباء الأسنان والخبازين والموسيقيين وأعوان النظافة البلدية. لاحظ أن مثل هذا العالم قد لا يخلو من إثارة، والعسكر يصطادون البوليس بعد انقراض الجلّادين، والبوليس وراء جواسيسه، والجواسيس يتبعون أثر القضاة المختفين داخل أنقاض الخراب، ورجال الدين يصرخون بالفقوى وراء الفتوى أنّ أكل الفقهاء حرامّ ديناً وشرعاً، فلا ينفع ذلك كثيراً والكل يعلم أنه لا أطيب من فقيهه، خاصة بالوصل المشوي، شريطة أن يكتشف الصيادون أين اختفى الفقهاء وأين أخفي البصل.

دوما في نفس الإطار. يمكنك -إن كنت في حالة متقدمة من سوء المزاج والنية كما هو حالي وأنا أكتب هذه السطور- أن تصنفهم إلى قسمين: الأدميون الذين تركوا بعد موتهم امبراطوريات سياسية وامبراطوريات مالية وامبراطوريات فكرية وامبراطوريات فنية ... واللذين لم يتركوا إلا بعض الأطنان من البراز - صلحت على الأقل سمادا- وآلاف اللترات من البول وستين إلى سبعين كيلوغرام من اللحم والشحم صلحوا غذاء للذباب الأزرق واجناس متعددة من الدود والجراثيم.

للتلخيص، نوعان من الأدميين: الذين يجب أن ننوح عليهم إذا ماتوا، الذين يجب أن ننوح عليهم لتواصلهم أحياء ... الذين ربح العالم فيهم رهانه، الذين خسر فيهم كل ما في جعبته من عبقرية ومن جهد.

تطرح هذه المقولة المستقرّة أخطر مسألة بخصوص الأدميين.

هم يضيعون الكثير من زمن الرحلة في التأكيد على قيمتهم ... وفي قرارة أنفسهم التأكّد منها.

فهذا يضعها في طول قائمة اجداده وممتلكاته، وذلك في عرقه، في لونه، في حضارته، في دينه الخ . الذكي منهم من يحاول اثباتها بما يملك من مواهب والأذكى بما يقدم للبشر من خدمات.

تراهم حتى وهم أباطرة، ملوك، أمراء، اثرياء، علماء يبحثون دون توقف عن رفع هذه القيمة إلى أعلى مستوى بتوسيع ما يتوفرون عليه من سلطة، من ثراء، من سمعة، من شعبية ... وشعارهم شعار النار: هل من مزيد.

كم هم مساكين! كلهم سجناء شهوة لا يشبعها شيء. كلهم سجناء بعضهم البعض والقيمة لا تكون إلا بوجود الآخر المعترف بها وهو اعتراف لا أصعب من الحصول عليه.

هل شعورهم الموجه بهشاشتهم رغم ما يظهرون من صلف هو محرك هذه الخاصية التي لا يختلف فيها اثنان مهما كان المكان والمكانة؟

تحيلنا الظاهرة لأسئلة من نوع هل ثمة طريقة موضوعية لتحديد قيمة الأدميين بالنسبة لبعضهم البعض ... خاصة ما قيمة الأدمي نفسه؟

لكن هل لتساؤلنا هذا أدنى قيمة؟

نحن لا نتفق على فهم موحد لقيمة الأشياء ولا على أدوات قياسها فكيف نتفق على مفهوم قيمة الأدميين وبأي أدوات سنقيسها؟ نظرا لاحتفاظ الأشجار والفيلة بالصمت وعدم تفضّل كائنات ما وراء مجرة العقرب لحد الآن بزيارتنا لمدنا برأيها فينا، لا خيار لنا في قضية الحال غير التعويل على آراء الأدميين أنفسهم.

لكن أي قيمة -أي ما مصداقية لرأي زيد ولرأي عمر في عمر فما بالك بتقييم زيد لعمر وعمر لزيد؟
ثمة إيمان البعض بقدرة الفكر الموضوعي على الوصول إلى درجة من التجرد تمكّنه من الحكم بكل نزاهة. هراء في هراء.
من يضمن للقارئ مثلا أن كاتب هذه السطور لن يغتنم -رغم ما يدعيه من نزاهة- الفرصة لتصفية حساباته مع بني جنسه أو
أن شففته عليهم ستدفعه لإعطائهم أكثر مما يستحقون.

نعم، كل هذا صحيح ومع ذلك لنحاول....

تصوّر أنك تنظر للآدميين المتزاحمين حولك في الساحات العمومية بعيني عالم الجيولوجيا وزمنه الذي يحسب بمئات الآلاف
من السنين. أغض عينيك لتستحضر أنهم يتحركون على سطح كوكب هو في الكون-حتى ولو كان فريدا كأجمل زمردة أو
ياقوتة-مثل حبة رمل على أكمة في صحراء مترامية الأطراف.

حاول تخيل كم تتابع منهم على هذا الكوكب منذ أكثر من ثلاثمائة ألف سنة-العمر المفترض حاليا لبشريتنا-وما أهمية الآثار
التي تركوا أكانوا من بناء الإمبراطوريات المذكورة أعلاه أم من عامة الناس.

وسّع مجال مخيلتك لتستحضر كم من أجناس حية تتابعت على سطح كوكبنا هذا طيلة الأربعمائة مليون سنة المنصرمة وكيف
تبخرت هي الأخرى لم تترك إلا بعض الرميم الذي تفاخر به بعض متاحفنا.

والآن افتح عينيك وأعد التمعن في هؤلاء الأدميين الذين يتراكمون من حولك وستأتيك صورة ذرات غبار يطوّح بها الريح
لا أكثر من هذا ولا أقل.

القاعدة الأولى: بمقياس طول الزمان وشساعة المكان والكمّ المريع من الأجناس والكائنات الحية التي تتابعت وستتابع على
سطح هذا الكوكب، ليس للآدميين أدنى قيمة.

تصوّر الآن أنك تختار عيّنة من الذين يملكون أموال قارون ومن الذين لا يملكون إلا أسماهم، (أو من القديسين وعتاة
المجرمين)، أنك تضعهم في أكثر المختبرات العلمية تقدّما لدراسة أعضائهم وكيفية عملها وتصوير أدمغتهم وهي تشتغل
والتعمق في أدق تفاصيل الأنسجة والخلايا.

أي استنتاج أمام اتضاح أنهم يمتلكون نفس الأعضاء العجيبة، نفس الخصائص المذهلة ونفس القدرات المثيرة لدهشة أكبر
العلماء؟ كم سنستغرب غياب سؤال من نوع أي الفريقين له قيمة أعلى.

أنت في هذه الحال كمجوهرا تي توضع أمامه زمردتين واحدة ألفت في خرقة قذرة لا تسوى فلسا وأخرى لا تختلف عنها في
شيء لكنها ألفت في ورق ملون لا يتكلف أكثر من بضعة قروش... ويقال لك ما الأعلى قيمة؟

القاعدة الثانية: بمقياس الخصائص والطاقات الأصلية التي جاءوا بها هذا العالم، للآدميين، لكل الأدميين دون استثناء نفس
القيمة.

أنت الآن عالم من علماء البيولوجيا الأكثر تقدما في ميدان المورثات التي تشكّل وصفاً صنع كل الكائنات ومنها الأدميين كما
نعرفهم.

بقدر ما تتوغّل في دراسة هذه المكامن لأغرب الأسرار بقدر ما تقترب من الذكاء الصامت قل من العبقرية المخفية التي تغذي
كل مظاهر الكون كما تغذي العصارة الأشجار. كيف لا تعقد منك الدهشة اللسان والذات تحت طفرة التعجّب والتهيب والخشوع.

أضف لهذا أن هذا الذي بين يديك نسحه بتيمة تختلف عن كل الموجود من الكائنات ولو كانوا بعدد حبات رمل ألف صحراء
وصحراء. كأنّ العبقرية المخفية تكره التكرار الممل حتى وإن كانت تخلق كائنات متشابهة في كبرى الثوابت. هكذا تراها

تندبر أمرها لكي يكون لكل كائن جملة من الخصائص ومن ظروف الوجود تجعله في أدقّ التفاصيل لا يشبه ولا يشبهه أحد.
القاعدة الثالثة: انطلاقا من كون الأدميين يحملون في أدقّ تعليمات صنعهم بصمات قوة عجيبة وضعت فيهم كل عبقريتها وأن
كل واحد منهم نسخة بتيمة، فإن لهم قيمة ليس فوقها قيمة.

طوبى لمن تحرّر من الجري العبثي وراء كل ما يُفترض فيه اثبات قيمته أصبح همه الأول التعريف
والاعتراف بقيمة كل كائن حي.

أخيرا أصعب سؤال: كيف يمكن أن تكون للآدميين نفس القيمة، أن تكون قيمتهم هذه لا تضاهيها في الوجود قيمة... ومع ذلك
ليس لهم أدنى قيمة؟!

لم لا؟ أهذه المفارقة الوحيدة للبشر؟

ألا يتعايش داخل كل واحد منهم الفارس والفريسة والمفترس؟

ألا يتجاور فيهم الماء والنار فلا يتبخر الماء ولا تنطفئ النار؟

لمواصلة سير أغوار هذه الكائنات العجيبة، لم يبق لي إلا التدقيق في أحسن من أعرف منها... هذا الأدمي الذي أسميه أنا.

**

الكتاب الخامس الغريب

"جيت مشارق الأرض ومغاربها
فلم أجد مسقط رأسي
ولا وجدت من يعرفني ولا يسمع بي
وسأبقى غريباً
حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني."
جبران خليل جبران

مقدمة الكتاب الخامس

منذ زمن بعيد وأنا أقلب أمر "اعرف نفسك" لأحد الحكماء. نعم، لكن كيف؟
من أين أبدأ والمجهول الذي يسكن داخلي لا يبدي أي رغبة في الكشف عن هويته؟
من هذا الذي نسميه الأنا ولا نعرف من هو؟
لا تشعر بجبروته قدر شعورك به و"هو" يقودك بقبضة من حديد باتجاه الخروج النهائي، كأنك مجرد طرد يُسلمه مجهول
إلى مجهول. من قال له إنني قررت الموت الآن أو إنني أريد أن أموت أصلاً؟
على طول الطريق "هو" الذي يحدّد وقت الجوع والعطش والحب والنوم والحلم، ناهيك عن وجهة المسار. هو من يفكر ومن
يتذكّر. هو من يمرض ومن يبرأ ومن يقرر ساعة النوم وساعة الموت.
نعم ألا يدعشك أن نكون داخل ذاتنا كمن يعيش في عقر دار يظنّ نفسه المالك وهو فيها مثل ضيف لمضيف مجهول!

"من يبادر داخلي (روبرتو جياروز)

عندما لا يكون الأنا؟

من يحلم داخلي عندما أحلم؟

من يوقظني على العدم؟

نحن مجرد ضيوف داخل بيوتنا

نشقى لمغادرتها

وكأننا كنا يوماً أصحابها "

كيف لا يتعمّق الإحساس أن داخلك أنائين (مع الاعتذار لأهل النحو والصرف) واحد رسمي ومعترف به والآخر يعيش في
كنف الطي والكتمان.

تكلّم يا من يسكن بين الضلوع دون عقد كراء أو موافقة من صاحب المحل.

ما نسبك الحقيقي، ماذا تفعل داخلي وما علاقة القريبى بيننا؟

هل تقبل لذات، أنت في آخر المطاف جوهرها، بمثل هذه المظلمة؟

كم مرّة صرختُ في هذا الذي يختفي وراء الستار والذي يحركني كما يشاء، ليعرّف بهويته، فكنت كمن يحدث الجبل!

كم مرّة تحابلتُ على صمته بشتمه والتملّق الرّخيص، فكنت كمن يشتم السماء ويتملّق للبحر!

طرقنا بابه بالعلم فلم ينفع، بالتفلسف فلم ينفع، بالفنّ فلم ينفع، بالرّجاء فلم ينفع.

لا نتيجة أيا كان الباب الذي تُطرق، والشيء أطرش لا يسمع، أبكم لا يتكلم.

أواصلُ مع هذا معابثته وتعذيبي: هل يمكن على الأقلّ أن تحسّن خدماتك؟ اتفقنا إذن. لا تصاعد بعد اليوم من أعماقك لألم أو
لأمل، لغضب أو لإحباط، لخوف أو لحزن.

يخيّل لي أنه "هو" الذي يبتسم ولسان حاله يقول: مرفوض، مرفوض، كل شيء مرفوض ولا داعي للإلحاح.

إني أشهد في نفسي صراعا وعراكا (إيليا أبو ماضي)

وأرى ذاتي شيطانا وملاكا

هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذاك اشتراكا

أم تراني واهما فيما أراه

لست أدري!

ما يواسيني بعض الشيء أنني لست الوحيد في مثل هذه الورطة.

كم سمعتُ رفاق الرحلة يشكون: جرّبت إغراقه بالخمير، إطفاء لهيبه بهذا المخدّر أو ذاك، ترويضه بهذا الدين أو بتلك الفلسفة،
بالحكمة أو الفن... عبثاً.

ما الحلّ وقد استعصى التفاهم والتعابيش؟ الطلاق طبعاً، كما يفعل كل الأزواج الذين أرهقهم الخصام واستحال بينهم الوفاق.

أين القاضي الذي سيصدر الحكم، ما الوثائق التي سأقدمها ضده هذا الأنا الآخر الذي يعاكسني؟ ماذا لو سارع "هو" بتقديم
القضية ضدي عملاً بمبدأ كل الخبثاء: ضربني وبكي وسبقني واشتكي.

كأنني أسمعوه وهو يقدم للقاضي وثائقه المزيفة: يبصر ولا يرى شيئاً، يسمع ولا ينصت أبداً. لا ينتبه إلا لأقلّ الأشياء والأمور
شأناً. أسرّ في أذنه بألف حقيقة فلا يفهم واحدة، وإن فهم، فبالصدفة أو على وجه الخطأ. له في كل موضوع رأي سخيف. لا
يثبت على موقف إلا إذا كان الهذيان عينه. ذهنه قمامة أنظفها دورياً فيسارع إلى ملئها بكلّ أصناف الوهم والهوس. ذاكرته لا

تحفظ لروائع الرحلة أثرا. أشير عليه فلا يسمع. أنبهه فلا ينتبه. أعلمه فلا يتعلم. أهدته فلا يهدأ. أحاوره فلا يفهم لي قولا أو نصحا. أمره بما هو في مصلحته فيتتطع. أذفع عنه الأذى فيؤذيني. أبريه من الألم فيوجعني. أحميه من طيشه فيُمعن في النزق. أريه الطريق المفتوح فلا يتوجّه إلا إلى الهاوية، أفتح عينيه على الروائع فيغلقها بعناد الطفل المدلل. أَلْفُ لعنة على هذا الشكل الذي قبلتُ التجسّد داخله. لا بدّ من نقاش معمّق مع الهندسة العامّة حالما تنتهي هذه المغامرة. أيّ جدوى لتبذير الجهد في مثل هذا الكائن السخيف؟ نعم يجب إنهاء تجربة بمثل هذا الفشل.

لا أتحمّل مزيد التجنّي. أبدأ في تصفيف هذه الاتّهامات الظالمة لدحضها الواحدة بعد الأخرى، وقد قرّر القرار أن أكون أنا الشاكي لدى الهندسة العامّة بل والمطالب بتعويضات ضخمة.

عبثٌ كل هذا التفكير؟ طبعاً، لا طلاق ممكنا والأنا الظاهر والأنا المخفي توأمان مشدودان من عظم الصدر. تدخل فراش النوم هاربا من سيّدك الوحيد فتجده يترصّب بك داخل ألف كابوس. تستيقظ على أمل أن يكون قد انحلّ أو تغيّر فإذا به هو الذي يوقظك. تنتكّر علّه لا يعرفك فتكتشف أنّه كان القناع. تبغي قتله فإذا به اليّدُ التي تربط الحبلَ والرجلُ التي تدفع بالكرسي.

ثمة إمكانية لحل جذري. أدخل إحدى الدور المظلمة التي تحب الجلوس فيها لمشاهدة قصص الذوات الأخرى ومشاكلها التي لا تنتهي مع ذاتها. في فضاء خيالي المفتوح لضيافتك بوسعك أن تخاطب المرأة الواقعة خلف منضدة تستلم المعاطف الثقيلة: لا معطف لي، لكنني أودعك "نفسى" للسهرة، لا حرج إن ضيعتيها وهذا بقشيش محترم لأجل الخدمات. كم ستشعر بالخفة مقدّرا كم كان اللعين أثقل من جسم عملاق على رجلي كسيح. سيناريو آخر.

تتوجّه للمرأة وأنت تحلق: ما رأيك في الاحتفاظ بجيكل وهايد معا. خلّصيني من الاثنين. وافعلي بهما ما تشائين. تخاطبك المرأة: من أين لي أن أرفض لك طلبا، هل أنت مستعدّ؟ تعطي إشارة الانطلاق لعملية امتصاص جيكل وهايد. تبرز من الغد الصحافة الشعبية بعنوانين صاخبة على الصفحة الأولى: "حالة لم يسبق لها مثيل، شخص يكتشف أمام مرآة لا تعكس له صورة وهو في حالة ليست الموت وليست الحياة. الأطباء لا يجدون تفسيراً للظاهرة."

كم لنا من أنا؟ أنا الخير، أنا الشرّ، أنا مخفي عن الأنظار، أنا معروض عليها للخداع أو للإبهار أنا يعيش بعض قصته في فضاء الحواس، أنا يعيش أهمّ فصولها في فضاء الخيال، أنا يرحل ليلا ليعيش في عالم الأحلام، أنا سيسكن فضاء الذاكرة إن قبض له السفر بعيدا في قافلة الزمان... أليس من الأصحّ أن أكتب من هنا فصاعدا أمام كل فعل نحن، وليفسّر الأغبياء هذا بجنون العظمة.

اللجنة، ما هذه الذات التي تنفصم لجزء على السطح يضجّ بالشكوى، وجزء في الأعماق لا يتكلم، لجزء ينفذ صاغرا وآخر يأمر دون تكلف عناء التفسير، لجزء يجهل تقريبا كل شيء وجزء يعلم تقريبا كل شيء، لجزء بلا ذاكرة تُذكر وآخر يبدو وكأن له ذاكرة العالم بأسره؟

قد تكون الصعوبة الأساسية أن الذات كطبقات الجيولوجيا: على السطح ما تظهر وما تدّعي لتموّه به وتخدع، تحته طبقة ما تخفيه بمهارة وبوعي، تليها طبقة ما تخفيه بلا أدنى وعي، أخيرا الطبقة الحاملة لكل الطبقات أي كل ما تجهل حتى وجوده في أعماق أعماقها. محكومٌ على وعينا بذاتنا أن يكون مثل أشعة الشمس التي لا تضيء إلا سطح البحر وبعض الأمطار تحته أما الأعماق فمحرومة عليه إلى الأبد.

طوال بحثك عن وفي هذا الحاضر الغائب تُفاجأ ببعده اللامتناهي وبقربه الشديد.

تفاجأ أنه أنت تتأمل صورتك في المرآة، أنه صورتك في المرآة تتأملك أنت.

ولمّا تتصوّر أنك أمسكت به كنت كمن تتغلق قبضته على الريح.

ومع هذا... أي خيار لك غير مواصلة الجري وراء الشبح الذي يسكنك وتسكنه.

**

لَمَّا يَنْخَرُطُ بَحْثُ الْأَدْمِيِّ عَنْ ذَاتِهِ فِي طَرِيقِ مَسْدُودٍ.

- أول تشريح كامل لمريض كان في عهدي والطبيب الشرعي الذي سأعمل معه صديق قديم من بلاد الشام. يبادرنى الرجل ضاحكا وأنا أحكم لبس القفاز.
- اسمع يا فتى، هذا مريضك ومن حقك أن تعرف بماذا قتلته.
- الأعراض السريرية لورم في الجهاز الهضمي ومع هذا لم تُظهر الصور شيئا. طلبتُ التشريح للتأكد.
- انظر ولا تفعل إلا ما أطلبه منك، فالتشريح علم لا تُقدرون عليه أنتم يا من لا تعرفون سوى وصف السموم.
- كم من أطباء عُلقوا في المشانق لتجاوزوا المحظور وهم يشرحون في الأقبية جثثا مسروقة من المقابر. يا للمساكين وقد شاء حظهم العائر أن يرتحلوا في أزمان تخلط بين العلم والسحر! يا لبختي وأنا أشرح هذا الجسد المسجى على الجليز لا مشاكل لي مع شرطي وجلاد!
- هيا يا جزّار، أرني ما تقدر عليه.
- يرسم زميلي بسكينه أخودا عميقا ينطلق من تحت الحلق إلى الصرة. يدخل يده تحت الفكّ الأسفل مستلا بفضاظة ودفعة واحدة اللسان والحجرة والمريء والقصبه الهوائية. ثم يشقّ الصدر مخرجا من داخله عضلة بحجم اليد. أخلع القفاز لأمسكها بيدي لأعرف بحاسة اللمس هذا العضو الذي تقول قصص العصر إنّه آلة امتصاص وضخ للدم، وقصص قديمة إنه معقل الحبّ.
- ننزع بغلظة كيسين من الهواء يحتلان جانبي قفص من العظام يمثلان بأول نفس يستنشقه القادم الجديد وينطلق منهما آخر نفس عند لحظة الرحيل.
- يرمقني الزميل ساخرا.
- مالك؟ هدّئ من روعك، تصوّر أنك بصدد تقطيع كبش العيد لا أكثر.
- كأنّ هذا الغبي يعلم... كأنّه يستغلّ الفرصة لينكأ أقدم جروحي!
- أتريد أن أنادي لك طبيبا؟
- ها ها، نكتة بانخة لا تصدر إلا عن ثقيل دم مثلك!
- يواصل الزميل هنرا يغالب به اضطرابا لا يتلاطم كأموج السطح مثل اضطرابي وإنما كالتيارات السرية في عمق المحيط. يصرخ متكلفا مزيدا من الاستفزاز:
- انتهى الشوط بالضربة القاضية على جثة السيد... السيد من؟ انظر إلى اسمه على الورقة المربوطة في رسغه.
- المسكين لم يتوقّر مثلنا جميعا إلا على نسخة وحيدة من الأجساد تفضّلت بها عليه القوى المبهمة المتحكمة في المصائر عند الإحرام ولسان حالها يقول: *ذنبك على جنبك إن أعطيتها باكرا أو أصابها مكر الدهر وخبث الزمان.*
- ثمة على ملامحي ما يثير عند الرفيق مشاعر ليست كلها تصنّعا واستفزازا.
- يا ولد، منظرک يرثي له الأعداء فما بالك بصديق مثلي. لا تحمّل نفسك ما لا تطيق. اخرج لحظة لتتنفّس شيئا من الهواء الطلق. أعدك أنني سأكنتم السرّ يوما على الأقل، الوقت الكافي لكي تعدّ أكاذيب الدفاع عندما أفضحك أمام الزملاء.
- قلت لك واصل.
- نواصل ويواصل الجسد الساكن تجاهلنا ونحن لا نتوقف لحظة عن استفزازه بالنخز والقص والاقتراع والتقطيع والكلمات البيضية. لم تطلق شفتاه آها واحدة. لم يثب شاهرا في وجهنا سكاكيننا مدافعا عن حرمة الترابية. هل نحن أول من اعتدى عليها؟ هل كان له يوما حرمة ترابية أصلا؟
- تكشف لك الأيام أن ما تظنه ملكك تفعل به ما تشاء، هو منذ الإفاقة ملك للأيوين والمجتمع والثقافة والدولة والزوج والأطفال، للطبيب والغاسل وحافري القبر... ثم للجراثيم والدود.
- "السقم يحفر سراديبه في ذاتي العفنة
(عبد اللطيف الإدريسي)
- كم هي اللحظات التي انتبهتُ فيها إلى جسدي
الذي سيغدو الجثة-المأوى لكل الحشرات السافلة"
- يصرخ الزميل بطريقة مسرحية:
- انظر إلى الكبد، صاحبك كان من هواة بنت الكرم.
- بالمناسبة، ألم تخالجك يوما الفكرة أن هذا الكبد لا يختلف، في شكله ولونه وربما في طعمه، عن كبد خروف العيد؟
- يغمزني مرافقي وكأنه فهم قصدي:

- لا يهَمَّكَ، فكبد هؤلاء الكحوليين ضخم بما فيه الكفاية. سأضع لك رطلا جانبا، وإن أردت شيئا من لحم الكتف. لا تتردد في الطلب. انتبه فقط عند الخروج، ألا تسقط القفة من يديك أمام المرضيين. يكفي ما يقال عنا، حتى لا تخرج غدا جريدة عنصرية بعنوان بارز عن اكتشاف شبكة أطباء عرب لتزويد حوانيت شاورمة المدينة.

- كفى ثقل دم. افتح لي المعدة والقولون ثم الأمعاء. كل الأعراض كانت السرطان في الجهاز الهضمي.

أهرش رأسي غير منتبه أنني لم أخلع بعد قفازي.

- ترى شيئا؟ وجدت هذا الورم اللعين؟

- الورم، لا، وإنما وجدت كثيرا من البراز. تريد الحقيقة يا فتى، تشخيصك كان مخطئا من البداية. لنتظر المعلم، إما بيرنك وإما... الويل لك من لسانه... والآن ما رأيك في فتح الجمجمة؟ اغتتم فرصة رَوْقان مزاجي لسياحة في أعماق المسكين.

نأخذ في قطع فروة الجلد بسرعة وليها من طرفيها ثم بالإمساك بمنشار ونشر الجزء الأعلى من العظم، ثم اقتلعه من القحف لنواجه أخيرا بعضو رخو رمادي مائل إلى الصفرة ما زال مغلفا بغشاء هش لم يقاوم طويلا المقصّ والسكين.

ينقضّ صاحبي على الدماغ يفصله من جذعه ويستأله من مخبئه العظمي ثم يرميه بلامبالاة مدروسة فوق الطاولة.

إن هذا هو العضو الذي تقول عنه قصص العصر إنه معقل "النفوس" و"الفكر" و"العقل".

كل الأشلاء بين يدي الآن. انتهى التشريح. لم يبق داخل الجسد عضو رخو يقطر دما. الشيء المبتدل الفريد الآن مثل كتاب مرّقت وبعثرت كل صفحاته، مثل شجرة اقتلعت من جذورها وأسلمت للمنشار والفأس، مثل أسطوانة مُحَيّت منها كل الأنغام ولم يبق بين يدينا منها إلا الغلاف والبلستيك الحقيق... مثل أثنى لوحة زالت منها الأشكال والألوان ولم يبق منها إلا إطار الخشب وقطعة القماش... مثل لعبة نجح الطفلان الكبيران في فتحها وبعثرة كل مكوناتها.

ها هي مكونات الجسم مصطفة على الجليز الأبيض ونحن أمامها كأطفال أطلقوا على آخر كمبيوتر أنتجته أكثر الصناعات تطورا، فهشّموا غلافه وبعثروا محتوياته لرؤية ما ينغلق عليه.

لم يبق إلا الطقس الأخير وهو لا يقلّ إزعاجا عن تقطيع جثة للبحث عن سبب إخفاق الطبيب والمريض على حدّ سواء.

كان رئيس قسم الطبّ الشرعي يأتي آخر الصباح ليتوقّف طويلا أمام الأشلاء يتفحصها من وراء نظاراته السمكية باهتمام فيه فضول الباحث وحيرة الجاهل وتكلف الممثل. كان يقبلها بقضيب حديدي يتأكد أولا أنها موضوعة بكل عناية ونظافة على طاولة الجليز الأبيض، أننا صقّفناها وفق أوامره. كانت دقة القطع وبراعة القصّ من شروط رضاه، ثم كان يمرّ لتفحص العلامات التي تفسّر فشل الشكل في المحافظة على ذاته.

يطيل الرجل النظر إلى الأشلاء الدامية متوقفا طويلا أمام الأمعاء المفتوحة.

- انظر إلى هذه الحبة الصغيرة! إنه ورمك يا عزيزي. تقول إن الأشعة لم تكشف عنه. غريب أنه في الواقع من حجم كاف ليظهر بوضوح على الصور. مؤكّد أن نظاراتك ليست بالقوة الكافية ورأيي أن تطلب فحصا من أحد زملائنا أطباء العيون.

ربما كان سرطانا قابلا للاستئصال لو شُخص في الإبان... أه كم مؤسف...

لم تبق إلا الجملة المعهودة، خاصة النبيرة التي يتفقه بتقليدها كل الأطباء الشبان المتعاملين مع الرجل: إلى اللقاء يا عزيزي، ومعناها أن طبيبا جاهلا مثلك عاجز عن التشخيص على الحيّ سيتردّد كثيرا على المشرحة يرهقنا بالعمل الزائد.

لا يمكن أن أترك هذا الرجل يسخر مني.

- يا "مسيو"، ما أسهل التشخيص بالمنشار والمقصّ وعلى ميّت.

يفتعل الرجل الترفع عن الدخول في مهاترة مع مُقيم وقح. يلتفت إلى زميلي الواقف وراءه يخفي بصعوبة ضحكه. يملئ عليه الوصف الدقيق لحالة الأشلاء الذي سنغلق به ملف هذا الكومة من اللحم. ثم ينصرف دون أن يحيينا.

- يا حيوان لقد جرحت "المعلم" وقد ينتقم مني.

هل يظن هذا البلويد أنني لم أرح؟

- اللعنة عليك وعليه وعلى التخصص الذي اخترتما، يا أشباه الأطباء، يا جزارين، يا بنو فرنكنشتاين!

- وتظن بعد هذا الكلام الخطير أن الدار سنترودك مجانا بالمخ الطازج وأفخر أنواع الكبد الدسم. اهدأ يا ولد. المعلم لم يقصد تحميلك وزر موت المريض وإنما هي مزحته الأزلية مع كل الأطباء الذين يطلبون تشريح حالاتهم. تعال نخط الجثة ثم بعدها أدعوك إلى قهوة ساخنة تعيد ملامح آدمية لوجهك.

- جزارون وخياطون أيضا. يا له من تخصص!

- تحسبنا لا نهتم بأناقة جثتنا؟ نحن نعيدها إلى أصحابها في أحسن حال.

يبدأ صاحبي بخياطة الجرح الذي شقّه على طول الجثة ثم ينتبه لسهوه.

- نسينا الجرائد.

نعيد تمزيق الخياطة لنحشو الجثة بما تيسر من آخر أعداد الجريدة الصباحية. كذلك نفعل مع القحف الفارغ. مؤكّد أن صاحبنا لن يشعر بالملل إذا كان من هواة كرة القدم فالجريدة رياضية والعنوان الغليظ بخصوص انتصار فريق المدينة الساحق. يخرج من قاعة التشريح طبيباً، يداً فارغة وأخرى لا شيء فيها، والطفل الذي بداخله متزايد الامتعاض من عجزه عن فهم هذه الروح التي خرجت من جسد حسين فتركته جثة هامدة ترفض مواصلة اللعب معه.

ثنائية الروح والجسد! إرث السحر مرّرها إلى الفلسفة التي لوثت بها العلم... كيف الخلاص منها بعد كل هذه القرون من الجدل العبثي؟ بالعودة إلى البديهيات. هل ثمة موسيقى دون آلة حسنة الصنع تبلور هذه الموسيقى؟ هل ثمة فكر دون دماغ سليم؟ عندما نجعل هذا الفكر الوظيفة القصوى للدماغ وهو في أوج عطائه، تنتفي ثنائية الفكري والمادي. عندما نعتبر الروح الخاصية الأرقى والأعقد للجسد الحي -أيّ جسد حيّ- تتبخر ثنائية السحر والروح لم تعد شيئاً مضافاً إلى الجسد مستقلاً عنه ومن طبيعة أخرى وإنما خاصية منه وإليه لا توجد إلا بوجوده.

تصرخ الممرضة: أسرع يا سيدي! صرغ متتابع النوبات منذ ساعات. أواجه بجسم ينتفض ثم يسترخي ليعود إلى الانتفاض. منظر أثار على مرّ التاريخ موجة عارمة من التقرّز والرعب. هذه المرّة لن تنتهي الأزمة تلقائياً وقد ترابطت النوبات الواحدة وراء الأخرى. البنّت في خطر الموت. من حسن الحظّ أن دواء "الفاليوم" سائلاً في الشرايين أنفع من التعاويذ.

- يا آنسة، أريد كل التفاصيل لأنها ستساعدنا على تحديد مكان الخلل. ما الذي تشعرين به بالضبط قبل فقدان الوعي؟
- بالتباعد وبالغرابية. كأنني في حلم. تقول أمي إنني أمشي وأتكلم أثناء النوبة ولا أتذكر أنني مشيت أو تكلمت.
كيف لا تأتي الأدميين فكرة التقمص وكان الذات التي تسكن الجسد تخرج في هذه الحالة من وكرها، أو كأن ذاتاً أخرى خرجت من وكر مجهول لتحلّ محلّها؟

أحمل صور الدماغ إلى رئيس القسم متنقل الخطي:

- سيدي، إنه ورم ضخم وعميق في الفصّ الأيمن؟

يلقي الجرّاح المحنّك على الصور نظرة المهني مقيماً ما سيلقاه من صعوبات.

- المسكينة! سأحاول أن أفعل شيئاً. أدخلها حالاً إلى غرفة العمليات.

حول طاولة معدنية سجيبت عليها المريضة المبتجّة، يتجمع رجال ونساء بأرديتهم الخضراء ووجوههم المقنّعة وأيديهم المغطّاة بالقفازات، كأنهم كائنات وصلت لتوّها من عالم آخر. يخلق شعر الفتاة لتنتشر على الأرض جدائل شقر أحاذر لمسها برجلي كأنّ بي خوف تدنيسها. يبدأ العمل الجدي بخلع فروة الرأس ونشر عظم القحف وشقّ غشاء شقّاف هو آخر ستار يحجب حسب الإشاعات الرائجة مركز الذات وعربنها. عليّ أن أكون ابتداء من الآن، منتبهاً أشدّ الانتباه، حذراً أشدّ الحذر، حاضراً بكل حواسّي، خاصّة و "المعلّم" مشهور بصرامته لا يرضى إلّا بمطلق الإتيقان والانضباط.

ها هو أخيراً العضو الأصفر الرمادي الرخو الذي يختبئ في أعماقه الورم الخبيث. كم من علماء جهلة من الماضي علّموا بكل جدية أجيالاً من الطلبة أن بطيناته معقل الروح. البطين الأوّل والثاني معقل الإحساس باللذّة وبالآلم، البطين الثالث مركز الفكر والعقل. الرابع موطن الذاكرة... والحال أنها لم تكن مليئة إلا بالماء!

مسكين أيضاً ذلك العالم الجاهل المسمى ديكرت الذي خرج بحقيقته مدّعياً أن الروح بكل وظائفها موجودة داخل غدة يتيمة تتوسّط العضو الرخو ومنها تخرج كالهواء من بالوننا المثقوب لتذهب إلى مكان آخر يواصل فيه المحتوى قصته دون الحاوي الذي أصبح فجأة بغير حاجة إليه.

دوما نموذج العلبة للرؤى غير المتقنة... على طريقة الدمى الروسية العالم أكبر العلب وكل كائن داخله علبة.

جسد داخلها علب-أعضاء من الطبيعي أن يضع فكر التعليب الروح داخل هذا العضو وكان وضعها في السابق في علبة القلب وعلبة الكبد... قد ينقلها غذا داخل علبة الخلية، فعلبة الصبغيات فعلبة شوارد الذرة... في أي علبة سيضع أصغر العلب؟

يلاحظ "المعلّم"، ونحن نقترّب شيئاً فشيئاً من الورم، شرود ذهني. ينهني بفظاظة فأنتبه محرّجا. تتصاعد الحدة والعصبية في صوته وهو يأمرني بأن أنقل إليه هذه الأداة أو تلك، أن أفعل ما يقول، لا ما أتصوّر أنه قال.

ينفصم العقل أو الانتباه أو سمّه ما تريد، إلى جزء يأتّمر بأوامر أستاذي وجزء يواصل العمل لحسابه الخاص رغم صراخ الرجل المتزايد توّثراً. بحق كل أنصاف العلماء وأشباه الفلاسفة، بحق كل جهل الأدميين، بحق كل آمالهم وآلامهم، بحق كل إثمهم وبراءتهم، لتعط لهذه الفتاة فرصة!

كأنّ العالم هو الذي هزّ كتفيه.

أخرج من غرفة العمليات بوجع في الظهر لطول الوقوف، بوجع في الرأس لطول التركيز، وبوجع في القلب والشعرُ الحريري يُرمَى بلامبالاة في المزبلة. يصرخ "المعلم" وهو يهرول إلى قاعة العمليات المحاذية حيث ينتظره مريض آخر:

- اعلم والديها أن كل ما في الأمر ربح بضعة أشهر.

- سيدي، هل من الممكن أن تخبرهما أنت؟

- لا تتهرب. هذا أيضا جزء من المهنة ولا بد أن تتدرب عليه.

تلمع نظرات عدم التصديق في عيني الأب. تنفجر الأم ببيكاء صامت.

ألوذ بالفرار لأرمي بجسدي المرهق على أول كرسي أصادفه في الممر. أخلع حذائي لتفقد حالة الانتفاخ في قدمي. غريب أنني لم أنتبه لهذا الجزء من جسمي وكل عنايتي منصبّة على الأجزاء "النبيلة" منه. غريب تجاهلي لأهمية القدمين؟ وهل كنتُ أنتصب لولاهما؟ هل تمتعتُ يوما بسحر الغابات والشواطئ والجبال مشيا على رأسي؟ بل وهل كانت النصوص تتألف داخل ذهني لولا ساعات المشي الطويل؟ لماذا لا أختلق لي نظرية تمشي بذكرها الركبان تدعي بكل صأف الجهلة أن القدمين معقلُ الذات؟ نعم، لنردّ الاعتبار إلى هذا الجزء المظلوم من كيان الأدمي. إن أصبحتُ من الرجال الذين تُنحت لهم التماثيل، ليقصر تمثالي على قدمين التحمنا بالطريق. يمكن للنحات أن يأخذ بعض الأفكار من جياكومتي فهو الفنان الوحيد الذي أعطى للقدمين ما يستحقان من اعتبار. توقّف في أروع أعماله عند قصبّة الساق لا يعنيه كلُّ ما فوق... كلُّ ما فوق؟ المحمول على هذين القدمين... جسدي والنسخة الوحيدة التي أملك منه.

أنتبه فجأة إلى أنه ما زال متماسك الأجزاء، صالحا للعمل بعيدا عن لحظة الفكّ وتقديمه غذاء للكائنات السافلة، أنه ما زال النمر الذي أروّض، الحروف الذي أحمي، الحمارَ الحرون الذي أدفع إلى الأمام، الخنزيرَ الذي أمنع من التمرغ في الوحل، الجملَ الذي يحمل كل الأثقال بانتظار القشة التي قصمت ظهرَ كم من بعير، النسرَ الذي أحلق به عاليا لأرى العالم من أرفع موقع.

بينما أنا جالسٌ أو اصل تدليك قدمي، يمرّ أمامي عجوز مرتعش ذاهل مرتبك تقوده ممرضة إلى مختبر قياس الذاكرة والمدارك العقلية، لفحص روتيني قبل كل عملية على الدماغ.

فجأة يتضح لي طريق آخر للجري وراء هذا الذي ابحت عنه بلا كلل منذ سنين غير واع تلك اللحظة أنني كنت-كما يقول ببالغ الفطنة أتباع ديانة بلا إله-الفارس القلق الذي يركض وراء الفرس... التي يركب.

**

في كون الذات ذاكرة متعددة الطبقات سطحها الذي يحفظ تجارب "الأنا دون سواء"

من طبيعة الكوابيس -قُل من مهامها-كشفُ أخشى ما تخشاه الذات... ما تحاول عبثاً رَمِيه بعيداً في أعماق اللاوعي. في أحدها، يتوجّه عجوز ذاهل نحو نافذة الغرفة لَيْتَسَمَرَ محدّقاً في شجرة زيتون علاها الغبار. يَلْتَقَت إلى بابٍ يُفْتَحُ وامرأةٍ ترتدي الأبيض تُبادرُه مُفْتَعِلَة المرح:

- صباح الخير يا سيدي، أرجو أن ليلتك الأولى بيننا كانت طيبة. هلا تبعتني لمقابلة الطبيب.

مَنْ هذه الأنثى؟ لماذا تبتسم لي؟ من أين تعرفني؟ ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟ أين أنا؟

تواصل المرأة المجهولة كلاماً لا يعني بالنسبة إلى الرجل شيئاً:

- انتبه دوماً إلى الأسماء المكتوبة على الأبواب لتتذكر الطريق. انظر إلى أسماء الأطباء والممرضات فهي مكتوبة بوضوح على أعلى الصدر. هذا اسمي. ردّد معي: الأنسة زهور. وصلنا إلى العيادة. لن أقدم لك بنتيك طبعاً، ستحضران معك الكشف للردّ على بعض أسئلة الطبيب.

طبيب؟ ما معنى طبيب؟ من هذا الشاب الأسمر بربع ابتسامة تضح تهكماً مزمناً يحاول إخفاءه؟ اللهم إلا إذا كانت تتسّر على بقايا خجل قديم. مَنْ هذه المرأة ذات الشعر القصير الفاحم ومَنْ التي تمسك بذراعه كأنها تتشبّث به خوفاً من غرق؟ لماذا تتفحصانني بهذه النظرات الدامعة؟

تجبل المرأتان النظر بين الطبيب الشاب والمريض العجوز، تدأخلت الحدود وامتحت الفواصل في نصّ يرفض الالتزام بالحيل المعهودة للزمان. هو وحده العليم بأنهما تُجبلان البصر بين الشاب الذي لم يُلدهما بعدُ والدهما الذي شارقت رحلته على الانتهاء بأفزع كيفية.

يتفحص الطبيب الشاب المريض المرتعش مغالباً قلماً لا يفهم تفاقمه ثم يستجمع شجاعته.

- هل يمكن، يا سيدي، أن تقول لي ما اسمك؟

اللجنة على هذا الغبي، ماذا يقول؟ ماذا يريد مني؟

تتدخل المرأة ذات الشعر القصير الفاحم السواد تخاطب الطبيب وهي لا تكفّ عن التحديق في العجوز المترديد ارتباكاً وتوتراً:

- كيف يحصل شيء كهذا، لرجل كهذا، بغضّ النظر عن كونه والدنا!

تتدخل الغريبة الثانية صاحبة الشعر الكستنائي الطويل وهي تمسح دمعها:

- خطيبٌ مُفَوّء لا يجد اليوم أبسط الكلمات، فيستشيط غضباً ويدخل في حالة من الهيجان تبتّ فينا الرعب. لا أصدّق أنه "با".

كم مرة جلبه الجيران من الشارع وقد نسي أين يقع البيت الذي يسكنه منذ عشرين سنة.

تتدخل التي يسميها النصّ تفيحه:

- معقول ألا يتذكّر أنه قابِلُنَا البارحة! أننا نحن مَنْ أتينا به إلى هذا المستشفى! أينسى رجلٌ كهذا اسمه واسمي.

تتدخل من يعرفها النصّ تحت اسم تفاحة:

- الشهر الماضي رأيته يمرّق ديوانه المفضّل بأسنانه يمضغ صفحاته... ثمة أشياء أخرى نخجل من الحديث فيها تتعلق...

بالنظافة... بنظافة اللسان أيضاً.

يريدون العجوز مهذباً وهو يتابع لحظةً بلحظة تسلل الظلام وانطفاء الأنوار في فكره، وذاكرته تنزف كما ينزف المذبوح مما فيه من دم.

ذاتُه تعيش اللحظة بعد اللحظة، ولا رابط بين اللحظات. أصبح كلُّ فعلٍ يمسح ما مضى من أفعال، وكل شعور

يمسح الذي سبقه، لتجمّد تجربة الوجود في جليد حاضِرٍ أزلي لا يسبقه قبلاً ولا يتلوه بعد. مَحَت يدٌ غيرُ مسؤولة تجربةً يتيمة

فريدة لم تحصل ولن تتكرّر، على كثرة ما عَرَفَ العالم وجرب من القصص. مرّقت صفحات كتابٍ رَمَتْها في كل اتجاه فإذا

بالنصّ غير مفهوم لا للقارئ ولا لكتابه. تبخّرت الحمولة من ظهر الحامل وهو لم يصل بعدُ إلى حيث يجب أن يوضع الجمل.

هل من نهايةٍ أفضع لرحلة ظنّ الأدمي أنه خَبِرَ كلَّ فظائنها؟

كابوس البعض، حالة الكثيرين: تلاشي الذاكرة شيئاً فشيئاً ومعها تلاشي الذات.

في آخر المطاف ما الذاتُ دون الملفات التي أودعت فيها تجاربها منذ بداية فعلها في العالم وتفاعلها معه؟ أليست هي

التي تحفظ عقد اللغة متماسكا ومعها تصوراتنا للعالم، للآخرين ولذاتنا؟ أليست هي التي تفرض الترابط والتواصل بين معطيات

الحواس والفكر والخيال، ولولاها لأصبح الواقع الذي تصنعه مثل ضوئٍ تشتتت ألوان طيفه ولم يعد يضيء شيئاً؟ أليست هي

التي تنظّم هذه المعطيات وفق خطّ زمني فيه القبل والبعد، لتكون لنا قصّةً ببداية وسلسلة من الأحداث وخاتمة نرجو دوماً أن

تكون سعيدة؟ بدها هي كفعل (التذكّر)، وكَمَادَة (المعطيات المحفوظة)، الشرط الضروري لوجود الذات حيث لا وجود لفكر أو لمفكر في غيابها؟

والعالم... ما العالم هو الآخر دون ذاكرة جبارة تحفظ تماسكه وتواصل مكوناته عبر الزمان؟

يجب أن أنزل في مكان قصي من القارب، أصمُّ أذني عن صخب السيل، عن هرج من هم معي على المركب، غير عابي بصراخ من ألفت به الحركة الهوجاء في الأمواج المتلاطمة، لتجنيد هذه الذاكرة في آخر جهد، عليها تشع بكل نورها وتضيء الأعماق التي خرجت منها قبل أن يُطفئ الموتُ قَتِيلَ وعي حائرٍ أو أن ينفخ عليه قبل حلول الأجل مرضٌ حقير اسمه العته. أنا الآن ضيف ذاتي، أتوسّط "مكتبة" فتحت لي كلَّ أروقتها وكل خزائنها، أدخلها لاستعراض ما تملك من الوثائق وليس لاستدعاء هذا الملف أو ذلك، كما دأبتُ على الأمر منذ بداية التدوين. "هنا" تحفظ القوة المجهولة معطيات حان وقت التمغن فيها عليها تقول لي شيئاً ذا معنى عن الغريب الذي أتخطب داخله أو يتخطب داخلي.

تحضّر موظفة مثقلة بطلباتي الأولى. تسرّ في أذني وهي تضع القهوة فوق المنضدة وترمي فوقها بحزمة من الملفات.

- التعليماتُ ألا نزعك وأن نتركك تأخذ الوقت الذي تحتاج.

أفتح أول ملف فتفجر في وجهي جُمْلُ أبي النسيان محوًا:

لا تضع إصبعك في أنفك... قل للمعلم: صباح الخير يا سيدي. أغسل أسنانك قبل الذهاب إلى الفراش... أورام البطين الرابع عند الطفل تؤدي مبكرًا إلى ظهور ارتفاع الضغط داخل القحف العظمي... لا يُخلص هذا العالم مسيحٍ واحد... كلُّ دون إحداث صوت، خاصة مع كبار القوم... جئتُ لا أعلم من أين ولكني أتيت وسأبقى ماشيا إن شئتُ هذا أم أبيتُ... إنما يُخلص العالم كلُّ واحد منا شريطة أن يتذكّر أنه هو الآخر المهدي المنتظر... ثلاثة في ثلاثة يساوي تسعة، تسعة في تسعة يساوي واحد وثمانون... يوكد جميع الناس أحرارا وقد وهبوا عقلا وضميرا، على الأقل نظريا... إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بدّ للقيد أن ينكسر، المشكلة أنه سلم أنه لا حياة بلا قيد... الحوامض الأمينية واحد عشرون، منها ثمانية لا بدّ أن ننهشها من لحم كائنات حية أخرى... كلُّ هذا غلطة الحجارة الكبرى التي صرّبت الأرض لخمسة وستين مليون سنة خلّت، وحكمت على الديناصورات بالانقراض، مما سمح لكائنات خسيصة مثلنا بالتكاثر منسببة في كارثة لنفسها وللعالم... ما لهم كلهم مع الكذب؟... أليس هو الوظيفة الثانية للغة، مثلما النسيان الوظيفة الثانية للذاكرة؟... أيّ عاشق أو كاهن أو طبيب لا يكذب... لا تريبّ الناس إلا تجملا نبا بك دهرٌ أو جفانك خليل... البقاء للأصلح في النظرية، وفي الواقع للجبناء الذين عرفوا من أين تؤكل الكتف... السمك أغنى بالفسفور من بقية لحوم الكائنات... انطلاق الرحلة الأدمية كان من الساحل الشرقي لإفريقيا... تُفتح قبضة الباب من فوق إلى تحت... سرعة الضوء أعلى سرعة ممكنة... العنف مظهر من مظاهر القسوة عند من هم فوق، ومظهر من مظاهر التمرد عند من هم تحت... خطّ البنطلون المكوي يمرّ فوق وسط الركبة لا من جانبها... نبحت عن الحبيب ثلاثة أشهر، نُحبه ثلاث سنين ونتخاصم معه ثلاثين سنة، ثم يأتي دور الأطفال لتكرار السيناريو... السيّد من يُعطي المثل لا من يُعطي الأوامر... الاعتدال فضيلة الفضائل وهو تنازلٌ من موقع القوة عن الكبرياء والمصالح، لكنه رذيلة الرذائل إن كان تنازلا من موقع الضعف عن الكرامة والمبادئ... معدّل السكر في الدم غرام في كل لتر... المافيا دولة بصدد التكوين والدولة مافيا نجحت... الرجال قوامون على النساء لأسباب يعرفونها هم وحدهم... كلما اقترب العدل من قطب التعويض وابتعد عن قطب العقاب، كان راقيا... كلما ابتعد عن التعويض واختزل نفسه في الانتقام القانوني، اتضح ما ينضح به من إرادة التنكيل، من قسوة ومن عجز عن المغفرة... اللغة هي النور الذي يضيء لنا الطريق والظلام الدامس الذي يمنعنا من الرؤية... كن ودودا وانبذ العنف مهما كان مأثاه... من صفّك على خدك الأيسر أفصل رأسه عن الجذع... الاستبداد مُصادرة أوباش لحرية ومصالح شعب، بكل وسائل العنف المادي والرمزي... هو رهان خاسر والمستبدون يحفرون دوما قبورهم بالوسائل التي أوجدت مؤقتا تسلطهم... الديمقراطية توهم إمكانية انبثاق الصالح العام من الإرادة الحرّة لشعب تتناقض فيه المصالح ويتجاوز فيه ينسب مجهولة الأنكباء والأغبياء، المتعلمون والجهلة، الأخيار والأوباش، الأحرار والعبيد... رهان خاسر وهي تفرز أغلب الوقت خيارات تضرب الصالح العام وتهتد الحرية... الخيار بين الرهان الخاسر دوما، والرهان الخاسر أغلب الوقت. تبا له من خيار... من أين جئت وإلى أين أنا ذاهب؟... أنا سرجاي بافلوفيتش، جئت من بيتي وذاهب إلى خمارة البلد... أين هذا من كفر الذي قال "لا أؤمن بالله، أو من بما هو أعظم"، أو استفزاز الآخر "الله موجود لكنه ما زال غير جاهز لمهامه". أو الذي تجاوز ألمه كل الخطوط الحمر "موجود أو غير موجود، الموضوع ليس هذا وإنما أنه من الأفضل له ألا يكون موجودا، من يغفر لربّ سقاء كل هذه العوالم؟ فاز باللذة الجسور... "لا تستوحشوا المشي على طريق الحق لقلّة سالكيه"... هذا عالم غير قابل للتنبؤ، للفهم، للتطويع، وكلُّ محاولة لا تزيد إلا من عصبية الفرس ومن علو سقطة الفارس الغبي... من الغباء محاولة تغيير البشر ومن الإجرام عدم المحاولة... لا شيء يدفعك إليه العالم بكل قوة قدر العمل على تغييره ولا شيء يرفضه لك بكل

إصرار غير تمكينك من شيء كهذا... وجد الأوروبيون طريق قارة قديمة اكتشفها الآسيويون قبل عشرين ألف سنة، وسّموها مع هذا "العالم الجديد"... يا بُنيّ ستكون كارثة لو كسرت مرة أخرى نظّاراتك... واحد زائد واحد يساوي اثنين مهما كانت سرعة الريح... العين بالعينين والسنّ بكامل الفك... الحياة مرضٌ خطيرٌ والموتُ علاجُه الوحيد... الأنانية ليست أن تحب أناك وإنما ألا تنتبه لحاجة الآخرين من الحب... العنف ليس قوّة والقوّة ليست عنفا... حافظ على نظّاراتك لأنه ليس لي ما أشتري لك به بديلها... "لا تنس سوطك عندما تذهب إلى المرأة"... كُرة القدم هي اليوم أفيون الشعب... لا تستقرّ الأقوياء إن لم تعدّ لهم ما يجب من القوّة... الأسبرين دواء رائع لا يؤخذ مع قرحة في المعدة... يربونني أنؤمن بأفكارهم وأنا بالكاد أوّمن بأفكاري... في كل لحظة قد تنقلب الأمور رأسا على عقب، في الاتجاه الذي ترغب والاتجاه الذي ترهب... الماضي الذي تترك وراءك، نسيج من الأساطير... المستقبل المفتوح أمامك نسيج من الأوهام... حاضرُك نقطة نور تتحرك من الضباب إلى الضباب، ووضعك دوما أسوأ مما تعتقد وأحسن مما تظنّ... أحسن لون لطلاء بيوتنا، الأبيض لأنه يمتصّ أشعة الشمس... يوجد في العنف من قوّة ما يوجد في اليورنوغرافيا من حبّ... التاريخ رواية المنتصرين... أنا السجين والعالم سجني وسجاني... أفضل ما اخترع الأدمي الكسكسي بالسمك... يا بُنيّ ستكون كارثة الكوارث لو كسرت مرة أخرى نظّاراتك... من عرف الدهر يخشى شدّاته ويرتقب... يجب على المرأة إرضاع طفلها على الأقلّ سنة أشهر... من عارض السلطان زهد في الدنيا... الخطأ الهيكلي في الدين افتراضه قابلية الأدمي للإيقاظ وكل التاريخ حصصٌ لشيء كهذا... الديناصور كائن انقرض منذ خمسة وستين مليون سنة بضربة لحجارة من سجيل جاءت من الفضاء وأفسحت المجال للجنس الوبش الذي حُشرت في شكله... يجب أن أترك بصماتٍ لا تمحى... يجب ألا أترك أثرا على أرض ولا حتى ظلا على حائط... الكوكب الأزرق في خطر من آلاف الأجرام التائهة حوله وهي أملنا الأخير لنرتاح ونريح... من قال: الملل كثيرة مختلفة ليس منها شيء إلا وهو على ثلاثة أصناف: قوم ورثوا دينهم عن آبائهم وآخرون أكرهوا عليه حتى ولجوا فيه وآخرون يبتغون به الدنيا... إذا كان قانون لا وتسو صحيحا وأن كل اسم له ليس الاسم، فمعنى هذا أن كل طريق إليه ليس الطريق ولو كان الطاو، أن الحقيقة ليست الحقيقة، أن الخطأ ليس خطأ، أن الخطيئة ليست الخطيئة أن الشيطان ليس الشيطان، أن الأنا ليس الأنا. ما الدعامة التي يمكنني إذن أن أبني عليها الرؤيا؟... قل الحق ولو على نفسك... كن ولدا طبيبا ونطاسيا وتقدّميا وثوريا ومناضلا وصادقا ومخلصا ونزيها، لتنتهي فقيرا ووحيدا... حذار من الصداق عند الأطفال فاحتمال ورم الدماغ كبير... لا هدف نصل إليه لأن الحياة دورة في حلقة مفرغة، ولا منفذ في هذا العالم لأحد... لا تضع إصبعك في أنفك... لا عيش لكريم في بلد شعبه غنم وحاكمه ضبع... أين أضع هذا الحبّ الذي بداخلي والذي لا يريد أحد؟... كل الرؤى تتأرجح منذ بداية الفكر بين فرقة الواحد إلى العدد، وإرجاع العدد إلى الواحد، والحال أن العالم بطبيعته واحد-عدد، عدد-واحد... نعم الشفقة، لا شيء نستأهل أكثر... قل للمعلم: يا سيدي... إياك أن تكسر نظّاراتك مرة أخرى... نعم كم صدق أناكرسيس: القوانين كخيوط العنكبوت تصطاد الصغار ويمزقها الكبار... الخ... الخ... الخ... الخ...

يداهمني شعور كالذي تجربته عند الاختناق والتخمة.

خلاصة تجربتي هذه الفوضى!؟

هل من الممكن أن يستوعب ذهني كل هذا الشلال الصاخب من الصور والأحاسيس والمشاعر ولا ينفجر، وأن يستخرج منها صورة متناسقة لرحلته، وأن يمكنه الردّ على السؤال سيد الأسئلة: ماذا أفعل في هذا العالم؟ كم أنا محظوظ بأن وظيفة المحو ما زالت سليمة وإلا كان مصيري كمصير أولئك المساكين الذين يُسمّونهم العباقرة المتخلفين ذهنيا. الواحد منهم قادرٌ على استرجاع أجزاء كاملة من الموسوعة البريطانية بعد قراءتها مرة واحدة، أو حفظ كل أرقام الهاتف لمدينة كاملة، أو رسم شكل مدينة كاملة بعدد نوافذ عماراتها بعد المرور مرّة يتيمة فوقها بحوامة، لكنه عاجز عن ارتداء ملابسه أو تناول طعامه دون مساعدة.

تتعاطم الخشية وأنا أستعرض بقية الملفات وكأنني كالمقدم طوعا على فتح جروح غائرة جاهدت سنين لتندمل. هذا أضخم ملفت عن مرارة الحياة وأقسى ما يُجرّب فيها الحيّ من الألم، وأيضا عن أن كل ذات مصنوعة من قصص متباينة في التفاصيل داخل التفاصيل... وفي الجوهر دوما نفس القصة عن تجربة الحبّ.

تندافع صور طفلة وصلت إلى محطة من عمرها اسمها المراهقة... المرحلة من الرحلة التي يصمّ فيها الأدميّ أذنيه عن كلّ نداء، وقد اقتنع أنه لا ذكاء يبرّر ما في العالم من غياب، لا روعة تنسي ما فيه من فظاعة، لا براءة تعذر ما فيه من آثام، لا رقة تغطّي على ما فيه من شراسة، ولا جمال يجعل قبحه مقبولا. المرحلة التي يقرّر فيها أنه لا حاجة له بمثل هذا العالم وأنه يفضل العود من حيث أتى.

تصرخ الأم الأزلية:

- إنها لا تأكل منذ أسابيع وأنت لا تحرك ساكنا.

دَخَلت البنْت في إضراب جوع بلا طلب محدّد، فما الذي أقدّر عليه؟

أحاول فتح مَنْفذ للقلعة المغلقة.

- يا حبيبتى، إنها مرحلة صعبة لا بدّ من عبورها.

تدير لي تقيحه وجها تملأ عينيه دموع صامتة ساهمة مطرقة ترفض التواصل مع أيّ كان.

يجنّ جنون الأم الأزلية وهي تتابع عاجزة انطفاء الحياة في طفلتها:

- سيادتك من مؤتمر إلى مؤتمر، من مهمة هامة إلى مهمة أهمّ، من سجن إلى منفى، وهذه هي النتيجة.

يرفع الألم كل تخرج فتُصبح الكلمات سهاما مسمومة ترشقها الأم في قلب الأب المذنب.

- طبعاً البنْت ليست محسوبة فيما هو هام وخطير. تستطيع أن تنتظر شهورا لترى أبا بالوكالة، وقته للإنسانية لا لأطفاله. إنها الآن لميئة وموتها على حسابك وحدك.

كذبوا، من شابة أباه فقد ظلم. هل للرجل ما يدافع به عن نفسه؟

تنتهي تقيحه في غرفة إنعاش قناع الموت على وجهها. على الأرض ظهري مسند إلى السرير محدقا في الحائط. تمرّ أمامي الممرضات يتبادلن ضاحكات آخر فضائح القسم. أفضغ ما في العالم لامبالته لا ما يلحقه بنا من ألم.

يا إلهي أيّ شيء جنّت من أجله هذا العالم يستأهل كلّ هذا الألم، والباقي الذي ما زال ينتظرنا في كل خطوة إلى نهاية الطريق؟ هذه المرّة فاقت ضريبة الوجود قدرة الدفع. لينتّه كل شيء. لنمت تقيحه ولأمت حدّوها.

الموت! وهؤلاء الأغبياء الذين لا يخافون شيئا قدر خوفهم منه والحال أنه وليمة من الفكر واللاشعور... "شبعة" من اللاوجود... تخمة من العدم... طفرة من السلام... نهاية كوابيس النوم واليقظة... الراحة الأبدية.

"لم نجن بدنيا الكرب دنيا المحن (عمر الخيام)

إلا غصص الروح وغم النفس

ما أهنأ من مات بهذا الزمن

ما أسعد من لم ير نور الشمس"

كم يخيّل لنا أحيانا أن العالم أعدّ لنا شمس وقرمه وبشره وفرصه خصيصا كأننا ضيوف الشرف في وليمة الحياة. تأتينا الفكرة أنه ثمة بيننا وبينه علاقة غير التي تربطه ببقية النوات، أننا نتمتع بحماية خاصة وبأفضلية في التعامل. يأتي الحادث الغيبي أو الرصاص الطائشة أو المرض الحقير لنواجه بالحقيفة المرّة والعالم يسحب منا فجأة كل ما أعطى كأنه لا يعرفنا ولا يهمه من أمرنا شيئا. أفضغ ما في التجربة هذه اللامبالاة المطلقة التي يظهرها تجاهنا واكتشافنا أنه يعطي كل شيء ويسترجعه غير واعي أو مبالى لا بما أعطى وما استرجع ولا بمن غمره بالعطاء وممن افتكّ منه كل ما يملك. أي معقّة سأضع على باب العالم وأنا أصفقه ورائي خلّصني منه الموت أخيرا؟ حذار، حذار، قاس، فظّ، لنيم، بخيل، خادع، مرهق، محيط... حذار، حذار، عالم يضع أمامك العقبة الفالحاز فالحفرة فالمستنقع فالدهاليز فالحائط الشاهق، وعلى طول الطريق إلى لحظة السقوط في البئر التي ليس لها قاع... حذار، حذار، عالم تأتيه خاوي الوفاض، ترحل عنه يدا فارغة وأخرى لا شيء فيها، مُضَيّعا ما كسبت رغم ما دفعت فيه من باهظ الثمن... حذار، حذار، عالم قدرك فيه جوع لا يُشبع، ظمأ لا يطفأ، حب لا ييوم، مشاريع لا تكتمل، آمال لا تتحقق، والرياح فيه تجري دوما بما لا تشتهي السفن... حذار، حذار، عالم لا يعبا بك، لا يلتفت إليك، لا يهمه من أمرك شيء، سيان عنده أن تكون أو لا تكون... حذار، حذار، عالم غير قابل للفهم أو للترويض... حذار، حذار، كلّ معاركه بلا نصر وكل منتصر فيه بالصدفة أو في غفلة من الزمان، هو في آخر المطاف مهزوم.

أقرب يدي من اليد المتدلية من السرير كمن يخشى لمس جناحي فراشة بالنار. أراقب تدفق السوائل المغذية في ذراع لم يبق فيه إلا جلد أصف على عظم بحجم القلم، ولا قدرة لي أو رغبة في دموع جفّت منذ زمن طويل. ليس لي ما أقدم غير كل ما يقدر عليه الإنسان من حب عاجز.

كم نخطئ عندما نعتقد أن الأشياء والكائنات التي تُحرك فينا هذا الشعور هي التي تمنحنا أو تُمنّينا بأكثر قدر ممكن من المتعة. لو كان الأمر صحيحا لكانت هذه الطفلة المحتضرة أبغض البشر إليّ وهي سبب أفضغ ما أعيش من آلام. على العكس حُبّي الآن لها لا تسعه السماوات والأرض.

قد يكون أحسن من فهم طبيعته الأعرابي الذي سؤل أيّ أطفالك أحبّ إليك، فقال المريض إلى أن يبرأ والصغير إلى أن يكبر والغائب إلى أن يرجع. ما القاسم المشترك بين الوضعيات الثلاث؟ الهشاشة أمام أخطار الطريق. بقدر ما تتعاضم الأخطار التي تهدد كلّ عزيز علينا بقدر ما يزداد سعيها لحمايته بأتمن ما نقدر عليه: الحب.

حتى المعلم لم يدرك طبيعة مَنْ يسميه الحقّ وهو يربط الإيمان به بحبّه... الحقّ ليس هشاً ضعيفاً مهددٌ حياته لا ضمان لتواصله إلا حيناً له... اللهم إلا إذا قِيلنا أن حياة كل حيّ حياته هو، وأنّ حب الذات التي تبلور فيها طريقتنا الوحيدة للتقرب ممن هو فوق كل عبادة وكل حبّ.

أتوجه للراقة على فراش الجمر بالوداع الأخير وباللغة الأولى التي تبادلنا بها تحية التعارف يوم الوصول: لغة الرضع. كأنّ شيئاً ما نفذ أخيراً إلى شيء ما... لمس شيئاً ما... حرّك شيئاً ما... أثّر في شيء ما... غير وجهه المسار. أكون ذلك لأن هذه الطفلة اللعينة شعرت أنها ظفرت بما تريد... أنها انتقمت بما فيه الكفاية... أنها تأكدت أخيراً من شيء كانت تريد التأكد منه وهي تعرف أصدق المعرفة أنه لم يكن يوماً بحاجة إلى تأكيد. ربما فهمت أن عليها أن تجد في أعماقها القوة الكفيلة لإخراجها سالمة هي ودليلها من العاصفة، وإلا فإن الكارثة ستجرف الإثنين.

لا أصدق أذني وأنا أسمع تفيحه تهمس مبتسمة بردّ ليس فيه كلمات.

تتجدّد في شهوة الحياة والطفلة تطيل النظر إليّ وتبتسم.

- هل... هل؟

- ن، ن، نعم، نعم، نعم.

تستطيع رجلاي حملي من جديد فأقف مترنحا. يلمع شيء كالقلق في عينيّن بدأت تدبّ فيهما الحياة من جديد.

- "با"، هل ستبقى معي هذه الليلة، كم أكره هذا المكان الموحش.

- وبعدها نعود إلى المنزل وقد فكّ الإضراب؟

- نعم

- لمواصل المشوار؟

- لمواصل المشوار.

- على علّاته ومصاعبه ومتطلباته؟

- على علّاته ومصاعبه ومتطلباته.

من الغد تعود تفيحه إلى الحياة وأعود إلى مشاغلي لا أريد شيئاً قدر فسح الكابوس من ذاكرتي بأسرع ما يمكن. إنها قصة من بين ما لا يحصى من القصص عن الآلم الأدمي المزمّنة وطيفها الواسع. إنها قصة من بين ما لا يحصى من قصص المراهقين والآباء وحب الآباء لأطفالهم وحبّ الأطفال لأبائهم والصراع بينهم وسوء الفهم والبحث عن السلوى في الموت والبحث عن فُرص تدارك ما مضى من أخطاء.

حقاً عرّف الآباء عند مرض أطفالهم من الآلام ما عرفْتُ. لكن هذه التجربة بتفاصيلها وبالتفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل لم تحدث إلا لي... لي أنا فقط. مما يعني أن ما يُعطي للذات خاصيتها التي تميّزها عن الذات الأخرى، جملةً من الأفعال والتفاعلات مع جملةٍ من مظاهرٍ وكنائاتٍ وحالاتٍ العالم لم تحدث في تفاصيلها الدقيقة وفي تتابعها الزمني إلا لها هي. إنها الفوارق البسيطة والجذرية في آن واحد، التي تصنع تباين القصص، ومن ثم تباين الذكريات، أي في آخر المطاف تباين الذات.

قصتي إذن في الثوابت قصة كل آدمي آخر... وفيها من أوجه الاختلاف ما يجعلها لا تشبه قصة أي آدمي آخر... منها دخولي

العالم من مكان واحد دون سائر كل أماكن الكون... في زمن دون سائر كل الأزمان... بأب دون كل الموجود من الآباء... بأتم دون كل

الموجود من الأمهات... بأدلة آخرين دون كل المتوقّرين من الأدلة... بتجارب تستكشف نفس طيف أحاسيس ومشاعر كل الأدميين

وتختلف عنها في ألف تفصيل وتفصيل... ما أعجب أن ترتطم الصدف بالصف والضروريات بالضروريات والصدف بالضروريات

لتحدّد لكل رحلة مسارا ولكل مرتحل قصة لا تشبه أي مسار أو أي قصة أخرى... كل هذا لتكون لي، لك، لكل آدمي قصة فريدة

تنويعا إضافيا آخر لتجربة الوجود آدميا...

لنُسمّ هذا المستوى من فضاء الذاكرة الحافظ لقصتي: ذاكرة الأنا دون سواه... وإن استهوتنا صورة الشجرة: ذاكرة ورقة الشجرة أيام الربيع.

**

وكيف أن الذات هي أيضا ذاكرة الأدمية جمعاء

عندما تتفحص أخصّ الملفات التي تُميّز الذات، تكتشف دوما استحالة فصل قصتها عن قصص عدد غير محدد من الأدميين. تؤدي بك كل سفرة داخل الذات ضرورةً إلى سفرة داخل الذوات الأخرى.

هكذا تجدني دوما ارتطم بقصة "با" لاكتشف يوما أنني لن أفهم قصته إن لم أربطها بقصة الشاعر الذي جعل من قصائده الكلام المقدس والقُدوة والمثال في كل ما يقول وما يفعل.

لماذا جعل من هذه الذات بالذات قدوته؟ هل لتعرفه في الآلام التي عبّته طوال حياته؟ تُرى هل سأجد منبع الآمي في منبع آلام دليل الدليل؟

أعود إلى قصائد لا تُلقى وإنما تُزمر، باحثا عن السبب الدفين لعريضة التفاخر والغضب.

هل ذروة مأساة الرجل وقوفه اضطرارا على أبواب الملوك يستجدي من يحترقهم، هو الذي كانت بنفسه أنفة أن تسكن اللحم والعظم؟ هل لأن العالم أسرف عليه بالمحن ليختبر قوته المزعومة، أم لأنه رفض له شهواته أو بالغ في التقدير؟

ينتبه للسبب أديبٌ أعمى عزيف بالآلام وما فعله بالمعذّبين في الأرض. غريب! كيف لم يسترع انتباهي يوما أن الرجل فآخر دوما بنفسه لا بقومه خلافا للمألوف... أنه بكى وأبكى الأجيال على جدّة، لا على أب أو أم أو أخ أو ابن... أن ديوانه لا يبدأ بذكر حسبه ونسبه. ثمّة إذن منطقة مظلمة في قصة الرجل ربما وجد فيها "با" شيئا عزز به الصلة. لكن "با" كان معروف الحسب والنسب وكان له أب معروف وأم معروفة.

أم معروفة! لم أسمع "ما" -على كثرة مدحها للناس- تمدح هذه المرأة. لم أسمع كلمة عنها من جدّي ولا كلمة أيضا من المرأة الطيبة التي تزوجها بعد وفاتها... أخيرا لا أخرا، لم أسمع "با" الذي كان يذكر والده بألف خير، يذكرها إلا صارخا أوقات الغضب العاتي: أنا الذي عقرت أمه بعد أن ولدته... أنا الذي لم يتخطب غيره في جوف أمه!

كل ما يحتويه ملفّ هذه المرأة اسم يحفّ به صمت مشبوه. تحين فرصة الحفر في سرّ قد تملك "ما" بعض مفاتيحه. - ألا تعتقد أن لو كان له أشقاء علموه باكرا أن يُفاسم لما أفرط في دلاله علينا وهو يتصرّف دوما كأنّ الكون بأسره أمّه المكفة بتدليله؟

تُقاطعي "ما":

- لم تدلّه يوما أم.

تعصّ على شفقتها كأنها ندمت على زلّة لسان.

قد أكون حرّكتُ أشياء خطيرة تحريكها. فضولي أهمّ من ترفّق يحضر ويغيب.

- لم تدلّه!؟ ربما كانت مريضة أو أن مرضها أثر في طبيعتها وفي طبعه... ربما المرض سبب عدم إنجابها لغيره.

يأتي الردّ قاطعا وفي الصوت نبرة استهجان.

-كلّام لم يكن بها أيّ مرض، والآن قل لي ماذا ستفعل بخصوص قضية فلان؟

- لا تغيري الموضوع، أريد كل التفاصيل عن هذه المرأة لأسباب لا علاقة لها باغتيال ميّنة. حقّي في معرفة سلسلة الأحداث التي صنعتني.

تستكين "ما" للصوت الحازم كما يفعل كلّ آدمي ظهره إلى الحائط ولا مصلحة له في مواجهة خصم مصمّم.

-كل ما أعرفه أنه غضب منها وهو في الخامسة عشر لأنها رفضت له ضيفا من عمره فخرج ولم يعد للبيت... إلا بعد عشرين سنة.

عشرون سنة! كيف يمكن حتى لرجل غضوب مثل "با"، أن يغضب من أمه عشرين سنة؟ السبب غير مُقنع أو غير مكتمل. يجب أن يكون رفضها استقبال ضيفه القطرة التي أفاضت الكأس. ما الذي ملأ الكأس قبل أن تفيض؟ شدتها التي التصقت باسمها؟ جرمانه من حب بقي طوال حياته يركض وراءه؟ هل هذه الجدّة التي لم أعرفها هي سبب الوجع الذي جعل "با" طول حياته كأننا متألما مؤلما؟ كم تسبّب لي وللآخرين من أوجاع؟

- ماذا أيضا؟ تكلمي.

تنسحب "ما" داخل قوقعتها تعلمني أنه لا فائدة في مواصلة الحديث. بداهةً ثمّة شيء لا يمكن لأّم أن تحادث فيه ابنها... شيء ربما تهايمست به النساء يوما بعيدا عن آذان الأطفال!

لأحاول الجَمع بين مختلف قطع "البوزل". ثمّة مفاخرة "با" المشبوهة، بأن لا أحد تخبط في أحشاء أمه غيره كما هو حال الأنبياء. ثمّة عداؤه للنساء وتكيله بكل أنثى رماها الحظّ العائر بين ذراعيه مكديسا الخليالات والحليلات يشبعهن إذلالا وخيانة وطلاقا.

هل مَحَبَّتِي للنساء وثَرَقِي الدائم بهن مُجَرَّدُ رَدّة فعل على رَدّة فعل على رَدات أفعال لا أحد يعلم متى انطَلَقَتْ؟ كل هذا يفوح بعطر الانتقام من خطيئة لا تغتفر. الخيانة الزوجية؟ جِدُّ مُسْتَبَعِدٍ. أشياء كهذه لا تقع في واحة صغيرة وإن وقعت مرة كل مئة سنة فإنها تنتهي بالذبح تحت التكبير والزغاريد.

مفهومُ رجال ذلك الزمان والمكان للشرف، يحنون الهامة أمام كل طاغية حقير، لكنهم يقتلون بشجاعة امرأة ضعيفة - لا يهم أن تكون أختا أو أما أو زوجة أو بنتا-بتهمة التعدي على العفة والحياء... وأغلبهم زناة، إن لم يكن بالفعل فيالنوايا. ماذا لو كان السرُّ اكتشاف الطفل باكرا ما تهاست به النساء، وأن المرأة التي رفضت لابنها ضيفا، رفضت له إخوة ولأبيه رجولته؟ هل تقديسي للأخوة مواصلة قصة حزينة لطفل حُرْم أخوة بقي طول حياته لا يكف عن البحث عنهم؟ هل غضبي صدئ لغضب طفل وجد نفسه يتخبط في مشاكل لم يكن له أي دخل في وقوعها ولا ناقة لي ولا جمل فيها؟ ما أغرب أن تُشكّل أحداثٌ لا دخل لك فيها ما بك من خصال وعيوب! ما أغرب أن يقول البعض بحريته وكلنا مُسَيَّرُون بأحلام وكواييس من سبقونا.

الاستنتاج المذهل: ما أسميه الأنا في جزء أساسي منه مُكوّن من الأنا الآخر. هذا الآخر موجود خارجي حقا لكنه موجود أيضا وخاصة داخلي، أوصل تاريخه وقصصه وقد أصبحت تاريخي وقصصي. طبعا هذا الذي بداخلي ليس صورة طبق الأصل للآخر الذي هو خارجي والذات تعمل باستمرار على ملامحه وخصائصه ومراميه حذف وإضافة وتحويرا، سلبا وإيجابا. إنها مثل مرآة تعكس الصورة حسب خصائصها وحاجياتها هي، آخرُ ههما "موضوعية" الآخر أو "حقيقته".

وفوق نفس القانون فإنني آخر الآخر، مما يعني أن ذاتي ضرورة المادّة الخام التي يتكوّن منها نسيج كم من ذاتٍ تُواصلني وتُصار عني وتُقدني ولا تشتهي إلا ما أشتهي ومني تتعلم، وتدخل معي في علاقات حب وبغض، ومن هذه العلاقة تكتب جزءا من قصتها.

وأیضا... أن أفكاري ومواقفي وتصرفاتي، كما أراها وأريد الناس أن تراها، تتحول داخل هذه الذوات إلى صور فاعلة مستقلة عني، منها التي في صالحها ومنها التي أفضلُ جهلها.

إذن أثرت قصة جدتي بكيفية جذرية في تكوين شخصية "با" لتطبعني بها من خلاله إلى الأبد. لكن ماذا عن الأحداث التي صنعت قصتها هي وتُفسرُها؟ على أي أوجاع كانت تنام جدتي "كالي"؟ ربما لم تقبل بالضيف لأنه لم يكن لها ما تقدّمه ولا حتى قطعة خبز جافة؟ على فرض أنه كان لها ما تقدّم وأن الأمر كان مرتبطا بطبعها، من ساهم في تكوين هذا الطبع الشرس الذي عُرفت به، صدقا أو تجنيا، أو عن قلة فهم وتفهم، كما هو الحال دوما في أحكامنا القاسية على بعضنا بعضا؟ الأهم من هذا كلّها، هل كانت اللعينة تدرك تبعات أفعالها وأنها برفضها ضيفا لابنها ستتسبب في سلسلة من المصائب لكم من نساء وأطفال أبرياء على امتداد أجيال؟

حتى لو عرفت تفاصيل قصة الجدة المعبّدة يسرّ ما وبوجع لم يفهمه أحد، لأحالتني قصتها بالضرورة إلى قصة الذوات التي صنعت قصتها، مما سيحيلني على الذوات التي صنعت القصص التي صنعت الذوات التي صنعت قصتها، مما يحيلني على... إلخ.

كم من أشباح لأحياء ولأموات ما زالت فاعلة تسكن ذاتي، لا البيت يعلم ولا الأشباح. تُرى أي أشباح لي تسكن كم من ذوات لا علم لي بتأثيري فيها ولا علم لها بمن كنت حقا!

ماذا لو كان الأنا مجرد أداة تنسيق بين قصص تتصارع داخلها؟ لكن إذا كانت ذاتي نسيجا من الذوات الأخرى فهي ضرورة موزعة داخل كم من ذات تساهم في النسيج الذي يكونها.

أه هذا ملفي عند "با"، كم أسأتُ به الظن دوما! يا للدور الهائل الذي تلعبه قصتي في قصة تفاحة وتفيحه؟! كم من ذات أخرى أوتت أو ستأوي جزءا من ذاتي لا هي ولا الأنا يعلم بالتفاعل الصامت الغريب؟

قصتنا إذن كقطعة نسيج نسجها مجهولون من مواقع جدّ متباينة زمانا ومكانا، صنعوها عبر ما لن نعرفه يوما من مخططات سرية، من طموحات مخفية، من آلام عبثية، من جرائم منسية، من خيارات كارثية ومن نجاحات عرضية... ولا أحد منهم واع بتبعات أفعاله على بقية حلقات السلسلة.

وأیضا: نحن إذن ضحايا تصورات بيروقراطية للذات، نتخيلها مثل بلد له حدود واضحة وعاصمة تحت حكم سلطان واحد هو الأنا المكلف بالقيادة والتنسيق والتمثيل الدبلوماسي لدى الكيانات الأخرى المبنية على نفس النموذج. كم من سداجة وسطحية في هذا التصور! الذات أشبه بأمة الإغريق في العصور الكلاسيكية، واحدة، لكن موزعة على قارة وجزر ومستعمرات مبعثرة على كم من ساحل بعيد.

الآن وقد أمسكتنا ببداية الخيط لا بدّ من مواصلة تتبعه على أمل أن نفكّ كل كبة الغزل وأن نمسك بالطرف الآخر من الخيط.

ومما أمكن اعتصاره من الخليط المبهم للروايات عن أجداد الجدة التي رفضت أن تلد بعد "أين في الناس"، أن ملك الماشين وراء أذنان البقر، أهل الماء والطين، أطمعهم يوماً في أرض توجد وراء النهر العظيم على الدوام خصبة خضراء، فيها سبانيا بيض البشرة لهن عيون بلون البحر بارعات في فنون الحب، أن هؤلاء الأجداد اقتعلوا تصديق الملك الداوية للفرار من أرض لا مقاومة فيها ولا خطر، أنهم توغلوا على خيلهم باتجاه المجهول يجرون وراءهم نساءهم وأطفالهم والبعير، أن جدة حازمة اسمها الجازية صاحبة الشعر الواصل إلى قدميها كانت قائدة الغزوة... أنها بعثت لاستكشاف الطريق بطلاً أسمر اسمه من اسم الهلال جمع الجرأة والدهاء، أنه رسم العلامات لتتدفق جحافل الفرسان، أن الشمس غربت مرارا على ساحات القتال والأجداد يشقون الطريق بسيوفهم، أنهم كانوا يؤوبون إلى خيامهم تحت صدمة فظاعة ما عاشوا وما فعلوا لا يصدقون أنهم ما يزالون أحياء، أن ليل الصحراء كان يواسي القتلى والقتلة، أن السيف عاد لغمده يوم تبين أنه لا نهاية للطريق ولا بد من حظ الرجال وأن كل مكان ليس المكان، ومن ثم فكل مكان هو المكان.

كيف لا يكون "با" الرجل الذي لا يستقر في أرض وقد وُلد من كل هذا التشرّد؟ كيف لا يتواصل حبّ الرجل داخلي أنصب في فضاء الخيال خيمة سوداء على سطح أبعد كوكب والكون برمته صحرائي رملهُ نجومٌ وكتبانهُ مجرّات؟ لهؤلاء الأجداد بالضرورة أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبّت في الجدول الذي تشكّلت منه ذاتي. ما تجود به ذاكرة اللغة أن أجداد الأجداد كانوا قوماً سكنوا أرضاً بعيدة شرقاً تحاذي شواطئ خليج يفتح على بحار مربعة تفتح على محيطات تضيق في مجاهل لا يتخيّلها خيال. كم م قصص تتحدث عن إبل وخيام وصحراء مترامية الأطراف ورجال يبتهلون لآلهة اسمها ذو الخلصة وهيل واللات والعزى. كل الملفات ترنّ بقعقة الشعر وترنّ السلاح. كل الصور لنساء لهنّ عيون المها وشعر يغار من سواده الليل، لرجال لهم وجوه كأنها نحتت بالسكين، صورٌ قومٍ إذا شجعوا تهوّروا، إذا أكرموا أسرفوا، إذا ظلّموا أفرطوا، إذا ثأروا كفروا وإذا حنّوا ذرفوا الدمع مدراراً، لا يضاھيهم بشر رقة وتوحشاً. ومن بين كل القصص التي عرفوا قصة شاعرة لا تشبّوها شاعرة اسمها الخنساء.

الخنساء! لم يُعط "أين في الناس" صدفةً لآبنةٍ له ماتت في سنتها الأولى اسماً سقط منذ قرون من التداول، مثلما لم يعطني صدفةً اسم ملك مات منفيًا. مما يقال عن هذه الجدة الأسطورية الأخرى إنّها ظلّت تندب طول حياتها موت أخيها البطل، إنّها ظلّت لا تقبل سلوى ولا تريد للنسيان محور اسم صخرٍ من ذاكرة القبيلة. الشاعرة الأنتى الوحيدة التي قال عنها بشّار إنها غلبت الفحول.

يقيني أن "با" قرأ الخنساء، أنه انبهر بما قرأ، أنه نسي ما قرأ، أن ما قرأ اختمر داخله ببطء، أن مناهج ومسالك فُتحت داخل ذاته، أن أهدافاً قاهرة تحدّدت لها والشعر منذ القدم ما تستودع فيه القبيلة تعليمات صنع ذوات أطفال الصحراء.

“يا عين ما لك لا تبيكين تسكابا
فابكي أخاك لأيتامٍ أرملة
المجد حُنته والجود علته
خطاب محفلة فراج مظلمة
حمال ألوية قطاغ أودية
سُم العداة وفكالك الغناة إذا
إذا راب دهرٌ وكان الدهر ربابا
وأبكي أخاك إذا جاورت أجنابا
والصدق حوزته إن قرنته هابا
إن هاب معضلة سنى لها بابا
شهاد أنجية للوتر طلابا
لاقى الوغى لم يكن للموت هبابا” .

بداهة الشاعرة البديوية هي التي رسمت ل "با" نموذجاً استبطنه طيلة الرحلة يأمره أن يكون الجريء، الجميل، سمّ العداة وفرّاج كل مظلمة.

فجأة والخيال يتوغل بعيداً في عمق الزمان ينقطع الخيط الرفيع وقد أصبحت القصة تتكلم لغات غير مفهومة. مما يرويه بعض الثقافت ممن نسميهم العلماء أن أجداد أجداد الأجداد خرجوا منذ عشرات آلاف السنين من ربوع سواحل قارة اسمها أفريقيا، أنهم ولّوا وجوههم نحو الشمال بحثاً عن صيد يأكلونه وهرباً من صياد يأكلهم، أنهم مشوا قروناً وقروناً يتبعون الشواطئ متوغلين من حين لآخر في أعماق الأراضي البكر، حافزاً الروح الفضول، وحافزاً الجسم الخوف والجوع والعطش. أي قصة سأنقّي لي من بين كل التي تملأ الفضاء المثير لتكون منطلق قصتي؟ لنختر تلك التي فقد فيها جدّ ما من سلسلة الأجداد رجله اليسرى في معركة مع الفهد. وهذا جده قبل أن يأكله الأسد وهو في ريعان الشباب. أين في الناس جدّ مثل جدي ذلك الصياد الذي كانت تفرّ أمامه الأسود؟ انظر إلى هذا البطل الذي كان جده وهو رابض وراء أكمة، ووتر القوس مشدود، ينتظر أن يسقط الفيل في الحفرة المغطاة بالعشب حدو الغدير ليعمل فيه نصله وهو يصلي له أن أعفر لنا يا إله القبيلة وشكراً على لحمك الذي سيوفر لنا أياماً أخرى من الحياة.

لهؤلاء الأجداد بالضرورة أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبّت في الجدول الذي تشكّلت منه ذاتك وذاتي.

وكيف أن التوغل عميقا في آخر طبقات الذاكرة مثل الغوص في بئر بلا قاع.

ليلتها تراجع الموت كالنسر، انقض على شحور لم يلمسه إلا بجناح. من الاتجاه المعاكس للطريق داهمتني فجأة دابة الحديد بسرعة مرعبة. وبينما الأنا في حالة ذهول وشلل مسلما بنهاية الحياة، برز من الأعماق مجهول شعرت به يُملي على العضلات المتشنجة أو امره فلا يخطئ الحساب ولا هي تتوانى عن طاعة، وقد تعرّقت على سيدها الحقيقي.

هي الآن تتدافع إلى عمل سريع، فعّال، منسق، ناجح، منفذة بدقة فائقة تعليمات صادرة من هذا الساكن داخلي، الصامت على الدوام والذي لا يأخذ بزمام الأمور إلا في مثل هذه الحالات.

تنصاع الآلة التي كنت أقودها، كما لو أصبحت هي الأخرى جزءا لا يتجزأ من هذه العضلات. هكذا شعرت بها تثب في المنعرج القاتل حيث يجب الوثب، تستعيد التوازن في المكان الذي لو تجاوزته بشعرة لانقلبت رأسا على عقب ثم تتوقف بالضبط حيث يجب التوقف.

في ظلمة الليل وعلى قارعة الطريق، بعد أن أوقفت الآلة التي كادت أن تكون لي كفنا، استعاد الأنا وعيه، لترتعد الفرائص بخوف مفاجئ لم يعد له مبرر، ليتجدد الانتباه ومعه نفس الإعجاب والعجب.

كم من تجارب مع هذا الذي يعرف داخلي كل ما أجهله!

فجأة يميد العالم بي وقد أصبح بلا سقف أو قاع، بلا فوق أو تحت. كأنّ الجسم أسلم قيادته إلى عاصفة هوجاء تكوّنت داخلي ترفعي مرة إلى عنان السماء وترميني أخرى في أعماق هاوية.

عُدتُ الطفل الذي يركب الأرجوحة يوم العيد ليجرب لذة دوارِ حَصَرَ هذه المرة ولا لذة تصحبه. إن كان لا بدّ من الموت فليكن وقوفا.

هيهات، لا مجال للانتصاب والعاصفة الهوجاء داخلي ترميني كل مرة على الفراش: تأتيني أوامر "الشيء" بالكف عن التدخّل فيما لا قدرة لي عليه. أشعر به يعيد ترتيب البيت دون أن أفهم كيف يتصرّف. لسث من الآن فصاعدا غير مجرد مُشاهد يتابع قوَى تتصارع داخله منتظرا حسمها.

شيئا فشيئا ودون تدخل أي طبّ أتى اليوم الذي استطعت أن أفق فيه مجددا على قدمي، أن أمشي وحدي إلى باب الغرفة مترحا لأتعلّم المشي كأنني رضيع يضع أولى خطاه على الطريق.

كل هذا لأن "شيئا" ما داخلي شخّص أين يجب، عالج أين يجب، مُصلحا ما أفسده عطب غيبي.

يجب أن نتذكّر اننا كائنات نعرف... وتعرف أنها تعرف... وتعرف أنها تجهل... وتجهل أنها تعرف.

نحن نعرف هذا العالم أحسن ما تكون المعرفة نفّرّق بين الوانه واشكاله نرصد تغييراته لا نخطئ ابدا في التعرف على ما فيه من روائع ومن أخطار، أضف لهذا أننا نعرف أنه محكوم بقوانين وبثوابت وفي نفس الوقت أنه لا يثبت على حال.

نحن نعرف أننا نعرف بما أننا نعرف أننا نخطئ وأن لأفكارنا الصائبة القدرة على مزيد من السيطرة على هذا العالم.

نحن نعرف أننا نجهل الكثير عن هذا العالم والدليل أن الأجيال وراء الأجيال تراكم المعطيات عنه وهي واعية أشد الوعي بأنها كمن يريد افراغ المحيطات بملاعق القهوة.

نحن نجهل كيف نعرف أدمغتنا معالجة كل ما نحتاج من المعطيات عن العالم وكيف نعرف أعضائنا القيام بوظائفها للبقاء أحياء أطول وقت ممكن والحال ألا أحد علمنا كيف نشغل العينين والكليتين والقلب والستمئة عضلة التي تحرك أجسادنا.

هذا العلم الهائل الذي يسكننا والذي لا نعي به هو علم "الشيء"؟ الفاعل المستتر الذي لا ترصده إلا عبر أفعاله المدهشة.

وفي بعض أقدم ملفات الطفولة، يتفجّر من أنف الأخ الصغير شلال من سائل أحمر لزج ساخن كريبه الرائحة يُخرج الأم من صوابها وهو يرفض الكف عن السيلان. تلك الليلة جاءنا رجل أجنبي على عجل، والحال أنه لم يكن مسموحا لأيّ غريب أن يدخل بيتنا في غياب سيده. ومما بقي محفورا في الذاكرة أنها كانت تتكلم معه باحترام شديد، أنها كانت تأتمر بكل ما يقول، أنّ الغريب عبس وقطب الجبين وهي تعطيه ما حسبته كثيرا من المال، أنّها اعتذرت بفقرها، أنّني كرهت الرجل لما أحدثه في "ما" من حرج وأنني أحببت تلك اللحظة أن أكون من يعرف كيف يوقف تدفق الشيء الأحمر لأكون رجلا يدخل البيوت ليلا، يعامل بالتبجيل ولا يأخذ مصروف الأطفال.

كان السؤال ليلتها: لماذا لم يتوقّف الدم عن التدفق من أخي إلا بعد تدخل الغريب، والحال أنه خرج منّي أكثر من مرة ثم توقّف دون حاجة إلى أحد؟

يومَ بدأ الأستاذ بعد أكثر من عقد درسه عن السائل الأحمر وكيف يتدفق ولماذا لا يتخثر في الأوعية، وكيف يرتك الشيء المجهول أحيانا فلا يكف عن السيلان مما يندر بكثير من الويلات، أصحّثُ السمع كما لم أفعل يوما ولا أظن أن أحدا من الطلاب حواليّ انتبه للموضوع كما كنت له منتبها.

لم أحمل يوما على محمل الجد مقولة سقراط "كل ما أعرف أنني لا أعرف شيئا" لا لشيء إلا لإدراكي الغريزي أن كل آدمي، حتى سقراط، عليم بكثير من الأشياء.

يا لهذا الكم الهائل من المعلومات التي يخترنها أكبر جاهل فينا!

هو يعرف كيف يصنع كافة أعضائه داخل الرحم، كيف يخرج منه، كيف يدافع عن وجوده ضد ما يزره به العالم من فيروسات وجراثيم وطفيليات، كيف ينمو تدريجيا، كيف يشغل بكل سهولة أعضائه كما لو كان أعظم المهندسين، كيف يتمكن من إيقاف نزيف من أنفه بكل فعالية، كيف يتدارك التهابا في الأذن الداخلية دون حاجة إلى طبيب، أو كيف ينجح في استعادة توازنه كل لحظة وهو يضع الخطوة تلو الخطوة، فيمشي مستقيما لا مترنحا كالسكران.

بديهى أن الذات لم تعرف طريقها إلى الوجود ولم تحافظ عليه إلا لأنها تعلمت كيف توقف النزيف وتصنع العين وتشغل الذهن... إلا لأنها تعلمت كيف تبقى وكيف تبقى.

ألا يعني هذا أن لها ذاكرةً توجد فيها كل الصفات وكل التعليمات لتدبير حالتها العيش والموت.

ألا يعني هذا أن كل واحد منا يخترن داخله تجربة الحياة التي أخذت ملايين السنين لكي تتضح أي اننا ننغلق على أرقى وأقدم واعقد ما في الوجود من علم!

بديهى أن هذا العلم ليس خاصا بي وحدي. هو نفسه الموجود في كل آدمي بل في كل كائن حي. بديهى أيضا أنه خلافا لما نسميه علما لم يوزع ظلما ولا بصفة اعتباطية وإنما هو نفسه بالكم والكيف الأساس المتين الذي تبني عليه الأجناس والكائنات الحية تجاربها للحياة تملأ بها خزاني "ذاكرة نحن جميعا" وذاكرة "الأنا دون سواه".

السؤال، من أو ما هذا الذي يعلم داخلك ويمنع علمه من الوصول إلى فكر الواعي؟

يا ما حملت أنه فتح لي خزائنه، أنني وجدت طريقة ما لأقتعه أو لأجبره على صب ما تعلمه في وعيي فيعود الارتباط بين العمق والسطح. كم مرة نفذ صبري لا أتحمّل أن أكون الحمار يحمل أسفارا، إلى الصراخ العقيم ولمشاكسة العبقري الصامت داخلي أضحك مني ومنه: سيادتك تعرف كل أسرار هذا الجسم اللعين وأنا أحصل على الصفر الرنان في فرض الفيزيولوجيا. سيادتك تملك كل الخرائط عنه وأنا أبلي العينين في حفظ دروس علم الأعضاء، لا أحصل حتى على المعدل. لو كنت ابن حلال، لهمت لي بكل الأسرار فأصبح أنا العبقري لا أنت لودحك.

قد يكون للمجهول الذي يسكنني أسبابه الوجيهة في إسدال ستارٍ كثيف بين مستويات الذاكرة. أي جدوى لذاكرة مطلقة قد تغمر وعينا السطحي كما تغمر موجة التسونامي سباحا غير ماهر. من بحاجة إلى أسفار المكتبة الوطنية يحملها على ظهره كل لحظة من السفر بحجة إمكانية احتياجه إلى هذه المعلومة أو تلك. جهلنا الذي نشككي منه خيار العلم الذي فينا... لحمايتنا؟!

إن في صدري يا بحرُ لأسراراً عجابا (إيليا أبو ماضي)

نزل السّتر عليها وأنا كنتُ الحجابا

ما أغربها وضعية والمرء كالجالس على كنوز فارون، يقضي عمره في البحث عن المفتاح والذي في جيبه لا يفتح شيئا!

لهذا عليك أن تُذكر كل متحذلق ينشد "يا من تدعى في العلم معرفة الخ" بعمق المعرفة الهائلة التي نخترنها كلنا.

حتى معرفتنا الواعية على قلتها بالغة الأهمية.

بديهى أن كل رؤيا للعالم نتاج مجموعة بشرية محددة في الزمان والمكان... أنها تعكس جهلها ومعرفتها مثلما تعكس مخاوفها وآمالها... أنها تبدو إلى أصحابها نهايةً طريق البحث وهي مجرد منعطف فيه... أنها ميوّبة في أحسن الأحوال لتغييرات جذرية وفي أسوأها لدخول متحف الفكر يوما.

ما نحن متأكدون منه أيضا أن في هذا العالم الذي أفقنا فيه ثوابتٍ ومتحركاتٍ... أنه محكوم بقوانين أزلية كتواجد الأضداد... أن من خصائصه التعقيد، التغيير، الخلق المتواصل، المفاجأة تلو المفاجأة... أنه دوما أغرب من أغرب تصوراتنا له... أن الأجيال وراء الأجيال من الباحثين سنتتالي وكل باب تفتحه من كهف الأسرار يفتح على سبعة أبواب وكل باب من السبعة أبواب يفتح على سبعين باب وكل باب من السبعين باب. الخ.....

أليست هذه معارف لا تُقدّر بثمن وينتهي إليها كل واحد منا مهما كان نصيبه من المعرفة، لأننا جميعا درّسنا وتخرّجنا من نفس أرقى جامعة: الحياة. الأهم من هذا كله معرفتي بأن لي علما أوسع من كل ما أتصور، حتى ولو كان أغلب الوقت محرّما على الواعي.

"قد كان يدور دوما في خلدي (عمر الخيام)

أن أخرج درع الفلك الدوار
كي أعرف معنى قلم يسطر ما
باللوح وسر جنة ونار
حتى هتف العقل بأن قد جمعت
في نفسك كل هذه الأسرار."

مواصلة لاستعمال صورة الشجرة لنسّم هذا المستوى من الذات ذاكرة الجذور التي تنطلق منها العصارة المغذية للجذع،
للأغصان ولكل الاوراق...أو ذاكرة " الشيء" هذا المفهوم الغريب الذي سنحتاجه لاحقاً ليشكل دعامة بيتنا الروحي وأهمّ لبنة
فيه.

الذات إذن طبقات متراكمة من ذاكرة ترمي بجذورها في مجاهلٍ محرّمة على الوعي تسمّيها الرؤيا العتمة، لا ندرك منها إلا
ما ندرك من محيط يُبجر على موجه والأعماق التي نطفو فوقها مستعصية على أخصب خيال.
عندما ينقشع التبأد تحررت الذات فجأة من سجن الذات ثمة فينا من يصرخ في قمة الجذل:

"لما رميت جانبا هذا الكيان النبالغ الصغر (سوزوكي)

الذي أسميه الأنا

أصبحت كل العالم الشاسع"

**

الكتاب السادس الملحمة

لا تشيحوا بأنظاركم عن هذا العالم الغارق في الفوضى
ومهما حدث واصلوا المشي وسط ضجيج
البشر وصخب الحياة.

كونفوشيوس

مقدمة الكتاب السادس

في 1-1-2000 بالتقويم السائد

اليوم 20075 من الرحلة

حقاً إنني لمسافر جدّ محظوظ وقد سحبت لي طاولة القمار سفرة في أشدّ مقاطع الزمان إثارة ولم أبتل كالملايين قبلي بالرحيل في أزمنة بليدة ركيكة ليس فيها ما يستحق الذكر.

هذه الليلة ستشهد أضخم حفلة نظمتها الأدمية في تاريخها الزاخر بتنظيم المآتم والأعراس والمبرر الاحتفاء بليلة ترمز في رزنامة بعض المرتحلين لدخول ألفية جديدة من زمن لا فواصل فيه إلا وكانت من نسج الخيال.

تأتيني أخبار الحفل العظيم من جهاز تلفزيون صغير كأنه سعيد بما ينقل فقط ويعودته إلى الحياة وهو المغلق أغلب الوقت. يفتتح مراسيم الاستقبال ملك مغمور لجزيرة في قلب المحيط الهادي اسمها "تونجا" توجد في أقصى شرق الفضاء الحسي. ياله من شرف أثيل أن يكون المرء أول الأدميين لاستقبال الضيف الكبير. ترنّ الأجراس في مدن تدعى طوكيو وسيول، تعلن أنها دخلت تحت ظل الزمان الواعد. يواصل الطيف تسلّله غرباً يمدّ ظلّه على أصقاع من الأرض تتسع رقعتها شيئاً فشيئاً. تتصاعد الهتافات من مكان يُدعى موسكو. يواصل الشبح زحفه ليغمّر مدينة اسمها روما. يخرج إلى الشرفة المطلّة على جماهير الأدميين عجوز مهيب مرتعش ببارك الحشود وبيبارك سعادتها. كيف لا يتدخل هذا الرجل بالذات في حفلة كهذه وكل عين مجرّبة لا تخطئ التعرف على الصبغة الدينية لمراسم الليلة المشهودة.

فجأة تشتعل الأنوار في برج حديدي يتوسط ساحة مكتظة في مدينة مرحة أحالت أنوارها الليلَ نهاراً. يتدافع بشر المكان، مع كل الناجين من كل الكوارث والمتسببين فيها، لتفجير مخزون الفرح الذي بداخلهم احتفاءً بأهم ما يجب الاحتفاء به: إنهم ما زالوا أحياء يُرزقون.

تصل الألفية الجديدة إلى مشارف مدينة أخرى على ضفاف نهر عجوز آخر، هي أيضاً سكرانة بالأنوار والصخب. يتعالى صراخ ملايين الحناجر تعجباً وإعجاباً أمام شلالات الأنوار والألوان ترسمها الشماريخ على ثوب الليل البهيم. أي صورة للعالم أبلغ من هذه؟ على سبورة الوجود تفجّر ما لا يحصى من نقط النور ترسم ألواحاً مبهرة. كل نقطة ملحمة كائن حي. هناك في ذلك الركن الشرقي من اللوحة حيث الألوان أكثر إشراقاً، تفجّر قصتي ثم اختفاؤها بالسرعة التي ظهرت بها. أي أهمية للأمر، يكفيني شرفاً أنني دُعيت يوماً لأكون جزءاً من العرض.

كأنّ القوم قرّروا الإفراط في مظاهر الترحيب. ربّما هناك هدف خفيّ لمن نظّموا هذه العاصفة من النور والنار، ألم تكتسب هذه المدينة المتعجرفة طوال سنواتٍ آخرٍ حربٍ عرفت خبرة في إسقاط كل مغير؟

هل كل هذا الإفراط على أمل إسقاط القرن الجديد كما كانت تسقط الطائرات والصواريخ فيما سبق من الزمان؟ هل سارى فجأة انطفاء الأنوار في كل مكان وإغلاق المسرح المفلس إلى الأبد؟ بدهاءة فشلت المؤامرة لبعض الفوضويين المصممين على الانتحار ونحرننا جميعاً.

هكذا استطاعت الألفية الغازية مواصلة طريقها وعبور المحيط لتستقبلها في ساحة اسمها تايمز سكوar نفس الحشود الأدمية بنفس الفرح. أخيراً ينتهي الزمان الجديد ببسط ظلاله على كامل الكوكب وقد وصل أقصى غرب الفضاء الحسيّ.

تصمّت كل الأصوات ولا يبقى فوق رأسي سوى ما رسمته منذ الأزل فرشاة الفنّان الأعظم. على سطح البيت، حيث السهرة كل ليلة مع النجوم، أفرش حصيراً ثم أجلس شاخصاً إلى السماء.

أناجي القرن الجديد أتملقه علّه يكون أرحم بي وبنا جميعاً من الذي ولّى غير مأسوف عليه. أكيدٌ أنك قرنٌ ابن حلال لا كالذي نغادر وقد كان أكثر القرون دموية في تاريخٍ آخرٍ ما نقصّه سفكُ الدماء. يكفي أن ينظر أي إنسان إلى وجهك الصبوح ليفهم أنك أتيت وفي جرابك أخيراً العدل والمساواة والفرح والسلام والحرية لبني حرية وآل ثبات.

لم السخرية والشك؟ لماذا أحمّلك أكثر مما تتحمل؟ هل كانت عصور الجذام والطاعون والعبودية والمجاعات أرحم؟ المشكلة أن نقاؤل القوم نوعٌ من التذجيل على الذات، وأكثرُ التاريخ تكراراً ممّلاً. هل سيفيقون من الغد بوجع رهيب في الرأس

يتوجسون خيفة من حضور الداننين وقد انتهت نوبة السكر؟

يا للمساكين! ما الذي يخبئه لهم المستقبل؟

كيف لا يدهمني السؤال بقوة، خاصة هذه الليلة ومستقبلي مضمّن في مستقبلهم وقصتي لا تفهم خارج قصتهم. قصّتهم؟! طبعاً قصة الأدمية التي تشكل قصتي وقصة كل آدمي على مر العصور قطرة من سيلها المتدفق منذ بداية التاريخ.

**

بخصوص السؤال الذي يقض مضجع الأدمية منذ انطلاق رحلتها

يصل بي الطريق يوماً إلى أرض سينا حاجاً لقبر رجل اسمه غاندي علم البشر أن العنف ليس القوة بل الضعف في حالة هستيريا... وقتله آدمي مُصاب بتلك الهستيريا.

أتوجّه بمنتهى الأدب لأحد المتدافعين بالأكتاف:

- سيدي أرجو أنني لست في انطلاقة مظاهرة؟ أنا مجرد زائر غريب مررت بالصدفة من هنا. لا أريد أن أجد نفسي محشوراً في اضطرابات طائفية.

يضحك الرجل:

- هذه ليست مظاهرة، أنت أمام محطة قطارات مومباي وهؤلاء مسافرو يومٍ عاديٍّ، ماذا لو جئت في الأعياد؟

تعود فجأةً إلى الذاكرة أمام المشهد المثير دهشة طفلة في الرابعة.

داخل إحدى الملفات ونحن نتمشى في شارع تجاري مكتظ تصرخ تفيحه متعجبة امام كثافة تدفق البشر: "با"، ماذا يفعل كل الناس هنا؟ وقبلها سألت نفس السؤال الطفل الذي سيصبح والدها أما ترددت قبل أن تتخلص بإجابة ما.

نعم، ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟ سيد الأسئلة والبنت ألقته يومها كما ألقاه أبوها قبلها بنبرة: متى نذهب إلى السيرك؟

ها قد بلغت من العمر عتياً ولا إجابة مقنعة في الأفق... لماذا عاد هذا السؤال الى الوعي بمثل هذا اللاحاح؟ ... هل

لأنني بدأت استشعر قرب نهاية الرحلة والبت الضروري في سببها ومعناها لم يقع إلى اليوم؟ ... هل رميت السؤال في أعماق

اللاوعي وسخرت منه كل هذه السنين كلما عاد للسطح حتى لا اواجه فكرة مزعجة أنه لم يكن للرحلة أي غاية وفكرة رهيبة

أنه إن كان لها هدف فإنني مررت بجانبه مرور الكرام؟

تُرى ما السبب لتدافعهم في هذا المكان وكم من مكان آخر يملئون عالماً لم يعد يجد لهم موطأ قدم على اتساعه الهائل؟

أخبار مضللة عن هذا العالم؟ ماذا لو جاءوه مجبرين لا مخيرين! من أين أتوا وأين سيذهبون بعد مكوث يطول أو يقصر في

ما سماه بعضهم وادي الدموع؟

تتخذ الهواجس وجهة جديدة تزيد من التنغيس على معنويات ليست دائماً على ما يرام.

كأنّي أسمع موظفي مركز الشحن السماوي يصرخون في بعضهم البعض:

- كم من محكومي هذه الشحنة وما التهم التي استوجبت نفيهم إلى تحت؟

- العلم عند كبار المسؤولين. ما يهمني هذا الغبي آد3100-2154879365 الذي يقاوم ويصرخ أنه بريء ويرفض النزول

إلى العالم الذي حُكم عليه بالعيش فيه حياة كاملة. قد نضطر لاستعمال العنف معه حتى يركب الشاحنة ولا يركب رأسه.

يا رجل العن الشيطان، ماذا لو كان العكس هو نواة كل هذه القصة.

إذن السيناريو كالتالي:

- تُرى كم من رشاي وتدخلات وتراخيص زائفة في هذه الشحنة؟

- العلم عند عصابات التهريب. هذا الغبي آد3100-2154879365 تأخر وسيفوته موعد القاطرة الأولى وقد يضطر لدفع

رشوة أخرى إذا أراد زيارة عالم يُقال عنه إنه من أرخص العوالم المعروضة للاستكشاف هذه الأيام.

سواءً أتوه طوعاً أو كرهاً، الثابت أن عدد الداخلين هذا العالم بدأ يفوق طاقة استيعابه والدليل أن ثلث الأدميين هذه الأيام لا

يجدون ما يسدّ الرمق ويزعجون الشبانين بارهابهم وبمظاهراتهم وثوراتهم التي لا تتوقف.

لهذا نشرت منذ مدة على موقعي في فضاء الصّفّر والواحد، إنذاراً صادقاً وإن يتوقع مزيف.

“نظراً إلى الازدحام الشديد، ولأن المكان غير جاهز لاستقبال كل الزبائن، فإن العالم يعلم أنه قرّر التوقف عن استقبال الزوّار

وذلك إلى أجل غير مسمى”.

وجودي الآن وسط هذه الهريسة الأدمية هو الدليل الساطع على عدم نجاعة هذا الأسلوب.

لم يبق إلا نصح من أستطيع نصحهم عليّ أنقذ فرداً على الأقل، وقد استعصى عليّ إنقاذ هذا الجنس المسكين برمته.

أسلط النظر على امرأة تدفع أمامها ببطنها المنتفخ، تهدد بمولود جديد عالماً شبع من المواليد الجدد، ناهيك عن الكثرة المقرفة

فيه للمواليد القدامى. أتوجه إلى المعنى بالأمر بالتعاطف والعطف والاستعطف مستعملاً هاتفي الخيالي الذي يسمح لي

بالوصول إلى كل من أريد: لم تقرأ الرحلة؟ لم أبلغ في شيء، أسأل كل الذين عاشوا إن لم تصدّقني، من الأحسن أن تبقى في

دنيا الغيب إلى أن تحين فرصة أخرى. ربّما ستنجح العتمة في تخيل عالم أقلّ خطراً وفضاعة، أمّا هذا! ثم هل فكرت في

ضرورة وقف هذا الزحف المهول، لمجرد ترك الأرض تستعيد أنفاسها!

يصمت الشبح متجاهلاً ما في قولي من حكمة ومن موعظة حسنة، ثم أشعر بالجاهل يهزّ كتفيه.

يجب ألا أحيّط وأن أوصل تحمّل مسؤولياتي والقيام بواجبي الإنساني.
يا مجنون، ورأس أمك الغالية، هذا عالم غير جاهز للسكن. ماذا تقول؟ عليّ أن أهتم بشؤوني، وهل أنا بصدد التدخل إلا فيها!
ثم من بضمن أنك لن تشكل خطرا على عالم يكفي ما فيه من إرهابيين!
ترمفتي المرأة بريية كأنها أحسّت أنني أريد بذّريتها شرًا.
قل لأمك أن تهدأ. ماذا؟ أنت الآن تسرّ في أنها أنني أريد خطف حقيبتها وأن عليها أن تطلب بوليس النجدة. يا غبي، لا أريد بك إلا خيرا. وأنت لا تريد بي إلا شرًا! آه منكم يا أولاد حواء.

يجب أن ألوذ بالفرار ف قد تطلق اللعينة عقيرتها بالصرخ: يا ناس، في هذا العمر ويعاكس النساء الحوامل، النجدة!
صدق من قال: مصائب البشرية من مصدرين لا غير: النساء وأمّهاتهن.
أقولها وأمشي متحملا كامل مسؤوليتي: الأنثى أسّ البلاء. ألم يكن من واجب هذه المرأة حالّ ظهور بوادر الحمل أن تشي بنفسها لأقرب مركز شرطة لتتلقى عقابها العادل، وأن تسلّم ثمرة الخطأ والخطيئة إلى السلطات الحدودية لإرجاع الغريب الخطر من حيث أتى؟ لكن لا، فالواحدة منهن لا تحمل المرة الأولى إلا وأعادت الكرة وهي فخورة بما اقترف المبيض والرحم.
هل من دليل أكبر على سوء نية الإناث؟
لم يبق لي إلا الإسراع في البحث عن مَنْفذ أهرب عبره من سيل بشري لم أر له مثيلا من قبل. تتابع الأفكار وكأنها هي الأخرى اكتسبت من هذا الزخم حيوية متجددة.

فرضيتان بخصوص كثرتهم وتعددتهم أرفض الخيار بينهما وقد داهمتني موجة من الجبن والهلع.
الأولى مرتبطة بواحد من أهم قوانين العالم: الرهان على الأعداد الكبرى.
كما لا مفرّ من غربلة أطنان من التراب للحصول على شيء جد قليل من التبر، لا بدّ من مئات ملايين النجوم لولادة ملايين الكواكب التي تدور في فلكها حتى توجد حفنة منها تفي بشروط ظهور الحياة أو لا بدّ من القبول بتبذير مئات الملايين من الحيوانات المنوية لينجح واحد لا أكثر في إخصاب بويضة.
لا مناص إذن من وجود عشرات الملايين من البشر الذين لا يُضيفون شيئا للحياة أو للحضارة، ليخرج من بينهم موسيقي اسمه باخ أو شاعر اسمه إيسا أو آدمي أصبح إنسانا اسمه ابن عربي.
بصراحة لا أحبّ هذه الفرضية لا لشيء إلا لأنني لست متأكدا في أي خاتمة يصنّفني العالم وهل أنا من التبر أم من التراب.
الفرضية الثانية التي سأدافع عنها لأنها في صالحها وصالح كل قرائي والبشر أجمعين هي التي تقول إن المهمة التي كُلف بها الأدمي من قِبَل قوة مجهولة (أو كُلف بها نفسه مفتعلا أن هناك قوة مستقلة عنه كُلفته بالأمر) أصعب وأطول من أن يتعهّد بها آدمي واحد ولا حتى أعداد صغيرة. لذلك كان من الضروري نسخه أكبر عدد ممكن من المرات وتجديد الأجيال كما تتجدد أفواج عمال المناجم، والقدامى يحالون للتقاعد عندما تخور قواهم لصالح أجساد غضة قادرة على مواصلة العمل الشاق اللعين.

طيب، لكن ما هذه المهمة العظمى التي تحتاج لمثل هذا التجنيد، لمثل هذا الجهد جيلا بعد جيل، لمثل هذا الثمن الباهظ من امتحانات ومحن تستهلك منا جل زمن الرحلة؟

ترتفع الأيدي ويتعالى الصراخ من هنا وهناك: نقطة نظام، نقطة نظام... هذه مواضيع حسمت فيها كتبنا المقدسة فعد إليها... لا، لا... القول الفصل لكتبنا نحن، أما هؤلاء فجهلة أو كفار... الخ

كم من السهل ادعاء كشف سرّ الاسرار بالنزر القليل من المعطيات وبقدر كبير من الغرور والجهل!
أوف، خرجت من الزحمة المرعبة، لم يبق حولي إلا بعض المئات من المتدافعين الراكضين المهرولين لغاياتهم المبهمة.
يتوقف أحدهم لغريب تائه يسأله عن أقصر طريق لغايته.
أعنتم الفرصة والرجل المبتسم يبدو على غير عجلة من أمره.

- عفوا، يا سيّدي هل تسمح لي بسؤال آخر. نحيتي في بلادنا ملوّحين بالأيدي ليتبين أنها خالية من السلاح. نصافح الآخر نتحسس راحته للتأكد أنه لا يحمل خنجرا صغيرا ثم نُقرئه السلام. إلّا ترمز تحيتكم أنتم؟ هل هناك مغزى لضمّ اليدين أمام الوجه وما معنى "نماستي"؟

- معناها نحيتي المقدّس الذي فيك.

يضمّ الرّجل راحتيه اتسعت ابتسامته. يختفي داخل الزحمة.

المقدّس الذي في! أنا؟! أيسخر مني هذا الأدمي؟ اللهم إلّا إذا كان...

**

كيف أن الأدبية بحاجة لقصة حاوية لكل القصص تردّ على سيد الأسئلة وأن لها أكثر من رواية

تأتيني ليلةً فكرةً لقصة ما قبل نوم البنّين لم تخطر على بال قصّاص.

أليس الأدبي مصنوعاً من الكلمات والأفكار مثلما هو مصنوع من الدم واللحم؟

أتوجه لتفاحة تفرك عينيها وتفتحها تجاهد للبقاء مستيقظة لتسمع بقية قصة الأميرة والساحر.

- أنا الذي سأقود القصة. جاءت الساحر الخبيث فكرةً مسخ الأميرة إلى جسم مصنوع من الحروف، الأميرة مهددة بالموت، والساحر أشهر في وجهها كلمة نار.

تفهم تفاحة اللعبة الجديدة. تصرخ: فصرخ الأمير في وجه الساحر الخبيث: مطر، مطر!

- أشهر الساحر كلمة مقصّ.

- لنهرب جميعاً، نركب كلمة زورق.

تصرخ تفجحه: فتأخذنا كلمة نهر.

تأتي الأوامر من المطبخ بوقف الضجيج. لا أحد يحملها على محمل الجدّ. لا حتى صاحببتها. تصرخ البنّتان: لا، لا، لن ننام حتى نغلب الساحر. ثم تتشابكان بالأيدي رقصاً يفتعل العراك وعراكاً يقلد الرقص. تحنّد لهجة أوامر نافذة الصبر فأصبح البنّين بالحذر. تفتعلان الطاعة والصراخ المتزايد عصبيةً من وراء الباب يقترّب. تتمددان على السرير لمواصلة القصة وشوشةً وفحصاً وتجادباً بالأيدي.

تهمس تفاحة وعلامات التأمّر على وجهها: "با" أين سنصل بزورقنا؟

سؤال وجيه. أين يحملنا الطريق وهو في هذا البعد من أبعاد العالم مرسومٌ بالكلمات مصنوع منها؟

طبعاً إلى "فضاء" جباله نصوص، غاباته نصوص، أنهاره نصوص، مستنقعاته نصوص، وجلّ المادة ما يقوله الأدميون عن الأدميين، تعلق الأمر بالأمهم، بآمالهم أو بخلافاتهم التي لا تنتهي حول كل شيء والباقي.

يتصاعد التنفس البطيء من البنّين. أغوص في الأريكة واضعاً رجليّ على فراش البنّين، مستمعاً بتنفّسهما ورافعا عن ذهني كل القيود، فأهمّ الأفكار لا تأتيني إلا وأنا على تخوم النوم واليقظة. أخيراً المكتبة العظمى. أيضاً ساحة معركة كالتّي توجد في البعد الحسيّ لعالم لا يتخيّله خيال خالٍ من الصراع.

"هنا" يتناطح "صحيح البخاري" مع "الإعلان الشيوعي" وكأنهما ديكان غيوران على حريم من الدجاج. ما إن تكتشف كتب الفلسفة المثالية بدايةً تحرّك كتب الفلسفة المادية، حتى تقرّر الدفاع عن مواقعها ووقف زحف العدو ثم الالتفاف حول جناحه الأيمن والإجهاز عليه قبل التفرّغ لتصفية الجيوب الباقية. تأخذ كتب المادية بخناق كتب المثالية وترتمي كتب المثالية على كتب الجدلية وتشبّ كتب الجدلية صفحاتها المدرّعة بكتب الأساطير التي تبعث بجملها المسمومة في كل اتجاه، تقصد بالأساس مقولات الداروينية البيولوجية والداروينية الاجتماعية والداروينية الميتافيزيقية، فتصيب خطأً الهيكلية الأدبية، والحال أنه لا ذنب للهيكلية الأدبية في صراع العقائد حيث هي جنس مسالم من النقد الأدبي. تفتعل كتب الميكانيكية النيوتونية الحوار الهادئ البناء مع كتب الميكانيكية النسبية، ثم تفقد أعصابها أمام صلف العدو ووقاحتها لترطم الصفحات بالصفحات. تصرخ الكتب الصغيرة وهي تترنح تحت لكمات المجلدات. تهبّ إلى نجدتها المجلدات التي هي على نفس الموقف... إلى ما لا نهاية، ولا رأي يبررُ إلا ووجد من يخالفه ويسفّهه ويهاجمه.

كانني أسمع الصراخ المتصاعد من الوقار المتكأف: يا صانع أفيون الشعوب، يا عدو التقدّم، يا ظلامي، يا جاهل، يا متخلف، يا ملحد، يا عدوّ الله... الله من هذا أيضاً؟ أنت لا تؤمن بالله! ... أؤمن بما هو أكبر... نعم ثمة إله واحد لكن يجب ألا تؤمن به... دياناتكم شهوات ومخاوف أطفال غلّفها بدائون بأساطير ساذجة واستحوذ عليها كهنة خبثاء وملوك قُساء لإحكام القبضة على شعوب من العبيد... وقع تجاوز كل الخطوط الحمراء، والشرف الرفيع لا يسلم إلا إذا أريق دفاعاً عنه مزيد من الحبر والدم... من الغبي الذي قال اعرف نفسك؟ يا للهول لو عرفنا حقيقتنا، أيّ جحيم كنا نجرّب لو عرفنا ما يوجد حقا في أعماق النوات الأخرى؟ ألا تعرف أن المختار قال كذا وكذا... قال أو قُول... أعيّدوا القراءة، أسأتم فهمي واستعمال كلماتي... لا بل فهمناك جيّداً وفهمنا كيف نُحسن استعمالك لقضاء شؤوننا... أه يا أوباش، حقا لا نبيّ في قومه... ما الغرابة في الأمر ونحن - خلافاً للأغراب- نعلم عنك كل شيء.

في هذا "الفضاء" صحّياتُ الأهم نثرا وشعرا.

"هنا" زبدة علومهم الصحيحة والمغلوبة سحرا وتنجيما وشعوذة... معادلات نيوتن وماكسوال وديراك وبوهر وأنشتاين وهيجز وهوكنز، لا تدري هل هي فعلا ملفات الله المسروقة أم قمة الإبداع الفني عند البشر.

"هنا" قوانينهم التي تعكس لهم صورة محتالين، لصوص، قتلة، خونة مستغلين، زناة، مغتصبين مرتشيين.

“هنا” تواريخهم، قُل أساطيرهم التي يمّون بها على أنفسهم وعلى الآخرين.

“هنا” مخططاتهم للسيطرة على عالم لا مجال للسيطرة عليه.

“هنا” تواريخهم، أي رواية المنتصرين لصراعاتهم بالكذب المفضوح والتضخيم والتقزيم والإسقاط والتمويه، ناهيك عن الدسّ بأشياء لم تقع أصلا. ووراء كل هذا التزييف مؤرخون يفبركون للشعوب أساطيرها الجميلة رحمةً بها أو خدمة لمصالح ممّولهم، وآخرون يفكّون بذكاء هذه الأساطير شماتة في زملائهم أو خدمة لمصالح ممّولين آخرين.

“هنا” رواق صور عظمائهم التي صقلتها دعاية محمومة متواصلة عبر العصور سَهَر على ترويجها أنصار هؤلاء العظماء ومن يتمعشون من صينتهم.

“هنا” ما يسمونه مزبلة التاريخ حيث يتكس كل الأدميين المكرويين لجرائم كبرى يُقال إنهم اقترفوها في حق بني جلدتهم. كن على أتم الثقة أن أغلب المرمين فيها ضحايا صور نمطية معاكسة رَوَّجها الأعداء ومن يتمعشون من تواصل العداة.

ماذا عن طبيعة المعنيين بالأمر وراء ما أليسوا من أفتعة الجمال والقبح؟ إنه الغموض التام وقد ضاعت حقيقتهم من فرط المبالغة في التقديس أو في التدنيس. وحيث أنه لا يوجد آدمي يَحْتزن الخير المطلق وآخر يَحْتزن الشر المطلق، وأن كل آدمي مزيج دائم ومتحرك من الخير والشر، فإن بؤسك أن تُراهن على أننا لو عرفنا القصة الحقيقية للقديسات لقلّ إعجابنا بهنّ ولو عرفنا القصة الحقيقية للمومسات لما كان حُكنا عليهن بالصرامة المضمّنة في الكلمة الإهانة.

فجأة يتعالى الصراخ من كل حذب و صوب. إنه صراخ باعة المنتج الجديد الذي لا يكفّ عن التدقّق والكُلّ يحاول استغلال جهل المستهلك وجوعه لغذاء الفكر والروح: من هنا الصورة الصحيحة للعالم... تخفيض هامّ لبين الخلاص الحقيقي... الفلسفة الصافية غير المغشوشة... طازج، علم نفس طازج، الوحيد الطازج الخارج لتوّه من الفرن... آخر وصفات الخلاص الفردي والجماعي، مسكين من لا يشتري بمثل ضماناتنا... من هنا الردود الجديّة على الأسئلة اللعينة... لا غشّ عندنا في الأمر مثلما يفعل الآخرون!

يقترّب أحد الباعة هامسا في أدني: لا تتردّد، عندنا برنامج للرحلة وكيف تؤديها على أحسن وجه وبأرخص الأثمان. تعال، من هنا الصراط المستقيم. لم لا أتبعه؟ قد أعرّ أخيرا على ما بحثت عنه منذ إفاقتي.

إنه الركن من “السوق” المخصّص لبيع رواياتهم المتناقضة المتناحرة لما يجب أن نفعل لكي نجعل من الآدمي إنسانا.

“هنا” سراقق الآلهة المتجهمة وكهنتها الذين يعاملوننا كالأطفال، يصرخون فينا دوما: افعلوا الخير وستكافؤون بكثير من الشوكولاتة، وإن عصيتونا سلّخنا جلودكم دُنيا وآخرة. لا، شكرا لسُتّ معنيا بمثل هذه السلعة.

“هنا” سراقق الأنبياء المبتسمين. لألق نظرة على الرجل الجالس تحت شجرة الشاي يتأمل، وعلى ذلك الآخر الذي نزل لتوّه من ظهر الثور ليسلمنا أثنى الكنوز قبل الاختفاء في الضباب. كم مؤسف أنهما هما أيضا يبيعان نفس البضاعة، الفرق بينهما وبين كهنة الآلهة المكشرة عن أنيابها أنهما أكثر لياقة مع الزبائن واحتراما لذكائهم.

“هنا” سراقق ديمقريط وبروتاغوراس وبيقور وإبيكتت وكل من أحب من الفلاسفة الذين لا يحبون ولا يحبهم أفلاطون. هم أيضا يريدونني خيّرًا وحكيما ومعتدلا وعاقلا وصبورا وناقعا! لماذا يصرون كلهم على أن أضيّع وقتا ثمينا في مهمة بعبثية استئصال جزء من ذاتي ولو كان حقا الأظلم؟ هل جنّ لهذا العالم، للصراع مع جزء من ذاتي، وكأن الصراع مع الذات الأخرى لا يكفي؟

“هنا” الواجحة للمقاولين القدامى الذين نمت ثروتهم عبر العصور ونجحوا في فرض بضاعتهم. أجيل البصر أقرأ لافتاتهم الضخمة: مؤسسات أفلاطون وأولاده، فالميكى للملاحم الفلسفية، هيرودوت دار التاريخ العريق، البيئاتوريون لعلم الكهانة والحساب، هومير للأساطير.

هل سيجد الحالم ضالته في الأزقة الخلفية؟ مؤكّد أنها تعجّ بمزوري النصوص وبمهرّبيها، أنني سأجد فيها أشدّ من تتشوّق لهم نفسي. قد أسقط بالصدفة على طورانطيوس ولوحاته التي دمّرت أيادٍ مجهولة جُلّها لأن الرجل كان يتبجح بأن أروع ما رسم كان بهُدَى وتوفيقٍ من الشيطان.

أه لو أمكنني ملاقة الإخوان الذين كتبوا الإحدى وخمسين رسالة والدردشة مع أكبرهم -ذلك الذي كتب الرسالة الجامعة- أطلب منه استعمال عنوانها وإن رفض أسبّه وأخبره أنني سأختم به نصّي أذن أو لم يأذن.

هل سيسعفني الحظّ بالارتطام بمؤلف ألف ليلة وليلة؟ أمر مشكوك فيه والرجل -اللهم إلا إذا كان امرأة-تديّر(ت) أمره(ها) للإفلات من كل الذين حاولوا إماطة اللثام عن هويته(ها).

كتاب يركضون طيلة حياتهم التعيسة جريا وراء الشهرة، وآخرون يهربون منها كما لو كانت الطاعون ممزوجا بالجذام. قد ألقى صاحب مخطوطة “فوينيتش”. كم من ليالي لكتابة نص يسخر من نفسه ومن كل الذين سيستمتتون سنة قرون لفكّ رموز لغة لم يكتبها ولم يتكلّم بها بشر.

أه هذا أنت! أيّ وقاحة هذه؟ كل الذين يكتبون يفعلون ذلك لتُخلدَ أسماءُهم وليتناقل الناس كلامهم ويعملوا به وأنت! لا، لن أزيل القناع عن وجهك ولن أطلب منك ترجمة. هكذا يكون الكاتب وهكذا يكون أحسن ما يفعل.

ربما أكبر مقال في السوق -بساحاتها الكبرى وأزقتها الملتوية- ذلك الذي كتب أعظم نص، ولما أعاد قراءته ضحك ثم بكى ثم مزق الورق ورمى بالقلم بعيدا عنه وتوقف عن التنفس إلى أن جاءه الموت. نصوص لم تر النور أو لم تُكتب أصلا أو كُتبت عمدا بلغة غير موجودة لأن أصحابها شعروا أن هناك حقائق يجب أن تبقى مخفية! هل من الممكن أن كل هذا الفضاء الفاض بكل هذه الثرثرة مجرد قمة جبل الجليد، أما المخفي منه فهو الذي ينغلق إلى الأبد على المشاعر والأفكار التي يرفض الأدميون الإفصاح عنها ويمنعونها من التبليغ حتى على تخوم الوعي! هل الأمر لاكتشافهم الفراغ المظلم وراء كل نور؟ أم لرعبهم من مصير الفراش الطائش إن اقتربوا منه كثيرا؟

كم صدق الحكيم:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال (فخر الدين الرازي)

وأرواحنا في وحشة من جسمنا وحاصل دنياننا أذى ووبال ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا تصرخ البنتان بالاحتجاج:

- "با"، لا تتلكأ، لنزاحم. يجب أن نبيع نحن أيضا. ماذا؟ أنا أيضا واحد من الباعة ولم أنتبه!

إنها حقا لمغامرة أن تجد في هذه السوق موقع قدم لعربتك المحملة ببضائعك التي لم يسمع بها شارٍ أو سمسارٍ، يحدوك -مع هذا- أمل كل المبتدئين أن تتحسن الأحوال يوما فتفتح لك دكانا صغيرا ثم أول مساحة كبرى عندما تتحسن أكثر، ولم لا أن تصبح أنت أيضا من كبار مقالبي الفضاء. نعم، لأزاحم أنا أيضا لعرض أحسححسن الأجوبة عن أسئلة لا يهيم أن تكون فاسدة الصياغة أصلا. ها أنا أدفع عربتي الصغيرة، أصبح مغنيا أو أغني صائحا: "الرحلة"، "الرحلة"، آخر وأجمل الرؤى عن العالم وفيها تقنيات عبوره والخروج منه سالما ومظفرا. كل من يشتري "الرحلة" نعطيها مجانا "المدخل إلى الطب" شرط ألا يستعمله للفت السمك أو لإسناد طاولة المطبخ العرجاء.

تتخرط البنتان بسرعة في اللعبة الجديدة، لكن عوض أن تصرخا: من لم يقرأ رحلة "با" مات غيبا، ها هي تقاحة تعني: تعالوا، اسمعوا قصة بينوكيو تروبيها لكم أحسن رواية، وأختها تصرخ بصوت أعلى: بل تعالوا لسماع قصة سندريلا والأمير الجميل تروبيها لكم تفيحه المشهورة.

طبيعي، فلا أحد من هؤلاء الأدميين الملاعين يحرك عضلة إلا لحسابه الخاص. أما ما يدعونه من أثره وعمل لوجه "با" أو الله أو الوطن أو الإنسانية فمقايضة تجارية يخرجون منها إذا لم تغط المكاسب ثم تحريك العضلة أنفة الذكر. كل هذا الضجيج ولا مشتر أعشه. إن بارت البضاعة فما علي إلا تركها للفئران.

كيف تجوز السخرية من هذا الفضاء؟ حقا هو مستودع نفايات خيال الأدميين وافكارهم بما فيها من هذيان مضحك، لكنه أيضا مستودع القوى الجبارة التي تمكنهم من حفظ وجودهم وتواصله في أصعب الظروف... فيه تتراكم وتُخزن وتُعالج وتُنقل الأفكار والقيم والتقنيات من جيل إلى جيل، الشيء الذي يمكّن الأدمية من رفع طاقة التأقلم السريع في مواجهة عالم لا يثبت لا مزاجه ولا مناخه على حال، الأمر الذي لا تقدر عليه أي من الكائنات التي تقاسمنا الفضاء الحسي.

إن ثمة ملجأ من كل هذا الضجيج ففي عين الإعصار: المنطقة التي تنطلق منها الحركة الهوجاء الخلاقة المدمرة... النافورة التي لا تنضب أبدا بالمشاكل المطروحة للبت فيها جيلا بعد جيل.

سيد هذا الفضاء أهم من كل الحروف. إنه رمز له شكل مُنجلٍ ووظيفته الأولى رمينا بالتحدي وراء التحدي لكي نبقى دوما منتبهين نبنينا عالما متواصل الخلق.

السؤال هو الساهر على سلامتتنا الذهنية. إنه من يذكر أن المعرفة مثل جزيرة وسط محيط من الجهل، وكما قال أحدهم: بقدر ما تكبر الجزيرة بقدر ما يتوسع المحيط.

إنه لشيء مُطمئن أن الأدميين كائنات متسائلة لا تتوقف أبدا عن طرح السؤال وراء السؤال. قد يكون الأمر مكلفا وهو دوما مصحوب بقلق دفين، لكنه يبقى أقوى دليل على وجود طاقة خلاقية لا تنضب.

كم من ملفات تتراكم جيلا بعد جيل في مكتبة المكتبات وكلها محاولات لا تتوقف للرد على ما سماه أحدهم الأسئلة اللعينة. كم تعاقب من بني آدم على هذا العالم؟ لماذا أتوه بهذه الكثافة؟ لماذا يرفضون مغادرتة على أهواله؟ هل وجدوا قبل الوجود؟ وهل سيوجدون بعده على شكل آخر؟ هل هم حيوانات أفرزتها قوة عمية اسمها "الطبيعة"؟ أم كائنات نورانية خلقها إله لم

تخلقه قصصهم؟ هل رمت بهم الصدفة العمياء في مجاهل هذا العالم؟ هل هم تائهون في محيط اسمه "الكون" ينتظرون بعثة إنقاذ لم تسمع بغرقهم ولا تعرف عنوان الجزيرة التي لجأوا إليها؟ هل هم مستكشفون بعثتهم العتمة في مهمة بالغة الخطورة؟ لماذا نتقدم في ربوعه ونحن كمن يمشي في نفق مظلم بيده شمعة، نوسّع دائرة النور ولا نهاية للظلام المحيط بنا؟ لماذا نعاني من صعوبة الوصول وصعوبة العيش وصعوبة الرحيل؟ لماذا يبقى أبو الهول صامتاً لا ينطق عبر الدهور؟ ولماذا نصرّ نحن على أن ننتطقه ولا نظفر منه إلا بصدى صوتنا؟

يا الهى كل هذا الكَم هائل من الأساطير... من الديانات... من الفلسفات... والنتيجة دوما أنك أمام آراء لا أكثر!

تجري على رسلها الدنيا ويتبعها (الجواهري)

رأي بتعليل مجراها ومعتقد

أعيا الفلاسفة الأحرار جهلهم

ماذا يجبي لهم في دفتيه غد

طال التمثل واعتاصت حلولهم

ولا تزال على ما كانت العقد

قف. كفى من هذه العقد اللعينة. لماذا لا أكون أنا من يصيغ الأسرار بدل تضييع العمر في البحث لها عن أجوبة "صحيحة". لماذا لا أستأنس بنصائح بعض الكبار الذين خلقوا قبلي عوالم من محض خيالهم لا زالت تنبض بالحياة... لم لا فالميكي الشاعر الذي جعل أمة كاملة تسكن مسرحيات هو كاتب ومخرج جل أدوارها!

كيف سيعيرني اهتمامه رجل انسحب من العالم الحسي لما أكمل خلقه للأسطورة العظمى غير مبال بفيالق النمل تتسلق الصدر والوجه، تدخل وتخرج من العينين المفتوحتين ومن المنخرين؟

أخيرا ينتبه فالميكي لوجودي. يبادرني بانزعاج:

- ماذا تريد؟

أواه يا سينا، برّب عشق طفل تهجّى في حبك أجمل روايات القصّة المقدّسة، تدخلني!

أهمس بالطلب بين رجاء واستحياء فيلمع الاستكار في نظرة باردة لا تنذر بخير.

- كيف؟ ما هذه الوقاحة!

وقاحة! صحيح أنها لا تكاد تُذكر بجانب وقاحة الآخر: فياسا شاعر المهاباراتا ملحمة المائة ألف بيت الذي لم يتورع عن تهشيم ناب "فانيش"، الإله-الفيل ليستعمله قلما يكتب به رؤياه.

يتفطن فالميكي لنفاد صبري. ربما انتبه لكوني أعرف أكثر مما أريد البوح به وكلّ ما في الأمر أنني أتلف معه وأتأدّب. مثلا: أنني أعرف ماضيه المشبوه وأنه كان في حياة ماضية قاطع طريق وبوسعي الوشاية به للسلطات وحتى اتهامه بتمويل الإرهاب الدولي. كأنني به يحاول ربح الوقت، لا يعرف هل أنا جاد أم ساخر.

- هل عندك توصية من جهة موثوق بها؟

- من أمي. هي الوحيدة التي وثقت بي دوما وكان ذلك خطأها الوحيد.

يرمقني فالميكي بنظرة فيها فضول مفاجئ ثم يبتسم.

- لم اخترتني من دون بقية الصنّاع؟

- أنت الوحيد الذي ليخفي سرا مفضوحا يتشارك الكل في ادعاء الجهل به.

يلقي عليّ الرجل نظرة طويلة.

- قل، أتعني.

كما الذات بحاجة إلى بيت في الفضاء الحسي يوفّر لها الأمان والراحة ومتطلبات الجسد الأخرى، هي بحاجة إلى بيت في الفضاء الفكري-الخيالي يوفر للفكر والروح ضرورياتهما. لذلك خلقت الأدمية المهندسين المعماريين في الفضاء الحسي لتلبية حاجياتها المادية الحسية وخلقت مهندسين معماريين في الفضاء الفكري-الخيالي لصنع الأساطير والأديان والفلسفات والأداب والفنون. كما لن يتوقّف الهدم والابتكار والتشييد في فضاء الحواس، لن يتوقف بناء وهدم البيوت في الفضاء الرمزي-الخيالي، لا طاقة للأدمي على سكن نفس البناءات وإن حسبت أعمارها بالقرون، إما لتهالك دعاماتها أمام مطرقة الزمان، أو لتعزير الذوق العام وارتفاع مقاييس الجودة عند المتساكنين، عادة لحبّ الأدميين استكشاف وخلق الجديد.

-واصل

- ليس لنا لاكتشاف سبب ومعنى وجودنا إلا تصورات يصنعها الذهن البشري، والأمر سيتواصل إلى نهاية الملحمة البشرية.

- وماذا أيضا؟

- التقدّم في طروحاتنا حول العالم ليس اكتشاف حقيقة أزلية موجودة منذ الأزل خارجنا وفوقنا وإنما استبدال تصورات ساذجة بأخرى أكثر تعقيدا، كما الأمر عندما تطور تقنياتنا من القدرة على بناء الأكواخ إلى القدرة على تشييد ناطحات السحاب.

- وماذا أيضا؟

- لا يوجد إلا نوعان من الرؤى: التي تعترف بخلقها الأسطورة المؤسسة والتي تتسترّ على الأمر.

- وماذا أيضا؟

- لا أدلّ على ضعف تصوّر يبني أسطورة أو دينا من كونه لا يحفظ بقاءه إلا بالقضاء والجلادين.

- وماذا أيضا؟

- أحسنُ صناع الأساطير المؤسسة من يسهّلون الحياة والموت ولا يزرعون الألغام على طريق الأجيال القادمة.

- آخر فرصة انتبه.

- ألا تقول كتبكم المقدسة "لا نفع لأحد من هذه الحياة إن غادر الدنيا ولم يخلق عالمه الخاص"؟ أتريدي أن أغادر الدنيا دون القيام بأهمّ واجباتي؟

-فرصة التدارك وستكون فعلا الأخيرة.

- كل رؤيا مطالبة بأن يرضى بها القلب ويقبل بها العقل وإلا فهي هذيان في أحسن الأحوال وفي أسوأها تدجيل.

ترتسم على شاشة الذهن ابتسامة عريضة. أكاد أرقص طربا فهذا الذي انسحب بعد أن أكمل مهمته ولم يعد يعير شيئا أو أحدا اهتماما رضي أن أكون له تلميذا.

- تعال، هذا واقع من الأزل مصنوع من العقل ومن الخيال فأخلق لك منه العالم الذي تريد.

الذي أريدي؟ طبعاً الأجمّل، الأغرّب، الأخطر... الأكثر جدارة بالوجود... ذلك الذي يتشكّل ببطء داخل فكري وخيالي... ذلك الذي سيسمّيه النصّ الرؤيا.

لماذا لا يكون لي تصوّرٍ الخاص لقصة القصص، هكذا يمكنني أن أقرر-لا حسب هذا وذاك وإنما من موقع "سيادي" بحت- هل كانت حصيلة رحلتي "أذى ووبال" أم هل حققت كل أهدافها وزيادة؟ ألم آخذ رخصة من فالميكي نفسه، علما أنه حتى لو رفضها لي هو أو غيره لما توقفت عن البحث! طيب، لكن كيف سأصوغ هذا الرؤيا؟ طبعاً باستغلال كل ما تراكم في ذاكرتي من قصص الأوائل واساطيرهم، بتفحص كل القيل والقال حول السؤال سيد الأسئلة، بتركيب كل التصورات الممكنة للرد عليه، بتفكيكها وإعادة تركيبها إلى أن تكتسب شكلا مقبولا شريطة ألا يتعسف الفؤاد على ضوابط العقل وألا يستخف العقل بحاجيات الفؤاد.

"بنيتُ على الرمل (أدولف ستاف)

لكنّ كل شيء انهار

بنيتُ على الصخر

لكنّ كل شيء انهار

واليوم على دخان المدفئة

سأبني."

يتعالى فجأة صوت تقاحة: هذه الغبية نامت وسط قصتي...وأنت أيضا...لن أحكي لك أبدا نهايتها!

**

عن بداية رحلة الأدمية مع تغييرات جذرية في أشهر أساطيرها

أجمل إخراج لأشهر أساطير الأدمية عن انطلاق تغريبتها في هذا العالم:

“وقبلها كانا في جنة عدن (أندريه شديد)

فضاء أنقذه الإله من الظلمات

أرض خصبة معطاء

وسهول تسكنها حيوانات صديقة

متعة بلا إسراف

سعادة لا تتخللها الأشجان

وعَد بلا خطر

فجأة طُرِدَا من الحديقة”

(الحديث طبعاً عن آدم وحواء)

نقطة نظام. يجب تحيين نظرتنا لأساطير كل الأوائل الذين ارتحلوا قبلنا. أيا كانت، هي ليست شطحات خيال بدائيين كانوا أقل منا نكاء. هي بحث أخذ هذا الاتجاه أو ذلك يدفعه حدس صائب انتبه لجانب من إشكالية بالغة التعقيد والمستويات وعبر عنها بلغة وصور زمان ومكان. ومن ثمة ضرورة الخروج من ثنائيات الكفر/الإيمان، الحقيقة/الكذب، الموضوعي/الخيالي، فنحن لا نكتشف عقائدنا وإنما نخلقها لكي تساهم في خلق عالم متواصل الخلق. لا شيء إذن أكثر عبثاً من تقديس عقائدنا وتدنيس عقائد الآخرين. كلها عقائدنا. كلها نتاج العقل البشري وكلها تجاربه. كلها ملك للبشرية جمعاء ومن ثمة هي تراثي وتراثي يحق لنا أن نعرف منه ما نحتاج نضيف ونغير ونحسن لبناء بيوتنا الروحية الخاصة. طُرِدَا من الحديقة!

الرواية الشائعة أن ثعبانا خبيثاً زين لآدم وحواء أكل تفاحة والله لا يحب من يقطف ثمار أشجاره فعاقبهما بالطرد من حديقته العزيزة عليه. شخصياً لا أستطيع أن اصدق أن الها كامل الأوصاف مثل يافيه بهذه الدرجة من البخل وأنه يسلط عقاباً بمثل قسوة النفي من الجنة لمجرد سرقة تفاحة؟

بصراحة كنت أفضل أن يجدوا سبباً أحسن من هذا.

مثلاً كنت أفضل أن تكون التهمة التدخين في المراحيض.

أي غرابية في معاقبة التدخين في المراحيض بقسوة الطرد من الجنة لخطورة الجنحة حيث كان يمكن للعملية أن تتسبب في حريق يأتي على أخضر الجنة ويابسها إن كانت جنّة أرضية أو أن يفجرها في الجو إذا كانت جنة طائرة. لكن عقاباً بمثل هذه الخطورة لمجرد أكل تفاحة!؟

للمتمسك بصديقية هذه الرواية مخرج من نوع ثمة بالضرورة حكمة في اختيار تهمة أكل تفاحة.

ممكن لكنني بصراحة لا أفهمها.

هل لتندلع خصومات بين أهل العقل وأهل النقل؟ بين اللفظيين والمجازيين؟ بين القائلين إن التفاحة المعنية بالأمر هي الفاكهة التي نأكل، وبين المصرين على أنها رمز لمفاهيم لا يرتقي إلى مصافها الأغبياء الذين لا يدركون من الكلمات إلا غلافها؟ هل سيتدخل في هذه القضية أشد من أكره أي المسكون دوما العصا من الوسط ليفسروا بجنبهم المعتاد وعجزهم عن أخذ موقف واضح أن التفاحة هي في آن واحد الثمرة التي نعرف وأيضاً أنها رمز للحكمة وأن أكل الرموز الإلهية ممنوع. أوف!

أقولها متحملاً كل مسؤولياتي: يجب رفض حكاية الطرد هذه جملة وتفصيلاً لأسباب تتعلق بأعز ما يوجد وما نملك: الكرامة. إنه تصوّر يتعدى على كرامة الأدمي وهي تجعل رحلته تبدأ بركلة في مؤخرته. هو يتعدى على كرامة العالم عندما يجعل منه ساحة للعقاب الإلهي. هو يتعدى على كرامة الخالق عندما يجعله صاحب ضغينة وعقاب وتكيل بمخلوقاته لسبب بتفاهة معصية ما والنتيجة ما نعرف من التهاب المعاصي ومنها الكفر بالخالق نفسه.

يجب إدخال تحوير ضروري يتخذ ما يمكن إنفاذه من هذه القصة لمواصلة استعمالها في بناء تصوري

الخاص.

على كل حال، هذا النقاش بغير معنى فمعلوماتي الثابتة تؤكد أن آدم غادر حقا الجنة مع حواء لا مطرودا وإنما... لأنذا بالفرار.

تهز رأسك: ما هذا الهراء؟ كل آدمي، حتى ولو كان الأول، لا يهرب من الجنة وإنما يهرب إليها.

تضيف لمواصلة إزعاجي: ثم إن الفرار من مكان كهذا محروس بملائكة مدربة وكاميرات عالية الجودة، عملية غير ممكنة.

نعم سيكون من الصعب على الرؤيا تبرير هروبنا من الجنة ونحن نلح بتحقيقها في هذا العالم والخلود فيها في العالم الآخر... اللهم إلا...

ردّي أولاً أنه لا يجوز الاحتجاج على روايتي بحجة ضعيفة من نوع "آدم لا يمكن أن يرتكب حماقة كالخروج طوعاً من الجنة وأنت أعلم منّي بطول باع الأدميين في ارتكاب ما يخطر وما لا يخطر على البال من حماقات. تبقى حجة استحالة الفرار من مكان محروس مثل الجنة.

فعلاً يستحيل الفرار من مؤسسة جدية مثل الجنة لا شكّ أنها تتوفر على ميزانية غير محدودة ويمكنها أن تستأجر أحسن شركات الحراسة وشراء آخر الكاميرات عالية الجودة.

لا بدّ إذن أنه كان لأدم وحواء داخل المكان شركاء أعانوه، ربما بإيقاف تشغيل الكاميرات اللعينة لحظة الهرب. لكن من؟ الملائكة؟ إبليس؟ الثعبان؟ كائن مقنّع لم ترصده القصة؟

من المستحيل على كل هذه المخلوقات ولو مجتمعة أن تخدع يافيه وهو قادر على معرفة الأحداث قبل أن تقع. التفسير الوحيد إذن أن النصير المجهول كان... يافيه نفسه.

صدق أو لا تصدق، ذلك شأنك.

ها قد بدأت تتجمع كل مقومات قصة القصص... على الأقل بدايتها ثم سنرى فيما بعد.

إذن أزمع آدم في سرّه على الفرار غير واع بمن أوحى له بالفكرة.

ذات ليلة صارح حواء بالفكرة، فمطّت شفيتها وحكّت رأسها ثم رفضت بقوة. مؤكّدة أنها قرأت في مستقبل غامض كل ما سيمرّ به أطفالها من محن وأنها أحجمت لحظة أمام الثمن الباهظ. لكنها لم تلبث إن أعادت حساباتها.

في نسخة خاصة للقصة موجهة فقط لكل مناضلات الحركة النسوية، سنجعل حواء هي التي أسرّ إليها الصدى بالفكرة وأنها هي التي أقنعت رجلها الكسول بفكرة الفرار وأنه هو الذي مانع وقد أرهبته صور آتية من أعماق المستقبل لما ينتظر أطفاله وأنه رضح وحوّاء تهدده بالهروب لوحدها وما عليه إلا أن يجزّب الجماع مع إبليس أو الثعبان.

المهم، يحسم الأمر لصالح الفرار.

هكذا اشتعلت شاشات المراقبة -المكلفة بقراءة الأفكار- برسائل الإنذار. ثم طلعت التقارير للإدارة العامة تحت إشارة غليظة بالأحمر: "عاجل للغاية وسرّي جداً". وعوض أن يبرق الإله ويرعد وتتفجر البراكين على كل الكواكب، ابتسم يافيه بل وتنفس الصعداء مناجياً نفسه: أخيراً، أخيراً قرّر فرار هذين الغبيين، من يدري؟ ربما هما من سأحقق بهما جزءاً مما بحثت عنه دوماً.

تنبيه: لن يقع التصريح بكل نوايا يافيه ولن أكشف عن طبيعة المهمة الخطيرة التي أوكلت لأدم ناهيك عن علاقة الاثنين ببعضهما البعض لعدة أسباب. أولاً لأن المجالس بالأمانات ولا يمكنني ولو بالتلميح فضح كل الأسرار التي تمكنت من الاطلاع عليها من أوثق المصادر. ثانياً لأن تقنيات التشويق في كل رواية تقتضي أن أحافظ أطول وقت ممكن على سر الأسرار وألا أتقاسمه مع القارئ إلا عندما ينفذ صبره وقد دفعته أكثر من مرة -كما يفعل جلّ كتاب الروايات البوليسية- نحو تخمينات خاطئة بخصوص هوية المجرم وأسباب الجريمة الحقيقية.

أخيراً وليس آخراً لأنني أريد لكتابي أن يقرأ إلى نهايته وألا يرمى به من صفحاته الأولى كما فعل مع الكثير من الكتب التي أشتري.

بقية الأحداث كما تصفها شاعرة ملهمة:

"سارعا إلى تغطية عريهما بالجلود (أندريه شديد)

دفعتهما الرياح الهوجاء من الخلف

تعانقا يرتعشان من الخوف

وقد أصبحا في سجن فضاء ضيق من الجلد

بواجهان الامتداد الموحش المخيف

ومستقبلا مرعبا لم يستعدا له

تجاوز آدم ضغينته

مسك بيد حواء متجها إلى الأمام

إنها أراض لا بد من غزوها

إنها عقبات لا بد من تجاوزها

إنها أخطار لا يعرفان عنها شيئا

وإنه كون يتلثم بأولى كلماته
عالم مقيد بسلسلة لا نهاية لها من الأيام والليالي
عالم تحت مطرقة الزمان
يجب تعلم الموت فيه
عالم غير مفهوم
بتبذيره الرائع والمرّوع
معا سيتمأكانه لا سلاح غير الهشاشة والإصرار
معا سيلدان آدمية الشرّ والجدل.
تعبير الفضاء والقرون.
ومن خلال ضباب الزمان
تابعهما الصدى بالأمر"
تهمس تفاحة تغالب آخر محاولة للبقاء مستيقظة:
- "با"، ماذا قال الرب لأدم وحوّاء وهما يفرّان؟
- خذا معكما ابليس.

ربما تنهّد هامسا لنفسه: لا بدّ منه لهذه التجربة وإلا كيف سيعرف الأدمي الخير والحرية والمسؤولية.

**

ارتظام الأوائل بالعالم واكتشافهم ثمن خيارهم الجسور

وراءهم الآن باب الجنة والعالم بأسره أمامهم.

تدير حواء بصرها في الفضاء الشاسع أبهرها النور والألوان، حائرة اللبّ أمام كل هذه الروائع... شلالات متدافعة من أعالي الجبال... أنهار متدفقة بين الروابي... بسط مفروشة بما لا يحصى من الأزهار... كتبان من ناعم الرمل... جبال مكلّلة بمهابة الشيب... بحار تهشّ الرياح فيها على الموج... غابات تناطح أشجارها السحاب... سماء مرفوعة بلا عمد... يهرش آدم رأسه أمام كل هذه الروائع: جنة أخرى؟ ما فائدة فرارنا إذن؟ صبرا قليلا وسترى الفرق.

تصرخ حواء وقد مرّ على فطور الصباح بعض الوقت الذي لا تستطيع تحديده بما أن الساعة ما زالت لم تُخترع: أنا جائعة ولا أكل جاهزٌ هنا.

ينتبه بطلنا إلى التغيير الجذري وأن هذا العالم لا يوفّر شيئا عدا وجوده، أما تدبير شؤون الوافدين فمسؤوليتهم. كيف فاته أن الإقامة في الجنة كانت بالمجان، أما هنا فهي على حسابه هو. هل أخطأ في حساباته. ها هو في مواجهة الأمر الأول الذي يزمجر به صمّث العالم الجديد: من يريد أن يأكل فلا يعوّل إلا على جهده، لا مكان عندي إلا للأكل ومأكول، كل أكل مأكول، كل مأكول أكل... وأنا أكل الجميع.

على فكرة، كم غريب أن لا أحد من المفكرين الكبار والصغار انتبه إلى أن آدم وحواء أخذوا قرارا غير ديمقراطي بالمرّة. حيث لم يقوما بتنظيم استفتاء يطرح الخيار بكيفية واضحة على كل الأجيال التي ستبتلى بعبور هذا العالم. كان عليهما مواجهة ذريتهما بما ينتظرهم أفرادا وجماعات في مختلف تقاطعات الزمان الطويل الذي ستدومه رحلة الأدمية. ألم يكن حريا بهما أن يواجها المسافرين في القرن العشرين بما ينتظرهم: العيش في عالم الماكرونال والكوكاكولا والكاجيبي والبنك الدولي ومحتشدات أوشوفتزر والطغاة الدمويون والقنابل الانشطارية وبرامج "اربح المليون" ومرض ألزهايمر والموت بسرطان الثدي للنساء والإسهال والحصباء والسعال الديكي للأطفال؟

نعم كان عليهما مصارحة الأفراد فردا فردا: أنت، نعم أنت، هل تقبل بقضاء جَلّ أعوام الرحلة في منجم ملح أم في معمل رخام أم في حقل أرز أم في حقل قطن أم على الرصيف بقرب محطات القطر لتغتصب ويمرّ إليك فيروس قاتل؟ ماذا تقول في قضاء جَلّ عمرك في مخيم لاجئين أو في الرحيل محشورا بين الآلاف منهم تتقيؤون على بعضكم في باخرة لها موعد مع جبل من جليد ومع عمق المحيط؟ ... وأنت الغبي الآخر، أترضى برحلة تنتهي -ضع سطرًا أحمر تحت الخيار- جريحا في ساحة معركة، مشنوقا، مقطوع الرأس بضربة سيف بارعة، في فرن للتصفيات الجماعية، تحت الأقدام إبان حجّ ميمون، بالخنخة، بالجوع، في سريرك عائما في إفرازاتك من فرط خوفك من قرب حضور عزرائيل؟... وأنت الذي تحاول الاختفاء وراء الظهور؟! لا فائدة من المحاولة، اعلم أنك ستنتهي متسكعا في أروقة المترو بعد فقدان العمل وهروب زوجتك بالأطفال وطرديك من بيت لم تدفع إيجاره منذ سنة، أنك سترمي بنفسك تحت القطر في محطة سان ميشيل وبسببك أيها البليد سيتعطل العمل أربع ساعات على الخطّ "ب"، مما سيضطرّ الشركة إلى تحويل آلاف المسافرين على الخطوط الفرعية حيث ستعمّ الفوضى ويتدافع الناس ويتخاصمون ويتشائمون والجميع -ومنهم كاتب هذه السطور- يستمطرون اللعنات على رأسك -أو ما بقي منه- لأنك لم تجد ما تنتقم به غير الانتحار وقت الزحمة حتى تضايق أكبر عدد من الناس المرهقين الجائعين أمثالي. أه نسيث أن أقول إن عمّالا في قمة التقرّز والاستياء سيجمعون أشلاءك الدامية في كيس من البلاستيك يرمونه في حفرة بالمكان المخصص للمجهولين في أبعد مقبرة، وأن سائق القاطرة سيُعطي أسبوع إجازة وسُبحال على طبيب الشركة المختص بعلاج الصدمة النفسية للسُّواق المساكين ضحايا أمثالك من المجانين وما أكثرهم هذه الأيام.

نعم كيف لم تصرخ حواء في قابيل وهو جنين: يا لهول ما ينتظرك يوم تشق الطريق على قمم الجبال وفي حضيض المستنقعات وأنت كالدابة تجرّ الحجر والملح والرخام، السوط يكوّ ظهرك، الجوع يمزّق أمعاءك، العطش يلهب حلقك، الهوام تلسع وتعضّ... وكل ما تصلّي من أجله حضور الموت المنقذ من الحياة.

أه لو نبّه آدم هابيل أن بإمكانية طاولة القمار أن تسحب له حياة المتشرد، العبد، السجين، المخصي، المومس، القواد، المستبدّ، الجلاد، الجائع، المريض، المجنون، المشوّه، المعاق، الثائر الفاشل.

تصوّر لو طرّحا لتصويت حُرّ نزيه وشقّاف سؤالا واحدا: تقبلون بالوجود أم لا تقبلون؟ لا شكّ لديّ أن أنصار "لا" واضحة ومدوية، كانوا سيحتفلون عشية الإعلان عن النتائج بانتصار باهر على "نعم" هزيلة ضامرة لحفنة من المغامرين الطائشين. لو حصل هذا لوقرت عليك مشقة قراءة "الرحلة" ووفرت على نفسي مشقة كتابتها،

ولكننا الآن نتمطى داخل العدم وقد لفتنا العتمة بفائق فراغها، وفي أسوأها ننتاب بكسل تحت شجرة التفاح في جنة متعة الملل وملل المتعة، لا نطلب ولا نطالب بشيء.

هيهات، هيهات، رُمي النرد ولم يبق إلا تدبير الوضع الجديد.

يصرخ آدم في حواء أنه لولاها لواصل حياته السعيدة في حديقة مولاة حيث لا جوع ولا جري مُضنٍ وراء فطور الصباح. تتجاهل حواء رجلاً سنبقى تعاني منه على مرّ العصور وككل من ستلد من الإناث تبدأ في وضع أولى خططها: البراري الخضراء حديقة البيت، والبحيرات الزرقاء والخضراء كمسبح للصفار يوم يولدون، والجبال الشاهقة لنشر الغسيل. يجب التأكد أيضا من سلامة الغابات وخلوها من الحُفَر والشياطين حتى لا يُصاب الأطفال بأذى. الستائر الملونة من حرير الصين على مدخل أول كهف يوم تغزل، لوحة "موناليزا" على الحائط.

يولد الطفلان وتولد معهما الخصومات.

ينفذ صبر حواء يوما والقشة التي قصمت ظهر البعير آخر شجار بين المصيبتين المتحركتين.

- كفى. قابيل كم من مرّة قلت لك: لا تأكل البعوض الذي في رأسك بحجة أنك جائع. هذا فعل يليق بابن أبيه ولا يليق بابن أمه. وأنت هاويل، اغسل رجلك من كل هذه القاذورات ونم فقد ضقتُ ذرعا بقلة طاعتك.

يصرخ هاويل بغضبٍ، هو الذي ورث عن أبيه حدة الطبع وسرعة الانفعال:

- عندما أكبر سأفعل ما أريد. لن أنظّم غرفتي. لن أقرأ أي كتاب. لن أحفظ دروسي ولن أذهب إلى أي مدرسة.

هذه المرّة، لن تأخذه، "ما" بين ذراعيها تعتذر، تواسي وتقبل دموعه. لا مناص من الحزم حتى يستعدّ هو وأخوه وبقية الأطفال لأصعب المهام في أصعب عالم.

يكبر الطفلان، تتوسّع العائلة. أن الأوان للمرور لفصل آخر من القصة.

ذات يوم تصرخ حواء، يا الله، كفى كسلا، اغربوا كلكم عن وجهي ولا ترجعوا إلا بما خرجنا نبحت عنه ولا تحدثوني عن الآمكم، إنها الآمي قبل أن تكون الآمكم.

يصرخ أحدنا: لننتج إلى حيث تشرق الشمس، نحتمي بها ونهلّ وهناك نقطفها ثمرة طازجة.

يصرخ آخر: بل نذهب نحو الغرب لنعرف أين تذهب الشمس فنعود بها حتى لا نغيب، ننهي وجود الليل المخيف.

يصرخ ثالث: بل إلى الشمال بلدان الجليد فربما الشيء هناك مطمور تحت أمطار من الثلج.

يصرخ أجبنا أو أعقلنا: أريد البقاء مع أمي.

يتم أول اتفاق بين الأوائل: اركضوا أنتم إلى أبعد مكان في هذا الاتجاه ونحن في الاتجاه المعاكس، وأنتم: تفرقوا هناك داخل هذه الغابات الخائفة، أنتم وراء سهول الماء، أنتم خلف تلك الجبال الشاهقة.

"الأرض لكم (جبران خليل جبران)

تبتهج بملامسة أقدامكم العارية

الأرض لكم.

وشعوركم مسترسلة تنوق إليها الريح

الأرض لكم

وأنتم الطريق"

أي شاعر عبقري مبصر أو أعمى قادرٌ على نظم القوافي لإلياذة الجنس البشري برمته تنغى بكل هؤلاء المغامرين الأفاقين، المتشردين المستكشفين، الحُجاج الذين تتابعوا على هذا العالم منذ غابر الزمان، لا يوقفهم جبل أو قفر أو محيط، لا تصدهم أنياب ومخالب كواسر السماء والأرض والبحر ولا حتى عفاريت الظلام!؟

ها نحن ولمئات الآلاف من السنين نركض في كل اتجاه، نستكشف فضاء لا يُحدّ بحدود، نجري وراء الريح والسحب، يجمعنا الغيث ويفرقنا الجفاف، نأكل مما تجود به الأعشاب، نطلب العفو من الشجرة قبل أن نكسر لها ذراعا، ومن الفيل قبل تمزيقه إربا إربا، نقاتل الكواسر حتى لا نؤكل ونقاتل الأدميين وقد أصبحوا أخطر الكواسر حتى لا نُقتل.

إنه عالم لم يُخلق للجناء، عالم صارم القوانين وأنها أنك تولد فيه جائعا، تعبره جائعا وتغادره جائعا، أن الحياة فيه تنغذى بالموت والموت يتغذى بالحياة وكل الباقي حشو وتفصيل.

ربما لهذه القوانين مغزى يبزر وجودها وأسباب قاهرة تبدو أمامها احتجاجاتنا كاحتجاج الطفل على أمّه وهي تلقي به أول يوم لأول سنوات الصراع غريبا وحيدا في ساحة مدرسة مكتظة.

توقّف على الصورة.

ألا تلاحظ شيئا بخصوص هؤلاء الأوائل الذين خطوا أول خطواتنا على الطريق؟ كيف؟ لم تنتبه لصغر السن! لا مكان في العالم اليافع للمسئنين الذين تجاوزوا الثلاثين.

ماذا تقول وأنت تحرك يدك أمام أنفك؟ أه الروائح التي تتبعث منهم.

حقا من منا يرضى بتزويج ابنته لواحد من هؤلاء؟ ومع هذا هم أجدادنا جميعا، وحتى أجداد ملكة إنجلترا التي تمّوه علينا بخصوص أرومتها وأصولها الأرستقراطية والدم الأزرق الذي يسيل في شرايينها لأنها توقفت عند شجرة أجدادها حيث يجب التوقف، ولو طلعت إلى أعلى لاكتشفت المسكينة أنها ليست سليلة كبار اللصوص والقتلة فحسب، وإنما أيضا سليلة هؤلاء الشبان الهمج النتنين.

ملاحظة ثانية. لا أحد منهم بجزّ حقيبة تُصدر صريرا مزعجا. كل هذا يدلّ على حكمة هؤلاء الشباب، ويا لعار الأحفاد الذين لن يتحركوا إلا محمّلين بأنقال من أصناف عدة، منها جسم يئنّ بما زاد على اللزوم من الثوب والشحم. ما الذي لم يتغيّر رغم كل الفوارق الهائلة؟ أه إن الأحفاد الشيوخ وأجدادهم الشبان خائفون ومخيفون. تغيّر المظهر وبقي الجوهر لأن العالم لم يرخ لحظة قبضته عن التلابيب.

يأتي يوم يئن فيه أحدنا وقد فاق ضغط العالم كل احتمال: يا لهذه الغابات الجارحة كأنها إخطبوط أطبق علينا بألف ذراع! يأتيه رجع أنين تائه آخر: لم نكف عن المشي منذ أجيال ولم نصل، لا إلى حيث تشرق ولا إلى حيث تغيب. إنه عالم اتساعه أحرق، نحن تائهون فيه إلى الأبد، هل من باب نجاة؟ يا لهذه الصحاري الصفراء نمشي فيها بين سندان الرمضاء ومطرقة الشمس! يا لهذه الصحاري البيض وخنجرها التي تثبتت في فكّ البرد والدبّ!

يا لهذه الصحاري الزرقاء تهددنا بالموت رعبا قبل أن نموت فيها غرقا! فاق الألم كل قدرة التحمّل. تحمّل! أليس هذا فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص؟ ماذا نفعل طوال الرحلة، غير تحمّل الحرّ والقرّ، غير تحمّل الجفاف والطوفان، غير تحمّل الضجيج والصمت، غير تحمّل الأعداء والأصدقاء، غير تحمل تجربة الحياة وفكرة الموت؟ لم يبق للمساكين إلا الاعتراف بخوفهم وبعجزهم والتوجه لمن قد يقدر على إغايتهم.

صلاة الأدمي: يا من أوجدنا في هذا العالم المبهر المرعب... حنن علينا قلب الأرض والبحر... ضعنا في حماية الشمس والقمر... أحفظنا من أنياب الكواسر، لا تجعل دمننا لها شرابا حلالا... وقرّ لجوعنا اللحم والشحم... فجر لعطشنا عيون الماء الزلال... يسرّ أمامنا الصعب والوعر... ضمّد جراحنا... جدد فينا كل فجر شجاعة الأبطال.

صدي القوة المبهمة التي تتوجه لها صلواتنا منذ الأزل: يا أحلام أحلامي... يا آمال آلامي... يا آمال أمالي. يا أفكاري وخيالي... يا لحمي تقطّعه أنيابي... صبرا جميلا ستفهمون قسوتي عليكم وأنها لم تكن إلا قسوتي على نفسي. قد لا تكون انتبهت لأهمّ ما في قول الصدى: نبرته. هي حقا مُفعمة بالإشفاق لكن كم فيها من أمل، من تشجيع ومن ثقة. كأن وراء القول قولاً مسكوتا عنه ربما يكون شيئا من هذا القبيل: ستستون كل الأممك وستحمدونني عندما تجدون ما بعثتكم لأجله، يوم تحققون لي المهمة التي شرّفتكم بها مع مخلوقاتي الأخرى.

لنفتعل التصديق، على كلّ هل لنا خيار آخر؟

تواصل المعنويات انهيارها. يصرخ الذي يريد العودة إلى بيت أبيه: تخشبت قدمي من المشي، عُصت إلى الخاصرة في الثلج وفي الوحل، تمزقت أحشائي من الجوع، يبس حلقي ظمأ، انكسرت كتفي من الحمل، تشققت يداي من الحفر، جفت العرق من جسمي. كفى. ليواصل هذا الطريق اللعين طريقه دوني. خارت قواي. لن أتقدم خطوة أخرى. أوّل إضراب عامّ: الإضراب عن المشي، وليفعل الآخرون ما يأمرهم به جنونهم. ليسمح لي القارئ هنا بمشاركة المضرب الأوّل أوّل إضراب، وقد جُبلت على دعم كل المحتجين على تجاوزات السلطة ولو كانت أعلاها.

لا بدّ إذن للقصة أن تتواصل ولا بدّ أن أوصل السهر عليها بما أقدر، لا لشيء إلا لأنها تحوي في طياتها قصتي.

أهمس في أذن تفاحة: أفيقي، الأدمية بحاجة إلى إغاثة عاجلة

تفتح البنت عينها وفيها بريق التصميم كأن شيئا داخلها أدرك أن المهمة المقدسة في خطر وأنها قد تفشل حتى قبل أن تبدأ فعليا. تستيقظ تفيحه بدورها جاءها الوعي بحرج اللحظة.

- "با" ماذا يجب أن نفعل؟

- الأدميون في ورطة كبرى ولا بد من وقفة دعم حازمة. خذا بأيديهم كما تأخذان بيديّ لتجبراني على الركض والصرخ والرقص

يستيقظ المستكشفون من الغد وبهم جدل غريب.

- جاءني في المنام ملاك! جاءني في المنام ملاك!

- غريب. أنا أيضا!

- أنا المختار من بينكم، رأيت في المنام ملاكين لا واحدا.

- لا بل أنا المختار، تسلق ظهري الملاك الأصغر. أمرني وهو جالس على كتفي، صارخا ضاحكا ومُغنيا أن أجري به. أخذني الملاك الثاني من يدي قائلا وهو يضحك ويدعو الآخرين للركض وراءه: هيا لا تخافوا ولا تحزنوا، الليلة لكم موعد مع هدية ملكية ستغيّر حياتكم.

تصرخ تفاحة: القصة عندي أنا: تلك الليلة نزل الثلج كثيفا فقالت البنت الكبيرة لأبيها: يجب أن نجد حلاً فلا ترتجف، "ما من البرد ولا تبكي الطفلة الصغيرة التي تسكن معنا.

تصرخ تفيحه: أنتِ الباكية والبائلة، أما أنا فلا أبكي أبدا.

ثم تفجر باكياً لتقرر في نفس اللحظة أنه من الأفضل ألا تترك الكلمة لأختها وما على البكاء إلا الانتظار قليلا.

- "با"، إنها تتكلم طول الوقت ولا تترك لي قيادة القصة.

- هذه قصة يرويه أكثر من راوي. تكلمي. ماذا فعل الأدمي المسكين لكي يدفأ ويبعد أنياب الذئب؟

- خرج الرجل وابنته الصغرى -التي كانت المفضلة عنده كما يعلم الجميع- إلى الغابة للبحث عن الحطب والنار. أما الحطب فقد كان موجودا بكثرة وأما النار فلم تكن موجودة. فما كان من تفيحه إلا أن صلت لله ليعث بها فاستجاب لدعائها إذ زمجر الرعد ثم لمع البرق وضربت الصاعقة حزمة من حطب اشتعلت فيها النار، فهرع إليها "با" وأخذ منها عودا ملتهبا وعاد مع ابنته فرحا مسرورا ليشعل المدفأة.

- يا غبية، وكيف استطاع "با" من الغد أن يشعل النار؟ هل يجب أن يخرج كل مرة ينتظر الرعد والبرق.

- أنت الغبية وليس لديك قصة أحسن.

- بلى، إذن خرجت تفاحة مع "با" لتدلّه على مغارة اكتشفتها وهي تلعب، وكانت هذه المغارة عميقissime جدا لا يمكن الدخول إليها إلا زحفا على البطون. وكانت هذه المغارة في جوف الأرض والنار فيها دوما مشتعلة، فاستطاع "با" أن يأخذ جمرة منها وأن يضعها في إناء حملته تفاحة.

- يا غبية، وفي الطريق سقط المطر على جمرة تفاحة فانطفأت النار.

بعض العضّ الخفيف وشيء من جذب الشعر، وهو أمر تسهل السيطرة عليه من قبل قوة حفظ السلام، خلافا لما يحصل عندما تسمح الإمكانات لنفس الأطفال الشرسين بالترشق بصواريخ الغواصات الذرية.

من كان يتصور أن اكتشاف النار في هذا النصّ سيكون بمثل هذه الصعوبة؟

- أنا الذي أقود. وبعد أن اعتذرت تفيحه عن البلبل الذي أصاب جمرة تفاحة وقبّلت أختها الاعتذار وتصالحتا وانتهت المعركة مؤقتا، خرج آدم، ساخطا إلى الغابة يبحث عن النار. ما إن انقشعت السحب حتى وجد نفسه وجها لوجه مع علبة كيريت بحجم بيت وجانبها سيجار فاخر من نوع هافانا بطول شجرة سيكويلا.

تصرخ البنّتان بالاحتجاج الصاخب أن الأمور لا تقع هكذا. أطفالٌ يفهمون قاعدة كهذه وكهل يدّعي في العلم معرفةً وتغيّب عنه مثل هذه الأشياء!

- "با"، لا تغشّ.

بجدّ؛ ليس لديّ أدنى فكرة جديدة وطريقة بخصوص هذه المعضلة التاريخية التي كانت التحوّل الأول في الملحمة العظمى. ألا يقال إنه لولاها لما تجاوز الأدميون حدود إفريقيا مهدّ الجنس البشري، إذ من أين لهم غزو بلدان الصقيع والثلج وهم لا يملكون فرو الدبّ للصبر على ما لا يتحمّل من البرد.

كم من تصورات بخصوص اكتشاف هذه النار المباركة! ثمة التي تروي استعارتها من الصاعقة، من البركان، أو من بقايا حريق غابة.

ثمة قصة بروميثيوس الذي أخذته الشفقة بالأدمي فتصدّى لنصرة المظلوم وهو يرى القوى المبهمة المتحكمة في المصائر تعطي للكائنات الأخرى الحوافر والأنياب والأجنحة والفرو السميك والسرعة والخفة وكل متطلبات العيش وترفض له كل هذا، فقرّر من تلقاء نفسه مدّه بسرّ النار لترجيح الكفة وإعطاء المسكين بعض حظوظ البقاء... وهو ما كلفه العقاب الشهير.

هذه أيضا قصة يستحيل الاستيلاء عليها، حتى ولو أن النصّ لا يستنكف من حين لآخر عن استعمال قطع الغيار البالية.

ماذا لو توجّهت إلى المصدر الذي تناسسته القصص والنار آخر ما ينقصه: جهنّم نفسها وهي كما هو معروف موجودة في فضاء خيال جلّ الأدميين جنباً لجنب مع الجنة.

يتطلب هذا العودة إلى المناطق الخطيرة التي يخشاها الأدمي أكثر من أي شيء آخر. قد يُقبض عليه ويودع مباشرة في قسم المساجين ذوي الصبغة الخاصة والحال أنه لم يرتكب بعد كل الذنوب التي تؤهله للبقاء في جهنم هذه. أمّا أن تقولوني إنه دخلها وغافل كل الحراس ثم سرق النار وفرّ بها سالماً، فهذا سيناريو لا يقبله حتى عشاق أفلام هوليوود، فما بالك بقراء الرحلة وهم من عتاة المثقفين.

هنا يوكل الكاتب الأمر إلى القارئ ليكتشف هو كيف تحصل الأدمي على النار ومن أين سرقها. لماذا أتكلّف كل الجهد وأنت تتدلل عليّ فالقصة، قصّة الجميع. ما الذي يجعلني مسؤولاً عنها أكثر من حضرتك؟

المهمّ أن الأدمية مجتمعة الآن حول اللهب المقدس وكل حواسها مستنفرة لاستكشاف هذا الشيء الذي سيمكنها من التغلب على الحيوان على الخوف من قدوم الليل وعلى التفرز من اللحوم النيئة... الذي سيمكنها من ان تضرب في الأرض ذات الطول والعرض تستكشف كل تخفي وتستعرض.

تقترب تفاحة من النار وبها رهبة وانبهار لثوئيّ مُدبرة ترمي في أحضان “با”. يدفعها بمنتهى الرفق لتقترب مجدداً من النار. ترفض تفاحه أن تكون أقلّ شجاعة من أختها. تغامر بالخروج من حضان “ما” لتقف بجانب تفاحة تقرب يديها بحذر شديد من اللهب. تصرخان بالفرح وقد أحسنا أن النار تدفع عن الأصابع المتجمدة أما مستديماً، ثم ترقصان حول النار إلى أن تسقطا بين أحضان الوالدين هزمهما التعب اللذيذ. ليلتها نام حفنةً من الأدميين وآدم لأول مرة ملء الجفون، أبعثوا لبضع ساعات الخوف والجوع، والمساكين لا يعلمون كم هو طويل طريقهم وكم من المحن تنرصدهم في كل منعطف منه.

تعود تفاحة للصراخ: “با”، لماذا أنت صامت؟ نريد البقية، البقية، البقية!

تهزني “تفاحه” من كتفي: “با” استيقظ، نريد بقية القصة!!

القصة؟ أي قصة الذهن مشغول بسؤال واحد لا غير. لموصلة السرد يجب أن تكون لديّ فكرة عن هذا الذي خرجت الأدمية تبحث عنه: الخلود؟ العلم؟ الحكمة؟ المتعة الأزلية؟ الراحة الأبدية؟

كل هذا كان متوقفاً إلى درجة القرف في الجنة التي هربنا منها. ماذا إذن؟

**

وكيف أن الموت في أفضع أشكاله سيصبح رفيق الأدمية طوال الرحلة وهل الأمر عقاب أم ضرورة؟

من أين لي الزمن الكافي لأصف لكم حروب الأدميين؟ حروبهم على تلك الأنثى، على ذلك الذكر، على القطعة المتاخمة للغوط التي افتكها الورثة غير الشرعيين، على مساحة الصيد المخصصة للقبيلة والتي اعتدت عليها القبيلة الأخرى، على المكاسب والمغانم والأنفال والسبايا عشية الصدام الأخير مع أبناء العم، على مونوبول تجارة الحرير واللبن والعاج والعبيد والتوابل والمعادن والبتترول، على أراضي الدولة المجاورة التي تطمع فيها هذه الدولة أو تلك، على أحقية هذه الديانة وتلك الايدولوجيا بالنطق وحدها باسم الحقيقة المطلقة، على حدود الإمبراطورية العظمى التي لا تغرب الشمس عليها، على صراع مكونات نفس الشعب على السلطة والثروة والاعتبار... الخ... الخ... الخ كأنهم لا يعشقون شيئاً قدر الحرب.

هم يعدون لها أطفالهم باكراً، يحشون عقولهم بالتاريخ الكاذب منذ نعومة أظافرهم حول أمجاد أجدادهم، يقبّحون كل الذين لا يشبهونهم، يزينون القتل والموت من أجل الزعيم الأوحده والوطن المفدى والدين الحنيف. أصف لهذا حرصهم على تعهد مدارس مختصة بتعلم القتل على أوسع نطاق يسمونها اكاديميات عسكرية يدرّبون فيها شبابهم على السير كالخرفان والقفز كالقردة، والاختباء كالحرباء، والزحف كالثعابين، والافتراس كالكواسر. كم يحبون أيضاً إظهار استعداداتهم للمعركة أم المعارك. يومها خصّصت المدينة المغبرة أجمل شوارعها وأعرضها وأطولها للحفل فاصطفت على جانبي الطريق الجماهير المتشوقة لرائحة الدم.

على مرّ ساعتين تتابع آلاف من عارضي الأزياء القتالية يمشون وراء لعبهم في صفوف متلاحمة وهم أطفال بشوارب ولحي كبروا وكبرت معهم الألعاب واللعب. حقاً ثمة في عروض الأزياء الرجالية هيبه لا توجد في عروض الإناث. يبقى أنني أصبت بنوع من خيبة الأمل لما لاحظته من شبه معيب بأزياء أغلب الجيوش الأدمية الأخرى التي رأيت استعراضاتها من قبل على الشاشة البيضاء. إنها دوماً نفس الأزياء الركيكة التي لا تخرج عن نفس اللونين المملين: الأصفر البذيع والأخضر البليد. كأنّ دور الخياطة العسكرية في العالم أجمع أصبحت تعيد نسخ بعضها البعض ولم تعد لها قدرة على الطرافة والإبداع. واضح أن هذا القرن الذي يدعي التقدم على القرون الماضية، متخلف بالنسبة إليها في ميدان الموضة العسكرية. ما قيمة قماش رخيص خيطة به حتى أزياء كبار العارضين بالمقارنة مع جلود النمر والتماسيح التي كان أجدادنا يرتدونها؟ لحسن الحظّ أنقذ مخرج الاستعراض سمعته لدى كل ذواقة الاستعراضات العسكرية حيث وضع طلاب الاستشهاد على خيول أنيقة وألبسهم سترات حمراء وبنطلونات سود وعمائم خضراء وزودهم برماح زرقاء. كان كبار القوم-الذين حشرت بينهم خطأ-يتابعون المشهد من أعلى منصة وهم في حالة متقدمة من الانتفاخ والاعتزاز بالطواير الطويلة للمدركات المكلفة بالحفاظ على ممتلكاتهم، قل على سرقاتهم. البعض منهم كان يعيش نشوة شبيهة بنشوة الجنس وكأن الذكور بصدد مضاجعة الدبابات والإناث في أوج تمتعهم بمصّ الصواريخ. اختتم يومها الحفل بمشهد مؤثّر وأمّ الشعب بردائها المسمى "ساري" وشعرها الفاحم تشقّه خصلة من الشعر الأبيض، منتصبه على متن عربية مصقّحة مفتوحة تبارك أبناء نذرتهم قربانا لآلهة الحرب، يبادلونها تحيتها الصامتة بالتلويح بأيديهم كأن على رؤوسهم الطير... ولا أحد واع أنذاك أن المرأة - التي كانت تحمل ويا بسخرية الأقدار اسم أكبر مناهض للعنف في هذا العصر-ستسقط مضرّجة بدمها قربانا للبيع الذي تعيّد له ذلك اليوم. من أين لأحد أن ينكر أنه لا توجد ظاهرة صاحبت الأدميين منذ انطلاق ملحمتهم قدر الحرب يقودونها في كل الفضاءات يتعهدونها بكل ما أوتوا من عبقرية.

لقائل إن يقول توقف كفى تجنيا على البشر. هم لا يكرهون شيئاً قدر كرههم للحرب والدليل ... يصفرّ الربّ كربشنا على المحاربين ليتقاتلوا تحت بصره فيبقي السيف في الغمد. يومها قطّب جبينه باغته السؤال: بدأ الكفر حتى قبل بداية الدين؟

وفي هذه الأسطورة التي تضع ككل أساطير البشر أعمق المسائل الفلسفية في قالب شعري، يصرخ البطل أرجونا في ربّ لم يجد إلا ساحة معركة للتجلى: "لكنهم أساتذتي وآبائي وأجدادي وأبنائي وأحفادي وأعمامي وأصهاري وأقربائي الآخرين كلهم. كيف أقتلهم؟ إنني أرتعش وقلبي يفيض شفقة. لن أقتلهم أبداً ولو من أجل العوالم الثلاثة. لماذا أقتلهم؟ من أجل هذه الأرض التعيسة؟ يا إلهي أي غنم من قتل بني دهرينا اشترا؟ سنأثم لقتل هؤلاء البشر اليائسين". الأدمي واع إذن أن حروبه صراع اليد اليمنى ضدّ اليد اليسرى...صراع الأسنان واللسان في الفكّ الواحد!

يرفض الرب حجج أرجونا لأن للآلهة في مستوياتها رؤية أخرى لما هو معقول ومطلوب.

- "يصدر منك هذا أنت مرعب الأعداء؟ انفض عنك هذا التخنت المخجل".

يمرّ للتهديد.

- "إن لم تقاتل فستكون خائنا يقال عنه إنه جبان. إن ضياع الشرف للنبييل أفضع من الموت".

كيف نستغرب ألا يدخل الهندوس بيوتهم قصنهم المقدسة مكتفين بالقسم عليها في المحاكم وهي أكبر مشرّع للقتل ومحرّض عليه.

يتمسك أرجونا برأيه؛ عيره الرب بالخوف أم لم يعير.

- "أرشق سهمي في بهيشما ودرونا ولهما عليّ كم من فضل ومئة؟ أفضل أن يقتلني بنو دهيرشترا وأنا أعزل بلا مقاومة على ارتكاب هذه الموبقة".

الرب مجرباً الوعود البراقة.

- "إن متّ ستدخل الجنة وإن عشت ستملك الأرض".

يتمسك أرجونا برفضه مذكرا الرب بأنه لا زال كائنا عاقلا.

- "ألن تكون خسارة لا تعوّض. ألن ندمر سلالتنا، وبندمير سلالتنا ندمر تراثنا؟"

- "الأجسام للحكيم مظاهر زائلة، والنفوس لا تقتل، سيان لدى الحكيم الخير والشر".

موجة من الإشفاق. مجدداً تناقضاتي.

أصرخ في أرجونا: أفق إلى تناقضاته هو. إن كان سيان لديه القتل وعدم القتل، فلماذا يصرّ على دفعك لقتل الأحبة والأصحاب؟ إن كان على الحكيم أن يفعل الشيء من أجل الفعل دون انتظار الثواب فلماذا يطمعك بالجنة في العالم الآخر وبالمملكة في هذا العالم؟ أصغ إلى قلبك وإلى عقلك. لا تتحرك.

لم يبق للرب سوى التحريض الخسيس:

- "تغنّم لمن لا يستأهلون الغم".

أي تفسير لإصرار الرب على إفناء الأدميين؟ هل يس هو الآخر من إصلاحهم؟

يلتجئ إلى الجمل الرنانة يوافق بها ويزين مطلق الشر.

- "إنه الواجب. لا يرحّب الجندي بشيء قدر ترحيبه بالقيام بواجبه في حرب عادلة".

يتكئف صمت أرجونا ثم:

يدخل المعركة متجهما (لاوتسو)

حزينا، القلب يطفح شفقة

كما لو كان ذاهبا لتقديم العزاء.

لنتفحص المعركة التي يدخلها أرجونا منذ بداية التاريخ "حزينا القلب يطفح شفقة" لا يغرنا لا حزنه ولا شففته.

وفي مثل هذه المآتم الصاخبة التي تعترى الأدميين دوريا تراهم يرتكبون أفعالا ما كنت تصدق أن بوسع جيرائك الطبيين

ارتكابها مثل سحق الرؤوس وسمل العيون واقتلاع الضلوع وبقر البطون وفتح الصدور وتقطيع الأطراف واستئصال

الأمعاء والذبح والسحق والقطع والحق بالسموم والصعق بالكهرباء والرمي من الطائرة وفي فرن القاطرة وتحت عجلات

الدبابات، ناهيك عن إخراج الرفات لحرق الأعداء حتى وهم أموات؟

في سجلّ الفضاءات "الطريفة" ثمة قطع الأعضاء التناسلية بعد قطع الرؤوس: اختراع نارمر أول فرعون.

ثمة أيضا حقن سجناء الحرب بالجراثيم ثم ذبحهم والقفز فوق أجسادهم لاستخراج آخر قطرة دم لصنع قنابل بيولوجية:

اختراع باحث علمي من القرن العشرين اسمه "إيشا".

جولة بين الجثث التي راكمتها الحروب على مر التاريخ، ويقال إنه لو وضعت الواحدة وراء الأخرى لرسمت خطأ يصل

الأرض بالقمر.

تمعنّ معي في كل هذه الأجساد المشوهة العارية الطافية فوق أمواج من الدماء وتذكر كم من حلاقين وخياطين ونساجين

وصناع مجوهرات وطارين وعباقرة جراحة تجميلية وموضة عملوا على تحسين الواجهة الخارجية للأدمي... وانظر

النتيجة! أيضا كم من آباء وأمهات ومرشدين ووعاظ وإصلاحيين وثور وأنبياء وكل من عملوا على تحسين الأدمية

... وانظر النتيجة! بالله عليك، أليس من الطبيعي أن يشعر المرء بالعار لانتمائه للأدمية كما يخجل من به شمم أنه لقيط

ثمره خطيئة عاهرة وسفاح؟

كم يدهشني أنني بلغت هذا العمر ولا زلت حيا يرزق والحرب تزار حولي في كل مكان. كيف لا أشعر كم أنا محظوظ وقد هاجم الخيالة برماهم مضارب قومي لكن في زمن غير زمني... وقد سقطت بقربي أطنان من القنابل لم تنفجر إلا في جهاز يسمونه "التلفاز" بينما مرّقت ولا تزال تمرّق كل يوم أجساد مساكين وجدوا في الزمان الذي لا يجب وفي المكان الذي ما كان عليهم أن يكونوا فيه.

فعل الأفعال! أليكون قاتل، قتل الآخرين وقتل نفسه بكل الوسائل التي تتبارى وتزايد على بعضها البعض في

الفضاعة والوحشي فعلنا الأول نحن وبقية الكائنات الحية الأخرى حتى وإن كنا أقطعها في فنون القتل؟

لنبدأ بتصنيف الفرضيات في محاولة يائسة لفهم أخطر ما يفعله الأدميون ابان رحلتهم في هذا العالم.

ماذا لو كانت الحرب هي الشيء الذي ركض الأدميون في مشارق الأرض ومغاربها بحثا عنه؟

قبل المسارعة بالاحتجاج والاستنكار، لننتفخ الفرضية بكل هدوء ودون أحكام مسبقة.

من البديهي أنهم لم يفروا من الجنة إلا بحثا عن شيء جد ضروري. أليس هذا سبب كل الهجرات الجماعية والفردية على

مرّ العصور وإن اختلفت طبيعة المبحوث عنه المطلوب لتلبية حاجيات ماسّة؟

طبعا كل شيء كان متوفرا في الجنة بما أنها الجنة باستثناء الحرب بما هي حمالة كل المصائب والالام التي لم توجد هذه

الجنة إلا للشفاء منها وتلافيها.

لكن لأي هدف يضحي البشر بحياتهم بمثل هذه الأعداد وفي مثل الظروف الرهيبة للحرب؟

تقول أحدث الروايات عن الثلاثمائة ألف سنة الأخيرة التي تعتبرها اليوم مدة تاريخ الانسان، أن البشر تحركوا في هذا

العالم جل هذه الفترة جماعات قليلة متفرقة تائهة في فضاء يبدو لا متناها يركضون وراء الصيد أو يفرون من أنياب

الكواسر والجفاف... ثم انهم في العشرة آلاف سنة الأخيرة تقريبا استقروا حول كبرى الأنهار في مخيمات وقتية أصبحت

قرى... ثم أن قرى القش والطين هذه تحولت مدنا صغرى... ثم أن هذه المدن بعد بسطها سلطتها على الأرياف المحيطة بها

تحولت إلى امارات... ثم أن الامارات تحولت إلى ممالك... ثم ان الممالك تحولت الى امبراطوريات.

ما يرصد التاريخ منذ بادئا تدوينه أن المدن الأولى بقيت لمئات السنين دون أسوار ثم فجأة ظهرت الأسوار والخنادق تحيط

بها احاطة السوار بالمعصم.

ما الذي حصل؟ ظهور الحرب طبعا وانتشارها ثم دخولها عالم الانسان كعنصر قار من حاضره ومن مستقبله.

قدر كل مدينة بالأسوار وبدونها، كل دولة، كل امبراطورية أن تنشأ بالحرب وان تنتهي بها.

لا تنهض قرطاج إلا لتحرقها روما. لا تنتصب روما سيدة للعالم إلا ليدهرها برايرة الشمال. لا تسود بغداد إلا ليذبح سكانها

هولاكو... والحيل على الجرار إلى اليوم ولا أحد يتجاسر على التكبير في فضاة وتكلفة حروب المستقبل.

حتى آداب البشر وفنونهم وأديانهم طرق عيشتهم هي من أسباب أو نتائج للحرب التي لا تضع أوزارها بين الأجساد إلا

لنتواصل في العقول وفي القلوب.

كانّ السلام مجرد مرحلة يستريح فيها الأدميون من احوال الحرب الفارطة ويستعدون فيها للحرب القادمة وهي القابلة

المكلفة بولادة طفل ثمين ولو بنهاية ام المولود.

نعم ، كيف يمكن تفسير ظاهرة بمثل هذه الفضاة والتكلفة والدوام على مرّ التاريخ؟

داخل الكيانات السياسية المؤقتة مهما طال عمرها، تطورت تقنيات اشباع الحاجات المادية من فلاحه ورعي وصناعة

وتجارة مثلما تطورت أيضا تقنيات اشباح الحاجيات المعنوية من اساطير وأديان وعلوم وتكنولوجيا.

كان وراء العملية أمر لا يعصى: مزيد التكاثر من التعقيد من الترابط...ومن التجديد.

كيف يكون التجديد بما هو فعل جذري وشامل بغير تدمير الموجود من القديم البالي وهل ثمة طريقة أنجع وأسرع من

الحرب؟

طيب، لكن ما أهمية التجديد حتى نقبل بالحرب تكلفة له؟ طبعا تواصل الخلق. ألسنا في عالم نعرف أنه ليس معطى وإنما

مشروع والمشروع لا يكون إلا بتواصل الخلق. هل ثمة خلق لا يسبقه التدمير؟

نعم ولكن ...

ما نسبة التبرير في مثل هذا التفسير والأدمي لا يرضى إلا بالمعنى يضيفه على كل ظواهر العالم خوفا أن تكون

عبثا في عبث؟ ماذا لو كان التجديد لا يعني التطور والتحسن وإنما فقط التغيير وهل يستأهل التغيير كل هذه الدماء

والدموع؟

ثمة فرضية ثانية تتناول الإشكالية من زاوية الفرد.

استمع للصراخ المتعالي من أرجاء ساحة الوغى-كما يسمونها -وقد اختلط سهيل الخيل بقعقة السيوف، بدوي المدافع، بزمجرة الطائرات، بانفجار الصواريخ بهتافات تحيا أمتنا العظيمة، يحيا ملكنا المفدى، يحيا دين الحق، يحيا جيشنا الأبي وحتى - ايه والله - يحيا الموت.

تأمل كل هذه الحيوية والأدميون ينقضون على بعضهم البعض بالرماح، بالبنادق، برجمات الصواريخ، بالهراوات، بحاملات الطائرات، بسكاكين المطبخ، بالكتاب الأحمر والأخضر والأزرق، ببقباب الحمام، بالحجارة المدببة، باليدين العاريتين وبالأظافر والأسنان.

بيني وبينك أليس الموت وسط هذا الديكور الفخم أجدر بالأدمي من انهاء رحلته على فراش مستشفى عائما في العرق والبول؟

بيني وبينك دوما، هل ثمة أقدر من الحرب على اعتصار أعمق الأحاسيس والمشاعر وأقصى درجات الانتباه لعالم أروع ما فيه خطره؟

نفس الشيء مع الصياد وقد شحذت هرولته وراء الطريدة كل طاقات حواسه الخمس غفر له العالم كل تبأده العادي.

هل ثمة حالة يدرك فيها الأدمي كم هي ثمينة حياته أعمق من التي يعيش وهو بين المخالب والأنياب؟ لنقل إذن بانتظار تطور القصة أن تجربة الوجود لا تصل أعلى درجة الحدة والصفاء إلا وهي وجها لوجه مع كل الأسباب التي تهدد بإنهاء هذا الوجود...مما يعني أننا نبحث عن الحرب ككل المغامرين الذين ينطلقون بحثا عن أفسى المتاعب بحثا عن توهج تجربة الوجود وهي تراقص الموت في أفسى مظاهره.

إلى حد الآن نظرنا للموضوع من وجهة نظر الفرد، لكن الحرب قتل بالجملة أي مسألة تهم البشرية ككل.

ثمة إذن قراءة أخرى للظاهرة. يجب البحث لجذور الحرب خارج الذات تحديدا في تاريخ تغريبه البشر. المستوى الأخير للإشكالية المرعبة.

حتى ولو كانت من منافع لحرب على الصعيد الفردي دفع تجربة الوجود لذروتها وعلى الصعيد الجماعي تجديد البالي ومواصلة عملية الخلق.... ماذا لو كان مجيء الأدميين أكبر كارثة عرفها العالم وهم يلوثون جماله ويدمرون جلّ الأجناس الحية الأخرى التي تعيش فيه بعنف لم يعرف له من قبل مثيلا؟

**

وكيف تأتي الأدمية رغبة إنهاء الرحلة علما وأن العالم الذي ضاق بها ذرعا لا يرى مانعا في الأمر.

يتجدد الصراخ على المقعد الخلفي للسيارة. سيكون الرجوع من المدرسة بالقطنتين الشرستين امتحانا عسيرا لأعصاب لا ينقصها التوتر. لأفتعل اللامبالاة فالصراع غالبا عملية مسرحية لا تتواصل إلا باهتمام المشاهد. كم من حروب كانت تتوقف سريعا بغياب المتفرجين أو بتصاعد تناؤبهم.

حتى هذا لا ينهي الخصومة. يجب إيقاف السيارة والتدخل بشيء من الضرب الخفيف في مستوى أماكن مكتنزة من أسفل الظهر محمية بالمعطف الغليظ.

- والآن هل من الممكن أن أعرف سبب المشاجرة؟

تشهق تفيحه بالدمع:

- قلت لها كم من مرة أن تنظر من نافذتها، فلها نافذة بجانبها هي الأخرى. لكنها تصرّ على أن تنظر من نافذتي أنا. أريد نافذتي لي وحدي.

تصرخ تفاحة تشهق بالدمع:

- بل هي التي تنظر من نافذتي وأكثر من هذا، إنها تدير ظهرها لنافذتها، لا تريد إلا النظر من نافذتي.

أليست أغلب المشاكل التي يحفل بها التلفزيون كل ليلة نتيجة أن الرئيس زيدا غضب من الملك عمرو فجهز الجيوش وبعث بحاملة طائرات مكنتزة بصواريخ عابرة للقارات لتدمير مئذنه عقابا لأنه نظر من نافذته بدل أن يكتفي بالنظر من أكثر من نافذة في بيته؟

- انظرا فقط أمامكما. ممنوع النظر من النوافذ الجانبية.

لا وهم لي حول مباراة العيون خلف ظهري وتواصل نظرات الاستفزاز والتحدّي والعدوان المبيّت على نافذة الأخت الأخرى. وعند فتح باب السيارة أجد تفاحة واضعة ذراعها على حافة نافذتها لمنع كل عدوان عليها وتفيحة تعتنم فرصة إدارة أختها لها الظهر لكي تخرج لها لسانها.

مشاعر متداخلة فيها التهكم وبراعم القرف وخاصة الكثير من نفاذ الصبر.

من أين لي تحمّل المزيد من صراعات البشر وهي لا تتوقف داخل هذه السيارة، داخل العائلة الواحدة، في المستشفى، في الجامعة، في كل مؤسسة تجمع أكثر من شخصين، في الحي، في الوطن، في العالم بأسره.

من حسن الحظّ أنهم لم يصلوا المريخ وإلا لكانت أهم ما في نشرات الأخبار حروبهم بين الكواكب.

أخيرا الليلُ ووقت الرحيل إلى الضفة الأخرى من العالم.

تصرخ البنّتان وهم تقفزان على السرير: القصة، القصة، القصة، البقية ن البقية!

- قصة؟ بعد كل ما أظهرت ما طيلة السفارة من سلطة لسان! انتهى كل شيء بيننا وإلى الأبد. على كل حال الدور ليس عليّ، أعتقد أنه على تفيحه شريطة أن تكف عن الرقص على السرير.

- تفيحه لا تعرف شيئا، "با"، أنت من يقود القصة وأنا بعدك.

إذن وفي إحدى أهم فصول روايتي الخاصة جدا لقصة القصص، يتداعى كل آلهة البشرية لاجتماع خارق للعادة بعد أن أمضى الثلثان القانونيان عريضة استدعاء المكتب السياسي للنظر في شكوى ضدّ تواصل التجربة الأدمية.

ينطلق النقاش بصرخة غاضبة من إينتي كبير آلهة الأنكا.

- يا لهذا الكاتب الغبي! كدنا أن نخلص من هذه القصة، لكن توأطؤه المخفي بمهارة مع أبناء جنسه جعله يراوغ في الإسراع بخاتمة يبدو أنه كان يترجأها بقدر ما كان يخشاها. حتى كريشنا مصدوم من موقفه. أليس كذلك يا ربّ كريشنا أنت الذي كنت أول من أوصى بالحلّ النهائي لهذه التجربة الكارثية؟

- أنا أردت نهاية الأدميين! أنت متأكد؟ بصراحة أنا من المعجبين بقدرة هذه الكائنات على التأقلم مع كل المصائب التي نسلطها عليها. لا نرميهم بقرون من الجفاف أو من الصقيع إلا ووجدوا حلا بل وكان هذه المصائب محرك تطورها من الحسن إلى الأحسن.

- كم فيك من تناقضات يا زميل. ألم تقل ذات سهرة غير بعيدة إن الصدى انتبه إلى الغلطة التي ارتكبها وهو يشاهد تقدم الأدمية في ملكوته وهي كفك رهيب بصدد النهام الجبال والصحاري والغابات، بصدد شرب مياه الأنهار والبحار والمحيطات، بصدد نهش الشموس والمجرات؟ ألم توحى بأنه بدأ بمراجعة حساباته خوفا من إفلات التجربة من كل تحكّم، إنه فهم أخيرا أن آدم ينوي أن يكون صانع العالم لا صنيعته، مالكة لا مملوكة.

يتدخلّ زوس بقوة:

- حقًا لم يعد من الممكن مواصلة السكوت على الدمار الهائل الذي تُلحقه هذه الأدمية اللعينة بالحديقة المقدسة. هل رأيتم هذه الوقاحة والعجرفة والقسوة في التعامل مع كل الكائنات التي شاء حظُّها العائر أن يضعها على طريقها؟ قلتها وأرددها أكثر من أي وقت مضى: لا لهذه التجربة، الأدمي كائنٌ لا يُصلح ولا يُصلح.

نعم كم من غابات حرق الأدمي ودمر واستأصل من جذورها! كم من أجناس حية أنزل واسترق وأباد قتلا بالهراوات، بالسهام، بالسكاكين ببنادق الصيد والمبيدات الحبيوية! كم اصطاد وذبح وسلخ وشوى والتهم وتبرّز من كائنات ضعيفة! لكن أيضا كم كان ولا يزال طريدة الكواسر المجهرية التي حصدها بالملايين عبر العصور يجرب منها كل طيف الرعب والعجز والألم. مجرم لا جدال في ذلك، ضحية بما لا شك فيه.

ينفجر بعلى ضاحكا:

- آه الآن انتبهتم للكارثة! أما أنا فمُنْتَبِه منذ ظهور الأعراض الأولى، لذلك فجرت على رؤوسهم بركان "توبا". للأسف قدرة هؤلاء الملاعين على الصمود أمام كل الكوارث أمر مذهل.

تصرخ إيزيس في وجه بعلى:

- أنت سبب تلك الكارثة العظمى التي أبادت كمًا هائلا من الأجناس البريئة وأخفقت في استئصال هذه الكائنات التعيسة! يصرخ أمون-رع:

- لا، لا، كلكم تبالغون في التجنّي على جنس بالغ الطرافة.

يلتفت إليه الجميع بالاحتجاج الصاخب:

- كيف؟ نسيت ما قلته في سهرتنا عند اللآات والعزى، أن هؤلاء البشر لا يدخلون قارة إلا وأفنوا ما فيها من حيوان ونبات، أنهم وباء عالم يريد الشفاء منهم.

يرفع شيفا يده بوقار طالبا الكلمة:

تعالوا نفكر معا ولنتكاتف جهودنا لحلّ نهائي هذه المرّة.

- أي حلّ؟

- إغراقهم بالطوفان.

يتدخل ووطان بالعنف المعروف للآلهة الإسكندنافية:

- نعم لنغرق الكوكب كله حتى لا نترك فرصة لمختبئ في جزيرة نائية أو غابة كثيفة كما حصل بعد انفجار "توبا".

تسارع آتينا بالموافقة:

- أنا مع هذا القرار، إضافة إلى كون هذا الحلّ يوفر الروائح الكريهة ومن جهة أخرى يسمح بتوسيع المجال الحيوي للدلافين والحيتان وخاصة لسمك السردين، فكل الدلائل ترشحه، هو لا غيره، ليكون الرهان الناجح هذه المرّة.

خطة ممتازة تحظى بتقّي التامة ومباركتي وصلواتي.

المشكلة هذا اللعين إينكي. ها هو يطلب الكلمة:

[تلخيص المرافعة التعيسة]

“أيتها الآلهة والآلهات، حضرات الزميلات والزملاء: كما تعلمون، التجربة لم تأخذ الوقت الكافي ليجوز فيها أي حكم نهائي، حيث لهذا الجنس -مثل بقية الأجناس الحية الأخرى- الحق في خمسة ملايين سنة القانونية.

ثم إن قضينا الآن على الأدمية فيماذا نعوّضها؟ لنتركها تستنفد وقتها القانوني ونُعدّ المكان للوريث. بخصوص الأجناس التي يتحسّر عليها لسان الدفاع، أليس قانوننا أن كل جنس ينقرض يستأهل الانقراض؟ وعلى كلّ أدركم أن هذه تجربة يراقبها الصدى لا غير، وهو لم يعط أمرا بإيقافها.”

يتعالى صراخ الآلهة خاصة رؤساء أقسام الأجناس المهتدة بالانقراض، وهو ما قد يحيلهم إلى التقاعد المبكر ويقلل من سلطاتهم داخل المجلس الموقر. في الأخير يتفق الجميع على الحسم بالتصويت.

لا يحصل إينكي إلا على صوته ويتحوّل النقاش مباشرة للتفاصيل العملية.

يخرج غاضبا ومقتنعا أن المجلس بحاجة إلى تطهير واسع لأن المصالح الضيقة بدأت تطغى على المصالح الكبرى.

على كلّ هو قرّر عدم الامتثال للقرار رغم شرعيته وديمقراطيته.

بل هو خطّط لكل التفاصيل حتى لا تتجج خطة زملائه غير الأعزّاء.

“ولما عزّمت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان (نصّ حفریات)

أراد الإله إينكي إنقاذ الأدمية

فاختار زيوسدرا الملك

وعلمه بناء السفن ليحمي حياة الإنسان

ويقيم في أرض العبور

أرض دلمون حيث تشرق الشمس".

يصرخ إينكي في الأدمي الذكر أن يعجل بالعمل وأن يكف عن الشجار مع أئنائه قابلا بكل ما تريد حمله من عفش يعرف أنه غير ضروري. أخيرا يصبح زيوسدرا جاهزا للإبحار مع حواء وكل ما استطاع شحنه من كائنات حية اغتمت الفرصة للنجاة من طوفان لم تكن تفهم لماذا يشملها وهي بريئة من مشاكل الأدميين، بل وهي أولى ضحاياهم.

تصرخ تفاحة: "با"، هذه قصة نوح!

كيف أفسر لبنت في هذا العمر دون أن أثير فيها غريزة السرقة -بل وأشرعها- أن البشر لا يسطون فقط على بلدان وبنوك ونصوص وآثار وزوجات وأزواج بعضهم، وإنما أيضا على أساطيرهم وآلهتهم.

تصرخ تفاحة فجأة:

- "با"، ما اسم سفينة نوح؟

- يا بنت متى ستكفين عن إلقاء أسئلة لا جواب لها؟

تصرخ تفاحة:

- اسمها تيتانيك، "ما" حكى لي القصة.

- أنا أيضا حكى لي "ما" القصة وأعرف اسم السفينة وليست تفاحة وحدها التي تعرف.

- كفى شجارا فالأدمية المسكينة تحت الطوفان والسفينة لم تكتمل بعد.

وفي مواصلي للرواية بعد ادماج قصص الحاضر في أساطير الماضي، تنتهي الأشغال ويبحر كل من بقي على قيد الحياة وتبدأ السفينة في تسلق الموج والسقوط في هاوية تبدو بلا قرار.

جميل أن تطفو هذه السفينة والأجمل أن ترسو في مكان ما يكون حقا أرض الميعاد وفيها ما خرج الأدمي بحثا عنه.

في الأثناء كيف مقاومة الدوار وتفادي الارتطام بالسقف، والسفينة تقفز إلى السماء، وكيف تفادي الارتطام بالقاع وهي تتهاوى إلى الأعماق. الغريب أن يطالبك الناس، وأن تطالب نفسك بتصويب الرمح نحو هدف لا يثبت على وضع، أن تلوم نفسك على كثرة الإخفاق والحال أن العالم لا يتوقف عن مباعثك بحركة لم تكن في الحسبان.

لأول مرة تفكر حواء في الانتحار، عافت الدوار وملت مشاكل لا ولن تنتهي واهترأت أعصابها وبئست من الوصول إلى أي برّ أمان. نعم، حان وقت التخلّص من هذا الأرق المليء بالكوابيس الذي نسميه "الحياة"، وما على آدم إلا أن يتبعها في اليمّ أو أن يجرب خلق حواء أخرى من عظم الساق.

من أدري مني أن هذه الأثى تمثل علينا وعلى نفسها، أنها ستتدبر أمرها، إن أقدمت على الأمر فعلا، لتكون العملية مجرد انتحار خفيف لا تبعات له سوى تسميم ليلة طبيب الحراسة.

ككل انتحار أنثوي خفيف لا بد له من إخراج جيد. تنتظر قبل افتعال رمي نفسها في أمواج المحيط المظلم، أن تخترق أشعة القمر كثافة السحب ليراها آدم فيقترب منها وهي تفعل عدم الانتباه.

أصرخ فيها: هيا خلصينا، اقفزي؛ فترمقني بنظرة سوداء.

حقا لا أفهم كيف أحبّتي "ما" طول حياتها ولا أتحدّث عن "ح"؟

البنتان بصوت واحد متثاقل: "با"، لا نحبك إذا واصلت هكذا. ثم ترحلان إلى الضفة الأخرى للعالم.

يمكنني أن أوصل القصة لنفسى غير متيقن حتى الآن إلى أين أريد الوصول بها.

إذن تنفّس "إينكي" الصعداء وهو يشاهد تراجع حواء عن فكرة الانتحار وبقاء الباخرة طافية على أمواج المحيط رغم قلة خبرة الربان. كل الأمور على ما يرام. كيف لا والصدى يدعم خطّه حتى ولو فضّل البقاء وراء الستار.

المسكين غير واع بما يحاك في الخفاء وقد دعا خصومه من صغار الآلهة -ومن بينهم عدد لا بأس به من الانقلابيين- إلى اجتماع طارئ بنقطة واحدة في جدول الأعمال: تحرير بطاقة جلب ضد المتمرد وإحالاته على المحاكمة، وخاصة مواصلة تنفيذ ما وقع الاتفاق عليه.

ومما أسرت به كالي في أذن أفروديت بعد نهاية الاجتماع الطارئ:

- مسكين إينكي، لا شك أنه يحلم هذه اللحظة بحمامة تطير من السفينة بحثا عن الأرض الصلبة التي ستصلها السفينة. آه لو يعرف ماذا أعدنا له؟

ينقضّ جبل من جليد من الظلام ليغرس خنجره الأبيض في جنب سفينة نجاة الأدمية. ها هي تغوص في الأعماق وقد أصبحت التابوت والمحيط هو المقبرة.

هل يُعقل أن تموت حواء في اللحظة التي اقتنعت فيها بضرورة الحياة؟ وأدم المسكين الذي لا يعرف السباحة! ثم ماذا عن الحيوانات البريئة؟

أشعر بيد تقاحة على ذراعي وبضغط ينذر بتصاعد الرهبة داخل حلمها وحلمي.
يمسك آدم بشعر حواء يجزّها إلى الخشبة التي يمتطيها صارخا كالمجنون: البنتان، البنتان؟ ترفع تفيحه عقيرتها بالصراخ وهي على خشبة أخرى وسط المحيط المظلم. من أين لأحد أن يسمع لها صوتا وصخب الموج على أشده؟ تقاحة الآن تسبح بهدوء وتركيز تصارع الموج تبحث عن أختها. أي حياة دون تفيحه؟ يصرخ أحد الآلهة في زملائه المنكبين على متابعة الوضع باستغراب متزايد.

- انظروا إلى البنت! اللعنة على هؤلاء الأدميين، إنهم يقاومون إلى آخر نفس.

هل يكون فعل الأفعال: قاوم، تحدّى، أصرّ، تمسك، تشبّث بالحياة؟

تتضرّع حواء للمبهم المطلق: أعطنا فرصة أخرى. سنُنجح المهمة هذه المرّة وسنعود لك بهذا الذي بعثتنا نبحت عنه.

إينكي على زورقه يجدف ببطء شديد متحسّسا طريقه في الظلام الدامس.

تصرخ فيه تقاحة: انظر يا إينكي إلى يسارك، تفيحه على مرمى مجداف، إلى اليمين قليلا. هكذا، نعم هكذا، والآن ترفّق في جذبها وغطّها بسرعة؛ إنها تموت بردا، لا تنس إيتي وإلا سترفض الصعود. والآن جاء دور "با"، ثم "ما"، ثم بقية الكائنات

وأنا آخر من تصعد في الزورق. "با"، انظر لقد جعلتُ زورق الإنقاذ يصل في الوقت وينتشل الجميع؟ ألسنّ رائعة؟

بل أنتِ أروع من رائعة يا حبوبيتي. أنت الحياة لا شيء آخر. برافو لك وللرب إينكي.

كأنّ صبرك نفذ من هذا النص ومن تناقضاته المفضوحة.

مهلا يا صاحبي، كيف يمكن البتّ في عقدة قصة القصص والأدمية منذ انبثاقها مقسّمة بين إغراء لا يقاوم للوجود وحنين جارف للعدم.

**

واحات استرجاع القوى قبل العودة للجري وراء المهمة المجهولة.

تستيقظ تفجحه باكية، تفرك عينيها باحثة بعصبية عن دميتها إيتي.

- "با"، حملت حلما مرعبا... ظلام ومياه سوداء وسرير مستشفى وأنت جالس حذوه تبكي... "با"، دثرتني.

تكفت عن الارتعاش. تستعيد حيويتها، عادت إليها الطمأنينة وهي بين الأحضان الدافئة.

تندخل تفاحة بحزم:

- لن يكون في قصتنا إلا "كثيييير" من اللعب والفرح. أنا أقود ولا أحد يقاطعني وإلا هربت بالقصة إلى غرفتي.

قصة الأدمية في هذا الوجه الآخر من العالم أو قل قل طوال حالة هدوء عابرة لم يعد يلاعبنا فيه لعبة القط بالفأر وسنسميها الحالة المباركة.

يجمع الحبّ كائنين رقيقين يمزجان روحهما وجسدهما يفتحان وهما في ذروة النشوة طريق الحجّ للحجّ الجديد والشاعر كالعادة هو الشاهد على الليلة القدسية.

في ليالٍ كنمت سرّ الهوى	بالدجى لولا شمسُ الغرر	(لسان الدين بن الخطيب)
مال نجم الكأس فيها وهوى	مستقيم السير سعد الأثر	
وطرّ ما فيه من عيب سوى	أنه مرّ كلّمح البصر	
حين لَدّ الأُنسُ شيناً أو كما	هجم الصبحُ هجوم الحرس	
غارت الشهبُ بنا أو رُبّما	أثرت فينا عيون النرجس	
ساحرُ المقلة معسولُ اللّمي	جال في النفس مجالُ النَّفس	
سدّد السهم وسمّى ورمى	ففؤادي نُهبه المقترس	

وفي هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة هذه- يتكوّر بطن حواء شينا فشيناً فيتعلّم آدم عادة جديدة لن تفارقه إلى يوم خروج الطفل الموعود: متابعة دقائق القلب وأذنه على البطن المنتفخ، وحواء واضعة راحتها على شعره منتبهة أنه بحاجة أكيدة إلى مقصّ الحلاق.

تأمره بإعداد القهوة لأنه يتنجح دوماً أنه يطبخها أحسن منها، فيعدّها وهي عاكفة على خياطة وشاح للرضيع حتى لا يبرد يوم تجره فخورة إلى الحديقة وهو في أولى خطواته على الطريق.

ثم ينتقلان من المطبخ للجلوس تحت عريشة العنب يرتشفان القهوة، فتمدح قهوته معترفة أنها أحسن قهوة ذاقتها. يفتعل التواضع يستحثها بخبث على مواصلة المديح، فتعطيها ما يريد وبعض القبلات زيادة، ثم تنهض لتعلق الغسيل على الشريط، تفكّر في كل الأشياء التي يجب إعدادها لمجيء الطفل المبارك.

وفي هذا العالم -بل قل: طوال حالته المباركة هذه- يدفع آدم محراثه يُخصّب الأرض السوداء ليحصد ما زرع، راضيا عن نفسه وعن سنابل القمح.

ينحني أمام الخبز الساخن الذي جادت به الأرض -الأمّ شاكرا حامدا.

يدخل إلى الإسطبل يمسح بعطف على ظهر البقرة الوالدة يهنئها، يشكرها ويعدها ألا يأكل أحد لحمها ولا لحم مولودها. تصل تفاحة وتفيحه إلى العالم وهو في حالته المباركة هذه لا يعرف غيرها، والوصول كلّ مرّة مثل حطّ الفراش على عشب الصباح.

-تفاحة: ذات صباح والشمس تطل من وراء سحب لطيف، أرادت الطفلتان الخروج للنزهة والجري وراء الفراش بالقرب من جدول صغير لم تكن فيه حجارة ملساء واحدة. لكن "ما" قالت: ليس الآن، فلا بدّ من طبخ الكعكة في الفرن وأنا بحاجة إليكما. فصرختا لا، لا. نريد الخروج الآن. فقالت "ما": "إذن خذا "با" معكما فهو سيزعجني إن بقي يتفرّج في إعدادي الكعكة وسيزعجني أكثر إن حاول إعانتي. والآن هيا كلكم، جميعا خارج المطبخ، لا أريد أيا منكم بين رجليّ قبل أن أدعوكم إلى الحضور. آنذاك لا يتلگأ أحد فالكعكة لا تؤكل إلا ساخنة.

-تفيحه: ما هي إلا دقائق معدودة حتّى غابت الطفلتان عن الأنظار وهما تركضان لكن "با" رفض الجري معهما هذه المرة لأنه كان متعبا من كثرة العمل، فجلس بين الأعشاب حذو الجدول الرقراق متكنا على جذع شجرة يصرخ: لا تذهبا بعيدا وإلا فسناكل الكعكة باردة وستحتج علينا "ما". "با"، يمكنك أن تقود القصة قليلا. لا تنس تحذيراتنا وإلا نسحب منك الكلمة.

لا خوف من أي انزلاق وأنا أسكن الآن الوجه المضيء من العالم، ذلك الذي نعيش فيه أرواح الأحاسيس والمشاعر وتأتيها فيه أروع الأفكار.

إذن كان آدم لا يريد شيئاً غير التمتع برؤية تفاحة تمرح بين الأزهار وتفيحة جاثية على ركبتيها تتأمل مندهشة كأننا لا زالت لا تعرف له اسماً في غير عجلة من أمره.

رويدا رويدا (إيسا)

تسلق جبل الفوجي

أيها الحلزون.

تفاحة وهي تهزّ والدها بلطف: "باب"، ارتفع شخيرك، انظر إلى الإكليل الذي صنعته لتفичه. الآن أنت الذي ستصنع لي إكليلاً. هيهات أن تخلص من إزعاج الأطفال حتى في هذا الوجه من العالم. هل من خيار آخر غير النهوض منتاقلاً لجمع الزهور أنتقيها بكل عناية، أنظّمها في دائرة أضعها على الشعر الفاحم. أدور حول الطفلة جاثياً على ركبتي أعدّل من وضعها. - هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفичه ولية عهدها.

تصرخ تفичه وهي في قمة الجذل:

- المطر... المطر... المطر!

ترفع البنتان عقيرتهما: "أنا أغني تحت المطر..."

- تغنيان دون شمسية! لكن البطل لا يغني في الفيلم إلا وهو يراقص شمسيته.

تلتقط تفичه عُود خشبٍ ترفعه فوق رأسها. نرقص ثلاثتنا تحت المطر والكَلّ مشغول بالشمسية دفاعاً عنها وافتكاكاً.

تنتبه تفичه للأوامر القادمة من بعيد.

- "ما"، تنادينا. عَجَلًا.

تنتبه تفاحة لأمرٍ قد تترتب عليه بعض العواقب المزعجة. ترفع إصبع التحذير:

- انظر إلى بنطلونك عند الركبتين. أصبح أخضر من فرط الاحتكاك بالعشب، ستخاصمك "ما". لا داعي لتتفطن للأمر.

تضع الأصبع بين أسنانها مستغرقة في التفكير.

- سندخل البيت خلصة ثم تعطيني البنطلون أنظّفه.

الحلف الأزلي بين البنات وأبيها ضد الأنتى الأخرى ولو كانت أما وزوجة... حلفٌ لا يضاهيه في المتانة سوى حلف الابن

والأم ضدّ الذكر الآخر ولو كان أباً وزوجاً.

حلف؟ لغة العسكر والسياسة حتى في علاقة مثل هذه!

كأنني بالعالم بدأ يستعيد سحنته البشعة وأنه بصدد الانقلاب على جنبه الآخر، بدأ صبره ينفد من طول هذا الفاصل. أمسك

بتلابيبه كما تتمدّد تفاحة بتلابيبه عندما تريد شيئاً عاجلاً. دخيلك انتظر. لم تنته فترة استعادة الأنفاس. لم تلتئم بعد كل الجروح.

لا طاقة لنا الآن على العودة إلى الصراع. رحماك، منحنا مهلة إضافية.

تعود إلى العالم ابتسامته. ربحت هدنة إضافية ولو أنه لا وهم لي حول دوامها.

هو عائد إلى زئير الأسد بعد طول افتعال مُواء القطر. ربما لا يفعل سوى ردّ الفعل واستباق الأحداث. من يعلم أحسن منه أن

هذا الأدمي الممعن في وداعته، إنما يستعيد قواه للانقضاض عليه مجدداً؟ على كل حال هذا عالم يفتعل كالأدمي البحث عن

الاستقرار والتوازن، والحال أنه لا يخشى شيئاً قدر وصولهما، ربما لأنه يعرف أن أكمل حالتها ما تعرف المستنقعات

والمقابر.

المهم أن تنوم الألفة أطول لحظة ممكنة وأن يحترم الطرفان هدنة يترك فيها الأدمي العالم وشأنه لا يحاول تغييره، أو السيطرة

عليه، ولا حتى فهمه، وفي المقابل يترك العالم الأدمي وشأنه لا يريد امتحانه، أو ترويضه ولا التخلّص منه.

تندافع ثلاثتنا نحو الباب لنواجه منعا صارماً بدخول بيت نُظّف لتوّه ونحن بكل هذا البلبل والوحل ملء أذنيننا. تصرخ الزوجة

المزمنة والأم الأزلية:

- لا أحد يدخل بهذه الثياب وبهذه الأحذية. تتحملون وحدكم - وخاصة سيادة الأب-مسؤولية الزكام وما ينجّر عنه من مشاكل

لا دخل لي فيها. شكراً على الباقية يا حبيبتي إنها جدّ جميلة. سأضعها قرب فراشي لكن هذا لن يغيّر شيئاً بخصوص الأحذية.

تُنزع كلّها في البهو ولا مجال للهرولة نحو المطبخ حفاةً.

تراوغ تفاحة كسبا للوقت.

- أَعِدْكَ "ما" أنني سأنزح حذائي وسأغيّر ثيابي فيما بعد، أنا جائعة والكعكة ستبرد وهي ليست لذيذة إذا بردت.

- الدلال مع "باب" فقط، قلت الآن.

لا شيء في نبرة حواء يدلّ على أنها تبحث عن تجددّ الخصام، ومع ذلك لا شك في جدية الأمر واستحالة تجاهله. أخيراً وبعد

تغيير الملابس والأحذية يُسمح للجميع بدخول المطبخ. تُغالب "ما" زهوها وهي ترى النجاح الباهر لكعكتها.

تحتجّ ضاحكة: كفى قَبلاً بأفواهكم الملطخة. النجدة، إنكم تخنقونني. ما هذا الركض حول الطاولة، توقفوا لكم، خاصة أنت

أكبر الأطفال!

تستعيد تفاحة زمام مبادرة أفلتت منها أطول مما تحتمل.

- "با"، الآن نلعب لعبة المدرسة وهذه المرة أنا المعلمة، وأنت و "ما" وتفيحه التلاميذ.

- طيب، إذن تفاحة معلمتنا ونحن التلاميذ، تفيحه على يميني و "ما" على يساري.

تقف أمامنا تفاحة تلوح بعصاها وعلى قسماها علامات الأمر والنهي.

- سنبداً الدرس. لا أريد التشويش من أحد. تلميذ "با"، كفت عن الضحك وكذلك التلميذة "ما". تفيحه، اكنبي في كراسك: ذهب قابيل إلى الغابة وعاد بباقه زهور إلى أمه.

تصرخ تفيحه: سيدتي، التلميذ "با" قرصني، قرصني، قرصني!

- بريء والله يا سيدتي بريء.

من يدري ربما أكون فعلاً بريئاً.

تحتج التلميذة "ما":

- أنا من قرص تفيحه؟ يا ولد يا كذاب.

يشتعل حريق المسطرة في أصابع طفل ذاق الأمرين من مساطر المعلمين.

أصرخ أه يا أصابعي، فتأمرني تفاحة بالصمت ثم بقراءة أول صفحة من كتابها. تتبخر الأحرف أو بالأحرى تصبح هيروغليفات لا أعرف لها نطقاً. يتعثر لساني لا أمثل أو أقتل. إنه رفض وعيي الباطني التعرف على الحروف، بل قل الاعتراف بها حيث لا مكان للكتب والكتابة في عالم كهذا استعاد أخيراً عافيته. تقول ماذا عن الشعر! حتى الشعر، خاصة هو، فأغلب ما فيه صراخ الألم لا يغفر له حتى أنه صراخ أنيق.

يفند صبر "سيدتي" من تواصل قرص تفيحه ودغدغة أمها.

- تلميذ "با"، أنت تشوش. قف ووجهك للحائط. معاقب لنهاية الحصّة.

أقفُ أمام الحائط وقبعة من الورق فوق رأسي تثبت ما لا داعي لإثباته، فالكل يعلم منذ قديم الزمان أنني حمار القسم. تسترجع الذات بسرعة عاداتها القديمة مع كل الحيوان التي أوقوني أمامها. ستكون جولة ممتعة في الشروخ والبقع. لكنني الآن في غير العالم الذي كنت أفف فيه أمام الحائط أكفر عن ذنب لم ارتكبه. هذه حالة خاصة جداً يتوقف فيها العقاب حال بدايته، على فرض وجود العقاب فيه وحتى فكرته.

- تلميذ "با"، عد إلى مكانك ولا تقرر تفيحه مرة أخرى... لا، من الأحسن أن تجلس على الأريكة شريطة ألا تغافلنا فتنام.

تصرخ تفيحه: أنا المعلمة. تثب على أختها تفتك منها العصا. تبدأ في إعطاء الأوامر. تنهك تفاحة في قراءة النص الذي أمرت بقراءته. تغتم "ما" الفرصة للانسحاب وأغتمها لدخول فوقعتي.

تقطع على عودة الإغفاء معلومات متفرقة عن نشوب شجار آخر بين سيدتي وتلميذتها المشاكسة، عن يد ترفض بقوة تسليم أناملها الخمسة لحريق المسطرة، عن لسان يخرج في ظهر المعلمة يستقرها. لا شيء جدّي في هذه الخصومة فحن في عالم لا نريد به ولا يريد بنا شراً وإنما من الخير أقصاه.

في هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة هذه- يتصاعد صراخ الصبية من كل أرجاء المعمورة يدفعون بعضهم بشدة مفتعلة، ومنهم الأشقياء الذين لا يحبون شيئاً قدر شدّ شعر البنات.

والله يا سيدتي-لست أنا، لا بل أنت بشهادة الجميع. يكذبون علي، يا سيدتي. أه يا أدني. والآن كفت عن الركض أصبتي بالدوار وإياك أن تجذب مرة أخرى شعر أختك. لكنها هي التي دفعتني، وأنت كفتي عن إخراج لسانك لأخيك ومزيد تهيجه، يكفي ما فيه من الهيجان.

أنا قلت لا أشرس من الأدمي وهو طفل، لا أعنف من الأدمي وهو طفل، لا أظلم من الأدمي وهو طفل، ولا أشدّ أنانية ونرجسية منه؟ إشاعة أخرى من أعدائي لنشويه سمعتي عند الأطفال وأمهاتهم وجدّاتهم. تقول، لكن الكلام مكتوب في هذا النص ويكفي العودة إلى الصفحة كذا. إنها جملة أضافها الحاسوب بعد أن تمّ الاستيلاء عليه من قراصنة الفضاء الافتراضي لذات الغرض. عزيزاتي الأمهات والجدات والخالات والعمات -خاصة المسجلات في القوائم الانتخابية-والله تقديمي كمعارض بدائي للرضع كلام مبالغ فيه وذلك رغم اختلافاتي الجذرية والعميقة معهم، والدليل أنني ارتكبت منهم اثنين ثابتين، ناهيك على أنه بوسعي إثبات أنني لم أرم لا بتفاحة ولا بفتيحة من النافذة حتى عندما تبولنا علي أكثر من مرة. أما بخصوص الأطفال فأنا على قناعة -على الأقل هذه اللحظة- أنه لا يُعرف للعالم وجه جميل مُضحك منعش مُفرح إلا وكان وجه طفل.

وفي هذا العالم -بل قل: طوال حالته المباركة هذه- يعكف الطفل على كراس يضيئه نور المصباح. يهرش رأسه، يتأهب ويغفو. ثم ينتبه فيعود إلى التمرين يتعلم تصريف الأفعال بانتظار اليوم الذي سيخرج فيه باحثاً عن الفعل الذي كان له البذرة

الأولى. يسقط الكتاب من يديه ويسقط رأسه على الصدر فتتقدم "ما" على أطراف الأصابع تحاذر ألا يصدر منها صوت. تجمع الأقلام ببالغ الرفق. تحمل ابنها ببالغ اللطف للفراش. تسمح على شعره تُغالب ضحكها. تطبع على الخد الصغير قبلة الحنان والحب واضعةً على جسده النحيل كمًا خانقا من الأغطية بحجة قدوم الشتاء وسرعة إصابته بالرشح.

وفي هذا العالم -أو قل طوال حالته المباركة هذه- يثب الطفل من فراشه لإعداد ساحة مهرجان اقتطعها من جزء من الزقاق الضيق خلف البيت. يضع صورته الملونة على حيطان الجيران ويضع علامة "ممنوع الدخول". ينتصب في مدخل الزقاق. يتدافع أطفال الحي لحضور الحفلة وكلهم طمع في الجوائز التي أعلن عنها المنظم. يدفعون ثمن الدخول ولا يعرف الطفل أين يضع كل نوى الشمش هذا. تبدأ المباراة بتصنيف النوى في خط مستقيم ينطلق من الحائط إلى وسط الساحة. يقف المتبارون بضعة أمتار بعيدا ثم يرشقون صف النوى بنواة ليجمعوا كل ما وراء التي أصابتها القذفة البارعة. أما الجائزة الكبرى فهي أكداش نوى مشمش الخاسرين. يا له من كنز هائل حصل عليه الطفل بشيء من المهارة وقليل من الغش. ثم ينفجر الفرح داخله وداخل الرابحين والخاسرين على حدّ سواء فيصبح الشارع تجمهرا لأطفال هائجين يثيرون ضحك المارة واحتجاجا غير مقنع وغير مقتنع من طرف الجيران.

وفي هذا العالم -بل قل: طوال حالته المباركة هذه- يجلس آدم وقد هدّه تعب يوم حافل على باب الحوش مع تفاحة وتفيحه وأبناء الأعمام والأخوال والمروحة في أيديهم لا تتوقف مع دفع فحيح الصحراء. إنها ليلة ساخنة والضيف ضيف طرق على الأبواب باكرا هذه السنة، كم من مواضيع ستشدهم بالحديث إلى آخر هزيع من الليل وهم مستلقون على الرمل الناعم ينفجرون بضحك ليس انتقام المقهور من القاهر وإنما طفرة الحبور والمرح. وسط ساحة الحوش تحت النخل العجوز تُواصل العمات والخالات تبادل آخر قصص القرية ومن تزوجت ومن أنجبت ومن فطمت ويا لشقاوة الأطفال ونبوغهم المبكر، أما الرجال فالله وكيلك، لكن "الله يخلي لنا رجالنا". كل الأفعال في هذا العالم -أو قل في حالته المباركة هذه- هادئة، سهلة، بسيطة بلا تكلفة أو رهان... بلا أهمية في عرف ذلك العالم الآخر الذي سواصل التعقّف عن وصفه.

كل القصص عن جيران وصلوا مواعيدهم متأخرين... عن أقارب ركبوا القطار في الاتجاه المعاكس... عن ربّات بيوت أطار الريح غسلهن فجاءهن به الجيران... عن الزواج الذي تأخر أكثر من مرّة لعدم توقّر قاعة الأفراح وفي الأخير قرّ القرار على الاحتفال به في أجمل حديقة بالمدينة... عن حصباء بنت ابنة العم التي أمرضتها يوما قبل الامتحان فقبل المعلم إرجاءه... عن لقاء يوم الأحد على الشاطئ وتواصل لعبة "الرامي" إلى ما بعد منتصف الليل عند العم منصور في شهر رمضان... عن الرجل الذي اشترى خبزة ساخنة في طريقه إلى البيت فأكل نصفها قبل أن يصل، غير منتبه لما فعل فضحكت زوجته ثم التهمت ما تبقى منها تُجاهد للتوقف عن الضحك وأرجعته من حيث أتى ليأتي بأخرى كاملة للضيوف.

لا يوجد جنس حيّ على سطح هذا الكوكب مثل البشرية عندما يتعلق الأمر بالكلام كما وكيفا... نحن أكثر الكائنات كلاما... نحن كائنات ثرثارة بامتياز... نحن نتكلم طول الوقت... في اليقظة وحتى في المنام... أين نكون مع الناس وحتى وحدنا والحوار الداخلي الصامت مع أنفسنا ومع محاورين خياليين لا يتوقف أبدا... نحن نتكلم لكي نقول للأخر لا أمثل خطرا عليك فبادلني التطمين بأحسن منه... نحن نتكلم -كما تفعل الذئاب بصمت- لتنسيق الصيد والحرب... نحن نتكلم لتبادل الأحاسيس والمشاعر والأفكار لنعدّل مزاجنا على مزاج بعضنا البعض... نحن نتكلم نطقا ونتكلم منذ غابر الزمان عبر بما نخطّ من صور على جدران كهوف ما قبل التاريخ، على جدران معابد كم من مكان ومن زمان، على جبال من الأوراق تتوارثها البشرية جيلا بعد جيل واليوم تتناقلها على الأقراص المضغوطة وغدا على شوارذ الذرات... نحن نتكلم في كل المواضيع من آخر الإشاعات عن أعدائنا وأحبائنا إلى مسألة طبيعة العالم الذي نعبر والبشر الذين نخالط ووجود الله من عدمه كل هذا والكلام وسيلة رزق السحرة والكهنة والوعاظ والمرتبين والسياسيين والدجالين والمحامين وكم من مهنة أخرى... نحن نتكلم لمجرد متعة الكلام عندما نكتشف سحر الكلمات وهي تصف بكيفية غير مألوفة فنسمي ذلك شعرا... نحن نتكلم في أسعد الأوقات ونترصد نفس الكلام الذي يثير فينا عاصفة الضحك لما ننتبه فجأة لغرابة ما نقول وما نفعل... نحن نتكلم بنبرة الأم الحنون تمازح طفلها، بنبرة العاشق الولهان يتغزل بحبيبته، بنبرة الشرطي النهائي، بنبرة العسكري الأمر، بنبرة المتضرع عند الصلاة، بنبرة الحزن الهامس إبان مراسم العزاء وأيضا بتلك النبرة الغريبة عندما تتفجر عواطف الفرح والحزن داخلنا فيتحوّل الكلام غناء شجيا أو صراخا هستيريا... كل هذا والكلام من المهد إلى اللحد هو الذي يقربنا ويبعدنا، هو الذي يجمعنا ويفرّقنا، هو الذي يبنرنا ويصلّلنا، هو من يجعل من حياتنا نعيما وجحيما لا يطاق.

وفي هذا العالم أو قل طوال حالته المباركة هذه يهزم السلام الحرب بالضربة القاضية لا خوف على الأطفال من أفزع أنواع الموت.

تتعالى من حناجر الجماهير الهتافات: السلام، السلام. ألتفت إلى رجل يمشي حذوي يجاهد حتى لا يدوس على قدمي أو يضع علمه الخفاق في وجهي. أردش معه وأنا في قمة الحماس والجدل، أليس يوما رائعاً؟ حتى الطقس يريد السلام. هل تتصور أنها أول مظاهرة في التاريخ تشارك فيها كل شعوب العالم وحتى التي ستشهر الحرب باسمها. يضحك الرجل: العولمة كما نريدها نحن وكما لم يتوقعوها.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذا يعلن الاضراب عن الهمجية في الساحات التي تتجلى فيها في أشبع مظاهرها. يغتنم الجنود الذي رمتهم في أعناق بعضهم البعض حسابات خاطئة فرصة عيد الميلاد للخروج إلى العدو الغارق مثلهم في وحل الخنادق الفائضة جرحى وقتلى وفترانا. يرتمي الإخوة الأعداء يحضنون بعضهم بعضاً يتبادلون النكت والسجائر وصور الزوجات والأطفال، يأكلون من زاد بعضهم وهم يصبّون سخطهم على أكلٍ لا أشبع منه إلا ضباطهم الارستقراطيون وإصرارهم الغبي على مواصلة المجزرة. يخرج أحدهم من عبّ كرة فتقلب ساحة القتال إلى ساحة لعب يتدافع فيها كهول استعادوا إنسانيتهم باستعادة قدرة اللعب. يتعالى صراخ المرح والضرباُت البارعة تسدّد لكرة لا تعرف أين مرمى الخصم بما أنه لا أحد يعرفه ولا يعرف حتى من هو الخصم. المهم الجري وراء الكرة ودفعها في كل اتجاه ليفيق الطفل داخل الكهل. ينتبه اللاعبون لجثث معركة البارحة. يخلعون قبعاتهم، يشمرون عن سواعدهم لدفن من سقطوا من الجانبين لا يهمهم من يدفن من. يصطفون على جانبي القبر الجماعي لصلاة خاشعة وقد تذكروا أن أباهم الذي في السماوات واحد. ثم يعودون ببقايا فرح تغطي على كثافة الحزن إلى حيث يصرخ ضباط يتوعدونهم بالمحكمة العسكرية ويقوّل الإعدام. وفي الخندقين المتواجهين يضع هؤلاء المجانين المسدسات على صدغ المتحررين من الحقد والغباء لإجبارهم على القتال فينطلق الرصاص من الخناق وكل البنادق مصوّبة نحو النجوم.

ثمة حالات أخرى للعالم أو قل في حالته المباركة هذه عندما تتحول "ساحة الوغى" لمكان تفجّر الضحك والسخرية من كل المتدافعين إليها للعب أدوارهم البائسة.

وفي هذا العالم أو قل وهو في حالته المباركة هذه يتواجه الجيشان لمجزرة أخرى كانت تثير فينا موجة من الرعب لفظاعتها ومن التناؤب لتكرارها الممل. مهلاً، ثمة شيء جديد في السيناريو المقرف. للقوم طقوس تبدأ بمبارزة بين أشرس مقاتل من كل فريق كنوع من مقبلات شهية القتل. من سيأمره الخليفة بالخروج هذه المرّة إلى فارس العدو؟ من؟ المهزج الرسمي! الذي يرافقه في حلّه وترحاله ربما قرّر الأمر ليبعث برسالة احتقار إلى العدو، أو ليضحك من مضحكه، أو لأنه فهم أن الرجل كان دوماً يسخر منه ومن بطانته وقد اكتشف أنهم هم المهزجون... أو كقرار غبي من جملة القرارات الغبية الأخرى التي يتخذها باستمرار.

يستعطف أبو دلامة مولاه مذكراً إياه أنه لم يركب طوال حياته إلا الحمير ولم يمسك إلا بسكاكين المطبخ.

عبثاً.

آخر استعطاف: بما أنه قدّر لي الموت اليوم، فهل لي أن أموت شبعاناً، أيأمر لي أمير المؤمنين بدجاجة محمّرة ورغيفين؟ يضحك الخليفة مستحسناً الدعابة ومثمناً في قرارة نفسه قيام المهزج إلى آخر لحظة بالواجب الذي خلق من أجله.

يأمر الخدم بالمطلوب والجند برمي الرجل فوق صهوة الحصان ودفعه إلى ساحة "الوغى".

من الطرف الآخر للساحة وفي حركة مسرحية مدروسة، يستلّ فارس التحدي سيفه ويهمز حصانه صارخاً بشعار أبله ما. داخل دماغه الناشف حسابات سريعة عن كمية الغيرة التي سيثيرها وراءه وكمية الرعب التي سيثيرها أمامه.

ثم يداهمه العجب وهو يرى، لا يكاد يصدّق عينيه، حصان خصمه يتقدم نحوه خطوة خطوة وراكبه شاهرٌ... دجاجة محمّرة. المشاهد: الرجلان، كلٌّ على صهوة جواده، كتفا لكتف، يتبادلان هذا الحوار أو شيئاً يشبهه:

أبو دلامة: أتعرفني؟

لفارس المغوار: لم يحصل لي الشرف.

-هل ثمة ثارات قديمة بين أجدادي وأجدادك لم تُصفت بعد؟

-لا والله.

-هل هتكتُّ لك عرضاً؟

-لا والله.

-هل قتلْتُ لك أبا أو أما؟

-لا والله.

-هل ظلمتُك يوما؟

-لا والله.

-هل سرقْتُ منك شيئا؟

- لا والله.

-هل جاءك واش بكلام قبيح يدّعي أنني قتلته فيك؟

-لا والله.

ومع هذا تريد قتلي! يا رجل العنّ الشيطان، مؤكّد أنك تتماوت جوعا مثلي، اتركني أعزمك على الغداء، أبشر، الدجاجة لا تزال ساخنة وكذلك الخبز.

ينفجر الفارس المغوار بالضحك وكذلك الجيشان والناس تتفرّج في رجلين خرجا ليقتل أحدهما الآخر فإذا بهما ينهشان معا دجاجة بشهية واضحة ويدردشان كأخوين فرّقت بينهم الحياة وتلاقيا صدفة من جديد.

للّه درّ هذا الرجل الذي يسخر من نفسه حين يسخر الأعداء من الآخرين، الذي يفاخر بجبنه حين يفاخر الآخرون بشجاعتهم، وربّ الكعبة، لا أحد أسلم منك يا أبا دلّامة جسما وروحا.

أنت من أدرك أنه لا بطولة في إعطاء الموت وتلقيه وإنما كل البطولة في العيش والدفاع عن الحياة... أن البطولات هن النساء في حملهن، في مخاضهن، في سهرهن على الطفل المريض وفي طول صبرهن عليه سنوات و عقودا... أن الأبطال هم الرجال في خروجهم للصيد الخطر، للحقل الغارق في الوحل، للمنجم الخانق وللمحيط المرعب... ومع هذا ترى من يتدافعون لساحات المعارك يريدون إثبات ما لا حاجة لهم لإثباته وما لا يثبت في كل الحالات بهذه الكيفية وإنما بعكسها.

إن كنت من عشاق الحرب رغم كل ما قيل فيها منذ وجدت ثمة ساحات في هذا العالم ترضي فيك غرائز لم ننجح كلنا في التخلص منها. لا تنس أسلحتك من بالونات ضخمة ورشاشات ألوان فاقعة ومخدرات غرفة النوم. أطلق العنان لغرائز العنف فيك. كل من تصيبه بضربة بالون بارعة أو تمكنت من رشّه بالألوان، عدوّ بغيض خلّصت العالم من شرّه، لكن احذر أن تستشهد كثيرا. تسأل: ماذا فعل بكبار العنيفين الحالمين بالتصفيات الجماعية والمحتشدات الضخمة؟ حتى هؤلاء فكّرت فيهم يا من تسخر من النصّ ومن صاحبه. نأخذهم إلى مكان خصصته لهم فيه دمي من البلاستيك شبيهة لأقصى حدّ برسائهم وأزواجهم وأطفالهم، وعموما بكل البشر الذين يكرهون، ثم نمدّم بسكاكين لتقطيعها، وإبر لوخر عيونها، وأخيرا بصفائح بنزين وولاعات لحرقتها وذرّ رمادها في كل اتجاه.

*

إن أغلق العالم في حالته المباركة هذه إلى أجل غير مسمى ساحات الوغى والبطولات الكاذبة ليضع أمامنا الخيار بين أماكن تتبلور فيها أروع الحالات التي تمرّ بها الذات وما علينا إلا ترتيب أولويات الزيارة وطول البقاء فيها. تقول لنجعل على رأس القائمة السيرك. ألف والعياذ بالله! مكان يضحك فيه الأطفال من مهرّج حزين وتضطّر فيه حيوانات أسيرة للقيام بحركات سخيفة مهينة خطيرة عليها! كلاً ثم كلاً، لا مكان لمثل هذا المكان في العالم طوال حالته المباركة هذه. الملعب! تقصد المكان الذي أريقت فيه دماء القرابين البشرية والحيوانية على مرّ العصور... المكان المطوق بالإسمنت والحديد وبوابير البوليس تنتظر تدافع جماهير مقيمة لتفجّر ما بداخلها من عنف مكتوم... المكان الذي تشاهد فيه القطعان البشرية المرعوبة تهول نحو باب الخروج فتتساقط الأجساد عفا بالأقدام... المكان الذي تجمع فيه أنظمة الفساد والقمع ضحاياها ليلة الانقلاب... الذي تحتفي فيه بمنجزاتها الكاذبة... الذي ينظمون فيه مسابقات الغرور... الذي يمشون فيه بخطى عسكرية حاملين أعلامهم... الذي يقف فيه الزعماء المنفوشون كبرياء يصفقون طويلا لبني عائلتهم ويجلسون حالما تظهر أعلام العوائل الأخرى... الذي تنتهي فيه كل الألعاب بهزيمة هذا وانتصار ذلك... نعم سأضعه على القائمة وسأذهب إليه ومعني تفاحة وتفبحة يوم يعرضون فيه ألعابا تنتهي دوما بمنتصر وبمنتصر.

أجمل ما في هذا العالم ليس اختفاء السيرك وملاعب تواصل الحرب بوسائل أخرى ناهيك عن المواخير والسجون والثكنات ومراكز ترحيل الأجانب ومخيمات اللاجئين ومصانع السخرة وإنما أيضا أوكار التضليل التي لا تعيش إلا بالأخبار السيئة كما لا تعيش الجراثيم إلا من العفن.

تواصل المذيعة الجميلة ذات الشعر الأشيب قراءة النشرة بصوت لا أجمل منه إلا خرير ماء السواقي “: من مراسلنا في مقديشو أن الأشجار ما زالت تزهر وتثمر رغم القصف الغني الذي يحدثكم عنه زميلي تلفزيون النصف الفارغ من الكأس. كما علمنا من كل المصادر الموثوق بها أن ملايين الأطفال ولدوا هذه السنة بصحة جيدة، أن آباءهم في منتهى السعادة لوصولهم، أنهم يحقونهم بكل ما يقدر عليه الأدميون من حب ومن عطف.

بخصوص حالة السير، فإن أغلب السيارات لم تتعرض لأي حادث طريق، كما وصلت كل الطائرات في الوقت سالمة وكانت السفرة داخلها ممتعة والمضيفات على قدر كبير من كياسة طبيعية ولطف غير مصطنع، وكذلك القطارات، وبخصوص هذه الأخيرة أفادنا مراسلنا من العاصمة أن كل قطارات الصباح خرجت قبل الوقت المعلن عنه بساعة، وبالطبع خرجت فارغة من المسافرين. هذا ما أحدث اضطرابا كبيرا في حركة السير عموما وهرجا كبيرا داخل المحطات. وبتقصي الموضوع صرّح لنا سواق القاطرات أن الأمر لم يعد قابلا للاحتمال، فكل القطارات دخلت في روتين الرحيل في الوقت والوصول في الوقت بعد أن انتهى روتين الوصول بعد الوقت. وبما أننا في أول يوم من شهر أبريل فإن النقابة قرّرت إلخ... وعند إعلان مكبرات الصوت للسبب ضحك المسافرين واقتروشوا الأرض وفتحوا علب الساندويش وترموس القهوة وألغى كل واحد مواعيده وأصبحت المحطة ساحة استراحة وتبادل الأخبار والنكت، ولما عادت القطارات الهاربة رفع المسافرون السواق على الأكتاف. أما بخصوص حالة الطقس فإن العالم لم يشهد زلزالا أو طوفانا. وفي العموم فإن قوى التعافي تعمل بنشاط لتعديل الخلل الحاصل هنا وهناك. والآن نمرّ للبرنامج العلمي وما تمخضت عنه العبقرية البشرية من اختراعات تليها حصة الشعراء الشبان.

يبقى الآن وقد تخلصنا من كلّ بثور العالم في حالته اللعينة تلك أن نستعرض الأماكن التي تعيش فيها الأدمية أجمل أوقات الرحلة تلتقط أنفاسها وتستعدّ لبقايا مشاكل الطريق.

رأي الشخصي الذي لا يلزم سواي أن أجمل مكان في هذا العالم -أو قل طيلة حالته المباركة هذه-حديقة عمومية تدفع فيها أم جميلة عربية رضيعها تجلس بالقرب من البركة الصغيرة أمام المساحة المخصصة للعب الأطفال حيث تتلاقى نساء الحي يتبادلن آخر الأخبار.

لنضف إلى الصورة العجوز التي تأتي كل صباح وكل مساء بطعام الحمام والغراب والبجع والكائنات تندافع إلى نصيبها من الحَب ومن الحُب.

تقول: لا تنس مقهى صغيرا على الضفة الأخرى للبركة يسعد فيه الرجال باحتساء القهوة الساخنة وتبادل آخر النكت. حتى أكون داخل الصورة سأجلس على العشب والظهر مسنوداً إلى جذع أرزة أملاً عيني من كل هذا الجمال الوديع، أتنفس ملء رئتي أريج الورود ورائحة العشب المقصوص لتوّه.

ثمة أيضا مسرح" الباليه". لم لا يكون هو صرة العالم في حالته المباركة هذه. أليس المكان الذي نخرج فيها اللسان لمن فرض علينا أجسادا للمرض والموت فجعلنا منها أدوات لاستكشاف الخفة والرشاقة والجمال؟ نحتفظ بهذه الفكرة.

أه تريد المرقص على رأس قائمتنا، لم لا؟ هل ثمة مكان أروع للرقص من فوهة البركان قبل وبعد الانفجار.

وفي هذا العالم أو في حالته المباركة هذه يتربّع الفنان الموهوب على كرسيه المتحرك كملك على عرشه، ثم يبدأ العزف على الأكورديون. ينحني ملك الزولو بمنزره الأحمر وطاقيّة جلد الفهد على رأسه أمام الأميرة النمساوية: سيدتي هل تراقصيني فتقبل بامتنان. يضع يده على كتفها ويده الأخرى على خصرها ليدورا على أنغام “فالس” الدانوب الأزرق الجميل. تتقدم إلى الحلبة الراقصة الهندية فيحيط بخصرها الراقص الإسباني يضرب بكعب رجليه خشب الركح. تتقدم الراقصة الباليينية لتنتهي على الأنغام. تفرع الطبول الإفريقية تدعو من نسي سحر الطبول إلى تذّكر الليالي الأولى فيتندافع إلى الساحة أباطرة الصين وأميرات اليمن السعيد للرقص إلى قيام الساعة.

تصرخ تفيحه أن القصة لازالت قصتها وأنها لن تقبل إلا بأفضل مكان لديها خاصة عشية الأعياد. موافق.

لنطلق أطفالنا داخل متجر العباب الصغار نضحك لانبهارهم أمام ما يزخر به من دبية ونمور وفيلة من الصوف ودُمى من كل الألوان. هل تأملتهم وأفواهم مفتوحة دهشةً وجشعا. كم تغفر لهم أنهم كانوا رضعاً وأنهم سيصبحون من جنس المراهقين بعد سنوات ستمرّ بسرعة البرق.

على كل حال العالم كله في حالته المباركة هذه حديقة ألعاب للصغار والكبار على حدّ سواء.

وفي هذا العالم -أو قل وهو في حالته المباركة-على الطرف الآخر من المدينة لي موعد آخر مع جحافل تندافع داخل ملعب لن نحمله وزر بقية الملاعب.

أمام مدارج هذا الملعب المكتظ الليلة بعشرات الآلاف من النظارة والضجيج في أوجه، يتقدم كيان مبهم تجرّه وتدفعه كوكبة من الخدم والحشم. شيئاً فشيئاً يتبين أنه عمود طوله أربعة أو خمسة أمتار مطلي ذهباً تحسبه ذراعاً مرفوعاً إلى الأعلى ينتهي بقبضة مفتوحة وفي راحتها مجسم الكرة الأرضية.

يصل حشد الخدم بالعمود الذهبي سط ساحة خضراء ستقام عليها مباراة رياضة يسمونها كرة القدم فتطلق فجأة الشماريخ ويرتفع إلى عنان السماء دويّ جمهور صاحب جذلان وبداهة سعيد.

ينتصب أحد النظارة واقفاً. ينحني مرة تلو الأخرى في اتجاه العمود الذهبي والذراعان إلى الأمام في وضع لن تشهده إلا إبان التعبّد.

إلى من تتوجه صلاة المتفرج وأهازيج الجمهور؟ إلى هذا الصنم الذي يتشارك في حبه جل سگان الأرض على اختلاف معتقداتهم ومشاربهم: الرب "كاسلعالم".

هم يخرجونه كل أربع سنوات في مواكب مثل هذه يضعونه وسط ساحة كهذه لتبدأ أكبر الحفلات التي يعرفها العالم. يسحب الصنم بعيداً إذ لا يجوز إبقاءه تحت أنظار قد تتعود وتملّ رؤيته فأولى خصائص المقدّس التوارى بعيداً عن الأنظار ليبقى محفوفاً بالغرابة والسرّ.

يتواصل الحفل بفريقين من الأدميين أحدهما بثوب برتقالي والثاني بثوب أزرق ابيض يتسابقان تحت أنظار الحضور الكثيف لتسجيل أهداف صعبة المنال ترمز لطول جريتنا وتشوقنا للحظة نسجل فيها نحن أهدافنا.

بداهة ثمة تحت طبقة معطيات السمع والبصر عن حفل رياضي مبتذل طبقة أعمق من الرسائل والمعاني. الآن وهنا، أخيراً ولو لزم قصير عابر، البشر جميعهم سواسية تجمع بينهم متعة الوجود... لا سلاح بين أيديهم والعنف العرضي طفرة الصحة وحيوية الشباب لا قصد فيه للإيذاء... على المدارج لا اثم ولا فسوق... على الساحة لعبة قواعد واضحة لا مكان فيها للغش والظلم... وتحت أنظار الجميع وسلطة حكم نزيه مفوض من قبل الربّ المخفي يعاقب فوراً وعدلاً كل من يتناول عليها.

كيف لا يتفجّر الفرح عند الجميع وكل ما يجعل من حياة الأدميين مأساة مسترسلة أخيراً تحت السيطرة! نعم، ظاهرياً نحن في ملعب كرة قدم وفي الحقيقة نحن في قداس تحتفي فيه البشرية بتحقيق كل ما تسعى إليه جاهدة منذ بداية ملحمتها في هذا العالم.

إنه حفل ديني مكتمل الصفات قد يوصف بالوثني والوصف لا يغير في الأمر شيئاً، كم عبد البشر من أوثان قدوا من الحجر، من الشجر أو من أجمل الصور وأروع الأفكار!

كم تغيّرت أنواع الطعام وطرق طبخها عبر العصور! لكن حاجة الأكل بقيت وستبقى ثابتة واحدة عند كل البشر. كذلك الأمر مع الحاجة الدينية. هي ثابتة عبر العصور، وحدها مظاهرها التي تتغير.

أه لو قبض لي أن رؤية آلهة وكهنة وطقوس ديانات العشرة آلاف سنة والمائة ألف سنة المقبلة! سقف الملعب الضخم مفتوح على سماء داكنة يتوسطها قمر هادئ ينظر بعطف لهذه الجماهير التي تصرخ بفرحة الحياة متجاهلة قوى الدمار والموت التي تزمجر حولها وداخلها.

في كم من أماكن على سطح الكوكب تتدافع جماهير الفريق المنتصر حالاً بعد انتهاء المباراة لتفجّر في الشوارع والساحات كل الفرح المطمور داخلها. لألحق بقية الركب أصرخ مع الصارخين ولو بالخيال لا بالجسد. يشجيني جاري على رفع صوت بدا له محتشماً ومحرجاً. يجب أن أسخن أكثر فلست متعوداً على الصراخ في هكذا مواكب. تداهمني سعادة فائقة، لا لمتعة الصراخ وسط هذه الحشود المتدافعة وسط الطريق، وإنما أيضاً لغياب من تعودت على وجودهم في الصورة بدروعهم الشفافة وخوذاتهم الحديدية وهرواتهم الموجعة.

بخصوص أماكن التنفيس عن كل أنواع الاحتقان أروع ما يخصص العالم -أو قل وهو في حالته المباركة هذه- حفلٌ تتراشق فيه جماهير، ضاحكة بمساحيق ملونة بالأحمر والأصفر والبرتقالي، فلا تعود تُفرّق بين رجل وامرأة، بين فقير وغني، بين نبيل و"وضيع". بداهة ثمة في العملية سخرية من الحرب والناس ترمي بعضها بعضاً لا بالرصاص والغازات السامة وإنما بمساحيق تحاكي ألوان الشمس والورد. فيها أيضاً إرادة ردم الفوارق التي تسمّ حياة الأدميين وهم أخيراً سواسية صبغت وجوههم وثيابهم نفس الألوان وانتشت أرواحهم أخيراً بنفس فرحة الحياة.

الفرح! الحالة التي نخرج فيها للشارع وثبا ورقصاً، تعجرت داخلنا طاقة جبارة تفجّر بركبان طال خموده... الحالة التي يتعطل فيها الكلام لينقلب صراخاً عند الذكور وعند إناثنا زغاريد... الحالة التي تتوهج فيها الروح وقد أصبحت شعلة من النار والنور... حالة هناء وهي تركل برجلها اليسرى كرة من المطاط راكضة وراءها تصرخ في قمة الجذل... أؤمن ما يكافئك

به العالم على طول صبرك على محنه... أبلغ صور الرؤيا لنجاح هذه المغامرة التي نسميها الحياة... نعم، الفرح هو اللحظة التي هي بعنى عن كل الزمن الماضي وعن كل الزمن الآتي وقد اكتملت في اللحظة الراهنة تجربة الوجود.

نعم كل هذا صحيح لكن مثل هذه الأماكن لا تفتح أبوابها أسبوعيا لنفس المتعة والحال أن هذا ما تتكرم به الأسواق؟ ألا تستحق ولو لهذا السبب المرتبة الأولى في قائمة أجمل أماكن العالم وهو في حالته المباركة هذه؟ كم أحبّ الوانها وروائحها! أحب صراخ الباعة يمازحون المارة يفاخرون بما تجود به الأرض وسواعد البشر. أحب المتسوقين وهم يتجولون في أرجائها دون سلاح ولا نية لأي عنف أرجأوا معاركهم التي لا تنتهي إلى ما بعد فسحة الروح والجسد. أحب رؤيتهم يتبادلون مع الباعة الخدمة بالخدمة والكل راض عما يعطي وعما يأخذ. أحبّ أكثر التجول بين أكوام الفواكه والخضر والأزهار وشتى أصناف التوابل الآتية من أبعد أصقاع العالم أنتقي بعناية ما سيمكني من طبخ الذّ طبق تطرب له براعم التدوق ولا بأس أن يساهم في الحفاظ على صحتي وعلى معنوياتي. كذلك الأمر مع أسواق الفضاءات غير الحسية التي تعرض ما تجود به العقول والقلوب. أحب التجوال فيها عندما أغلق العينين ما تراكم داخل ذاكرتي من قراءات لم تتوقف منذ أن بدأت أفك طلاسم الحروف. سوق القرية! المكان الذي سيطبع ذاكرة الطفل إلى الأبد وهو يختزل آنذاك كل ما في عالمه من روائح وألوان وخصب وبهجة الحياة... المكان الذي سيختزل في ذاكرة الكهل كل ما في عالمه من قحط وشقاء هو الذي شهد آدميا-أسرف عليه الدهر بالقهر والفقر-يعرض بين الحمير والغنم أطفاله الثلاثة للبيع. ما يميزها عن تلك التي تزيّن الفضاء الحسي أنك قلما تعثر فيها على باعة لطاف. جلهم عصبون متوترون يصرخون في وجوه بعض البعض يتهمون الغير بالتحيل على المستهلكين المساكين بل ويصرخون في وجهك إنك إن لم تتبضع عندهم فالويل لك والثبور. لم أعد أبه لصراخهم منذ زمن طويل أشيح البصر عن اجتهادات تقادمت صلاحيتها منذ قرون تسمم الفكر كما تفعل الخضر الفاسدة عندما تصيب الجسم بالإسهال والحمى. كم تراكم على العصور من الفاسد والقيح والمضرّ منها. ثمة ولحسن الحظ منتجات الحدس الصائب والرؤية الثاقبة هي التي سأعرف منها بكل امتنان ما سأحتاج يوم تتقدم أشغال بناء بيت الروح الذي اسميه الرؤيا.

أمن المسموح تغيير رأيي؟ على ذكر ما تزخر به أسواق الفضاء الحسي من طيبات الأكل والشرب، أقولها متحملا كامل مسؤولياتي: لا وجود لمكان يستأهل أن يكون مركزَ عالمنا وهو في حالته المباركة هذه إلا ذلك المكان الذي تتوسطه ثلاجة عامرة تطمئننا أن عهد المجاعة ولّى إلى الأبد... خاصة عندما يعبق برائحة القهوة الساخنة وبعطر نسائي خفيف. نعم المطبخ هو صرّة الفضاء الحسي للعالم أو قل للعالم في حالته المباركة هذه. تنقّص "ح" على الثلاجة بحماس منذر بتهاطل الأوامر والنواهي. تستولي على ما بداخلها من بيض وزبدة. تخلط كل هذا بالسكر ثم تضيف قدرا محترما من الشوكولاتة الساخنة الذائبة بانتهاء من يصنع قنبلة وبخشوع من يصلّي صلاة الجنابة. المطلوب من كعكتها أن تكون في نفس الوقت صلبة وأن تبقى الشوكولاتة سائلة في باطنها. كيف يمكن للشيء أن يكون صلبا وسائلا في نفس الوقت؟ إنه التحديّ الذي أصبح بمرور الأيام-وبتعدّد الاخفاقات-هاجسا عند "ح" وبالعدوى عند عاشق مرطبات "ح".

تضع رقيقة الطريق الكعكة في فرن لا تفارقه بالبصر الحذر مترقبة بعصبية لحظة الحسم. يأتيها أمر من داخلها بأن الوقت حان. تبادر بسرعة لإخراج كعكة إثبات الذات. فشل جديد وعلى طول الخط. الكعكة جافة ولا شيء يسيل منها عند القضم. أسارع للمديح. لا تهتمّ "ح" بكلام معسول تعرف أن نصفه مواساة صادقة ونصفه سخرية شامتة. تواصل "ح" بحثها عن الوصفة الصحيحة وكم من وصفات ستجد وستجرب والفشل هو الفشل. ثمة دوما خلل ما، إما في نسب المواد وإما في درجة الحرارة أو في مدة الطهي. شيئا فشيئا يتسلل إليّ قلقها. أكتشف يوما أن مشاكلي مع خصم حقير، واستعصاء العالم على الفهم وتسارع السنين ومشاكل الأمة والبشرية، وموعدي الذي أرجئه باستمرار مع طبيب الأسنان، وبقية المشاغل الأخرى، بدأت تتراجع إلى الخلف أمام هذا الملف الضخم والموضوع محل نقاش مسترسل وتجارب لا تنتهي.

تعود "ح" ليلة من عيادتها وعلى وجهها ابتسامة النصر. أسألها وبني حذر مفاجئ:

- أنفقت حياة مريض؟

- أحسن من هذا.

- اكتشفت خطأ في تشخيص أحد زملاء فضحت المسكين أمام الجميع بابتسامة مشفقة.
- أحسن من هذا....
- لا وجود لأحسن من هذا.
- بلى، حلّ كعكة الشوكولاتة الذائبة. وجدته عند صديقتنا الأرجنتينية. هيا اتركني أعمل.
- الآن؟ في منتصف الليل.
- الإعداد الأولي فقط لأن العملية مراحل. يجب أن أدوّب بعض الشوكولاتة وأن أمزجها بقليل من الزبدة وأترك الخليط في الثلاجة ليلة كاملة للاستعمال غدا.
- من الغد تعود "ح" إلى تجاربها. تصبّ نصف خليط البيض والزبدة والشوكولاتة الذائبة في الإناء ثم تخرج من الثلاجة خليط البارحة لا تملّ من الشرح.
- فهمت سرّ النجاح ولماذا فشلنا لحدّ الآن؟
- تظنّيني غيبيا؟
- فسّر.
- إذا اعتبرنا سرعة للضوء التي تحددها النسبية العامة وإذا ضربناها بالقطر المجهول لبوزون" هيجز، فإن...
- لا تكن سمجا. سيصبح سائل الكعكة يابسا بأسرع من الخليط الذي وضعته في داخلها لأن هذا الأخير أبرد بكثير ويحتاج إلى وقت أطول ليصبح يابسا هو الآخر.
- هذا بالضبط ما فهمت وسأهنئ نفسي على فطنتي حالما يتضح صواب الوصفة. على كل حال، ليس لي ما أخسر. متعة الكعكة إن نجحت أو متعة الشماتة إن فشلت.
- تتنهد "ح"، بداهة غير مستعدة على غير عاداتها للدخول في أي مزح.
- أتساءل أحيانا ما الذي حبّبتني فيك؟
- عجيب، إنه نفس السؤال الذي يقضّ مضجعي...مؤكد أنك لست ضحية حبّ على وجه الخطأ؟
- هل تستطيع أن تغلق فمك فقط لخمس دقائق متتاليات؟
- لا.
- إذن تفضّل على برّه.
- نحن هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا على رؤوس الرماح.
- انتبه سأضربك.
- إيّاك، لا فكرة لك عن نفوذ أصدقائي في منظمات حقوق الإنسان.
- تهاجمني "ح" بين ضحك مكثوم وغضب نصف مفتعل. أحاول أخذها بين ذراعيّ. لا تتطلي الحيلة. تدفعني برقة إلى خارج المطبخ مصفقه الباب ورائي. لم يبق إلا انتظار الكارثة أو المعجزة. فجأة تفتح "ح" الباب لا أرى إلا ظهرها وهي تهجم على نافذة الفرن لتصرخ بالنصر والسكين يعبر طبقة سطحية جافة ليخرج بقطر بالشوكولاتة الساخنة السائلة.
- “الحياة اليومية
بأعمالها المتواضعة السهلة
مهمّة بامتياز
كم تتطلّب من الحبّ”
(رانبو)
- نعم أقولها متحملا كل مسؤولياتي الفكرية والفلسفية والميتافيزيقية المطبخ هو صرّة العالم... على الأقل في حالته المباركة هذه.
- ماذا؟ تُبدي تردّدا في الاعتراف بوجهة خياري! برّبك أليس هو أوّل مختبر تمعّن فيه الأدمي في خصائص الأشياء... أول مكان تطورت فيه علومنا ونحن نسحق الأشياء، ندوّبها ونخلطها ببعضها البعض، نبرّدها ونسخّنها ونتمتع في النتائج، تارة هي كوارث وتارة أخرى هي ألدّ المفاجئات؟ حقا لا يمكن القول إن ما جرّبناه على الدجاج والأرانب كان غاية في الأناقة أو اللطف، لكن من يجادل في كونه المكان الذي انطلقت منه السلسلة الطويلة للتجارب التي أوصلتنا إلى الاستنساخ.
- هنا لا يَفوت النصّ تقدِيمَ بالغ الاعتذار باسم الإنسانية جمعاء لكل الكائنات التي اضطّررنا -مع بالغ الأسف- إلى التهامها وعلى رأسها الدجاج لما عرف من خنق وسلخ وما تعرّض له من كل وسائل الطبخ الفظة مُعتبرا زلّة لسان لا تُعترف مقولة "ح" إن كل دجاجة لم تحمّر كما ينبغي دجاجة ماتت عبثا.

أغتنم الفرصة هنا للتقدّم بكل الامتنان للأشجار والنباتات التي أعطتنا ثمارها وتوابلها مظهرة كل التعاون مع البشرية الجائعة وأود أن أخص بالذكر تلك التي أعطتنا التمر والزيتون واللوز والتين والعنب والبرتقال. تقول، نسيبت الفلّ والياسمين والحبق والنعناع، حتى ولو كانت نباتات لا تمضغ. من منعك من شكرها وإمضاء عرائض المطالبة بإقامة التماثيل لها؟ تصوّر! يطلقون على شوارعهم أسماء كبرى المجازر مُهددين لكل جزار تسبّب في آلاف قتلها ساحته وتمثاله ويعقّوا من يدينون لهم بالحياة وملذاتها النادرة. بجدّ من أعانك أكثر أوقات الشدّة؟ البقلاوة والمقروض والغريبة والشباكية وقرن غزال وأم على والكنافة النابلسية وبصفة عامة السكر والعسل والزبيب والفستق واللوز والبندق... أم اسكندر المقدوني ويوليوس قيصر و نابوليون وأبو عبيدة الجراح؟ كل هذا لا يمنع من القول-من وجهة نظر الأدمي طبعاً- أن كل الأفعال التي تمارس في المطبخ حلالٌ لا غبار عليها قانونياً أو أخلاقياً ولا حتى جمالياً وأخصُّ بالذكر منها أفعال أكل، تدوّق، مضغ، التهام، شبع... أفعال تستمدّ قيمتها من عالمٍ غيرِه أغلبُ المسافرين وفعلُ جاع أكثر الأفعال تصريفاً.

خذ الآن بقية الكلمات التي ترنّ في أرجائه مثل كسكسي بالفاروص، بريك بالتّن، طاجين جبن، بسيسة بزيت الزيتون والحلوى الشامية والمكسرات، مسفوف بالدقّة والسكر والسمن (لسحور رمضان). أليست برّبك أحلى كلمات اللغة، خاصة عندما تصفيها إلى ما وضعته الأدميةُ النهمةُ تحت تصرفك من الروائع الأخرى التي تشير إليها كلمات البقلاوة والكنافة والبسطيلة والمعرونة بفواكه البحر والسوشي والكري والنام وكعكة التفاح والبطة بالسكر المحروق والسيبوجن؟ أي قيمة للنسبية والواقعية والمادية الجدلية والجهاد والحقيقة والفضيلة والعدالة والوطنية والتقدم والنموّ وباقي الكلمات المسببة لعسر الهضم وتعكير المزاج أمام هذه التي يسيل اللعاب لها ويخفق القلب لذكرها! على فكرة... كل هذا الكلام المعسول عن خروجنا لأهوال الطريق جريا وراء المغامرة والمعرفة والجمال وحتى بحثاً عن الذات والله، تبرير نخفي وراءه أننا ما كنا نغادر حضن نساننا لولا جشعنا للشاي والملح والقهوة والسكر واللبن والتوابل والفواكه النادرة، نبحث عنها وراء ألف محيط لا يهمننا للحصول عليها استعباد قارة وحتى عالم بأكمله.

مواصلةً في نفس النسق الذي قد يعتبره البعض استفزازاً. بحقّ سكابي وبوكوز وأمك صنّافة وبقية المحسنين للأدمية، ألا تشعر أن النصح وضع أخيراً الإصبع على الخلل الرئيسي في الملحمة البشرية؟ ألا تصف كلمات الطبخ أشياء موجودة بصفة لا يجادل فيها حتى الأعمى مثل البطاطس والبادنجان والبصل والثوم والبقوننس... أشياء ثابتة الوجود والحال أننا نضيق الوقت والجدد في الجري وراء أو هام لا وجود لها إلا في أذهاننا المرهقة مثل الدين القويم والشريعة السمحاء والجدلية المادية والوطن المفدى والشعب المقدس والمستقبل الزاهر والمدينة الفاضلة والماضي المجيد... الخ... الخ.

ألا تفسّر كتب الطبخ طريقة معالجة الأشياء بكل وضوح ودون أسرار محجوبة عن المستهلك لا يعرفها إلا الطباخ؟ أليس صحيحاً أنه إذا مات المستهلك بالتسمم فإنه لا يتّهم بعدم فهم وصفة لا يأتيها الباطل من فوقها ولا من تحتها ولا يحال على التحقيق والتعذيب وحتى على الحرق حياً لبحثه عن وصفة أخرى أنفع، أو لإظهاره بداية شك في السلامة العقلية للطباخ؟

أخيراً لا أخراً، في الحالة المذكورة أعلاه، ألا تسحب الوصفة نهائياً من كتاب الطبخ حال ظهور أول حالة تسمم، أو تعدّل بكيفية جذرية بحيث لا تبقى سائرة المفعول على مرّ القرون تجرّب بإصرار تقتل الناس وتصيبهم بالإسهال الحادّ ولا من مجال للتخلص منها ومن أصحابها إلا بحرب لا تبيح ولا تدرّ؟ تصوّر في أي عالم كنا نعيش لو تصرّف المتدينون والسياسيون كما يتصرف الطباخون. في هذا العالم - أو قل طيلة حالته المباركة هذه - تتبخّر من أذهاننا قناعات مسمومة عمّن يمتلك الحقيقة وعمّن لا يعرفها، عن بشر أحسن من بشر.

شاهدت بحانة شيخاً ثملاً (عمر الخيام)

قد غطّ لنومه بلا إحساس

أصغيت له يقول في سكرته

الله لطيف بجميع الناس

وبينما الشمس تتوارى بجلالها المعهود وراء الأفق، يفاجئك العالم بأخر هدايا اليوم كأنه حلا للفنان الأعظم الذي علّم الرسم موني Monet وبيسارو Pissarro وقوقان Gauguin إعادة تلوين السحب. ها هو يضع بريشته على أطراف رماديتها الكتيب لمسات جد خفيفة من الأصفر الوضّاء متابعاً بخيط جدّ دقيق من نقط النور تعرّج حواشيتها. ثم كأنه به يعيّر موضع فرشاة الرسم والنور يتوغّل داخل السحاب قاضماً المزيد فالمزيد من الرمادي العبوس. تكتمل اللوحة وقد أضرمت اليد الخفية أجمل الحرائق في السماء التي رفعت فوق الأرض بلا عمد.

أي حاجة لك للركض من أقاصي الغرب إلى أقاصي الشرق ومن أقاصي الجنوب لأقاصي الشمال وأجمل الأماكن على مرمى حجر. ها هو آدم يترنم لنفسه بأجمل أغنية للآدمي في أوج الانبهار والامتنان والحب.

«أشجار تزهّر (لويس ارمسترونج Louis Armstrong)

زرقة السماء.

ألوان قوس قزح

صراخ الأطفال

أصدقاء يصافحون بعضهم

قلت في نفسي

"What a wonderful world !

نعم يا له من عالم رائع!

ألم يصنع لنا الأمواج نسرجها ألواحا نمشي فوقها كالسيح بلا عنت؟

ألم يخلق لها سطحها وأعمقا نسبح فيها كالدلافين نسابقهم ونبرّهم في القفز فوق تلاطم الزبد؟

ألم يشيّد لنا جبالا نتسابق من يصلها الأول ننزل منها ترحلنا على الجليد يدفعنا الريح والجدل.

كيف لا يثير في الأدميين عواصف صامتة من الأحاسيس والمشاعر والأفكار لا بدّ لهم من التعبير عنها خارج ذواتهم بكل ما تملك من أدوات وما تتعلم من أساليب.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه، أجمل الأماكن ورشات الفنانين وكل عبقرى خلاق منهمك في شغله لا يلتفت لضجيج أو يشغل باله بشيء. هكذا هو على مر الزمان. في كهف من كهوف العهود البائدة تراه منكبا على ناب فيل من فيلة العصور الجليدية ينحته بقطعة حجر صلب مذبذبة على امتداد أيام واسابيع طوال ساعات مضنية من أقصى التركيز ليستخرج من عاجه شكل كائن له رأس الأسد وجسم الانسان. هو يعرف أصدق المعرفة أن مثل هذا الكائن موجود فقط في خياله وأنه هو خالقه. ترى هل كان يرى فيه مساهمته في إثراء عالم يعجّ بالمخلوقات المتبارية غرابة واعجازا؟

وفي ألف مغارة ومغارة على امتداد آلاف السنين وقفت حفنة من الأدميين المدفوعين بأغرب المشاعر يرسمون على حيطانها أجمل اللوحات لما يجاورون من حيوانات وكان هذه اللوحات التي ترصد بحساسية عجيبة جمال الأجساد الأنيقة الوثابة الممتلئة حيوية رسائل حب واعجاب للقوى المبهمة التي تحركها.

ومنذ تلك الأيام الغابرة، كم من آدمي واجه بوجل اللوحة البيضاء يعيد خلق ما حوله من كائنات ومن مناظر الطبيعة! كم من فنان اسمه الشاعر قضى ليلاليه بفكك مكونات العالم المعطى يعيد تركيبه وفق هواه والأداة هنا ما توفره اللغة من كلمات!

كم من فنان آخر ترك العاج والرخام والأصباغ والكلمات ليعمل على الأصوات يخلق منها أصنافا غير مسبوقه يؤلف منها كيانات جديدة تطرب لها الأذن طربها لصوت تدفق الماء في السواقي أو لزقزقة العصافير في الأغصان!

كل هذا الذي نسميه الفنّ أيا كانت الأداة وأيا كان الميدان إما مزايده على الخالق الأعظم أو مواصلة وإكمالا لما خلق وفي كل الحالات هو أرقى وأنبى أنواع التعبد والصلاة.

تأتي يوما حالات الإرهاق القصوى عندما نتعب من الملذات تعبنا من الأوجاع بمختلف أنواعها ودرجاتها. تصبح أفضل الأماكن في هذا العالم أو قل في مرحلته المباركة هذه تلك النوادي التي أسسها مراهقون سبقت لديهم الحكمة بياض الصدغين. القاعدة أن يُنزع داخلها كل ما يستقرّ الانتباه. لا كتب، لا حواسيب، لا هواتف ذكية، لا صور أو معلقات على الحائط... خاصة ألف عياد بالله حلقة نقاش في أي موضوع. فقط كرسي بسيطة للجلوس أو أسرة خشبية للاسترخاء والفعّل الوحيد المسموح به في جزيرة الصمت هذه وسط صخب الحيّ عدم ارتكاب أي فعل. ربما الشخير وهو فعل ليس بإرادتنا.

أخيرا يمكنني التوقف عن الركض والاستلقاء على أول أريكة التقط أنفاس عقود من الجري.

يا بَشْر، ذلك الوجهُ البشع للعالم، تصارعوا، تنافسوا، تصايحوا، تخانقوا، تقاتلوا، لكن رجاءً تبخروا من وعيي ومن ذاكرتي، لا تفسدوا عليّ هذه اللحظات الثمينة.

”لا أفكر في شيء
وهذا الفراغ
لذيذ كنسيم ليل
بعد يوم قانظ الحرّ“
(فرناندو بَسّوا)

وفي هذا العالم -أو قل طوال حالته المباركة- نهايةُ الحياة كبدائيتها أيا كان المكان الذي نضع فيه رحلنا مجرد انتقال من وضع إلى وضع.

يختار الشيخُ الموفورُ الصحبةَ موقعا مريحا وسط الأعشاب والأزهار. يستلقي على ظهره يتابع -كما فعل دوما- مرح قطعان السحاب. ينتبه إلى شبح شيخ منحني على الأرض يعدّ بمسحاته القصيرة المعقوفة الصحراء لوعد القمح إن جادت السماء يوما بالمطر. يرفع الشبح رأسه يجيل حوله البصر انتبه لوجود الخيال الحبيب. يمسح جبيننا بلّله العرق ثم يعود إلى مسحاته يضرب بها الأرض ببالغ اللطف كأنه يخشى عليها من الوجع. ينتصب مجددا ينظر للذي يلاحقه بالنظر. يرفع يده مودعا ثم يختفي. تأخذ سحب عابرة كل ألوان الورد تحضّر لمراسم الغروب. تضع السماء نقاب الليل وتلمع في الأفق أولى النجوم. يتضح مغزى الوصية التي حاول الطفل فك رموزها يوم كان واثقا أن سماء الليل سيورة الكون والنجوم أحرف رسالة كتبها له صديقه الله.

يغمض الرجل عينيه وكل ذاته تسترجع الأنغام الساحرة التي ارتضاها آخر تذكاري قد يسمح له بحملها إلى ما وراء الباب المهيب. تتداخل الأصوات وتفترق، تملو وتتخفض، تتسارع وتتباطأ فتندوب الروح في هدير أصوات الرجال وفي حلاوة أصوات النساء. تصل الصلاة ذروة الجمال والجلال تتضرّع إلى الربّ بلهجة استعطاف الطفل لأبيه: ”ابق معنا، ابق معنا“ كأنّ الصدى نفسه ينفخ بقوة في منديله هامسا: تطالبونني بالبقاء لا تعلمون أنني كنتُ دوما معكم” بين الضلوع تقلّبه الأنفاس جنبا إلى جنب.

لم يبق على المرتحل غير تحين لحظة القفز فوق آخر نوطه عائدا لبيته العتمة والمطية نغم.

نعم، كم صدق الشاعر:

”ثمّة شيء محبّب (شيكي)

في هذا العالم

الذي جنبناه للموت“

**

بخصوص الفن وكيف يمكن أن نجعل منه هدف الرحلة وفي أسوأ الحالات تبرير ثمنها الباهظ

تهمس الأم في أذن ابنها أصبح مراهما.

- يا بُنيّ إنك تصمّ آذانَ الجميع والجيرانُ يتنمّرون. ألم تملّ من هذه الأسطوانة تسمّعها ليلا نهاراً؟

- ليذهبوا إلى الجحيم، اتركيني، لا يدخل أحد غرفتي.

ها هي تردد لنفسها "اسم الله على ولدي" وبها قلق لا تخفيه وهي تفاجئني نصف عارٍ، منتصباً على السرير، في حالة متقدّمة من الهيجان أقود بمسطرة الحساب الأوركسترا الضخم في فضاء لا تراه لا هي ولا من يختبئون وراءها من إخوة مذعورين.

- يا بني لا يمكن أن يتواصل الأمر هكذا. حقاً بدأتُ أخشى أنك...

لوثة من الجنون؟ كلاً وإنما موجات متتابعة من الفرح الغامر والروح في وصال مع مستويات مجهولة من الموجود. تخامر المراهق يوماً فكرةً غريبة، الوحيدة التي نجحت في إخراجها من الإدمان على نفس الأنغام الساحرة. السمفونية الخامسة؟ ثمة إذن أولى وثانية وثالثة ورابعة، ومن يعرف؟ ربما سادسة وسابعة... بهذه الروعة؟ مستحيل. المعجزة لا تتكرر... لكن ماذا لو!

يتوجه المراهق لبائعة الأسطوانات:

- سيدتي، هل لك سمفونيات أخرى لبتهوفن؟

- أسفة لكن عندي الكثير من سمفونيات موزارت وهايدن وتشايكوفسكي

- من؟ لا أريد إلا بتهوفن.

- انتظر، أنت محظوظ. أظنّ أنه بقيت لي اسطوانة أخيرة للسمفونية التاسعة.

تتسع ابتساماً العجوز وهي تمدّ إليّ كنزاً من أغني كنوز البشرية لا يكلف الحصول عليه أكثر من ثمن علبة تبغ.

- التاسعة هي السمفونية الوحيدة بالغناء، لكن المغني ليس بتهوفن.

تتجدّد المعجزة. يجثو المراهق على ركبتيه وقد ابتعت روحه الصلاة، لكن إلى من يتوجّه بالابتهاال والحمد والشكر؟ ربما جزءاً من الشكر لامرأة رحلت منذ زمن بعيد ورفضت إلى النهاية أن تُصدّق أن صبيها بذلك العمر ومن أمة أخرى يمكن أن يهيم حباً بكل سمفونيات بتهوفن، أن يجعل من التاسعة ملجأ المختار للفرار ممّا يزخر به العالم من شرّ ومن قبح.

تمرّ السنوات ويمكن للمراهق وقد أصبح كهلاً أن يحضر حفلاً تُقدّم فيه السمفونية الخالدة.

يومها تأجج الانتباه بالغاً أقصى قدراته لتترسخ قناعة أنه لا شيء يبزّر وجود الأدمية ويغفر لها موبقاتها عدا قدرتها على إيجاد الموسيقى.

القاعة غارقة في صمت مهيب والكل يحاذر من الكلام أو من السعال والعطس.

الأدميون جالسون جنباً لجنب وأيديهم خالية من كل سلاح.

كلهم انتباه، انتظار، تشوّق إلى شيء يعلمون أنه سيحرك داخلهم من الأحاسيس والمشاعر ما لا يجزّونه إلا نادراً.

أين ترى تصرفات كهذه إلا في المعابد؟ لكن ألسنا فعلاً في معبد وبصدد ممارسة طقس قدسي؟

تأمل العازفين. هم خلافاً للمتألمين لا يواصلون صراعات ما نسميه الواقع، لأنهم خرجوا منه وعليه.

تأمل تلك المرأة التي ستعزف على الناي. إنها لن تغرس أظافرها في عنق زميلة لم تعد في هذا المكان منافسة.

ستواصلان الانتباه كل واحدة لما تفعله الأخرى وستتعاونان تعاوناً وثيقاً صامتاً.

لا وجود الآن وهنا لصراع نرجسيات. لا عازف ضرب أو سيضرب عازفاً آخر لأنه يشوّش عليه ويسرق منه الأضواء. لا أحد خرج أو سيخرج غاضباً بعد رمي آتته على الأرض لأنه لم يأخذ حقه من العزف.

المهمة الآن وهنا موزعة بكيفية مرضية لا تحتاج إلى قاضٍ أو محامٍ. هي مبنية على انضباطٍ حرّ، على ثقة متبادلة، على تظافر الجهود وكلّ فرد يعلم أن نجاحه مرتبط بقدرته على التناغم مع كل الآخرين.

كم هم مُدهشون هؤلاء البشر الذين سينغمسون في النفخ والنقر وذبح أوتار الكمان!

كم هم مسالمون، وقورون، منضبطون، متحدون، متفقون، متعاونون!

أين ومتى ترى شيئاً كهذا في علاقات الأدميين ببعضهم بعضاً؟

تأمل الآن الأدمي الواقف مديراً ظهره للمستمعين وعصاه المرفوعة إلى الأعلى، سترسيم في الفضاء أو امره ونواهييه.

لا أحد سيصرخ أنه غير متفق على ما يأمر به. لن ينهض أحد ليقفك عصاه بحجة أنه أصلح للقيادة. هو لا يستبدّ بقرار أو بأحد عندما يأمر هذا بالنطق وذاك بالصمت وآخر برفع الصوت ورابعاً بخفضه.

هو مُطاع لأنه يعطي لكل واحد الفرصة كاملة ليلبور أحسن ما عنده همُّه الوحيد مهمته الكبرى، إبراز المواهب والتنسيق بينها. إنه السيد الخادم الكفاء الذي لم تجده السياسة والإدارة أو التعليم. لماذا لا يكون نموذج كلِّ من يملك سلطةً هذا الأدمي الذي تُنفَّذ أوامرُه ونواهيه وهو لا ينطق حرفاً ولا يهدّد أحداً.

إن نظرت إلى طيف التتظّم عند الأدميين تجد العصابة في طرف وفي الطرف الآخر الجوقة... أقصى الهمجية والفوضى، أقصى التحضّر والانضباط ووراء المعجزة الموسيقي.

فجأة يرتفع صخب يدشن به العازفون كل حفل، ربما ليذكروا بما تصدره الآلات من أصوات مُنكرة عندما لا يفرض عليها الأدميون الانضباط.

ثم يصمت النشاز لتتصاعد من آلاتٍ بالغة البساطة أنغامٌ لم ولن تفقد سحرها أيا كان المكان والزمان.

نصيخ السمع للتأكد من غياب خطر ما، والأصوات، أصدرت من الكائنات أو من الأشياء، إنذارٌ، تهديدٌ أو طلبٌ.

الآن وهنا، الأصوات المتصاعدة من الجوق لا تنذر بخطر، لا تهدّد بعقاب بل ولا تطلب شيئا وهي قَمّة البذل.

على أقصى طيف التجربة البشرية: صراخُ الرعب والألم المتصاعدٌ من ساحات الحرب... على أقصى الطرف الآخر أنغام

ساحرة تشفي أوجاع الروح والجسد من معابد الجمال والفنّ. مطلق الصراع والفشل هناك، قَمّة التعاون والنجاح هنا.

في علاقتها بهذا العالم الذي تبلورت فيه وانبتق فيها تعبير الذات عما يعتمل داخلها من عواصف ومن هدوء بالألوان فيكون

الرسم، بالكلمات فيكون الشعر، وبالأصوات فتكون الموسيقي.

ها هي تتحرّك بنسقتها، تغور معها في دهاليز الكآبة وترتفع معها إلى حيث النور ولا شيء غيره.

انطلقى يا روعي إلى ما وراء الحواس، إلى ما وراء الأفكار، إلى ما وراء أحلام النوم واليقظة، حلّقي، رفرفي، زغردي،

غني، ارقصي، ارتفعي، ترّفعي، توهّجي، أضيئي لي ما بقي من الطريق.

يا للمهندس الألمعي الذي جَمع هذه الأصوات وفرض عليها النسق والنظام مستخرجا من فوضاها شكلا، من تفرقها وحدة،

من تنافرهما تجانسا، من بلاهتها ذكاء، ومن قبحتها كل ما يزخر به العالم من جمال!

العالم الذي نعبّر معطى أفعال الأدميين يملئون جيلا بعد جيل دون كلل أو توقف الفضاء الحسي وبقية الفضاءات الأخرى بما

تنتج سوا عددهم وعقولهم ومخيلتهم.

تبلور هذه الأعمال بحجمها وتعقيدها وتواصلها عبر الزمان اغرب خاصية عند البشر ألا وهي القدرة على إعادة خلق العالم

على ذوقهم وكأنهم لم يجدوا فيه ما يكفي من الطرافة والجمال.

ينكبّ الطفل على خربشة صور كائنات غريبة يملأ بها كراسه ويكتشف الكهل أمام لوحات أكبر المتاحف أن هناك من الأطفال

من لم يتوقفوا مثله أبدا عن لعبة إعادة التشكيل الموجود.

تنتظر للوحات رامبرانت فلا تحصي ما فيها من أشكال وألوان وهذا أقصى الامتلاء. تتأمل لوحات الفنّ الصيني فلا ترى إلا

سطرا يغلّق على بعض النقط وهذا التجرد الأقصى. يبقى الفنّ يصول ويجول مجربا في كل رسم إعادة تنظيم الأشياء، مرورا

من أقصى الفراغ إلى أقصى الامتلاء، من النسخ إلى المسخ... والمبحوث عنه شيء مبهم لم تتضح بعد طبيعته، على افتراض

أن له طبيعة ستتضح يوما.

مع بيكاسو، يدير الأدمي ظهره لمشهد العالم، شبع من جمال الطبيعة وجمال الأجساد، وكل ما يعنيه الآن ما يستطيع أن يخلفه

هو، وقد أصبح إليها لحسابه الخاص، والعالم الذي ينتظر الخلق للوحة الفارغة.

كأنه محكوم على الفنّ أن يفتت ويجمع إلى الأبد وكل بحث فيه مراجعة للبيدييات والطموح اكتشاف حالات، إن لم تكن أرقى،

فعلى الأقل مختلفة وجديدة.

تسمع الفنان الصيني يعزف على نايه فإذا به يحاور العصفور الذي بداخله والذي يشدو على الأغصان. تسمعه ينقر على

الأوتار فإذا بخيرير الماء حبات لؤلؤ منضود. تسمع فالتسات شوبان وسوناتات شوبرت فيشنتف الأذان التناسق والنظام، لأن

الموسيقي، وإن ابتعدت عن تقليد صوت العصفور والرعء، ما زالت تقلّد عالما من قوانينه النسق والنغم والجمال. ولما تنطلق

عملية استكشاف النقطة القصوى من ممكن الصنع، تعطيك موسيقى ستوكهاوزن، الفوضى والنشاز، راسمة بالصوت ما يرسم

الشاعر بالحرف عن عالم لا تسطع فيه الشمس إلا مرّة واحدة، يبرز فيه نصف قمر أخضر مثلث الشكل، يعوي فيه ذئب

مصاب بانفصام الشخصية، وينفخ في أذنك طفلا يتمرن على مزماره.

يدوي قرع الطبول في سمفونيات بتهوفن فيحضر البرق والرعد داخل الروح لا في السماء.

هذه السمفونية، معلّم بناه الأدمي لا من الحجر وإنما من الأصوات، بلوّره من ممكن الصنع الذي تسمح به الأصوات، مثلما

بلور آخرون كاتدرائيات الحجر من ممكن الصنع الذي تزخر به المادة الصماء.

العمل الفني الآن على مستوى ما حققه الإبداع البشري في كاتدرائية ستراسبورغ وهرم خوفو ومقبرة التاج محلّ ورباعيات الخيام ومعادلات ماكسويل. الفارق معدن الصنع، القاسم المشترك توك آدم إلى ما لا يستنفذ اسم أو صفة أو فعل. أي كائنات أخرى قادرة على شيء كهذا؟

هل تكون الموسيقى هي ما خرجنا نبحت عنه؟

تقول عقدة لا تستقيم لقصة القصص، ألم تكن الجنة تزخر بأرقى أنواع الموسيقى كما تزخر بكل الطبيبات الأخرى؟ الردّ أنه يمكن للجنة أن توقّر كل شيء إلا الشعر والموسيقى وكلّ أنواع الفنّ بما أنها المكان الذي تحققت فيه كل آمالنا ورحلت منه كل آلامنا والموسيقى كباقي أشكال الفنّ لا تتفجّر إلا من ذاتٍ موجوعة جذلي تتقلب بين السعادة والشقاء، بين الحزن والفرح، بين اليأس والأمل.

لم يبق على السمفونية إلا إعلان نهاية الجداد وأن الفرخ عاد سيّد العالم، تصالحنا أخيرا مع ذاتنا ومع كل ذات بل وحتى مع العالم والصدى مرتاحٌ لنجاح تجربته، راضٍ عن أدائنا وفخور.

تتعالى الحناجر بالنشيد الرسمي للبشرية، انتهى الصراع بين الكلمة والنغمة تظافرت الطاقتان لترتفع السمفونية إلى قمم لم يرق إليها من قبلُ فكرٌ أو خيال والشعر من الأزل موسيقى بالكلمات والموسيقى من الأزل شعر بالنغمات.

"تقدّموا (شَلّر)

تسارعوا

بزغت الشمس

وهذه قبلة باسم الأرض كلها

تأتيكم من وراء القبة السماوية

هناك حيث يوجد أبونا الذي في السماوات

أسلموا أرواحكم إلى غامر الفرخ

وأنتم، اركعوا أمام الأب المقدّس

ابحثوا عنه بعيدا وراء القبة السماوية.

ابحثوا عنه. ابحثوا عنه... ابحثوا عنه... ابحثوا عنه".

**

شوق الأدمية لبيت أبيها وكيف تشبع حنينها بالعودة دوريا إلى الباب المهيب تطرقه بلا كلل

للبحث عنه، شدّ قدماء المصريين الرحال إلى أبيدوس، والإغريق إلى دلفت، وقبائل البريطانيين إلى ستونهانج-درنتون، وقبائل الأنكا إلى ماتشو بيتشو، وقبلهم جميعا شدّت الرحال إليه قبائل لم يحفظ التاريخ اسمها لأماكن عفا رسمها منذ زمن سحيق. ثمة من الأدميين من يتدافعون الى اليوم بحثا عنه نحو تلّ مرتبّ تائه وسط الصحاري الحمر، أو جبل يُدعى طایشان، أو بحيرة اسمها كايلاش، أو معبد على قمة اسمه بوبا أو أماكن اسمها شافين، كوباكابانا، بيت لحم، روما، فاطيما، سانميشال، طوس، كياف، هاردوار، ارميستار، بنارس، أمارناط، لاهاسا، شيكوطو، بوروبودور، القدس، سان جاك...

كم من أماكن في الفضاء الحسي اصطفها البشر لتمييزها بخاصية ما أو بصفة اعتبارية يرون فيها البوابة للعالم المخفي الذي توجد وراءه كل الأجوبة! ..كم من صور ومن أسماء ومن صفات أعطيت لهذا الذي يوجد وراء الباب والذي تجمع تصورات البشر أنه المتحكم في قواعد اللعبة ومصائر كل اللاعبين! كم من قصص ومن أساطير نسجت حول اسمه وخصائصه وأهدافه قلّ من ينتبه لاستحالة أن يكون له اسم أو طبائع أو أعداء وكلها من خصائص البشر! ... ومع هذا كم من اقوال ومن أفعال نسبت له وكم ستواصل الأجيال القادمة نفس التفكير العثي! ... يا للقوى المبهمة، يا للغريزة الجبارة التي تحرك البشر منذ وجودهم على هذه الأرض يواصلون -وراء كثرة الأسماء وفوضى الأساطير ودموية الصراعات حول أفضلية هذه الأسطورة على تلك- البحث عنه بلا كلل!

بحثا عن لقاؤه يشدّ بنو قومي الرحال منذ قرون إلى مكان اسمه أم القرى.
تنتهد "ما":

- كم أنا سعيدة أنك ظفرت بما كنت أتمناه لك دوما.

لي فقط؟ كان الحجاج حلمها طوال حياتها... الحلم الذي رفضت النوح به حياء من أن يُعتبر طلبا وتكليفًا.

كم ردّدت لنفسك أنا جدّ مشغول هذه السنة سأخذها إلى الحج السنة المقبلة. نعم، السنة التي تليها فما زال أمامنا متسع من الوقت. هكذا من إرجاء إلى آخر إلى أن...

- السنة المقبلة. كلمة رجال هذه المرّة.

- فات الأوان يا بني، فات الأوان.

- أي أوان هذا الذي فات؟

- نعم. يا بني لم يفت أي أوان.

كيف أهون عليّ والسرطان ينهش جسدها والشعور بالذنب ينهش روحي.

تفهم "ما" الذي يختلج في صدري.

- هون عليك يا بني... تلك إرادة الله... ما أريده أن تروي لي أخيرا كل تفاصيل حجّك... لست مستعجلا، أليس كذلك؟
نعم، لست مستعجلا هذه المرّة.

- قيل لي في الهاتف ودون مقدمات: تم اختيارك لتشرف على البعثة الطبية المرافقة لحجاج هذه السنة. الموعد غدا فجرًا في المطار. تدبّر أمرك. لا تحتج ولا تلعن. تُعرف الإدارة وكيفية عملها. على كل حال هذه فرصة ينقاتل عليها غيرك في الكواليس.

ربما عيّنوني للمهمة لأنّسك فلا أرجع لمواصلتة تغيب عيّنهم، أو أملا أن تسقط بي الطائرة فوق الصحراء.

- بعد الشرّ عن كبدي، والآن أصدقني القول، لماذا تفاديت دوما أسئلتني عن حجّك ولم تقم بمراسم التبريك عند الرجوع؟
خجلان أن ينادوك حاجا وما زلت شابا؟

خجلان؟ بعض الشيء... قرفان بعض الشيء الآخر؟ أصف كل ما حدث أم أنا فاق أنا أيضا؟

مما بقي محفورا في الذاكرة أن السعي إلى مكان أهمّ المواعيد يبدأ بالوقوف ساعات مضمّنية في طابور تسوده الفوضى لتسجيل حقائب ملأنة بالثياب وبما أعدته زوجة كأنها تخشى عليّ من الموت جوعا.

تحشرنى مضيفة الطائرة في مقعد الوسط بين مدينة بشعة وشيخ أسمن منها، ليواصل الشيطان -المكفّف بالسخرية من أحلامي- التنكيل بي، فالشيخ -وهو بالصدفة الجالس قرب النافذة- مُصاب بمرض البروستات ومضطرّ إلى الهرع للمرحاض كل ربع ساعة يسحقني ببطنه الضخم لا يكف نفسه الاعتذار أو حتى بسمة الحرج.

بعد ساعات قليلة تلفظني الطائرة المكتظة في مطار لأعاني فيه الأمرين من الزحمة والفوضى وعنجهية صغار الموظفين. يفتشني شرطيّ عابس يبحث في جيوبي وفي حقبيتي عن الكتب الممنوعة. أحشّر وسط التدافع الشرس داخل حافلة مكتظة تتوجه إلى أولى مدينتي الحج.

إغماض العينين. انفصال عن الصخب والحرّ والروائح. الفرار. عميقا داخل فضاء خيالي تتداخل الأفكار وتتسارع الصور.

ها أنا أتحرك المسبحة في يدي اليسرى وسلاحي في يدي اليمنى على ظهر ناقة بيضاء عُلقَت في عنقها الأجراس والتمايم، النوم بالنهار والسفر ليلا تحت القبة المرصعة بالنجوم. خُطاي في خُطى أجداد كان حجهم مغامرة العمر. عائد إلى وطني فهذا الطريق هو الذي أتى بهؤلاء الأجداد. رحلتي عودتهم إلى ديارهم والطريق كان أطول مما توقَّعوا والزمن أقصر مما تمنوا... مدينة عريقة هي أولى المحطات قبل مكان الموعد... مازة يتغامزون: درويش من بلاد المغرب يبحث بين الرصافة والكرخ عن أخبار ذلك الزنديق. هنا أركبوه البغل. عبر هذا الطريق ساقوه إلى ساحة الذبح. هنا جلدوه ألف سوط وهو يردد: أحد، أحد. هنا قطعوا يده اليمنى ورجله اليسرى. هنا صلبوه. هنا انتظر -ودمه ينزف- إذن الخليفة بضرب عنقه. هنا علَّقوا رأسه. هنا حرقوا جسده. هنا تصاعدت روحه لتلتحق بروح الأرواح. عشية الرحيل معتكف في المسجد. ورائي ملثم يهمس: يقول لك الشيخ هون عليك سيقترك كل هذا الألم. كم، صدق من قال "للناس حجّ ولي حجّ إلى سكتي".

محطتي الثانية مدينة عريقة هي الأخرى. عشية الرحيل وأنا معتكف في المسجد يقف خلفي ملثم هامسا: يقول لك شيخنا هون عليك سيقترك كل هذا الألم. ردّ لهم أن قلب الحكيم قابل بكل صورة له، أنه لا دين لمؤمن أين توجهت به ركائبه إلا الحب والإيمان. علمهم ما قصدت عندما أنشدت: عقد الناس في الإله وأنا اعتقدت كل ما اعتقدوا.

أخيرا المكان المقدس أين ضُرب لي الموعد. نهلت من النبع القدسي. أتممت المهمة. لم يبق إلا للرجوع لأبشر "ما" أن المنزّه عن كل صفة قبل منّي إنسانيتي.

قافلة الرجوع ستكون محملة بتوابل سرنديب، بحرير الصين، بلبان حضرموت وبعطور سقطرى، محملة بالهدايا لها ولكل البشر البحث عن قطاع الطريق لإعطائهم منابهم مما تنن بحمله الإبل. على تخوم واحة الآباء والأجداد سأطلق سراحي لتتعم هي الأخرى بالحرية ومسؤولية تدبر عيشها. أنا الآن داعية الشيخين أوصل جهادهما. أمامي السلاطين وفقهاء السلاطين صفوف متراصّة والشرر يتطاير من عيونهم. دمي مهدر أنا أيضا. الفرار! إلى أين والسلاطين والدهماء وفقهاء السلاطين في كل مكان.

فجأة يتوقّف اللحم اليقظان وأنا أسمع زعيق الفرامل وصراخ الركاب:

- حقيبة سقطت من سطح الحافلة!

يتوجّه إليّ السائق بلطف: آسف، يا سيدي إنها حقيبتك. لماذا أصررت أن توضع هي الأخيرة فوق كل الكومة؟ أرجو أنها لم تتفجر وأن أعضاك لم تتبعثر.

صحيح أنني أمرته بذلك وكنت في ذروة افتعال الأثرة وتبجيل الآخرين. بعد البدين والفوضى والبوليس والتفتيش المهين، جاء الدور على حقيبتني. أيعقل أن تصبح أقدس سفرة حملت بها سنين هذه المهزلة؟ من هذا الذي يسخر مني منذ بداية السفر؟ إن كنت غير مرغوب فيه في هذه الديار فليكن. سأقفل راجعا. لم أكن يوما ضيفا ثقيلًا على بشر أو إله. ثمة في داخلي من الغضب ما يكفي لأمسك بالحقيبة مديرا ظهري إلى الكل ومتجها نحو المطار.

أحاول وصف المشهد أو تمثيله ل "ما" لتتخيل كيف نزلت من الحافلة متوجها إلى حقيبة لم تنفجر لحسن الحظ رابضة تنتظرني على الاسفلت، كيف رميتها بالحجارة من بعيد فإذا بها تقفز في اتجاهي تحاول عضي مما جعلني أهول نحو الحافلة لأحتمي بها والحقيبة اللعينة تركض ورائي والقمر يحرضها عليّ.

تضع "ما" يدها أمام فمها تمنع تقفّر الضحك. ترفع رأسها بصعوبة عن المخدة تحدق فيّ مطولا.

- يا بني المهم الوصول إلى بيت الله والعودة منه سالما وليس كيفية الذهاب والإياب.

- الطريق بالنسبة لأمتالي أهم من... لنقل إن للطريق أهمية كبيرة.

بل هو لي كل شيء... آه يا أولى خطوات المغامرة المقدسة والأخطار كامنّة في كل منعرج، متى تعودين... متى تعودين؟

في طقوس قومي أنت لا تذهب مباشرة لموعدك مع سرّ الأسرار.

يجب أن تمرّ قبل ذلك للسلام على من أشر لأقصر الطرق المؤدية إليه.

ومما رويته للمحتصرة أنني لم أصبر على اللقاء، أنه حال وصول "المنورة" آخر ساعات الليل رميت بالحقيبة اللعينة على فراش النزل، أنني هرعت إلى المسجد أترنح من التعب وبي أمل ساذج أن أكون أول الداخلين، فإذا بي آخرهم.

زحمة مخيفة. تدافع فظ غليظ لا يتحول عنفا جسديا إلا لحرمة المكان.

حملني تيار الأمواج الأدمية إلى قبر المصطفى حيث تشرئب المهج والعيون.

فجأة وأنا أخيرا على مقربة منه، رنّ أبغض صوت تسمعه أذن. السوط!

لكن هل يساس هذا الجنس اللعين بغير السوط، تلوح به في وجوههم وتشوي به أجسادهم كلما تجاوزوا حدا لا يجبون شيئا قدر حب تجاوزه؟

لا شك أنهم كانوا دون هذا السوط يسرقون أحجار القبور الثلاثة وما بداخلها من رميم، لا يتركون حجرة أو عظاما ليبنوا حولها في شتى أصقاع الأرض قبابا وزوايا يضعون داخلها ما سرقوا وأن لصوصا يسرقون ما سرقوا، ومزيفين سيزيّفون ما فاتهم من غنيمة.

من يتذكّر اليوم في بلدان الغرب العلماني رواج تجارة العظام المزيفة والمسامير المزيفة لصليب المسيح وكلّ الآثار التي كانت حيازتها جزءا هاما من سلطة الدنيا؟ من يتذكّر أن مدينة باري بنت مجدها طوال النهضة على الحج لرؤية رميم القديس نقولا... أو أن هذا الرميم سُرق من مدينة قديمة اسمها ميرا كان القديس أسقفها وأن أهل البندقية سرقوا السراق ليزينوا به كاتدرائيتهم وأن كل المسروق كان مزيفا؟

نعم ربما ثمة ضرورة للسوط للوقوف في وجه جشع لا يشبع. بقية الأحداث. حازرت لأبقى بعيدا عنه لأقترب ما أمكن من مثنوى الذي كانت "ما" تهمس باسمه عندما يأخذ العالم بخناقها تنادي من تؤمن أنه الشفيع الذي لا تُردّ له شفاعته.

يصرخ في أحدهم: تحرّك يا أخي أنا أيضا أريد إلقاء نظرة على قبر سيدنا. يدفعني آخر بمنتهى الغلظة: تقدم مالك؟ لست بذاهل وإنما في حالة من صفاء الذهن والذاكرة.

هنا يرقد من سيّسّمى باسمه الملايين عبر العصور... الإنسان الذي ستعبر كلماته الصحاري والجبال والبحار والغابات، يتردد صداها من جيل إلى جيل... الإنسان الذي طلع على الأدميين وأتاهم بالخبر اليقين، الإنسان الذي تقدّست معه الكتابة، الذي أقطعتنا وطنا اسمه لغة الضاد.

"وقيل كل نبي عند رتبته ويا محمد هذا العرش فاستلم (أحمد شوقي)

خططت للدين والدنيا علومهما يا قارئ اللوح بل يا لاس القلم
أحطت بينهما بالسر وانكشفت لك الخزائن من علم ومن حكم

أجيل البصر مطولا بين مثواه الأخير ومثنوى الصديق الراقد جنبه!"

"الثاني المحمود شيمته وأول الناس طرا صدق الرسلا (حسان بن ثابت)

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعد الجبل

خير البرية أتقاها وأرامها بعد النبي وأدناها بما حملا"

وعلى جنبه الآخر يرقد الفاروق، الرجل الغضوب، الحازم، العادل الجريء... المنارة "ومن في البرية كالفاروق معدلة".

يا لهؤلاء الموتى، يعلمون الحشود وهم صامتون، يحرّكون الجحافل لا حراك بهم، يُطاعون ولا أمر يصرخون به.

- عد إلي... كيف كانت الساعات الأولى؟

- تواصلت المهزلة بل كادت تتحول إلى فضيحة لو لم يقرّر الساخر المجهول أنني عوقبت بما فيه الكفاية على ذنوبي التي لا يعرفها إلا هو والبوليس السياسي. قالوا وقد حان وقت الصلاة: تقدّم لتؤمنا. كيف أعترف لهؤلاء الناس، وفي مثل هذا المكان أنني انهمكت في الإعداد المادي للبعثة ولم أعد إلى تعلّم طقوس نسيب قواعدها منذ زمان بعيد، لا علم لي بعدد الركعات ومتى يجب الوقوف والسجود وماذا يُرتل في الأثناء. كان حقًا موقفا محرّجا للغاية. النجدة يا كلّ من يهّمه أمري!
تنسّع ربع ابتساماة "ما".

- لا تقل إنك لم تجد مخرجا وبراعتك في دخول الورطات براعتك في الخروج منها.

- من استجاب لندائي؟ "الغوث"، "المحجوب" مدعوما ب "سيدي محرز" وبقية الأسياد والسيدات... بركتك أنت؟ المهم أن ربنا سترني ذلك اليوم من فضيحة مدوية. كنت أفكر بمنتهى السرعة في حلّ اتضح لي فجأة وأنا أنتبه إلى ممرض يكسو الشيب شعره. علمت أنني سأخرج من الورطة بل وسأكسب منها حليفا متينا. تتحنّث بوقار ثمّ توجهت إلى مساعدتي قائلا:
من شيمنا تبجيل أكبرنا سنا، فليتقدّم فلان يوم بنا هو الصلاة، لا فضل لطبيب على ممرض إلا بالتقوى.

لا تقوى "ما" على التماسك فتنفجر ضاحكة. ثم تستعيد وقارها.

- يا بني، عيب أن تذهب ل. دون أن...

- إنها غلظة "با" لما فرض عليّ الصلاة بالقوة وأنا في السادسة أو السابعة. لم أدخل من الجوامع إلا ما جرّني إليها بالقوة أيام الجمعة والأعياد. كنت أنتظر أن يسجد لأخرج له لساني. كان يتمم بالأيات وأتمم بالمحفوظات. اختبار قوة آخر بين طاغية يأمر وينهى، لا يكلف نفسه عناء تفسير أسباب الأمر والنهي، وبين متمرّد بالسليقة لا يزيده التجبّر إلا عنادا على عناد. ولما ابتلعه المجهول من جديد فسخت كل الطقوس من ذاكرتي رفضا له لا رفضا للطقوس.

على فكرة، أتذكرين يوم عاد من حجّه ليدعو نصف المدينة إلى ولائم المباركة ويعيد طبع أوراق المكتب وحتى ملفات القضايا القديمة، واضعا لقبه الجديد أمام اسم كان يدعي دوما أنه بغير حاجة إلى ألقاب الغرور.

تضع "ما" يدها أمام فمها، من أين لها أن تخفي تفجّر الضحك في عينيها.

- يا بني حرام عليك. أبوك صلى الخمس في أوقاتها منذ رجوعه.

- شريطة أن يوجد أحد يصلي أمامه، بل قولي: يمثل أمامه ولو كان القط.

- يا ولد، أنت لا تغتاب الناس باستثناء والدك، حرام عليك.

لا أحب إلي من إسماعها ما تريد أن تسمع عنه.

- تظنين أنني أغتاب من هبّ ودبّ؟ وهو؟ هل رضي يوما أن يغتابه إلا أمثالي؟ ألم يردّ دوما: كن أسدا وكُلني؟

لم يكن لي طوال الرحلة غيره خصما و منافسا... كلُّ من لعبوا الدور لم يكونوا إلا أشكاله الباهتة. يوم خيل لي أنني

انتصرتُ عليه بالضربة القاضية اكتشفتُ أنني لم أركض إلا وراء الأهداف التي حدّدها هو ولم أحقق إلا مطامحه هو.

من النبرة والقسمات، الأمر ليس الكفّ عن اغتياب الرجل وإنما مواصلته. حتّى "ما" تعرف الخبيث! تكتشف يوما أنك لا

تعرف الأدميين، مهما عرفتهم بفاجئونك حتّى وهم على فراش الموت. من كانت حقا "ما"؟ من أنت يا "تفاحة"؟ من أنت يا

تفاحة؟ وأنت التي قاسمتني الفراش سنين، أي كائن كنت أضمّ بين ذراعي؟ من أنت أيها الرجل الذي تقدّمت إلي دوما تحت

اسم "با"؟

- واصل، لا أريدك أن تسكت.

-كيف! ألا تعرفين القصة... لَمَّا وصل "أين في الناس" الأراضي المقدسة...

- يا ولد...

- عفوا لما وصل زوجك الأراضي المقدسة.

- يا ولد!

- عفوا لما وصل زوجك وأبو أولادك الآخرين...

- يا ولد!!

- طيّب يا لثة، لما وصل "با" الأراضي المقدسة ونقلنا عن الذين رافقوه أنه نزل في أفخر فنادق يثرب وأم القرى ولم يخرج

منها إلا نادرا حتّى لا يضطرّ إلى الاحتكاك - هو الذي لم تحمّل أمّه غيره - برعاع القارّات الخمس مدّعيًا أن كل أمراض

القاموس العالمي للطبّ هاجمته في آن واحد. تذكّرين كم مرّة أتى إلى البيت معلنا أنه دخل النزاع الأخير يمثل علينا تمثيلية

وصيّته الأخيرة، وإن كان أول من يعرف أنه لن يترك لنا شيئا نتقاسمه.

تواصل "ما" منع ريع ابتسامتها من فضح ما يعتمل داخلها.

- آه يا بني من أمراض أبيك!

- ما أحلى تلك الأيام. كآني أراك تجاهدين للحفاظ على جديتك مفتعلة الحزن والقلق، تمسحين عرقا وهميا عن جبين يحترق

بحمّى لا وجود لها، تنتظرين بين صبر وفنّاد صبر أن ينهض الرجل من الفراش صارخا: ماذا تفعلون حولي بهذه السحن

المقرفة؟ هل تظنون أنني شيخ حانت ساعته؟ اغربوا عن وجهي يا أبناء الكلب، تفرقوا لشغلكم. كانت ذاتي هي التي تستعيد

عافيتها وأنا أراه يثب من فراش لزمه حتّى يُخيفنا وربما يخيف نفسه بقرب الرحيل. ربما كان يريد أن يتأكد مجددا أننا لا

نتحمّله فقط وإنما نحبه أيضا. ربما كان يمثل اللحظة التي يربها أكثر من كل شيء، يتمرّن على امتحان لا بدّ منه متمنّعا

بقدرته على التصرف في السيناريو وإيقافه في المنعرج الخطير.

آه لو كان مريضك مثل مرضه! ... اللعنة لم لا تثبي على رجلك صارخة مثله، اغربوا عن وجهي تفرقوا لشغلكم يا أبناء

الكلب.

- سرحت مجددا، فيم تفكّر؟

- في الملل الذي عاناه إبان حجه هذا. ما الفائدة من الحجّ في مثل هذه الظروف والحال أن موعدا مع الذات في غرفة الحمام

تواجهها مطولا أمام المرأة جدّ كاف؟

تتنهد "ما":

- لم تتغيّر رغم كل هذه السنين. تقول لوالدك أبيض إذا قال أسود وأسود إذا قال أبيض. كم مرّة كنت المخطئ وهو المصيب.

- آه، تدافعين عنه! اعترفي أنك كنت دوما تحبين هذا الرجل وما تزالين.

- هو أيضا كان يحبّك، لو علمت كم كان يفاخر بك في ظهرك!

- وفي وجهي كان لا يكفّ عن الصراخ: النار لا تخلف إلا الرماد... النار لا تخلف إلا الرماد.

- وأيضا كان يردّد لي وأحيانا لنفسه: أنا الشرارة وهو اللهب.

- بجد... أم الجملة من اختراعك؟

- يا بني، لو تعرف كم كنت وأحالك لا زلت ظالما لو الدك!

مؤكد أن الرجل ظلم بقدر ما ظلم ولربما أكثر... ظلمه الوطن والديار وكم من رفاق الطريق، فردّ الفعل -كما هو الحال دوما مع الأدميين- لتختفي يوما الفوارق بين المظلوم الظالم والظالم المظلوم... ظلمه أيضا ابن ما زال على إيمانه حتى وهو كهل أنه لا تضحية إلا وكانت من الأم ولا إثرة إلا وكانت لها الرمز، أما الأب المسكين فلا نصيب له من كل هذا إلا الفتات. إنها الصور النمطية المبتذلة، لكن ماذا لو كانت نسبة الآباء الطيبين لا تقلّ عن نسبة الأمهات الطيبات ونسبة الأمهات الشريرات لا تبعد عن نسبة الآباء الشريرين؟ ماذا لو كانت التضحيات لا تختلف كثيرا عند الآباء والأمهات وأنه نفس الحب عند الكلّ حتى وإن أخفق الآباء في التعبير عنه؟ أيكون الوهم السائد الذي يُعطي للإناث الدورَ الأجل هو نتيجة استنثارهنّ بذهن وقلب الطفل في أولى وأهمّ سنواته، بينما الآباء المساكين يموتون إرهاقا بحثا عن لقمة العيش لإطعام عائلتهم أو يسفكون دمهم في ساحات المعارك للدفاع عن وجودها؟ هل الأمر نتيجة تفوّق مكرهٍ على خشونة الذكور وجهلهم بقواعد العلاقات العامة. هل نجاحهنّ في تسويق صورتهم على حساب الذكور المغفلين أكبرُ عملية غسل للدماغ عرفتها البشرية؟! كرجل وكأب، وتحمّلا لكل مسؤولياتي التاريخية في مقاومة الظلم مهما كان مصدره، وتداركا لكل ما سبق من مظالم لُجّمت بالرجال عامة وبالآباء على وجه الخصوص، وبصفتي صاحب هذا النص أكتب فيه ما أريد، فإنني أعلن يوم 7 مارس العيد العالمي للرجل حتى يكون لنا الأسبقية ولو بيوم واحد على عيد الخبيثات، أما عيد الآباء فسنجعله -نكايه في الحركات النسوية- يأخذ ثلاثة أيام كاملة وخالصة الأجر.

المرأة التي تحترق الآن طفلة تخاف أن يجرمها هجوم النوم من سماع بقية قصة مشوّقة يرويها لها ابن عاد من أغرب رحلة كم كانت تودّ أنها رافقته فيها.

- أريد تفاصيل دخولك بيت الله، لا تخش إطالة ولا تنس حادثة.

كيف لا أتوقف طويلا عند هذا المقطع من قصة الأدمية وهو عن لحظة مفصلية في تجربتها وفي تجربة كل آدمي.

من أين لي الكلمات لأصف ما لا يفي بحقه أو يستنفذه وصف؟

أقوام آتية من كل آفاق الفضاء الحسيّ بإنائها وذكورها، وشبيها وشبابها، بأقزامها وعمالقتها، بمرضاها وأسويائها. تكاد تشعر بكثافة حضور كل من تدافعوا في هذه الساحة طوال القرون الغابرة. ربما يوجد بيننا أشباح لُجّاج من المستقبل السحيق استعجلوا الحضور لا صبر لهم على طول الفراق. التأم الشمل مُنهيًا ولو للحظة حالة التشنّت والتشردم التي عانت منها عائلة ممزقة تاه أفرادها عن بعضهم البعض في عالم الانبهار والرعب.

يظنون أن لهم موعد مع الله داخل بيته والحال أن بيته في كل مكان، في كل شيء وفي كل كائن.

"فإن رمت شرقا أنت للشرق شرقه وإن رمت غربا أنت نصب عيان (الحلاج)

وإن رمت فوقا أنت في الفوق فوقه وإن رمت تحتا أنت كل مكان

وأنت محلّ الكلّ بل لا محلّه وأنت بكلّ الكلّ ليس بفان"

ما الذي أتى بهم إذن إلى هذا المكان دون سواه؟

تهمس "ما":

- عد إليّ... حدّثني... حدّثني عنها.

- أبصرتها من آخر الصفوف وظهري للباب من شدّة الاكتظاظ. مشهد ليس كمثلته في عالم الأدميين. مشهد بحر، أمواجه الخرق البيضاء للملايين وعليها أخشاب الشيوخ والمرضى طافية والمرفا مكعب أسود، بحر أمواجه لا تتدافع نحو الشاطئ لتتكسر على حاجزه وإنما تحاصره وتدور حوله لا تتوقف لحظة.

إنّه طواف الكواكب حول الشمس، طواف القمر حول الأرض، طواف الشوارد حول نواة الذرة، طواف الأحياء

حول الموت وطواف الأموات حول الحياة، الحركة الدائرية التي هي أساس كل شكل هندسي كاملٍ مكتف بذاته. من المخرج

العبقري الذي وضع لوحة يمثل هذا الجمال والجلال؟

- سهوت مرة أخرى يا بني؟

هل أحدثها عن الوجه الآخر للحجّ؟ عن الذين جاؤوا لصفقة مع الآخرة دون أن يغفلوا لحظة عن صفقات الدنيا.

- كانت حياتي طوال هذا الحجّ الميمون صراعا يوميا مع الممرضين والأطباء وهم لا يفهمون لماذا أغضب من تغيّبهم عن المستوصف أو أرفض لهم سيارة الإسعاف للتسوّق. كان الحج بالنسبة إلى أغلبهم سباحة تجارية تحت ستار تأدية واجب ديني لم أر منه إلا طقوسا قشورية كالتي عرفتها لهم دوما.

- أه يا بُني من شدتكَ على الناس!

شدتني على الناس؟ هل أنا من قال فيهم:

"عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا
فما يرعون ما قالوا وما سمعوا
وأورثوا الدين تقليدا كما وجدوا
ولا يبألون عن عي لمن سجدوا
والعدم أروح مما في عوالمهم
وهو التكلّف إن هبوا وإن هجدوا"

هذا عالم تناظري لا تكتشف فيه مطلق الروعة إلا وداهمك بنصفه المكوّن الآخر: مطلق الفظاعة.

ها أنا لأول مرة في حياتي أتحرك بأقدام غيري وعضلات صدري تدفع الأجسام الضاغطة بحثا عن النفس. أنا الآن في خضمّ جحافل تتدافع نحو ساحة الطقس الإجماعي وهي كأموج أودية جافة انقلبت في لحظة أنهارا جارفة من الماء والطيني. تأتيني خشية مبهمة أن أضيع في هذا العجين، أن يصل الضغط إلى درجة تجعلني ملتصقا إلى الأبد بالظهور والبطون والأرداف، أو أن أخرج من هذا الكابوس في أحسن الأحوال وقد بقي ذراعي الأيمن ملتصقا بصدر ذلك الأسود الفارع الطول أو أن يحمل الملتصق بي على يساري ساقي اليسرى معه إلى جاوا. كيف هو يوم الحشر إذن؟ أخيرا الساحة التي تتدافع إليها الجحافل ووسطها عمود حجري يرميه الناس بالحجارة وحتى بأحذيتهم والكل يصرخ ويسبّ الشيطان الرجيم الذي يرمز إليه النصب. لم لا أنخرط في الطقس ونحن أمام أقدم وسائل علاج الذات؟ يبدأ الطفل في الصراخ لاعنا هذا الذي تستعيز منه "ما" طول الوقت. أما المراهق النائم بعين واحدة، فهو على مزاج آخر ورأي جدّ مختلف. كيف لا يتعاطف هذا المتعطف إلى العدل والمنطق مع الشيطان وهو يكتشف يوما أنّ المسكين طولب، كما طولب آدم، وكما نطأب دوما، بالشيء وبعبسه، وكأنّ بمتحننا نيّة مسبقة لإسقاطنا في الامتحان أيا كانت الإجابة عن السؤال. فلو عصى أمر الله بالسجود لأذنب لأنه لا يُعصى لله أمر. لو أطاع لسجد لغير الله فكان الذنب أعظم؟ ثم تحميله هو مسؤولية الشر! لو أراد إله هؤلاء الحمقى الخير لهم حقًا لما سمح لموظف عنده أن يغويهم؟ أليس صحيحا أنه لو لم يكونوا قابلين للإغواء لما يغلقون عليه من حبّ الشرّ لما أغواهم غاؤ.

تتدافع أفكار المراهق الساخر تتوجّه للكهل المرحّج: كفت عن رمي هذا البريء وإن أردت الرمي فصوّب حجارتك إلى هؤلاء المجانين وإلى صدرك أنت بالذات. أليس إبليس كبش فداء ضحية سلطات عليا تحاول عبره التغطية على فشلها، ثم برّبك هل ثمة شيطان غيرّ الأدمي. نسيت أنّ من تلعنّ أولّ معارض وقف في وجه أولّ قوّة في الوجود ليصدع مرفوع الرأس: لسّت أداة أو بوقا؟ أليس هو جدك الأكبر وجدّ كل الثوار على مرّ العصور؟

"رباه لو أن في طول انتظار غد
جدوى لما أسمعك الريح شكوانا (السياب)
وما كان حتما علينا أن يعذبنا
طاغ وأن يشهد الرحمان بلوانا
النار أشهى فهات النار تصهرنا
يوم الحساب ومّعنا بدنينا
إن كان لا يدخل الجنات داخلها
إلا شقيا على الأولى وغرثانا
وكان أمرك أن ترضى بما صنعوا
فاحفظ عبيدك فالشيطان مولانا"

يرفع الطفل عقيرته بالاحتجاج: ما هذا الكفر؟ إنه الوسواس الخناس... هذا ما علّمني سيدي الشيخ وما كتبتّه على لوحى في الكتاب... ثم لماذا تلعنه "ما" لو كان بريئا؟

يرفض المراهق الجدل، على أنّ قناعة أنه المصيب. لكن ما رأي الكهل؟ ما زال مبهما في هذا الموضوع من النص والرؤيا بالكاد تكتسب أولى ملامحها. كم هي معقّدة هندستها وبداخلي من المهندسين ثلاثة لا يتفقون أبدا على رأي. كم سيكون صعبا مواجهة الأدميين بالحقيقة المفرحة المفزعة. أيها الناس لي ولكم أطيب خبر سمعتموه: الملائكة التي وضعت فيها كل الحسنات مفهوم مشخّص يرمز إلى الخير الذي في طبيعتكم وهذا الخير متجدّد فيكم، أزلي، متجدّد، لا يجتثّه عنف أو إفساد... أيها الناس لي ولكم أسوأ خبر سمعتموه: الشيطان الذي وضعت فيه كل الموبقات مفهوم مشخّص يرمز إلى الشر الذي في طبيعتكم وهذا الشرّ متجدّد فيكم، أزلي، متجدّد لا يصلحه فنّ أو علم أو دين.

ألنفت حواليّ وقد داهمني الخوف أن يكون داخل الحشد بعض المخبرين المختصين في قراءة الأفكار. لا يبقى عليّ سوى إطلاق أحد صراخ لأثبت للجميع أنني من أكبر الساخطين على الشيطان الموجود فعلا خارجنا، وأنا لسنا هنا لنتنم أنفسنا والتخلص ممّا بداخل الذات من نجاسات. لا يلتفت إلى حماسي وصراخي أحد وكلّ مشغول بتصفية حساباته مع كبش الفداء. يفتر حماسي بالسرعة التي برز بها، خاصة وأن التدافع نحو الجسور المؤدية إلى برّ الأمان انطلق وألوية الأولويات الآن الخروج حيّا من هذه الزحمة المرعبة، إن أمكن بكل أطرافي.

وفي مثل هذه الظروف ترى الوجه الخفيّ المرعب للأدميين وهو الذي يحاولون عبثا إخفاءه تحت "مكياج" اسمه الحضارة. عادة يخاطبونك بأدب، يسارعون إلى ألقابك يرضون بها غرورك إن كان لك ألقاب. يفتحون لك الباب بانحناءة رشيقة حتّى إن لم تكن أنثى يشتهونها. ينهضون بتأدب جمّ تاركين للعجز مكانهم في الحافلة. يعتذرون لك مبسمين إذا داسوا على قدمك خطأ.

مجرّد تصنّع. تكتشف طبيعتهم الحقيقية عند التهاب النار في مكان مغلق، أو لحظة غرق الباخرة، آنذاك ترى لهم عيوناً متجهمة وسحناً مخيفة، وأرجلاً مستعدة للمشي فوق خذك لو جاءتك الفكرة السيئة بالسقوط على الأرض مغشياً عليك. هل هي نهايتي أنا أيضاً وأنفاس عزرائيل الحارقة على عنقي؟ أيّ مكان هذا تجمّع فيه الله وإبليس وعزرائيل في آن واحد؟ على كل حال أليس المشهد أحسن تلخيص لرحلتنا في عالم نندافع فيه حيوانات مرعوبة والويل لمن يسقط تحت الأقدام.

ليمارسوا طقسهم كالدّمى تحركهم التعليمات التي تزرع في الحواسيب أما أنا...

"قَدِينِي كَدِينِ الرُّوضِ يَعْْبِقُ بِالسَّنْدَى وَكَلِمَاتُكَ فِيهِ سَوَى اللِّصِّ مُنْسَلًا (إيليا أبو ماضي)

وَدِينِي أَلَذِي إِخْتَارَ الْعَدِيرُ لِنَفْسِهِ وَيَا حُسْنَ مَا إِخْتَارَ الْعَدِيرُ وَمَا أَحْلَى

تَجِيءُ إِلَيْهِ الطَّيْرُ عَطَشَى فَتَرْتَوِي وَإِنْ وَرَثَتَهُ الْإِبِلُ لَمْ يَزْجُرِ الْإِبِلَا

وَيَغْتَسِلُ الذُّبُّ الْأَثِيمُ بِمَائِهِ فَلَا إِثْمَ ذَا يُحَى وَلَا طَهْرَ ذَا يَبْلَى

وَدِينِي كَدِينِ الشَّهْبِ تَبْدُو لِعَاشِقِي وَقَالَ فِيهَا مَا يُجِبُّ وَمَا يُقْلَى

وَدِينِي كَدِينِ الْغَيْثِ إِنْ سَخَّ لَمْ يَبْلُ أَرَوَى الْأَقْحَى أَمْ سَقَى الشُّوْكَ وَالذُّقْلَى"

تنهار المرأة البدينة أمامي مغشياً عليها بين أقدام، بل قل حوافر قطعان بشرية فقدت كل ضابط أو هدف باستثناء البقاء على قيد الحياة. كيف يمكن تصوّر التجربة التي عاشها كلّ من زلّت به القدم تلك الليلة، وهو يئنّ بنقل الحشود المتسلقة جسده. وهو يختنق ويسحق ويمحق ويتفكك؟ ترى ما الذي شعرت به وهي سجينّة غابة شاهقة من الأرجل تجاهد عبثاً لاستعادة الفضاء وكلّ الروائع التي أصبحت وراء باب أغلق إلى الأبد؟ ترنّ صرخة استغاثة إلى اليوم في أذني، والضحية تغرق في بحر الأجساد المتلاطمة، لا يظهر منها إلا ذراع يخبط الهواء كأنها تلوّح بالوداع لعالم غير مكرث. من أين للغة مصطلحات الوصف والتعليق على ما هو وراء الرعب، ووراء الألم ووراء الهوس؟ اللعنة، كانت مريضة في عهدتي لكني فشلت في منعها من دخول حلبة الموت التي خرجت منها لا أدري بأيّ أعجوبة حيا بل وبكل مكوناتها عدا النظارات.

كوابيس الليلة أشلاء ممزقة وأطراف دامية تتطاير وأقدام ترفس العنب ووجه لشيطان ضاحك لبس حول عنقه قلادة دموية من أمعاء وبحر من لبن تطفو على سطحه امرأة بدينة تصرخ: أنقذوني فأسارع إلى نجدتها ليقول لي اللعين: الزم مكانك، هذا إفطاري وكلّمك اليوم صيدي.

تضع "ما" يدها على كتفي وأنا جالس على الأرض ورأسى على حافة السرير.

- هون عليك يا طفلي الحبيب، لماذا تعدّب نفسك دوماً؟ لست مسؤولاً عن موت المسكينة.

تنظر إليّ مطوّلاً وفي عينيها مرح خفيف. ها هي التي تحاول المزح لتخرجني من حزن داهم تقرأه في كل ملامحي.

- ثم هل هذا وقت الحديث عن موت العجائز! واصل، قل كيف هو الحجر الأسود؟ هل لثمته؟ ثمة من قال لي إن كل الذين لثموه حجزوا في حياة سابقة.

لا بدّ أن أختار كلماتي بمنتهى العناية.

- نعم لثمته ثم... دخلت... البيت وصليت بين جدرانها.

تنصب تقاحة في سريرها. تفتح فمها على أقصاه كما انتصبت "ما" بنفس الانتباه المندesh وهي على سرير الموت.

تتوقف تفيحه عن الففر على السرير تاركة إيتي تسقط من يديها.

- "با"، ماذا قالت جدّتي لما بحت لها بالسّر.

- لمع في عينيها بريق كالذي في عينيك. قالت: هل يدخل الناس البيت الحرام؟ هذا موضوع لا مجال فيه لمزح.

من عادة العالم أنّه إذا بخلّ تجاوزَ حدودَ البخل، وإذا أكرم لا حدّ عنده للكرم.

تتوقف ذات صباح السيارة الدبلوماسية أمام باب المستوصف. يفتح الرجل الهامّ بابها هامساً في أذني: هيا اركب ولا تسأل إلى أين. مجدداً بباب الحرم. ما الفائدة من الارتطام مجدداً بنفس بالجدران الأدمية؟ يدفعني مرافقي أمامه لأعبر البوابة الضخمة.

مشهد لا تصدّقه عيناى: دهشتك وأنت تدخل بيتك أفرغه اللصوص من كل أثاث.

الساحة مترامية الأطراف التي لا تفرغ أبداً... فارغة باستثناء بعض رجال الشرطة!

- ما الخير؟

- يومٌ غسل الكعبة. الملك بنفسه من يقوم بالعملية. يُفرغ فيه الحرم باستثناء نخبة من المدعوين تدبرث أمرى لتكون بينهم.

يفتح لنا الحرس الطريق بعد التأكد من الهوية والدعوة. دقائق معدودات لأجد نفسي واقفا تحت الستائر السود لا أصدق أنني ألثم الحجر الأسود.

يبادرنا رجل ضخم منتصب على قمة درج قصير ينتهي عند باب نصف مفتوح في أحد جدران البيت الحرام.

- عَجَلًا. بضع دقائق لا أكثر. جلالة الملك خالد في الطريق.

يفغر الطفل-المراهق-الكهْلُ فمه لا يكاد يصدّق ما يعيش. في أماكن الأدميين الأخرى، يعبرون عن انبهارهم بالمقدّس وخشيتهم منه وتزلّفهم إليه بتشديد أعلى وأعد المبانى، بحشوها بكل ما يقدرون عليه من روائع الفن، لا يتراجعون أمام الإفراط وسوء الذوق في تكديس الرخام والعاج والذهب.

إلا هنا. لا شيء على أحجار الجدران. لا شيء بين الجدران. لا شيء يتدلى من السقف. لا شيء مفروش على الأرض. لا شموع تضيء ولا بخور تخنق الأنفاس. أقصى التجرد. الفراغ. فراغ عين الإعصار. أي رمز أبلغ لما لا قدرة للغة على تسميته، للعلم على فهمه وللفنّ على تصوّره؟

تنهار فجأة كل الحواجز كالسدّ أمام جارف السيل.

يا جذر وجود كل موجود، الحمد لك والشكر على الشمس، على القمر، على النجوم، على الفجر، على الضحى،

على النهار والليل. الحمد لك والشكر على الماء، على الريح، على الرمل، على السحاب، على النار وعلى البرق والرعد.

الحمد لك والشكر على الصحراء، على الغابات، على الجبال، على البراري، على البحار، على الأنهار وعلى السهل

والوعر. الحمد لك والشكر على الياسمين، على الورد، على العشب، على الزيتون، على النخيل وعلى التين والكرم. الحمد

لك والشكر على الغناء، على الضحك، على الصداقة، على الحب وحتى على المحن التي تصلب عودنا. الحمد لك والشكر

على هديّتي الحياة والموت.

فعل الأفعال؟ طبعاً عبداً، صلياً، قدّس، تبتّل.

ينسحب المراهق داخل آخر معاقله مزجراً: الحمد على الجراد، الحمد على القمل، الحمد على البعوض، على السلّ، على

الطاعون، على الجذام وعلى قمل العانة.

يصمت جاءه التهيب حتى هو.

يعود الطفل إلى الصراخ: في بينه وبين يديه ولا تطلب منه شيئاً!

خاصية قارّة في الأدميين. تراهم، على اختلاف أعمارهم وطقوس إيمانهم، ممدودي الأيدي نحو السماء لأن فيهم بقايا طفولة

تعلمت أن هناك خارج الذات قوّة محبّة تستجيب لكلّ طلب يدعم بنوع أو آخر من التملّق أو الابتزاز.

كم تشمّنت دوماً في كل المتسولين وهم يعودون من حصص الاستجداء بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها، وكم حسبت نفسي

من غير طينتهم. متى تكفّفت بشراً أو إلهاً؟ إنها أنفتي أمام البشر وحياتي أمام الله. أو اصل افتعال التعفّف ويواصل الطفل

صراخه داخلي وكأنه لن يغفر للغبي الذي يتعايش معه إفلات فرصة كهذه.

- هل من كبرياء أمامه "هو"! ألم يقل ادعوني أستجب لكم؟

من أحوج إلى الإعانة منّي خاصة هذه الأيام، وفي هذه الظروف؟

تتعالى الصرخة المكتومة استغاثة لا مطلب صدقة.

يا تربة شجرة الوجود، يا جنورها، يا جذعها، يا غصونها، يا كلّ أوراقها ويا كل ما أثمرت من ثمار، النجدة، إنني

يائس إنني بائس، إنني تائه، دلّني على الطريق.

غريب سرعة استجابة الدعاء ومن ادعوه يدلّني على باب الخروج.

يرفع الحاجب من نبرة همسه الصراخ: أسرع، وصل جلالة الملك، يا الله برّة، برّة.

يعبق الفضاء باختلاجة امتعاض فيها من المداعية أكثر مما فيها من السخرية، من العتاب أكثر مما فيها من التقريع، ولسان

حال الصمت يقول: حتى أنت تستجديني!

إنه "هو" لا غيره، الذي يطردني من حضرته وعليّ الاعتراف بأنني أستأهل الطرد.

معذرة يا من أعطى فلم يبخل، يا من وهب فلم يمين، يا من تكرم فلم يتبجح، يا من أغدق عطاياه لا يهّمه نكران أو

عرفان. كم غريب أن نستجدي التراب ممن أعطانا التبر بلا حساب، أن نتعامل مع المنزّه عن الصفات والاسم كما لو كان

بخيلاً يستجدي بسماجة، هو الذي وهبنا عالماً بأسره لتعبيره سادة لا متسولين.

*

تستحّني "ما" كما كانت تفعل تفاعاً وتفجحه لمواصله القصة، لا تتحمل مثلها أن أتوقف وقد شرد مني البصر بعيداً.

حانت لحظة الوداع. ينفطر العقد. تنفكك اللحمية. تنفرك الأجزاء ليركض كل واحد في اتجاهه. تتحرّك الشرطة بحثاً عن تخلفوا

عن المغادرة لا يفهمون أن المكان نقطة عبور فقط وإلا أفرغتها العادة من كل سحر.

- كادت طائرة الرجوع ألا تقلع بنا لمشاكل الحمولة. ألم أقل لك إن المساكين اغتنموا فرصة الحجّ للتسوّق وفرصة التسوّق

للحج. "حجّ وحاجة" مثلما يقولون. كانت سنة أجهزة الفيديو خلافاً لمواسم الذهب في السنوات السابقة.

- أنت أيضا يا بني رجعت بفيديو.

- أنا! أنا ابن "أين في الناس" هربت فيديو! وكشني عون الجمارك الوحيد الذي لا يقبل الرشوة! وخرجت من المطار أزر من الغيظ لا فقط لأنني دفعت الرسوم والغرامة ولكن لأنني كنت الوحيد الذي دفع! من أين سمعت هذه الافتراءات الجديدة علي؟

- أنت من رويت لي القصة.

قد لا نجرب في الحياة أبلغ من تجربة الإجهاش بالبكاء ونحن نفجر ضحكا أو نحن نقهقه وقد أسدلت الدموع بيننا وبين العالم ستار ضباب سائل.

تسلط علي "ما" نظرة فاحصة وكأنها تتأهب لآخر التعليمات.

- لست بحاجة إلى أن أوصيك بالناس أو بإخوتك، انتبه لهشاشة الناس، خاصة من يبدون لك أقوياء. إياك أن تجرح كائنا، لا تحتقر ولا تنتقم؛ لا كفر في هذا العالم إلا الاحتقار والانتقام.

تعود إلى ما يشغل بالها منذ زمن طويل

- عدني أن تُصالح والدك.

ثمة الآن في لهجة "ما" أمر صارم بأن أطمئنها لترحل واثقة بأن الحرب التي أرفقتها عقودا وضعت أخيرا أوزارها.

- اطمئني، غفرت له منذ زمن طويل والفضل لمشاعلي مع عصا أنقل ينزلها الدهر بلا توقف على ظهري. ثم لماذا توصيني بشيء كهذا؟ ستشرفين بنفسك على المراسم.

ليكن في علم كل من يهّمه الأمر أنني قررت استدعاء كل قرّاء الرحلة في نهاية النصّ لحضور حفل إمضاء معاهدة سلام يوقع عليها "با" باسم كل الآباء الطغاة وأنا باسم كل الأبناء المتمردين، تنصّ على أن الآباء سيتوقفون من هنا فصاعدا عن محاولة العيش بالوكالة على حساب أبنائهم، وهؤلاء عن محاولة دفع آباءهم نحو باب الخروج لأخذ مكانهم. وقبل المرور للبوفيه سنتبادل الخطب تحت التصفيق الحارّ لمدعويين يغالبون دموعهم من فرط التأثر. ثم نخرج مباشرة من المسرح نتركه لجيل جديد من الآباء والأبناء، آخر همهم تنفيذ الاتفاق، علما وأن كل من وقعوا المعاهدة التاريخية والشهود أنفسهم كانوا يعرفون منذ لحظة التوقيع أن الأمر خدعة حرب لا أكثر.

لم أكن أعلم يومها أنني سأطبع قريبا آخر قبلة على جبين الرجل الذي سميتة دوما "أين في الناس"، أن دمة حارقة ستسيل على خدي سكنة إلى الأبد الصقيع، يذرفها أصعب ابن على أصعب أب. أن كل روجي ستصرخ فيه: لماذا لا تثب على رجلك صارخا كعادتك: اغربوا عن وجهي، تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب! كم سيخيب الرجل ظني أنا الذي آمننت دوما أنه قادر على لي ذراع أيّ عدوّ فإذا بعزرائيل يطرحه أرضا يجرده من وسامته وأناقته وفصاحته وهو لأول مرة لا يُقاوم ولا ينتصر. كانوا يظنوني أسخر منه وأنا أقصد كل كلمة. أيّ والله، أين في الناس أب مثل أبي!

سفاسف كل هذه القصص عني وعن الآخرين أخفي بها تعكّر المزاج أيام تجاوز الإرهاق كل حدود... الحجّ هو الموعد الدوري لتلاقى عائلة بشرية فرقت بينها نوايب الدهر... الحجّ هو ولادة جديدة لذات تخفتت من كل مخاوفها وآلامها... الحجّ هو العودة المسترسلة لمنبع رمزي تُختزل فيه قداسة المكان والزمان... الحجّ هو الرحلة المقدسة الصغرى نحكي بها الرحلة المقدسة الكبرى حتى لا ننسى أننا جئنا هذا العالم من المهد إلى اللحد حجّاجا.

تمسح المحترضة دموعها وابتسامه كاملة كالبدر ليلة اكتماله تضيء وجهها. تطيل النظر إليّ وهي أحسن من يعلم أنها تراني لأخر مرة.

- أتعرف لماذا قدر لك أن تدخل بيت الله وأنت في هذا العمر؟

- الظاهر أنه لم يأخذ في خاطره بخصوص الطقوس. بجدّ، لم يكن لي من هاجس طوال الحج غير شغلي لا أكثر... بالليل وبالنهار بكل جوارحي بكل ما أوتيت من علم ومن جهد، بالقليل من التفاني الذي أخذته عنك.

- هل كان يريد منك شيئا آخر؟ اطمئن، هو راضٍ عنك مثلما أنا راضية عنك... دنيا وآخرة. سر محروسا على بركة الله لا ترهب شيئا ولا تخش أحدا.

يا لضربة الحظ التي وضعت تحت ذمتي مثل هذا الدليل الذي يواصل شدّ أزرّي وتربيتي حتى وهو يلفظ أنفاسه.

ها هي ترحل قائلة: "هو" راضٍ عنك مثلما أنا راضية. آخر هداياها.

تفتح "ما" عينها على أقصى اتساع تجيل نظرها حولها تملأ وجدانها من العالم الذي ستترك وراءها. من أين لي أن أنسى ذلك الصباح الذي أجبرتني فيه على إخراجها من المستشفى لتموت في بيتها... صرختها وهي على باب القسم فاجأها ساطع النور واتساع السماء ومهابة قوافل السحب: يا وجه ربي!

يتوقف بصرها على وجهين يحدّقان فيها بعيون دامعة. تلامس يدي الشعر المجلل بالبياض ثم تحكم غطاء لم يعد ينفع ضدّ قرّ أو حرّ. يجثو الطبيب طفلها الآخر على الأرض الوجه بين اليدين تارة، وتارة أخرى يفتعل زيادة سرعة تدفق الدواء في الشرايين. يتصاعد من المحتضرة همس ضعيف، يردّد صلاة لا تستجدي فيها شيئاً لذاتها وإنما تدعو فيها للباقيين على قيد الحياة. ترفع الأمّ الأزلية ببطء وصعوبة يدها في حركة آتية من أعماق التاريخ تبارك طفليها الحاضرين وكل أطفالها الغائبين. قبلة على يد لن ترتفع لتعمل وتبارك. شكرا على كل شيء. تنطفئ الشمعة التي احترقت من طول إضاءتها لطريق الآخرين.

"نفد الزيت (كبير)

صمت الطبل

استرخى الراقص

انطفأت النار

لن يتصاعد منها دخان

لم يعد هناك اثنان.

دخلت الروح في الواحد".

كلّا لم يمسخ الموت من شفّتي "ما" ابتسامة بوذا وموناليزا، بل كأنه زادها تألقاً ونورا. كانت حياتها صراعا لم يتوقف لحظة، مع كمّ هائل من المحن تتابعت على طول الطريق، كأنها تمتحن فيها جدارتها بتجربة الحياة. أكملت المرأة التي لم تسعفها الظروف بالحج الرمزي طقوس فرائض الحج الأكبر. تتلقى "الباتشاماما" رفات "الماما" والداخل للأحضان المفتوحة دوما سعاد الحصاد المقبل. هيهات أن تخفّف حتى مثل هذه الصورة من ألم الفراق.

لجسمك، إبقاء عليه من الدفن (المعري)

ومشّناه، وازداد الضنن من الصنّ

عليه وآه من جنادلك الخشن"

"ولو حفروا في درّة ما رضيتها

ولو أودعوك الجوّ خفنا مصيفه

فيا قبر وإو من ترابك، لتينا

آخر حفنة من الثرى ثم صوت المرثّل: اللهم تقبلها بواسع رحمتك ومحبتك، فنردّ كل روعي: آمين.

حولي كلهم يردّدون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

إنا لله! ... وإنا إليه راجعون!

من إنا هذا؟ ومن هذا الذي إليه نرجع؟

**

الكتاب السابع الرؤيا

"لا نفع لأحد من هذه الحياة
إن غادر الدنيا
ولم يخلق عالمه الخاص."

بريهادارانياكا اوبانيشاد

مقدمة الكتاب السابع

- هذا عشاء انتهى بسلام. فرصة لإلقاء سؤال لم أجسر يوماً على طرحه على أي من البنّين.
- تفاحة وأنت تفيحه، هل كنتُ الدليل الذي يكتب الزبائن رسالة شكرٍ لوكالة الأسفار وتوصيةً أكيدة ومُلحةً وعاجلةً بترقيته؟
تبتسم تفيحه:
- أصوتُ لفائدة رسالة الشكر والتوصية بالترقية؟
أسلطُ نظرة حذرة على تفاحة، فتبتسم بمكر:
- ادفع الفاتورة وبعدها سأقول رأيي.
تستعدُّ تفاحة للنهوض وهي دوماً -مثل والدها، وقبله الذي كان أباً لأبيها- في عجلة من أمرها.
- تتوقف بغتة وكأن هناك ما يدفعها إلى الكلام وما يمنعها عنه. تمسك بذراعي ونحن نعبّر باب خروج المطعم الصغير.
- يجب أن أعلمك بضرورة الاستعداد لحمل لقب آخر يضاف إلى ألقابك الكثيرة، وسيسند إليك من قبلي هذا الصيف.
- تقصدين!
- ماذا تظنّ؟ حتى أنت تصبح جدّاً.
يا إلهي لا أصدّق أن كل هذه الأعوام مرّت وبهذه السرعة.
تُقلت مني الجملة.
- آه، إذن هذا عالم عبثي كما ترددين، لكن لا بأس من مواصلة تزويده باللحم الطازج.
تصدر تفاحة صرخة تدّعي الغضب. تتفعل تهديدي بأظافر مشهورة في وجهه باسم.
تتدخل تفيحه:
- يا أطفال كفى ضوضاء على قارعة الطريق.
تمرّر تفيحه يدها أمام وجهي:
- "با"، عدّ إلينا.
أتوجه إلى طفلي التي ستصبح "ما" وقد عاد النص إلى نقطة السطر.
- تفاحة، أعطني قلمك بسرعة: الإحرام بتاريخ مسيو فيدال وقومه شهر... الموافق في تاريخ "ما" وقومها ل.... طيب سنرى فيما بعد... الوصول تقريبا في...
تضحك تفيحة:
- اترك هذه الحسابات للنساء. المهم أن تغتنم الشهور القليلة القادمة لتجديد مخزونك من القصص للقادم الجديد.
تأخذ تفاحة في تقليد صوتي:
- كانت الأميرة دوماً مليئة بالفضول وبالجرأة، لا تخشى إنسا أو جنّا وكانت تحقّق كل ما عزمت عليه.
تعود تفيحه إلى هوايتها القديمة في افتكاك الكلمة، لتقود قصة لا تعرف إلا هي كيف وإلى أين يجب أن تقاد.
- وكانت الأميرة الصغيرة التي تحب والدها الملك شهرمان أكثر من كل شيء، آخر من تعينه على أمور المملكة حتى يستتب فيها العدل ويعم الخير.
- اعترفاً أنها كانت قصصاً مسليةً وأنني لم أضع فيها من رسائل مبطنة إلا التي كان بوسعها إعدادها لمصاعب الحياة.
تقاطعي تفيحه:
- لسنا ضدّ مبدأ مواصلة العمل بمثل هذه التقنيات لكننا لن نسمح لك برواية قصصنا وعشّ بريء تببعه بضاعة قديمة.
- خشية في غير محلّها. لا أكره عندي بعد التبدّل إلا التكرار... أعدك سأضع قصة لم تُرو من قبل لأطفال وفيها أجمل بطل وأكثر العقد تشويقاً.
يشرد نظر تفيحه:
- كان يا ما كان، طفل همّه الأوحاد الكشف عن سرّ الأسرار وهمّه الأوحاد الآخر ألا يكتشف شيئاً لتبقى الأسرار أسراراً.
- آه، أخيراً ثمة كائن على هذه الأرض يفهمني. أليس أفضع ما ينتظرنا بعد طول البحث أن نكتشف أنه لم يكن هناك سرّ أبداً أو أنه سرّ لا يستأهل كل المشاق التي تكبّدنا لكشفه... أو أنه حقّاً استأهل كل هذا البحث، لكن ماذا سنفعل الآن بوقتنا وقد اكتشفناه.
والآن كفى نهرباً من مسؤوليتكما، نعود للموضوع، أعول عليكم بخصوص الشهادة... لكنني أريد تسبقه.
يمدّ الدليل يده للبقشيش. تبقى الراحة مفتوحة تنتظر الصدقة. تهزّها تفاحة بحرارة تقلد الشكر المبالغ فيه.
تطبع تفيحه عليها قبلة فأغلقها بسرعة كأنني أغلقها على فراشة زاهية الألوان، ثم أفتحها حتى لا تختنق فراشتي السحرية.

طيري يا قبلة. أعبري كل الفضاءات. حطّي بمنتهى الرفق على راحة امرأة باركتني وباركت في نرّيتي، ثم على راحة أحسن أسوأ أب، تنقّلي من راحة شبح إلى راحة شبح آخر تتسلقين سلسلة الآباء والأجداد، الأمهات والجدا، تحملين الشكر لكل من عبّوا لنا الطريق، إلى أن تحطّي على راحة آدم وحواء محبة وامتنانا.

تهمس تفاحة في أذني قبل أن أدير لها ظهري:

- "با"، إذا كان المولود بنتا سأسميها حرّة تيمنا بالحرية التي تعشق.

الحرية! مع المسؤولية أئمن ما تعطيك الحياة... والاحترام لكل مظاهرها أنبل علامات الامتنان والشكر.

يا إلهي، أبهذه السرعة مرت كل هذه السنين، كل هذه العقود لا انتبه لتركضها! تحضرني فجأة صورة شيخ جليل تعلمت عنه أن المهنة التي اخترت أخلاق قبل ان تكون علوم وتقنيات. تعود للذاكرة ما قاله لي يوما: ما زلت شابا لا تنتبه لعمر طلبتك. ذات يوم ستفجأ كم هم ثابتون على نفس العمر... وأنك وحدك الذي يهرم. ايه والله صدق الرجل! لا أدخل المدرج المكتظ سنة بعد سنة إلا وأردد لنفسني: فعلا، كم هم صغار السن ثابتون على نفس الشباب وأنا وحدي الذي أهرم.

ها أنا في العمر الذي يصبح فيه أبلغ تعريف للصحة ذلك الذي كنتُ أستقرّ به طلبتي: " تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه سوى المرضى "، وأيضا وضعية مؤقتة، لا تبشّر بخير، العمر الذي تكفّ فيه الحياة عن العطاء لتبدأ في استرجاع ما أعطت... العمر الذي يتسارع فيه خراب هذا الذي كان مطيبتنا على طول الطريق.

كأنّ الحياة إبحارٌ على محيط تُسلّمنا العاصفة إلى العاصفة لا نصل مرفأ الموت إلا وأجسادنا كقوارب كسّر الدهر صواربها وتدافع الماء من ثقب حفرنا الكثير منها بأظافرنا.

أي طريق أطول للبيت حتى أبقى ماشيا أطول وقت؟ لست في عجلة للرجوع و"ح" على فراش الألم تخفي وراء ابتسامتها الدائمة وجعها حتى لا تزيد في أوجاعي.

مسكين جسدها الذي كنت أولع له البخور وأقيم له الطقوس وأنشد في عبادته الترانيم... الذي كان ساحة فتوحاتي، الذي كان قيثارتي أستلّ منها أحلى الأنغام، الذي كان حديقتي السرية، الذي كان جنتي وجهنمي، الذي كان مدخلي إلى الذات الأخرى وإلى أعماق ذاتي. هو الآن بطن رخوة، أسنان صبغها التّدخين بأصفر قبيح، جلد حفر فيه الزمان ما طاب له من التجاعيد، نهدان مسكينان لم يعد يشتهيها فم نهم لرضيع أو عاشق لا يلمسهما إلا رجل يلبس الأبيض همّه اكتشاف بداية سرطان.

ها أنا أتمتم بكلمات أغنية كانت شائعة في شبابي:

“المرأة التي في فراشي

لم يعد لها من العمر عشرين

منذ زمن طويل، طويل، طويل”

نعم المرأة التي في فراشي لم يعد لها من العمر عشرين منذ زمن طويل يبيبيبيبي.

حان الوقت - أو قلّ هي آخر فرصة - لأستجمع شجاعتي المزعومة.

سأخذ “ح” بين ذراعيّ أضمّ حطام جسد إلى حطام جسد لأهمس في أذن رفيقة أطول مقطع من الطريق الكلمة التي رفضتها لها ولنفسني عن حياء غبي: أحبك.

كم نخلط بين الحب والشهوة، لا يتضح الفرق إلا والحبيبُ فقد دفعة واحدة الجمال والصحة والشباب.

كائن على وشك الرحيل، كائن على وشك الوصول... على فراش المرض نسخة منتهية صلاحيتها للجسد الأدمي، على فراش الولادة نسخة جديدة له... تواصل مشروع لا فكرة لأحد عن بداية له أو نهاية، عن دوافعه أو عن أهدافه... مشيئة الإرادة المجهولة التي لا يعصى لها أمر.

ماذا قالت تفاحة؟ إن ولدت بنتا ستسميها حرّة. فال طيب، ماذا أيضا؟ يجب أن أعد لها أجمل قصة لم تُرو من قبل لطفل؟، أي قصة سأروي لحرّة؟ طبعا القصة التي توقفت عن تأليفها لنفسني منذ عقود شغلّنتني عنها هموم الطريق.

طبعا لن أسمح لرحلة آدم في روايتي وفي رؤياي أن تكون سلسلة من الصدف العمياء، من الأحداث التافهة، من الصراعات البائسة، من الأوهام المضللة، من الأحلام المجهضة، من المتع العابرة، من النجاحات القليلة، من الإخفاقات التي لا تُحصى، من الآلام العبيثية، ومن النهايات المحزنة.

ألم نطبخ دوما أساطيرنا وأدياننا تلبية لنفس الحاجيات الروحية وبنفس الآليات الذهنية؟ هل ثمة رؤى لم تبسط المعقد، لم تجزئ الموحد، لم تجمّد المتحرك، لم تحاول استنفاذ ما لا يستنفذه فكر؟

أيّ غرابة في الأمر ومهمّة كل رؤيا تحمّل الواقع لا وصفه.

كما الأجسام بحاجة إلى بيوت في الفضاء الحسي توقّر لها متطلباتها الحسية من حماية ورفاه، الأرواح بحاجة إلى بيوت في الفضاء الرمزي والخيالي لتحقيق راحتها النفسية، أساسا الاطمئنان للحياة والقبول الرضى بالموت.

هكذا خلق العقل الجماعي على مرّ العصور المهندسين المعماريين في الفضاء الحسي لتلبية الحاجيات الحسية للذات، وخلق مهندسين معماريين في الفضاء الرمزي الخيالي لتلبية حاجياتها النفسية.

وكما لن يتوقف الهدم والابتكار والتنشيد في فضاء الحواس، لن يتوقف بناء وهدم بيوت الفضاء الرمزي، إما لتوقر العقل الجماعي على مواد بناء أمتن، أو لتزايد خبرته في فنّ البناء، أو لتغيّر نوقه... عادة لحبّه استكشاف وخلق الجديد. نعم لم لا أخلق لي بيتًا خاصًا أفصله على نوقي لتلبية حاجياتي ويكون مفتوحًا على الرحب والسعة لكل من يريد على فكرة أين توقفت في روايتي الخاصة لقصة القصص وفيها كل أسس مثل هذا البيت؟

أه، تذكّرت. هرب آدم من الجنة بمحض ارادته لمهمة غامضة... ضرب في الأرض ذات العرض والطول يستكشف ما تحفل به من روائع ومن أخطار... فرخ ذرية شرسة لا تحصى ولا تعد ملأت أرجاء عالم أصبح ساحة تجارب لا تنتهي من الدمار والخلق... صارع الكواسر صغيرها وما لا يرى بالعين المجردة، تفتك به ويفتك بها في عالم مكتظ بالكواسر وهو ليس اقلها ضراوة. اختلق الحرب لترفع فيه طاقة الانتباه يستكشف عبرها هشاشة الحياة ومتعة مراقبة الموت. بنى له على طول طريق المسامير والشوك واحات يستريح فيها من ذاته ومن أهوال عالم مبهر مرعب... يشدّه الحنين دوريا لأبيه الذي في السماوات فيصطفي من أماكن الأرض مكانا يتخيله باب الرجوع الى البيت.

ما الذي بقي عليّ إذن لتكتمل الرواية؟ لبنات أساسية ما زالت للصقل حتى تستقيم بناية الروح: سبب هروب آدم من الجنة... طبيعة المهمة التي خرج من أجلها إلى هذا العالم... مصيره بعد انتهاء الرحلة... وخاصة الهوية المخفية لبطل قصة القصص.

**

كيف يبني الفكر بيوته الروحية وكيف تدبّر أمره في هذا البناء لربط نسب الأدمي بأنبيل نسب ممكن

لتحديد هوية بطلنا هناك ما تقوله عنه الأسطورة الشهيرة التي انطلقنا منها. هناك اجتهادات أخرى تضعنا على طرق تصورات أكثر طرافة وثراء. ثمة اسطورة اغريقية معروفة تتناول بذكاء شديد أولى مستويات الإشكالية. في هذه الأسطورة يرضى الأدمي الآخر بأن يريك أخيرا وجهه بعد طول الاختفاء وراء أقنعة التمثيل. ترفع يدك نافذ الصبر نحو وجهه تزيل عنه القناع. تفاجأ أن هناك قناعا ثانيا تحت الذي رفعت...فثالث فابع فخامس فسادس. تتراكم عند قدميك الأقنعة والذات الأخرى تتباعد تتباعد الأفق عن الراكض. آخر قناع.

ترفعه مرتعش اليدين خافق القلب.
تنطلق منك صرخة العجب وأنت تكتشف...وجهك أنت لا غير.
لأنتبّت من الأمر.

ها أنا أرتمي على كل عابري السبيل أخلع طبقات الأقنعة التي يخنفون وراءها ... لأكتشف كل مرة وجهي. ثم يتتابعون عليّ الواحد بعد الآخر وفي كل مرة يصرخون بالدهشة وهم يكتشفون دوما ...ووجههم لا غير. ها هم يفضون على بعضهم البعض والنتيجة دوما واحدة: كل ذات هي نفسها في مرآة الذات الأخرى. مغزى الأسطورة؟ بسيط وبالغ الغرابة: كل آدمي هو أنا لكن في قصة أخرى... أنا كل آدمي يتخبط في ورطتي... هذا التصوّر للأسطورة الإغريقية من ثوابت الفكر، صيغ في أكثر من ثقافة وفي كل العصور بكلمات أخرى. أجمل إخراج الذي تجده عند المتصوفين والشعراء.
"وتخفق في قلبي قلوب كثيرة (بدوي الجبل)

فقد كان شعبا واحدا فتنشعبا "

إنه نفس موقف العلم الحديث الذي أعاد اكتشاف الفكرة الموهلة في القدم ليخرجها بلغته هو. فالأدمي في رؤياه مصنوع وفق "وصفة" تحتل ألف صفحة من كتاب-يسميه برنامج المورثات. الاختلاف بين الأفراد جمل مبعثرة هنا وهناك لا تحتل أكثر من صفحة بتيمة، أما ال 999 صفحة الباقية فمتشابهة في كل حرف وكل فاصلة.

من حسن الحظ أن البرنامج الجيني أوجد التشابه شبه المطلق كما أوجد أيضا ما يكفي من الفوارق ليكون الجمع باقة ورد، لا تجاور نفس الروبوتات.

إذن أنا، أنت، هو، هي، نحن ... كلنا نفس الكائن وإن بوجوه مختلفة وفي ظروف وحالات متباينة؟ قد يتسبب لنا قبول هذا التصوّر-والتصرّف على أساسه-في لخبطة حياة لا تنقصها اللخبطة. تخيل.

ها أنا أتوجه إلى موظفة النزل: ما أحلى لون عينيّ هذا الصباح. هل هاتفني أنا؟

ثم إلى النادل الذي طلبت منه عاشر فنجان قهوة: قلت دون سكر، ألا تعرف عاداتنا بعد كل هذه السنين.

ليس من الصعب فهم اندهاش "نسختي" أو "أنائي" إذ يكفي أن أتصور موظفة النزل تواجهني من الغد: هذه قهوتك، آن الأوان لتغيير هذه النظارات، ما أبشعها على أنفي. أو أن أتصوّر موقف النادل: هذا كل البقشيش؟ اطلع بكل ما في جيبي.

ماذا لو صرخ في كل عابر سبيل:

- ما هذا التهوّر؟ متى ستكفّ عن كل هذه الحماقات؟

- وما دخلك أنت، شؤوني الخاصة.

- يا رجل احترم الآراء التي تتلهى بها على الورق ولا تقدّر عواقبها. كيف تتصرف في أناي بهذا الطيش وتقول شؤوني الخاصة؟

انتبه هنا للتغيير الجذري-أو لما يسميه البعض "القطيعة الأبستمولوجية"-مع تصورات الرؤى غير المتقنة للذات. هي جعلت من كل ذات جزيرة لا ترتبط مع الذات الأخرى إلا بجسور، مرفوعة أغلب الوقت، أحسنها من تحنّنا على حبّ "أخينا" الإنسان وأردؤها من تجعله العبد والأنا سيده مع تبادل متواصل للدورين اللعينين.
بالتصوّر الجديد-القديم ينتقل التركيز من فوارق الصفحة الواحدة إلى تشابه ال 999 صفحة.

معنى هذا إنك عندما تنظر للأخر واضعا على أنفك نظارات هذا التصور فإنك لن ترى إلا نفسك في ذلك اليهودي بذوائبه، في ذلك الراهب البوذي بملاءته الصفراء، في ذلك "المتوحش" العاري بجهازه التناسلي في غمده الأبيض. يمكنني الآن أن أوصل ببالغ الحذر.

القول بأن أي آدمي هو كل آدمي لا يردّ على أهمّ ما في السؤال عن الهوية. ماذا لو كان هو الآخر قناعا يجب خلعه لكشف من أو ماذا يوجد تحت القناع؟ لمواصلة بناء بيتنا الروحي أحسن ما يتوفر في السوق الفكرية الخيالية للرد على هذا السؤال اسطورة فيشنو الاله الثالث للديانة الهندوسية.

تقول الأسطورة المؤسسة أن هذا الكائن العلوي قبل بالنزول إلى عالمنا الحسي والتجسد في كائنات -تسميها الأفاتار (Avatara) - وأنه لا يفاضل بين أصغرها وأكبرها، بين أبسطها وأكثرها تعقيدا، بين هذا الشكل أو ذاك.

هكذا تجسد تباعا في سمكة، في سلحفاة، في خنزير بري، في حيوان نصفه رجل ونصفه أسد، في قزم، في مقاتل، في بطل ملحمة اسمه راما، في نبي اسمه بوذا وحتى في إله اسمه كريشنا... والحبل على الجرار لأن التجسد العاشر مبرمج عند نهاية العالم.

الآدمي إذن "أفاتر" من كل هذه الأفاتارات " -سواء كان المحارب أو النبي أو القزم أو المسخ. لكن من فيشنو هذا؟

مهمة الأساطير وسبب وجودها تجسيد المفاهيم الفلسفية أو الدينية المعقدة أي ربط حزمة أفكار بالغة التجرد بصور مفهومة للجميع من أول وهلة. نمودجا عزرائيل المفهوم المجسد للموت أو ابليس المفهوم المجسد للشّر. ما المفاهيم أو المعاني التي يجسدها فيشنو؟

ثمة في البداية الفكرة الأساسية أن هناك قوة جبارة قبلت طوعا أن تتجسد في كائنات ضعيفة فانية مثل الآدمي والسلحفاة والخنزير البري... بعبارة أخرى أنها قبلت بأخطار ومشاكل الوجود وفضلته على حالة متقدمة عليه لا نعرف بالضبط كيف يمكن تخيلها.

يجب أن نذكر أن لكلمة الأفاتار المأخوذة من لغة الهند القديمة السنسكريتية معنى داخل المعنى: المحنة، الصعوبة والمغامرة التي قد لا يحمد عقباها. هل من الممكن أن يتجسد بسهولة ودون ألم الكامل في الناقص، اللامحدود في المحدود، الأزلي في الفاني.

المعنى الثاني أن كل الكائنات التي تنتشر على هذا الكوكب (ناهيك عن التي تملأ ما لا يحصى ولا يعدّ من كواكب هذا الكون) هي تجسيد لنفس القوة. كل الأشكال التي يتجسد فيها فيشنو إذن متساوية القيمة والكرامة بما أنها أغلفة متباينة لنفس المحتوى. أخيرا لا أخرا أن فيشنو ليس معطى وإنما مشروعا بما أنه لم ينهي عملية التجسد حيث لا زال هناك في المستقبل شكل آخر وقد لا يكون الأخير الذي سيتبلور فيه.

هل يمكن الآن رفع القناع عن فيشنو نفسه؟

استبدل كلمة فيشنو أي الصورة الأداة التي ترحم بها الأوائل حدسهم بكلمة الحياة التي يستعملها بشر هذا العصر لتلمس ومقاربة نفس الإشكالية.

أليست القوة الوحيدة القادرة على أن تسكن وان تتشكل وان تدوم ولو زنا محدد في كائنات جدّ متباينة مثل الآدمي والشمبانزي والقط والفأر والخسّ والخميرة والطفيلي ناهيك عن كل الأزهار والأشجار. لنرصد أهم صفات هذه القوة الخلاقة المبدعة.

هي موجودة بنفس الكم والكيف في الجرثومة والفيل، في الورد وفي الزيتون، لم تقتّر على أحد ولم تميّزه بشيء، وإن اختارت في هذا وفي ذاك أشكالا-حالات جدّ متباين

هي لا تتوزّع عند ولادة الأجيال الجديدة كما تتوزع تركة محدودة على كمّ هائل من الورثة.

هي التركة التي يقتسمها كل الورثة بالعدل والقسّاس فتكون -ولو قسّمت ملايين المرات- كاملةً من نصيب كل وريث.

معنى هذا أنّ الآدمي لا ينطوي على نوع من أنواع الحياة، أو على جزء منها، أو على حياة خاصة به تكون أرقى وأجود أصناف الحياة. هو ينطوي على نفس الحياة التي تُحرّك جميع الأحياء، والموجودة فيهم بكامل مقوماتها وعبريتها.

هي مشروع متواصل حيث لم تتوقف عبر تاريخها الطويل التبلور في أغرب وأعجب الأشكال... والحبل على الجرار إلى ما نعرف من طول الزمان

دوما عند وعدي لروح الناسك الهندي ألا أبني تصورا إلا وهو ملتزم برضاء القلب وقبول العقل، إن غاب شرط واحد فما بالك بالشرطين لا مناص من اعتباره هديانا في أحسن الأحوال وتدجيلا في أسوأها...
للتخلص سريعا من مثل هذا التصور والعودة للتصميم مرة بعد مرة بعد مرة إلى أن يتم تربيعة الدائرة.
آخر طبقات الحفر:

والآن ماذا أو من وراء أو ما هي هذه القوة الخلاقة المبدعة؟
نبهنا لاوتسو لاستحالة أن يكون لهذه القوة اسم واحد وهي كل الأسماء، أن يكون له شكلا وهي كل الأشكال، أن تكون لها صفة وهي كل الصفات، أن تكون لها حالة وهي كل الحالات، وحتى أن تكون كائنا وهي كل الكائنات.
رغم التحذير نرى لاوتسو يسقط في الفخ الذي حذر منه وهو يسمى هذه القوة التي لا يسمى "الطاو".
مظلم وبلا قاع (لاوتسو)
سابق للزمان والمكان

فوق وخارج كان ولم يكن
إنها حقا لمعضلة. من جهة ممنوع التسمية حتى لا نسقط في أو هام وجود مسمى خارج المسمى، من جهة أخرى لا بد من اسم إذا أردنا قصة لا تكون إلا ببطل محدد الهوية.

المخرج الوحيد هو الذي وجده الخوارزمي أي تسمية المجهول الضروري: "الشيء".
بهذه الطريقة نحن نوجد كلمة تُمكن من مواصلة البحث، وفي نفس الوقت نجعلها تنطق من البداية بجهلنا بهذا الذي نتحدث عنه وبأننا لا نتقدم له إلا بتصورات ناقصة ومؤقتة.
ولأننا لا نختلف عن الأوائل في حبّ اختزال أصعب الأفكار في صور تنعش العقل والعاطفة... ولأننا نريد صورة ما تقرب لأذهاننا وقلوبنا هذه القوة المجهولة الخارقة، فإننا سنعود لصورتنا المفضلة نستجد بها في المواضيع الحرجة من رحلتنا نحو الفهم والطمأنينة: الشجرة.

وفي الرؤيا "الشيء" هو كل شجرة..
في كل شجرة هو الجذور والجذع وكل الأغصان...
هو كل ما تحمل هذه الأغصان من أوراق وثمار...
وهو العصاراة التي تمكن هذه الأوراق والثمار من الحياة ومن التجدد عندما يقطفها الموت.
مما يعني أن آدم بلغة الرؤيا وصورها ورقة - ثمرة من بين ما لا يحصى ولا يعدّ من الأوراق - الثمار على غصن من بين ما لا يعدّ ولا يحصى من الأغصان على شجرة من بين ما لا يعدّ ولا يحصى من الأشجار.
أخيرا لا آخر هو أيضا من هذه العصاراة التي تتدفق في كل جذع لتصل أبعد وأصغر ورقة.
هو إذن شكل اتخذته وحالة اكتسبها إبان لحظة من الزمان هذا الذي تسميه الرؤيا "الشيء"، تاركة لمن يريد المزيد من تخيل هويته كل الحق - وكل الدعم - لمواصلة البحث في موضوع لم ولن يستنفذ أبدا.
كم من صور وأفكار راكمتها الثقافات البشرية على مرّ العصور ولا واحدة استنفذت أو ستستنفذ يوما هذا "الشيء".
كم صدق المعلم الأسمى وهو يوصي بعدم تضييع الوقت في المفاضلة بينها.

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلانٍ وديارٍ لرهبان (ابن عربي)
وبيتٍ لأوثانٍ وكعبة طائف
وألواح توراةٍ ومصحف قرآن
كل ما نظفر منه شعورنا بوجوده الدائم فينا وحولنا.

كم يبدو بعيدا لا يدرك وفي نفس الوقت كم هو قريب. ألم يُذكرنا المعلم الأول:
بأن الذي تهواه بين ضلوعكم
تقلب الأنفاس جنباً إلى جنب (ابن عربي)
إذن لم يكن الرجل أمام محطة بومباي يستهزئ بي وهو يضمّ راحتيه يسلم عليّ كأنه يصليّ أمامي.
هل كان يعرف ما كنتُ أجهله أو كان يتذكر ما أتناسى باستمرار؟

**

هندسة الرؤيا للبننة المهمة التي خرجت الأدمية من أجلها

كانَ هناك رجوع الصدى بين الأسطورة الشرق أوسطية التي ينزل فيها آدم العالم مطرودا ومنفيا عقابا على خطيئة لا تغتفر وأساطير الهند التي تجعل هم آدم فعل الخير في كل لحظة وكل ميدان أملا في التخلص من لعنة البعث من جديد في هذا العالم الجهنمي.

هل تذكر وهو يسكن وتسكنه هذه الأسطورة كيف تبلور لأول مرة، تائها في فضاء أخرج الاتساع، يربعه الرعد، يصعقه البرق، يجرفه السيل، يغرقه الطوفان، تميد به الزلازل، تنفض عليه حمم البراكين، طريفة تركض خائفة هربا من صياد جائع، صيادا جائعا يجري وراء طريفة خائفة؟

هل تذكر كم من جيفٍ أكل، كم من جثث استخرج من قبورها أيام المجاعات، كم بعثر من قممات في شوارع مظلمة لمدينة مترامية الأطراف بحثا عما يسد به الرمق؟

هل تذكر أنه جلس في رحلات أخرى القرفصاء يبكي حبيبا خائفة قواه مجبرا على تركه جيفة للكواسر والطريق لا يرحم مريضا أو جريحا؟

هل تذكر أنه كان عبدا موثق اليدين إلى عمود خشبي في قاع باخرة تنته عائنا في البول والبراز والقيء، يسأل الموت العجلة؟ هل تذكر أنه كان مجنونا يساق محروسا بالجنود خارج أسوار مدينة لا مكان فيها لمجنوم؟

هل تذكر أنه كان مريضا يمشى بين تلال الجثث وراء قافلة طويلة من المهووسين يضربون صدورهم، أفقدتهم حجم كارثة الطاعون كل صواب، يستصرخون رحمة إله يعتقدون أنه عاقبهم بالوباء؟

هل تذكر أنه كان أيضا بحارا على زورق وسط المحيط المزمجر يقاوم الرعب والنوم حتى لا يلقي به الرفاق في الموج وقد نفذ الغذاء والماء.

هل تذكر يوم جُدع أنفه وقُطعت أذناه ليؤكد الحاكم المجنون لقطيع العبيد أنه السيد... يوم رُمي وسط غرف الغاز لاقتلاع ذهب أسنانه والجسم لم يُنه بعد تحبّطه... يوم شُقق على غصن أول شجرة لأن له لون الليل... يوم جُرَّ إلى أعماق الأرض ورتناه تحترقنا ليستخرج لهم معادنهم الثمينة وكأنه ليس هو أثنى معدن... يوم دُفع إلى مواجهة الكواسر يضحكون من رعبه وهو يواجه الأنياب والمخالب بيديه العاريتين... يوم قُطعت يده بالسكين بحجة أنه سارق سارق قوت أطفاله... يوم ساقوه للإعدام شقا وسحلا وخنقا وحرقا وقطعا للرأس بالفأس والسيف... يوم عدّبه رهبا مجانين يتهمونه بالتستر على دينه المضطهد... يوم كُذس الحطب تحت رجليه ولا نفع لصلاة أن يخنقه الدخان قبل أن تلتهم النار جسدا ظن أنه عرف كل الممكن من العذاب... يوم ساقوا والده إلى المقصلة ثم أتبعوه بأمه بعد اتهامها أنها كانت تضاجعه؟

هل تذكر أنه كان مملوكا وقف أمام خليفة يصرخ من أكل بطيخي ثم يقرر البطون مفتشا عن بطيخه وسط الأمعاء الدامية... هل تذكر أنه كان مريضة عجوزا تتمتم بكلمات غير مفهومة وتأتي بحركات غريبة لا تستطيع لها دفعا، فساقوها إلى الشنق بتهمة السحر لظنهم أنها مسكونة بالشيطان؟

ربما تذكر يوم خرج مُحرجا وهو كهل يخرج من غرفة يرمي لامرأة مخمورة ورقة نقد ضخمة ثم أنكر فعله... يوم بكى والمرأة المخمورة التي أجبرها الفقر تبكي من فرط العار على المتاجرة بجسد طفلها...، يوم كنتم صراخه وبكائه وهو الطفل الذي يُغتصب... يوم ترك النص جانبا وهو الكاتب ليضع وجهه بين يديه يشهق بالبكاء لم يعد يتحمل مزيدا من آلام البشر.

هل تذكر أنه كان لاجئا ترمي به الحروب والمجاعات من مخيم بشع إلى مخيم أشع؟ هل تذكر كم من مرة كان جنديا يذبح ويُذبح في أفطع الظروف وهل تذكر أنه قُتل في آخر حرب برصاصة طائشة عشية وقف إطلاق النار؟

هل تذكر أنه كان جريحا يحتضر فوق أرض معركة عبثية وأطفال جياح يفتشون جيوبه ونساء جائعات يتخاصمن على ثيابه الملطخة وحلا ودما؟

هل تذكر أنه كان جارية سجينه إلى آخر العمر في حريم بمشربية تطل كل صباح على شواطئ محرمة عليها إلى الأبد... أنه كان طفلة قال والداها أمام الشرطة -لتبرير موتها- إنها سقطت من السلم وكل الجيران يعلمون أنها نفقت في آخر علقه، مات منها الجسد تحت اللطم واللحم بعد أن ماتت منها الروح بنقص الحب... أنه كان يتيما سلموا عينيه لأن طفلا أعمى يدرّ مالا أكثر على عصابات التسول المنظم... أنه كان طفلا يساق عبر مسارب جبال مرعبة، حُرّاسه يهزجون بكلام غير مفهوم وعند قمتهم المقدسة يكسرون جمجمته قربانا لآلهة لم توجد يوما إلا في خيالهم المريض... أنه كان امرأة وُضعت في حفرة إلى الصدر تصرخ تحت الرجم، أوصى الراجمون بعضهم البعض ألا تكون حجارتهم كبيرة حتى لا تموت الزانية بسرعة وألا تكون صغيرة حتى لا يملأوا طول زفة الإعدام؟

هل تذكر أنه كان إمبراطورا مجنونا ماتت له حبيبته فرأى شيئا لها في شاب من حراسه فأخصاه ليتزوجه وأنه كان شابا أخصاه إمبراطور مجنون وألبسه كسوة العرس عنوة ليغتصبه فوق كرسي العرش... هل تذكر أنه كان جارية ذبحت في ليلة ليلاء مع مئات الجوارى لأن إمبراطورا مجنونا آخر صدق أن محظياته يمارسن الجنس مع المخصيين؟

هل تذكر أنه كان شاعرا صوفيًا معلقًا على جسر مقطوع اليدين والرجلين ينزف من آخر قطرات دمه مدانا بالكفر وقتلته هم الكافرون؟

هل تذكر أنه كان شخاذا على باب كم من معبد لا أحد ينظر إليه وكلهم داخل الحيطان يلهجون بحمده يستجدونه العطاء؟

هل تذكر أنه كان قبيلة كل الأنظار والحشود تنتسب بجلبابه وهو لا يقدر على شيء لأحد ولا حتى لنفسه؟ هل تذكر أنه أوقف في طابور طويل ينتظر مرتجفا من الرعب أن يقطع رأسه بعد أن سقطت المدينة المحاصرة وأخليت من آلاف سكانها أسلموا لسيوف القتل بالجملة؟

هل رأى حقيقته وأنه ابان الحياة صيد للجراثيم وعند الموت وليمة للدود؟

تكتسب صعوبة الاحرام بعدا آخر وكنا نظن انها مسالة طبية لا أكثر.

هيا يا بنت، اخرجي من جحرك، يكفي من هذا الانتظار المزعج ومن طول الدلال الذي فرضته علينا في بداية النص.

كأنني بكل آدمية حبلى تشعر بقلق مفاجئ لا تدري له سببا والرفس اللطيف الذي تعودت عليه في أحشائها فجأة يتوقف.

تقول توقف، أنت تنشر الغصن الذي تجلس فوقه، بأي مهمة ذات قيمة تعدنا وهذا عالم باعترافك لا يرتحل إليه عاقل تحت أي سبب!

مهلا ما زال للحديث بقية.

لنذكر هنا بخاصية أساسية مؤسسة للعالم انتبه لها كل المهندسين المعماريين الجادين ألا وهي أنه عالم تناظري أي أن كل شيء فيه لا يوجد إلا بوجود نقيضه المطلق. مما يعني أنه إذا كان عالم الرحلة مليئا إلى درجة القرف بالفطائع فلا بد أن يكون أليا مليئا إلى درجة التخمة بالروائع.

لأبشر الأدمي بكل الهدايا التي تنتظره منذ لحظة النزول.

لأفاجئه بصور البحار والبراري والجبال المكلفة بالضباب التي ستستخرج منه صرخات الإعجاب والعجب.

والآن إلى النقر على وتر ألد الأحاسيس: طعم الزيتون والتمر والتين والعسل، روائح الياسمين والأرض المبللة بالمطر والحطب فوق النار ودخان قطار أسود يركض خبيبا عبر حقول الزيتون والعنب.

بقية الروائع: حفيف الأشجار، خريبر الماء، همس النسيم، صفير الريح، شدة الناي، زقزقة العصفور، ثغاء الماعز ونقر قطرات الماء على نافذة غرفة النوم.

اللجنة، نسيب أنه يسمع أيضا الأصوات المتصاعدة من غرف الولادة والتعذيب ومن ساحات الحروب... أنه يسمع بكاء الأطفال. بكاء ذلك الطفل المغتصب.

لأدفع بصورته وهو طفل آخر ونفس الطفل يضحك كل من حوله، يمشي راقصا أو يرقص مشيا بتلك المشية الراقصة التي لا يعرفها إلا الأطفال... وهو طفلة متقطعة الأنفاس تقفز بالحبل... وهو مسافر في الرابعة من العمر أنه على زجاج الحافلة يتأمل منبها أشجار نخيل خضبت هاماتها حمرة الشفق... وهو الأب العطوف، الأم الحنون، الصديق الوفي، الحبيب المحب، المصحح لكل خلل، المتدارك لكل نقص، الناهض بعد كل كبوة، الرفيق بأضعف الكائنات، المشيد معابد للخير والحق والجمال. ما زالت فيه بقايا رهبة؟

يهمس النص في "أذن" الأفاتار المتزايد ترددا: تأمل الشكل الذي سترتحل فيه... خاصة أصابع اليدين. صممت بدقة للنقش، للنحت، للرسم، للكتابة. الأهم قدرتها على القرع، على النقر، على النفخ، على ذبح الأوتار. تمنع فيما ستخلق من أصوات.

تداهم الصامت الممعن في حيرته أنغام تتصاعد لؤلؤا منضدا من بيانو شوبرت وشوبان وشومان.

تتعالى إلى عنان سماء الروح أناشيد "باخ" وموزارت تلحقها قوالي فاتح خان لتنتهي الوليمة آذانا بصوت فيروز.

ينتبه فيشنو إنه لم يعرف في أي من رحلاته الأخرى تجربة كهذه.

يسر إلى نفسه وهو ما زال تحت وقع سحر الأنغام: أه كدت أن أنسى ...

يتلور في فكر مبهم قرار لا رجعة فيه أنه قيل بالمغامرة الجديدة، أنه سيقمص الشكل الأدمي لا لشيء إلا لأنه الكائن الوحيد على هذا الكوكب وربما في كل أصقاع الكون القادر على خلق الموسيقى.

لم يبق على بطل الأبطال إلا أن يفسخ من ذاكرته كل تجاربه تاركا في أعماق اللاوعي عمدا، بعض الإشارات المبهمة لتذكره من حين لآخر أنه غير كل ما سيلبس من أفتعة وكل ما سيمثل من أدوار.

تعود الطمأنينة لكل أدمية حيلى على وهي تكاد تقسم أن الجنين الذي بأحشائها... يرقص.

نعم ولكن...

حتى طعم روائع هذا العالم لا يكفي لبناء سبب وجيه لتبلورنا فيه ونحن نعلم من البداية أننا سندفع للتمتع بها ثمنا باهظا يتجاوز في أغلب الأحيان قدرات الدفع.

لا بدّ إذن من استئناف هندسة لبنة هدف الرحلة ومعنى وجودنا في هذا العالم.

توضيح ضروري عن علاقة الهدف والمعنى والمفهوم جدّ متقاربان.

لا أحد يؤرّقه معنى وجود فرشاة الأسنان لأن الهدف من وجودها واضح: غسل أسناننا حتى لا تصاب بالتسوس.

مما يعني أننا عندما نتحدث عن معنى أو هدف لشيء أو لأحد فإننا نقصد نفعه لنا أو لذاته أو لأي كيان نضعه فوق كل الكيانات مثل الوطن أو الله.

لكن هل بوسعنا ربط معنى رحلة الحياة بشيء مثل المنفعة.

إن قلت إن هدف وجودي أن أكون نافعا للشعب، ما نفع الشعب؟ إن كان هدف الشعب نفع الأمة، ما نفع الأمة؟ إن كان هدف

الأمة نفعها الإنسانية ما نفع الإنسانية؟ تحسين العالم؟ ما نفع العالم؟

ثمة إذن خطأ في سحب طريقة تفكير تخصّ الأشياء ولا يمكن تعميمها على قضايا من طبيعة جدّ مختلفة.

يجب علينا التفكير من خارج الصندوق إذا أردنا تفسيراً - أو تبريراً - يتجاوز ربطنا الآلي بين الهدف والمعنى وبين الوظيفة والمصلحة.

إذا رفضنا القول إن الأدمي جاء هذا العالم ليتعذب تكفيرا عن ذنب أو ليتمتع بخير الماء وموسيقى شوبرت جزاء على ما

يدفع من ثمن وجوده فإن السؤال مجددا هو: ما الذي جاء به إذن؟

لا بدّ أن يكون الردّ مضمنا في أهمّ الأفعال التي يفعلها الأدمي.

لا بدّ أن تكون هذه الأفعال متجذرة في فعل أولي انطلقت منه سلسلة كل الأفعال التي شكلت ملحمتنا في هذا العالم.

الربط الآن مع إشكالية فعل الأفعال الذي تابعنا هاجسه طوال النصّ.

ما أهمّ وأول فعل لا بدّ أن "الشيء" فعله... وأول وأهمّ فعل فعله فينشو... وأول وأهمّ فعل فعله الأدمي... وأول وأهمّ فعل فعلته أنت؟

هو ضرورة الفعل-الجذر لكل الأفعال التي اشتقت منها الأهداف التي حددتها هذه الأساطير أو تلك والتي تخاصم حولها المفكرون والفلاسفة والشعراء مذ وجدوا.

لا بدّ لهذا الفعل-الجذر أن يكون لا فقط متقدما عليه وإنما أن يكون متحكما فيها، محدد لها، مانعا ظهورها في حال غيابها، منهيها فعلها بانتهائه هو.

بديهي ان كل هذه الأفعال لا تنطلق من غير الموجود مما يعني... هل ضاللتنا فعل وُجد؟

لكن هذا الفعل يصف حالة مُبقيا وراء الستار من أوجد هذا الذي وُجد فجأة.

ماذا كتبت؟

أوجد؟

أوجد!

أوجد! هل هو الفعل الجذر الذي يجري وراء النص منذ عقود... فعل الأفعال الذي انطلق البحث في إحدى أثرى

سهرات الجدّ واللعب مع تفاحة وتفيجه؟

مهلا. يجب عرض الفكرة على الحكمين وأولهما العقل.

ثمة فعلا ما يشفع لفعلنا هذا أن يكون أول فعل ومنطلق كل الأفعال.

أنظر ما تفعله الحواس الأدمية الخمس بالمبهم الأصلي الذي أسميه العنمة.

هي تبلور -إي تجعل موجودا ما كان موجودا على حالة أخرى بالنسبة لحواس كائنات أخرى - عالما من مظاهره كل ما تعرف

وتجرب الذات: البحار والجبال والسهول والصحاري والأنهر والغابات... خريز السواقي ونشيد العصافير وهدير البحر...

روائح الأزهار والعشب والأرض بللّها المطر... طعم التين والزيتون وطيبات الأرض والبحر... أحاسيس البرد والحرّ،

النعومة والخشونة، الجفاف والرطوبة، المتعة ولاذع الألم.

القاسم المشترك بين إيجاد الحواس الخمس لمثل هذا العالم أنها لا إرادية تلقائية أي لا تتطلب جهدا أو تخطيطا.

ثمة أيضا الأفعال الإرادية التي تصوغ العالم بما تراكمه العقول والسواعد في الفضاء الحسي من اهرامات وقلاع وقصور ومدن وسجون ومستشفيات وناطحات سحاب ومصانع وموانئ ومطارات وطرق سيارة ومحطات إطلاق الصواريخ وأقمار الصناعية... وبكل المعالم الرائعة والبشعة التي لا نتصور عالمنا بدونها.

أضف الآن الأفعال التي تعمّر الفضاءات غير الحسية بالأفكار، بالأحلام، بالمشاريع وبكائناتٍ لا توجد إلا في رحابها الواسعة اسمها الشياطين والملائكة الآلهة.

كل هذه الكائنات الخيالية الرمزية -التي لا تقل تأثيرا في عالم الأدميين عن كائنات اللحم والدم- من إيجاد مختلف الثقافات البشرية وهي بما فيها من ثراء وتنوع في وصف الواقع والتعامل معه عوالم خاصة داخل العالم الحسي المشترك.

أخيرا وليس آخرا: العوالم الفردية التي تخلفها كل ذات نتيجة تباين التفاصيل داخل التفاصيل تعلق الأمر بمكان وزمان التبلور أو الظروف الموضوعية التي تحكمت في مساقصة المرتحل .

هكذا ترى لكل واحد منا تجربة تتلاقى في ثوابتها مع كل تجارب البشر ومع هذا لها نكهة خاصة لا توجد عند أي ذات مند وجدت الذوات.

بديهى أن العالم الأدمي بكل دوائره الثقافية والفردية لم ينبثق من لا شيء. هو أيضا نتيجة عملية إيجاد تكفلت بها هذه الطاقة المجهولة التي نسميها الحياة والتي ترمز لها الأسطورة الهندوسية تحت اسم فيشنو الاله الذي لم يوجد فقط الأدميين وانما السمكة والسحفاة والخنزير البري أي كل ما يمكن تصوره من الأفكار الممكنة.

إلى حدّ الآن نحن على أرض صلبة.

من أوجد فيشنو هذا أو كل ما يرمز إليه؟ هنا يقع التجديد في صقل اللبنة الضرورية لإسناد بيتنا الروحي. التوغل في الأعماق الباقية للخلق والاستكشاف لفضاءات الخيال والرموز.

لنستجمع ما توصلنا اليه منطقيا وما يمكننا مواصلة البناء عليه.

أوجد فيشنو ما لا يحصى ولا يعدّ من الأجناس الحية ومنها الأدمية...

أوجدت الأدمية بحواسها وفكرها وخيالها وأفعالها العالم الأدمي...

داخل هذا العالم المشترك أوجدت اللغة والثقافات عوالم بالغة التنوع والثراء...

داخل هذه العوالم الأدمية المتباينة في التفاصيل أوجدت الظروف وطرافة كل ذات عوالم فردية...

داخل عالم من هذه العوالم الفردية أوجد الفكر والخيال "الشيء" جاعلا منه منطلق كل منطلق.

بهذا تتغلق الحلقة على نفسها وتتبخر ثنائية الخالق والمخلوق التي أجهدت الفكر طويلا في كم من أسطورة مؤسسه. فالخالق في الرؤيا أوجد المخلوق لأنه لا يوجد إلا بوجوده والمخلوق أوجد الخالق لكي تكون له قصة مقبولة.

نعم، لا أفضل لحجر الزاوية في بناء البيت الروحي من فعل أوجد...

يجب الآن عرض اللبنة على تقييم القلب. لا شك في رضاه عنها.

تصوّر آدم في سرديتنا وهو يخرج من الجنة مكلفا من "الشيء" بمهمة إيجاد عالم طريف لنقل أنه متميز عن كل ما جرب من عوالم باكتشاف الموسيقى خصيصا والفنّ عموما.

أي كلمات مفتاحية ستضيئ نص الأسطورة: طبعاً التكريم، التكليف، المباركة من جهة الرب ... الحرية، المسؤولية، الشجاعة من جهة آدم.

أليس رائعا أن نسكن رؤيا تجعلنا جميعا أحرارا على أعلى قدر من الكرامة سواسية في اضطلاعنا بأعظم مهمة: إيجاد العالم الأدمي واستكشاف كل إمكانيات الوجود داخله ولو بأعلى تكلفة وكلنا ناجحون بامتياز في هذه المهمة نؤدّي بوعي وغالب الوقت دون وعي كل المطلوب من أنفسنا الأمارة بالخلق.

انظر الآن الكلمات التي تلقي بظلالها على السردية التي جعلت منا مطرودين من الجنة منفيين في عالم سمته أساطير أخرى وادي الدموع. كلها كلمات بغیضة ثقيلة منها اللعنة والإهانة والعقاب من جهة الرب عقدة الذنب والتذلل والخوف والطمع من جهة آدم.

بداهة – مع كامل الاحترام للمهندسين الخياليين الرمزيين الذين تورطوا في مثل هذه التصميم الهندسي -هم لم يوقفوا كثيرا في مهمتهم حتى لا أقول في رسالتهم.

لكن لماذا بنوا مثل هذه البيوت الروحية وهم لم يكونوا أقل ذكاء منا أو أقل رغبة في تيسير رحلة الأدميين؟

لنقل إنهم فعلوا فعلتهم هذه في ظروف بلغت فيها صعوبات إيجاد العالم الأدمي ذروتها.

ولأنهم واجهوا من الألام ما جاوز أحيانا طاقات التحمل، فإنهم ركزوا في حالة وجع وإحباط إلى أسهل التبريرات لوضعهم البائس. هكذا خلقوا قصص النفي والطرده والخطيئة ومخلص وخلص يفسرون بها ما يعانون ويضعون آمالهم في أوهام.

ما فاتهم أن لكل ثمين ثمن وبقدر ما يكون الثمين ثميناً بقدر ما يكون ثمنه باهظاً.
بالعودة إلى تجاربنا الذاتية مع العالم، ألا يمكن القول إن الرعب والخوف والألم والتعاسة والجهد والإرهاق واليأس وكل المشاعر السلبية التي نعاني منها هي تكلفة إيجاد العالم الأدمي... أن الفرح والمتعة والتفاؤل والأمل المكافأة على النجاح في أصعب امتحان.

عودة لإشكالية الهدف والسؤال المتكرر في ألف صيغة وصيغة:
ماذا يريد "الشيء" منا ومن تجاربه التي لا تنتهي في عوالمه هذه التي لا تُحصى ولا تعد؟
لنقل إن السؤال غير قابل للرد لا لوجود سرّ يجب أن نواصل البحث عنه وإنما لأنه فاسد أصلاً.
هل "الشيء" بحاجة لسبب يبرر به أو يفسر به وجوده وتصرفاته؟
طبعاً لا. "هو" بغير حاجة ليكون مفهوماً، أو مقبولاً أو معذوراً، أو محموداً، أو نافعا، لا لشيء إلا لأنه "هو" الأصل الذي تتفرع منه كل الأشياء وكل الكائنات وكل ما تُبلّوّه عقول البعض منها من مفاهيم مثل البداية والنهاية، الحيّ والميت، النافع والمضّر، العيبيّ والذي له معنى.

هو ليس بحاجة لهدف أبعد من الإيجاد لأن هذا الإيجاد هو الذي يوجد كل الأهداف ومن ثمة هو خارج وفوق كل هدف.
الرحلة ليست قافلة تجارة تنتهي بكشف الحسابات: على عمود قائمة الأرباح، على العمود المقابل قائمة الخسائر. لا النجاح هدف الرحلة ولا الفشل فشلها. النجاح والفشل حالتان -أداتان- فرصتان لاستكشاف جزء قارّ وضروري من طيف تجربة الوجود لا أكثر من هذا ولا أقل...

ألا نصل هدفاً ركضنا وراءه إلا ونكتشف أن الطريق هو الذي كان يهمنّا؟ ألا نجعل من كل نقطة وصول، ولو كانت قمة القمم، مُنطلقاً طريقٍ جديد؟

هل هذا ما كان يعنيه "با" يوم قال لي اقتنم أنت الدنيا لمتعة النصر، أمّا أنا فتكفيني منها متعة الصراع؟
يحضرني الآن أنني لم أتكلف جهد الكتابة بحثاً عن الحقيقة أو الشهرة أو الخلود عبر الحرف، كما أو هموني وأوهمت نفسي زمناً طويلاً، إنما للكتابة نفسها لا غير.

كم هدفاً، يتضح لاحقاً أنه كان طُعماً وضعناه لأنفسنا أو وضعه لنا الآخرون والمهم طيف الأحاسيس والمشاعر التي نعتصرها من الجري وراءه. كم صدق من قال: عندما تحقق هدفك اعلم أيضاً أنك ضيّعت كل الباقي.
كم من أهداف جرينا وراءها نحزن لعدم تحقيقها والحال أننا نحقق أعظم هدف ونحن نبلور العالم كل لحظة... بكل تلقائية... بكل بساطة... بكل سهولة!

في الرؤى غير المتقنة لنا جسد لترويض العالم ودماع لمعرفة أسرارها.
في روايتي لقصة القصص ليس للجسد من هدف آخر غير متعة تحريك أجزائه، وليس للدماغ من مشروع غير متعة اكتشاف ما يزرع به من قدرات في مجالي الفكر والخيال.

أخيراً يمكنني أن أجري وراء أي هدف وأنا أعرف أنه مجرد تَعَلّة لتشغيل جسدي وفكري... أو أن أخرج من الطريق لأجلس على قارعه مسنداً ظهري إلى جذع زيتونة وقد تخلصت من رواسب ترويض ماكرٍ ودعاية خبيثة وعقدة ذنب مغروسة بدهاء منذ نشأتي، لأكون لهم خادماً لا يطلب جزاءً ولا شكوراً.

كيف لا أتنفس الصعداء ونفسي لم تعد تطالب نفسي بشيء.

أخيراً الرحلة.

"كالموجة (لاو تسو).

على سطح المحيط

كالرياح

بلا وجهة"

**

أصعب لبنات الرؤيا هندسة

في مسرحية شهيرة لقصّاص عبقرى اسمه يونسكو يتوجّه الملك "بيرانجي" وهو يلفظ آخر أنفاسه بابتهاله إلى الأموات: "من أين أتتكم جسارة القفز في أحضان المجهول المرعب. علموني، أعينوني" لا أحد قادر على الردّ رغم أن من ماتوا قبله أعداد لا تحصى. تحاول الملكة التهوين على المحتضر: "لا تتمسك بأظافرك بهذه الحياة إنها منفي وأنت الآن عائد إلى الوطن، لا تنكص على الأعقاب وقد وصلت خطّ الحدود. تذكر أنك ستتخلص من هموم الدنيا." تتدافع في ذهن المحتضر آخر الأفكار قبل أن تُطفأ أنوار الوعي: هموم الدنيا! لا أحبّ لي منها الآن. الصعوبات التي أنهكت قواي! ما أحلى تذليلها. ماذا؟ عليّ أن أتذكر كل أنواع الإخفاق! إنه السوط الذي جلّدي به العالم لأتسلّق أعلى قمم المجد. ماذا تقول أيضا هذه الغيبية؟ عليّ أن أسلم في الشمس، في القمر، في النجوم، في البحر، في الغابات وفي كثبان الرمل! من أين لهذا الأدمي المسكين أن يرحل مطمئنا وقد سكن طول حياته أساطير أقل ما يقال عنها أنها غير مسؤولة. هي جعلت من الموت عملية شبيهة بما يحصل للعائلات المنكوبة التي تحضر الشرطة لرمي عفشها على قارعة الطريق، بعد أن أصدر القاضي أمرا بإخلاء المحل بالقوة العمومية وهي متمسكة بالبقاء. لا القاضي الذي أصدر الأمر معروف ولا المحكوم عليه يعرف سبب عقوبة تقررت قبل ارتكاب أي جريمة.

"نهار أتيت إلى الدنيا (نزار القباني)

وجدت قرار إعدامي

ولم أرّ باب محكمتي

ولم أرّ وجه حكامي"

من يريد أن يسكن مثل هذه الرؤى فهو حرّ ومعذور. أما بخصوصي

أكبر الصعوبات التي يواجهها الأدمي على طول الطريق القبول بأن زمن الارتحال قد ولى وأن زمن الرحيل قد حان. لنجرب إقناعه أنه يرتعد فرقا أمام كلمة صنعناها في فضاء الرموز ووضعناها في فضاء الخيال فترعت فيهما لتعود إلينا بمخالب وأنياب.

لنردّد له أن الموت مجرد مصطلح من مصطلحات لغة لم تخلق لنا فقط الآلهة والشياطين والأشباح، وإنما أيضا كائنا رمزيا خياليا آخر نسميه عزرائيل بصوره البعض على شكل هيكل عظمي يحمل منجلا، "يقطف" به أرواحنا. كآني بأحدهم يصرخ ساخرا: "كلامك يا هذا في النفاخات زمرا".

لنجرّب التوجه إلى عقل هذا الساخر المروج: حبرّ على الورق ما يخطر ببالك من خصائص الحياة: غريبة، عجيبة، مرهقة، مؤلمة، صعبة، محبوبة، مكروهة، ثمينة، رخيصة، خادعة، مكلفة، متغيرة، متجدّدة، م.ح.د.و.د. الموت إذن ليس حالة مناقضة لحالة ثانية اسمها الحياة وإنما خاصية من خصائص هذه الأخيرة. كيف يكون جزء من طبائع الشيء عدوا أو نقيضا له وهو لا يكون إلا به؟

أضف لهذا أن فكرة الموت تلعب عند المنتهين الدور الذي يلعبه صوت السوط في هرولة دابة كسولة... لم يهاجمني التنبؤ يوما إلا وسارعت إلى استحضارها، فيعود لكل قضية حجمها.

كآتني أصرخ في أذني أطرش قرّر منذ زمن طويل أن الطرش انفع له من السمع.

نعم لكل حجج المنطق، لكن من أين لنا إنكار أن الذات تكره محدوديتها هذه كرة الأحذب لحديثه!

مما يعني أن عليّ إن أردت أن يكتب للرؤيا بعض القبول احترام كره الذات لمحدودية حياتها وبحثها المحموم منذ وجدت عن الخلود. من أين لها تجاهل حاجة بمثل هذا العمق وإن تبدو لا منطقية ومستحيلة التلبية، هي التي تريد تلبية كل الحاجيات؟ ثمة طريقة ملتوية بل ولا تخلو من قدر من الخبث: جعل من أطمح ليسكنوا بنايتي الروحية يخشون الخلود أكثر مما يخشون الموت.

*

أحسن من تناول الموضوع من هذه الزاوية راو عبقرى يكتب بالكاميرا لا بالقلم: المخرج السينمائي جون بورمان John Boorman في فيلم لم يأخذ حق قدره من اهتمام النظارة والنقاد...ربما لأنه صدم الكثير مما يسمونها مقدساتهم.

سيناريو أعمق أفلام الخيال العلمي: فيلم زاردوز.

سنة 2293 أصبحت التكنولوجيا قادرة على خلق جنة اصطناعية تُوفّر كلّ المطلوب من أي جنة تحترم نفسها، وأساسا الخلود.

إنها جنة على الأرض وليست التي تنتظر في السماء اتخذت شكل مَحْمِيَّة تتحصن منذ قرون وراء أسوار شاهقة والنعيم الأبدى الذي بداخلها وَقَفَّ كالعادة على أقلية. أما قَدْر الأغلبية فالبقاء الصعب الأليم في عالم تحول أكثر من أي وقت مضى الجحيم على الأرض.

لا شيء يثير حفيظة هذه الأغلبية قدر هذه الجنة التي لا يقدرّون دخولها لغزوها ونهبها وتدميرها رغم تعدّد محاولات تسلق أسوارها.

يكتشف مغامر اسمه زاردوز، بالصدفة -أو هكذا خُيِّل له- مَنفذاً للمحمية، فيدخلها هو ومحاربوه شبة مقتنع أن ساعة النثار قد حانت.

ينتبه سريعاً أن الوضع غير طبيعي. أين قوى الدفاع، هو الذي كان يظنها ستجبره على أشرس معركة؟

المشهد الأول

يتابع الصياد الهمجي ببصره شيخاً يتقدم نحوه باسم ممدود اليبدين.

شيخ! ألا تؤكّد الأخبار -التي يتناقلها بنو قومه منذ القدم- أن سكان هذه المحمية لا يهرمون أبداً!
يصرخ في الشيخ:

- الأسطورة التي تقول إنكم لا تشيخون إذن كاذبة!

- ليست كاذبة. لكنني في عرف الخالدين مُذنب والمذنب هنا يعاقب بالشيخوخة الأبدية.

تسترعي انتباه البطل رنة الحزن في كلام الشيخ. يتراجع حقه تاركاً مكاناً لفضول جارف. يجب أن يَحْتَّ هذا الكائن المقرَّر على الكلام ليفهم أخيراً سرّ قلعة استعصت على الأجداد.

لا حاجة لتهديد فالشيخ لا يريد إلا الحديث.

قال الشيخ: اسمع منّي القصة أيها المنقذ: متى بدأ كل ذلك؟ البارحة أو منذ ألف قرن؟ لا أدري. هنا لا أحد يعبأ بالزمان. كنا نشعر أن الجشع والغباء بصدد التعجيل بنهاية الأدمية، أن الكارثة آتية لا ريب فيها. أعدنا لها العدة. انتقينا خيرة البشر. جمعنا كل تراث الفكر البشري. اكتشفنا سرّ الخلود وبنينا ما جئناها المدينة الفاضلة... الجنة، كما كان الأوائل يتخيّلونها.
يوصل الشيخ عرض أطوار القضية:

- وضعتنا في الزمردة السوداء كل التعليمات لإدارة شؤون الجنة هذه منها أن كل من يخرج عليها أو يهددها، يعاقب بالشيخوخة الأبدية لا أمل له في راحة الموت. الزمردة هي دعامة هذه الجنة وضمان وجودنا. هي حارسه خلودها وخلودنا. لا تقرب ذلك المبنى الذي هو محرابها ومنه تسير كل شيء، وإلا يا ويلك من عقاب أشدّ هو لا من أفضح مية.
غريب! الخطاب يحذّر من شيء وما ولغة الجسد تغري بالعكس.

الصياد الهمجي محادثاً نفسه:

الزمردة مقتلهم إذن! لحظة أدمرها سيتهاوى الجدار الشفاف الفاصل بين العالم الحقيقي وهذا المسخ، وسيكون أعظم نصر. لكن أين الطريق إليها في هذه الدهاليز التي لا تنتهي؟! الغوث يا ربّة القبيلة.

كان الرية المعنية بالأمر سمعت الدعاء. تعترضه -هكذا دائماً بمجرد الصدفة- فتاة باهرة الجمال في ريعان الشباب بالغة الأناقة، مكسوة بالدمقس والمجوررات. تتوجه إليه الفتاة ممدودة اليبدين كأنها تبتهل:

- من هنا أيها المنقذ.

المنقذ؟ لماذا أطلقت عليه هي أيضاً هذا الاسم؟ لماذا رنة الخشوع في كلامها؟

يوصل الصوت الساحر: تعال أيها المنقذ الذي فرغ الصبر من طول انتظاره كلّ هذه القرون. اتبعني، أنا دليلك في هذه الدهاليز. الطريق للوصول للحرم من هنا. استعدّ. ستعترضنا صعوبات هائلة. لكنني واثقة أنك ستنتج.

تنطلق الفتاة تقود البطل في الدهاليز الغربية ووراءها من بعيد ذكوراً وإناث يرفلون في الحلبي والحلل، لا يخفون وراء ملامحهم الجميلة توجّساً قلماً.

من أول خطوة أحسّ بألم لا يُطاق ينهش لحمه وقوى الدفاع المجهولة تنصب له الفخ بعد الفخ.

- قولي لي من نحارب؟

- قوى الدفاع التي تجنّدها الزمردة لكيلا يقترب منها أحد.

ضاع هو والدليل الجميل أكثر من مرّة.

ثم وجدا الطريق وضاعا من جديد، وفي كل مرّة تزداد حدة آلام فظيعة لم يجربها من قبل.

كانت تضمّه كل مرة إلى صدرها تُغطّيه بشعرها، تواسيه وتداعبه كما تداعب الأم صغيرها، تقول له واصل، تشجع، اصبر، تقدم، من هنا ليس من هناك. ستصل وأصبح لك زوجة.
عند اجتياز كل عقبة كانت تضحك كأنها تتشقى من عدوّ ستنتقم منه الدّ انتقام.
من أين له أن يقاتل بالسيف والنصل عدوا يواجه من خلف ألف ستارٍ بأسلحة لا يتصوّرها عقل.
كانت تتوقف المرة تلو الأخرى تقول له انتظر لأسأل، تحدّق في الفضاء كأنها تستشير المجموعة التي تتبعهما من بعيد ثم تنفّرج أساريرها: من هنا.

حتى في الجنة مؤامرات ومتأمرون! من هذه المرأة؟ من هؤلاء الذين يدلّونها حين تختلط عليها الطرق؟
قالت له بعد أن قطعاً شوطاً طويلاً: ابتداءً من هذا الحاجز لن أنفك في شيء. هنا حرّم الزمردة والخالدون الذين تعرفهم واحدا واحدا لا يدخلونه. ادخل وحدك فهي لا تعرفك ولا حيلة لها الآن. أطبق براحتك عليها تقطع عنها النور فتنتهي حياتها وتنتهي مأساتها.

أخيرا الزمردة في قبضته.

علم الكون وقدرة الخالدين في راحة يده!

رصيد الفكر البشري منذ قرون تحت سيطرته!

لحظة تردّد.

ألم يأت للاستيلاء على كنز الكنوز؟ لماذا لا يستعمل الزمردة لمصلحته ولمصلحة قومه؟

لكن كم يكره الخالدين وعلمهم الوقح وما فعلوه بقومه وهم بالنسبة إليهم صنف من الحيوانات... وكم يكره فكرة أن يصبح هو ورجاله مثل هؤلاء المخنثين.

يطبق براحتة على الزمردة فتنتفضي كل الأنوار.

تتهاوى الأسوار ليقتحم الزمان المحمية كما يقتحم الماء مجرى النهر بعد انهيار السدّ.

المشهد الرئيسي

يسمع الصياد الهمجي الصراخ يتعالى من كل الأرجاء.

يشدّه منظر الخالدين وهم... يركضون باتجاه رجاله يتضرعون: أنا، من فضلك! أنا! أنا!

الذكور يتدافعون إلى الرماح والسكاكين وكأنهم أطفال يتسابقون إلى اختطاف هدايا العيد...

الغانيات يمزقن القميص ويعرضن الصدر العاري إلى حد النصل، يمسكن بالسيف يدفعنه بقوة داخل القلب ثم يغمسن اليدين في شلال الدم الساخن وهن يضحكن أغرب ضحك سمعه يوما.

إنه تعجّب من يرى غزالا يركض صوب الأسد أو حملا يهاجم الذئب.

يتقدّم الشيخ للهمجي الذاهل أمام أغرب لوحة حياة شاهداها آدمي.

- بوركت أيها المنقذ، حان دوري. اغمس نصلك. لم أعد أقوى على انتظار.

- سنتكلم قبل ذلك. من أنت؟ من هذه؟ من هؤلاء؟ وما سرّ كل هذا؟

- هذا أقلّ ما يمكن أن أجازيك به أنا الذي سأدين لك بعد لحظات بالراحة الأبدية.

اسمع مني أغرب قصص الأدمية المجنونة.

كانت الجنة حقا مكانا مثيرا في البداية. عرفنا من كل أنواع اللذة، لا فقط لذة الحواس وإنما أيضا لذة العقل والروح. شبعنا جنسا وعلما وصلاة وموسيقى. شيئا فشيئا اكتشفنا فظاعة الفخ الذي نصبناه لأنفسنا واستحالة الخروج منه. كنّا كالأطفال الذين يلعبون بأكبر مصاصّة مكنة. لمّا صنعنا المصاصّة اكتشفنا أنها مسمومة. لم يطل بنا الوقت قبل أن نكتشف أننا لمّا ألغينا الألم، لم يعد للذة معنى، أنه لم يبق للجمال قيمة بما أننا قضينا على القبح، أن الحكمة اختفت بما أننا صقينا الغباء. أن الخير أصبح كلمة فارغة من أي معنى وقد انقرض الشر. لم تعد بنا حاجة إلى الشعر والموسيقى ونحن لم نعد نعرف لوعة الأسي. ما الذي سنسعى لمعرفته وقد عرفنا كل شيء، ثم بماذا سنملأ الوقت المتوقّف الممتد أمامنا إلى ما لا نهاية، وقد جعلنا من نهر الزمان بركة أسنة لم تلبث أن تصاعدت منها الروائح العفنة.
صمت.

يواصل الشيخ: كنت أول من قال يجب إنهاء هذه الموقعة. كدّبوا أذانهم في البداية. حسبوها نزوة. قالوا ادرس أكثر، اسمع الموسيقى أكثر، مارس الجنس أكثر وتعبد أكثر. فعلت كل ذلك، لكن الملل الذي تسلّل إلى روحي في البداية ببطء شديد تفاقم إلى درجة لا تُطاق وقد أصبح هو الآخر ثابتا ثابت الزمان المشلول. كانوا ينظرون إليّ بذهول محاولين التغلب على بلادة حسن متزايدة العمق وأنا لا أكف عن الصراخ في أذانهم: ألم تفهموا أننا نعيش أفضع عقاب لرفضنا أول قوانين العالم السوي؟

هكذا حكموا عليّ بالشيخوخة الأبدية. كان ذلك مكتوبا في قوانيننا وكنث أول مذنب في عالم الخلود. كان رجوع الألم كرجوع المطر بعد الصيف. انتعشت روعي فترة، لكن الألم المؤبد مثل اللذة المؤبدة، وضع لا معنى له. نعم، كما لا معنى للخلود باللذة القصوى الثابتة ابد الدهر في الجنة لا معنى للخلود وسط النيران ابد الدهر في جهنم... ومن ثم وصول العقل الجماعي تدريجيا إلى استنتاج رابعة العدوية وهي تركض حاملمة في يدها اليمنى دلو ماء وفي يدها اليسرى شعلة نار فقيل لها إلى أين أيتها السيدة فقالت "إلى الجنة لأحرقها وإلى جهنم لأطفئها حتى لا يعبد الناس الحق (الله) عن طمع أو خوف".

بوركت أيتها المرأة النبيلة لا رسالة أهم من هذه لنرتحل جميعا في هذا العالم أحرارا لا يرهبنا خوف لا يذلنا طمع. يتوقف الشيخ ماسحا دمعة خجول ثم يستأنف رواية أغرب قصة للأدبيين مذ وجدوا. تدريجيا نما الوعي داخل الجميع أنني على حقّ والكل يكتشف يوما أننا أصبحنا سجناء زنزانة لن يحررنا منها إلا رجوع الموت.

كيف السبيل إليه وقد وضعنا في الزمردة أمر إلغائه وتعليمات التصدي لأي واحد منا يحاول إلغاءه؟ بصفتي أول متمرّد عهد إليّ بالبحث عن حلّ. الوحيد الممكن اصطفاء منقذ لا تعرفه الزمردة وبالضرورة من خارج المحمية. كنّا قبل هذا القرار نرعاكم كقطع، كحقل تجارب ممتعة. كنّا نجرب عليكم نظرياتنا، لنرى ردود فعلكم على هذه الديانة أو تلك، على هذا النظام السياسي أو ذلك، على كل ما يخطر ببالنا من الكوارث الطبيعية نقيس طاقاتكم وحدودها. فجأة أصبحتم أملنا الوحيد. قلّت يجب تكثيف التنكيل بهم على مرّ العصور لاصطفاء أكثرهم جرأة وذكاء وحقدا وتصميما على تدميرنا ثم ندخله القلعة وندله على مكمّن الداء.

كنت يا زاردوز آخر حلقة من سلسلة طويلة من المحاولات الفاشلة. كم تطلّبت من جهد حتى تكون جاهزا. ها قد نجحت حيث أخفق قبلك كم من مُغامر صنيدي. بوركت، بوركت أيها المنقذ.

تعديل النص لنفس الرواية للتجديد في اسطورة آدم

الشيخ: وبصفتي أول متمرّد، عهد إليّ بالبحث عن حلّ. ما العمل وأنا أكتشف في آخر رحلة تفقدية أن الأدمية انتحرت على أسوار الجنة وأنها انقرضت كليا. لم يبق غير البحث عن حلّ داخلنا. لم يكن الأمر سهلا والأغلبية تعيش في حالة ذهول دائم. ذات يوم واجهته، هو الرجل الذي أعاد لي الأمل. كان، لسبب ما، غير واقع تحت تأثير التخدير العام وكان يتكلم بصفة غير معهودة. يوم اكتشفت أنه يخطط للفرار للعودة إلى حيث الزمان، قلّت لا بد أن أعينه، لكن يجب إقحام تلك المرأة المسماة حواء في العملية فهي أيضا من نفس الطينة. إنهما أملنا الأخير في ولادة أدمية جديدة تخرج من العدم للوجود تعيد لنا هدية الحياة وهدية الموت.

أوحيت لهما بالهروب إلى ابن لا سلطة للزمردة، سهلت لهما الأمر بكل ما استطعت من تخريب أجهزة الرصد ومنذ ذلك الزمان وأنا انتظر أن يأتي من ذريتهما المنقذ لنخرط نحن أيضا مجددا في سيل الزمان. مواصلة الرواية الأصلية للفيلم

أضاف الشيخ وقد داهمه نفاذ صبرٍ دام كم من أبدية:

- هلمّ، خلّصني من كابوس هذا الخلود اللعين. اهدني الطعنة التي ترجيتها كل هذه الأحقاب. تمهّل لأشعر ببرودة النصل وهو يغوص بين ضلوعي. أريد أن أتمتع برؤية الدم وهو ينفجر أخيرا خرا طليقا من شراييني. أريد أن ألمسه، أن أشعر به ساخنا لزجا يتدفق كالشلال، أريد أن أملأ نظري منك وأنا على وشك نوم بلا إفاقة.

قالت مقاطعةً الشيخ برقةً ويدها على ذراع المنقذ: أنا التي قُدت داخل الهيكل. نصله لي قبل كل واحد منكم. يتردّد المنقذ ثم يأخذ قراره. يغرس خنجره في صدر الشيخ بلطف فائق وهو ينظر إليه مبتسما فيلفظ المتمرّد الأول أنفاسه وكأنه في ذروة الجماع.

تلقت آدم لحواء ليعلمها أنه يفضل أن تعيش معه تجربة حياة معفاة من الخلود. تتردّد حواء في قبول مواصلة البقاء. تنتبه إلى أن الزمان الحبيس سيعود للتدفق وأنها ستعرف تتابع الحلو والمرّ إلى آخر العمر. تأخذ بيد حبيبها وتخرج إلى عالم استعاد توازنه لتعيش إلى العمر الذي يصبغ الشعر ببياض المهابة والجلال، لتعرف اللحظة المهابة المهيبية وهي ترحل كما رحل الأدميون بين فرح الراحة الموعودة ورهبة القفز في المجهول. ولأنه لا بد لكل قصة من عظة، فعظة هذه القصة أنه إذا اعترضك بائع لبق يريد بيعك الخلود في الجئة بأخر درهم في جيبيك. فكّر مليا. مؤكّد أن هناك استثمار أحسن لدرهمك الأخير.

*

كل هذا الكلام مقنع... لكن،

نعم للعقل الحق في رفض فكرة مكان لإشباع كل الشهوات دون وجود محركها وشرط وجودها الذي هو الحرمان أو فكرة وضع لا يتغير أبدا هو الذي رصد باكرا أن أولى وأهم خصائص هذا العالم عدم الثبات على حال. لكن ماذا عن موقف الفؤاد؟ أليس من حقه هو الآخر رفض أن يقودنا الطريق شئنا أم أبينا إلى حافة هاوية مظلمة بلا قاع تُدفع إليها دفعا؟

كيف لا نتفهم شدة انكاره أن تتوج الرحلة بمثل هذا النهاية العبيثية والمخلّلة بالكرامة. كيف ستواجه الرؤيا من جهة رغبة الذات العارمة في ألا تتوقف الرحلة أبدا ومن جهة أخرى ضرورة نهايتها وأي بديل للجنة يمكنها عرضه عليها لا يتنكر لقواعد المنطق وقوانين العالم؟ عودة للأسس التي نبني عليها بيتنا الروحي.

لنعتبر التصور القديم للجنة الذي ذهب ضحيته أبطال الفيلم بكونه مثل العملة المزيفة التي تحاكي وتشوه العملة التي تقضي الحوائج ولا تتسبب في مشاكل قانونية لمستعملها.

كيف سنهندس هذه العملة التي لا تخدع مستعملها ولا تشتري الأوهام؟ مرة أخرى بالاحتكام للتفكير العقلاني لا لشطحات خيال يهبنا بكل سخاء كاذب ما نطلب وزيادة. أليست أقصى وأرقى أنواع المتعة المفروض وجودها في الجنة هي راحة البال أي الحالة التي تصبح فيها الذات خارج منطق الجري وراء الشهوات لا تبالي بما تحقق منها أو لم يتحقق.

مثل هذه الحالة لا تعاش كما يعرف ذلك كل مصاب بلعنة الرق إلا إبان نوم هنيء لا تتخلله الكوابيس... أو عندما يكون النوم بلا يقظة ترجعنا لنفس المهازل والمآسي. إنها الحالة التي يسميها الفلاسفة في أساطيرهم النخبوية العدم والتي لا مدخل لها إلا الموت.

على فكرة إنه حسب أساطير الهندوس والبوذيين المحطة النهائية للرحلة أين يتم إعتاق المرتحل من كل عودة جديدة للعالم في أي أفتار كان.

مقاربة أولية لتصوير هذا العدم: اعتبار شبيهه في الفضاء الحسي... هذا الذي نسميه الفراغ. ما يخبرنا به أهل العلم في فيزياء الكم ان الفراغ ليس... فارغا. حقا هو الفضاء الذي تتناثر فيه كل مكونات الكون سواء التي ما زالت قائمة الذات أو التي فككتها قوى الدمار. اخرج منه بقدرة الخيال والفكر كل الموجود فيه أكان بحجم المجرات أو بحجم الذرات. أبقى في "الوعاء" شيء؟

نعم، ثمة دوما في أعماقه مكونات -عوامل- قوى مجهولة بالغة الصغر، بالغة الرهافة، بالغة التعقيد تتحدى كل محاولة التخلص منها. هي ليست بقية بقايا البقايا وإنما أمور أخرى تتحدى طرق فهمنا وتصورنا للواقع. هذا الفراغ غير الفارغ -دوما حسب هؤلاء الرواة- هو محضنة القوى التي تخلق باستمرار ما سيطفو على السطح والذي سيلتقطه وعينا كجملة الكيانات والكاننات التي تشكل الواقع. قياسا على تصوراتهم لنعتبر أن العدم نهاية الطريق أين ستفكك لا فقط أجسادنا وإنما ذاكرتنا التي جمعت الذات فيها كل تجربتها.

لكنه أيضا حاضنة القوى التي تعيد تركيب ما تفكك وإن في أشكال جديدة لا تكف عن استكشاف كل إمكانيات الخلق والابداع. بعبارة أخرى هذا الذي ينتهي فيه كل وجود هو الذي ينطلق منه أي وجود.

ها قد بدأت تنتظم أفكارنا حول كيفية تلبية الحاجتين المتناقضتين لنخصص في بيتنا الروحي جناحا خاصا اسمه العدم للذات المرهقة الموحوجة وعلى بابها توضع لافتة تُطمئن النفوس القلقة الخائفة من تجدد المحنة والامتحان. "لا استدعاء إلى الخدمة من جديد... أي في شكلك الماضي وفي القصة التي عشت". في هذا الجناح الخاص تبلغ راحة البال قصوتها ولا تحديد لمهلة متعة المتع.

في جناح موازي أين الخلود ليس الثبات على المخلوق وإنما الثبات على الخلق، تتجدد الذات في ألف شكل وشكل لمغامرات لا تعرف لها بداية أو نهاية.

عودة أخيرة لأسطورة آدم لتعديل جديد. لنقل بعد أن نضجت تصوراتنا أكثر أن آدم خرج طوعا من جنة لم تكن جنة الحواس كما تصورها أوائلنا وإنما من اللاموجود بما يوفره بسخاء من مطلق الراحة قابلا بالوجود رغم كل مصاعبه وأخطاره مدفوعا من "الشيء" الذي يسكنه لأنه لا مجال لوقف عملية الخلق.

هل ثمة حالة نتخلص فيها من عبء الشهوات جريا وتمتعا وحرمانا أروع من راحة البال، الحالة التي لم تعد الذات تهتم فيها بما تحقق وما لم يتحقق من شهواتها؟ وهل ثمة أحسن من النوم ومن الموت للتمتع بهذه الجنة الحقيقية؟ النوم موتة قصيرة! الموت نوم طويل! والوظيفة في الحالتين واحدة: من جهة إعطاء الذات فترة لراحة البال ومن جهة أخرى تمكينها من فرصة لالتقاط الأنفاس تأهباً لتجديد الذات والعالم!

كما تعسفنا على علماء فيزياء الكم باستعمال بعض مفاهيمهم لنستغلها في بناء مفاهيمنا سنتعسف الآن على علماء النبات لنستنتج من اكتشافاتهم ما لا يجرؤون عليه من أفكار، حقا هي من خارج ميدانهم.

مثال الشجرة مرة أخرى طريقة أخرى لتوضيح فكرة ليست سهلة الشرح للكاتب أو سهلة الفهم للقارئ. اعتبر الورقة التي تذبل وتنفصل عن الشجرة. إنها مجرد وعاء مؤقت لأهم ما فيها، أي العصارة التي كانت تضمن لها البقاء حية ملتصقة بالغصن متواصلة مع الجذع والجذور وبقية الأوراق.

هذه العصارة واحدة في الجذور والجذع، في الأغصان وفي كل الأوراق. هي لا تنتهي بسقوط هذه الورقة أو تلك، بقطع هذا الغصن أو ذاك بما أنها تواصل فعلها في كل غصن وفي كل ورقة. بنفس الكيفية اعتبر الذات كما لو كانت هذه الورقة.

هي طبعا الغلاف الجسدي الذي يفصله الموت عن "جذع" الجنس البشري كما يفصل الخريف ورقة الشجرة عن الغصن والجذع والجذور. لكنها أيضا العصارة.

هذه العصارة هي الحياة، بما أن الذات تحتوي على كل العلم الهائل الذي راكمته الحياة طيلة ملايين السنين الهائل وهي نفس العصارة الموجودة في كل النوات الأدمية وغير الأدمية.

هذا ما يسمح للرؤيا بالتوفيق بين ما لا يبدو قابلا للتوفيق فقط بالتركيز والتذكير بما نتناسى.

كورقة الخريف تفقد الذات بالموت جسدها، لكن الحياة التي شكلت عصارته لا تموت وإنما تواصل ضحاً طاقتها فيما لا يحصى ولا يعد من النوات الأخرى. مما يعني أن لكل ذات جزء فان وجزء وإن كان ليس خالدا فإنه قديم قدم الحياة وأمامه فسحة من الزمان لا أحد يعرف متى ستنتهي.

لقاتل إن يقول، لكن البشر ليسوا أوراق شجرة وكل كائن فريداً متميزاً يُضَيِّع الموت طرافته!

ما الذي كانت الحياة ستجني لو حافظت على نفس الأشكال، نفس الحالات، نفس الأجساد؟ بل ما الذي كنت ستجني أنت من مثل هذا الخيار سوى قرف الخلود بفهمه البدائي. أليس التجديد والتغيير أولى شروط وضروريات حياة جديدة بأن تُعاش؟ انظر الآن كيف يتحقق -دون التعسف على منطق- كل ما تريده الذات: القيلولة الأبدية للجزء المرهق -أي الورقة التي تسقط عند قدوم الخريف- وقد جفت فيها العصارة... وخلودها عبر تواصل عصارته في كل ذات هي بالضرورة ذاتها والذات الأخرى أي نفس الذات الأزلية التي لا تتوقف منذ الأزل عن الموت والبعث.

كم صدق حدس الشاعر

"أنا في الزمان كموجة في زاخر (إيليا أبو ماضي)

أنا فيه إن يزيد وإن لم يزيد

مهما تلاطم فهو ليس بمعرقى

أو مخرجي منه ولا بمبدي"

**

الخبر الطيب أو كيف تجعل الرؤيا رحلتك لا تنتهي إلا لتتجدد في ما لا يحصى من الإمكانيات

لا أحد يتذكّر كيف كانت مشاعره قبل أن يلفظه الرحم ولا أحد أبقي لنا أبلغ وصفٍ عن لحظات غرغرة الموت.
هكذا حكم على الرحلة أن تبدأ بالغموض وأن تنتهي به.

لتعويض البياض في آخر صفحة نصوص رحلات كل الذين حجوا قبلنا لهذا العالم، إليك هذا المشهد يتخيل الأحداث أو يستبقها:
يتصاعد من مكبر الصوت همسٌ رقيق: الرجاء من مسافري قاعة الرحيل رقم خمسة التقدّم حاليًا إلى بوابة المغادرة.
يتوجه المغادرون إلى الباب الدوّار وعلى الوجوه قلق لا ينجحون في إخفائه.

آه هذه الدنيا التي أن الأوان لتوديعها!

تَمَلَّكْهَا الْآتِي تَمَلَّكْ سَالِبٍ وَفَارَقْهَا الْمَاضِي فِرَاقَ سَلِيبٍ (المتنبى)

بعضهم يجزّون حقائب مثقلة كأنهم يريدون تهريبها إلى العالم الآخر. عبثًا، سيصادرها موظفون لا يقبلون رشوة ولا يستثنون
أحدًا لشدة حرصهم على بقاء الحدود مغلقة بين العوالم وإلا اختلط الحابل بالنابل وضاعت طرافة كل عالم.
من مقعد شاغر بغرفة الانتظار أتابع بالبصر وبالخيال الذين وصل طريقهم مثلي لآخر مفترقاته في هذا العالم.
كم أودّ أن أسألهم واحدًا واحدًا: ما تقييمك للتجربة؟

أستقبل بالعودة لهذا العالم لو عرض عليك الأمر؟

هل أنت مؤمنٌ يرتعش من الخوف جراء حساباتك غير المضبوطة مع السلطات التي تنتظرك وراء الباب، أم مُلحدٌ مُطمئنٌ
لعودته لأحضان العدم، أم من أنصار الرؤيا تنتظر بفارغ الصبر الراحة الأبدية والتجدد الأزلي؟

على فكرة عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، وقبل أن يصل بنا الطريق لمفترق الوداع الأخير، هلاً أشبعت فضولي بالرد
على سؤال تابعتني طوال الحياة دون أن أتجاسر على إلقائه يوماً على أحد: هكذا كانت رحلتي، فهل تشبهها كثيراً رحلتك؟ هذه
قصتي، هل وجدت نفسك فيها وهل هي حقًا -كما أردت- في التفاصيل سيرة ذاتٍ وفي الثوابت سيرة كل ذاتٍ؟

بديهي أن قصة كل فرد منا/ مواصلة -تنويعه- تجربة أخرى / لقصص كل الأدميين التي هي/ مواصلة -تنويعه-
تجربة أخرى / لقصة الأدمية التي هي/ مواصلة -تنويعه- تجربة أخرى / لقصص كل الأجناس الحية التي هي / مواصلة
-تنويعه- تجربة أخرى / لقصة هذا العالم التي هي / مواصلة -تنويعه- تجربة أخرى / لقصص ما لا يحصى ولا يعدّ من
العوالم... التي هي / مواصلة -تنويعه- تجربة أخرى / لقصة " الشيء " التي هي ؟؟؟؟

يعود الصوت الناعم إلى ترديد نفس الجملة الركيكة، هذه المرة بتخصيص يبدو مقصودا وبنبرة تبخّرت منها محاولة الإغراء:
الرجاء الآن من السيد غريب التقدّم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة.

السيد من؟ لا علم لي بشخص يحمل هذا الاسم. أواصل قراءة الجريدة ورشف القهوة أفتعل اللامبالاة محاولا التركيز على
آخر عملية تنظيم ملفاتي المبعثرة.

فجأة يتجدد النداء بحدّة تنمّ عن توترٍ عصبي لا زال في بدايته: المطلوب من المدعوّ غريب التقدّم إلى بوابة رحيل القاعة رقم
خمس، الآن وعلى وجه السرعة ودون المزيد من إضاعة وقتنا.

ثرى ما سبب عدم حضور المطلوب؟ ربّما لا يزال يثرثر في صالون حلاقة المطار، أو يتسوّق في المحلات التجارية المعفاة
من الجمارك، أو أن المنية لم يرنّ في غرفة النزّل، أو أنه رنّ فهشمه بقبضة يد نافذة الصبر. ربما لم يُكمل بحثه ولم ينته من
تدبيح تقريره وبالتالي قرّر من تلقاء نفسه تمديد رحلته. برّبك أيُّ تقريرٍ جدّيّ يمكنك كتابته وهذا عالمٌ عبرته كمن يزور مدينةً
سياحية مترامية الأطراف بين طائرتين... عالم مثل فيلم ندخله بعد بداية العرض، يُطلب منا الخروج قبل نهايته ولا يُعطى لنا
حتى الوقت الكافي لاكتشاف أحسن وضعٍ للجلوس.

يقطع عليّ تسلسل الأفكار صوت لم يعد ناعما ولا حتى أنثويا: يا غريب إن لم تتقدّم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة حاليًا
فسترى ماذا سنفعل بك.

كل هذه الإنذارات بلا تأثير على صاحبكم، حتى والنداء يصبح صراخا هستيريا: آخر إنذار يا ابن الكلب، وبعدها تتحمّل
مسؤولياتك.

متى كان الأول؟ وصول سنوات الخريف بأسرع مما كنت أتوقّع؟ ظهور ذلك الورم اللعين؟ صحيح أنني نجحت في علاج
أغلب أمراضى بالتجاهل، لكن ذلك النوع البليد منها لم يتبخر بمحاولة إيهامه أنني لسْتُ أنا المعنيّ بأعراضه المزعجة.

تفتّ فؤادك الأيام فتًا وتتحث جسمك الساعات نحنا (الالبيري)

وتدعوك المنون دعاء صدق ألا يا صاح أنت من أريد أنتا

يصرخ الآن في المصدح دكّر يبدو أنه أخذ الملفت على عاتقه: تعال يا روح أمك، طلّعت روحنا، الله يطّلع روحك.

يضيف وكأنه لا يتوجّه لأحد بالخصوص: من يصدّق أن هذا البليد صدّع الرؤوس بالشكوى من العالم ولم يفوّت فرصة لثتمه. الكلب ابن الكلب، بعد نهاية الدوام الإداري سيعود هو وكم من غبيّ آخر إلى بيته وأنا من سيّقضي ليلته الأولى في القبر. ينفجر الكلب ابن كلب المذكور أعلاه بضحكة فيها من المرح ما فيها من الشماتة: أنه من قوم حاول نبيهم أن يُعلّمهم أنه لا أكل إلا على جوع ولا أكل بعد الشبع، لكن صاحبنا أكل كثيرا ولم يشبع أبدا وها هو الآن مثلهم كلهم متمسك بأنيابه وأظافره بخشب الطاولة.

حقا أغادر الوليمة جانعا؟ كلا يا لكع بن لكع ، نلتُ من الحياة كلّ ما بوسعها بذله.

(شاعر مجهول على الانترنت)

"طلبُثُ القوة من الله

فأعطاني الصعوبات لأقوى

طلبُثُ العلم

فأعطاني مشاكل للحلّ

طلبت الرخاء

فأعطاني عضلات للعمل

طلبُثُ قدرة الطيران

فأعطاني عقبات أتسلقها

طلبت الحبّ فأعطاني كائنات بحاجة إلى حبي

طلبت امتيازات

فأعطاني مواهب

لم أحصل على أي شيء مما طلبت

لكنني تحصّلت على كل ما أحتاج".

نعم، ممنوع على الذات بحكمة ربانية تحقيق كل شهواتها وأهدافها مهما تشنجت وتوترت، إذ لو تحققت هذه الشهوات والأهداف لأصبحت القوى المبهمة التي تعطي لحياتها وهجها تدور في الفراغ.

يزداد الوضع احراجا: صراخ متفاقم الحدة وبداية تجمّع حولي.

كم مرّة يجب أن أردّد لهم أنني بحاجة إلى وقت أطول للتأكد من صلابة الرؤيا، ربما لإعادة بنائها على دعائم مختلفة، فيهزون الأكتاف باستخفاف، بل ويصرخون في مكبر الصوت بقلة أدب: تعال يا روح أمك طلّعت روحنا.

مهما صرخوا لن أتحرك من هذه الأريكة الوثيرة. ما هذه العجلة؟ أنا شخصا مع العجلة في كل شيء لكن ليس الآن وفي مثل هذا الموضوع.. نعم ما زال لي كثيرٌ من الأسئلة أود طرحها على الأدميين وقد حافظ جلهم على أسرار مكنونة لم أتمكن من فهمها ربما لأنني لم أحنهم بما فيه الكفاية.

كم بديهى الردّ على السؤال سيّد الأسئلة. كلنا في هذا العالم ليخلق "الشيء" عبر حواسنا وأفكارنا وخيالنا عالما آخر، لكي يجرب عبر ما نُمثّل من الأدوار وما نعيش من القصص كيف يكون الوجود آدميا لا بيالي في استكشافه هذا أن يعيش أروع الحالات وهو المحب المحبوب، وأفظعها وهو الضحية والجلاد.

ولأنه هونحن، ولأننا نحن-هو، فإن "الشيء" لا يجرب فينا إلا على ذاته، ونحن بدورنا لا نجرب كل ما نجرب من نجاح ومن فشل، من يأس ومن أمل، من سعادة ومن شقاء، من مصاعب الحياة وآلام الموت إلا... به وله.

من هذا الغبي المنتصب أمامي؟ الغبيّ المعني بالشتيمة، كائنٌ من هيكل عظمي يحمل منجلا يربت به على كتفي: يا الله، أمامي يا فخامة الحاج الأستاذ الدكتور الرئيس ولا داعي لإجبارنا على استعمال القوة.

العالم الآن يرمي في وجهي فُفاز التحديّ الأخير: بعد نجاحك لا -أدري كيف- في مواجهة صعوبات الحياة، ها هي صعوبة مواجهة الموت، أرني براعتك.

عشنا وجسر الموت قدّامنا فشمر الآن لكي تعبره (المعري)

يا رؤيا، حان وقتك. ألم أعدك طيلة هذه السنين لهذه اللحظة، لا تخذليني.

تقول صارخا أنت الآخر: ألم تقل إن الموت ككائن بشكل هيكل عظمي أو ملاك خبيث النوايا، أليّة مشقوقة من بناية متداعية سيئة الهندسة... وتعود إلى الحديث عنه كالآخرين. كيف تريدي أن أخذك على محمل الجد؟

ما لكم كلّكم معي هذا اليوم؟ وعلى كل حال متى كنت متوافقا طول الوقت مع آرائي حتى أطالب الآن بشيء كهذا؟

هنا أسلط عليك نظرة أتكلّف فيها كل الممكن من البرودة علّها تثير فيك قشعريرة الرعب: اسمع يا هذا، إن واصلت إزعاجي سأهمس في أذن عزرائيل أنك تشتمه في غيابه، أنك تردّد في محافلك أنه إن تجاسر على المثل بين يديك فستطرده شرّ طرده تركله عند الباب في مؤخرته العظمية. آنذاك تدبّر أمرك معه وحاول تكذيبي إن ترك لك الوقت. كل هذا الكلام لا يؤخّر ولا يقدم. عليّ الإسراع بإتمام وصيتي والتأكّد من خلّوها من الأغلاط. وصيّة؟ يا مسكين هل نسيت كم من مواعظ ذهبت أدراج الرياح والنتيجة حالة العالم الذي تغادر! يتواصل الشدّ والجذب داخلي حتى في هذه اللحظة كما كان الأمر دوما طيلة الحياة. ماذا تعلمت أنا نفسي لأدعيّ تعليم من لم تعلمه الرحلة أهمّ ما يجب ان يعلم؟ نعم لكن ألم أجد عند كبار الرحالة ما هداني إلى كم من معلم في مختلف فضاءات هذا العالم كنت أموت غمّا لو لم ينبهني أحدٌ منهم لوجوده؟

خلاص، فرغت من كتابة هذه النصائح على الطائر كما يقال خاصة الأسطر الأخيرة لمعلقتي. لم يبق بعد وضعها في زجاجة ورمي الزجاجة في أوسع البحار غير الإستئذان والتوجه للباب الدوّار. أمام آخر مفترق طريق لي في هذا العالم الخيار بين روايتين لما حدث. [الأولى التي يجب أن يكذبها تلامذتي باستنكار شديد] أنني نهضت من مقعدي خائفا مرتبكا، أنني أدركت البصر باحثا عن مَهْرَب، أن عزرائيلهم انتبه لمخططاتي البائسة، أنه رمى بيده على عنقي آخذا بخناقِي، أنني أفلتُ منه بحركة بارعة حاشرا جسمي تحت الأريكة بسرعة أدهشته، أنه بدأ في إطلاق الشتائم البذيئة صارخا أنه ملّ هذا العمل وسيطلب من يافيه تغيير وظيفته، أنه صرخ وهو يجذبني من تحت الأريكة صارخا أه يا ظهري ، أنه استعان بكل مضيفات خطوط الآخرة الجوية، أنني كنتُ أصيح طول الوقت: النظارات، النظارات، أمي امرأة فقيرة ستغلق باب غرفتها لتُخفي بكاء الغيظ والقهر، أنني وقد جروني جرّا من تحت الأريكة ففزتُ على ظهر عزرائيل حيث لا يستطيع مسك خناقِي وأنا الممسك بخناقِهِ، أن اللعين اكتشف الحلّ فركض بي نحو الباب الدوّار وأنتي بقيتُ أحملق في كل اتجاه بكيفية تثير الازدراء، إلى أن رماني وراء الباب وهو ينفض عن ظهره بقايا غباري مستعيذا بالله من هذا الرهط من البشر. [الثانية التي يجب أن ينشرها تلامذتي، ليس شغلهم مبالغاتها الكثيرة] أنني نهضت من مقعدي متنفسا الصعداء وقد استطعتُ إكمال كتابة الورقة، مُصافحا عزرائيل بلامبالاة غير مفتعلة، أنني دعوتُه إلى المشي أمامي فقال بل تفضّل فأنت المدعوّ الشرفي، فتفضلتُ قاصدا الباب الدوّار بمشيتي العسكرية، أنّ المسكين ركض ورائي غير مُصدّق أنني لم أعضّه كما كان يتوقع، هو الذي صدّق -مثل الكثيرين- كلّ الإشاعات عني، أنني غافلته لألصق على باب الرحيل خلاصة الرويا قبل أن أحشر جسمي في الباب الدوّار مديرا ظهري لما مضى فاتحا ذراعيّ لما سيأتي. يتوقّف الطبيب عن إنعاش عبثي محدقا بانتباه مفاجئ في العجوز. هل داهمته أبياتٌ لشاعرٍ فيلسوفٍ أعمى، عن الحياة كرحلة تنتهي عند جسرٍ أن أوان عبوره؟ ينصرف لا يُخفي تأثره، تتبّعه ممرضات يُخفين حزنا غير مُبرّر.

تري ماذا أضافت قصتي لهذا العالم وهو بكل هذا الزمن وبكل الزخم؟ السؤال داخل السؤال وما الذي تضيف القطرة للمحيط... ما الذي تضيف حبة الرمل للصحراء... ما الذي يضيف نجم يتيم للكون الشاسع؟ الأقلّ من القليل طبعاً... لكن هل للمحيط كيان خارج القطرات التي تكوّن... هل ثمة صحراء دون حبات الرمل التي توّجدها وهل للعالم قصة خارج قصتي وكل ما عاش من القصص الأخرى؟

يهمس شبخ: لا تخف، الجسم مهياً للأمر، يفرز المادة التي يفرزها عند نشوة الجماع ليسهل العبور. ومما يقال أيضا عن هذه اللحظة المفصلية ان المرتحل يستجمع وهو يطلق آخر أنفاسه أهمّ لحظات حياته المنتهية. تتدافع إلى سطح وعي متسارع الانحسار أقدم أحاسيس وأثمن مشاعر الرحلة ... أصوات لخلخال وأساور أم تقترب... لذة المشي حافيا على العشب المبلل بقطر الندى، على رمل الصحراء عندما يأتي المساء، أو في وجه الريح وزوبعة الثلج ... رائحة الأرض بعد المطر... نفحات الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت... لمن يتوجّه الطفل بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشبّب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب... الحوت! الحوت! يا إلهي، قطع كامل من الحيتان! ... هذا تاج طفلة أعلنتها ملكة هذه الربوع وتفيحه ولية عهدا... كم وقف عند هذا الجبل من رُهبان وشعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع

الضباب، لمجرد إلقاء نظرة خاطفة على قمته قبل أن تلتحف مجددا بالغزابة والسر، ثم انصرفوا لا ينبسون ببنت شفة... وأروع شهادة عن هذا العالم أغنية "What a wonderful world ... نعم نعم، في أي عالم آخر سارى مثل هذه الأزهار! وسط النفق الرابط بين العوالم ألف طريق وطريق. الغريبُ العائد إلى وطنه الآن أمام باب مهيب يُفتح ببطء وجلال. على ماذا؟ على الفضاء الذي تتداخل فيه العوالم لا فرق بين التي تبلورت في الواقع والتي ما زالت أجنة في رحم الخيال. تتدافع الكائنات المشاريع في كل الاتجاهات.

آه، أنت من كنت "ما"! ماذا؟ أتعبتك كثيرا، لست الوحيد، لست الوحيدة، لا أدري هل أخاطبك بالتأنيث أم بالتذكير وهل للأمر معنى "هنا"، على كل حال برافو، أحببتُ أداءك... من رأى "أين في الناس"؟ ... أخذ ملقه للمهمة الجديدة غاضبا وشم كل من سلم عليه بحرارة واختفى! يستأهل أن يصبح حيوانا برأسين يعيش في جوف نجم من مجرة العقرب... آه، هذا أنت من لا عيني دور "ح"! ... لماذا لم تردّ أو لم تردّي على سؤالي وأنا أضمك بين ذراعي؟ ... لأنني كنت أعلم الرد... ولو... والآن إلى أين...؟ صعب عليّ فراقك... رأيت في مرآة ذاتك أجمل صور ذاتي وأجمل صور الأدمي... تقابلنا في حلم، عشنا في حلم، نفترق في حلم... لم لا يكون لنا لقاء جديد في حلم لم يحلمه قبلنا أحد؟ آه، لا فائدة من تكرار نفس القصة... خلاص، اذهبي أو اذهب في حال سبيلك... رجاء لا عودة إلى التدخين وجملة إنها سيجارتي الأخيرة... آه، هذا أنت، يا من كنت لي ابن الخال! ... ألم تخجل من تركي وحدي لا أعرف مع من أتسلق الأشجار وأسرق لوز الجيران... غفرتُ لك أنك كنت أول من بتّ في هاجس الموت... حظًا سعيدا في رحلتك المقبلة وحذار من حصباء العوالم المجهولة... أنت "هنا"! كنتُ أظنك ما تزال تناضل، أما زلت على عداوتك لي؟ ... آه كنتُ تمثّل! طبعًا وأنا أيضا، كلنا كنا نمثّل على أنفسنا ومع بعضنا البعض، بصراحة كنتُ لاعبا ماهرا وخبيثا، أجبرتني على أن أستلّ من أعماقي كلّ طاقتي لمواجهة ضرباتك الموجهة... وأنا أيضا أوجعتك كثيرا! شكرا على الثناء... وأنت، من أنت، لا أتذكرك؟ ... آه، المسكين الذي عرض عليّ الزميل أكل كبدك ونحن نشرحك؟ كنتُ تسمعنا! ... حتى الخرفان هنا! كيف؟ تركك تنتظر الذبح تحت أشلاء عائلتك وخبيث ظنك لما فررتُ أغالب الغثيان! يا خروف سابقا، أولا لم يكن معي مالٌ كافٍ لشرايك أنت وكل العائلة، ثم ماذا كنتُ تريدني أن أفعل بكمشة خرفان؟ أن أذهب بكم للاجتماع الهام! على فكرة، أن تجد متعة في الوثوب نسرا من أعالي السحاب على طريدتك أو أن تنقّص عليها نمرا من خلف الأعشاب، وحتى أن تظفر بالحياة ركضا وأنت الغزال الذي يتنفس في عنقه الأسد، أمرٌ مفهوم. لكن ما الذي دهك لتجرب شيئا بغباء الوجود خروفا؟ آه، لم يكن ذلك مشروعك الأخرق الوحيد. سأقتعل عدم فهم التلميح... تنتهّد أن الوجود لم يكن أسهل في أي من عوالمك الأخرى لكنك ستواصل التجربة حتى بالشطط في ثمنها لِملاحم أكثر إثارة وخطرا. موافق، موافق، خاصة أكثرها خطرا... لا شيء أحبُّ لديّ من الأخطار... بالمناسبة تهانيّ الحارة وأنت-أنا-هم كلنا تلك السلحفاة المولودة الجديدة تركض نحو البحر والطيورُ الجائعة تنقض عليك لتخطف حياة في أولى بداياتها... يا ما أظهرت-أنا-أظهرنا-ما أظهرنا من شجاعة تلك الليلة ثم بقية العمر وأنت-أنا-نحن نصارع محيطا كاملا للبقاء... أنجح أدوارك-ادواهم-ادوارنا على الإطلاق...ماذا عن مغامرتي-مغامرتك-مغامرتنا المقبلة؟ الأمر كما تقرر من الأزل لما تجود به شطحات الخيال وعطايا المفاجأة ...

أجرّ الصور التي تعبّر زهنا بصدد إغلاق آخر ملفٍ شبح شيخ مُنخن على الأرض يضرب بمسحاته القصيرة الأرض ببالغ اللطف، كأنه يخشى عليها من الوجع، يعدّ الصحراء لوعد القمح إن جادت السماء يوما بالمطر. حانت اللحظة القدسية التي تتفكك فيها النصوص إلى الحروف الأولى، التي تتفكك فيها السمفونيات إلى الأصوات والصمت، اللحظة القدسية التي تُعيد فيها اليد الخفية خلط الأوراق ليتخذ الهباء أشكالا لم توجد من قبل، لتتنظم الحروف في نصوص تجدد القصص، لتتجمّع الأصوات في أصناف من الموسيقى لم تعرف سحرها ذات.

يتسارع التوغّل في أعماق ذاتٍ بصدد إطفاء الأنوار داخلها. شيئا فشيئا تخفت أصوات قطرات مطر يرتطم بزجاج النافذة. يتوقف عازف البيانو عن النقر. يبهتُ تدريجيا بريق النجوم. تتلاشى ابتسامة خجول من الأفق. يتعمّق صمت الصحراء. تتحسر الأوجاع والمخاوف بهدوء كالأمواج لما يأتيها الأمر من القمر. انتهى العالم المنتهي من جمع أشيائه وكلّ أدوات الإغراء.

دمعة حارقة تسيل على خدّ سيسكنه إلى الأبد الصقيع، تذرّفها أصعب بنت على أصعب أب. لم نعد بحاجة للمشي على خدّ والحبیب لا يشاء إلا ما شاء المحبوب، والمحبوب لا يشاء إلا ما شاء الحبيب. يزداد استرخاء شيخ به الآن شبه نفاذ صبر من يعرف أنه في آخر خطوة لملاقاة الموعود.

الانتباه الآن على أقصاه. فجأة يستأنف الشيخ ذلك الحلم الذي توقف ليلة تسلقه وهو في سنواته الأولى سلما سحريا يروم به وصول القمر والتسلل عبره لما وراء ستار الصمت والنجوم والليل. ألم يكن وحده المدرك أنه الكوة البراقة التي تفتح على

عرش فخم يجلس عليه شيخ جبار كان على ثقة أنه سيحضنه، أنه سيلبّي له كل أمانيه، أنه يستجيب لكل صلوات أمه. أخيرا ورحلته شارفت نهايتها يستطيع الحالم حشر جسمه في هالة النور لتعقد الدهشة لسانه. هو الآن وسط فضاء لا يحدّه أفق تتلألأ في كل ارجائه انوار تشع وتنطفئ، تبرق وتخفت، تتجمع وتتطاير كشرار الألعاب النارية. إنها أنوار كل الكائنات التي ارتحلت، التي تتأهب للرحيل... وكلها تنبض وعيا وشعورا، ارادة وذكاء.

داخل الذات الراضية المطمئنة للشيخ-الطفل ثقة مطلقة أنه رجع أخيرا الي مسقط رأسه، الى الوطن الذي لا غربة فيه، إلى اين تشوقت ذاته دوما للرجوع... أنه أمام العرش.

الذات الآن كقطرة عبّرت السماء سحابا عرّفت وقع السقوط على الأرض، ارتحلت داخل زخم السيل وها هي الآن تتسارع إلى المحيط، لتضيق وتتجدّد في أوسع ذاتٍ، في الذات الأوسع.

نعم، إنا لله وإليه راجعون.

افتحي باب شساعتك يا عثمة، إنني جاهز ويا قوى الدمار ترقّقي بأناتي التي أترك، ويا قوى التوازن والتعافي اعطيها شجاعة المواصلّة إلى أبعد نقطة على الطريق.

يدخل البحار في إغفاءة تدوم اللحظة والأبدية، عاد ملتحما بالسماء والبحر.

ثم ينتبه لعودة المدّ انتهى جزر الزمان.

“ما أن جذبت كفني على عينيّ (هايكو عربي مهدي لروح ايسا)

حتى تصاعد الصراخ من ألف ألف حنجرة

وأنا /نحن /هو كل مولود جديد”

**

عالم الأدميين، 350.000 جيلا بعد طوماي، 77حولا بعد هيروشيما

مُعَلِّقَةٌ بِابِ الرِّحِيلِ

أنت كل ذات، كل ذات أنت،
الذات شكل-حالة-لحظة من العالم،
العالم شكل-حالة-لحظة من "الشيء"،
"الشيء" هو كل شيء، كل شيء هو "الشيء"،
مثل "الشيء" كممثل دوحه ولادة يبلى الزمان ولا تبلى،
ثمارها كل ما كان وما سيكون من كائنات-عوالم،
نمل، نحل، قمل، فطر، شجر، بشر،
فيض من المخلوقات، تتبارى غرابة وإعجازا،
تتساوى قيمةً وقداسةً، أمامها تُحنى الهامات تهيبًا واحتراما،
و "الشيء" كالفنان في أوج الخلق، كالطفل في عمرة اللعب،
يستكشف عبرها الطيف اللامتناهي لإمكانيات الوجود،

هكذا بلور من وحي ابداعه عالم السراب هذا،
أقطعه طرفا من المكان، أجازه قبسا من الزمان،
أرسي دعائمه على قوانين هي إرادته،
سن الأوجود فيه إلا وهو صراع-تعاضدا الأضداد،
الأنظام دون الخواء، الأ حياة إلا ومعها الموت،
الألم شرط وجود المتعة، الشر حتى يكون للخير معنى،
الكل آكل ومأكول، الكل فريسة وصياد،
البناء والإعمار من الأزل، الهدم والدمار إلى الأزل،
عالم على أسوأ وضع ودواليبه تصرخ بألم الخطأ والخطيئة،
على أحسن حال ودواليبه الخلاقة تعذل كل عيب بذكاء عجيب،
عالم على الدوام جحيم وسط الجنة وجنة وسط الجحيم.

في هكذا عالم لا خوف فيه من التكرار والملل،
والآدمية الفاعل، المفعول بها والفعل،
يتبلور "الشيء" في كل ممثّل، في كل مُخرج وفي كل دور،
يستكشف عبر رحلة الأفراد والشعوب والأمم،
من الأحاسيس، من المشاعر، من الأفكار، من الأعمال،
ما لم يعيش في أي من عوالمه العجيبة الأخرى،
سيان عنده السعادة والشقاء، النجاح والفشل،
كلها تجاربه على ذاته، تمضي كالكابوس تأتي كالحلم،
وفيك كما لو كنت محاولته الأولى،
كما لو كنت رهائه الأخير،
يواصل سبر أغوار خلو ومّر الوجود إنسانا.

الإنسان شيء كلاً شيء لأنه الجزء في الكل،
الإنسان شيء ليس كمثله شيء لأنه الكل في الجزء،
لا سبب للوجود إلا الوجود، عبث البحث له عن معنى،
لا غاية للرحلة إلا الرحلة، عبث البحث لها عن هدف،
الموت تفكيك القديم لتكوين المفاجئ والجديد،
عند هذا المنعطف من تجارب لا تُعرف لها بداية أو نهاية،
انصرف بلا ندم على ما مضى، بلا خوف أو طمع فيما سيأتي،
أتممت مهمتك على أحسن وجه، توجت هامتك بإكليل الغار أو الشوك،
كيف لا وقد أوجدت عالما طريفا بأسره،
ارتحلت بين أهواله وروانعه،
وأنت شيء من "الشيء" يمشي على قدمين.

* *

شكر وامتنان

جزيل الشكر للمريض العجوز الذي أوحى لي بفكرة هذا العمل وعنوانه.
جزيل الشكر أيضاً لكل الذين أعانوني على الإصلاحات التي لم تتوقف لحظة على امتداد قرابة عقدين
وأخص بالذكر، إسلامو ولد دلاهي ولد المعلوم.
أخيراً وليس آخراً جزيل الشكر للقارئ الذي شرفني بقراءة هذا العمل وكلي أمل أن يكون قد وجد فيه
بعضاً مما نفتح كلنا من أجله الكتب.



المؤلف

طبيب، كاتب، حقوقي، رئيس تونس الأسبق

الكتاب

في المتغيرات رحلة ذات وفي الثوابت رحلة كل ذات